

موسوعة تراثية جامعة
لقصص ونوادر وطرائف العرب
في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد
إبراهيم شمس الدين

الجزء الثالث

يحتوي على:

الباب الثامن: قصص المغنين والمغنيات
الباب التاسع: قصص نساء العرب
الباب العاشر: قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم
الباب الحادي عشر: قصص الجن والشياطين
الباب الثاني عشر: قصص شجعان العرب وفرسانهم

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكـارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبـنـان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الثامن

قصص المغنِّين والمغنِّيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في ذكر المغنِّين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قال في المستطرف[1]: قيل: إن أول مَن غنّى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قينُ ويحك قمْ فهينمْ لعلّ الله يسقينا غماما[2]

وإنما غنّتا هذا حين حبس الله عنهم المطر، وقيل: أول مَن غنّى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنّى أبا عبد النعيم، ومن غنائه، وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قدْ براني الشوق حتى كدتُ من وجدي أذوبُ[3]

ثم نجم بعد طويس ابن طنبور، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرب جميعًا دلفتُ لهم بباطية هدورِ[4]
فلا تشربْ بلا طربٍ فإنّي رأيت الخيل تشربُ بالصفير

ومنهم حكم الوادي، ومن غنائه:

إمدحِ الكأسَ ومَنْ أعْمَلَهَا واهجِ قومًا قتلونا بالعطشْ
إنما الراح ربيع باكر فإذا ما وافت المرءَ انتعشْ

---

(١) المستطرف: ص ٤٢٤ ـ ٤٣٣.
(٢) الهينمة: الصوت الخفي.
(٣) براني: أنحلني، والوجد: الحب الشديد.
(٤) دلفت لهم بباطية هدور: دلفت لهم: أي قدمت وناولت، والباطية إناء كبير من زجاج يوضع فيه الشراب، وهدر الشراب أي غلا.

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشدهم تصرفًا في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يومًا لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين، وكان ابن محرز يغني كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان، وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكرُ أيام الحمى ثمّ أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدّعا
فليست عشيات الحمى برواجعٍ ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عيني اليسرى فلما نهيتها ... عن الجهل بعد العلم اسبلّتا معا

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

ابـن عائشـة

حدّث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان من أضيق الناس خلقًا إذا قيل له غنِّ قال: لمثلي يقال غنِّ عليَّ عتق رقبة إن غنيت يومي هذا، فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق، فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره.

وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجر بفضل ردائه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهم ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما، فقالا: يا مولانا قل ما أمرتنا به، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فامسكاه، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفا به في العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه، فقال: مَن هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: لبيك وسعديك بابي أنت وأمي قال: اسمع مني ما أقول لك، واعلم أنك مأسور في أيديهما، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك في العقيق.

قال: فصاح ابن عائشة: وا ويلاه وا عظم مصيبتاه، فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم مَن يحصي، ثم أقبل يغني، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبّر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجّت لها أقطار الأرض، وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حيًا وميتًا، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت، فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة، فقال ابن عائشة: والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائي، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد يوم مر عليك؟ يقول: يوم العقيق.

المشدود ودبيس ورقيق

حدّث أبو جعفر البغدادي قال: حدّثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يومًا إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلي أستفيد حكمة أكتبها، فقال: ادخل بنا إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟

فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليّ فحملوني حملًا، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتينا بشراب، وقامت جارية تسقينا شرابًا كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب درّي، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا إبو عيسى بالمغنين وهم المشدود ودبيس ورقيق. ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لما استقلّ بأردافٍ تجاذبُه ... واخضرّ فوق بياض الدرِّ شاربُه
وأشرق الوردُ من نسرين وجنته ... واهتزّ أعلاه وارتجّت حقائبه[1]
كلّمته بجفونٍ غير ناطقةٍ ... فكان من ردّه ما قال حاجبه

---

(١) ارتجّت حقائبه: الحقب: شيء تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلي، والمعنى أن خصره تمايل فسمعت أصوات الحلي فيه.

ثم سكت وغنّى دبيس:

الحبُّ حلو أمرَّته عواقبُهُ — وصاحبُ الحبِّ صبُّ القلب ذائبُه
استودع الله من بالطرف ودّعني — يوم الفراق ودم العين ساكبُهُ
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتفُ بي — إرفقْ بقلبك قد عزّت مطالبُهُ

ثم سكت وغنّى رقيق:

بدر من الإنس حفّته كواكبه — قد لاح عارضه واخضرّ شاربه
إن يوعد الوعد يومًا فهو مخلقُهُ — أو ينطق القول يومًا فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافيةً — فقام يشدو وقد مالت جوانبه(١)

ثم سكت، وابتدأ المشدود يقول:

يا ديرَ حنّة من ذلات الأكيراح — من يصحُ عنك فإنّي لستُ بالصاحي

ثم سكت وغنى دبيس:

دع البساتين من آسٍ وتفّاح — واعدل هديت إلى شيخ الأكيراح
واعدلح إلى فتيةٍ ذابت لحومهم — من العبادة إلّا نضو أشباح
وخمرةٍ عُتّقت في دنّها حقبًا — كأنّها دمعة في جفن سيّاح(٢)

ثم سكت وغنى رقيق:

لا تحفلن بقول اللائم اللاحي
واشرب على الورد من مشمولة الراح(٣)
كأسًا إذا انحدرت في حلق شاربها
أغناه لألاؤها عن كل مصباح
ما زلت أسقي نديمي ثم ألثمه
والليل ملتحفٌ في ثوب أمساح(٤)

---

(١) عاطيته كدم الأوداج صافيته: أي احتسى معه الخمرة الحمراء الصافية.
(٢) السياح: الذي يسح الدمع بكثرة وهو الزاهد المتعبد.
(٣) اللاحي: اللائم، والراح: الخمرة.
(٤) أمساح: من المسوح وهو ثوب الراهب الأسود.

فـقـام يـشـدو وقـد مـالـت سـوالـفـه
يـا ديـر حـنّـة مـن ذات الأكـيـراح

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غنِّ لي شعري فغناه:

يا لجّة الدمع هل للغمض مرجوعُ ... أم للكرى من جفون العين ممنوعُ
مـا حـيـلـتـي وفـؤادي هـائـمٌ دنـفٌ ... بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والـذي تـلـفـت نـفـسـي بـفـرقـتـه ... فالقلب من فرق الأحزام مصدوع[1]
مـا أرّق الـعـيـنَ إلا حـبٌّ مـبـتـدعٍ ... ثوبُ الجمالِ على خدّيه مخلوع

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

هاشم بن سليمان

حُكِيَ عن الرشيد أنه قال يومًا للفضل بن الربيع: مَن بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا مـا تـراجـعـنـا الـذي كـان بـيـنـنـا ... جرى الدمع من عيني بثينة بالكحلِ
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها ... ويا ويح عقلي ما أصبت به أهلي
خـلـيـلـيَّ فـيـمـا عـشـتـمـا هـل رأيـتـمـا ... قـتـيـلًا بـكـى مـن حـبِّ قـاتـلـه قـبـلـي

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا، وقال: أحسنت لله أبوك، قلّده عقدًا نفيسًا، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثًا عجيبًا إن أذن لي الأمير حدثته به، فقال: قد أذنت لك.

قال يا أمير المؤمنين: قَدِمت يومًا على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالًا وحسنًا، فلما وقعت عينه عليَّ قال: هذا أعرابي قد ظهر من البوادي ادعو به لنسخر به، فدعاني، فسرت إليه، ولم يعرفني، فغنّت إحدى

(1) الفرق: الخوف. ومصدوع: مشقق ومجروح.

الجاريتين بصوت هو لي، فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إليَّ كالمنكر، فقلت: يا أمير المؤمنين أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح وتر كذا، ووتر كذا، ففعلت وغنت شيئًا ما سمع منها إلا في هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة عليَّ وقالت: أستاذي هاشم ورب الكعبة.

فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهي، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في بر أستاذي؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته في عنقي، وقالت: هو لك، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة، وطلعت معه إحدى الجاريتين، وأتبعتها صاحبتي، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت في الماء، فغرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جزع الوليد عليها، وبكى بكاء شديدًا، وبكيت أنا عليها أيضًا بكاء شديدًا، فقال لي: يا هاشم ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعني إياه، فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبتني العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائي.

فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم.

دحمان الأشقر

قال علي بن سليمان النوفلي: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يومًا فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفى لمطايانا برؤياك هاديا[1]

ذكرتك بالديزين يومًا فأشرفت ... بنات الهوى حتى بلغن التراقيا[2]

إذا ما طواكِ الدهرُ يا أمَّ مالكٍ ... فشأن المنايا القاضيات وشأنيا

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنَّ عليَّ. قال: أتمنى الهنيء والمريء وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة،

---

(١) أدلجنا: سرنا في الليل المظلم.

(٢) التراقيا: جمع ترقوة وهي العظمة التي بين ثغرة النحر والعاتق. في أعلى الصدر.

فأمر له بهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار، فرضي بذلك، فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها.

إسحٰق الموصلي والواثق بن المعتصم

من ذلك ما حكى إسحٰق الموصلي قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره، وشعر غيره، فقال له يومًا: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر في كل شيء، فغني شعرًا أرتاح إليه، وأطرب عليه يومي هذا، قال إسحٰق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما في البين من حرقٍ   حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن
قالتْ تودّعني والدمع يغلبها   فهمهمتْ ببعض ما قالت ولم تبنِ
مالتْ إليَّ وضمّتني لترشفني   كما يميل نسيم الريح بالغصنِ
وأعرضت ثم قالت وهي باكية   يا ليت معرفتي إيّاك لم تكنِ

قال: فخلع عليَّ خلعة كانت عليه وأمر لي بمائة ألف درهم، وقال وغنيته يومًا:

قفي ودِّعينا يا سعادُ بنظرةٍ   فقد حان منا يا سعاد رحيلُ
فيا جنّة الدنيا ويا غاية المنى   ويا سؤل نفسي هل إليك سبيلُ
وكنت إذا ما جئت جئت لعلةٍ   فأفنيت علّاتي فكيف أقول[١]
فما كل يومٍ لي بأرضك حاجةً   ولا كل يومٍ لي إليك وصول

فقال: والله لا سمعت يومي غيره وألقى عليَّ خلعة من ثيابه، وأمر لي بصلة ما أمر لي قبلها بمثلها.

(١) العلة: الحاجة.

جعفر بن يحيىٰ والرشيد

من حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم: ما حكي عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيىٰ يومًا لبعض ندمائه: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدًا، فهل من مساعدة؟ فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب، قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد، فما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة علينا من أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت الفتيات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب، فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه.

فاتفق بالأمر المقدّر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت وكان صاحب جلالة رهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالًا له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم.

قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء ما فعلته والله قط قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغير عليَّ، فتسأله الرضا عني، فقال جعفر: قد رضي عنك أمير المؤمنين قال: وعليَّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هي حاضرة لك من مالي ولك من مال أمير المؤمنين مثلها، قال: أريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: وقد ولّاه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجبًا

من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة.

قال: فلما كان من الغد بكّرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل مَن في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح، قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك، قلنا: هو كما ظننت.

قال: لمّا دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبته؟ قلت: قد رضي عنك أمير المؤمنين، قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا قلت، وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين، قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا قلت، ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية، قال: قد أجبته إلى ذلك، ثم ماذا قلت؟ قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال: قد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته.

قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم وأعجب فعلًا ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

العبد الأسود المغني

حكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت: والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد عليَّ ما سمعت فقال: والله لو كان عندي قري أقريكه لفعلت، ولكني أجعله قراك، فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا

جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغني ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها[1]

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها إليَّ فإذا هي كما ذكر.

الغناء والحداء عند العرب

تَغَنَّ بالشعر إن كنت قائله إنَّ الغناء لهذا الشعر مِضمارُ

يقولون: فلان يتغنّى بفلان أو فلانة، إذا صنع في أحدهما شعرًا. قال ذو الرمة:

أحبُّ المكان القَفْرَ من أجل أنني به أتَغنَّى باسمِها غيرَ مُعجِمِ

وكذلك يقولون: حدا به، إذا عمل فيه شعرًا. قال المرار الأسدي:

ولو أني حدوت به ارفأنَّتْ[2] نعامته وأبصرَ ما يقولُ

الحداء عند العرب

يقال: إن أول مَن أخذ في ترجيع الحداء مضر بن نزار بن معد بن عدنان: سقط عن جمل فكسرت يده فحملوه وهو يقول: وايداه! وايداه! وكان أحسن خلق الله تعالى صوتًا وجرمًا، فأصغت إليه الإبل وجدَّت في السير.

فجعلت العرب مثالًا لقوله: ها يدا! ها يدا! يحدون في الإبل.

وزعم ناس من مضر أن أول مَن حدا رجل منهم: كان في إبله أيام الربيع، فأمر غلامًا له ببعض أمره، فاستبطأه، فضربه بالعصا، فجعل يشتد في الإبل ويقول: وايداه! يا يداه! فقال له: إلزم، إلزم! فاستفتح الناس الحداء من ذلك.

---

(١) الخفرات البيض: أي الفتيات البيض اللاتي تظهر في وجوههن حمرة الخجل.

(٢) ارفأنَّ: ضعف واسترخى. وسكن بعد نفور.

حكى الزبير بن بكار قال: إن رسول الله ﷺ قال لقوم من بني غفار حين سمع حاديهم بطريق مكة ليلًا فمال إليهم فقال: «إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعائه فوجد إبله قد تفرّقت فأخذ عصًا فضرب بها كف غلامه فعدا بالوادي وهو يصيح: وايداه! وايداه! فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه واجتمعت إليه.

فقال مضر: لو اشتق مثل هذا انتفعت به الإبل واجتمعت، فاشتق الحداء[1].

أصل الغناء ومعدنه

قال أبو المنذر بن هشام الكلبي: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج. فأما النصب فغناء الركبان والقينات. وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات. وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم.

كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرًا فاشيًا؛ وهي المدينة، والطائف، وخيبر، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة. وهذه القرى مجامع أسواق العرب.

صانع العود

قيل إن أول مَن صنع العود لامِك بن آدم، وبكى به على ولده. ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقي، وهو كتاب اللحون الثمانية.

أول مَن غنّى عند العرب

كان أول مَن غنّى قينتان لعاد يقال لهما الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قَيْلُ ويحك قُمْ فهينم   لعلَّ الله يُصبحنا غماما

وإنما غنّتا بهذا اللحن حين حُبس المطر عن قوم عاد. وكانت العرب تسمى القينة: الكرينة، والعود: الكران، والمزهر أيضًا هو العود، وهو البربط.

أول مَن غنّى في الإسلام

كان أول مَن غنّى في الإسلام الغناء الرقيق: طويس؛ وهو علّم ابن سريج، والدلال، ونئومة الضحى. وكان يكنى أبا عبد المنعم. ومن غنائه وهو

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٣٦٩.

أول صوت غني في الإسلام:

قد براني الشوق حتى كدتُ من شوقي أذوبُ

طويس وبكر وسعيد

كان طويس أول مَن غنّى في الإسلام، وكان في أيام عثمان بن عفان.

قيل: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الحج وهو والي المدينة، وخرج الناس معه، وكان ممن خرج: بكر بن إسماعيل الأنصاري، وسعيد بن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت. فلما انصرفا راجعين مرًّا بطويس المغني، فدعاهما للنزول عنده، فقال بكر بن إسماعيل: قُدِ البعير إلى منزلك. فقال له سيعد بن عبد الرحمٰن: أتنزل على هذا المخنث؟

فقال: إنما هو منزل ساعة ثم نذهب. واحتمل طويس الكلام عن سعيد، فأتيا منزله، فإذا هو قد نظفه ونجَّده، فأتاهما بفاكهة الشام فوضعها بين أيديهما؛ فقال له أبو بكر بن إسماعيل: ما بقي منك يا طويس؟ قال: بقي كلّي، يا أبا عمرو! قال: أفلا تسمعنا من بقاياك؟ قال: نعم.

ثم دخل خيمته، فأخرج خريطة، وأخرج منها دفًّا ثم نقر وغنَّى:

يا خليلي نابني سُهُدي لم تنم عيني ولم تكدِ
كيف تلحوني على رجلٍ مؤنسٍ تلتذُّهُ كبدي
مثل ضَوءِ البدر صورتهُ ليس بالزُّمَّيْلةِ النكِدِ[1]
من بني آل المغيرة لا خاملٍ نَكْسٍ ولا جَحْدِ
نظرت عيني فلا نظرت بعده عيني إلى أحَدِ

ثم ضرب بالدفّ الأرض والتفت إلى سعيد بن عبد الرحمٰن فقال: يا أبا عثمان، أتدري مَن قائل هذا الشعر؟ قال: لا، قال: قالته خولة ابنة ثابت عمتك في عمارة بن الوليد بن المغيرة. ونهض، فقال له بكر: لو لم تقل ما قلته لم يُسمعك ما أسمعك. وبلغت القصة عمر بن عبد العزيز. فقال: واحدة بواحدة والبادي أظلم[2].

---

(١) الزُّمَّيْل والزُّمَّيْلة: الضعيف الجبان الرَّذْل. والنكد: الشحيح القليل النفع.
(٢) العقد الفريد: ٧/ ٢٨ ـ ٣١.

الفرزدق والأحوص

قيل: إن الفرزدق قَدِم المدينة، فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح صاحب النبيّ ﷺ وهو الذي حمتْ لحمه الدُّبُر، فقال له الأحوص: ألا أسمعك غناءً؟ قال: تغنَّ. فغناه:

أتنسى إذْ تودِّعُنا سليمى ... بعودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشامُ
فنفسي من تجنُّبهُ عزيزٌ ... عليَّ ومن زيارتُهُ لمامُ
ومن أُمسي وأُصبح لا أراه ... ويطرُقني إذا هجع النيام

قال الفرزدق: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير. ثم غناه:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وَشَلًا بعينك ما يزال مَعينا
غيَّضْنَ من عَبَراتهنَّ وقلنَ لي ... ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

فقال: لمن هذا؟ قال: لجرير. ثم غنَّاه:

أسري لخالدة الخيال ولا أرى ... شيئًا ألذَّ من الخيال الطارق
إن البَليَّة من يُمَلُّ حديثه ... فانقعْ فؤادك من حديث الوامق

فقال: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير.

قال: ما أحوجه مع عفافه إلى خنوثة شعري، وما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره.

الأحوص ومعبد وعقيلة

قال الأحوص يومًا لمعبد: امض بنا إلى عقيلة حتى نتحدث إليها ونسمع من غنائها وغناء جواريها، فمضيا، فألَفيا على بابها معاذًا الأنصاري وابن صيّاد، فاستأذنوا فأذنت لهم إلّا الأحوص، فإنها قالت: نحن على الأحوص غضاب.

فانصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه على استبدادهم بها وقال:

ضَنَّت عقيلة عنك اليوم بالزاد ... وآثرت حاجة الثاوي على الغادي
قولا لمنزلها: حُيِّيت من طللٍ ... وللعقيق: ألا حُيِّيتَ من وادِ
إني وهبت نصيبي من مودتها ... لمعبدٍ ومعادٍ وابن صيَّاد[1]

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٢٢.

الرشيد وعبثر

حضر مسامرة الرشيد يومًا عبثر المغني، وكان فصيحًا متأدبًا، وكان مع ذلك يغني الشعر بصوت حسن، فتذاكروا رقَّة شعر المدينين، فأنشد بعض جلسائه أبياتًا لابن الدمينة حيث يقول:

وأذكُرُ أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أن تصدَّعا
وليست عشياتُ الحمى برواجعٍ ... عليك ولكن خَلِّ عينيك تدمعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فأعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له عبثر: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق قد غذي بماء العقيق حتى رقَّ وصفا؛ فصار أصفر من الهواء. ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرقُّ من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين. قال: وذلك لك. فغنى لجرير:

إن الذين غدوا بلُبِّك غادروا ... وشلا بعينك لا يزال معينا
غَيَّضْنَ من عبراتهنَّ وقلن لي ... ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا
راحوا العشيَّة روحة «مذكورة» ... إن حزَنَ حرنا أو هدينَ هدينا
فرموا بهنَّ سواهما عُرض الفلا ... إن مِتْنَ مِتنا أو حُيين حيينا

قال: صدقت يا عبثرة ـ وخلع عليه وأجازه[1].

زريـــاب

كان لإبراهيم الموصلي عبدٌ أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعًا على الغناء علَّمه إبراهيم. وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغني فيه، ثم إنه انتقل إلى القيروان إلى بني الأغلب، فدخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فغناه بأبيات عنترة بن شداد، حيث يقول:

فإن تكُ أمي غُرابيَّةً ... من أبناء حامٍ بها عبتني

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣٠.

فإني لطيفٌ ببِيضِ الظبا وسُمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى لقُدْتك في الحرب أو قدتني

فغضب زيادة الله، وأمر بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فجاز البحر إلى الأندلس، فكان عند الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم[(١)].

جرير والشعراء

قَدِم جرير المدينة، فأتاه الشعراء وغيرهم وأتاه أشعب فيهم، فسلّموا عليه وحادثوه ساعة ثم خرجوا، وبقي أشعب، فقال له جرير: أراك قبيحًا وأراك لئيم الحسب ففيم قعودك وقد خرج الناس؟ فقال: أصلحك الله؛ إنه لم يدخل عليك اليوم أحد أنفع لك مني. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني آخذ رقيق شعرك فأزيِّنه بحسن صوتي. فقال له جرير: فقُل: فاندفع يغنيه:

يا أختَ ناجيةَ السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل لوم العُذَّلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

قال: فاستخفَّ جرير الطرب لغنائه بشعره، حتى زحف إليه واعتنقه وقبَّل ما بين عينيه وسأله عن حوائجه فقضاها له[(٢)].

إبراهيم بن المهدي والمأمون

كان إبراهيم بن المهدي ـ وهو الذي يقال له ابن شكلة ـ داهيًا عاقلًا عالمًا بأيام الناس شاعرًا مغلّقًا، وكان يصوغ فيجيد. وقد خالف على المأمون ودعا لنفسه، فظفر به المأمون فعفا عنه. وقال لما ظفر به المأمون:

ذهبتُ من الدنيا كما ذهبتْ مني هوى الدهر بي عنها وأهوى بها عني
فإن أبْكِ على نفسي أبكِ عزيزةً وإن أحتبِيها أحتبِيها على ظَنِّ

فلما فتحت له أبواب الرضا عند المأمون، غنى بهما بين يديه، فقال له المأمون: أحسنت والله يا أمير المؤمنين! فقام إبراهيم رهبة من ذلك، وقال: قتلتني والله يا أمير المؤمنين! لا والله إن جلست حتى تسمِّيني باسمي. قال:

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣١.
(٢) العقد الفريد: ٧/ ٥٠.

اجلس يا إبراهيم. فكان بعد ذلك آثر الناس عند المأمون، ينادمه ويسامره ويغنيه.

فحدّثه يومًا فقال: بينا أنا مع أبيك يا أمير المؤمنين بطريق مكة، إذ تخلفتُ عن الرفقة وانفردت وحدي، وعطشت وجعلت أطلب الرفقة، فأتيت إلى بئر، فإذا حبشي نائم عندها، فقلت له: يا نائم، قم فاسقني. فقال: إن كنت عطشان فانزل واستقِ لنفسك. فخطر ببالي صوت، فترنمت به وهو:

كفِّناني إن متُّ في درع أروى واسقياني من بئر عروةَ ماءَ

فلما سمع قام نشيطًا مسرورًا، وقال: والله هذه بئر عروة، وهذا قبره. فعجبت يا أمير المؤمنين لما خطر ببالي في ذلك الموضع، ثم قال: أسقيك على أن تغني. قلت: نعم. فلم أزل أغنيه وهو يجبذ الحبل، حتى سقاني ورَوَّى دابَّتي، ثم قال لي: أدلُّكَ على موضع العسكر على أن تغنيني؟ قلت: نعم.

فلم يزل يعدو بين يدي وأنا أغنيه حتى أشرفنا على العسكر فانصرف، وأتيت الرشيد فحدثته بذلك فضحك.

ثم رجعنا من حجنا فإذا هو قد تلقاني وأنا عديل الرشيد، فلما رآني قال: مغنّ والله! قيل له: أتقول هذا لأخي أمير المؤمنين؟ قال: أي لعمر الله، لقد غنَّاني، وأهدى إليَّ أقطًا[١] وتمرًا، فأمرت له بصلة وكسوة، وأمر له الرشيد بكسوة أيضًا.

فضحك المأمون، وقال: غنِّني الصوت، فغنّيته فافتتن به؛ فكان لا يقترح عليَّ غيره[٢].

أشعب وهاشمي وشعر ابن أبي ربيعة

كان يقال قديمًا: إذا قسا عليك قلب القرشي من تهامة، فغنِّه بشعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج. وكذا فعل أشعب برجل من أهل مكة من بني هاشم، وكان أشعب قد انتجع أهل مكة من المدينة.

---

(١) الأقط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ.
(٢) العقد الفريد: ٧/ ٣٢.

قال أشعب: فلما دخلت غنيته بغناء أهل المدينة وأهل العقيق، فلم ينجح ذلك فيه ولم يحركْ من طربه ولا أريحيَّته. فلما عيل صبري غنيته بغناء ابن سريج المكي وقول ابن أبي ربيعة القرشي:

نظرتُ إليها بالمحصَّب من منى ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارمُ
فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ راهبٍ ... بدت لك تحت السَّجْف أم أنت حالمُ
بعيدةُ مهوى القُرْط إما لنوفلٍ ... أبوها وإما عبد شمسٍ وهاشمُ

قال: فحركتُ والله طربه، وكان كالذي أردت. ثم غنيته لابن أبي ربيعة القرشي أيضًا:

ولولا أن يقول لنا قريشٌ ... مقال الناصح الأدنى الشفيقِ
لقُلتُ إذ التقينا قبليني ... وإن كنا بقارعةِ الطريقِ

فقال: أحسنَ والله! هكذا يطيب التَّلقي - لا بالخوف التَّوَقيِّ - قال: فلما رأيته قد طرب للصوتين ولم ينِدَّ لي بشيء، قلت: هو الثالث وإلا فعليه السلام. قال: فغنيته الثالث من غناء ابن سريج قول عمر بن أبي ربيعة، ويقال إنها لجميل:

ما زلت أمتحنُ الدساكرَ دونها ... حتى ولجتُ على خفيِّ المُولِجِ
فوضعت كفي عند مقطعِ خصرها ... فتنفَّستْ نفسًا ولم تتلهَّجِ
قالت: وحقِّ أخي وحرمَة والدي ... لأنبهنَّ الحي إن لم تخرجِ
فخرجتُ خيفة قولها فتبسمت ... فعلمتُ أن يمينها لم تخرج
فرشفتُ فاها آخذًا بقرونها ... رشف النزيف ببردِ ماءِ الحشرجِ

فصاح الهاشميّ: أوَّه! أحسن والله وأحسنت. وأمر لي بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه[1].

من شعر المتوكل

ومن شعر المتوكل بن عبد الله بن نهشل - وكان كوفيًا في عصر معاوية - وهو القائل:

«لا تنهِ عن خُلق وتأتي بمثله»

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٧٤.

يقـول:

قـفـي قـبـل الـتـفـرق يـا أمـامـا ... ورُدِّي قـبـل بـيـنـكـم الـسـلامـا
تـرجِّـيـهـا وقـد شـطـت نـواهـا ... ومـنَّـتـك الـمـنـى عـامًـا فـعـامـا
فـلا وأبـيـك لا أنـسـاك حـتـى ... تـجـاوبَ هـامـتـي فـي الـقـبـر هـامـا

ومما يُغنّى به لعدي بن الرقاع:

تُـزجـي أغـنَّ كـأن إبـرة روقِـهِ ... قـلـمٌ أصـاب مـن الـدواة مـدادهـا
ولـقـد أصـبـتُ مـن الـمـعـيـشـة لـذَّةً ... ولقيتُ من شظف الخطوب شدادها
وعـلـمـت حـتـى مـا أسـائـلُ عـالـمًـا ... عن حرف واحدة لكي أزدادها[1]

من رقائق الغناء

قال الزبير بن بكار: سألت إسحٰق: هل تغنَّى من شعر الراعي شيئًا؟ قال: وأين أنت من قوله:

فلم أرَ مظلومًا على حال عِزَّةٍ ... أقلَّ انتصارًا باللسان وباليد
سوى ناظرٍ ساجٍ بعين مريضةٍ ... جرَتْ عبرةٌ منها ففاضت بإثمدِ

ومن شعر ابن الدمينة ـ وهو عبد الله بن عبيد الله، والدمينة أُمّه، وهو من أرقّ شعراء المدينة بعد كثير عزة وقيس بن الخطيم:

بـنـفـسـي وأهـلـي مـن إذا عـرضـوا لـه ... ببعضِ الأذى لم يدر كيف يجيبُ
ولـم يـعـتـذر عُـذر الـبـريء ولـم تـزل ... لـه بـهـتـة حـتـى يـقـال مُـريـبُ
جرى السَّيل فاستبكانيَ السيل إذ جرى ... وفـاضـت لـه مُـقْـلَـتـيَّ غـروبُ
ومـا ذاك إلّا أن تـيـقـنـتُ إنـه ... يـمـرُّ بـوادٍ أنـت مـنـه قـريـبُ
يكون أجاجًا قبلكم فإذا انتهى ... إلـيـكـم تـلـقـى طـيـبـكـم فـيـطـيـبُ
أيـا سـاكـنـي شـرقـيَّ دجـلـة كـلُّـكـم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

ومن قول يزيد بن الطثرية ـ وغنى به ابن صيّاد المدني وغيره:

بـنـفـسـيَ مـن لـو مـرَّ بـردُ بـنـانـه ... على كبدي كانت شفاءً أناملُهْ
ومن هابني في كلِّ شيء وهِبْتُهُ ... فـلا هـو يـعطيني ولا أنا سائلُهْ

---

(١) العقد الفريد: ٧/ ٧٥.

ومما غنّى به نومة الضحى:

يا موقد النار قد أعْيَتْ قوادِحُهُ اقْبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقياسِ
ما أوحش الناسَ في عيني وأقبحهم إذا نظرت فلم أبصرك في الناسِ

ومما يُغنّى به من شعر ذي الرمة وهو أرقُّ شعر:

لئن كانت الدنيا عليَّ كما أرى تباريحَ من ذكراك فالموت أَرْوَحُ

وأكثر ما كان يغنّي به معبد بشعر الأحوص، ومن جيد شعره:

كأني من تذكُّر أمِّ حفصٍ وحبلُ وصالها خَلَقٌ رِمامُ
صريعُ مدامةٍ غلبت عليه تموتُ له المفاصل والعظامُ
سلام الله يا مطرٌ عليها وليس عليك يا مطرُ السلام
فإن يكنِ النكاح أحلَّ شيءٍ فإن نكاحها مطرًا[1] حرامُ[2]

طويس والنعمان بن بشير

قال الأصمعي: حدّثني رجل من أهل المدينة، قال: كان طويس يتغنّى في عرس رجل من الأنصار، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطويس يغني:

أجدّ بعمرة عتبانها فتهجر أم شأننا شأنها
وعمرةُ من سروات النساء تنفح بالمسك أردانها

فقيل له: اسكت! اسكت! لأن «عمرة» أمّ النعمان بن بشير. فقال النعمان: إنه لم يقل بأسًا، وإنما قال:

وعمرةُ من سروات النساء تنفَحُ بالمسك أردانها

الغريض وختان

قال إسحٰق الموصلي: شهد الغريض ختانًا لبعض أهله، فقال له بعض القوم: غنِّ. فقال: هو ابن الزانية إن غنى! فقال له مولاه: فأنت والله ابن زانية، فغنِّ. قال: أكذلك أنا عندك؟ قال: نعم. قال: أنت أعلم. فغنّى:

وما أنسَ م الأشياء لا أنسى شادنًا بمكة مكحولًا لا أسيلًا مدامعُه
تشرَّب لَونَ الرَّازقيِّ بياضهُ أو الزعفران خالطَ المسك رادعه

---

(١) مطر: اسم رجل.

(٢) العقد الفريد: ٧/٨٦ ـ ٨٧.

فلوت الجن عنقه فمات. وقال غير إسحٰق: بل غنّى:

أَمِن مكنونةَ الطَّللُ يلوح كأنه خَلَلُ
لقد نزلوا قريبًا منـ ـك لو نفعوك إذ نزلوا
تحاولني لتقتلني ولي بعينها حَوَلُ

طويس وابن سريج والدلال ونومة للضحى

كان مع طويس بالمدينة: ابن سريج، والدلال، ونومة الضحى، ومنه تعلموا. ثم نجم بعد هؤلاء سلم الخاسر، وكان في صحبة عبد الله بن عبد الله بن جعفر، وعنه أخذ معبد الغناء. ثم كان ابن أبي السمح الطائي، وكان يتيمًا في حجر عبد الله بن جعفر، وأخذ الغناء عن معبد، وكان لا يضرب بعود، وإنما يغنّي مرتجلًا. فإذا غنّى لمعبد صوتًا حققه، ويقول: قال الشاعر فلان، ومططه معبد، وخففته أنا. ومن غنائه:

نام صبحي ولم أنم لخيالٍ بنا ألمّ
إنَّ في القصر غادة كحلت مُقلتي بدَمْ

الغزيّل

كان بالشام أيام الوليد بن يزيد مُغَنٍّ يقال له الغزيِّل، ويكنى أبا كامل، وفيه يقول الوليد بن يزيد:

مَن مُبلغٍ عني أبا كاملٍ أني إذا ما غاب كالهابلِ

ومن غناء الغزيِّل:

أمدحِ الكأس ومن أعملها وأهْجُ قومًا قتلونا بالعطَشْ
إنما الكأسُ ربيعٌ باكرٌ فإذا لم نذقها لم نَعِشْ[1]

المأمون لم يسمع الغناء بعد خلافته عشرين شهرًا

قال إسحٰق الموصلي: لما أفضت الخلافة إلى المأمون، أقام عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم كان أول مَن تغنّى بحضرته أبو عيسى، ثم واضب

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣٢ ـ ٣٤.

على السماع. وسأل عني فجرَّحني عنده بعض من حسدني فقال: ذلك رجل يثيبه على الخلافة.

فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئًا. وأمسك عن ذكري، وجفاني كل مَن كان يصلني لما ظهر من سوء رأيه، فأضرَّ ذلك بي، حتى جاءني عَلُّويه، فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك، فإني اليوم عنده؟

فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر - فإنه سيبعثه على أن يسألك من أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء. فمضى علوية؛ فلما استقرّ به المجلس غنّاه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يا مشرع الماء قد سُدَّت مسالكه أما إليك سبيلٌ غير مسدودِ

لِحائِم حار حتى لا حياة به مُشرَّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك جفوته واطرحته. قال: إسحٰق؟ قلت: نعم. قال: ليحضر الساعة.

قال إسحٰق: فجاءني الرسول، فسرتُ إليه؛ فلما دخلتُ قال: ادنُ مني! فدنوت، فرفع يديه مادَّهما، فاتكأت عليه، فاحتضنني بيديه، وأظهر من إكرامي وبرِّي ما لو أظهره صديق لي مواس لسرَّني.

قِنْد

كان في المدينة في الصدر الأول مغنٍّ يقال له قِند. وهو مولى سعد بن أبي وقاص، وكانت عائشة أم المؤمنين تستظرفه، فضربه سعد، فحلفت عائشة لا تكلمه حتى يرضى عنه قند. فدخل عليه سعد فاسترضاه، فرضي عنه، وكلمته عائشة.

وكان معاوية يُعقب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص على المدينة. ويستعمل هذا سنة وهذا سنة. وكانت في مروان شدَّة وغلظة، وفي سعيد لين عريكة وحلم وصفح. فلقي مروان بن الحكم قندًا المغني، وهو معزول عن المدينة وبيده عكازة؛ فلما رآه قال:

قلْ لقندٍ يشيِّع الأظعانا ربما سرَّ عيننا وكفانا

فقال قند: لا إلـه إلا الله! ما أسمجك واليًا ومعزولًا[١].

سليمان ومغن في سكره

كان سليمان بن عبد الملك مفرطًا في الغيرة، فسمع مغنيًا في عسكره. فقال: اطلبوه! فجاؤوا به فقال له: أعد ما تغنَّيتَ به. فأعاد واحتفل، فقال لأصحابه: والله لكأنها جرجرة الفحل في الشوَّل. وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبَتْ إليه. ثم أمر به فخُصي.

وذُكر لابن أبي العتيق أن المخنثين خُصوا، وأنه خُصيَ فلان فيهم ـ لواحدٍ منهم يعرفه ـ فقال ابن أبي عتيق: إنا لله وإنا إليه راجعون! لئن خصيَ لقد كان يحسن:

لـمـن ربـعٌ بـذات الـجـيـــشِ أمـســى دارسًـا خـلـقـا

ثم استقبل ابن أبي العتيق القبلة، فلما كبر سلم، ثم قال لأصحابه: أما إنه كان يحسن خفيفه؛ فأما ثقيله فلا، ثم كبَّر.

أول مَن عمل العود في المدينة

قيل: أول مَن عمل العود في المدينة وغنّى به هو سائب خاثر. وكان مولى لبني ليث، وأصله من فيء كسرى، واشتراه عبد الله بن جعفر.

وكان عبد الله بن عامر بن كُريز سبى إماء صنّاجات، فأتى بهنَّ المدينة، فكنَّ يلعبن في يوم الجمعة ويسمع الناس منهنَّ، فأخذ عنهنَّ. وقدم رجل فارسيّ يُعرف بنشيط، فغنّى، فعجب عبد الله بن جعفر به ـ فقال له سائب خاثر: أنا أضع لك غناء هذا الفارسي بالعربية. ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل:

لِمـن الـديـارُ رسومـهـا قَـفْـرُ لـعـبـت بـهـا الأرواح والـقَـطْـرُ
وخـلا لـهـا مـن بـعـد سـاكـنـهـا حـجـجٌ مَـضَـيْـنَ ثـمـانٍ أو عـشـرُ
والـزعـفـران عـلـى تـرائـبـهـا شـرقٌ بـه الـلَّـبـات والـنـحـرُ

قال ابن الكلبي: هو أول صوت غُنيَّ به في الإسلام من الغناء العربي المتقن الصنعة. ثم قال: اشترى عبد الله بن جعفر نشيطًا بعد ذلك، فأخذ عنه

(١) العقد الفريد: ٧/ ٣١ ـ ٣٢.

سائب خاثر الغناء العربي، وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم.

وكان سائب موسرًا يبيع الطعام بالمدينة، وكان عنده أربع نسوة، وكان انقطاعه لعبد الله بن جعفر. وهو في ذلك يخالط سروات الناس وأشرافهم، لظرفه وحلاوته وحسن صوته. وكان قد آلى على نفسه ألَّا يغنِّي أحدًا سوى عبد الله بن جعفر، إلَّا أن يكون خليفة أو وليَّ عهد ابن خليفة، فكان على ذلك حتى قُتل.

وكان مقتل سائب خاثر يوم الحرَّة. قال: وكان يخشى على نفسه من أهل الشام، فخرج إليهم وجعل يقول: أنا مغنٍّ، ومن حالي ومن قصيَ كذا. وقد خدمتُ أمير المؤمنين معاوية، ويزيد ابنه. فقالوا له: غنِّ لنا. ففعل. فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله. وبلغ يزيد خبره ومرَّ به اسمه في أسماء من قُتِلَ فلم يعرفه وقال: إنا لله! أو بلغ القتلُ إلى سائل خاثر وطبقته؟! ما أرى أنه بقي أحد في المدينة. وقال: قبَّحكم الله يا أهل الشام![1].

أول من قصَّدَ القصائد الطوال

المهلهل

قال أبو عبيدة: اسمه عديّ وقال يعقوب بن السكيت: اسمه امرؤ القيس. وهو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب، يصل نسبه لتغلب.

وإنما لُقِّبَ مهلهلًا لطيب شعره ورقَّته. وكان أحد من غنَّى العرب بشعره. وقيل: إنه أول من قصَّد القصائد، وقال الغزل. فقيل: قد هلهل الشعر، أي أرقَّه.

وهو أول مَن كذب في شعره. وهو خال امرىء القيس بن حجر الكندي. وكان فيه خنث ولين. وكان كثير المحادثة للسناء، فسماه أخوه كليب: زير النساء. وفي ذلك يقول:

ولو نُبِشَ المقابرُ عن كليبٍ ... فيعلم بالذنائب أيُّ زيرِ

---

(١) الأغاني: ٧/١٨٨. ونهاية الأرب: ٤/٢٤٤.

وأما البيت الذي كذب فيه فقوله:

كأنما غدوةً وبني أبينا ... بجنب غنيزةٍ رَحَيَا مُدبر
ولولا الريح أسمع من بحجرٍ ... صليل البيض تُقرعُ بالذّكورِ

فقتالهم كان بالجزيرة، وحجر قصبة باليمامة، وبين الموضعين مسافة بعيدة.
وقيل: سمي المهلهل لقوله:

لما توغَّر في الكراع هجينهم ... هَلْهَلْتُ أثأر جابرًا أو صِنْبِلا[1]

طويس أول من غنّى بالعربية في المدينة

طويس أول مَن غنَّى بالعربية في المدينة وهو أول مَن ألقى الخنث بها، وكان طويلًا يكنّى أبا عبد المنعم. كان لا يضرب بالعود بل ينقر بالدف. وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.

وكان الناس يضربون به المثل فيقولون: أهزج من طويس. وهو أول مَن غنّى المتقن من المخنثين، وأول مَن صنع الهزج في الإسلام.

وطويس لقب، واسمه طاوس، مولى بني مخزوم.

طويس وأبان بن عثمان

وفد أبان بن عثمان على عبد الملك بن مروان فأمَّرهُ على الحجاز، فأقبل حتى إذا دنا من المدينة استقبله أهلها، وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طويس. فلما رآه سلّم عليه، ثم قال له: أيها الأمير إني كنت أعطيتُ الله عهدًا لئن رأيتك أميرًا لأخضبنَّ يدي إلى المرفقين، ثم أزدو[2] بالدفِّ بين يديك. ثم أبدى عن دُفِّه وتغنّى بشعر ذي جَدَن الحميري:

ما بالُ أهلكِ يا ربابُ ... خُزْرًا كأنَّهُمُ غضابُ

قال: فطرب أبان حتى كاد يطير. ثم جعل يقول له: حسبك يا طاوس - ولا يقول يا طويس، لنبله في عينه. ثم قال له: اجلس. فجلس.

---

(١) الأغاني: ٥/٥٦. والشعر والشعراء: ٢١٥. وأمالي القالي: ٢/١٣٠.
(٢) أزدو: أضرب.

فقال له أبان: قد زعموا أنك كافر. فقال: جُعلت فِداءك! والله إني لأشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأصلي الخمس، وأصوم شهر رمضان وأحجُّ البيت.

فقال: أفأنت أكبر أم عمرو بن عثمان؟ وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمه.

فقال طويس: أنا والله ـ جُعلت فداك ـ مع جلائل نساء قومي، أمسك بذيولهن يوم زُفَّتْ أمك المباركة إلى أبيك الطيب. قال: فاستحيا أبان ورمى بطرْفِهِ إلى الأرض.

وقد علّق ابن عبد ربه في العقد الفريد (ج ٣ صفحة ٢٤٢) بعد أن ساق هذه القصة. وقال: انظر إلى حذق طويس ورقة أدبه كيف لم يقل «أمك الطيبة وأبوك المبارك». وقد فسرها الجاحظ أيضًا فقال:

«لو قال طويس: شهدت زفاف أمك الطيبة، لم يحسن؛ لأن قولك «طيب» إنما يدل على قدر ما اتصل بها من الكلام... وقد قال الشاعر:

«والطيبون معاقد الإزر»

فقد يخلو الرجل بالمرأة فيقول: وجدتها طيبة، أي لذيذة.

وقيل إن أبان قال لطويس: يقولون إنك مشؤوم! قال: وفوق ذلك. قال: وما بلغ من شؤمك؟ قال: ولدتُ ليلة توفي النبيّ ﷺ وفُطمتُ ليلة مات أبو بكر الصديق، قال أبان: فاخرج عني عليك الدَّبار![1].

ذو جَدَنَ أول مَن غنّى في اليمن

هو عَلَسُ بن زيد بن الحارث بن الغوث. وهو ملك من ملوك حمير. ولُقِّب ذا جَدَن لحسن صوته. والجدن الصوت بلغتهم. ويقال إنه أول مَن تغنّى باليمن.

قال رجل من صنعاء إنهم حفروا حفيرًا في زمن مروان، فوقفوا على أزجٍ[2] له باب، فإذا هم برجل على سرير كأعظم ما يكون من الرجال، عليه خاتم من ذهب وعصابةٌ من ذهب، وعند رأسه لوحٌ مكتوب فيه:

---

(١) الأغاني: ٤/٢١٩ ـ ٢٢١. والعقد الفريد: ٧/٣٠.

(٢) الأزج: بناء مستطيل مقوس السقف.

«أنا عَلَس ذو جَدَن القَيْل[١]، لخليلي منِّي النَّيل، ولعدوِّي مني الويل. طلبت فأدركت وأنا ابن مائة سنة من عمري، وكانت الوحش تأذن[٢] لصوتي، وهذا سيفي ذو الكفِّ عندي، ودرعي ذات الفروج، ورُمحي الهزبري، وقوسي الفجواء[٣]، وقرني[٤] ذات الشر، فيها ثلاثمائة حَشْر[٥] من صفة ذي نَمِرَ[٦]، أعددتُ ذلك لدفع الموت عني فخانني».

قال: فنظرنا فإذا جميع ذلك عنده.

ويرجع نسب ذي جدن إلى الهميسع بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومن شعره وقد غناها المغنون في أيام العباسيين:

ما بالُ أهلك يا ربابُ ... خُزْرًا كأنهمُ غضابُ

إن زُرْتُ أهلك أوعدوا ... وتهرُّ دونهمُ الكلابُ[٧]

ابن سريج والغناء

قيل: إن رجلًا من أشراف قريش قال لابن سريج يعاتبه على الغناء: لو أقبلت على غيره من الآداب لكان أزينَ لك ولمواليك. فقال: جُعلتُ فداك! امرأته طالق إن أنت لم تدخل الدار.

فقال الشيخ: ويلك، ما حملك على هذا؟ قال: جُعلت فداك، قد فعلت. فالتفت النوفلي إلى بعض مَن كان معه متعجبًا مما فعل. فقال له القوم: قد طُلِّقَتْ امرأته إن أنت لم تدخل الدار. فدخل ودخل معه القوم. فلما توسطوا الدار قال: امرأته طالق إن أنت لم تسمع غنائي.

قال: اغرُبْ عن وجهي يا لكع. ثم بدر الشيخ ليخرج، فقال له أصحابه: أتطلق امرأته وتحمل وِزر ذلك؟

---

(١) القَيْل: من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم. والجمع: أقيال.

(٢) تأذن: تأنس.

(٣) القوس الفجواء: التي بان وترها.

(٤) القَرَن: الجعبة.

(٥) الحشر من السلاح: الدقيق المحدد. ومن السهام: المستوي الريش.

(٦) ذو نمر: واد بنجد في ديار بني كلاب.

(٧) الأغاني: ٤/٢١٨.

قال: فوزر الغناء أشدُّ. قالوا: كلا، ما سوَّى الله بينهما. فأقام الشيخ مكانه. ثم اندفع ابن سريج يغني من شعر عمر بن أبي ربيعة في زينب:

أَلَيْسَتْ بالتي قالت ... لمولاةٍ لها ظهرا

أشيري بالسلام لهُ ... إذا هو نحونا خطرا

وقولي في ملاطفةٍ ... لزينب نوِّلي عمرا

وهذا سحرك النسوان ... قد خبَّرنني الخبرا

فقال الشيخ للجماعة: هذا والله حسن! وما بالحجاز مثله ولا في غيره. وانصرفوا[1].

التلبية في الحج لأبي نواس

أبو نواس الحسن بن هانىء ثامن مشاهير الشعراء العباسيين. ولد في الأهواز بفارس سنة ١١٤ هـ وهي السنة التي أسس فيها أبو جعفر المنصور العباسي مدينة بغداد. وكان أبوه دمشقيًا من جنود مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

في عصر أبي نواس بدأ يزدهر كل ما استنبت في العصور السابقة من غروس الحضارة، خيرها وشرها، جدها وهزلها، يقينها وشكّها. وكان أبو نواس بحكم نشأته ومزاجه أميل إلى اللهو، فتغنّى في شعره بكل تيارات عصره ولا سيما تياراته اللاهية، وتطرف في مجونياته كَكُثر من معاصريه وفي مقدمتهم الشعراء.

ولمّا كانت النفس الإنسانية لا تطيق الاستمرار في لذائذها المادية، فإن أبا نواس كان يستشعر الندم على إفراطه في مجونه، فيعود إلى التوبة والاستقامة في فتراته ولا سيما في شيخوخته. ومن هنا كان أكثر من النظم في الزهد وزجر النفس عن المعاصر والتوبة إلى الله، وله في ذلك نحو خمسين قصيدة ومقطوعة لا تقل حرارة عن زهديات أبي العتاهية الذي اشتهر بشعره في الزهد.

وقد حج كثير من الشعراء إلى بيت الله، ولكننا لا نعرف أحدًا منهم نظم «التلبية» التي يدعو بها الحاج منذ يتحرك للحج حتى ينتهي حجه غير أبي نواس.

---

(١) الأغاني: ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣.

ومن صيغ التلبية: «لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك!».

يقول أبو نواس:

إلـــٰهــنـــا، مـــا أعـــدلَكْ مــلـيــكَ كــل مَــنْ مَــلَكْ
لـبـيـك، قـد لـبَّـيـتُ لَكْ لـبـيـكَ، إن الـحـمـدَ لَكْ
والـمـلكَ، لا شـريـكَ لـكْ
مـا خـاب عـبـدٌ أمَّـلكْ أنـت لـه حـيـث سَـلَكْ
لـولاك يـا ربُّ هـلَكْ لـبـيـكَ، إنَّ الـحـمـدَ لَكْ
والـمـلكَ، لا شـريـكَ لَكْ
كـل نـبـيٍّ ومَـلَكْ وكـلُّ مـن أهـلَّ لَكْ
وكـلُّ عـبـدٍ سـألَكْ سـبَّـح، أو لـبَّـى فَـلَكْ
لـبـيـكَ إن الـحـمـد لَكْ
والـمـلكَ، لا شـريـكَ لَكْ
والـليـلِ لـمـا أنْ حَـلَكْ والـسـابـحـاتِ فـي الـفَـلَكْ
عـلى مـجـاري الـمُـنْـسَـلَكْ لـبـيـكَ إنَّ الـحَـمـد لَكْ
والـمـلكَ، لا شـريـكَ لَكْ
يـا خـاطـئًا مـا أغـفـلَكْ اعـمـلْ، وبـادِرْ أجـلَكْ
واخـتـمْ بـخـيـرٍ عـمـلَكْ لـبـيـكَ، إن الـحـمـدَ لَكْ
والـمـلكَ، لا شـريـكَ لَكْ

التلبية في الحج قبل الإسلام

كانت العرب، إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كلَّ قبيلة عند ضمها وصلُّوا عنده ثم تقدَّموا إلى مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة:

وكانت تلبية قريش: لبَّيك، اللهمَّ لبَّيك! لبَّيْكَ، لا شريك لَكْ! تملكه وما ملك!

وكانت تلبية كنانة: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك! اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف.

وكانت تلبية بني أسد: لبَّيْك اللهم لبَّيْك! يا ربِّ أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد، إليك.

وكانت تلبية بني تميم: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيك! لبَّيكَ لبَّيْكَ عن تميم قد تراها، قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءَها.

وكانت تلبية قيس عيلان: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْك! لبَّيك أنت الرحمٰن! أتتك عيلان، راجلها والركبان.

وكانت تلبية ثقيف: لبَّيكَ اللهمَّ! إن ثقيفًا قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك[1].

في ذكر القينات والأغاني

محبــوبــة

حكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم أنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها.

قال عليّ بن الجهم، فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني، فقال: يا علي قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيرًا رأيت يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لفي حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة. فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلّمني
كأنني قد أتيت معصيةً ... ليس لها توبةٌ تخلّصني

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٤.

فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا عاد إلى هجره وصارمني[(١)]

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قلت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال: يا علي هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

حوار بين مغني ومغنية

قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه ومَن كان معه من ندمائه ولم يخرج، فشرب يومًا وخرج مَن كان عنده إلا مغنيًا واحدًا أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلال المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي مسترشفًا من ريقِ فِيكِ البارد[(٢)]
وكأنّ كفّك في يدي وكأنّنا بتنا جميعًا في لحافٍ واحدِ
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما في راحتي وتحت خدّكِ ساعدي
فقطعت يومي كلّه متراقدًا لأراك في نومي ولست براقدِ

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيرًا رأيت وكل ما أمّلته ستناله منّي برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي وتحل بين مراشفي ونواهدي[(٣)]
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا مُلَحَ الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدّت يدها لترمي إليه بالرقعة رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال: ما هذا؟ فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعتقها من وقتها وزوجها به، وقلت: خذها ولا تقربنا بعد اليوم.

---

(١) صارمني: قاطعني وفارقني.
(٢) الضجيعة: أي نائمة معه في فراش واحد.
(٣) دمالجي: الحلي التي توضع في الساعدين.

أبو نواس وكاعب

كان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكرًا ناهدًا بنت ثلاث عشرة سنة قال: فتلاعب عليها أبو نواس، فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع وأحبته هي أيضًا، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر، فأمسكها، فبكت وقالت له: يا سيدي الموت دون ذلك، فقال أبو نواس: هذا جزع الأبكار، فاتفق أنه خرج يومًا من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة في سدلة وهي سكرى لا تفيق، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم، فلم يجد، فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهدة الثديين من خدم القصر
مرقوقةُ الخدّين ليليّةُ الشعر
كلفتُ بها دهرًا على حسن وجهها
طويلًا وما حبُّ الكواعب عن أمري[١]
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها
وروّضتها والشعرُ من خدع السحر
أطالبها شيئًا فقالت بعبرةٍ
أموت ولا هذا ودمعتها تجري
فلما تعارضنا توسّطت لجّةً
غرقتُ بها يا قوم في لجج البحر[٢]
فصِحْتُ أغثني يا غلامُ فجاءني
وقد زلقت رجلي وصرت إلى الصدر
ولولا صياحي بالغلام وإنه
تداركني بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينةً
ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

(١) الكواعب: الفتيات اللاتي بلغن سن الإدراك.
(٢) تعارضنا: تقابلنا والتقينا على الفراش.

أبو نواس وقينة

حدّث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شابًا يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرةٍ لخلق الله ودًّا ... وتلقي بالتحية والسّلام

أتيت لبابها أشكو إليها ... فلم أخلصْ إليه من الزّحام

فيا من ليس يكفيها خليلٌ ... ولا ألفا خليلٍ كلَّ عام

أراك بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

الزلفاء وسنان

قال أبو سويد: حدّثني أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت.

فقلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، وكان مطرقًا، فرفع رأسه، وقال: أبا زيد في مثل هذا حين تصاحبنا، فقلت: أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق مليًا ورفع رأسه وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة الفاء أشربها من كفها وأمسح فمي بخدها، فأطرق سليمان مليًا لا يرد جوابًا تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق، فلما رأت الوصائف ذلك تنحيّن عنه، ثم رفع رأسه، فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك.

قلت: نعم أصلح الله الأمير كنت جالسًا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب إسكندراني يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها، وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان

إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحرًا، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطر دمًا وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدًا وماتوا كمدًا، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرًا جميلًا، ثم أطرقت طويلًا ورفعت رأسها.

فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعامًا طيبًا إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسنًا إلا سمج في عيني لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنّما الذلفاء ياقوتةٌ أخرجت من كيس دهقان[1]

شراؤها على أخي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت نهيه، قم أبا زيد في دعة الله تعالى.

ثم قال: يا غلام نفله ببدر، فأخذتها وانصرفت، قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنٍ يقال له: سنان، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرًا أصلحك الله، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، قال: أما

---

(١) الدهقان: التاجر أو رئيس الإقليم.

الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتًا واحدًا أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا، فرفع صوته يغني بهذه الأبيات:

محجوبة سمعتْ صوتي فأرَّقها ... من آخر الليل لما نبّه السحرُ

في ليلة البدر ما يدري مُضاجِعُها ... أوجهُهَا عنده أبهى أم القمر

لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت منحدر[١]

لو مُكِّنت لمشت نحوي على قدمٍ ... تكاد من لينها في المشي تنفطر[٢]

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئًا من حسن خلق ولطافة قد إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها، فحرك ذلك ساكنًا من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقال:

ألا ربَّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهٍ ... قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِّ[٣]

يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمةٍ يُعزى معًا وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام عليَّ بسنان، فدعت الذلفاء خادمًا لها، فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرته، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال: يا سنان. ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده، فليفعل، قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل دقّت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمّك.

---

(١) غلق: ستائر وموانع. (٢) تنفطر: تتقصف.

(٣) واضع الأب: أي حقيرة ووضيعة.

أنا عندك الليلة

حُكِيَ أن الرشيد فصد يومًا فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحًا فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدْتَ عرقًا تبتغي صِحّةً ... ألبسك الله به العافيه[1]
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي ... واهنأ به من كفِّ ذي الجاريه
واجعل لمن أنفذه خلوةً ... تحظى بها في الليلة الآتيه

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها، فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات:

بعثتُ الرسولَ فأبطأ قليلًا ... على الرغم منّي فصبرًا جميلا
وكنت الخليلَ وكان الرسولُ ... فصرت الرسولَ وصار الخليلا
كذا من يوجّه في حاجةٍ ... إلى مَن يحبُّ رسولًا جميلا

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة.

جارية المهدي

أهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية، فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض، فكتب إليها يقول:

لأهجرنّ حبيبًا خان موعده ... وكان منه لصفو العيش تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيبًا خان موعده ... ولا تذمنّ وعدًا فيه تأخير
ما كان حبسي إلا من حدوث أذًى ... لا يُستطاع له بالقول تفسيرُ

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمست تُباع ولو تباعُ بوزنها ... درًّا بكى أسفًا عليها البائع

---

(١) الفصد: إخراج الدم من الجسد بآلة حادة كالشفرة مثلًا.

حسبي حُسني

كان للمأمون جويرية من أحسن الناس، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحسدها الجواري وقلن: لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حسبي حسني، فازداد بها المأمون عجبًا، فسمتها الجواري، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعًا شديدًا وقال:

اختُلستْ ريحانتي من يدي ... أبكي عليها آخر الأبد[1]
كانت هي الأنس إذا استوحشتْ ... نفسي من الأقرب والأبعد
وروضةً كان بها مرتعي ... ومنهلًا كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي ... فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة:

أمازحها فتغضبُ ثم ترضى ... فكلّ فعالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسنُ ذي دلالٍ ... وإن رضيت فليس لها عديل[2]

رشا وجؤذر

حدَّث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدّثني إسحٰق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لأحداهما رشا وللأخرى جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك ولا لذة لي قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيذًا، فإنه لا يطيب لي عيش إلا به.

فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه، فما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتي أين المرحاض؟ فقالت

---

(١) اختلست: اختطفت خلسة.

(٢) عديل: أي لا يعادلها شيء، ومثيل.

إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

رحضت فؤادي فخلّيتني أهيم من الحب في كل وادي[١]

فاندفعتا تغنيانه: فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عني، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال: يا حبيبتي أين المخرج؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خرجت لها من بطن مكّة بعدما أقام المنادي بالعشي فأعتما

فاندفعتا تغنيانه، فقال في نفسه لم يفهما عني، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتي أين المذاهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت: يقول غنياني:

ذهبتِ من الهجران في كل مذهبِ ولم يك حقًّا كل هذا لتجنبِ[٢]

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني، وما أظن القحبتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خلا علي بقاع الأرض إذا ظنوا من يظن مكة واسترعائي الحزنُ

قال: فغنتاه، فقال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتيّ أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

أوحشوني وعزّ صبري فيهم ما احتيالي وما يكون فعالي

قال: فاندفعتا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتيّ أين الكنيف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحًا من هذا الرجل، قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تكنّفني الهوى طفلًا فشيّبني وما اكتهلا[٣]

---

(١) رحضت: أبلت من البلاء وحطمت. (٢) التجنب: الابتعاد.
(٣) تكنفني: أحاط بي من كل جانب.

فقال: واويلاه، واعِظَم مصيبتاه، هذا والهاشمي يتقطع ضحكًا فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلماني به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك، وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي؟ فقال الرجل: حياة نفسي أعز عليَّ من وطائك، وقيل: إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكنّفني الملاحُ وأضجروني ... على ما بي بُنيّات الزواني[1]
فلما قلّ عن ذاك اصطباري ... قذفت به على وجه الغواني

قال: فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالًا ومضى إلى سبيله.

علي بن الجهم وقينة

قال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً ... تدني إليك فإنَّ الحبَّ أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب وأنشدت:

اجعل شفيعك منقوشًا تُقدّمه ... فلم يزل مدينًا من ليس بالدّاني

أشعب وقينة

كان أشعب يختلف قينة بالمدينة، فجلس عندها يومًا يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عودًا من الأرض.

مَن يشتري ذا علّة بصحيح

كان بعض القينات من الجمال والحُسْن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولي كبد مقروحة مَنْ يبيعني ... بها كبدًا ليست بذات قروح[2]
أباها عليَّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علةٍ بصحيحِ

---

(١) بنيات الزواني: أي بنات الزنا.
(٢) مقروحة: أي بها قروح وآلام، عليلة.

حنين المعتصم

كان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنيًّا له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة بنت فلان، فأقلقني الشوق إليها فعسى أن تغنيني شيئًا في معنى ما ذكرته لك، فأطرق مليًّا ثم غناه:

وددت من الشوق المبرّح أنّني ... أُعَارُ جناحيّ طائرٍ فأطيرُ
فما لنعيمٍ ليس فيه بشاشة ... وما لسرور ليس فيه سرور
وإنّ امرءًا في بلدٍ نصف قلبه ... ونصف بأخرى غيرها لصبور

قصص متفــرقة

حَيَاة آل جَفْنَة[1]

قال خارِجَة بن زيد: دُعينا إلى مَأْدُبَة[2]. فحضرتُها وحسانُ[3] بنُ ثابت قد حضرَها، فجلسنا جميعًا على مائدةٍ واحدة، وهو يومئذ قد ذهب بصرُه، ومعه ابنُه عبد الرحمٰن، فكان إذا أتى طعام سأل ابنه: أطعام يدٍ أم يدين؟ (يعني باليد الثريد وباليدين الشِّواء لأنه يُنهشُ نهشًا). فإذا قال: طعام يديْن أمسك يده. فلما فرغوا من الطعام أتُوا بجاريتين: إحداهما رائقة، والأخرى عَزَّة، فجلستا وأخذتا مِزْهَريها[4] وضربتا ضربًا عجيبًا، وغَنَّتَا بقول حسان:

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَطْنِ جِلَّقَ هَلْ ... تُونِسُ[5] دُون البَلْقاءِ من أحَدِ

فسُمع حسان يقول: قد أراني بها سميعًا بصيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكت عنه البكاء، وإذا غنَّتا بكى، فكنتُ أرى ابنَه عبد الرحمٰن إذا سكتتا يشيرُ إليهما أن تغنيا فيبكي أبوه!

---

(١) الأغاني: ١٦ ـ ١٤. (٢) المأدبة: كل طعام يصنع لدعوة أو عرس.

(٣) هو شاعر رسول الله، وقد نشأ في الجاهلية ونبه شأنه فيها، وعاش طويلًا في الإسلام، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

(٤) المزهر: عود يضرب به.

(٥) تونس: تبصر: اللسان مادة ـ عجب. ومادة ـ بلق. وجلق بكسرتين وتشديد اللام وقاف: اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها. وقيل: دمشق نفسها (المراصد).

فلما انقلب حسان من المأدبة إلى منزله استلقى على فراشه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى، وقال: لقد أذكَرَتْني رائقةُ وصاحبتُها أمرًا ما سمعَتْه أُذنايَ بُعَيْد ليالي جاهليتنا مع جَبَلَةَ بن الأيْهَم، ثم تبسم وجلس فقال: لقد رأيت عَشْرَ قِيان؛ خمسٌ روميات يغنين بالرومية بالبَرابط[1]، وخمسٌ يغنين غناء أهل الحِيرة أهداهُنَّ إليه إياس بن قَبِيصة، وكان يفَدِ إليه من يغنّيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشربِ فُرِش تحته الآسُ والياسمين وأصنافُ الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأُتيَ بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأوقد له المندَّى إن كان شاتيًا، وإن كان صائفًا أُتي هو وأصحابه بكِساء[2] صيفية يتفضّلون[3] بها، وفي الشتاء يؤتى بفراء الفَنَك[4] وما أشبهه، ولا والله ما جلستُ معه يومًا قط إلا خلع عليَّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حِلْم عمن جَهِل وضحك؛ وبَذْلٍ من غير مسألة، مع حُسْنِ وجه وحسن حديث، ما رأيت منه خَنًا قط ولا عَرْبدة، ونحن يومئذ على الشِّرك.

فجاء الإسلام فَمَحَا الكفر وتركْنا الخمر وما كَره. وأنت اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر، والفَضيخ[5] من الزهر والرطب؛ فلا يشرب أحدُكم ثلاثة أقداح حتى يذهب بعقله ودينه؛ أفلا تنتهون!

حَفْل غِناء[6]

خرجت جميلةُ[7] حاجَّةً، فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ، وحجَّ معها من القيان مُشَيِّعَاتٍ لها ومعظِّماتٍ لِقَدْرها ولِحَقِّها خمسون قيْنَة وَجَّهَ بهِنَّ مواليهنّ معها؛ وَأَعطَوْهُنّ النفقاتِ وحَملوهنّ على الإبل في الهوادج والقِباب وغير ذلك؛ فأبتْ جميلةُ أن تُنفِقَ واحدةٌ منهنّ درهمًا فما فوقه حتى رَجَعْنَ. وتخايَر مَن خرج معها في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظَّريف

(١) البربط: العود. (٢) الكساء: جمع كسوة.
(٣) التفضل: التوشح؛ وأن يخالف المرء بين أطراف ثوبيه.
(٤) الفنك: دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها.
(٥) الفضيخ: شراب يتخذ من بسر. (٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩، نهاية الأرب: ٥: ٤٣.
(٧) هي جميلة مولاة بني سليم، كانت أصلًا من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريبًا.

والهوادج والقِباب، فلم يَرَ أهلُ المدينة مثل ذلك الجمع سَفْرًا[١] طَيِّبًا، وحُسنًا ومَلاحة.

ولما قاربوا مكة تلقّاهم سَعيدُ بن مِسْجَح وابنُ سُرَيْج والغريضُ وابنُ مُحْرِز والهُذَليُّون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقِيَانٌ كثيرٌ، ومن غير المغنين عمرُ بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد المخزوميّ والعَرْجي، وجماعةٌ من الأشراف.

فدخلت جميلةُ مكة وما بالحجاز مُغَنٍّ حاذقٌ ولا مغنيةٌ إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سمّينا وغيرهم من الرجال والنساء. وخرج أبناءُ أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جَمْعها وحُسْنِ هيئتهم.

فلما قَضَتْ حجَّها سألها المكِّيُّونَ أن تجعل لهم مجلسًا؛ فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لَهُمَا جميعًا. قالت: ما كنتُ لأخْلِطَ جِدًّا بهَزْل، وأبت أن تجلسَ للغناء. فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمتُ على مَن كان في قلبه حبٌّ لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج، فعزَم القوم كلُّهم على الخروج، فخرجَتْ في جمعٍ أكثرَ من جمعها بالمدينة.

فلما قَدِمَت المدينةَ تلقَّاها أهلها وأشرافُهم من الرجال والنساء؛ فدخلت بأحسنَ مما خرجتْ منها، وخرج الرجالُ والنساءُ من بيوتهم فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعِها وإلى القادمين معها. فلما دخلت منزلها وتفرَّقَ الجمعُ إلى منازلهم، ونزل أهلُ مكة على أقاربهم وإخْوانهم أتاها الناسُ مُسَلِّمينَ، وما اسْتَنْكَفَ من ذلك كبيرٌ ولا صغيرٌ.

فلما مضى لِمَقْدَمِها عشرةُ أيام جلستُ للغناءِ، فقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسةٌ لكَ ولأصحابك وإذا شئتَ فَعِدِ الناس لذلك اليوم، فَغَصَّتِ الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء، فابتدأت جميلةُ فغنَّت صوتًا بشعر عُمَر[٢]:

هيـهـاتَ مـن أَمَـةِ الـوَهَّـاب مـنـزِلُـنـا　　إذا حَـلَـلْـنـا بـسـيـفِ[٣] الـبـحـر مـن عَـدَنِ

---

(١) السفر: المسافرون.

(٢) كان الحارث بن أبي ربيعة ينهى أخاه عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه، فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعرًا، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بلحج وأبين مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول الشعر، فطرب يومًا فقال هذا الشعر!

(٣) سيف البحر: ساحله.

واحْتَلَّ أهْلُكِ أجْيادًا[١] وليس لنا ... إلا التذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ

لو أنها أبصرتْ بالجِزْعِ عَبرتَهُ ... مِنْ أنْ تَغَرّدَ قُمْريٌّ على فَنَنِ

إذَنْ رَأَتْ غيرَ ما ظَنَّتْ بصاحبها ... وأيقنتْ أنَّ لَحْجًا[٢] ليس من وطني

ما أَنْسَ لا أَنْسَ يوم الخَيْفِ[٣] موقِفَهَا ... وموقِفي وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ

وقولَها للثريا وهي باكيةٌ ... والدمعُ منها على الخدين ذو سَنَنِ[٤]

باللهِ قولي له في غير مَعتَبةٍ: ... ماذا أرَدْتَ بطولِ المُكْث في اليمنِ؟

إن كنت حاولتَ دنيا أَوْ نَعِمْت بها ... فما أصبتَ بتركِ الحجِّ من ثَمن

فكلهم استحسنَ الغِناء وضَجَّ القومُ من حُسْن ما سمعوا؛ ودَمَعتْ عينُ عمر حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته، ثم أقبلتْ على ابن سُرَيج فقالت: هاتِ، فاندفع يُغنّي ورفعَ صوتَه بشعر عمر:

أَليسَتْ بالتي قالتْ ... لمولاةٍ لها ظُهُرَا

أشيري بالسلام لَهُ ... إذا هوَ نحوَنا نظَرَا

وقولي في مُلاطفةٍ ... لزَينبَ نَوِّلي عُمَرَا

وهذا سِحْرُكَ النِّسْوا ... نَ قد خَبَّرْنني الخبَرَا

فسُمع من ابن سُرَيج في هذا اللَّحْن من الحسن ما يقال إنه ما سُمعَ مثلُه. ثم قالت لسعيد بن مِسجَح: هات يا أبا عثمان، فاندفع فغنّى:

قد قُلْتُ قبل البَيْنِ لما خَشِيتُه ... لِتُعْقبَ وُدًّا أو لتعلمَ ما عندي

لكِ الخيرُ هَلْ من مصدرٍ تصْدُرينَه[٥] ... يُريحُ كما سَهَّلْتِ لي سُبلَ الوِرْدِ

فلما شَكَوتُ الحبَّ صدّتْ كَأنما ... شكوتُ الذي ألْقى إلى حَجَرٍ صَلْدِ

فاستُحْسِن ذلك منه وبرع فيه. ثم قالت: يا معبد، هاتِ؛ فغنّى:

أحاربُ مَنْ حاربتَ من ذي عداوةٍ ... وأحْبسُ مالي إن غَرِمتَ فأعقلُ[٦]

---

(١) أجياد: موضع بمكة.

(٢) لحج: فخلاف باليمن.

(٣) الخيف: موضع بمنى.

(٤) ذو سنن: ذو طرائق.

(٥) يقال: صدر هو، وصدر غيره وأصدره.

(٦) يريد فأعقل عنه، وعقل عنه: إذا غرم ما لزمه من دية.

وإني أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أَحُلْ ... إنَ ابْزَاكَ[١] خصمٌ أو نبا بكَ منزلُ
ستقطعُ في الدنيا إذا ما قطعتَني ... يمينَك فانظر أيَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قالت جميلة: أحسنتَ يا مَعْبَدُ اختيار الشعر والغناء.

ثم قالت: هاتِ يا ابنَ مُحْرِز؛ فإني لم أُؤخِّرْك لخساسةٍ بك؛ ولا جهلًا بالذي يجب في الصناعةِ؛ ولكنني رأيتُك تحبُّ من الأمور كلِّها أوسطَها وأعدلَها؛ فجعلتك - حيث تحبّ - واسطةً بين المكّيين والمدنيين، فغنّى.

ثم قالت للغريض: هات، فاندفع يغني بشعر عَمْرو بن شاس:

فواندمي على الشباب وَوَانَدَمْ ... نَدِمْتُ وبان اليومَ مني بغير ذَمْ
وإذ إخوتي حَوْلي وإذ أنا شائخٌ ... وإذ لا أُجِيبُ العاذِلاتِ من الصَّمَم
أرادت عَرَارًا[٢] بالهوان ومن يُرِدْ ... عَرارًا لَعَمْرِي بالهوَانِ فقد ظَلَمْ

قالت جميلة: أَحْسَنَ عَمْرُو بن شأس ولم تحسن؛ إذ أفسدتَ غِناءَك بالتَّعريض؛ والله ما وَضَعْنَاكَ إلا موضِعَك، ولا نَقَصْنَا من حظك، فبماذا أَهَنَّاكَ!

ثم أقبلت على الجماعة فقالت: يا هؤلاء، اصدُقوه وعرِّفوه نفسَه ليقنعَ بمكانه؛ فأقبل القوم عليه، وقالوا له: قد أخطأتَ إن كنتَ عرَّضت. فقال: قد كان ذلك! ولستُ بعائدٍ. وقام إلى جميلة فقبَّلَ طرفَ ثوبها واعتذر، فَقَبِلَتْ عُذْرَه، وقالت له: لا تَعُدْ.

ثم أقبلت على ابن عائشة فقالت: يا أبا جعفر؛ هاتِ، فتغنّى بشعر النابغة:

سقى الغيثُ قبرًا بين بُصْرَى[٣] وجاسم ... عليه من الوَسْمِيِّ[٤] جَوْدٌ ووابلُ

---

(١) لم أحل: لم أتغير. أبزاك خصم: قهرك. والشعر لمعن بن أوس، وهو شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام.

(٢) هو عرار بن عمرو بن شأس، وهو من أمة لعمرو سوداء، وكان بينه وبين زوج أبيه نزاع وخصام، فقد كانت تؤذيه وتعيره وتشتمه، وحاول عمرو أن يصلح ما بينهما فلم يفلح فطلقها.

(٣) بصرى وجاسم: موضعان بالشام.

(٤) الوسمي: اول المطر لأنه يَسِم النبات.

قالت جميلة: حَسَنٌ ما قلت يا أبا جعفر. ثم أقبلت على نافع وبُدَيحٍ فقالت: أحب أن تُغَنِّياني صوتًا واحدًا؛ فغنّيا جميعًا بصوتٍ واحد ولحنٍ واحد:

أَلا يَا مَنْ يلومُ على التصابي ... أَفِقْ شيئًا لتسمعَ من جوابي
بَكرْتَ تَلُومُني في الحبِّ جَهلا ... وما في حبِّ مثلي من مَعَاب[١]
أليسَ من السعادة غيرَ شَكٍّ ... هَوَى متواصلَين على اقتراب
كريمٌ نال وُدًّا في عفافٍ ... وسَتْر من مُنَعَّمَةٍ كَعَابِ[٢]

فقالت جميلة: هَوَاكُمَا والله واحد، وغِناكما واحد، وأنتما نُحتِمًا من بقية الكرم وواحدِ الشرف: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

ثم أقبلت على الهذليِّين الثلاثةِ فقالت: غَنُّوا صوتًا واحدًا، فاندفعوا فَغَنَّوْا بشعر عنتَرَةَ العبسيِّ:

حُيِّيتَ من طَلَل تقادَمَ عهدُهُ ... أقْوَى وأقْفَرَ بعدَ أُمِّ الهيْثم
كيفَ المزَارُ وقد تربَّع أهلُها ... بعُنيزَتَينِ وأهلُنا بالغَيْلَم[٣]
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما ... زُمَّتْ[٤] ركابكُم بليلٍ مُظلمِ

قالت: ما رأيتُ شيئًا أشبهَ بغنائكم من اتِّفاق أرواحكم.

ثم أقبلت على نافعِ بن طُنْبُورة، فقالت: هاتِ يا نَقْشَ الغَضَار[٥]، ويا حَسَنَ اللسان، فاندفع يغني:

يا طُولَ ليلي وبتُّ لم أَنَم ... وِسادِيَ الْهَمُّ مُبْطِنٌ سَقَمي
أَنْ قُمْتُ يومًا على البَلاط[٦] فأبْـ ... ـصرتُ رَقاشًا وليت لم أَقُمِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله!

ثم قالت: يا مالك؛ هاتِ؛ فإني لم أؤخرك لأنك في طبقة آخرهم، ولكني أردتُ أن أختمَ بك يومنا تَبَرُّكًا بك، وكي يكونَ أولُ مجلسنا كآخره، ووسطُه

---

(١) معاب: عيب؛ وهو مصدر ميمي. (٢) كعاب: ناهدة الثدي.
(٣) عنيزتين: موضع، والغيلم: موضع في ديار بني عبس.
(٤) زم البعير: خطمه.
(٥) الغضار: الطين اللازج الأخضر، وهو لقب له.
(٦) البلاط: الأرض، وقيل: الأرض المستوية الملساء.

كطرَفه، فإنك عندي ومعبدًا لفي طريقةٍ واحدةٍ ومذهب واحد، لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ، ولا ينكرُه إلا عاضلٌ[١]، الحقَّ أقولُ، فمن شاه فلْينكرِ، فسكت القوم كلهم إقرارًا لما قالت؛ واندفع يغنّي:

عـدوٌّ لـمنْ عـادَتْ وسَـلْمٌ لِسَـلْمِـهـا ... ومـن قَـرَّبَـتْ سـلْمَـى أَحَـبَّ وقَـرَّبَـا
هَـبِـيـنـي امـرَأً إمـا بـريـئًا ظـلـمـتِـه ... وإمـا مُـسـيـئًا تـاب بـعـدُ وأعْـتـبـا
أقـول ـ الـتـماسَ الـعذرِ لـمَّا ظلمتنِي ... وحَـمَّلْتِـنِي ذنـبًا ومـا كـنـتُ مُـذْنـبَـا
لِيَـهْـنِـئْك إشـمـاتُ الـعـدوِّ بـهَـجـرنـا ... وقطعُك حبل الوَصل حتى تَقَضَّبا[٢]

قالت جميلة: ليتَ صوتَك يا مالك قد دام لنا ودُمْنا له! وقطعت المجلس؛ وانصرف عامةُ الناس وبقي خواصُّهم.

فلما كان اليومُ الثاني حضر القوم جميعًا، فقالت لطُوَيس: هاتِ يا أبا عبد النعيم، فابتدأ طويس فغنّى.

قـد طـال لَـيـلي وعـادَ لِي طَـرَبـي ... من حُبِّ خَوْدٍ[٣] كريمةِ الحسبِ
غَـرّاءَ مـثـل الـهـلالِ آنـسـةٍ ... أو مثلِ تمثالِ صورة الذَّهبِ
صادتْ فـؤادي بـجـيـدِ مُـغْـزِلَة[٤] ... تَـرْعَـى رِيـاضًـا مُـلْتَـفَّـةَ الـعُـشُـبِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم!

ثم قالت للدَّلَال: هاتِ يا أبا يزيد، فاندفع فغنّى:

قـد كـنـتُ آمُـلُ فـيـكُـمُ أمـلًا ... والـمـرءُ لـيـس بـمـدرَكٍ أمَـلُهْ
حـتـى بَـدَا لِي مـنـكُـم خُـلُـفٌ ... فزجَرْتُ قلبي فارْعَوَى جَـهَـلُهْ
لـيـسَ الـفـتـى بـمُـخَـلَّدٍ أبـدًا ... حَـيًّـا، ولـيـسَ بـفـائـتٍ أجَـلُهْ

قالت: حسنٌ والله يا أبا يزيد! ثم قالت لهيتٍ: إنّا نُجلُّكَ اليومَ لِكِبر سِنِّك ورِقَّةِ عظمِكَ. قال: أجل!

ثم قالت لبَرْدِ الفؤادِ ونَوْمَةِ الضُّحَى: هاتيا جميعًا لحنًا واحدًا فغنَّيَا:

إنـي تـذكـرتُ فـلا تَـلْحَـنِـي ... لـؤلـؤة مـكـنـونـة تَـنْـطِـقُ

---

(١) العضل: المنع.
(٢) تقضب: تقطع.
(٣) الخود: الحسنة الخلق الشابة.
(٤) المغزلة: الظبية ذات الغزال.

فقالت جميلة: أحسنتما.

ثم قالت لِفِند ورحمة وهبَة الله: هاتوا جميعًا صوتًا واحدًا؛ فإنكم متفقون في الأصوات والألحان؛ فاندفعوا فَغَنّوْا:

أشاقَكَ من نحو العَقيقِ بُرُوقُ ... لوامعُ تَخْفَى تارة وتَشُوقُ

وما لِيَ لا أَهْوَى جَواريَ بَرْبَرٍ ... ورُوحي إلى أرواحهنّ تَتُوقُ

لهنَّ جمالٌ فائقٌ ومَلاحةٌ ... وَدَلٌّ على دَلّ النساءِ يَفُوقُ

وكان بَرْبَرٌ حاضرًا، فقال: جواريّ والله على ما وصفْتُمْ؛ فمن شاءَ أقرّ ومن شاء أنْكَرَ. فقالت جميلة: صَدَقَ. ثم غَنَّتْ جميلة بشعر الأعشى:

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حبلُها انْقَطَعَا ... وَاحْتَلَّتِ الغَوْرَ فَالْجَدَّيْنِ فالفَرَعا[1]

واستنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

تقولُ بِنتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحلا: ... يا رَبّ جَنِّبْ أبي الأوْصابَ والوَجَعا

وكان شيءٌ إلى شيء فغَيَّرَه ... دَهْرٌ مُلِحٌّ على تَفْرِيقِ ما جمَعا

فلم يُسْمَعْ شيءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها في اليوم الثاني، وقطعت المجلسَ، فانصرف قوم وأقام آخرون.

فلما كان اليومُ الثالث اجتمع الناسُ، فضربتْ سِتارة وأجلست الجواريَ كلَّهن فضرَبْنَ وضرَبتْ. فضرَبْنَ على خمسين وترًا، فتزلزلتِ الدارُ؛ ثم غنَّت على عودها؛ وهنَّ يضربن على ضربها بهذا الشعر:

فإن خَفِيتْ كانتْ لعَيْنكَ قُرّةً ... وإن تَبْدُ يومًا لم يُعَمِّمك[2] عارُها

من الخِفرَاتِ البيضِ لم تَرَ غِلْظةً ... وفي الحسب الضخمِ الرفيعِ نجَارُها

فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثرى ... يمجُّ الندى جَثْجَاثُها[3] وعَرَارُها

بأَطيب من فيها إذا جئتَ طارقًا ... وقد أُوقِدَتْ بالمندَلِ[4] الرطبِ نارُها

---

(١) الجدان والفرح: موضعان. (٢) لم يعممك: لم يلحقك.

(٣) الجثجاث: من أحرار الشجر، له زهرة صفراء طيبة. والعرار: نبت طيب الريح وهو النرجس البري.

(٤) المندل: أجود العود.

فدمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلُّوا ثيابهم وتنفَّسوا الصُّعدَاء، وقالوا: بأنفسنا أنت يا جميلة، ثم قالت للجواري: اكفُفْنَ، فكَففْنَ؛ وقالت: يا عزُّ؛ غنّي، فغنَّت بشعر لعمرَ:

تـذكـرتَ هـنـدًا وأعـصـارَهـا[١] ولـم تـقْـضِ نـفـسُـك أوطـارَهـا

تَذَكَّـرَتِ الـنـفـسُ مـا قـد مَـضـى وهـاجتْ على العين عُوَّارها[٢]

لِتَـمْـنـحَ رامـةَ مـنَّـا الـهـوى وتَـرْعَـى لِرَامـةَ أسـرارَهـا

إذا لـم نَـزُرْهـا حِـذَارَ الـعِـدَا حَـسـدْنـا عـلى الـزَّوْرِ زُوَّارهـا

فقالت جميلة: يا عَزَّ، إنكِ لباقيةٌ على الدهر، فهنيئًا لكِ حسنُ هذا الصوت مع جَوْدَةِ هذا الغناء!

ثم قالت لِحَبابَةَ وسَلَّامَةَ: هاتيا لحنًا واحدًا، فغنَّتا:

كفى حَزنًا أني أغِيب وتَشْهَدُ وما نَلْتَقي والقلبُ حَرَّانُ مُقْصَدُ[٣]

ومن عجبٍ أني إذا الليل جَنَّني أقومُ من الشوق الشديد وأقعدُ

أَحِنُّ إليكم مثلَ ما حَنَّ تائقٌ إلى الوِرْدِ عطشانُ الفؤاد مصرَّدُ[٤]

ولي كَبِدٌ حَرَّى يعذِّبها الهوَى ولـي جَسَدٌ يَبْلى ولا يتجَدَّدُ

فاستُحْسن غناؤهما.

ثم أقبلت على خُلَيْدَة، فقالت لها: بنفسي أنت! غَنِّي، فغنّت:

ألا يـا مَـنْ يـلومُ عـل الـتَّـصَـابـي أَفِـقْ شـيـئًا لِتَـسْـمَـعَ مـن جـوابـي

بكرْتَ تلومُني في الحبِّ جَهْلًا وما في حبِّ مثلي من مَعَابِ

أَلـيـس مـن الـسـعـادة غـيـر شـكٍّ هـوَى مُـتَـوَاصِـلَـين على اقـترابِ

كـريـمٌ نـال وُدًّا فـي عَـفـافٍ وسَـتـرٍ مـن مُـنَـعَّـمـةٍ كَـعَـابِ

---

(١) الأعصار: جمع عصر، يريد الأوقات التي كان يجتمع معها فيها.
(٢) العوار: ما عار في العين من القذى والرمد فأوجعها.
(٣) مقصد: مجروح. (٤) التصريد: سقي دون الري.

فاستُحسن منها ما غنّت. ثم قالت لعُقَيلَة والشَّمّاسية: هاتيا فغنَّتا:

هجرتِ الحبيبَ اليومَ في غير ما اجْترَمْ ... وقطَّعْتِ من ذي وُدِّكِ الحبلَ فانصرمْ
أَطعتِ الوشاةَ الكاشحين ومَنْ يُطِع ... مقالةَ واشٍ يَقْرَع السنَّ من نَدَمْ

ثم قالت لِفَرْعة وبُلْبُلَة ولذةِ العيش: هاتين فغنِّينَ، فاندفعن بصوت واحد:

لعَمْرِي لئن كان الفؤادُ من الهوَى ... بَغَى سقَما إني إذنْ لسَقِيمُ
عليَّ دماءُ البُدْن إن كان حُبُّها ... على النأي في طول الزمان يَرِيمُ
تُلمُّ مُلمَّاتٌ فيُنْسَيْنَ بَعدهَا ... ويُذْكَرُ منها العهدُ وهو قديمُ
فأقسمُ ما صافيتُ بعدكِ خُلَّةً[1] ... ولا لكِ عندي في الفؤاد قَسيمُ

قالت: أحسَنْتُن، وهو لَعَمْرِي حسنٌ!

وقالت لسُعْدَةَ والزرقاء: غنيَا، فغنتا، فاستُحْسِن غناؤهما.

ثم قالت للجماعة: غَنّوا جميعًا؛ فغنَّوْا، وانفضَّ المجلسُ، وعاد كل إنسان إلى وطنه. فما رُئيَ مجلس ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام!

الغِنَاء يُحيِي القَلْب[2]

حدَّث مَن يفهم الغناء، قال:

بلغني أن جميلةَ قعدتْ يومًا على كرسيّ لها وقالت لآذِنَتها: لا تحجُبي عنا أحدًا اليوم، واقعُدِي بالباب، فكلُّ من يمُرُّ بالباب فاعرِضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غَصَّتْ الدارُ بالناس؛ فقالت جميلة: اصعَدوا إلى العَلَاليّ[3]؛ فصعِدت جماعةٌ حتى امتلأت السطوح.

فجاءتها بعضُ جواريها فقالت لها: يا سيدتي؛ إنْ تمَادَى أمْرُكِ على ما أرَى لم يبقَ في داركِ حائطٌ إلا سقط، فأظْهِري ما تريدين؟ قالت: اجلسي!

فلما تعالى النهار واشتدّ الحر استسقى الماءَ الناسُ، فدعَتْ لهم بالسَّوِيق[4]، فشرب مَنْ أراد، ثم قالت: أقسمتُ على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يَبْقَ في سُفْلِ الدار ولا عُلْوِها إلّا شَرِبَ، وقام على رؤوسهم الجواري

---

(١) الخلة: الخليلة.
(٢) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٤.
(٣) العلالي: جمع علية، وهي الغرفة.
(٤) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير.

بالمناديل والمرَاوح الكبار، وأمرت جوَاريَها فَقُمْنَ على كراسيِّ صِغَارٍ فيما بين كل عشرةٍ جاريةً تُروِّح.

ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئًا أفزعني وأرْعَبني، ولستُ أعرفُ ما سببُ ذلك، وقد خفتُ أن يكون قربَ أجلي، وليس ينفعني إلا صالحُ عملي، وقد رأيتُ أن أتركَ الغناء كراهَةَ أن يَلْحَقني منه شيء عند ربي!

فقال قوم منهم: وفَّقكِ الله وثبَّتَ عزْمَكِ! وقال آخرون: لا حَرَج عليكِ في الغناء. وقال شيخ منهم ذو سِنٍّ وعلم وفِقْهٍ وتجربة: قد تكلمتِ الجماعة، وكلّ حزْبٍ بما لديهم فَرِحُون، ولم أعترضْ عليهم في قولهم، ولا شَرِكْتُهُمْ في رأيهم فاسْتَمِعوا الآن لقولي، وأنْصِتوا ولا تَشْغَبُوا[١] إلى وقت انقضاء كلامي، فمن قَبِلَ قولي فالله موَفِّقُهُ، ومَن خالفني فلا بأسَ عليه إذ كنتُ في طاعة ربي.

فسكت القومُ جميعًا، وتكلّم الشيخُ فحَمِدَ الله وأثنى عليه وصلّى على محمد النبيِّ ﷺ. ثم قال: يا معشرَ أهلِ الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فشلتم، ووثبَ عليكم عَدُوّكم، وظفِر بكم، ولا تُفْلِحوا بعدها أبدًا... إلى أن قال: إن الغِناءَ من أكبر اللذات، وأَسَرُّ للنفوس من جميع الشَّهوات، يُحيي القلب، ويزيد في العقل، ويَسرُّ النفس، ويَفْسَحُ في الرأي، ويتيسّر به العسيرُ، وتُفْتح به الجيوش، ويذلّل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه، ويُبرىء المرضى ومَن مات قلبُهُ وعقلُه وبصرُه، ويزيدُ أهل الثروة غنًى وأهلَ الفقر قناعة ورضًا باستماعه، فَيَعزِفُون[٢] عن طلب الأموال. مَن تمسّك به كان عالمًا، ومَن فارقه كان جاهلًا؛ لأنه لا منزلة أرفعُ، ولا شيءَ أحسنُ منه، فكيف يُسْتَصْوَبُ تركه، ولا يُستعان به على النشاط في عبَادَةِ ربنا عزّ وجلّ! وكلام كثيرٌ غير هذا.

فما ردَّ عليه أحد، ولا أنكَرَ ذلك منهم بَشرٌ، وكلٌ عاد بالخطأ على نفسه، وأقرّ بالحق له!

ثم قال لجميلة: أوَعَيْت ما قلتُ؟ ووقع من نفسك ما ذكرتُ؟ قالت: أجل! وأنا أستغفرُ الله. قال لها: فاختمي مجلسَنَا وفرِّقي جماعتنا بصوتٍ فقط، فغنَّت:

أَفي رَسْمِ دارٍ دمْعُك المترقرقُ   سَفَاهًا! وما استنطاقُ ما ليس يَنطِقُ

---

(١) شغبت على القوم: هيجت الشر عليهم.

(٢) عزفت نفسي عن الشيء: تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه.

بحيثُ الْتَقى جمْعٌ وأقصى مُحَسِّرٍ[١] مَغَانِيه قد كادتْ عن العهد تَخْلُقُ
مُقامٌ لنا بعد العِشاء ومَنزلٌ به لم يكدِّرْهُ علينا مُعَوِّقُ
فأحسنُ شيء كان أولُ ليلنا وآخرهُ حُزنٌ إذا نتفرَّقُ

فقال الشيخ: حَسنٌ واللهِ! أمثلُ هذا يُتْرك! لا والله ولا كرامةَ لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناسُ معه، وقال: الحمد لله الذي لم يفرّق جماعتَنا على اليأس من الغناء ولا جحودِ فضيلته، وسلامٌ عليكِ ورحمة الله يا جميلة.

ضَرب مِنَ التمثِيل[٢]

قال أبو عبد الله: جلستْ جَمِيلةُ يومًا ولَبِسَتْ بُرْنُسًا[٣] طويلًا، وألْبَسَتْ مَنْ كان عندها بَرَانِسَ دونَ ذلك، وكان في القوم ابنُ سُرَيْج، وكان قبيحَ الصَّلع، قد اتخذ وَفْرَةَ[٤] شَعْر يضعُها على رأسه، وأحَبّتْ جميلةُ أن ترى صَلَعَتَهُ[٥]، فلما بلغ البرنسُ إلى ابن سُرَيج قال: دبّرْتِ عليّ وربِّ الكعبة! وكشف صَلعته ووضع القُلَنْسِيَةَ[٦] على رأسه، وضحك القوم من قُبْح صَلَعته.

ثم قامت جميلةُ ورقَصَتْ، وضربتْ بالعودِ، وعلى رأسه البُرْنُسُ الطويل، وعلى عاتقها بُرْدَةٌ يمَانيةٌ، وعلى القوم أمثالُها، وقام ابن سُرَيج يرقُص ومَعْبَد والغَريض وابن عائشةَ ومالكٌ، وفي يد كل واحدٍ منهم عُودٌ يضربُ به عَلَى ضَرْب جميلة ورَقْصِهَا، فَغَنَّتْ وغَنّى القوم على غنائها:

ذهب الشبابُ وليتَه لم يَذْهَبِ وعَلَا المَفارقَ وقعُ شَيْبٍ مُغْرِبِ[٧]
والغانِيَاتُ يُرِدْن غيركَ صاحبًا وَيَعِدْنَكَ الهِجْرَانَ بعد تَقرُّبِ
إنـي أقول مقالةً بتجاربٍ حَقًّا، ولم يُخْبِرْكَ مثلُ مُجَرِّبِ:
صَافِ الكريمَ وكنْ لِعِرْضِكَ صائنًا وعن اللئيم ومثلِه فتنكَّبِ

---

(١) جمع: علم للمزدلفة. ووادي محسر: موضع بين منى والمزدلفة.
(٢) الأغاني: ٨ - ٢٢٦.
(٣) البرنس: قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة أو ممطرًا.
(٤) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.
(٥) الصلعة: بفتح اللام وسكونها: موضع الصلع.
(٦) القلنسية: القلنسوة: ما يلبس في الرأس. (٧) مغرب: أبيض.

ثم دَعَتْ بثياب مُصَبَّغَةٍ ووَفْرة شعرٍ مثل وَفْرة ابن سُرَيج فوضعتها على رأسها، ودعت للقوم بمثلِ ذلك فلبسوا، ثم ضربت بالعود وتمشَّت وتمشَّى القوم خَلْفَهَا، وغنَّتْ وغنّوا بغنائها بصوت واحد:

يَمشين مَشيَ قَطَا البطَاح تأوُّدًا[1] قُبَّ[2] البُطون رواجحَ الأكْفَالِ
فيهنَّ آنسةُ الحديثِ حَيِيَّةٌ ليست بفاحشةٍ ولا مِتْفَال[3]
وتكون ريقتُها[4] إذا نبَّهتَهَا كالمسك فوق سُلَافة الجِرْيَالِ[5]

ثم نَعَرَتْ[6] ونَعَر القومُ طربًا، ثم جَلَست وجلسوا وخلعوا ثيابهم، ورجعوا إلى زِيِّهم، وأذِنَتْ لمن كان ببابها فدخلوا، وانصرف المُغَنُّون، وبقي عندها من يطارِحُها من الجواري!

وفُود ابن مِسْجح عَلى عَبد الملك بن مروَان[7]

قال دَحْمان الأشقر: كنتُ عاملًا لعبد الملك بن مرْوان بمكة، فنُمِيَ إليه أنَّ رجلًا أسودَ يقال له: سَعِيدُ بنُ مِسْجَحٍ[8] أفسدَ فِتْيان قريش، وأنفقوا عليه أموالَهم؛ فكتب إليَّ: أن اقبض ماله وسيِّره، ففعلتُ.

فتوجّه ابنُ مسجح إلى الشام، فصحبه رجلُ له جَوَارٍ مُغَنِّياتٌ في طريقه، فقال له: أين تُريد؟ فأخبره خبرَه، وقال له: أريدُ الشام. قال له: فتكونُ معي؟ قال: نعم.

فصحِبه حتى بلغا دِمَشق، فدخلا مسجدَها، فسألا: مَنْ أخَصُّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا: هؤلاءِ النفَرُ من قريش، فوقف ابن مِسْجَح عليهم وسلّم، ثم قال: يا فِتيانُ؛ هل فيكم من يُضيف رجلًا غريبًا من أهل الحجاز! فنظر بعضُهم إلى بعض ـ وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَينة يقال لها: «بَرْقُ الأُفق» ـ فتثاقلوا

---

(١) تأود الشيء: تعوج، وتثنى.
(٢) قب البطون: ضامري البطون.
(٣) المتفال: المتغيرة الريح لترك التطيب.
(٤) الريق: ماء الفم ويؤنث في الشعر.
(٥) الجريال: من أسماء الخمر.
(٦) نعر الرجل: صاح، وصوت بخيشومه.
(٧) الأغاني: ٢ ـ ٢٧٢.
(٨) سعيد بن مسجح. أحد الموالي، مكي أسود، مغن مقتدر، كان أول مَن غنّى الغناء العربي بمكة، وهو الذي علم ابن سريج والغريض.

به إلا فتى منهم تَذَمَّم[١]؛ فقال: أنا أُضيفك. وقال لأصحابه: انطلقوا أنتم، وأنا أذهب مع ضيفي. قالوا: لا، بل تجيء أنتَ وضيفُك.

فذهبوا جميعًا إلى بيت القَيْنة؛ فلما أتُوا بالغَداء قال لهم سعيد: إني رجل أسود، ولعل فيكم مَن يَقْذَرُني[٢]، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً، وقام. فاستحْيَوْا منه، وبعثوا إليه بما أكل، فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثلَ ذلك، ففعلوا به كما فعلوا في المأكل. وأخرجوا جاريتين فجلستا على سرير قد وُضِعَ لهما فغنَّتَا إلى العشاء. ثم دخلتا، وخرجت جاريةٌ حسنَةُ الوجه والهيئةِ، وهما معها، فجلست على السرير وجلستا أسفلَ منها عن يمين السرير وشِمَاله، قال ابن مسجح: فتمثَّلْتُ هذا البيت:

فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعةٍ[٣]
بَدَتْ لك خلف السَّجِف[٤] أم أنت حالمُ!

فغضبت الجاريةُ، وقالت: أيضرِبُ هذا الأسود بي الأمثالَ! فنظروا إليَّ نظرًا مُنْكرًا، ولم يزالوا يسكِّنُونها، ثم غنّت صوتًا. فقلت: أحسنتِ والله؛ فغضب مولاها، وثال: أمثلُ هذا الأسود يُقدِمُ على جاريتي! فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده: قم فانصرف إلى منزلي؛ فقد ثَقُلْتَ على القوم. فذهبتُ أقُوم فتذمَّم القوم، وقالوا لي: بل أقِم وأحْسن أدَبك، فأقمت وغنّت. فقلت: أخطأتِ والله وأسأتِ! ثم اندفعتُ فغَنَّيتُ الصوت. فوثبتِ الجارية وقالت لمولاها: هذا والله أبو عثمان سعيدُ بن مُسْجح! فقلت: والله أنا هو، والله لا أُقيم عندكم! فوثب القُرشيون؛ فقال هذا: يكونُ عندي. وقال هذا: يكون عندي. وقال هذا: بل عندي! فقلت: والله لا أُقيم إلا عند سيِّدكم ـ يعني الرجلَ الذي أنزله منهم.

ثم سألوه عمّا أقدَمه؛ فأخْبَرهم الخبر، فقال له صاحبه: إني أَسْمُرُ الليلةَ مع أمير المؤمنين؛ فما تُحْسِنُ أن تَحْدُوَ؟ قال: لا! ولكني أَسْتَعْمِلُ حُداء.

قال: فإن منزلي بحذَاء منزل أمير المؤمنين؛ فإن وافقتُ منه طيبَ نفس أرسلتُ إليك.

---

(١) تذمم: خشي الذم واللوم.
(٢) قذرت الشيء: استقذرته وكرهته.
(٣) البيعة: كنيسة النصارى.
(٤) السجف ـ بالفتح ويكسر: الستر.

ومضى إلى عبد الملك، فلما رآه طيِّبَ النَّفْس أرسل إلى ابن مِسْجَح، فأخرَجَ رَأْسَه من وراء شُرَفِ القصر، ثم حَدَا:

إنكَ يا مُعَاذُ يا ابنَ الفُضَّلِ   إن زُلْزِلَ الأقدامُ لم تَزَلْزَلِ

عن دين موسى والكِتابِ المُنْزَلِ   تُقيمُ أَصْدَاغَ القرونِ المُيَّلِ[١]

للحقّ حتى يَنْتَحُوا للأَعْدَلِ

فقال عبد الملك للقرشي: مَن هذا؟ قال له: رجل حجازي قَدِمَ عليَّ. قال: أحْضره. فأحضره وقال له: احْدُ مُجِدًّا، ثم قال: هل تغني غناء الرُّكْبان؟ قال: نعم. قال: غنِّه. فتغنّى. فقال له: فهل تغني الغناء المُتقَن؟ قال: نعم. قال: غنّه، فتغنى.

فاهتزَّ عَبْدُ الملك طَرَبًا. ثم قال: أُقْسم إن لك في القوم لأسْماء كثيرةً! مَن أنت؟ ويلك! قال له: أنا المظلوم، المقبوض مالُه، المسَيَّر عن وطنه سعيد بن مُسْجَح، قَبضَ مالي عاملُ الحجاز ونَفَاني!

فتبسّم عبد الملك. ثم قال له: قد وضح عُذْرُ فتيان قريش في أن يُنفقوا عليك أموالهم. وأمّنه ووصله، وكتب إلى عامله بردِّ ماله عليه وألّا يعرِض له بسُوء.

الشِّعْر والغِنَاء[٢]

كان معاويةُ يَعيبُ على عبد الله بن جعفر سماعَ الغناء، فأقبل معاوية عامًا حاجًّا؛ فنزل المدينة، فمرَّ ليلة بدار عبد الله بن جعفر، فسمع عنده غناءً على أوتار، فوقف ساعةً يستمع، ثم مضى وهو يقول: أستغفر الله، أستغفر الله!

فلمَّا انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضًا، فإذا عبدُ الله قائم يصلِّي، فوقف ليسمع قراءته، فقال: الحمد لله، ثم مضى وهو يقول: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ».

---

(١) الصدغ: ما بين العين والأذن. والقرنان: جانبا الرأس، والصدغ: الميل، ومنه: «لأقيمن صدغك، أي ميلك».

(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٨، الأغاني: ٢ ـ ١٤٧.

فلما بلغ ابنَ جعفر ذلك أَعدَّ له طعامًا، ودعاه إلى منزله، وأحضر ابن صياد المُغَنّي، ثم تقدم إليه وهو يقول: إذا رأيتَ معاويةَ واضعًا يده في الطعام، فحرِّكْ أوتارك وغَنِّ؛ فلما وضع معاوية يَدَهُ في الطعام حرّك ابنُ صياد أوتاره وغنّى بشعر عَدِيّ بن زيد ـ وكان معاويةُ يعجب به:

يـا لُبَـيْـنَـى أَوْقِـدِي الـنَّـارَا إنّ مَـنْ تـهـويـنَ قـد حـارَا
ربَّ نـارٍ بِـتُّ أَرْمُـقُـهـا تَـقْـضِـمُ الـهِـنْـدِيَّ والـنَـارَا
عـنـدهـا ظـبـيٌ يُـؤَجِّـجـهـا عـاقِـدٌ فـي الـخـصـر زُنَّـارا[١]

فأعجب معاويةَ غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام، وجعل يضرِبُ برجله الأرض طَرَبًا؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر: يا أميرَ المؤمنين؛ إنما هو مختار الشعر يركَّب عليه مختار الألحان، فهل ترى به بأسًا؟ قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حِكمة الألحان.

قُل للكِرَام بِبَابِنَا يلِجُوا[٢]

بَيْنَا عبد الله بن جعفر في أزقّة المدينة إذ سمع غناء، فأَصْغَى إليه، فإذا بصوتٍ شَجِيّ رقيق لقَيْنَةٍ تغني:

قُـلْ لـلـكـرام بـبـابـنـا يَـلِـجـوا ما في التَّصَابي على الفتى حَرَجُ

فنزل عبدُ الله عن دابَّتِه: ودخل على القوم بلا إِذْنٍ؛ فلما رأوه قاموا إليه إجْلالًا، ورفعوا مجلسه؛ ثم أقبل عليه صاحبُ المنزل، فقال: يا ابن عم رسول الله؛ دخلتَ منزلنا بلا إذن، وما كنتَ لهذا بخليق! فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومنْ أذنَ لك؟ قال: قَيْنَتُكَ هذه، سمعتُها تقول:

قل للكرام ببابنا يَلِجُوا . . .

فإن كنَّا كرامًا فقد أُذِنَ لنا، وإن كنا لئامًا خرجنا مذمومين؛ فضحك صاحبُ المنزل وقال: صدقتَ، جُعلت فِدَاكَ! ما أنت إلا مِنْ أكرم الأكرمين.

---

(١) الزنار: أعلى وسط النصارى والمجوس، وقد روي هذا البيت في الأغاني:
عـنـدهـا ظـبـي يـؤرثـهـا عـاقـد فـي الـجـيـد نـقـصـارا
يؤرثها: يوقدها ويكثر حطبها. والنقصار: القلادة.
(٢) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٩.

ثم بعث عبدُ الله إلى جاريةٍ من جَوَاريه، فقال لها: غنّي، فغنَّت؛ فطَرِبَ القوم، وطرب عبد الله، فدعا بثياب وطِيْبٍ؛ فكسا القومَ وصاحب المنزل، وطيّبهم، ووهب له الجاريةَ، وقال له: هذه أحذق بالغناء مِنْ جاريتك.

عَبد الله بن جَعفَر ضَيف طوَيس[١]

كان عبد الله بن جعفر معه إخْوَان له في عَشِيَّةٍ من عَشَايا الربيع، فراحت عليهم السماء بمطرٍ جَوْد[٢]، فأسَالَ كلَّ شيء، فقال عبد الله: هل لكم في العَقِيق[٣]؟ فركبوا دوابهم، ثم انتَهَوْا إليه، فوقفوا على شاطئه، وهو يرمي بالزَّبَد مثل مَدِّ الفُرَات. وإنهم لينظرون إذ هاجتِ السماءُ، فقال عبد الله لأصحابه: ليس معنا جُنَّةٌ[٤] نَسْتَجِنُّ بها، وهذه سماءٌ خليقةٌ أن تَبُلَّ ثيابنَا، فهل لكم في منزل طُويس[٥] فإنه قريب منا فنستكنَّ فيه ويحدّثَنا ويُضحِكَنا ـ وطويس في النَّظّارَةِ يسمع كلامَ عبد الله بن جعفر.

فقال له عبدُ الرحمـٰن بن حسان بن ثابت: جُعلت فداك! وما تريد من طوَيس عليه غضب الله! هو يَشِينُ مَنْ عَرَفَه! فقال له عبد الله: لا تقلْ ذلك فإنه مليح خَفِيف لنا فيه أُنْس.

فلما استوفى طُوَيْسٌ كلامَهم تعجَّلَ إلى منزله فقال لامرأته: ويحك! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيّدُ الناس، فما عندك؟ قالت: نذبحُ هذه العَناق[٦] ـ وكانت عندها عُنَيِّقة قَدْ رَبَّتْهَا باللبن ـ وأَختبز خُبْزًا رُقاقًا. فبادر فذَبَحها، وعَجَنَتْ هي.

ثم خرج فتلقَّاه مُقبِلًا إليه؛ فقال له طُوَيس: بأبي أنتَ وأُمي! هذا المطرُ، فهل لك في المنزل فنستكِنَّ فيه إلى أن تكُفَّ السماء؟ قال: إياك أُريد. قال: فامْضِ يا سيِّدِي على بركةِ الله. وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا، فتحدَّثُوا حتى أَدركَ الطعام، فقال: بأبي أنت وأمي! تُكرمني إذا دخلتَ منزلي بأن تتعشّى عندي؛

(١) الأغاني: ٣ ـ ٣٢.
(٢) الجود: المطر الغزير، أو ما لا مطر فوقه.
(٣) العقيق: متنزه أهل المدينة في أيام المطر والربيع.
(٤) الجنة: ما استترت به.
(٥) اسمه عيسى بن عبد الله، وطويس لقب غلب عليه، وهو أول مَن غنى في الإسلام، وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.
(٦) العناق: الأنثى من ولد المعز.

قال: هات ما عندك. فجاء بعَنَاقٍ سمينةٍ ورُقاق. فأكل وأكل القوم حتى تملَّئُوا[١]، فأعجبه طِيبُ طعامِه؛ فلما غسلوا أيديَهم قال: بأبي أنت وأمي! أتَمَشَّى معك وأُغَنِّيك؟ قال: افعلْ يا طُوَيس، فأخذ مِلْحَفَةً فأتزر بها، وأخرى لها ذَنَبَيْن، ثم أخذ المُرَبَّع[٢] فتمشى، وأنشأ يغنِّي:

يا خليليّ نابني سُهُدِي	لم تنَمْ عيني ولم تَكَدِ
فشرابي ما أُسِيغُ وما	أشتكي ما بي إلى أحَدِ
كيف تَلْحُوني[٣] على رَجُلٍ	آنِسٍ تَلْتَذُّه كَبِدِي
مثلُ ضوء البَدْرِ طلعتُه	ليس بالزُّمَّيلَةِ النَّكِدِ[٤]
من بني آل المغيرة لا	خاملٍ نِكْسٍ ولا جَحِدِ[٥]
نظَرَتْ يومًا فلا نظرَتْ	بعدَه عيني إلى أحَدِ

فطرب القوم، وقالوا: أحسنت والله يا طُوَيس! ثم قال: يا سيدي؛ أتدري لمن هذا الشعر؟ قال: لا، والله ما أدري لمَنْ هو. إلا أني سمعت شعرًا حسنًا. قال: هو لفارعةَ بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام المخزومي. فنكَّس القومُ رؤوسَهم، وضرب عبد الرحمٰن برأسه على صَدْرِه[٦]، فلو شُقتِ الأرض له لدخل فيها.

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّ[٧]

جلس عبدُ الله بن جعفر يومًا عند عبد الملك بن مروان، فحدَّثه عن إقلالِ[٨] ابن أبي عَتِيق وكثرةِ عياله؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه، فأتاه ابنُ جعفر فأعْلَمَه بما دار بينه وبين عبد الملك وبَعَثَه إليه.

فدخلَ ابنُ عتيق على عبد الملك؛ فوجده جالسًا بين جاريتين قائمتين عليه تَمِيسان[٩] كغُصْنَيْ بَانٍ، بيد كل جارية مِرْوَحة، تروّح بها عليه، مكتوب

---

(١) تملئوا: امتلئوا من كثرة الأكل.
(٢) المربع: آلة من آلات الطرب.
(٣) لحاه يلحوه: لامه.
(٤) الزميلة: الجبان الضعيف.
(٥) النكس: الضعيف لا خير فيه. والجحد: القليل الخير.
(٦) ضرب برأسه على صدره: أطرق استحياء وخجلًا، وهو يريد بعبد الرحمٰن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت.
(٧) العقد الفريد: ٤ ـ ٩١.
(٨) فقر.
(٩) تميسان: تتبختران.

بالذهب في المِرْوَحة الواحدة:

إنـنـي أَجْـلِبُ الـريـا ح وبي يلعب الـخَـجِلْ
وحـجـابٌ إذا الـحـبـيـ ـبُ ثنى الرأسَ لـلقُبَـلْ
وغِـيـاث إذا الـنـديـ ـمْ تـغـنَّـى أو ارْتـجـل

وفي المروحة الأخرى:

أنـا فـي الـكـفّ لَطـيـفـه مسكنِي قصرُ الـخليفهْ
أنـا لا أَصْـلُح إلّا لـظـريـفٍ أو ظـريـفـه
أو وصيفٍ حَسَنِ القَـ ـدِّ شبيهٍ بالـوصـيـفَـه

قال ابنُ أبي عتيق: فلما نظرتُ إلى الجاريتين هوَّنتا الدنيا عليَّ، وأنْسَتَاني سوءَ حالي، ثم قلت: إنّ كانَتَا من الأنس فما نساؤنا إلّا من البهائم، فلما كررتُ بصري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي ـ وكنت لها مُحِبًا ـ تذكرت النار، وبدأ عبد الملك يتوجَّع لي بما حكى له ابنُ جعفر عنِّي، ويخبرني بما لِي عنده من جميل الرأي؛ فأكذبْتُ له كلَّ ما حكاه له ابنُ جعفر عني، ووصفت له نفسي بغايةِ المَلَا والجِدَة[1]؛ فامتلأ عبد الملك سرورًا بما ذكرت له وغمًّا بتكذيب ابن جعفر.

فلما عاد إليه ابنُ جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني، وأخبره بما حَلَّيْتُ[2] له نفسي، فقال: كذب، والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليلِ فَضْلِك، فضلًا عن كثيره.

ثم خرج عَبْدُ الله فلقيني، فقال: ما حملك على أن كذَّبتني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنت تراني وقد أجلسني بين شمس وقمر، ثم أَتَفَاقَرُ[3] عنده! لا والله، ما رأيت ذَلك لنفسي، وإنْ رأيته لي.

فلما أعلم بذلك عبدُ الله بن جعفر عبد الملك بن مروان قال: فالجاريتان لـه.

---

(١) الملا: سعة العيش. والجدة: الغنى. (٢) حلى نفسه: وصف حليته.
(٣) تفاقر: أظهر الفقر.

قال ابنُ أبي عَتِيق: فلمَّا صارتا إليَّ زرتُ عبد الله بن جعفر فوجدتُه قد امتلأ فرحًا وهو يشرَبُ، وبين يديه عُسّ[١] فيه عسل ممزوج يمسكُ وكافور، فقال: مَهيمْ[٢]؟ قلت: قد والله قبضتُ الجاريتين، قال: فاشرب، فتناولت العُسّ، فجرعت منه جَرْعة، فقال لي: زِدْ، فأبيتُ عليه، فقال لجارية له عنده تُغَنِّيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذي في نَعتهما، فحركت الجارية العود ثم غنّت:

عهدي بها في الحيّ قد جردت … صفراء مثل المهرة الضامِرِ
قد حَجَم[٣] النَّدْيُ على نحرها … في مشرق ذي بَهْجَةٍ ناضر
لو أسندت مَيْتًا إلى صدرها … قام ولم ينقل إلى قَابر[٤]
حتى يقول الناس مما رأوا: … يا عجبًا للميتِ الناشر

فلما سمعتُ الأبيات طِربت، ثم تناولتُ العُسّ، فشربت عَللًا[٥] بعد نَهَل، ورفعت عقيرتي أغني:

سَقَوْني وقالوا: لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا … جبال حُنَيْنٍ ما سَقوْني لغَنَّتِ

عَبد الله بن جَعفَر عِندَ جَميلة[٦]

جلستْ جميلةُ[٧] يومًا للوِفادةِ عليها، وجعلت على رؤوسِ جواريها شُعورًا مُسْدَلَةً كالعناقيد إلى أعجازهنَّ، وألبستهنّ أنْوَاع الثياب المصبَّغة، وَوَضَعت فوق الشعور التيجانَ، وزيَّنَتْهُنَّ بأنواع الْحُليّ.

ووجَّهتْ إلى عبد الله بن جعفر تَسْتَزيره، وقالت لكاتب أملتْ عليه: «بأبي أنت وأمي! قَدْرُك يَجِلُّ عن رسالتي، وكرمُك يحتَمِلُ زَلّتي، وذَنْبِي لا تقَالُ عَثْرَتُهُ، ولا تُغْفَرُ حَوْبَتُه[٨]؛ فإن صَفَحْتَ فالصفحُ لكم معشرَ أهلِ البيت يُؤْثَر، والخير

(١) العس: القدح العظيم.
(٢) كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك؟ أو ما وراءك؟ أو أحدث لك شيء؟
(٣) حجم الثدي: نهد.
(٤) قبره يقبره: دفنه، أي إلى دافن.
(٥) العلل: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعًا، والنهل: الشرب الأول.
(٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٢٧.
(٧) هي جميلة مولاة بني سليم، كانت أصلًا من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريبًا.
(٨) الحوبة: الإثم.

والفضلُ كلّه فيكم مُدَّخر، ونحن العبيدُ وأنتم الموالي. فطُوبَى لمن كان لكم مُجَاوِرًا، وبعِزّكم قاهرًا، وبضيائِكُمْ مُبْصِرًا! والويلُ لمن جَهِلَ قدركم، ولم يَعْرِف ما أَوْجَبَهُ اللهُ على هذا الخَلْقِ لكم! فصغيرُكم كبيرٌ، بل لا صغيرَ فيكم، وكبيركم جليلٌ، بلِ الجَلالَةُ التي وهبها الله عزَّ وجلَّ للخلق هي لكم، ومقصورةٌ عليكم؛ وبالكتابِ نسألُك، وبحقِّ الرسول ندعوك ـ إن كنت نشيطًا ـ لمجلسٍ هَيَّأْتُه لك، لا يحسنُ إلا بك، ولا يتمُّ إلا مَعَك، ولا يصلح أن يُنْقَل عن موضعه، ولا يُسْلَك به عن طريقه».

فلما قرأ عبدُ الله الكتاب قال: إنا لنعرفُ تعظيمها لنا، وإكرامَها لصغيرِنا وكبيرنا، وقد علمتُ أنها قد آلَتْ أَلِيَّةً[١] ألا تغَنِّي أحدًا إلا في مَنزلها. وقال للرسول: والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا، وكان في عزمي المرورُ بها؛ فأمَّا إذ وافَقَ مُرَادها فإني جاهلٌ بعد رجوعي طريقي عليها.

فلما صار إلى بابها أدخلَ بعضَ مَن كانَ معه إليه وصرفَ بعضهم. فنظر إلى ذلك الحُسْنِ البارع والهيئةِ الباذَّةِ[٢]، فأعجبه ووقَعَ من نفسه؛ فقال: يا جميلة؛ لقد أُتيتِ خيرًا كثيرًا! ما أحسن ما صنعتِ! فقالت: يا سيدي؛ إن الجميل للجميل يَصْلُح، ولك هيَّأْتُ هذا المجلس.

فجلس عبد الله بن جعفر، وقامت على رأسه، وقامت الجواري صَفَّيْن؛ فأقسم عليها فجلستْ غيرَ بعيدٍ. ثم قالت: يا سيدي؛ ألا أُغَنِّيكَ، فقال: بلى! فغنَّت:

بني شَيْبَةِ[٣] الحمدِ الذي كان وجهُهُ	يُضِيء ظلامَ الليل كالقَمَرَ البَدْرِ
كُهُولُهمُ خيرُ الكهول ونَسْلُهم	كنسلِ الملوكِ لا يَبُورُ ولا يَحْرِي[٤]
أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعى مُجَمِّعًا	به جَمَّعَ اللهُ القَبَائلَ من فِهْر

فقال عبد الله: أحسنتِ يا جميلة! بالله أَعِيديه علي، فأعادته؛ فجاء الصوت أحسنَ من الارتجال. ثم دعت لكل جارية بعودٍ، وأمرتْهُنَّ بالجلوس على كراسي صغار قد أعدَّتها لهنّ، وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواريها على غنائها.

---

(١) آلت: أقسمت يمينًا. (٢) الهيئة الباذة: الغالبة الفائقة.
(٣) شيبة الحمد: لقب عبد المطلب بن هاشم، وهو جد عبد الله بن جعفر.
(٤) يبور: يهلك، ويحري: ينقص.

فلما ضربن جميعًا قال عبد الله: ما ظننت أنَّ مثل هذا يكون! وإنه لمِمَّا يفتِن القَلْبَ!

ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف إلى منزله ـ وقد كانت جميلة أعدت طعامًا كثيرًا ـ فقال لأصحابه: تخلَّفُوا للغداء فتغدَّوا وانصرفوا مسرورين.

بَيتَانِ مِنَ الشِّعْرِ[١]

قال أبو عبّاد: أتيتُ جميلةَ يومًا، وقد ظننت أني سبقتُ الناسَ إليها، فإذا مجلسها غاصّ؛ فسألتُها أن تعلِّمني شيئًا، فقالت لي: إنّ غيرَك قد سبقك، ولا يجمُلُ تقديمُك على مَنْ سواك. فقلت: جُعِلْت فداك! متى تَفْرُغين ممن سَبَقَني؟ قالت: هو ذاك، الحقُّ يَسَعُك ويسعُهم.

فبينا نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر ـ وإنه لأوَّلُ يوم رأيته وآخره ـ وكنت صغيرًا كيِّسًا[٢]، وكانت جميلةُ شديدَة الفرح ـ فقامت وقام الناس، فتلقّتْهُ وقبلتْ رجليه ويديه، وجلس في صَدْرِ المجلس على كَوْم[٣] لها، وتَحوّق[٤] أصحابه حوله، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف، وتفرّق الناس، وغَمَزَتْني ألا أبرَحَ، فأقمتُ. وقالت: يا سيدي وسيّد آبائي ومواليّ؛ كيف نَشطْتَ إلى أن تنقل قدميك إلى أمَتِك؟ قال: يا جميلة؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغني أحدًا إلّا في منزلك، وأحببتُ الاستماع. قالت: جُعِلْتُ فِداك! فأنا أصيرُ إليك وأُكَفِّرُ. قال: لا أكلِّفك ذلك، وبلغني أنك تُغنِّين بيتين لامرىء القيس تجيدين الغناء فيهما، وكان الله أنْقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت. قالت: يا سيدي، نعم! فاندَفَعَتْ تُغَنِّي، فغنَّت بِعُودِها؛ فما سمعتُ منها قبلَ ذلك، ولا بعد إلى أن ماتت، مثلَ ذلك الغناء، فسبَّح عبد الله بن جعفر والقومُ معه، وهما:

ولما رأَتْ أنَّ الشريعةَ همُّها وأن البياضَ من فرائِصها دَامِي
تَيمَّمتِ العينَ التي عند ضَارِجٍ يفيء عليها الظلُّ، عَرْمضُها طَامِي

فلما فرغت قالت جميلة: أي سَيّدي؛ أزيدك؟ قال: حسبي. فقال بعض مَن كان معه: بأبي جُعلت فداك! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعةً بهذين البيتين؟

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ١٩٨.
(٢) كيس: عاقل.
(٣) الكوم: المواضع المشرفة، واحدتها كومة.
(٤) تحوق القوم حوله: استداروا وأحاطوا به.

قال: نعم، أقْبَل قومٌ من أهل اليمن، يريدون النبيّ ﷺ؛ فضلُّوا الطريق، ووقعوا على غيرها، ومكثوا ثلاثًا لا يقدرون على الماء، وجعل الرجل منهم يَسْتَذْري بِفيءِ السَّمُرِ والطَّلْحِ يائسًا من الحياة إذ أقبلَ راكبٌ على بعير له، وأنشد بعضُ القوم هذين البيتين، فقال:

ولـمـا رَأَتْ أن الـشـريـعـةَ هَـمُّـهـا وأن البياضَ من فرائضها دَامِي

تيمَّمتِ العينَ التي عند ضَارِجٍ يفيءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طَامِي

فقال الراكبُ: مَنْ يقول هذا؟ قال: امرؤ القيس. قال: والله ما كذب، هذا ضارجٌ عندكم، وأشار لهم إليه، فحَبَوا على الرُّكَب فإذا ماء عذْب، وإذا عليه العَرْمضُ والظل يفيءُ عليه، فشربوا منه رِيَّهم، وحملوا ما اكْتَفَوا به حتى بلغوا الماء.

فأتوا النبيّ ﷺ فأخبروه وقالوا: يا رسولَ الله؛ أحْيَانَا الله عزّ وجلّ ببيتين من شعر امرىء القيس، وأنشدوه الشعر. فقال رسول الله ﷺ: ذلك رجل مذكور في الدنيا شريفٌ فيها، منْسيٌّ في الآخرة، خاملٌ فيها، يجيءُ يوم القيامة مَعَهُ لواءُ الشعراء إلى النار. فكلٌّ استحسن الحديث. ونهض عبد الله بن جعفر، ونَهَضَ القوم معه؛ فما رأيت مجلسًا كان أحْسَنَ من مجلسه.

مَاذا فعَلت بزاهِد مُتَعَبِّد[١]

قال الأصمعي: قدم عراقي بعدلٍ[٢] من خُمُر العراق إلى المدينة، فباعها كلها إلا السّود؛ فشكا ذلك إلى الدارمي[٣]، وكان قد تنسّك وترك الشِّعْر ولزِمَ المسجد، فقال: ما تجعلُ لي على أنْ أحتَال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك؟ قال: ما شئت! فعمدَ الدَّارمي إلى ثياب نُسُكه، فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال شعرًا رفعه إلى صديق له من المغنين، فغنّى به، وكان الشعر:

قُلْ للمليحة في الخِمار[٤] الأسود مـاذا فـعـلتِ بـزاهـدٍ مـتـعـبِّـدِ

---

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٦. (٢) العدل: نصف الحمل.

(٣) هو ربيعة بن عامر، ولقبه مسكين، ويصل نسبه إلى دارم بن مالك، كان شاعرًا شريفًا من سادات قومه، وقد غلب شعره في مدح معاوية، توفي سنة ٩٠ هـ.

(٤) الخمار: النصيف، وما تغطى به المرأة رأسها.

قد كان شمَّر للصلاة ثيابَه ... حتى خطرْت له ببابِ المسجدِ
رُدِّي عليه صلاتَه وصيامَه ... لا تقْتُليه بحقِّ دِينِ محمدِ

فشاع هذا الغناء في المدينة، وقالوا: قدْ رجع الدارمي، وتعشق صاحبة الخِمار الأسود، فلم تبق مليحةٌ بالمدينة إلا اشترت خِمارًا أسود، وباع التاجر جميعَ ما كان معه، فجعل إخوانُ الدارمي من النسَّاك يَلْقوْن الدارمي فيقولون: ماذا صنعت؟ فيقول: ستعلمون نبأه بعد حين، فلما نَفِدَ ما كان مع العراقي رجع الدارمي إلى نسكه ولَبِسَ ثيابه!

دُعَابَة ابن أبي عتيق(١)

لما دخلَ المدينةَ عُثمان بن حَيَّان المرِّي واليًا عليها اجتمع الأشرافُ عليه من قريشٍ والأنصار؛ فقالوا له: إنك لا تعملُ عملًا أجْدَى ولا أولى من تحريم الغناء والرِّثاء، ففعل وأجّل أهلها ثَلاثًا يخرجون فيها من المدينة.

فقدمَ ابنُ أبي عتيق في الليلة الثالثة؛ فحطَّ رحلَه بباب سَلَّامةَ، وقال لها: بدأتُ بكِ قبل أن أصيرَ إلى منزلي؛ فقالت: أوَ ما تدري ما حدَث؟ وأخبَرَتْه الخبر! فقال: أقيمي إلى السَّحر حتى ألْقاهُ! فقالت: إنا نخاف ألّا تُغْني شيئًا، ونُنْكَظَ(٢). فقال: إنه لا بأسَ عليك!

ثم مضى إلى عثمان فاستأذنَ عليه، فأذِنَ له وسلَّم عليه، وذكر له غيبتَه، وأنه جاء ليقضي حقه، وقال له: إن من أفْضَل ما عملتَ تحريمَ الغناء والرثاء. قال: إن أهلكَ قد أشاروا عليّ بذلك. قال: فإنك قد وُفِّقْتَ! ولكنني رسولُ امرأةٍ إليك تقول: قد كانتْ هذه صناعتي فتُبْتُ إلى اللهِ منها، وأنا أسألك أيُّها الأمير ألّا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبيّ ﷺ.

فقال عثمان: إذن أدعها لك ولكلامك. قال: لا يَدَعُكَ الناسُ؛ ولكن تدعو بها وتسمع كلامها، وتنظر إليها، فإن كانت ممن يُتْرَك تركْتَها، قال: فادْعُ بها.

فأمرها ابنُ أبي عتيق، فتخشّعَتْ، وأخذتْ سُبْحَةً في يدها، وصارت إليه، وحدثته؛ فإذا هي من أعلم الناس بالناس؛ فأُعجب بها، وحدثته عن آبائه

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤١، الكامل: ١ ـ ٣٨٠، ذيل زهر الآداب: ٤٤.

(٢) ننكظ: تنالنا شدة.

وأمورهم، ففكِهَ[١] لذلك، فقال لها ابن أبي عتيق: اقْرَئي للأمير؛ فقرأت له. فقال لها: إحدِي للأمير، فحرّكهُ حُدَاؤها[٢]. ثم قال لها: غَبِّري[٣] للأمير؛ فجعل يُعَجَبُ بذلك عثمان، فقال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سَمِعتَها في صناعتها! فقال: قل لها فلتقل فأمرها فغنّتْ:

سَـدَدْنَ خَـصَـاصَ[٤] الـخَـيـمِ[٥] لـمـا دَخَـلْتَـهُ
بِـكُـلِّ لَبَـانٍ[٦] واضِـحٍ وجَـبِـيـنِ

فنزل عثمان بن حيَّان عن سريره، حتى جلس بين يديها، ثم قال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة!

فقال له ابنُ أبي عتيق: يقول الناس أَذِنَ لسلّامة في المُقام وأخرج غيرها؛ فقال له عثمان: قد أذِنتُ لهم جميعًا!

لَحْنٌ لِجَميلَةَ[٧]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: حدّثتني عَمَّتِي - وكانت أَسَنَّ من أبي وعُمِّرَتْ بعده - قالت: كان السببُ في طلب أبيك الغناءَ والمواظبةِ عليه لحنًا سمعه لجميلةَ في منزلِ يونسَ بنِ محمد الكاتب، فانصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهمومٌ، لم يَطْعَمْ[٨] ولم يُقْبِلْ علينا بوجهه كما كان يفعل. فسألته عن السبب فأمسك، فألْحَحْتُ عليه فانْتَهَرَني، وكان لي مُكْرِمًا؛ فغضِبتُ وقمتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر؛ فتَبِعني وترضّاني، وقال لي: أحدِّثُكِ ولا كتمانَ منكِ! عشقتُ صوتًا لامرأة قد ماتت، فأنا بها وبصوتها هائمٌ، إن لم يَتَدَارَكْنِي الله منه برحمته. فقلت: أتظنُّ أن اللهَ يُحيِي لك ميتًا! قال: لا. قلت: فما تعليقك قلبك بما لا يُعطاه أحد! وأمّا عشقُك الصوت فهو أن تَحْذِقَهُ وتُغَنِّيَهُ عشرَ مرارٍ، فَتَمَلهُ ويذهبَ عشقُك له!

---

(١) فكه لها: طابت نفسه. (٢) الحداء: غناء خلف الإبل تنشط به.
(٣) التغبير: ضرب من الغناء اتخذه المتصوفة يتواجدون على أنغامه.
(٤) الخصاص: خروق واسعة في الخيم قدر الوجه، الواحدة خصاصة، وهو يصف نساء تطلعن منها.
(٥) الخيم: أعواد تنصب في القيظ، وتجعل لها عوارض، وتظلل بالشجر، فتكون أبرد من الأخبية.
(٦) اللبان: الصدر. (٧) الأغاني: ٨ - ٢٢٠.
(٨) لم يطعم: لم يتناول الطعام.

فكأنه ارعوى ورجع إلى نفسه، وقام فقبّل رأسي ويديّ ورجليّ، وقال لي: فَرّجْتِ عني ما كنتُ فيه من الكَرْب والغَمّ، ثم تَمَثّلَ:

حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ

ولزم بيت يونُسَ حتى حَذَق الصوتَ، ولم يمكُثْ إلا زمنًا يسيرًا حتى مات يونس، وانضمَّ إلى سِيَاطٍ[1]، وكان من أحذق أهل زمانِه بالغناء وأحسنهم أداءً عَمَّن مضى.

قالت عمتي: فقلت لإبراهيم: وما الصَّوْتُ؟ فأنشدني الشعر ولم يُحسن أَدَاءَ الغِناء:

مِنَ البَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ ... تُسَمَّى سُبَيْعَةَ أَطْرَيْتُهَا
من آل بَكْرَةَ الأكْرَمِين ... خَصَصْتُ بِوُدِّي فأَصْفَيْتُهَا
ومن حُبّها زُرْتُ أهلَ العراق ... وأَسْخَطْتُ أَهْلِي وأَرْضَيْتَهَا
أموتُ إذا شَحَطَتْ دارُها ... وأَحْيَا إذا أنا لا قَيْتُهَا
فأُقسمُ لو أنَّ ما بي بها ... وكنتُ الطبيبَ لداويتُها

قالت عمتي: هذا شِعْرٌ حسنٌ، فكيفَ به إذا ما قُطِّعَ ومُدِّدَا! فما مضتِ الأيامُ والليالي حتى سمعتُ اللحنَ مؤدّى؛ فما خرق مسامعي شيءٌ قطُّ أحسنُ منه؛ ولقد أذْكَرَني بما يُؤْثَر من حُسْنِ صوتِ داودَ وجمالِ يوسف.

فبينا أنا يومًا جالسةٌ، إذ طلع عليّ إبراهيمُ ضاحكًا مستبشرًا؛ فقال لي: ألا أحدِّثُكِ بعَجَب؟ قلت: وما هو؟ قال: إن لي شريكًا في عشق صوت جميلة! قلت: وكيف ذلك؟ قال: كنت عند سِياط في يومنا هذا، وأنا أُغَنِّيه الصوت، وقد وقَّفَني فيه على شيء لم أَكُنْ أَحْكَمْتُهُ عن يونس، وحضر عند سِياط شيخ نبيل، فسبَّح[2] على الصوت تَسْبيحًا طويلًا؛ فظننت أنه فعل ذلك لاستحسانه الصوت. فلما فرغتُ أنا وسِياطٌ من اللحن قال الشيخ: ما أعجبَ أمرَ هذا الشعر، وأحسْنَ ما غُنّي به، وأحسنَ ما قال قائله!

---

(١) اسمه عبد الله، مكي من موالي خزاعة، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وكان مقدمًا في الغناء، رواية وصنعة، مات في أيام الهادي.

(٢) سبح: قال: سبحان الله!

فقلت له دُونَ القوم: وما بلغ من العَجَب به؟ قال: نعم! حَجَّتْ سُبَيْعَةُ من ولد عبد الرحمٰن بن أبي بَكْرَةَ، وكانت من أجملِ النساء، فأبصرها عمر بنُ أبي ربيعة، فلما انْحَدَرَتْ إلى العراق اتَّبَعَها يُشَيِّعها حتى بلغ معها موضعًا يقال له: الخَوَرْنَقُ. فقالت له: لو بلغتَ إلى أهلي، وخطبْتَني لزوَّجوك. فقال لها: ما كنتُ لأخلِط تَشْييعي إيَّاك بِخِطْبَةٍ، ولكن أرجعُ ثم آتيكم خاطبًا؛ فرجع ومَرَّ بالمدينة، فقال فيها:

مِـن الـبَـكَـرَاتِ عِـرَاقِـيَّـةٌ تُـسَـمَّـى سُـبَـيْـعَـةَ أَطْـرَيْـتُـهَـا

ثم أتى بيتَ جميلة، فسألها أن تغَنِّي بهذا الشعرِ ففعلتْ. فأعجبه ما سمعَ من حُسْنِ غنائها وجودةِ تأليفها؛ فحسُن موقعُ ذلك منه؛ فوجَّه إلى جارية له كانت تطلبُ الغناء أن تأتيَ جميلة، وتأخذَ الصوتَ منها، فطارحتْها إياه أيامًا حتى حَذَقَتْ ومَهرتْ به، فلما رأى ذلك عمر قال: أرى أن تَخْرُجي إلى سُبيعة وتغنّيها هذا الصوتَ وتبلِّغيها رسالتي؛ قالت: نعم، جعلني الله فِدَاكَ.

فأتَتْها فرَحَّبَتْ بها، وأعلمتْها الرسالةَ، فحيصتْ وأكْرَمَتْ، ثم غنَّتْها فكادتْ تموت فرحًا وسرورًا لحسن الغناء والشعر.

ثم عادتْ رسول عمر، فأعلَمَتْه ما كان، وقالتْ له: إنها خارجةٌ في تلك السنة.

فلما كان أوانُ الحج استأذَنتْ سُبَيعة أباها في الحج، فأبى عليها، وقال لها: قد حَجَجْتِ حُجَّةَ الإسلام. قالت له: تلك الحجة هي التي أَسْهَرَتني ليلي، وأطالت نهاري، وتوَّقَتْنِي إلى أن أعودَ وأزورَ البيتَ والقبرَ؛ وإن أنتَ لم تأذنْ لي مِتُّ كَمَدًا وغمًّا.

فلما رأى ذلك أبوها رقَّ لها، وقال: ليس يَسَعُني منعها لِمَا أرى بها؛ فأذن لها ووافى عمرُ المدينة ليعرف خبرَها؛ فلما قدمت علم بذلك، وسألها أن تَأْتِي منزل جميلة، وقد سبقَ إليها عمرُ، فأكرمَتْها جميلة، وسُرَّتْ بمكانها. فقالت لها سُبيعة: جعلني الله فِدَاكِ! أقلقني وأسهرني صوتُكِ بشعر عمرَ فِيَّ، فأسمعيني إياه. قالت جملة: وغَزَازَةً لوجْهِكِ الجميل! فغنَّتْها الصوت؛ فأُغْمي عليها ساعةً حتى رُش على وجهها الماء، وثاب إليها عقلُها. ثم قالتْ: أعيدي عليَّ، فأعادت الصوت مرارًا في كل مرة يُغْشَى عليها.

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها. فلما رجعتْ مَرَّت بالمدينة وعُمَرُ معها؛ فأتت جميلة فقالت لها: أعيدي عليَّ الصوتَ ففعلت؛ وأقامت عليها ثلاثًا تسألها أن تعيد الصوت، فقالت لها جميلة: إني أريد أن أُغنيك صوتًا فاسْمعيه. قالت: هاتيه يا سيدتي، فغنتها:

أبتِ المليحةُ أنْ تُواصِلَني ... وأظُنُّ أنِّي زائرٌ رَمْسِي[1]
لا خيرَ في الدنيا وزينتِها ... ما لم تُوَافِقْ نفسُها نَفْسِي
لا صَبْرَ لي عنها إذا حَسَرَتْ ... كالبَدْرِ أو قَرْنٍ من الشمس

قالت سُبيعة: لولا أن الأوَّل شعر عمر لقدَّمْتُ هذا على كل شيء سمعتُه.

فقال عمر: فإنه والله أحسنُ من ذلك؛ فأما الشعر فلا. قالت جميلة: صدقت والله!

فِي أيّام الحَجّ[2]

حجّ عمرُ بن أبي ربيعةَ في عام من الأعوام على نجيبٍ له، مَخْضوبٍ بالْحِنَّاء مشهرَّ الرَّحل بقِرابٍ[3] مُذْهَبٍ[4]، ومعه عُبَيْدُ بن سُرَيْج على بَغْلَةٍ له شَقراء، ومعه غلامه جَنَّاد[5]، يقودُ فرسًا له أدْهَمَ أغرَّ مُحَجَّلًا وكان عمر بن أبي ربيعة يسميه «الكوكب» في عنقه طوق ذَهَب. ومع عُمَرَ جماعةٌ من حَشَمِهِ وغلْمانه ومواليه، وعليه حُلة مَوشيَّة يمانية وعلى ابن سُرَيج ثوبان هَرَوِيَّانِ[6] مرتفعان، فلم يمرُّوا بأحدٍ إلا عجِبَ من حسن هيئتهم وكان عُمَرُ من أَعْطَر الناس وأحسنهم هيئة، فخرجوا من مكَّةَ يوم التَّروية[7] بعد العصر يريدون مِنًى.

فمروا بمنزل رجل من بني عبد مناف بمِنًى، قد ضُرِبَتْ عليه فَسَاطِيطُه[8] وخِيَمهُ، ووافى الموضعَ عمرُ فأبصر بنتًا للرجل قد خرجتْ من قُبّتها، وستر

---

(١) الرمس: القبر.
(٢) الأغاني ١:٢٥٩.
(٣) القراب: جراب السيف يصنع من الجلد.
(٤) الإذهاب: الطلاء بالذهب.
(٥) في جناد يقول عمر:

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل ... عليه برفق وارقب الشمس تغرب
وأسرج لي الدهماء واعجل بممطري ... ولا تعلمن خلقًا من الناس مذهبي

(٦) ثوب هروي: منسوب إلى هراة.
(٧) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة لأن الماء كان قليلًا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد.
(٨) الفسطاط: ضرب من الأبنية، وجمعه فساطيط.

جواريها دون القُبة لئلا يراها من مَرَّ، فأشرف عمرُ على النَّجيب، فنظر إليها، وكانت من أحسن النساء وأجملهن، فقال لها جوارِيها: هذا عمرُ بن أبي ربيعة، فرفعت رأسها فنظرت إليه، ثم سَتَرَتْهَا جواريها ووَلَائِدُها[١] عنه، حتى دخلت، ومضى عمرُ إلى منزله وفسَاطيطه بمنى، وقد نظر من الجارية إلى ما تيّمه، ومن جمالها إلى ما حيره؛ فقال فيها:

نظرتُ إليها بالمحَصَّبِ[٢] من مِنًى
ولي نَظَرٌ - لولا التحرُّج - عارمُ[٣]
فقلت: أشمسٌ أم مصابيحُ بِيْعَةٍ[٤]
بدَتْ ليَ خَلْفَ السجفِ أم أنت حالِمُ
بعيدة مَهْوَى[٥] القُرْطِ إما لنوْفَلٍ
أبوها وإما عبدُ شمس وهاشم
ومَدَّ عليها السَّجفَ يوم لقيتها
على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخوادِمُ
فلم أستَطِعْها غيرَ أَنْ قد بَدَا لنا
على الرغْم منها كفُّها والمعاصِمُ
مَعَاصمُ لم تضرِبْ على البهْم[٦] بالضُّحَى
عصاها وَوَجْهٌ لم تَلحْهُ السمائم
نَضِيرٌ ترى فيه أَساريعَ مائه[٧]
صَبيحٌ تُغاديه الأكُفُّ النواعِمُ
إذا ما دَعَتْ أترابَهَا فاكْتَنَفْنَهَا
تمايَلْنَ أو مالَتْ بهن المآكِمُ[٨]

(١) الوليدة: الأمة وجمعها ولائد.
(٢) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى.
(٣) عارم: حاد.
(٤) البيعة: كنيسة النصارى.
(٥) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول العنق.
(٦) البهم: جمع بهمة، وهي الصغير من أولاد الضأن.
(٧) أساريع الماء: طرائقه، والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب.
(٨) المآكم: جمع مأكمة وهي العجيزة.

طَـلبـنَ الـصِّـبـا حـتـى إذا مـا أَصَـبْـنَـهُ
نَـزَعْـنَ وهـن الـمُـسْـلِمَـاتُ الـظَّـوَالِمُ

ثم قال لابن سُرَيج: يا أبا يحيىٰ؛ إني تفكرْتُ في رجوعنا مع العِشِّية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجَلَبَةِ الحاج، فثَقُل عليّ؛ فهل لك أن نَرُوح رَواحًا طيبًا معتزلًا، فنرى فيه من راح صادرًا إلى المدينة من أهلها، ونرى أهلَ العراق والشام، ونتعلّل[١] في عشيتنا وليلتنا ونستريح؟ قال: وأنَّى ذلك يا أبا الخطاب؟ قال: على كَثِيب أبي شَحْوَة[٢]، المشرفِ على بَطْنِ يأْجَجَ[٣] بين مِنًى وسَرِف، فنُبْصر مرورَ الحاجّ بنا ونراهم ولا يَرَوْننا. قال ابنُ سُرَيج: طَيّبٌ والله يا سيدي.

فدعا بعضَ خدَمِه فقال: اذهبوا إلى الدار بمكة، فاعملوا لنا سُفْرَة[٤]، واحملوها مع شراب إلى الكَثِيب، حتى إذا أبْرَدْنا[٥]، ورَمَيْنَا الجَمْرة[٦] صِرْنا إليكم.

فصارا إليه فأكلا وشربا، فلما انتشيا أخذ ابنُ سُرَيْج الدُّف فنقره، وجعل يغنِّي، وهم ينظرون إلى الحاجّ، فلما أمسيا رفع ابن سُرَيج صوتَه فغنّى في الشعر الذي قاله عمر، فسمعه الرُّكْبان فجعلوا يَصيحون به: يا صاحبَ الصوت؛ أما تتقي الله فقد حَبَسْتَ الناس عن مناسكهم! فيسكُتُ قليلًا، حتى إذا مضَوا رفع صوته، وقد أخذ فيه الشراب؛ فيقف آخرون، إلى أن مرّت قطعة من الليل؛ فوقفَ عليه في الليل رجلٌ على فرس عَتِيق[٧] عربي مَرِح مُسْتَنّ[٨]، فهو كأنه ثَمِل، حتى وقف بأَصل الكثيبِ وثنَى رجلَه على قَرَبُوسِ[٩] سَرْجِه، ثم نادى: يا صاحب الصوت؛ أيسهلُ عليك أن تَرُدَّ شيئًا مما سمعته؟ قال: نعم ونَعمةَ عيْن[١٠]، فأَيها

---

(١) نتعلل: نتلهى ونتسلى.
(٢) موضع على خمسة أميال من مكة.
(٣) يأجج: موضع قرب مكة.
(٤) السفرة: طعام يتخذ للمسافر.
(٥) أبردنا: دخلنا في آخر النهار.
(٦) الجمرة: واحدة جمرات المناسك وهي ثلاث جمرات.
(٧) العتيق: الفرس الرائع الكريم.
(٨) يقال استن الفرس، جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة.
(٩) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.
(١٠) أفعل ذلك إنعامًا لعينك وإكرامًا.

تريد؟ قال: تعيد عليَّ[١]:

أَلَا يا غُرابَ البينِ مالك كُلَّمَا نَعَبتَ بفِقْدَانِ عليَّ تحُومُ
أَبِالْبَيْن من عَفْرَاءَ أنت مُخَبِّرِي عَدِمْتُكَ من طيرٍ أنت مَشُومُ

فأعاده، ثم قال له ابن سُرَيْج: ازدد إن شئت، فقال: غَنِّني:

أمسلَمَ[٢] إني ـ يا ابنَ كلِّ خليفةٍ ويا فارسَ الهيْجَا ويا قمرَ الأرضِ ـ
شكرتُكَ إن الشُّكْرَ حَبْلٌ من التُّقَى وما كلُّ من أقرضْتَهُ نعمةً يَقْضِي
ونَوَّهتَ لي باسمي وما كان خاملًا ولكنَّ بعضَ الذكرِ أَنْبَهُ من بعض

فغنّاه، فقال له: الثالث، ولا أستزيدك، فقال: قل ما شِئْتَ، فقال: تغنيني[٣]:

يا دارُ أَقْوَتْ[٤] بالجَزْعَ فالكَثَبِ[٥] بين مَسِيلِ العُذَيْبِ[٦] فالرُّحَبِ[٧]
لم تَتَقَنَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِها دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ

فغنّاه، فقال له ابن سُرَيْج: أَبَقِيَتْ لك حاجة؟ قال: نعم، تنزل إليّ لأخاطبكَ شِفَاهًا بما أريد، فقال له عمر: انزل إليه، فنزل، فقال له: لولا أني أريدُ وَدَاعَ الكعبة وقد تقدَّمني ثَقَلِي[٨] وغلماني لأطلتُ المُقام معك، ولنزلت عندكم: ولكني أخافُ أن يَفْضَحَنِي الصبح، ولو كان ثَقَلي معي لما رضيتُ لك بالهُوَيْنَى[٩]، ولكن خُذْ حُلَّتِي هذه وخاتمي ولا تُخْدَعَ عنهما، فإن شراءهما

---

(١) الشعر لقيس بن ذريح.
(٢) يريد مسلمة بن عبد الملك. والشعر لأبي نخيلة الحماني.
(٣) نسب هذا الشعر في اللسان ـ مادة (دعد) ـ لجرير وورد فيه كما يأتي:

يا دار أقوت بجانب اللبب بين تلاع العقيق فالكثب
حيث استقرت نواهم فسقوا صوب غمام مجلجل لجب
لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تغذ دعد بالعلب

والتلفع: الاشتمال بالثوب كلبسة نساء الأعراب. والعلب؛ أقداح من جلود، الواحد علبة يحلب فيه اللبن ويشرب، أي: ليست دعد هذه ممن تشتمل بثوبها وتشرب اللبن بالعلبة كنساء الأعراب الشقيات ولكنها ممن نشأ في نعمة، وكسي أحسن كسوة.
(٤) أقوت الدار: خلت. والجزع: منعطف الوادي.
(٥) الكثب: موضع بديار طيء.
(٦) العذيب ـ كزبير: ماء، أربعة مواضع.
(٧) موضع.
(٨) الثقل: متاع المسافر.
(٩) الهوينى: الأهون والأيسر.

ألفٌ وخَمْسُمائة دينار، ثم قال له: بالله أنت ابن سُرَيج؟ قال: نعم، قال: حيّاك الله. وهذا عمرُ بن أبي ربيعة؟ قال: نعم؛ قال: حيّاك الله يا أبا الخطاب! فقال له: وأنت فحيَّاك الله! قد عرفْتَنا فعَرِّفْنا نفسك، قال: لا يمكنني ذلك، فغضِبَ ابنُ سُرَيج وقال: والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد، فقال له: أنا يزيد بن عبد الملك! فوثب إليه عُمَرُ فأعظمه، وابنُ سريج فقبَّلَ ركابه، ثم مضى يزيد إلى ثَقَلِه، ودفع ابن سريج الحلة والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما، وقال له: إن هَذَيْنِ بك أشبه منهما بي، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناس، وجعلوا يتعجبون ويقولون: كأنهما والله حلَّة يزيد بن عبد الملك وخاتمه، ثم يسألون عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك!

فِي وَادِي العَقِيق(١)

كان ابن عائشةَ(٢) من أَحْسَنِ الناس غناء، وأنبههم فيه، وأضيقهم خلقًا: إذا قيل له غَنِّ، يقول: أوَلمثلي يُقال هذا؟ عليَّ عِتقُ رقبة إن غنَّيت يومي هذا! فإن غنَّى وقيل له: أحسنتَ، قال: ألمثلي يقال أحسنت؟ عليَّ عِتقُ رقبة إن غنيت سائر يومي هذا.

فلما كان في بعض الأيام سال وادِي العقيق، فجاء بالعَجب، فلم يَبْقَ بالمدينة مُخَبَّأَة ولا شابّة ولا شاب، ولا كَهْل إلا خرج يُبْصِرهُ، وكان فيمن خرج ابنُ عائشة المغنِّي، وهو مُعْتجِرٌ(٣) بفضل ردَائه، فنظر إليه الحسنُ بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ وكان فيمن خرج إلى العقيق ـ وبين يديه أَسْوَدَانِ كأنهما سارِيتان يمشيان بين يديه أمام دابَّتِه، فقال لهما: اذهبا إلى الرجل المعتَجِر بفضلِ ردائه فخُذَا بضَبْعيْهِ(٤)، فإن فعل ما آمرُه به، وإلا فاقْذِفَا به في العقيق.

فمضيا والحسَنُ يقْفُوهما، فلم يشعر ابنُ عائشة إلا وهما آخِذَان بضَبْعَيْهِ، فقال: مَن هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، قال: لبيك وسَعْدَيك!

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ١١٠.
(٢) هو محمد بن عائشة: من المقدمين في صناعة الغناء، ووضع الألحان في العصر الأموي، توفي نحو سنة ١٠٠ هـ.
(٣) الاعتجار: لف العمامة.
(٤) أخذ بضبعيه: أي بعضديه.

وبأبي أنت وأمي! قال: اسمع مني ما أقول، واعلم أنك مأسور في أيديهما، فغنِّ مائةَ صوت أو يطْرَحاك في العقيق، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعن أيديَهما!

فصاح ابنُ عائشة: يا وَيْلَاه! واعظيم مُصِيبتاه! قال: دَعْ صياحَك، وخُذْ فيما ينفعنا. قال: اقترح، وأقِم مَنْ يحصي؛ وأقبل يغنّي، فترك الناسُ العقيق؛ وأقبلوا عليه؛ فلما تمَّت أصواته مائة كبّر الناسُ بلسان واحد تكبيرة واحدة، ارتجَّتْ لها أقطار المدينة، وقالوا للحسن: صلّى الله على رُوحك حيًّا وميتًا! فما اجتمع لأهل المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت.

فقال له الحسن: إنما فعلتُ هذا بك يا ابنَ عائشة لأخلاقك الشكِسَة، قال له ابن عائشة: والله ما مرّت عليَّ مصيبة أعظمُ منها.

فكان ابنُ عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أَشَدُّ ما مرَّ عليك؟ قال: يوم العقيق.

مِن أيْن صبَّك الله عَليّ[1]

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غنَّاه:

أبـعـدَك مَـعْـقِـلًا أَرْجـو وَحِـصْـنَـا قَد أعْيَتْنى المعاقِلُ والحُصونُ

فَأَطْرَبَه؛ فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارَةِ القَصَّار[2] كُسوة.

فبينا ابنُ عائشة يسيرُ إذ نظر إليه رجلٌ من أهلِ وادي القرَى كان يشتهي الغِناءَ ويشربُ النبيذَ؛ فدنا من غلامه وقال: مَنْ هذا الراكب؟ قال: ابن عائشة المغني، فدنا منه وقال: جُعِلْتُ فداءَك! أنت ابن عائشة أم المؤمنين؟ قال: لا، أنا مَوْلًى لقريش، وعائشةُ أُمي، وحسبُك هذا، فلا عليك أن تُكْثِر؛ قال: وما هذا الذي أراه بين يديك من المال والكُسوة؟ قال: غنَّيتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكُسوة. قال: جُعلت فداءك؟ فهل تمنُّ عليّ بأن تُسْمِعني ما أسمعتَه إياه؟ فقال له: وَيْلَك أمثلي يكلّم بمثل هذا في الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: الحقني بالباب.

---

(١) الأغاني: ٢ ـ ٢٢٧.

(٢) كارة القصار: الثياب التي يجمعها ويحملها. والقصار: محور الثياب.

وحرَّك ابنُ عائشة بَغْلَةً شقراء كانت تحتَه لينقطعَ عنه، فعَدَا معه حتى وافَيا الباب كَفَرَسَي رِهان، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلًا طمعًا في أن يَضْجر فينصرف؛ فلم يفعل؛ فلما أعياه قال لغلامه: أَدْخِله، فلما دخل، قال له: وَيْلَكَ! من أينَ صبَّك الله عليّ؟ قال: أنا رجلٌ من أهل وادي القرَى، أشتهي هذا الغناء؛ فقال له: هل لك فيما هو أنفعُ لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرِفُ بها إلى أهلك؛ فقال له: جُعِلت فداءك؟ والله إن لي لبُنَيَّة ما في أُذنها ـ علم الله ـ حَلْقه من الوَرِق فضلًا عن الذهب، وإن لي لزوجة، ما عليها ـ يشهدُ الله ـ قميصٌ؛ ولو أعطيتَني جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخَلَّة[1] والفقر اللذين عرَّفْتُكَها؛ وأَضْعَفْتَ لي ذلك، لكان الصوتُ أعجبَ إليّ ـ وكان ابنُ عائشة تائهًا[2] لا يغني إلا لخليفةٍ أو لذي قَدْرٍ جليل من إخوانه ـ فتعجَّب ابنُ عائشة منه ورَحمه ودَهَا بالأداة[3] ـ وكان يغني مرتجلًا ـ فغنَّاه الصوت؛ فطرب له طربًا شديدًا، وجعل يحرِّك رأسه حتى ظنّ أن عُنُقَهُ سينقصف. ثم خرج من عنده.

وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يَغِيبُ عن الحديث؛ ثم جدَّ الوليد به فصدقَه عنه. وأمر بطَلبِ الرجل فطُلِبَ حتى أُحضر؛ ووصله صِلةً سنيَّة، وجعله في ندمائه، ووكَّله بالسَّقْي، فلم يَزَلْ معه حتى مات.

ارجع إلى عَملك رَشدًا[4]

أتى رجلٌ من العراق المدينة في طلب جاريةٍ ـ وُصِفت له ـ قارئةٍ قَوَّالةٍ؛ فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة، فأتاه وسأله أن يَعْرِضها عليه، فقال: يا عبد الله، لقد أَبْعَدت الشقَّة في طلب هذه الجارية فما رغبتك فيها؟ قال: إنها تُغَنِّي فتجيد، فقال القاضي: ما علمتُ بهذا، فألحَّ عليه في عَرْضِها، فعُرِضت بحضرة مولاها القاضي!

فقال لها الفتى: هاتي، فغنَّت:

إلى خالدٍ حتى أَنَخْنَ بخالد ... فنعم الفتى يُرْجى ونعمَ المؤمّل!

---

(١) الخلة: الحاجة والخصاصة.
(٢) من التيه، وهو الصلف والكبر.
(٣) الأداة: آلة من آلات الغناء.
(٤) المسعودي: ٢ ـ ١٧٠.

ففرح القاضي بجاريته، وسرَّ بغنائها، وغَشِيه من الطرب أمر عظيم، وقال: هاتي شيئًا بأبي أنت؛ فغنّت:

أروح إلى القُصَّاصِ[١] كلَّ عشية أرجِّي ثواب الله في عَدَدِ الخطا

فزاد الطرب على القاضي، ولم يدر ماذا يصنع، فأخذ نعله فعلَّقها في أذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه، والنعل معلّقة فيها ويقول: أهدوني إلى البيت الحرام، فإني بَدَنَة[٢]! حتى أَدْمَى أذنه!

فلما أمسكَتْ أقبل على الفتى فقال: انصرف! قد كنّا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول، فنحن الآن فيها أرغب. فانصرف الفتى.

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز؛ فقال: قاتله الله! لقد استرقَّه الطرب، وأمر بصَرْفِه عن عمله.

فلما صُرِف قال: لو سمعها عمر لقال: ارْكَبُوني فإني مطيَّة! فبلغ ذلك عمر، فأشْخَص[٣] القاضي والجارية؛ فلما دخلا عليه، قال: أَعِدْ ما قلت! قال: نعم! فأعاد ما قال، فقال للجارية: قولي؛ فغنّت[٤]:

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ[٥] إلى الصفا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ

بلى! نحنُ كنّا أهلَها فأَبادَنا
صروفُ الليالي والجدودُ العَوَاثِرُ

فما فرغتْ من الشعر حتى طَرِب عمر طربًا بيّنًا، وأقبل يستعيدها ثلاثًا، وقد بلت دموعُهُ لحيته، ثم أقبل على القاضي، فقال: ارجع إلى عَمَلك راشدًا!

---

(١) القصاص: جمع قاص، وكانوا يجلسون في صدر الإسلام في المسجد يفصلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء، ابتغاء العبرة.

(٢) البدنة: من الإبل والبقر ما تهدى إلى مكة.

(٣) أشخص: الشخوص: السير من بلد إلى بلد.

(٤) قائل البيتين: عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو يتأسف على البيت.

(٥) الحجون: جبل بمكة.

الأحوص يحتالَ حَتى تسمَع سلّامة غناء الغريض[١]

وجَّه يزيدُ بن عبد الملك إلى الأحْوص في القُدوم عليه، وكان الغَرِيض معه، فقال له: اخْرُجْ معي حتى آخذ لك جائزةَ أمير المؤمنين وتُغَنِّيه؛ فإني لا أحمل إليه شيئًا هو أحب إليه منك، فخرجا.

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودَعا به؛ فأنشده مدائح فاستحسنها، وخرج مِن عنده؛ فبعثتْ إليه سَلامَة جارية يزيد بلَطَف. فأرسل إليها: إنَّ الغريض عندي قدمتُ به هديةً إليك. فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الغريض وإلى الاستماع منه.

فلما دعاها أميرَ المؤمنين تمارضتْ وبعثت إلى الأحوص: إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتلْ له في أن تذكر له الغريضَ.

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد: ويحك يا أحوص! هل سمعت شيئًا في طريقك تُطْرِفُنَا به! قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ مررت في بعض الطريق فسمعتُ صوتًا أعجبني حُسْنُه وجودةُ شعره؛ فوقفتُ حتى استقصيت خبرَه، فإذا هو الغريض، وإذا هو يغني بأحسن صوت وأشْجَاه.

ألا هـاج لـتـذَكّـرُ لـي سَـقَـامـا ... ونُكسَ[٢] الداءِ والوجَع الغَرَامَا[٣]
سـلامَـةُ إنـهـا هَـمِّـي ودائـي ... وشرُّ الداءِ ما بَطَنَ العِظَامَا[٤]
فقلت له ـ ودمعُ العين يجري ... على الخدَّين أربعةً سِجَامَا[٥]:
عليك لـهـا الـسـلامُ فمن لِصَبٌّ ... يبيتُ الـلـيـل يَـهْـذِي مُـسـتَـهَـامـا

قال يزيد: ويلك يا أحوص! أنا ذاك في هوى خليلتي، وما كنت أحسب مثلَ هذا يتَّفِق، وإن ذاك لمما يزيد لها في قلبي. فما صنعتَ يا أحوص حين سمعتَ ذاك؟ قال: سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه، فما صبرتُ حتى أخرجت الغريض معي وأخفيت أمره، وعلمتُ أن أميرَ المؤمنين يسألني عما رأيتُ في طريقي.

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤٤.
(٢) النكس: عود المرض بعد النقه.
(٣) الغرام: الملازم الشديد.
(٤) بطن: دخل.
(٥) يريد اللحاطين والموقين للعينين.

فقال له يزيد: ائتني بالغريض ليلًا وأَخْفِ أمْره؛ فرجع الأحوص إلى منزله، وبعث إلى سلامة بالخبر. فقالت للرسول: جُزِيت خيرًا. قد انتهى إليّ كلُّ ما قلت، وقد تلطفتَ وأحسنت.

فلما وَارَى الليلُ أهلَه بعث إلى الأحوص أن عَجِّلْ المجيء إليّ مع ضيفك.

فجاء الأحوص مع الغريض فدخلا عليه. فقال: غَنِّني الصوت الذي أخبرني أنه سمعه منك ـ وكان الأحوصُ قد أخبر الغريضَ الخبرَ، وإنا ذلك شعر قاله الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة، ويحتال للغريض في الدخول عليه ـ فلما غنَّاه الغريض دمعت عَيْنُ يزيد، وأمر بإحضار سلّامة فحضرت، وضُرِبَ لها حجابٌ فجلست، وأعاد عليه الغريض الصوت؛ فقالت: أحسن والله يا أمير المؤمنين، فاسمعه مني، فأخذت العود فضربتْه وغنّت الصوت، فكاد يزيد يطير فرحًا وسُرُورًا، وقال: يا أحوص: إنك لَمُبارك! يا غريض؛ غنِّني في ليلتي هذا الصوت، فلم يزل يغنيه حتى قام يزيد وأمر لهما بمال، وبعثت سلّامة إليهما بكُسْوَةٍ ولَطَف كثير.

غِناء فِي ختَان[١]

قال عبد الرحمـٰن بن إبراهيم المخزومي: أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عَطاء[٢] بن أبي رَبَاح عن مسألة، فوجدته في دارٍ يقالُ لها دار المعلّى، وعليه مِلْحَفَة مُعصفرة، وهو جالس على مِنبر، وقد خُتِنَ ابنُه والطعام يوضع بين يديه، وهو يأمرُ به أن يُفرَّق في الخَلْق، فَلَهَوْتُ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القومُ وتفرَّقُوا، وبقي مع عطاء خاصَّتُه، فقالوا: يا أبا محمد، لو أذنتَ لنا، فأرسلنا إلى الغريض وابن سُرَيج! فقال: ما شئتمُ. فأرْسَلُوا إليهما، فلما أتيَا قاموا معهما، وثبتَ عطاء في مجلسه فلم يدخل، فدخلوا بهما بيتًا في الدار فَغَنَّيَا وأنا أسمع، فبدأ ابن سريج فنقر بالدُّفّ، وتغنّى بشعر كثير:

بـلَيْـلَى وجَـارَاتٍ لـليـلى كـأنـهـا نِعَاجُ الملا[٣] تُحْدَى بهنّ الأباعرُ

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٢٧٨.

(٢) هو عطاء بن أسلم بن صفوان، تابعي من أجلاء الفقهاء ولد في اليمن، ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ.

(٣) الملا: الصحراء.

أَمُنْقَطِعٌ يا عزّ ما كانَ بيننا وشاجَرَني يا عزّ فيك الشَّواجر[١]
إذا قيلَ هذا بيتُ عزّةَ قادَني إليه الهوى واسْتَعْجَلتْني البَوادِرُ[٢]
أَصدُّ وبي مثلُ الجُنون لكي يَرَى رُوَاةُ الخَنَا أني لِبَيْتِكِ هَاجِرُ
أَلَا ليتَ حَظّي منك يا عزُّ أنني إذا بنتِ باع الصبرَ لي عَنْكِ تاجِرُ

فكأن القوم نزل عليهم السُّبَات، وأدركهم الغَشْيُ، فكانوا كالأموات، ثم أَصْغَوْا إليه بآذانهم، وشخصت إليه أعينهم، وطالت أعناقُهم. ثم غنّى ابن سُريج ووقّع بالقضيب، وأخذ الغريضُ الدُّفَّ، فغنّى بشعر الأخطل:

فقلتُ أصْبَحُونا[٣] لا أبا لِأبيكُمُ وما وضعوا الأثْقَالَ إلا لِيَفْعَلُوا
وقلت: اقتلوها[٤] عنكُمُ بمزَاجها فأَكْرِمْ بها مقتولة حين تُقْتَلُ
أناخوا فجرُّوا شاصياتٍ[٥] كأنها رجالٌ من السودان لم يَتَسَرْبَلُوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول.

ثم غنّى الغريض بشعر آخر وهو:

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدِّمَنَا زِدْنَ الفؤاد على ما عِنْدَهُ حزنا
دارٌ لأسماءَ إذ كانت تحُلُّ بها وإذ ترى الوصل فيما بيننا حسنا
إذ تَسْتَبِيكَ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضه[٦] ومَثْلَتَيْ جُوذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا

ثم غنّى الغريض في شعر عمر بن أبي ربيعة وهو قوله:

كفى حَزَنًا أن تجمع الدارُ شَمْلَنَا وأُمْسِي قريبًا لا أزورك كَلْثَمَا
دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا مع الذي به منكِ أو دَارِي جَوَاه المُكَتَّما
ومَنْ كان لا يَعْدُو هواه لسانَه فقد حلَّ في قلبي هواكِ وخيَّما
وليس بتَزْوِيقِ[٧] اللِّسان وصَوْغه ولكنّه قد خالَطَ اللحْمَ والدَّمَا

---

(١) الشواجر: جمع شاجر؛ شجره عن الأمر: صرفه عنه.
(٢) البوادر: الدموع.
(٣) أصبحونا: ايتونا بالصبوح، وهو ما يشرب في الغداة إلى القائلة.
(٤) قتل الخمر: مزجها بالماء. (٥) الشاصيات: الزقاق المملوءة الشائلة القوائم.
(٦) العوارض: الثنايا، أو هي الأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك.
(٧) التزويق: التحسين والتزيين.

قال الراوي: وما زالا يغنّيان وعطاءٌ يسمع على منبره ومكانه، وربما رأيت رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغتْه الشمس، فقام يريد منزله، فما سمع السامعون شيئًا أحسن منهما، وقد رفعا أصواتهما، وتغنيا.

ولما بلغت الشمس عطاءَ قام وهم على طريقةٍ واحدة في الغناء، فاطّلع في كُوَّةِ البيتِ، فلما رأوه قالوا: يا أبا محمد؛ أيهما أحسنُ غناءً؟ قال: الرقيق الصوت. يَعْني ابنَ سُرَيْج!

يَضطرب حِين سَمع الغِنَاء[١]

لقي عَطَاءُ بنُ أبي رَبَاحٍ ابنَ سُرَيج[٢] بذي طُوًى[٣]، وعليه ثيابٌ مصبَّغَة، وفي يده جَرَادةٌ مشدودةُ الرِّجل بخيط يطيِّرُها ويجذبها به كلّما تخلّفتْ، فقال له عطاء: يا فَتّان؛ ألَا تكفّ عما أنتَ عليه! كفى اللهُ الناسَ مؤونَتك. فقال ابنُ سريج: وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجَرَادتي؟ فقال له: تفتنُهم بأَغانيك الخبيثةِ، فقال له ابنُ سُريج: سألتُكَ بحقِّ مَنْ تبعتَه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبحقِّ رسول الله ﷺ، إلَّا ما سمعت مني بيتًا من الشعر، فإن سمعتَ مني مُنكرًا أمرتني بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البَنِيَّة[٤] لئن أمرتني بعد استماعك مني بالإمساك عمَّا أنا عليه لأفْعَلَنَّ ذلك.

فأطمع ذلك عطاءَ في ابن سُريج، وقال: قل، فاندفع يغنّي بشعر جرير:

إن الـذيـن غَـدَوْا بِـلُبِّـكَ غـادروا ... وشَلًا[٥] بعينك لا يزالُ مَعِينَا[٦]

غيّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمع عطاء الغناء اضطربَ اضطرابًا شديدًا ودخلته أريحيَّة، فحلف ألَّا يكلّم أَحَدًا بقيَّةَ يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كلُّ مَنْ يأتيه سائلًا عن حَلَالٍ أو حرامٍ أو خبرٍ من الأخبار، لا يجيبه إلا بأن

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٥٦، نهاية الأرب: ٤ ـ ٢٤٥.

(٢) هو عبيد بن سريج، كان من أحسن الناس غناء، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة، انقطع إلى عبد الله بن جعفر، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك.

(٣) ذو طوى: موضع بمكة.

(٤) البنية: الكعبة.

(٥) الوشل: الدمع الكثير.

(٦) المعين: الجاري السائل.

يضرب إحدى يديه على الأخرى، وينشد هذا الشعر حتى صلّى المغرب، ولم يعاود ابنَ سُرَيج بعدها ولا تعرَّض له.

فِي قَصرِ الوَليد بن يَزيد[١]

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدَ إلى مَعْبد[٢]، فوجَّه إليه إلى المدينة فأُحْضِر، وبلغ الوليدَ قدومُه؛ فأمر بِبْرِكَةٍ بين يَدَيْ مجلسِه فمُلئت ماءَ ورد قد خُلِط بمسْك وزَعْفران، ثم فُرِش للوليد في داخل البيت على حافَةِ البِرْكة، وبُسِط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالثٌ، وجيء بمعبد فرأى سِتْرًا مُرْخَى ومجلسَ رجل واحد. فقال له الحُجّاب: يا معبد؛ سلِّم على أمير المؤمنين واجلِسْ في هذا الموضع، فسلَّم فَردَّ عليه الوليدُ السلامَ مِنْ خَلْفِ السِّتْر؛ ثم قال له: حيَّاك الله يا معبد! أتدري لِمَ وَجّهْتُ إليك؟ قال: الله أعْلم وأميرُ المؤمنين. قال: ذكرتك فأحببتُ أن أسمع منك. قال معبد: أأُغَنِّي ما حضر أم ما يقترحُه أمير المؤمنين؟ قال: بل غَنِّني:

ما زال يَغْدُو عليهم ريبُ دهرِهمُ حتى تفانَوْا وريْبُ الدّهْر عدَّاءُ
أبْكَى فِراقُهُمُ عيني وأرَّقَها إن التفرق للأحباب بكّاءُ

فغنَّاه، فما فرغ منه حتى رفع الجواري السّجْفَ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجواري بثيابٍ غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم قال له: غنِّني يا معبد:

يا رَبْعُ مالك لا تُجِيبُ متيَّما قد عَاجَ نحوكَ زائرًا ومسلِّما
جادتكَ كلُّ سحابةٍ هَطّالةٍ حتى تُرَى عن زَهْرَةٍ مُتَبَسِّمَا
لو كنتَ تَدْرِي مَنْ دعاك أجبتَه وبكيت من حُرَقٍ عليه إذَنْ دَما

فغنّاه؛ وأقبل الجواري فرفَعْنَ السِّتْرَ، وخرج الوليد فألقى نفسَه في البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبس ثيابًا غير تلك، ثم شرِب وسقى معبدًا، ثم قال له:

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٥٣.

(٢) هو معبد بن وهب، فحل المغنين، وإمام أهل المدينة في الغناء. اشتغل في أول أمره بالتجارة، ورعى الغنم، واختلف إلى نشيط الفارسي وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت، مات بدمشق في أيام الوليد بن يزيد.

غنّني. فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: غنّني:

عَـجِـبَـتْ لـمّـا رَأَتْـنِـي أنـدبُ الـربـعَ الـمُـحِـيـلا[١]
واقـفًـا فـي الـدار أبـكـي لا أرى إلا الـطـلـولا
كـيـفَ تـبْـكـي لا نـاسٍ لا يـمـلّون الـذَّمِـيـلا[٢]
كـلَّـمَـا قـلـتُ اطـمـأنّـتْ دارُهـم قـالـوا الـرَّحِـيـلا

فلما غنّاهُ رمى بنفسه في البركة ثم خرج فَرَدُّوا عليه ثيابه، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم أقبل عليه الوليد فقال له: يا معبد؛ مَن أراد أن يزداد عند الملوك حُظْوَةً فليكْتُمْ أسرارَهم، فقلت: ذلك ما لا يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائي به، فقال: يا غلام؛ احمل إلى معبدٍ عشرةَ آلاف دينار تُحَصَّلُ له في بلده، وألفي دينار لنفقة طريقه، فحُمِلَتْ إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وَقْتِه إلى المدينة.

مَعْبَد فِي مكّة[٣]

قال معبد: غنَّيْتُ فأعجبني غنائي، وأَعجبَ الناسَ، وذهبَ لي به صيتٌ وذِكْرٌ، فقلت: لآتينَّ مكة فلأَسْمَعَنَّ من المغنِّين بها، ولأُغَنِّيَنَّهُمْ، ولأَتَعرَّفَنَّ إليهم.

فابتعتُ حمارًا، فخرجتُ عليه إلى مكة، فلما قدِمْتها بعتُ حماري، وسألتُ عن المغنّين: أين يجتمعون؟ فقيل: بقُعَيقعَان[٤]، في بيت فلان.

فجئت إلى منزله بالغَلَسِ[٥]، فقرعتُ الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: انظرْ عافاك الله؛ فدنا وهو يسبِّحُ ويستعيذ كأنه يخاف، ففتح، فقال: مَن أنت عافاك الله؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: فما حاجتك؟ قلت: أنا رجل أشتهي الغناء. وأزعم أني أعرف منه شيئًا، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت أن تُنزلني في جانب منزلك وتخلطَني بهم، فإنه لا مؤونة عليك ولا عليهم.

---

(١) المحيل: الذي أتت عليه أحوال فغيرته. (٢) الذميل: السير اللين.
(٣) الأغاني: ١ ـ ٥٧.
(٤) قعيقعان: اسم قرية بها مياه وزروع ونخيل قرب مكة.
(٥) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بظلمة الصباح.

فلوى[١] شيئًا ثم قال: انزل على بركة الله. فنقلت متاعي فنزلت في جانب حُجرته.

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحدًا بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكروني، وقالوا: مَنْ هذا الرجل؟ قال: رجل من أهل المدينة ضيفٌ يشتهي الغناء، ويطرب عليه، ليس عليكم منه عَناء ولا مكروه. فرحّبوا بي وكلمتهم، ثم انْبَسَطُوا وشربوا وغَنَّوْا، فجعلت أُعْجَبُ بغنائهم وأظهر ذلك لهم، ويعجبهم مني حتى أقمنا أيامًا، وأخذتُ من غنائهم ـ أصواتًا وأصواتًا وأصواتًا؛ ثم قلت لابن سُرَيج: أَمْسِك عليَّ صوتك:

قُـلْ لِـهِـنْـدٍ وتِـرْبِـهَـا[٢] قبل شَحْطِ[٣] النَّوَى غَدا
إنْ تَـجُـودِي فَـطَـالَـمَـا بِـتُّ لَـيْـلِي مُـسَـهَّـدَا

قال: أو تحسن شيئًا؟ قلت: تَنَظَّرْ[٤]، وعسى أن أصنعَ شيئًا، واندفعت فيه فغنّيته؛ فصاح وصاحوا، وقالوا: أحسَنْتَ! قاتلك الله! قلت: فأَمْسِكْ عليّ صوت كذا؛ فأمسكوه عليّ فغنيتُه؛ فازدادوا عجبًا وصِياحًا، فما تركت واحدًا منهم إلا غنيتُه من غنائه أصواتًا قد تخيّرتها؛ فصاحوا حتى علتْ أصواتُهم؛ وهَرَفُوا بي[٥]، وقالوا: لأنت أحسنُ بأداء غنائنا عنّا مِنّا. قلت: فأمسكوا عليّ ولا تضحكوا[٦] بي حتى تسمعوا من غِنائي. فأمسكوا عليّ فغنّيت صوتًا من غِنائي، فصاحوا بي، ثم غنيتهم آخر وآخر؛ فوثبوا إليّ وقالوا: نحلف بالله إن لك لصيتًا واسمًا وذِكْرًا، وإن لك فيما هنا لسهمًا عظيمًا، فمن أنت؟ قلت: أنا معبد؛ فقبّلوا رأسي، وقالوا: لَفَّقْتَ[٧] علينا وكنا نَتَهَاوَنُ بك، ولا نعدُّك شيئًا، وأنت أنت! فأقمت عندهم شهرًا آخذ منهم ويأخذون مني ثم انصرفتُ إلى المدينة.

مَعْبَد فِي السّفينة[٨]

كان مَعْبَد قد علّم الغِناءَ جاريةً من جواري الحجاز تدعى ظَبْيَة وعُنِي بتَخْرِيجها؛ فاشتراها رجلٌ من أهل العراق، فأخرجها إلى البصرة، وباعها هناك،

(١) فلوى شيئًا: فتمكث قليلًا. (٢) الترب: اللذة، وهو من يماثلك في سنك.
(٣) الشحط: البعد، والشعر لعمر بن أبي ربيعة. (٤) تنظر: تأنّ وتلبث.
(٥) هرف به: مدح حتى جاوز القدر في الثناء والإطراء.
(٦) ضحك به ومنه بمعنى. (٧) لفقت علينا: أي سترت علينا أمرك.
(٨) الأغاني: ١ ـ ٤٨.

فاشتراها رجلٌ من أهل الأهْواز فأُعْجبَ بها، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بُرْهَةً من الزمان، وأخذ جواريه أكثَرَ غنائها عنها، فكان لمحبته إياها وأَسَفِهِ عليها لا يزال يسألُ عن أخبار مَعْبد وأين مستقَرُّه، ويُظهرُ التعصب له والميل إليه، والتقديمَ لغنائه على سائر أغاني أهلِ عَصْره إلى أن عرف ذلك منه.

وبلغ معبدًا خبرُه، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وَرَدَها صادف الرجلَ، وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكْتَرى سفينة، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منهما صاحبه، فأمر الرجلُ الملّاحَ أن يُجلسه معه في مؤخَّر السفينة، ففعل وانحدروا.

فلما صاروا في فم نهر الأُبُلَّة تغدّوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين، ومعبد ساكت، وهو في ثياب السفر، وعليه فروٌ وخُفّان غليظان وزِيٌّ جاف من زِيّ أهل الحجاز، إلى أن غنّت إحدى الجواري:

بانت سُعَادُ وأَمْسى حبلُها انْصَرَمَا ... واحتلّتِ الغَوْرَ والأجْراعَ من إضَمَا
إحدى بَلِيٍّ وما هام الفؤادُ بها ... إلّا السَّفَاهَ وإلا ذِكرةً حُلُما[1]

فلم تُجِدْ أداءَه، فصاح بها مَعْبَد: يا جارية؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها ـ وقد غضب: وأنتَ ما يُدْرِيك الغناء ما هو! إلَا تُمسِكُ وتلزم شأنَك! فأمسك.

ثم غنّت أصواتًا من غناء غيره، وهو ساكت لا يتكلم، حتى غنّت:

يا ابنَةَ الأزْدِيّ قلبي كئيبُ ... مُسْتَهَامٌ عندها ما يُنيبُ
ولقد لاموا فقلت: دَعُوني ... إن من تَنْهَوْنَ عنه حَبِيبُ
إنما أَبْلَى عظامي وجسمي ... حبُّها، والحبُّ شيء عجيبُ
أيها العائبُ عندي هواها ... أنت تَفْدِي من أراكَ تَعيبُ

فأخَلّتْ ببَعْضِه؛ فقال لها معبد: يا جارية؛ لقد أخللتِ بهذا الصوت إخلالًا شديدًا؛ فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنت والغناء! ألا تكفّ عن هذا

---

(١) بلى: اسم قبيلة، والسفاه: الطيش، والذكرة بالكسر والضم: نقيض النسيان.

الفضول! فأمسك وغنى الجواري مليًا؛ ثم غنّت إحداهن:

خليليّ عُوجَا فابكيا ساعةً معي	على الرَّبْع نَقْضي حاجة ونودّع
ولا تـعـجِـلَانـي أن أَلِمَّ بِـدِمْـنَـةٍ	لـعـزّة لاحـتْ لـي بـبيـداءَ بَـلْقَـعِ
وقولا لقلبٍ قد سَلَا: راجع الهوى	وللعين: أَذْرِي من دموعكِ أودَعِي
فلا عيش إلا مثلُ عيش مَضَى لنا	مَصِيفًا أَقَمْنَا فيه من بعد مَرْبع

فلم تصنع فيه شيئًا، فقال لها معبد: يا هذه؛ أما تقومينَ على أداء صوت واحد؟ فغضب الرجل وقال له: ما أراك تدعُ هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ، فأقسم بالله لئن عاودتَ لأُخرجنَّك من السفينة!

فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجواري سكتة اندفع يغني الصوت الأول حتى فرغ منه؛ فصاح الجواري: أحسنتَ والله يا رجل؛ فأَعِدْه، فقال: لا والله ولا كرامة! ثم اندفع يغني الثاني، فقلن لسيدهن: ويحك والله! إن هذا أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يعيده علينا ولو مرة واحدة، لعلنا نأخذه عنه؛ فإنه إنْ فاتَنَا لم نجد مثله أبدًا. فقال: قد سمعتُنَّ سوءَ ردّه عليكن، وأنا خائف مثلَه منه، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرْنَ حتى نُدَارِيَه. ثم غنّى الثالث، فزلزل الأرض، فوثب الرجل وقبّل رأسه وقال: يا سيدي؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له: فهبك لم تعرف موضعي، قد كان ينبغي لك أن تَتَثَبَّت ولا تسرع إليّ بسوء العِشْرَة وجفاء القول! فقال له: قد أخطأتُ، وأنا أعتذر إليك مما جرى، وأسألك أن تنزل إليّ، وتختلط بي، فقال له: أما الآن فلا.

فلم يزل يَرْفُق[١] به حتى نزل إليه. فقال الرجل: ممن أخذتَ هذا الغناء؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك؟ فقال: أخذنه عن جارية كانت لي، ابْتَاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة، وكانت قد أخذت عن مَعْبَد، وعُنِي بتخريجها، فكانت تحل مني محلَّ الروح من الجسد، ثم استأثر الله عزَّ وجلَّ بها، وبقي هؤلاء الجواري وهنَّ مِن تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصَّب لمعبد، وأُفضّله على المغنين جميعًا، وأفضل صَنْعَته على كل صنعة.

---

(١) يترفق به.

فقال له معبد: أو إنك لأنت هو؟ أفتعرفني؟ قال: لا. فصكَّ[١] معبدٌ بيده صَلْعَته ثم قال: فأنا والله معبد وإليك قدمتُ من الحجاز، ووافيتُ البصرة ساعةَ نزلت السَفينة لأقصدَك بالأقواز؛ ووالله لا قَصّرْتُ في جواريك هؤلاء، ولأجعلنّ لك في كل واحدة منهن خلفًا من الماضية.

فأكبّ الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها، ويقولن: كتَمْتَنا نفسك طولَ هذا الوقت حتى جَفَوْناك في المخاطبة، وأسأنا عِشرتك وأنت سيدنا ومَنْ نتمنى على الله أن نلقاه.

ثم غيَّر الرجلُ زِيّهُ وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه ثلاثمائة دينار وطيبًا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز، فأقام عنده حتى حذق جواريه ما أخذنه عنه، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز.

وَفَاء مَالِك بن أَبِي السَّمح لمَعْبَد[٢]

كان مالكُ[٣] بن أبي السَّمْح المغني من طيّىء، فأصابتهم حَطْمَةٌ[٤] في بلادهم بالجبلين؛ فقدِمَتْ به أُمُّه وبأخوةٍ له وأخواتٍ أيتام لا شيء لهم، فكان يسألُ الناسَ على باب حمزة بن عبد الله بن الزُّبير ـ وكان معبدٌ منقطعًا إلى حمزة يكون عنده في كل يوم يغنِّيه ـ فسمع مالكٌ غناءَه فأعجبه واشتهاه.

فكان لا يفارق باب حمزة، يسمعُ غناء معبد إلى الليل، فلا يطوف المدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئًا ولا يَرِيمُ[٥] موضعه، فينصرف إلى أمه، ولم يكتسب شيئًا فتَضْرِبه، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبد، يؤدّيها دَوْرًا دَوْرًا، في مواضع صيحاته ونَبَراته[٦] نغمًا بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر؛ وجعل حمزةُ كلما غَدَا وراح ملازمًا لبابه فقال لغلامه يومًا: أَدْخِل هذا الغلام الأعرابي إليّ؛ فأدخله، فقال له: مَنْ أنت؟ فقال: أنا غلام من طيىء أصابتنا حَطْمَةٌ بالجبلين فحطَّتْنَا إليكم، ومعي أم لي وإخوة، وإني قد لزمتُ بابك فسمعت من دارك صوتًا أعجبني فلزمت بابك من

(١) صك: ضرب.
(٢) نهاية الأرب: ٤ ـ ٣٨١، الأغاني: ٥ ـ ١٠٢.
(٣) أخذ مالك الغناء عن جميلة ومعبد وأدرك الدولة العباسية، وانقطع إلى بني سليمان بن علي، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور.
(٤) الحطمة: السنة والجدب.
(٥) يريم موضعه: يفارقه.
(٦) نبرة المغني: رفع صوته عن خفض.

أجله، قال: فهل تعرفُ منه شيئًا؟ قال: أعرفُ لحنه كله؛ ولا أعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقًا فإنك لَفَهِم.

ودعا بمعبد، فأمره أن يُغَنِّي فغنّاه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله؟ قال: نعم، قال: هاتِه، فاندفع فغناه، فأدّى نَغَمه بغير شعر، يؤدي مَداتِه ولَيَّاتِه، وعَطَفَاتِهِ وَنَبَرَاتِه، لا يَخْرِمُ حرفًا.

فقال لمعبد: خُذْ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيكونَنَّ له شأن؛ قال معبد: ولِمَ أفعل ذلك؟ قال: لِتَكُونَ محاسنه منسوبةً إليك.

فقال: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتَني به. ثم قال حمزةُ لمالك: كيف وجدت مُلَازمتك لبابنا؟ قال: أرأيت لو قلتُ فيك غير الذي أنت له مستحقٌّ من الباطل أكنتَ تَرْضَى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرُّك أن تُحْمَد بما لم تفعل؛ قال: نعم. قال: فوالله ما شبِعْتُ على بابك شَبْعَةً قط، ولا انقلبتُ منه إلى أهلي بخير. فأمر له وَلأمِّه وَلإخْوته بمنزل؛ وأجرى لهم رزْقًا وكُسْوَة، وأمر لهم بخادم يخدمُهم، وعَبْدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكًا معه في مجالسه، وأمر معبدًا أن يُطَارِحه، فلم يَنْشَبْ[1] أن مَهَرَ وحَذَق، وكان ذلك بعَقِب مقتل هُدْبَةَ بن خَشْرَم؛ فخرج مالك يومًا، فسمع امرأةً تنوحُ على زيادة الذي قتله هُدْبة بن خشرم بشعر أخي زيادة:

أبعد الذي بالنَّعْفِ[2] نعفِ كُوَيكبٍ ... رهينةَ رَمْسٍ ذي تُرابٍ وجَنْدَلِ
أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أصابني ... وبُقْيَايَ أني جاهد غير مُؤْتَلِ[3]
فلا يَدْعُنِي قومي لزيدِ بن مالك ... لئن لم أُعَجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلا أَنَلْ ثَأْرِي من اليوم أو غدٍ ... بني عمِّنا فالدهرُ ذو مُتَطَوَّلِ
أَنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحربِ مَرَّةً ... فنحن مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ

---

(١) لم ينشب: لم يلبث.

(٢) النعف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مجرى السيل.

(٣) غير مؤتل: غير مقصر، والبقيا: الاسم، من أبقيت عليه إذا رعيت عليه ورحمته. وقد ورد هذا البيت في اللسان منسوبًا إلى أبي القمقام الأسدي هكذا:

أذكر بالبقوى على ما أصابني ... وبقواي أني جاهد غير مؤتل

فغنّى في هذا الشعر لَحْنين: أحدهما نحَا فيه نَحْوَ المرأة في نَوْحها ورَقَّقَهُ وأصلحه، وزاد فيه، والآخر نحا فيه نَحْوَ معبد في غِنائه.

ثم دخل على حمزة فقال له: أيها الأمير؛ إني قد صَنَعْتُ غنَاء في شعرٍ سمعتُ بعض أهل المدينة ينشده. وقد أعجبني؛ فإن أذن الأمير غنَّيْتُه فيه. قال: هَاتِهِ؛ فَغَنَّاه اللَّحْنَ الذي نحا فيه نَحْوَ مَعْبَد؛ فطرب حمزة، وقال له: أحسنتَ يا غلام! هذا الغناء غناء معبد وطريقته، فقال: لا تَعْجَل أيها الأمير، واسمع مني شيئًا ليس من غناء مَعْبَدٍ ولا طريقته. قال: هات، فغنّاه اللحنَ الذي تشبَّه فيه بنوح المرأة؛ فطرب حمزة حتى ألقى عليه حُلَّة كانت عليه قيمتُها مائة دينار.

ودَخل معبد فرأى حُلة حمزة عليه، فأنكرها، وعلم حمزة بذلك، فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكًا فغنّاه الصوتين؛ فغضب معبد لما سمع الصوت الأول، وقال: قد كرِهتُ أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غنائي فيدعيه لنفسه. فقال له حمزة: لا تعجلْ واسمع غناءً صنَعَه ليس من شأنِك ولا غنائك، وأمره أن يُغَنِّي الصوت الآخر فغنَّاه فأطرق معبد، فقال له حمزة: والله لو انْفَرَدَ بهذا لضاهاك، ثم يتزايدُ على الأيام، وكلما كبِرَ وزاد شِخْتَ أنت ونقصتَ، فَلأَنْ يكون منسوبًا إليك أجملُ.

فقال له معبد ـ وهو منكِرٌ: صدق الأمير! ثم أمر حمزة لمعبد بخلْعَةٍ من ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه، فقام مالك فقبلَ رأس معبد، وقال له:

يا أبا عباد؛ أساءَكَ ما سمعتَ منِّي؟ والله لا أُغنِّي لنفسي شيئًا أبدًا ما دمتَ حيًا، وإن غَلَبَتْنِي نفسي فغنيتُ في شعر استحسنتُه لا نسبتُه إلا إليك، فطِبْ نفسًا وارضَ عني. فقال له معبد: أو تفعلُ هذا وتَفِي به؟ قال: إي والله وأَزِيد.

فكان مالِكٌ بعد ذلك إذا غنَّى صوتًا وسئِلَ عنه قال: هذا لمعبد ما غنّيت لنفسي شيئًا قطّ، وإنما آخُذُ غناءَ معبد فأنقله إلى الأشعار وأحسّنه وأزيدُ فيه وأُنْقِص منه.

مَالك بن أنس يغنّي[1]

قال حُسين بن دَحْمَان الأشْقَر: كنتُ بالمدينة، فخَلا لي الطريقُ وَسَط النهار فجعلتُ أتغنّى:

مــا بــالُ أهــلِك يــا ربــابُ   خُــزْرًا[2] كــأنــهــمُ غِــضــابُ

(١) الأغاني: ٤ ـ ٢٢٢.

(٢) الخزر: النظر بلحاظ العين.

قال: فإذا خَوْخَة[١] قد فُتِحتْ، وإذا وَجْهٌ قد بدا تتبعه لحيةٌ حَمْراء، فقال: يا فاسق، أسأتَ التَّأدِية، ومنعتَ القائلة[٢]، وأذعت الفاحشة؛ ثم اندفع يغنيه، فظننتُ أن طُوَيسًا قد نُشِرَ بعينه.

فقلت له: أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء؟ فقال: نشأت وأنا غلام حَدَث أَتَتَبّع المغنِّين، وآخُذ عنهم؛ فقالت لي أمي: يا بني؛ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفَتْ إلى غنائه؛ فدَع الغناء واطلب الفِقْه فإنه لا يضرُّ معه قُبْحُ الوجه، فتركت المغنين واتَّبعت الفقهاء، فبلغ الله بي عزّ وجلّ ما ترى. فقلت له: فأعِدْ، جُعِلتُ فداءك! قال: لا! ولا كرامة، أتريد أن تقول: أخذتُه عن مالك بن أنس! وإذا هو مالك[٣] بن أنس ولم أعلم.

أفسَدَ آخرًا ما أصْلَحَ أوّلًا[٤]

قدم ابنُ جامع السَّهمي مَكَّةَ بمالٍ كثير، ففرَّقهُ في ضُعفاء أهلها؛ فقال سُفْيَان[٥] بن عُيَيْنَة: بلغني أن هذا السهميّ قدِم مال كثير! قالوا: نعم، قال: فعلامَ يُعْطَى؟ قال: يغني الملوك فيعطونه. قال: وبأيّ شيء يغنيهم؟ قالوا: بالشعر. قال: فكيف يقول؟ فقال له فتى من تلاميذه: يقول:

أَطَوِّفُ بالبيت مَعْ مَنْ يَطُوفُ ... وأرفعُ من مئزري المسبلِ

قال: بارك الله عليه، ما أحسنَ ما قال! ثم ماذا؟ قال:

وأسْجد بالليل حتى الصباح ... وأتلو من المُحْكَمِ المُنْزِل

قال: وأَحْسَن أيضًا، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟ قال:

عسى فارجُ الهمّ عن يوسف ... يُسَخِّرُ لي ربَّة المحمل

قال: أَمْسِكْ، أمسِكْ! أفْسَدَ آخرًا ما أصلحَ أولًا!

---

(١) الخوخة: البويب، أو الباب الصغير في الباب الكبير.

(٢) القائلة: القيلولة.

(٣) مالك بن أنس، أحد الأئمة الأربعة بعد أهل السنة كان صلبًا في دينه بعيدًا من الأمراء والملوك، وهو صاحب كتاب الموطأ، توفي سنة ١٧٩ هـ.

(٤) العقد الفريد: ٤ ـ ٩٣.

(٥) محدّث الحرم، كان حافظًا ثقة، واسع العلم، ولد بالكوفة ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ.

ابن جَامِع فِي دَار الخلَافَة[(١)]

قال إسماعيلُ بن جامع السَّهمي[(٢)]: ضَمَّنِي[(٣)] الدهر ضمًّا شديدًا بمكة، فانتقلتُ منها إلى المدينة، فأصبحتُ يومًا وما أَمْلِكُ إلا ثلاثةَ دراهم، فهي في كُمّي إذا أنا بجارية حُمَيْرَاء على رقبتها جَرّة تريد الرَّكِيّ[(٤)] تسعى بين يَديَّ، وتُرَنِّمُ بصوتٍ شَجِيّ تقول:

شَكَوْنا إلى أحْبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر الليلَ عندنا!

وذاك لأنَّ النوم يَغْشَى عيونَهُمْ ... سِرَاعًا وما يغْشي لنا النّومُ أعيُنَا

إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ لِذِي الهوى ... جَزِعنا وهمْ يَستبشرون إذا دَنَا

فلو أنهم كانوا يُلَاقُون مثلَ ما ... نُلاقِي لكانوا في المضاجع مِثْلَنَا

فأخذ الغناءُ بِقَلْبي، ولم يَدُرْ لي منه حرف. فقلت: يا جارية؛ ما أَدْري أوجهُك أحسن أن غناؤُك! فلو شئتِ أعدتِ. قالت: حبًّا وكرامة. ثم أسنَدَتْ ظهرها إلى جِدَار قَرُب منها ووضعت إحدى رجليها على الأخرى، ووضعت الجرّةَ على ساقيها، ثم انبعثت تُغَنّيه؛ فوالله ما دار لي منه حرف. فقلت: أحسنتِ! فلو شئتِ أعدتِ مرة أخرى! فَفَطِنت وكَلَحَتْ[(٥)] وقالت: ما أعجبَ أمركم! أَحَدُكُمْ لا يزال يجيء إلى الجارية عليها الضَّريبة فيشْغلها! فضربتُ بيدي إلى الثلاثة الدراهم فدفعتُها إليها، وقلتُ: أقيمي بها وجهك اليوم إلى أن نَلْتقي. فأخذتْها كالكارهة وقالت: أنت الآن تريد أن تأخذ مني صوتًا أحسبك ستأخُذُ به ألفَ دينار وألف دينار وألف دينار؛ وانبعثتْ تُغَنِّي؛ فأعملتُ فِكْرِي في غِنائها حتى دار لي الصوتُ وفهمتُه، وانصرفتُ مسرورًا إلى منزلي أَرَدِّدُه حتى خَفَّ على لساني.

ثم إني خرجتُ أُريد بَغْدَاد فدخلتُها، فنزل بي المُكَارِيّ على باب مُحَوَّل[(٦)]؛ فبقيت لا أدري أين أتوجّه ولا مَنْ أَقْصِد! فذهبتُ أمشي مع الناس، حتى أتيتُ

---

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣١١.

(٢) اشتهر ابن جامع بالغناء، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله، وكان ورعًا تقيًّا يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة، فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس، ولا يصلي الناس الجمعة حتى يختم القرآن، ثم ينصرف إلى منزله.

(٣) ضمني: ضغطني واشتد علي، من شدة الفقر.

(٤) الركي: جمع الركية، وهي البئر.

(٥) كلح: تكشر في عبوس.

(٦) باب محول: محلة كبيرة من محال بغداد.

الجِسْرَ فعبرتُ معهم، ثم انتهيتُ إلى شارعِ المدينة، فرأيت مسْجِدًا بالقرب من دار الفَضْل بن الربيع مرتفعًا، فقلت: مسجد قوم سرَاة؛ فدخلتُه وحضرتُ صلاةَ المغرب، وأقمتُ بمكاني حتّى صلَّيْتُ العِشاء الآخرة على جوعٍ وتعب، وانصرفَ أهلُ المسجد، وبقي رجل يُصلِّى، خَلْفَه جماعةٌ: خدم وخَوْلٌ ينتظرون فراغه، فصلّى مليًّا ثم انصرف؛ فرآني فقال: أَحْسِبك غريبًا. قلت: أجل. قال: فمتى كنتَ في هذه المدينة؟ قلت: دخلتُها آنفًا، وليس لي بها منزلٌ ولا معْرِفة، وليست صناعتي مما يُمَتُّ بها إلى أهل الخير. قال: وما صناعتُك؟ قلت: أتغنّى. فوثب مُبادِرًا، ووكَّل بي بعضَ مَن معه، فسألتُ الموكَّل بي عنه، فقال: هذا سلَّام الأبْرش[1].

قال ابنُ جامع: وإذا رسولٌ قد جاء في طلبي، فانتهى بي إلى قصرٍ من قصورِ الخِلَافة، وجازَ بيِ مقصورةً إلى مقصورة، ثم أُدْخِلْتُ مقصورة في آخر الدِّهْليز، ودعا بطعام فأُتِيتُ بمائدة عليها من طعام الملوك، فأكلتُ حتى امتلأتُ.

فإني لكذلك إذ سمعتُ رَكْضًا في الدِّهليز وقائلًا يقول: أين الرجل؟ قيل: هو ذا، قال: ادعوا له بِغَسول[2] وخِلْعَةٍ وطِيب. ففُعِل ذلك بي، فَحُمِلْتُ على دابّةٍ إلى دار الخلافة ـ وعرفتُها بالحرَس والتَّكْبير والنِّيران ـ فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّة، حتّى صِرْتُ إلى دارٍ قَوْرَاء[3] فيها أسِرّة في وسطها، قد أُضيف بعضُها إلى بعض.

فأمرني الرجلُ بالصعود فَصَعِدتُ، وإذا رجلٌ جالس، عن يمينه ثلاثُ جَوارٍ في حجورهنّ العيدان، وفي حِجْرِ الرجل عود، فرحّب الرجلُ بي، وإذا مجالسُ حِيالَه كان فيها قومًا قد قاموا عنها، فلم أَلْبَثْ أنْ خرج خادمٌ من وراء الستر؛ فقال للرجل: تَغَنَّ، فانبعث يغنّي بصوتٍ لي وهو:

لم تَمْشِ مِيلًا ولم تركبْ على قَتَب ... ولم تر الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ[4]

تَمْشِي الهُوَيْنى كأنَّ الريحَ تَرْجِعُها ... مَشْيَ اليعَافيرِ في جَيْئَاتها الوَهَلُ[5]

---

(١) سلام الأبرش: خدم المنصور وتولى المظالم للمهدي وعاصر الهادي والرشيد.

(٢) الغسول: الماء يغتسل به. (٣) الدار القوراء: الواسعة.

(٤) الكلل: جمع كلة، وهي ستر يخاط كالبيت. (٥) اليعافير: الظباء، والوهل: الفزع.

فغنّى بغير إصابة، وبأوتار ودساتينَ[١] مختلفة، ثم عاد الخادمُ إلى الجارية التي تلي الرجل، فقال لها: تغنيْ، فغنَّتْ أيضًا بصوتٍ لي، كانتْ فيه أحسنَ حالًا من الرجل، وهو:

يا دارُ أضحَتْ خَلاءً لا أَنِيسَ بها ... إلا الظِّباءُ ولا النَّاشِطُ[٢] الفَرِدُ[٣]
أينَ الذين إذا ما زرتُهُمْ جَذِلُوا ... وطار عن قلبيَ التَّشْوَاق والكَمَدُ!

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليها، فانبعثت تُغَنِّي:

فوالله ما أَدْرِي أَيُغْلِبُنِي الهوَى ... إذا جدّ وَشْكُ البَيْنِ أم أنا غالبُهْ؟
فإن أستطِعْ أَغلبْ، وإن يغلب الهوَى ... فمثلُ الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنّت:

مَرَرْنا على قَيْسيَّةٍ عامِرِيَّة ... لها بشَرٌ صافي الأدِيم هجانِ[٤]
فقالت، وألقتْ جانبَ السترِ دونها: ... مِنَ ايةِ أرض أو مَنِ الرجُلان؟
فقلت لها: أمّا تميمٌ فأسرتي ... هُديتِ، وأما صاحبي فَيَمَانِ
رفيقان ضَمَّ السَّفْرُ بيني وبينه ... وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

ثم عاد إلى الرجل فغنّى صوتًا فشبَّه[٥] فيه وهو:

أَمْسى بأسماءَ هذا القلبُ معمودًا ... إذا أقول صحا يعتادُه عِيدَا
أجْرِي على موعدٍ منها فتخلُفني ... فما أَمَلُّ ولا تُوفِي المواعيدا
كأنّ أَحْوَرَ من غِزْلَان ذي بقَرٍ[٦] ... أعارها شَبَه العينين والجِيدَا
قامت تَرَاءَى وقد جدّ الرحيلُ بنا ... لِتَنْكَأ القرحَ من قلب قد اصْطِيدا
بمشرقٍ كشُعَاع الشمس بهجتُه ... ومُسْبَكِرٍ[٧] على لبّاتها سُودا

ثم عاد إلى الجارية، فتغنّتْ:

تُعَيِّرنا أنّا قليلٌ عَدِيدِ يدُنا ... فقلت لها: إن الكرامَ قليلُ

---

(١) الدساتين: الرباطات التي توضع الأصابع عليها، واحدها دستان.
(٢) الناشط: الثور الوحشي. (٣) الفرد: المنفرد.
(٤) الهجان: الأبيض: الخالص من كل شيء. (٥) شبه: خلط فيه ولم يحسن أداءه.
(٦) ذو بقر: قرية في ديار بني أسد. (٧) شعر مسبكر: مسترسل.

وما ضَرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عَزِيزٌ وجارُ الأكثيرين ذليلُ
وإنّا لَقَوْمٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً إذا ما رَأَتْهُ عامرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حبُّ الموت آجالَنا لنا وتكرهُه آجالُهم فنطولُ

وتغنّتِ الثانية:

وَدِدْتكِ لَمّا كان وُدُّكِ خالصًا وأعرضتُ لَمّا صِرْتِ نهبًا مقسّمَا
ولا يلبثُ الحوضُ الجديدُ بناؤه على كثرةِ الوُرَّادِ أن يتهدّما

وتغنّتِ الثالثة:

وما كرَّ إلا كان أوّلَ طاعنٍ وما أبصرتْهُ الخيْلُ إلّا اقْشَعَرَّتِ
فيُدْرِك ثأرًا وهو لم يُخْطِهِ الغِنَى فمثلُ أخي يومًا به العينُ قَرَّتِ
فلستُ أُرَزًّا بعده بزريَّةٍ فأذكره إلّا سَلتْ وتَجَلَّتِ

وغَنّى الرجلُ:

لحى الله صُعلوكًا مُناه وهمّهُ من الدهر أن يلْقَى لَبُوسًا ومَطْعَما
ينامُ الضُّحَا حتى إذا ليلُهُ انتهى تنبّه مَثْلوجَ الفؤاد مُوَرَّمَا[١]
ولكنّ صعلوكًا يساوِرُ همّه ويمضي على الهَيْجاءِ ليثًا مقدَّما
فذلك إن يَلْقَ الكريهة يَلْقَهَا كريمًا، وإن يستغْن يومًا فربَّمَا

وتغنّتِ الجارية:

إذا كنتَ رَبًّا للقَلُوصِ فَلَا يكن رفيقُك يمشي خلْفَهَا غيرَ راكبِ
أنِخْهَا فأَرْدِفْهُ فإنْ حملتْكما فذاك، وإن كان العِقَابُ[٢] فَعاقبِ

وتغنّت الثانية:

أَلَمْ ترَ لمّا ضمني البلد القَفْرُ سمعتُ نداءً يَصْدَعُ القلبَ يا عَمْرُو!
أغِثْنَا فإنّا عُصْبَةٌ مَذْحِجِيَّةٌ نُزَارُ على وَفْرٍ وليس لنا وَفْرُ

---

(١) مورمًا: أي منتفخًا بادنًا لعدم ما يشغله من أمور الحياة.
(٢) العقاب: هو أن تركب الناقة مرة، ويركبها صاحبك مرة أخرى.

وتغنّتِ الثالثة:

فلما تـواقَفْنَا وسلّمتُ أسْفَرَتْ   وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أن تَتَقَنَّعَا
تبالَهْنَ بالعِرْفَان لَمَّا عَرَفْنَني   وقُلْنَ امرؤٌ باغ أكَلَّ وأوضَعَا[١]
ولما تَنَازَعْنَ الأحاديثَ قلنَ لي   أخِفْتَ علينا أن نُغَرّ ونُخْدَعا!

قال ابن جامع: وتوقَّعْتُ مجيءَ الخادم إليَّ، فقلتُ للرجل: بأبي أنت! خُذ العودَ، فشُدَّ وَتَرَ كذا وارفع الطبقة، وحُطّ دُسْتان كذا، ففعل ما أمرتُه.

وخرج الخادم فقال لي: تَغَنَّ، عافاك الله! فتغنَّيتُ بصَوتِ الرجل الأول على غير ما غنّاه، فإذا جماعةٌ من الخَدَم يحضُرُون حتى استَنَدُوا إلى الأسرّة، وقالوا: وَيْحَك! لِمَن هذا الغناء؟ قلت: لي. فانصرفوا عني بتلك السرعة، وخرج إليّ الخادم وقال: كذبت! هذا الغناء لابن جامع. ودارَ الدور، فلما انتهى الغناء إليَّ قلتُ للجارية التي تَلِي الرجل: خذي العود فعَلِمَتْ ما أريد، فسوّت العودَ على غنائِهَا للصوت الثاني فتغنّيتُ به؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخَدَم فقالوا: وَيْحَك! لمن هذا؟ قلت: لي، فرجعوا وخرج الخادم فقال: كذبت، ثم تغنيتُ بصوتِ لي، فلا يُعرف إلا بي، وهو:

عُـوجِـي عـليَّ فـسلِّمي جَـبْـرُ   فـيـمَ الـصـدودُ وأنـتـمُ سـفْـرُ
مـا نـلـتـقـي إلا ثـلاثَ مِـنًـى   حـتـى يُـفَـرّق بـيـنـنـا الـدّهـرُ

فتزلزلَتْ والله الدَّارُ عليهم، وخرج الخادمُ فقال: وَيْحَك! لمَنْ هذا الغناء؟ قلت: لي. فرجع، ثم خرج فقال: كذبتَ! هذا غناءُ ابن جامع، فقلت: فأنا إسماعيل بن جامع.

فما شعرتُ إلا وأميرُ المؤمنين وجَعْفَر بن يحيىٰ قد أقبلَا مِنْ وراء السِّتْرِ الذي كان يخرجُ منه الخادم. فقال لي الفضل بن الربيع: هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك؛ فلما صَعِد السريرَ وثَبْتُ قائمًا، فقال لي: ابنُ جامع؟ قلت: ابن جامع، جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين! قال: ويحك! متى كنتَ في هذه البلدة؟ قلت: آنِفًا، دخلتُها في الوقت الذي علم بي أميرُ المؤمنين. قال: اجلس، ويحك يا ابن جامع!

(١) أكل: أعيا. وأوضع: أسرع؛ يريد أنه أوضع فأكل، ولكن قدم وأخر.

ومضى هو وجعفر، فجلسا في بعض تلك المجالس، وقال لي: أبشِرْ وابْسُط أَمَلك؛ فدعوتُ له. ثم قال: غنِّني يا ابنَ جامع، فخطر بقلبي صوتُ الجارية الحُمَيْراء، فأمرتُ الرجلَ بإصلاح العودِ على ما أردتُ من الطبقة، فعرف ما أردتُ، فوزن العود وَزْنًا، وتعاهدَهُ حتى استقامت الأوتار، وأخذت الدساتينُ مواضعَها، وانبعثتُ أغني بصوت الجارية الحُمَيراء:

شكَوْنَا إلى أحبابنا طولَ ليلِنا	فقالوا لنا: ما أقصرَ الليل عندنا!
وذاك لأنَّ النومَ يَغْشَى عيونَهم	سِرَاعًا وما يَغشي لنا النوم أعْيُنا
إذا ما دَنا الليلُ المُضِرُّ لذي الهَوَى	جَزِعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهمْ كانوا يلاقُون مثل مَا	نُلَاقِي لكانوا في المضاجع مِثْلَنَا

فنظر الرشيد إلى جعفر وقال: أسمعتَ مثل هذا قَط؟ فقال: لا والله ما خَرَقَ مسامعي قطّ مِثْلُه. فرفع الرَّشيد رأسَه إلى خادم بالقُرْبِ منه، ودعا بكيس فيه ألفُ دينار، فجاء ورَمَى به إليّ، فصيَّرْتُه تحت فخذي ودعوتُ لأمير المؤمنين.

فقال: يا ابنَ جامع؛ رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت، فرددته، وتزيَّدْتُ فيه؛ فقال له جعفر: يا سيِّدي؛ أما تراه كيف يتزيَّد في الغناء! هذا خلاف ما سمعناه أولًا، وإن كان الأمر في اللحن واحدًا.

فرفع الرشيدُ رأسَه إلى ذلك الخادم، ودعا بكيس آخر فيه ألفُ دينار، فجاءني به، فصيَّرتُه تحت فخذي، وقال: تَغَنَّ يا إسماعيل ما حَضرَك، فجعلتُ أقصد الصوتَ من بعد الصوت؛ مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري فأغنِّيه، فلم أزلْ أفعلُ ذلك إلى أن عَسْعَسَ[1] الليل. فقال: أَتْعَبْناك يا إسماعيل هذه الليلةَ بالغناء؛ فأعِدْ على أمير المؤمنين الصوت (يعني صوت الجارية) فتغنّيت؛ فدعا الخادمَ وأمره فأحضر كيسًا ثالثًا فيه ألفُ دينار؛ فذكرتُ ما كانت الجارية قالت لي، فتبَسَّمْتُ، ولحظني؛ فقال: مِمَّ تبسَّمت؟ فجَثَوْت على ركبتي وقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ الصدقُ مَنْجاة.

فقال لي بانتهار: قُلْ! فقصَصْتُ عليه خَبَر الجارية، فلما استوعبه[2] قال: صدقْتَ، قد يكون هذا؛ وقام.

---

(١) عسعس الليل: أقبل ظلامه.

(٢) عرفه كله.

ونزلتُ من السرير ولا أدري أيْنَ أقْصِد، فابتدَرَني فَرَّاشان فصارا بي إلى دارٍ قد أمر بها أميرُ المؤمنين، فَفُرِشَتْ وأُعِدَّ فيها جميعُ ما يكون في مثلها من آلة جلساء الملوك وندمائهم، ومن كلِّ آلة وخَوَل[1] إلى جوارٍ ووُصَفاء، فدخلت بغداد فقيرًا وأصبحت من جِلةِ[2] أهلها ومَيَاسيرهم!

ابن جَامِع وَأبو يُوسف القَاضِي[3]

قدِم ابن جامع قَدْمَةً له من مكّة على الرشيد ـ وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمْتِ كثيرَ الصلاة، قد بَانَ أَثَرُ السجودُ في جَبْهته، وكان يَعْتَمُّ بعمامة سوداء على قَلَنسُوَة طويلة، ويلبس لباسَ الفُقَهَاء ويركب حمارًا مِرِّيسِيًّا[4] في زِيِّ أهل الحجاز.

فبينا هو واقفٌ على باب يحيىٰ بن خالد يلتمس الإذنَ، إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهلِ القَلَانس، فلما هجمَ على الباب نظر إلى رجل يقفُ إلى جانبه ويحادِثهُ، فوقعت عَيْنُه على ابن جامع، فرأى سَمْتَهُ وحلاوة هيئَتِه؛ فجاءَ فوقف إلى جانبه، ثم قا له: أَمْتَعَ الله بك! توسَّمْتُ فيك الحجازية والقرشيّة، قال: أصبْت، قال: فمن أيِّ قريش أنتَ؟ قال: من بني سَهم. قال: فأيُّ الحرمين منزلُك؟ قال: مكّة، قال: ومَنْ لقيتَ من فقهائهم؟ قال: سَلْ عمن شئتَ، ففاتَحه الفقه والحديثَ فوجده عنده ما أحبّ؛ فأُعْجِبَ به، ونظر الناسُ إليهما فقالوا: هذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على المُغَنِّي ـ وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع! فقال أصحابه: لو أخبرناه عنه! ثم قالوا: لا، لعله لا يعودُ إلى مواقفته بعد اليوم فَلِمَ نَغُمّه!

فلما كان الإذنُ الثاني ليحيىٰ غَدَا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلبُ ابنَ جامع فرآه، فذهب فوقف إلى جانبه، فحادثه طويلًا كما فعل في المرَّةِ الأولى، فلما انصرف قال له أصحابُه: أيُّها القاضي؛ أتعرف هذا الذي تُوَاقِف[5] وتحادِثُ؟ قال: نعم؛ رجلٌ من قريش من أهل مكة من الفقهاء. قالوا: هذا ابنُ جامع المَغنى، قال: إنا لله! قالوا: إن الناسَ قد شَهَرُوك بمُوَاقفته، وأنكروا ذلك من فِعْلك.

---

(١) الخول: الخدم. (٢) الجلة جمع جليل: عظيم.

(٣) الأغاني: ٦ ـ ٢٩١.

(٤) مريسي: نسبة إلى مريسة وهي قرية بمصر مشهورة بالحمير.

(٥) واقفه: سأله الوقوف.

فلما كان الإذْنُ الثالثُ جاء أبو يوسف ونظر إليه فتَنَكَّبه، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنْذِرَ به، فجاء فوقف فسلّم عليه، فردّ عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يَلْقَاهُ به، ثم انحرف عنه.

فدنا منه ابنُ جامع، وعرف الناسُ القِصَّة، وكان ابنُ جامع جهيرًا، فرفع صوته. ثم قال: يا أبا يوسف، مالك تَنْحَرِفُ عني! أيَّ شيء أنكرت؟ قالوا لك: إني ابنُ جامع المغني، فكرهتَ مُوَاقَفَتي! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئت ـ ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يستمعون ـ فقال: يا أبا يوسف، لو أن أعرابيًا جِلْفًا وقف بين يديك فأنشدك بجفاءٍ وغِلْظة من لسانه وقال:

يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سَالِفُ الأَمَدِ

أكنتَ ترى بذلك بأسًا؟ قال: لا، قد رُوِي عن النبيّ ﷺ في الشعر قولٌ ورُوِي في الحديث.

قال ابنُ جامع: فإن قلتُ أنا هكذا... ثم اندفع يتغنّى فيه حتى أتى عليه، ثم قال: يا أبا يوسف؛ رأيتني زِدْتُ فيه أو نقصْتُ منه؟ قال: عافاك الله؛ أَعْفِنا من ذلك. ثم قال: يا أبا يوسف؛ أنتَ صاحبُ فُتْيا، ما زدتُه على أن حسَّنته بألفاظي، فحسُن في السماع، ووصل إلى القلب! ثم تنحّى عنه ابنُ جامع!

سَرِقَة الغِنَاء(١)

قال الرشيدُ يومًا لجعفر بن يحيىٰ: قد طال سماعُنا هذه العصابةَ على اخْتِلاطِ الأمرِ فيها، فهلُمّ أُقاسِمْك إياها وَأُخَايِرْك؛ فاقتسما المغنّين، على أنْ جعلا بإزاءِ كل رجلٍ نظيرَه؛ وكان ابنُ جامع في حَيّزِ الرشيد وإبراهيم الموصليّ في حيّز جعفر بن يحيىٰ، وحضر النُّدماءُ لِمِحْنَة(٢) المغنّين.

وأمرَ الرشيدُ ابنَ جامع فغنّى صوتًا أَحْسَنَ فيه كلَّ الإحسان، وطرِب الرشيدُ غايةَ الطرب، فما قطعه، قال الرشيدُ لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنِّه. فقال: لا والله يا أميرَ المؤمنين ما أَعْرِفُه؛ وظهر الانكسارُ فيه، فقال الرشيدُ لجعفر: هذا واحدٌ.

(١) الأغاني: ٥ ـ ٢٠٦.

(٢) المحنة: الاختبار.

ثم قال لإسماعيل بن جامع: غنِّ يا إسماعيلُ؛ فغنّى صوتًا ثانيًا أحسن من الأول، فلما استوفاه قال الرشيدُ لإبراهيم: هاته يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا! فقال: هذان اثنان! غَنِّ يا إسماعيل؛ فغنّى ثالثًا يتقدّم الصوتين الأولين ويفضُلُهما. فلما أتى على آخره قال: هاتِهِ يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا أيضًا. فقال له جعفر: أَخْزَيتنا أَخْزَاكَ الله.

وأتمَّ ابنُ جامع يَوْمَه، والرشيدُ مسرورٌ به، وأجازه بجوائز كثيرة، وخلَعَ عليه خِلَعًا فاخرة، ولم يزل إبراهيم مُنْخَذِلًا منكسرًا حتى انصرف. ومضى إلى منزله، فلم يستقِرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزَّف[١] ـ وكان من المغنين المحسنين، وكان أسرعَ مَنْ عُرِف في أيامه في أَخْذِ صوتٍ يريدُ أَخْذَه، وكان الرشيدُ قد وَجَدَ[٢] عليه في بعض ما يجدُه الملوكِ على أمثاله، فألزمه بيتَه وتناساه ـ فقال إبراهيم للزَّف: إني اخْتَرْتُكَ على مَنْ هو أحبُّ إليّ منك لأمرٍ لا يصلح له غيرُك، فانظر كيف تكون! قال: أَبلغُ في ذلك مَحَبَّتَك، إن شاء الله تعالى. فأدّى إليه الخبر، وقال: أريدُ أن تمضيَ الساعةَ إلى ابن جامع، فتُعلمه أنك صِرْتَ إليه مهنِّئًا بما تهيّأَ له عليّ وتَتَنَقَّصُني وتَثْلِبني[٣] وتَشْتِمُني، وتحتال في أن تسمعَ منه الأصواتَ وتأخذها منه، ولك ما تُحِبُّه من جهتي مِنْ عرَض من الأعراض مع رضا الخليفة إن شاء الله.

فمضى واستأذنَ على ابن جامع فأذِن له، فدخل وسلّم عليه وقال: جئتُك مُهنِّئًا بما بلغني مِنْ خبرك، والحمد لله الذي أَخْزَى ابنَ الجُرْمُقانِيَّة[٤] على يدك، وكشف الفضلَ في محلك من صناعتك، قال: وهل بلغك خبَرُنا؟ قال: هو أشهرُ من أن يَخْفَى على مثلي، قال: ويحك! إنه يقصُرُ عن العِيان. قال: أيها الأستاذ؛ سُرّني بأن أسمَعه مِنْ فِيكَ حتى أرويَهُ عنك؛ قال: أَقِمْ عندي حتى أَفْعَل، قال: السمع والطاعة.

---

(١) هو محمد بن عمرو مولى بني تميم، كوفي الأصل والمولد، والزف لقب غلب عليه، كان مغنيًا ضاربًا، طيب المسموع، صالح الصنعة، مليح النادرة، أسرع خلق الله أخذًا للغناء. وأصحهم أداء له كان يتعصب لابن جامع، مات في خلافة الرشيد.

(٢) وجد عليه: غضب.

(٣) ثلبه: عابه وتنقصه.

(٤) الجرمقاني واحد الجرامقة: وهم قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام.

فدعا له ابنُ جامع بالطعام فأكَلا ودَعَا بالشراب، ثم ابتدأ فحدّثه بالخبر حتى انتهى إلى خَبرِ الصوت الأول. فقال له الزّف: وما هو أيُّها الأستاذ؟ فغنّاه ابنُ جامع إياه، فجعل محمد يُصَفّق وينقر ويشربُ وابنُ جامع مجتهد في شأنه حتى أخذه عنه، ثم سأله عن الصوت الثاني فغنّاه إياه. وفعل مثلَ فِعْلِهِ في الصوت الأول، ثم كذلك في الصوت الثالث.

فلما أخذ الأصواتَ الثلاثة وأحكمها، قال له: يا أستاذ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ فتأذن لي في الانصراف؟ قال: إذَا شئتَ.

فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم، فلما طلع من باب داره قال له: ما وراءَك؟ قال: كلُّ ما تحبّ؛ ادْعُ لي بعُودٍ، فدعا له به؛ فضَرَب وغنّاه الأصوات. قال إبراهيم: وأبيك هي بصُوَرِها وأعيانها؛ ردِّدْها عليَّ الآن، فلم يزل يردّدها، حتى صحّت لإبراهيم، وانصرف الزّفُّ إلى منزله.

وغَدَا إبراهيم إلى الرشيد، فلما دعا بالمُغَنّين دخل فيهم، فلما بَصُرَ به قال له: أو قد حضرت! أما كان ينبغي لك أَنْ تجلسَ في منزلك شهرًا بسبب ما لقيتَ من ابن جامع! قال: ولِمَ ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ جعلني الله فداك! والله لئن أذنتَ لي أن أقولَ لأقولَنّ، قال: وما عساك أَنْ تقول! قل. فقال: إنه ليس ينبغي لي ولا لغيري أَنْ يراك نشيطًا لشيء، فيعارضك، ولا أن تكونَ متعصّبًا لحيِّزٍ وجَنْبة[1] فيغالبَك؛ وإلا فما في الأرض صَوْتٌ لا أعرفه. قال: دَعْ ذا عنك قد أقررتَ أمس بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس على معرفةٍ كما تقول فهاتِهِ اليوم، فليس هٰهنا عَصَبِيّة ولا تمييز.

فاندفع فأمرَّ الأصواتَ كلها، وابنُ جامع مُصْغٍ يسمع منه، حتى أتى على آخرها، فاندفع ابنُ جامع فحلف بالأيمان المُخْرِجة أنه ما عرفها قط ولا سَمِعها، ولا هي إلا مِنْ صَنْعَته، ولم تَخْرُج إلى أحد غيره، فقال له: ويحك! فما أحدثتَ بعدي؟ قال: ما أحدثتُ شيئًا.

فقال: يا إبراهيم؛ بحياتي، أصدقني. فقال: وحياتك لأصْدُقَنّكَ؛ رميتُه بحَجَره[2]، فبعثت إليه بمحمد الزَّف وضمنتُ له ضماناتٍ، أوّلها رضاك عنه؛

---

(١) الجنبة: الناحية.

(٢) رمى فلان بحجره: إذا قرن بمثله.

فمضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه ونقلتُها حتى سقط الآن اللومُ عني بإقراره؛ لأنه ليس عليَّ أن أعرفَ ما صنعه هو ولم يُخرِجُه إلى الناس، وهذا بابٌ من الغيب، وإنما يلزمني ألّا يعرف هو شيئًا من غناء الأوائل وأجهله أنا، وإلا فلو لزمني أَنْ أَرْوي صنعتَه للزِمه أن يرويَ صنعتي، ولزم كلَّ واحدٍ منّا لِسَائِرِ طبقته ونظرائه مثلُ ذلك، فمن قصر كان مذمومًا ساقطًا.

فقال له الرشيد: صدقتَ يا إبراهيم ونَضَحتَ[1] عن نفسك، وقمت بحجّتك.

ثم أقبل على ابن جامع، فقال له: يا إسماعيل؛ أُتيت أُتيت! دُعيت دُهِيت! أبطل عليك الموصلي ما فعلتَه به أمس، وانْتَصَف اليومَ منكَ، ثم دعا بالزُّف فرَضِيَ عنه.

أنَا وَالصبح كَفَرَسَيْ رِهَان[2]

قال إبراهيم[3] الموصلي: قال لي الرشيدُ يومًا: يا إبراهيم؛ بكِّر عليّ غدًا حتى نصْطَبح؛ فقلتُ له: أنا والصُّبحُ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، فبكّرت فإذا أنا به خاليًا، وبين يديه جاريةٌ كأنها خوط[4] بَانٍ، حُلْوَةُ المنظر، دَمِثَةُ الشمائل، وفي يدها عود، فقال لها: غَنّي، فغنّتْ في شِعْرِ أبي نواس وهو:

تَـوهَّـمَـهُ قـلـبي فـأصـبـح خَـدُّه ... وفيه مكانَ الوهْم من نظري أثرُ[5]
ومرَّ بفِكْرِي خاطرًا فجرحتُه ... ولم أرَ جِسمًا قطّ يَجْرَحُه الفِكْرُ
وصـافـحـه قـلـبي فـآلـم كـفَّـهُ ... فمِنْ غَمْزِ قلبي في أنامِله عَقْرُ[6]

قال إبراهيم: فذهبَتْ والله بعقْلي حتى كِدْتُ أن أفتضِحَ، فقلت: مَن هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لـهـا قـلـبي الـغـداةَ وقـلـبُـهـا لـي ... فـنحنُ كذاك في جَسَدَيْن رُوح

(١) نضح عن نفسه: دفع عنها بالحجة. (٢) الأغاني: ٥ ـ ٢٢٨.
(٣) أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان، اتصل بالخلفاء فكانت له عندهم منزلة حسنة، ومات في بغداد سنة ١٨٨ هـ.
(٤) الخوط: الغصن، والبان: نوع من الشجر، لحب ثمره دهن طيب.
(٥) أثر الجرح: أثره يبقى بعدما يبرأ. (٦) العقر: الجرح.

ثم قال لها: غَنّي، فغنّت:

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم: لِيَ الكَبِدُ الحَرَّى فسِرْ ولك الصَّبْر[١]
وقد خَنَقَتها عَبْرَةٌ فدموعُها على خدِّها بيضٌ وفي نحرها صُفْرُ

قال: فشرب وسقاني ثم سقاها، ثم قال: غَنّ يا إبراهيم؛ فغنَّيت حسبَ ما في قلبي غير مُتَحفظٍ من شيء:

تَشرَّبَ قلبي حبَّها ومَشَى به تَمَشِّي حُمَيَّا الكأس في جسم شاربِ
ودبَّ هوَاها في عِظَامي فشفَّها كما دبَّ في الملسوع سُمُّ العقاربِ

قال: ففطِن بتعريضي - وكان جهالةً منّي - وأمرني بالانصراف، ولم يدعُني شهرًا، ولا حَضَرْتُ مجلسَه.

فلما كان بعد شهر دسَّ إليّ خادمًا معه رقعةٌ، فيها مكتوب:

قد تخوَفْتُ أَنْ أموت من الوَجْـ ـدِ ولم يدرِ مَنْ هويتُ بما بِي
يا كتابي فاقْرَ السَّلامَ على مَنْ لا أسمِّي وقل له يا كتابي
إنّ كفًا إليك قد بَعَثَتْني في شقَاءٍ مُوَاصِلٍ وعَذَابِ

فأتاني الخادم بالرُّقْعَة؛ فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة الجارية فلانة التي غنَّتْك بين يدي أمير المؤمنين؛ فأحسست القصة فشتَمتُ الخادم ووثبتُ عليه وضربتُه ضربًا شَفَيْتُ به نفسي وغَيْظي.

وركبتُ إلى الرشيدِ من فوري فأخبرته القصةَ وأعطيتُه الرقعة؛ فضحك حتى كاد يَسْتَلْقي، ثم قال: على عَمْدٍ فعلتُ ذلك بك لِأَمْتَحِن مَذْهَبَك وطريقتك، ثم دعا بالخادم، فلما خرج رآني فقال لي: قطع الله يديك ورجليك، ويحك! قَتَلتَني؛ فقلت: القَتْلُ والله كان بعضَ حقك لما وردتَ به عليّ، ولكن رَحِمْتُك فأبقيتُ عليك، وأخبرتُ أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقه: وأمر لي الرشيد بصلَةٍ سَنِيَّةٍ.

مَا هَذا بجزَائي مِنك![٢]

قال الأصمعي: مررتُ بدار الزُّبَيْر بالبَصْرَة، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير، يكنّى أبا رَيْحَانة، جالس بالباب عليه شَمْلَة تستره؛ فسلمْتُ عليه؛

(١) الشعر لأبي الشيص.
(٢) زهر الآداب: ١ - ١٥٦.

وجلستُ إليه؛ فبينما أنا كذلك إذا طلعت علينا سُوَيْدَاء، تحمل قِرْبة، فلما نظر إليها لم يتمالكْ أَنْ قام إليها، فقال لها: بالله غَنّي صوتًا! فقالت: إن مَوالي أَعْجلوني؛ فقال: لا بدَّ من ذلك! قالت: أمَا والقربةُ على كتفي فلا! قال: فأنا أحْمِلها؛ فأَخذ القِرْبَةَ منها؛ فاندفعتْ تُغَنّي:

فؤادٌ أسيرٌ لا يُفَكّ ومُهْجَتِي تَفِيضُ، وأحزاني عليك تَطُول
ولي مقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها إليك، وأجفاني عليك همُول
فَدَيْتُك! أعدائي كثيرٌ، وشُقَّتي بعيدٌ، وأشياعي لديك قليلُ

فطرب، وصرخ صرخةً، وضرب بالقِرْبَة إلى الأرض فشقّها!

فقامت الجارية تبكي، وقالت: ما هذا بجزائي منك! أسْعَفْتُك بحاجتك فعرّضتَني لما أكْرَهُ من موالي!

قال: لا تَغْتَمّي؛ فإن المصيبةَ عليّ حَصَلَتْ! ونزع شمْلته، وابتاع لها قرْبَةً جديدة! وقَعَد؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد عليّ بن أبي طالب؛ فعرف حالَه، فقال: يا أبا رَيْحَانة؛ أحسبك من الذين قال الله فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦] .

قال: لا، يا ابنَ رسول الله، ولكني من الذين قال الله فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: الآيتان ١٧، ١٨]!

فضحك وأمر له بألف درهم.

مَا نَفَعنِي الغِنَاء إلّا ذَلِكَ اليَوم(١)

قال إبراهيمُ بن المهدي: حججتُ مع الرشيد، فبينا نحنُ في الطريق وقد انفردتُ أَسِيرُ وَحْدِي؛ وأنا على دابَّتي إذ حملتْني عيناي، فسلَكَتْ بي الدَّابةُ غيرَ الطريق، فانتبهتُ وأنا على غير الجادَّةِ، فاشْتَدَّ بي الحرّ، فعطشت عطشًا شديدًا، فارْتَفَعَ لي خِبَاءٌ فقصدته، فإذا بقُبَّةٍ، وبجنبها بِئْرُ ماء، بقرب مزرعة ـ وذلك بين مكة والمدينة ـ ولم أر بها إنسيًا، فاطلعت في القبة؛ فإذا أنا بأَسْود نائم، فأحسّ بي، ففتح عينيه ثم اسْتَوَى جالسًا، فإذا هو عظيمُ الصورة. فقلت: يا أسْود؛ اسقني من هذا الماء، فقال: يا أَسْود؛ اسقني من هذا الماء؛ مُحَاكيًا لي. وقال:

(١) المسعودي: ٢ ـ ٢٧٠.

إن كنتَ عطشان فانزلْ واشرب، وكان تحتي بِرْذَون خبيث نَفُور، فخشيتُ أن أنْزِل عنه؛ فَيَنْفِرَ، فضربتُ رأس البِرْذَون.

وما نَفَعني الغِناءُ قطّ إلا في ذلك اليوم، وذلك أني رفعتُ عَقيرتي وغنَّيت.

فرفع الأَسْوَدُ رأْسَه إليَّ، وقال: أيّما أحب إليك، أن أسقيَك ماء وحدَهُ، أو ماء وسَويقًا؟ قلت: الماء والسويق. فأخرج قَعْبا له، فصَبَّ السويق في القدح فسقاني، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصَدْرِه، ويقول: واحَرَّ صَدْرَاه! يا مولاي؛ زِدْني وأنا أزيدك، وشَربتُ السويق، ثم قال لي: يا مولاي؛ إنّ بينك وبين الطريق أَمْيالًا، ولست أشكُّ أنك تعطش؛ لكني أملأ قِرْبتي هذه وأحمِلها قُدّامك، فقلتُ: افعل.

فملأ قِرْبته؛ وسار قُدَّامي وهو يحجل في مِشْيَته غَيْرَ خارج عن الإيقاع، فإذا أمسكت لأَسْتريحَ أقبل عليّ، فقال: يا مولاي؛ عطشتَ فأُغَنّيه إلى أَنْ أوقفني على الجَادَّة، ثم قال لي: سِرْ رعاكَ الله، ولا سَلَبَك ما كساك من هذه النِّعم ـ بكلام عجميّ، معناه هذا الدعاء ـ فلحقتُ بالقافلة، والرشيد قد فقدني، وقد بثَّ الخيلَ في طلبي، فسُرَّ بي حين رآني، فأتيته فقصَصْتُ عليه الأمرَ، فقال: عليّ بالأسود، فما كان إلا هُنَيْهَة حتى مَثل بين يديه، فقال له: وَيْلَك! ما حَرُّ صدرك؟ فقال: يا مولاي، ميمونة؟ قال: ومَنْ ميمونة؟ قال: حَبَشِيَّة يا مولاي؛ فأمر من يستفهمه، فإذا الأسود عبدٌ لبني جعفر الطيار، وإذا السوداء التي يَهْوَاها لقوم مَن وَلَدِ الحسن بن علي؛ فأمر الرشيدُ بابتياعها له، فأبى مواليها أن يقبلوا لَها ثمنًا، ووهبوها للرشيد، فاشترى الأَسْوَدَ وأعتقه، وزوَّجه منها، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار.

طُفَيْلِيّ وَلكنه ظَرِيفٌ[١]

حدّث إسحٰق[٢] الموصليّ قال: غدوْتُ يومًا وأنا ضَجِرٌ من مُلازمة دارِ الخلافة والخِدْمةِ فيها؛ فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً[٣]، وعزمتُ على أن أطوفَ الصحراءَ

(١) الأغاني: ٥ ـ ٤٢٣.

(٢) إسحٰق الموصلي: من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، وراوية للشعر وحافظًا للأخبار، توفي ٢٣٥ هـ.

(٣) باكـرًا.

وأتفرّج. فقلت لغِلْمَاني: إنْ جاء رسولُ الخليفة أو غيرُه فعرِّفوه أني بَكَّرْتُ في بعض مُهِمَّاتي، وأنكم لا تعرفون أين توجَّهت!

ومضيتُ وطُفْتُ ما بَدَا لِي، ثم عدتُ وقد حَمِيَ النهار. فوقفتُ في الشارع المعروف بالمُخَرَّم[1] في فناءٍ ثَخين الظل، وجنَاحٍ رحْبٍ عَلَى الطريق لأَسْتَريح.

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقودُ حِمارًا فَارِهًا عليه جاريةٌ راكبة، تحتها منديلٌ دَبِيقِيّ[2]، وعليها من اللباس الفاخرِ ما لا غايةَ بعده. ورأيت لها قَوامًا حسنًا وشمائل حسنةً.

فَخَرَصْتُ[3] أنها مُغَنِّية، فدخلتِ الدارَ التي كنتُ واقفًا عليها.

ثم لم أَلْبَثْ أن جاءَ رجلان شابان، فاستأذنَا فأُذِن لهما، فنَزلا ونزلتُ معهما ودخلت؛ فظنَّا أن صاحبَ الدار دَعانِي وظنَّ صاحب الدار أني معهما؛ فجلسْنَا وأُتِي بالطعام فأكلنا وبالشراب فَوُضع، وخرجت الجارية وفي يدها عودٌ فغنَّتْ وشرِبْنا؛ وقُمْتُ قومةً، فسأل صاحبُ المنزل الرجلين عنِّي، فأخبراه أنهما لا يعرفانِي؛ فقال: هذا طُفيليّ ولكنه ظَريف، فأَجْمِلوا عِشرته، وجئتُ فجلستُ؛ وغَنّت الجارية في لَحْنٍ لي، فأدَّته أداءً صالحًا؛ ثم غنَّتْ أصواتًا شتى، وغنَّت في أضعافها من صَنْعَتِي:

الـــطـــلولُ الـــدَّوَارِسُ　　فـــارَقَـــتْـــهـــا الأوَانِـــسُ
أوحـــشَـــتْ بـــعـــد أَهْـــلِـهـــا　　فـــهـــي قَـــفْـــرٌ بَـسَـــابِـــسُ[4]

فكان أمرُها فيه أصلحَ منه في الأول؛ ثم غنَّت أصواتًا من القديم والحديث، وغنَّتْ في أثنائها من صَنْعتي:

قـــل لـــمَـــنْ صَـــدّ عـــاتِـبًـــا　　ونـــأى عـــنـــكَ جـــانـــبَـــا
قـــد بـــلـغـــتَ الـــذي أَرَدْ　　تَ وإن كـــنـــتَ لَاعِـــبَـــا

(١) المخرم: محلة ببغداد.
(٢) ديبقي: منسوب إلى ديبق، وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر، وتنسب إليها الثياب.
(٣) خرصت: ظننت.
(٤) بسابس، لغة في السباسب: الصحارى.

فكان أصلح ما غنّته. فاستعدتُه منها لأصَحِّحَه لها. فأقبل عليَّ رجلٌ من الرجلين، وقال: ما رأيتُ طُفيليًا أصفَق وجهًا منك! لم ترضَ بالتَّطفيل حتى اقترَحْتَ، وهذا غاية المثل: «طُفَيْلِيٌّ مُقترِح»؛ فأطرقْتُ ولم أجِبه. وجعل صاحبُه يَكفُّه عني فلا يَكُفُّ. ثم قاموا للصلاة وتأخرتُ قليلًا، فأخذتُ عودَ الجارية، ثم أصلحتُه إصلاحًا مُحْكَمًا، وعدْتُ إلى موضعي فصلّيت. وعادوا ثم أخذ ذلك الرجلُ يُعَنِّفُني وأنا صامت.

ثم أخذَتِ الجارية العودَ فجسَّته وأنكرتْ حاله، وقالت: مَنْ مسَّ عودي؟ قالوا: ما مَسَّهُ أحدٌ، قالت: بلى والله لقد مسَّهُ حاذقٌ متقدّم وأصلَحهُ إصلاحَ متمكِّن من صناعته، فقلت لها: أنا أصلحته؛ قالت: فبالله خُذْه واضرب به؛ فأخذته وضربتُ به مبدأ ظريفًا عجيبًا صعبًا، فيه نَقَرَاتٌ متحركة. فما بقي أحدٌ منهم إلا وَثب على قدميه وجلس بين يديّ.

ثم قالوا: بالله يا سيدنا؛ أتُغَنِّي؟ فقلت: نعم، وأعرّفكم نفسي: أنا إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، ووالله إني لأَتِيهُ على الخليفة إذا طلبني، وأنتم تُسمعونني ما أكره منذ اليوم لأني نَزَلْتُ بكم! فوالله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخرجوا هذا المُعَرْبدَ[1] المَقيتَ[2] الغثّ. فقال له صاحبهُ: مِنْ هذا حَذِرْتُ عليك. فأخذ يعتذر؛ فقلت: والله لا نَطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يَخْرُج فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا.

فبدأتُ وغنَّيت الأصواتَ التي غنَّتْها الجاريةُ من صَنْعَتي، فقال لي الرجل: هلْ لك في خَصْلَة؟ قلت: ما هي؟ قال: تقيمُ عندي شهرًا والجارية والحمارُ لك مع ما عليها من حُلِيّ؛ قلت: أفعل. فأقمتُ عنده ثلاثين يومًا لا يدري أحدٌ أين أنا، والمأمون يَطْلُبني في كل موضع فلا يعرِفُ لي خبرًا.

فلما كان بعد ثلاثين يومًا أَسْلَمَ إليَّ الجاريةَ والحمارَ والخادم فجئتُ بذلك إلى منزلي، وركبتُ إلى المأمون مِن وَقْتي، فلما رآني قال: إسحٰق! ويحك! أين تكون؟ فأخبرتُه بخبري. فقال: عليَّ بالرجل الساعة؛ فدلَلْتهُمْ على بيته فأُحضر. فسأله المأمون عن القِصَّة فأخبره. فقال له: أنت رجلٌ ذُو مروءة، وسبيلُك أن

(١) المعربد، رجل معربد: يؤذي نديمه في سكره.
(٢) المقيت: المكروه.

تُعاوَنَ عليها. وأمر له بمائة ألف درهم، وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال: أَحْضِرْني الجاريةَ. فأحْضرتُها فغنَّته. فقال لي: قد جعلتُ لها نَوْبةً في كلّ يوم ثلاثاء تُغَنِّيني وراءَ السّتْر مع الجواري. وأمرَ لها بخمسين ألف درهم، فربحتُ والله بتلك الرَّكْبَةِ وأَرْبَحْتُ.

زِرْيَاب وَإسحٰق المُوصَليّ[1]

كان زرْياب[2] تلميذًا لإسحٰق الموصلي ببغداد، فتلقف من أغانيه استراقًا وهُدِيَ من فَهْم الصناعة وصِدْق العقل، مع طِيبِ الصوت، إلى ما فاق به إسحٰق وإسحٰقُ لا يشعُرُ بما فُتح به عليه، إلى أن اقترح الرشيدُ عليه أَنْ يأتيه بمغنٍّ غريبٍ مُجيدٍ للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه؛ فذكر له تلميذَه هذا، وقال: إنه مَوْلًى لكم، وسمعتُ له نَزَعاتٍ حسنة، ونغماتٍ رائقة مُلْتَاطَةً[3] بالنفس، وهو من اختراعي واسْتِنْبَاطِ فكري، وأَحْدِسُ[4] أن يكون له شَأْن.

فقال الرشيد: هذا طَلِبتي، فأَحْضِرْنيه، لعلَّ حاجتي عنده. فأحضره فلما كلمه الرشيدُ أَعْرَب عن نفسه بأَحْسن منطق، وأَوْجَز خطاب؛ وسأله عن معرفته بالغِنَاء، فقال: نعم، أُحْسِنُ ما يُحْسِنُه الناس، وأكثر ما أُحْسِنه لا يحسنونه، مما لا يَحْسنُ إلا عندك، ولا يُدَّخَرُ إلا لك؛ فإن أذنتَ غنيْتُك ما لم تسمعه أُذُنٌ قبلك.

فأمر بإحْضار عودِ أُستاذِه إسحٰق؛ فلما أُدْنِيَ إليه وقف عن تناوُلِه، وقال: لي عودٌ نحتُّه بيدي، وأرهفْته بإحكامي، ولا أرْتضِي غيره، وهو بالباب، فليَأْذَنْ لي أمير المؤمنين في استدعائه؛ فأمر بإدخاله إليه.

فلما تأمّله الرشيدُ ـ وكان شبيهًا بالعود الذي دفعه إليه ـ قال: ما منعك أن تستعمِلَ عودَ أُستاذِك؟ فقال: إنْ كان مولاي يرغبُ في غِناء أستاذي غنَّيْتُه بعوده، وإن كان يرغبُ في غِنَائي فلا بدَّ لي من عودي! فقال له: ما أراهما إلا واحدًا؛ فقال: صدقتَ يا مولاي؛ ولا يؤدِّي النظرُ غيرَ ذلك، ولكنَّ عُودي وإن كان في

---

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ١٠٩.

(٢) كان زرياب مع علمه بصناعة الغناء عالمًا بالنجوم، شاعرًا أديبًا حلو الحديث، لطيف المعاشرة، ماهرًا في خدمة الملوك، توفي سنة ٣٣٠ هـ.

(٣) التاط بالقلب: لزق به.

(٤) الحدس: الظن والتخمين.

قَدْر جِسمِ عوده، ومن جِنس خَشَبِه، فهو يقع نم وزنه في الثُّلث؛ ووصَفَه وَصْفًا استبرعه الرشيد، وأمره بالغناء، فجسَّ ثم اندفع فغنّاه:

يا أيها الملك الميمونُ طائرُه هارُون راح إليك الناسُ وابتكروا[١]

فلما أتمَّ طار الرشيد طربًا، وقال لإسحٰق: والله لولا أني أعلم من صِدْقِك وتصديقه لك؛ من أنك لم تَسْمَعْه قَبْلُ لأنزلتُ بك العقوبة؛ لِتَرْكِك إعلامي بشأنه؛ فخذه إليك واعتنِ به، حتى أفرغَ له؛ فإن لي فيه نظرًا.

فسُقِط في يد إسحٰق، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بِزِرْيَاب، وقال: يا عليّ؛ إن الحسدَ أقدمُ الأدواء[٢]، والدنيا فتّانة، والشركةُ في الصناعة عداوةٌ، ولا حِيلَة في حَسْمِها؛ وقد مكرتَ بي فيما انطويتَ عليه من إجادتك، وعلوّ طبقتك؛ وقصدتُ منفعَتك، فإذا أنا قد أتيتُ نفسي من مأمَنِها بإدْنائك، وعن قليل تسقط منزلتي، وترتقي أنتَ فَوْقِي، وهذا ما لا أُصاحبك عليه ولو أنك وَلَدِي؛ ولولا رَعْيي لذمَّةِ تربيتك لما قدّمتُ شيئًا على أن أُذْهِبَ نفسك، ويكونُ في ذلك ما يكون.

فتخَيَّرْ في ثِنْتيْنِ لا بدَّ لك منهما: إما أن تذهبَ عني في الأرض العريضة، لا أسمعُ لك خبرًا، بعد أن تعطيَني على ذلك الأيمان الموثقة؛ وأنا أُنهِضُك لذلك بما أردتَ من مالٍ وغيره. وإما أن تقيمَ على كُرْهي ورَغْمي مُسْتَهدِفًا إليَّ؛ فخذ الآن حِذْرَك مني، فلستُ ـ والله ـ أُبقِي عليك، ولا أَدَعُ اغتيَالك، باذِلًا في ذلك بَدَني ومالي، فاقْضِ قضاءَك!

فخرج زِرْياب لوقته، وعلم قدرتَه على ما قال، واختار الفِرَار، فأعانه إسحٰق على ذلك سريعًا، ورَاشَ[٣] جناحَه، فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلبِ إسحٰق منه.

وتذكّره الرشيد بعد فَرَاغِه من شغل كان منغمسًا فيه، فأمر إسحٰق بإحضاره فقال: ومَنْ لي به يا أمير المؤمنين! ذاك غلام مجنون، يَزْعُم أن الجِنَّ تكلِّمُه، وتطارِحُه ما يُزْهَى[٤] به من غِنائه، فما يرى في الدنيا مَن يَعْدِله،

---

(١) ابتكروا: أتوه بكرة، والبكرة: الغدوة. (٢) جمع داء.

(٣) راشه: إذا أحسن إليه، وراش صديقه: إذا أطعمه وسقاه وكساه.

(٤) زهى به: أعجب به.

وما هو إلا أن أبطأَتْ عليه جائزةُ أمير المؤمنين، فقدّر التقصير به، والتهوينَ بصِناعته، فرحل مُغاضِبًا[١] ذاهبًا على وجهه، مستخفيًا عني، وقد صنع الله تعالى ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لَمَمٌ[٢] يغْشَاه، وقد كان يفرط خَبَلُه، فيُفْزِع مَن رآه.

فسكن الرشيدُ إلى قول إسحٰق، وقال: على ما كان به، فقد فاتنا منه سرورٌ كثير!

ومضى زرياب إلى المغرب[٣]، وعلم عبد الرحمٰن بن الحكم بخبره؛ فكتب إلى عُمَّاله على البلاد أن يُحْسِنوا إليه، ويوصلوه إلى قُرْطُبة، وأمر مَنْ يتلقَّاه ببغال وآلاتٍ حسنة.

فدخل هو وأهلُه ليلًا، وأنزله في دار من أَحْسَنِ الدور، وحمل إليها جميعَ ما يحتاج إليه، وخَلَع عليه. ثم أجرى عليه راتبًا، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضِّياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار، فلما قضى له سُؤْلَه، وأنجز موعِدَه، وعلم أن قد أَرْضاه، وملك نفسه استدعاه، ولما سمع غناءه اطّرح كلَّ غِنَاء سواه، وأحبّه حبًّا شديدًا، وقدّمه على جميع المغنِّين.

فِي مَسجِد رَسُول الله تَتغَنى؟[٤]

قال إبراهيم الحراني: حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد، فدخلتُ مسجد رسول الله ﷺ؛ فبينا أنا بين القَبر والمِنْبَر إذا أنا برجل حسنِ الهيئة خَاضِب، ومعه رجلٌ في مِثْل حاله، فحانتْ مني التِفَاتة؛ فإذا هو يقوّس حاجبيه، ويفتح فَاهُ، ويَلْوِي عنقَه، فتجوَّزتُ[٥] في صلاتي، ثم سلَّمت فقلت: أفي مسجد رسول الله تَتغنَّى! فقال: ما أَجْهَلَك! أما في الجنةِ غِناء! قلت: بلى! لعمري، فيها ما تَشْتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين! قال: أمَا نحن في رَوْضَةٍ من رياض الجنة؟ قلت: نعم! قال: واحَرَبَاه! أتردُّ على رسول الله قولَه: «بين قَبْري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة»! فنحن في تلك الرّوضة. قلت: قبّح اللهُ شيخًا ما أسفهه! قال: بالقبر والمنبر لَمّا[٦]

---

(١) مغاضبًا: غاضبت الرجل: أغضبته وكرهته.
(٢) اللمم: الجنون.
(٣) يريد الأندلس.
(٤) ذيل زهر الآداب: ٤٨.
(٥) تجوز في صلاته: خفف.
(٦) لما: إلا.

أنصتّ إليّ! فتخوّفت ألّا أُنصت. فاندفع يغني بصوت يخفيه:

وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ إليك، ولكنْ خلِّ عينيك تَدْمَعَا
بكتْ عَيْنِيَ اليُسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحلم أَسْبَلَتَا معا

فوالله إنْ قمتُ إلى الصلاة لِمَا دخل قلبي! فلما رأى ما نزل بي، قال: يا ابن أم؛ أرى نفسَك قد اسْتَجَابت وطَابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! في مسجد رسول الله!! قال: أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك! فدعْنا من جهلك، ثم تغنّى:

فلو كان واشٍ باليمامةِ دَارُه ودَارِي بأقصى حَضْرَمَوت اهتدى لِيَا
وماذا لهم - لا أحسنَ الله حفظهم - من الشأن في تَصْرِيم[1] لَيْلَى حِبَالِيَا

فقال له صاحبُه: يا ابن أمّ، أحسنْتَ والله، وعِتْق ما أمْلِكُ لو كان أميرُ المؤمنين الرشيد حاضرًا لخلع عليك ثيابَه مشقوقةً طَربًا.

فقمت، وهما لا يعلمان مَنْ أنا؟ فدخلتُ على أمير المؤمنين فأعلمتُه الخبر فقال: أَدْرِكْهُمَا لا يفوتاك!

فوجهتُ مَن جاء بهما. فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهبَ ماؤُها، وأنا قائمٌ على رأسه؛ فقال: يا إبراهيم؛ هذان هما؟ قلت: نعم! فنظر إليّ المغني منهما، وقال سِعَايةٌ[2] في جوار رسول الله! فَسُرِّي عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبه، وتبسّم، فقال: ما كنْتُما فيه؟ قالا: في خير! قال: فما الخير؟ فسكَتَا.

فقال للمغني منهما: مَن أَنْتَ؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إنه ابنُ جُرَيْج[3] فقيهُ مكة! فقال: فقيه مكة يتغنّى في مسجد رسول الله!

قال: يا أمير المؤمنين؛ لم يكن ذلك مني بالقَصْد للغناء، ولكني كنتُ أسْمعت هذا المخزومي - يغني صاحبه - صوتين، فلم يزالا في قلبي حتى الْتقينا، فأحببتُ أن يأخذَهما عني، فأخذهما، وحلف أني أحسنتُ، وأنه لو كان في الموضع أميرُ المؤمنين لخلع عليّ - وسكت.

---

(١) صرمته، وصارمته: قاطعته. (٢) سعاية: وشاية.
(٣) ابن جريج: وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ويكنّى أبا الوليد.

فقال الرشيد: تركتَ من الحديث شيئًا؟ قال: ما تركتُ شيئًا يا أمير المؤمنين! قال: والله لتقولَنَّ. قال: يا أمير المؤمنين؛ زعم أنك لو كنتَ في موضعه لخلعت عليّ ثيابًا مشقوقة طَرَبًا!

فتبسّم، وقال: أمّا هذا فلا، ولكن نخلعُها عليك صحيحة، فهي خير لك!

ثم دعا بثياب فلبسها ونَبذَ إليه ثيابَه، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه بعَشْرَة آلاف درهم!

وقال: لا تعودَنّ لهذا. فقال صاحبُه: إلا أن يحجَّ أمير المؤمنين ثانية. فضحك وقال: أَلْحِقُوه بصاحبه في الجائزة!

شِـعْرٌ رَقِيـق(١)

قال إسحٰق الموصليّ: حضر مسامرةَ الرشيد عَبْثَرُ المغنيّ ـ وكان فصيحًا متأدبًا، عَلِيَّ الشِّعْرِ، ذا صوتٍ حسَنٍ ـ فتذاكروا رِقَّةَ شِعْرِ المدنيِّين، فأنشد بعضُ جلسائه أبياتًا لابن الدُّمَيْنَة حيث يقول:

وأذكُر أيامَ الحِمَى ثم أَنْثَنِي ... على كبدي من خشيةٍ أَنْ تَصَدَّعا(٢)

وليْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرواجعٍ ... عليك، ولكِنْ خلِّ عينيك تدمَعَا

بكَتْ عينيَ اليمنى فلما زجرتُهَا ... عن الجهل بعد الحِلم أَسْبَلَتَا معا

فأُعجِبَ الرشيد برقةِ الأبيات، فقال له عَبْثَر: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا الشعر مدنيٌّ رقيق، قد غُذِي بماء العقيق، حتى رقَّ وصَفَا، فصار أصفى من الهواء؛ ولكِنْ إنْ شاء أميرُ المؤمنين أنشدته ما هو أرقّ من هذا وأَحْلى، وأصلبُ وأقوى لرجل من أهل البادية! قال: فإني أشاء. قال: وأترنَّمُ به يا أميرَ المؤمنين؟ قال: وذلك لك، فغنّى لجرير:

إنَّ الذين غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا ... وشَلًا(٣) بعَيْنِك لا يَزَالُ مَعِينَا

غَيَّضْنَ(٤) مِنْ عَبَراتِهِنَّ وقلْنَ لي: ... ماذا لقيتَ من الهوى ولَقِينا!

قال: صدقتَ يا عَبْثَر، وخلع عليه وأجازه.

---

(١) العقد الفريد: ٤ ـ ١٠٩.

(٢) أصله تتصدعا.

(٣) الوشل: القليل من الدمع والكثير منه.

(٤) غيضن من عبراتهن: سيلن دموعهن حتى تزفنها، ومن هنا للتبعيض أو زائدة.

صَوْتٌ بِدِرهمَين[١]

قَدِم إسماعيل[٢] بن الهِرْبِذ على الرّشيد من مكة، فدخل إليه وعنده ابنُ جامع وإبراهيم وابنه إسحٰق وفُلَيْح وغيرُهم، والرشيد يومئذ خَاثِر[٣]، فغنّى ابنُ جامع ثم فُلَيْح ثم إبراهيم ثم إسحٰق، فما حرّكه أحدٌ منهم ولا أَطْرَبه؛ فاندفع ابن الهِرْبِذ يُغَنّي، فعجبوا من إقدامه في تلك الحال على الرشيد، فغنّى:

يا راكبَ العِيْسِ[٤] التي   وفدتْ من البلد الحَرَامِ
قـل لـلإمـام ابـنِ الإمـا   م أخي الإمام أبي الإمام
زيـنِ الـبـريـةِ إذْ بـدا   فيهم كمصباح الظلامِ
جـعـل الإلـٰهُ الـهـربذيّ   فِـداك مِـن بـيـنِ الأنـامِ

فكاد الرشيد يرقُص، واستخفّه الطرب حتى ضربَ بيديه ورجليه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم. فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ إن لهذا الصوت حديثًا؛ فإنْ أَذِنَ مولاي حدَّثته به؛ فقال: حَدِّث.

قال: كنتُ مملوكًا لرجل من ولد الزبير؛ فدفع إليّ درهمين أَبْتَاع بهما لحمًا، فرُحْتُ فلقيت جاريةً على رأسها جرَّةٌ مملوءةٌ من ماء العقيق، وهي تُغَنّي هذا اللَّحن في شعرٍ غير هذا الشعر على وزنه ورويّه، فسألتها أن تعلِّمنيه؛ فقالت: لا وحقِّ القبر إلا بدرهمين؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلّمتنيه، فرجعتُ إلى مولاي بغير لحم، فضربني ضربًا مبرِّحًا شُغِلْتُ معه بنفسي فأنسيتُ الصوت.

ثم دفع إليّ درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحمًا، فلقيتني الجاريةُ فسألتُها أَنْ تعيدَ عليّ الصوت؛ فقالت: لا والله إلا بدرهمين، فدفعتُهما إليها، وأعادته عليَّ مرارًا حتى أَخَذْته.

فلما رجعتُ إلى مولاي أيضًا ولا لَحمَ معي، قال: ما القصَّةُ في هذين الدرهمين؟ فصدَقته القصة، وأَعَدْتُ عليه الصوت، فقبّل بين عينيَّ وأعتقني؛ فرحلتُ إليك بهذا الصوت: وقد جعلت ذلك اللَّحْنَ في هذا الشعر، فقالت: دَعِ

(١) الأغاني: ٧ ـ ١٠٤.
(٢) إسماعيل بن هربذ: مولى آل الزبير بن العوام، أدرك آخر أيام بني أمية، وغنى للوليد بن يزيد، وعمر إلى آخر أيام الرشيد.
(٣) خثرت نفسه: غثت وثقلت واختلطت.
(٤) العيس: الإبل.

الأول وتَنَاسَه، وأقم على الغناء بهذا اللحن في هذا الشعر، فأما مولاك فسأَدفع إليه بَدَل كل درهم ألف دينار، ثم أمر له بذلك فحُمِلَ إليه.

أمُّ جعفرٍ تنوح عَلَى الرَّشيد[١]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: سمِعْتُ نائحةً تنوحُ بهذا الشعر[٢]:

قد لعمري بتُّ ليلى ... كأخِي الداءِ الوجيعِ
ونَجِيُّ الهمِّ مِنِّي ... باتَ أدنى من ضُلوعي
كلما أبصرتُ رَبْعًا ... دَرِسًا[٣] فاضت دُمُوعي
مُقْفِرًا من سَيِّد كا ... ن لنا غيرَ مُضِيعِ

فلما سمعتُه منها استحسنته واشتهيتُه، ولهِجتُ به، فكنتُ أترنَّمُ به كثيرًا، فسمع ذلك مني أبي، فقال: ما تصنعُ بهذا؟ قلت: شِعْرٌ قاله الأَحْوَص وصنعه مَعْبَد لسَلّامة، وناحت به سلّامة على يزيد.

ثم ضرب الدّهر[٤]؛ فلما مات الرشيدُ إذا رسول أمِّ جعفر قد وافاني فأمرني بالحضور. فسِرْتُ إليها؛ فبعثتْ إليَّ: إني قد جمعتُ بنات الخلفاء وبناتِ هاشم لنَنُوحَ على الرشيد في ليلتنا هذه؛ فقل الساعةَ أبياتًا رقيقة، وَاصْنَعْهن صنعةً حسنة حتى أنوحَ بهنّ.

فأردتُ نفسي على أن أقول شيئًا فما حضرني، وجعلتْ ترسل إلي تَحُثُّني، فذكرتُ هذا النَّوْح، فأَريتُ أني أصنع شيئًا، ثم قلت: قد حضَرَني القول، وقد صنعتُ فيه ما أمرت، فبعثَتْ إليَّ بكُنَيْزَة وقالت: طارِحْهَا حتى تُطَارِحَنِيه، فأخذتْ كنيزَةُ العودَ وردّدْتُه عليها حتى أخذتْه، ثم دخلت فطارحته أم جعفر، فبعثت إليَّ بمائة ألف درهم ومائة ثوب.

أما إليك سَبيل غَير مَسدودًا[٥]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ: لما أفضَت الخلافةُ إلى المأمون أقام عشرين شهرًا لم يسمع حَرْفًا من الغِنَاء؛ ثم كان أولَ مَن تغنَّى بحضرته أبو عيسى،

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٤٨.
(٢) الشعر للأحوص والنوح لمعبد، وكان صنعه لسلامة، وناحت به سلامة على يزيد بن عبد الملك.
(٣) الدارس: العافي الذي امحى.
(٤) ضرب الدهر بيننا: فرقنا.
(٥) العقد الفريد: ٤ ـ ١٠٩.

ثم واظبَ على السماع، وسأل غني، فجرَّحَنِي عنده بعضُ مَنْ حسَدني؛ فقال: ذلك رجل يَتِيهُ على الخلافةِ؛ فقال المأمون: ما أَبْقَى هذا من التِّيهِ شيئًا، وأمسك عن ذِكْري.

وجفَاني كلُّ مَن كان يَصِلُني لِمَا ظهر من سُوءِ رأيه؛ فأضرَّ ذلك بي حتى جاءني يومًا عَلَّويه، فقال لي: أتأذنُ لي اليوم في ذِكْرك، فإني اليوم عنده؟ فقلت: لا، ولكنْ غنِّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعَثُه على أن يسألَك: مَنْ أين هذا؟ فينفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ فمضى عَلَّوَيْه، فلما استقرَّ به المجلس غنَّاه الشعر الذي أمرتُه به، وهو:

يا مَشْرَعَ الماء قد سُدَّت مسالِكُه ... أَمَا إليك سبيلٌ غيرُ مسدود!
لِحَائم حارَ حتَّى لا حياةَ به ... مشرّدٍ عن طريقِ الماءِ مَطْرُود

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لِمَنْ هذا؟ قال: يا سيدي، لعبدٍ من عبيدك، جَفَوْتَه واطَّرَحْتَه، قال: إسحٰق؟ قال: نعم؛ قال: ليحضر الساعة.

قال إسحٰق: فجاءني الرسولُ، فسرتُ إليه، فلما دخلتُ قال: ادْنُ، فدنوتُ فرفع يديه وقد مدَّهما، فاتكأتُ عليه؛ فاحتضنني بيديه؛ وأظهر من إكرامي وبِرِّي ما لو أظهره صديقٌ له مُوَاسٍ لسرَّني.

عِندَ مُخَـارِق[١]

قال بعضُ الرُّوَاة: كنتُ عند مُخَارِق[٢] أنا وهارون بن أحمد بن هشام، فلعب مع هارون بالنَّرْدِ، فَقَمَرَهُ[٣] مُخارق، ومرّ بهارون فَصِيلٌ[٤] ينادَى عليه، فاشتراه بأربعة دنانير، ووجّه به إلى مخارق، وقال: أطعِمْنا من هذا الفَصِيل.

فاجتمعنا وطبخ مخارق بيده جَزُورِيَّة، وعمل من سَنَامه وكبده طعامًا شُوِي في التَّنُور، وعمل من لَحْمه لونًا يُشْبِه الهَريسة بشعير مُقَشَّر في نهاية الطيب، فأكلنا وجلسنا نشرب؛ فإذا نحن بامرأة تصيحُ من الشَّطِّ: يا أبا المهنّأ، الله، الله فيّ!

---

(١) الأغاني: ٢١ ـ ١٥١.

(٢) هو أبو المهنأ بن يحيىٰ، منشؤه بالمدينة، وكان أبوه جزارًا، فكان وهو صبي ينادي على ما يبيعه أبوه، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفًا من الغناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، توفي أيام المتوكل.

(٣) غلبه.

(٤) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

حَلَف زوجي بالطلاق أن يسمع غناءك ويشربَ عليه، فقال: اذْهبي وجيئي به، فجاء فجلس، فقال له: ما حَملك على ما صَنعت؟ فقال له: يا سيِّدي؛ كنتُ سمعتُ صوتًا من صَنْعتك فطربتُ عليه حتى استخفّني الطَّرب، فحلفْتُ أن أَسْمَعه منك ثقةً بإجابتك رغبةَ زوجتي؛ فقال: وما هذا الصوت؟ فقال:

بكرتْ عليك فهيَّجَتْ وجْدا   هُوجُ[1] الرياحِ واذْكرت نَجْدا
أَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إذا ذُكِرتْ   نجدٌ وأنت تركتَها عمدا!

فغنّاه إياه، وسقاه رطلًا، وأَمَرَهُ بالانصراف، ونهاه أن يعاوِد؛ فخرج.

قال الراوي: فما لبثنا أن عادت المرأةُ تَصْرخ: اللهَ، اللهَ فيَّ يا أبا المهنّأ! قد أعاد زوجي المشؤوم اليمين؛ أنْ تغنّيَه صوتًا آخر؛ فقال لها: أحضريه، فأحضرتْه أيضًا، فقال له: ويلك! مالي ولك؟ ما قِصتُك؟ فقال له: يا سيِّدِي؛ أنا رجل طروب، وكنت قد سمعتُ صوتًا لك آخر فاسْتَفَزَّني الطرب إلى أن حلفْتُ بالطَّلاق ثلاثًا أني أسْمَعه منك، قال: وما هُوَ؟ قال: لحنُك:

أبلغْ سلامةَ أنَّ البَيْنَ قد أفِدَا   وأنّ صَحْبَك عنها رائحون غدا
هذا الفراقُ يقينًا إن صَبَرت له   أَوْ لا فإنك منها ميِّتٌ كَمَدا
لا شكّ أن الذي بي سوف يُهلِكني   إنْ كان أهْلَكَ حُبٌّ قبلَه أحدا

فغنّاه إياه مخارق، وسقاه رطلًا وقال له: احذَرْ، ويلك أن تعاد.

قال الراوي: ولم تلبث أن عاوَدَتِ الصِّياحَ تَصْرخ: يا سيدي! قد عاود اليمين، الله الله فيّ وفي أولادي! قال: هاتيه، فأحضرتْه، فقال لها: انصرفي أنت؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاد، فدَعِيه يقيم يومه كلّه، فتركته وانصرفت، فقال له مخارق: ما قِصَّتُك أيضًا؟ قال: قد عرّفْتُك يا سيدي أنني رجل طروب، وكنت سمعت صوتًا من صنْعتك استخفني الطرب له، فحلفت أني أسمعه منك، قال: وما هو؟ قال:

أَلِفَ الظَّبْيُ بِعَادِي   ونَفَى الهمُّ رُقادِي
وعَدَا الهَجْرُ على الوصْـ   ـلِ بأسيافِ حِدَادِ
قل لمن زيَّن وُدّي: لستَ أهلًا لودادي

---

[1] هوج الرياح: شديد الرياح.

فغنَّاه إياه وسقاه رطلًا، ثم أمر به فبُطِح، وأمر بضربه خمسين مِقْرَعة[١]، وهو يستغيث، ثم قال له: احْلِفْ أنك لا تذكرني أبدًا، وإلّا كان هذا دأبك إلى الليل، فحلف على ما أمر به، ثم أقيم فأخرج عن الدار، فجعلنا نضحك بقية يومنا من حُمقه.

مُخَارِق يُغَنّي لأبي العتَاهِيَة في شعرِه[٢]

حدّث مخارق، قال: جاءني أبو العتاهية، فقال: قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يومًا تَهَبُه لي فمتى تنشَط؟ قلت: متى شِئْتَ وإن طلبني الخليفة، فقال: يكون ذلك في غد؟ فقلت: أفعل.

فلما كان من غد باكَرني رسولُه فجئته، فأدخلني بيتًا له فيه فَرْشٌ نظيف، ثم دعا بمائدة عليها خُبْز سَمِيذ[٣] وخَلّ وبَقْل وملح وجَدْيٌ مَشْوِيّ، فأصبنا منه حتى اكتفينا، ثم دعا بَحَلْوَاء فأصبنا منها، وغسلنا أيدينا، وجاؤونا بفاكهة ورَيْحان وألوان من الأنبِذَة، فقال: اخْتَرْ ما يصلُح لك منها، فاخترت وشَرِبتُ؛ قدَحًا ثم قال: غنِّني في قولي:

أحمدٌ قال لي ولم يَدْرِ ما بي أتـحـبّ الـغَـداةَ عُـتْـبَـةَ حـقًّـا!

فغنّيته، فشرب قَدَحًا وهو يبكي أَحَرَّ بكاء، ثم قال: غنني في قولي:

ليس من لبست له حِيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصَّبرِ

فغنّيْتُه وهو يبكي ويَنْشِج[٤]، ثم شرب قدحًا آخر، ثم قال: غَنّني فديتك في قولي:

خليليّ ما لي لا تزالُ مَضَرَّتي تكون مع الأقْدار حتمًا من الحَتمِ

فغنيتُه إياه، وما زال يقترح عليَّ كلَّ صوت غُنّيَ به في شعره فأغنيه ويشرب ويبكي حتى العَتَمة[٥]، فقال: أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنعُ. فجلست، فأمر ابنَه وغلامه فكسَّرَ كلَّ ما بأيدينا من النبيذ وآلِته والملاهي، ثم أمر بإخراج كلّ ما

---

(١) أصل المقرعة ما تقرع به الدابة.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ١٠٧.
(٣) السميذ: الدقيق الأبيض.
(٤) نشج الباكي: غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.
(٥) العتمة: وقت صلاة العشاء.

في بيته من النبيذ وآلِته، فأخرِج جميعُه، فما زال يكسِّره ويصبّ النبيذ، وهو يبكي حتى لم يَبْقَ من ذلك شيء، ثم نزع ثيابه واغتسل، ثم لبس ثيابًا بِيْضًا من صوف، ثم عَانَقَنِي وبكى، ثم قال: السلام عليك يا حبيبي سلامَ الفراق الذي لا لِقَاءَ بعده، وجعل يبكي وقال: هذا آخرُ عَهْدِي بك. فظننتُ أنها بعضُ حَمَاقاته.

فانصرفتُ وما لقيتُه زمانًا، ثم تشوّقتُ إليه فأتيته، فاستأذنت عليه، فأَذِن لي، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرّتين[١]، وثَقَب إحداهما، وأدخل رأسه ويديه فيها، وأقامها مقام القميص، وثقب أخرى، وأخرج رجليه منها، وأقام مقام السراويل.

فلما رأيته نسيتُ كلَّ ما كان عندي من الغمِّ عليه والوَحْشةِ لعشرته، وضحكت والله ضحكًا ما ضحكت مثله قط. فقال: من أيّ شيء تضحك؟ فقلت: أسخَن[٢] الله عينَك! هذا أيّ شيء هو؟ من بَلَغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزُّهَاد والصحابة والمجانين! انْزِعْ عنك هذا يا سخينَ العين! فكأنه استَحْيَا مني.

ثم بلغني أنه جلس حجَّامًا، فجهِدتُ أنْ أراه بتلك الحال، فلم أره، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أُغَنِّيَهُ، فأتيتُه عائدًا؛ فخرج إليّ رسول يقول: إن دخلت إليّ جددتَ لي حزنًا، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتُها عليه، وأنا أستودعك الله، وأعتذرُ إليك من عدم اللقاء، ثم كان آخر عهدي به.

المغنُّون عِندَ الوَاثِق[٣]

تناظر المغنُّون يومًا عند الواثق، فذكروا الضُّرَّاب وحِذْقَهم؛ فقدَّم إسحٰق زَلْزَلًا[٤] على ملاحظ، ولملاحظ في ذلك الرياسة على جميعهم، فقال له الواثق: هذا حَيْفٌ وتَعَدٍّ منك؛ فقال إسحٰق: يا أمير المؤمنين؛ اجمع بينهما وامتحنهما؛ فإنَّ الأمرَ سينكشف لك فيهما، فأمر بهما فأحضرا؛ فقال له إسحٰق: إن للضُّرَّاب أصواتًا معروفة، أفأمتحنهما بشيء منها؟ قال: أجل، افْعَلْ، فسمَّى

---

(١) القوصرة: وعاء من قصب يوضع فيه التمر. (٢) أسخن الله عليه: أبكاه وأحزنه.

(٣) الأغاني: ٥ ـ ٢٨٠.

(٤) كان زلزل من سواد أهل الكوفة، وقفه إبراهيم الموصلي على الغناء العربي، وأراه وجوه النغم وثقفه، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الضراب.

ثلاثة أصوات كان أولها:

عُلِّقَ قلبي ظَبْيَةَ السِّيبِ[١] جهلًا فقد أُغْرِي بتعذيبي
نَمَّتْ عليها حين مرَّتْ بنا مَجَاسِدٌ[٢] يَنْفَحْنَ بالطِّيبِ
تَصُدُّ عَنَّا عجوزٌ لهَا مُنْكَرَةٌ[٣] ذاتُ أعاجيبِ
فكلَّمَا هَمْتُ[٤] بإتيانها قالت: توَقَّى عذوةَ الذِّيبِ

فضربا عليه، فتقدَّم زلزل وقصَّرَ عنه ملاحِظ، فعجِبَ الواثق من كشفه عمّا ادعاه في مجلس واحد. فقال له ملاحظ: فما بَاله يا أمير المؤمنين يُحيلك على الناس! ولم لا يضرب هو! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه لم يكن أحد في زماني أضربَ مني إلا أنكم أعفيتموني؛ فتفلّت مِني، على أن معي بقيّة لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة.

ثم قال: يا ملاحظ؛ شَوِّشْ عودَك وهاتِه، ففعل ذلك ملاحظ، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا يخلّط الأوتار تخليط متعنّت، فهو لا يألو إفسادَها، ثم أخذ العود فجَسَّه ساعة حتى عرف مواقِعَه، ثم قال: يا ملاحظ؛ غَنِّ أيَّ صوتٍ شئت، فغنّى ملاحظ صوتًا، وضرب عليه إسحٰق بذلك العود الفاسد التسوية، فلم يخرجْه عن لَحْنِه في موضع واحد حتى استوفاه عن نقرةٍ واحدة، ويده تصعد وتنحدر على الدَّساتين[٥]، فقال له الواثق: لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به! اطرح هذا على الجواري.

فقال: هيهات يا أمير المؤمنين! هذا لا تعرفه الجواري ولا يصلحُ لهنّ، إنما بلغني أن الفهليذ ضرب يومًا بين يدي كِسْرَى فأحسن، فحسده رجلٌ من حُذَّاق أهل صَنْعَته، فترقبه حتى قام لبعض شأنه، ثم خالفه إلى عود فشوّش بعض أوتاره، فرجع فضربَ وهو لا يدري، والملُوك لا تُصْلَحُ في مجالسها العيدان، فلم يزل يضرب بذلك العودِ الفاسد إلى أن فَرَغَ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصّة، فامتحن العودَ فعرف ما فيه، ثم قال: «زهْ زهْ[٦] وزهانْ زِه»، ووصله بالصلة التي

---

(١) السيب: كورة من سواد الكوفة.
(٢) المجاسد: القمصان التي صبغت بالزعفران.
(٣) منكرة: مبغضة مكروهة.
(٤) همت: هممت، وهم بالشيء: أراده ونواه.
(٥) الدساتين: ما عليه أطراف أوتار العود من مقدمه.
(٦) كلمة فارسية معناها أحسنت أحسنت.

كان يصل بها مَنْ خاطبه هذه المخاطبة؛ فلما تواطأت الروايةُ بهذا أخذت نفسي ورُضْتُها عليه، وقلتُ: لا ينبغي أن يكون الفهليذُ أقوى على هذا مِنّي، فما زلتُ أستنبطه بضع عشرةَ سنة حتى لم يَبْقَ في الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعرِف نَغْمَتَه كيف هي، والمواضع التي يخرج النَّغم كلها منه فيها، من أعاليها إلى أسافلها، وكلّ شيء منها يُجَانس شيئًا غيره كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين، وهذا شيء لا تفي[1] به الجواري. قال له الواثق: صدقتَ، ولئن مُتَّ لتموتَنَّ هذه الصناعة معك، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

فِي دَارِ الوَاثِق[2]

حدث ابن بُسْخُتر، قال: كانت لي نَوْبة في خِدْمة الواثق في كلِّ جمعة إذا حضرتْ ركبتُ إلى الدار؛ فإن نَشِط أقمتُ عنده، وإن لم يَنْشط انصرفتُ، وكان رسْمُنَا ألّا يحضُرَ أحدٌ منا إلا في يوم نَوْبَتِه.

فإنّي لفي منزلي في غير يوم نَوْبَتِي إذا رُسُل الخليفةِ قد هجموا عليّ، وقالوا لي: احضر! فقلت: أَلَخير؟ قالوا: خير، فقلت: إن هذا يومٌ لم يُحْضِرْنا فيه أمير المؤمنين قطّ، ولعلكم غَلِطْتُمْ. فقالوا: الله المستعان! لا تطوّل وبادِرْ، فَقَدْ أُمِرْنا ألا نَدَعك تستقرُّ على الأرض. فداخلني فزعٌ شديد، وخفْتُ أن يكونَ ساعٍ قد سَعى بي أو بَلِيَّةٌ قد حَدَثَتْ في رَأْيِ الخليفة عليّ.

فركبتُ حتى وافيتُ الدار؛ فذهبتُ لأدخلَ مِنْ حيث كنت أدخل فَمُنِعْتُ، وأخذ بيدي الخدَمُ فأدخلوني وعَدَلوا بي إلى مَمَرَّاتٍ لا أعرفها، فزاد ذلك في جزَعِي وغَمِّي، ثم لم يزل الخدمُ يُسلمونني من خدم إلى خدم، حتى أَفْضَيْت إلى دار مَفروشة الصَّحْنِ، ملبّسة الحِطيانِ بالوشْيِ المنسوج بالذهب، ثم أفضيت إلى رواقٍ أرضُه وحيطانه ملبَّسةٌ بمثل ذلك، وإذا الواثقُ في صدْرِهِ على سرير مُرصّع بالجوهر، وعليه ثيابٌ منسوجةٌ بالذهب وإلى جانِبه فَريدة[3]، جاريتُه، عليها مثلُ ثيابه، وفي حِجْرِها عُود. فلما رآني قال: إلينا إلينا! فقبّلت الأرضَ ثم قلت: يا أمير المؤمنين؛ خيرًا! قال: خيرًا، أما تَرَانا! أنا طلبتُ والله ثالثًا يُؤْنِسنا فلم أر أحقَّ

---

(١) لا تأتي به وافيًا. (٢) الأغاني: ٤ ـ ١١٥.

(٣) فريدة: كانت جارية مغنية محسنة، أهداها عمرو بن بانة إلى الواثق، وكانت حسنة الوجه، حسنة الغناء، حادة الفطنة والفهم.

بذلك منك، فبِحَيَاتي بادِرْ فكلْ شيئًا وبادِرْ إلينا. فقلتُ: قد واللهِ يا سيدي أكلتُ وشربتُ أيضًا، قال: فاجلسْ، فجلست. قال: هاتوا لمحمدٍ رِطْلًا في قَدَح، فأحضر ذلك، واندفعت فريدةُ تغنِّي:

أهابُكِ إجلالًا وما بكِ قدرةٌ   عليَّ ولكنْ ملءُ عَيْنٍ حبيبُها
وما هجرَتْكِ النفسُ يَا لَيْل أنها   قَنَتْكِ ولا أنْ قلّ منكِ نصيبُها

فجاءت والله بالسِّحر، وجعلت تُغَنِّي الصوت بعد الصوت، وأغَنِّي أنا في خلال غِنائها؛ فمرَّ لنا أحسنُ ما مرَّ لأحَدٍ.

فإنّا لكذلك إذ رفع رِجْلَهُ فضرب بها صَدْر فريدة ضربةً تَدَحْرَجَتْ منها من أعلى السرير إلى الأرض وتَفَتَّتَ عودُها، ومرت تَعْدُو وتصيح، وبقيت أنا كالمنزوع الروح، فأطرق ساعةً إلى الأرض مُتحيِّرًا، وطرقتُ أتوقَّع ضَرْبَ العنق.

فإنِّي لكذلك إذ قال لي: يا محمد؛ فوثبتُ. فقال: ويحك! أرأيت أغرب مما تهيَّأ لنا؟ فقلت: يا سيدي؛ الساعة والله تَخْرُجُ روحي. فعلى مَنْ أصابنا بالعين لعنةُ الله! فما كان السبب! أَلِذَنب؟ قال: لا والله ولكن فَكرْتُ أن جَعْفَرا يَقْعُد هذا المقعد، ويقعد معها كما هي قاعدةٌ معي، فلم أطق الصبر، وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت. فَسُرِّي عَنِّي وقلت: بل يَقْتلُ الله جعفرًا ويحيا أميرُ المؤمنين أبدًا، وقَبَّلت الأرض وقلت: يا سيدي؛ الله الله! ارحمها ومُرْ بِرَدِّها. فقال لبعض الخدم الوقوف: مَنْ يجيء بها! فلم يكن بأسرع من أن خرجتْ في يدها عودُها، وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها. فلما رآها لاطَفَها، فبكتْ وجعل هو يبكي، واندفعتُ أنا في البكاء، فقالت: ما ذنبي يا مولاي وسيدي؟ وبأي شيء استوجبت هذا؟ فأعاد عليها ما قاله وهو يبكي وهي تبكي! فقالتْ: سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربتَ عنقي الساعة وأَرَحْتَني من الفكر في هذا، وأَرَحْتَ قلبك من الهمّ بي؛ وجعلَتْ تبكي ويبكي، ثم مَسَحَا أعينهما، ورجعَتْ إلى مكانها.

وأومأ إلى خَدَم وقوف بشيء لا أعرفه؛ فمضوا وأحضروا أكياسًا فيها عَيْن ووَرِق[١] ورزمًا فيها ثياب كثيرة، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عِقدًا ما رأيتُ قطّ مثل جوهر كان فيه، فألْبَسها إياه، وأُحْضِرَت بَدْرَة فيها عشرة آلاف

---

(١) العين: الذهب المضروب، والورق: الدراهم المضروبة من الفضة.

درهم، فجُعِلت بين يدي، وخمسة تخوت فيها ثياب، وعُدْنا إلى أمرنا وإلى أحسن ممَّا كنا فيه، فلم نزل كذلك إلى الليل.

ثم تفرقنا وضرب الدَّهْرُ ضَرْبَه[١]، وتقلَّد المتوكل، فوالله إني لفي منزلي بعد يوم نَوْبتي إذ هجم عليّ رُسُل الخليفة، فما أمْهَلوني حتى ركبتُ وصرْتُ إلى الدار، فأُدْخِلْتُ والله الحجرة بعينها، وإذا المتوكّلُ في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه وإلى جانبه فَريدة، فلما رآني قال: ويحك! أما ترى ما أنا فيه من هذه! أنا منذ غُدوة أطالبها بأَنْ تغنيني فتَأْبى ذلك! فقلت لها: يا سبحان الله! أتخالفين سيدَك وسيدَنا وسيِّد البشر! بحياته غَنِّي، فعرِفَتْ، والله ثم اندفعت تُغَنِّي:

مقيمٌ بالمجازة[٢] من قَنَوْنَى[٣] وأهلُك بالأجَيفرِ فالثِّماد[٤]
فلا تبْعَدْ فكل فَتًى سيأتي عليه الموت يَطْرق أو يُغَادي

ثم رمَتْ بالعُودِ الأرضَ، ورَمَتْ بنفسها عن السرير، ومرت تعدو وتصيح: واسيِّداه!

فقال لي: ويحك! ما هذا؟ فقلت: لا أدري والله يا سيّدي. فقال: فما ترى؟ فقلت: أرى أَنْ أنصرفَ أنا وتحضر هذه ومعها غيرها؛ فإنَّ الأمر يؤولُ إلى ما يريدُ أميرَ المؤمنين. قال: فانْصَرِف في حفظِ الله، فانصرفتُ؛ ولم أدر ما كانت القصَّة!

مَحبوبَة جَارِيَة المتَوكّل[٥]

قال عليّ بن الجَهْم: كانت محبوبةُ أُهديتْ إلى المتوكل، أهداها إليه عبدُ الله بن طاهر في جملةِ أربعمائة جارية، وكانت بارعةَ الحسن والظَّرْف والأدبِ، مغنّيةً محسنة، فحظِيت عند المتوكل حتى إنه كان يُجْلسها خَلْفَ ستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيُدْخِل رأسه إليها ويحدثها ويراها في كل ساعة؛ فغاضَبَها يومًا، وهجرها، ومنع جواريَه جميعًا من كَلَامِها، ثم نازعتْه

(١) يقال: ضرب الدهر من ضربه، أي مر من مروره وذهب بعضه.
(٢) المجازة: منزل من منازل طريق مكة.
(٣) قنونا: واد من أودية السراة يصب إلى البحر.
(٤) الأجيفر والثماد: موضعان.
(٥) نهاية الأرب: ٥:١٠٩.

نفسُه إليها، وأَرَاد ذلك، ثم منعتْه العِزَّةُ منها، وامتنعتْ من ابتدائه إدلالًا عليه بمحلّها منه!

قال ابنُ الجهم: فبكَّرتُ إليه يومًا فقال لي: يا علي؛ إني رأيتُ البارحة محبوبةَ في نومي كأني قد صالحتُها، فقلت: أَقرَّ الله عينيك يا أمير المؤمنين، وأَنَامَك على خَيْر، وأيقظك على سرور، وأرجو أن يكونَ هذا الصلحُ في اليقظة.

فبينا هو يحدِّثني وأجيبه إذا بوصيفةٍ قد جاءته فأسرّتْ إليه شيئًا، فقال لي: أتدري ما أسرّت هذه إليّ؟ قلت: لا. قال: حدّثتْني أنها اجتازتْ محبوبة الساعة، وهي في حجرتها تُغَنِّي! أفلا تعجبُ إلى هذا! إني مغاضِبُها وهي متهاونة بذلك؛ لا تبدؤوني بصلح، ثم لا ترضى حتى تُغني في حُجْرتها! قم بنا يا عليّ حتى نسمعَ ما تغني، ثم قام، وتبعتُه حتى انتهى إلى حجرتها، فإذا هي تغني وتقول:

أَدُور في القَصْر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلِّمني
حتى كأني ركبتُ معصيةً ... ليست لها توبةٌ تخلِّصني
فهل لنا شافعٌ إلى ملكٍ ... قد زارني في الكَرَى[1] فصالحني
حتى إذا ما الصَّباحُ لاحَ لنا ... عاد إلى هَجْره فصارَمَني[2]

فطرب المتوكل، وأحسّتْ بمكانه، فخرجت إليه، وتنحّيتُ، فحدثتْه أنها رأتْه في منامها، وقد صالحها فانتبهت، وقالت هذه الأبيات، وغنّت فيها؛ فحدّثها هو أيضًا برؤياه، واصطلحا، وبعث إليّ بجائزة وخِلْعة.

ولما قُتِل تسلَّى عنه جميعُ جواريه غيرها، فإنها لم تزل حزينةً، هاجرةً لكل لذةٍ حتى ماتت.

قَينة تحنُّ إلى بَغدَاد[3]

قال أبو علي بن الأسكري المصري: كنتُ من جُلَّاسِ تميم بن أبي تميم ومِمَّنْ يخِفّ عليه، فأُتِيَ من بغدادَ بجاريةٍ رائعة فائقة الغناء، فدعا جُلَّاسه ومُدَّت السِّتَارة وأمرها فغنّتْ:

وبَدَا له من بعدما انْدَمَل الهوى ... بَرْقٌ تألَّق مَوْهِنًا لمَعَانُه

---

(١) الكرى: النوم. (٢) الصرم: القطع والهجر.
(٣) شرح مقامات الحريري: ١ ـ ٣٢٣.

يبدُو كحاشيةِ الرِّداء ودونه صعب الذُّرا متمنّع أركانُه
وبدا لينظرَ كيف لاح فلم يُطِق نظرًا إليه وصدّه أشجانُه
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه والماءُ ما سحّتْ به أجفانُه

فأحسنتْ ما شاءت، وطرب تميم ومَنْ حضر، ثم غَنَّتْ:

ستُسْليك عما فات دولة مُفضِلٍ أوائلُه محمودة وأواخرُه
ثَنَى الله عِطْفَيْه وألّف شَخْصه على البرِّ مذ شُدَّتْ عليه مآزرُه

فطرب تميم ومَنْ حضر طربًا شديدًا، ثم غنّتْ:

أستودع اللهَ في بغدادَ لِي قمرًا بالكرْخ من فَلك الأزرار مَطْلَعُه

فأفرط تميم في الطرب جدًّا، ثم قال لها: تَمَنَّيْ ما شئتِ فلك مُنَاك، فقالت: أتمنَّى عافيةَ الأمير وسعادتَه، فقال: لا بدّ والله! فقالت: عَلَى الوفاء أَتمنى أيها الأمير؟ فقال: نعم، فقالت: أتمنّى أن أغَنِّي هذه النَّوبة ببغداد... فتغيّر وجهُ تميم، وتكدّر المجلس، وقُمْنا؛ فلحقني بعضُ خدمه فردَّني، فلمّا وقفتُ بين يديه قال لي: وَيْحكَ! أرأيتَ ما امْتُحِنَّا به؟ ولا بُدَّ من الوفاء، وما أثق في هذا بغيرك، فتأهّبْ لتحملَها إلى بغداد، فإذا غنّت هناك فاصْرِفها. فقلت: سمعًا وطاعة.

فأَصْحَبها جاريةً سوداء تخدمها وتُعادِلها[1]، وأمر لي بناقةٍ وبجمل عليه هَوْدَج، فأُدْخِلْتُ فيه، وسرنا مع القافلة إلى مكّة، فقضينا حجّنا، ثم لما وردنا القادسيّة، أتَتْنِي السوداء فقالت لي: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت: نحن نُزُولٌ بالقادسية، فأخبرتْها، فسمعتُ صوتها قد ارتفع بالغناء:

لَمّا نزلنا القادِسيَّـ ـةَ حيثُ مُجتمعُ الرفاق
وشممتُ من أرض الحجا ز نسيمَ أنفاسِ العراق
أيقنتُ لي ولمن أُحِـ ـبُ بجَمْعِ شملٍ واتفاق
وضحكتُ مِنْ فَرح اللقا ء كما بكيتُ من الفراق

فصاح الناس من أقطارِ القافلة: أعيدي، أعيدي؛ فما سُمِع لها كلمة.

---

(١) تركب معها.

فلما نزلنا اليَاسِريّة - على خمسة أميال من بغداد في بساتين متصلة يبيتُ النّاسُ بها ثم يبكِّرُون لبغداد - بتْنَا هناك، ولما قَرُب الصباح إذا بالسوداء قد أَتَتْنِي مذعورةً، فقالت: إن سيِّدتي ليست بحاضرة، ووالله لا أدري أين هي؟ فطلبتُها فلم أجدها، ولا وجدتُ لها ببغداد خبرًا، فقضيتُ حوائجي ببغداد، وانصرفتُ إلى تميم، فأخبرتُه خبرَها، فلم يَزَلْ واجِمًا[1] عليها!

عمَـــارة[2]

كانت عند عبد الله[3] بن جعفر جاريةٌ مُغَنِّية يقال لها عُمارة، وكان لها منه مكان لم يكنْ لأحدٍ من جواريه.

فلما وفَد عبد الله بن جعفر على معاويةَ خرج بها معه، فزاره يزيدُ ذاتَ يوم فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقَعَتْ في نفسه، وجعل لا يمنعه من أن يبوحَ بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه، مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمرُ إليه، فاستشار بعضَ مَن قدم عليه من أهل المدينة وعامة مَنْ يثق به في أمرها، وكيف الحيلةُ فيها، فقيل له: إن أمْر عبد الله بن جعفر لا يُرام، ومنزلتَه من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبدًا، وليس يُغْنِي في هذا إلا الحيلة.

فقال: انظروا لي رجلًا عِراقيًا له أدبٌ وظَرْفٌ ومعرفة، فطلبوه فأتَوْه به؛ فلما دخل رأى بيانًا وحلاوة وفهمًا، فقال يزيد: إني دعوتك لأمرٍ إن ظَفِرْتَ به فهو حظُّكَ آخر الدهر، ويدٌ أكافئُك عليها إن شاء الله؛ ثم أخبَره بأَمْره، فقال له عبد الله بن جعفر: ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخدِيعَة، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت، فأرجو أن أكونه والقوةُ بالله، فأَعِنِّي بالمال. قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طُرَف الشام وثياب مصر، واشترى متاعًا للتجارة من رقيقٍ ودوابَّ وغير ذلك؛ ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعَرْصة[4] عبد الله بن جعفر، واكترى

---

(١) حزينًا.
(٢) مصارع العشاق: ٣١٠.
(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان كريمًا جوادًا، يميل إلى سماع الغناء، وأخباره في الكرم والسماع كثيرة، توفي سنة ٩٠ هـ.
(٤) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس بها بناء.

منزلًا إلى جانبه، ثم توسَّل إليه، وقال: إني رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة، وأحببتُ أن أكون في عزّ جوارك وكَنفك، إلى أن أبيع ما جئتُ به.

فبعث عبدُ الله بن جعفر إلى قَهْرَمانه: أن أكرم الرجل، ووسّع عليه في نُزُله[1]. فلما اطمأنَّ العراقي سلّم عليه أيامًا، وعرَّفه نفسه، وهَيَّأ له بغلةً فارِهة، وثيابًا من ثياب العراق وألطافًا؛ فبعث بها إليه، وكتب معها: «يا سيدي؛ إني رجلٌ تاجرٌ، ونعمةُ الله عليَّ سابغة، وقد بعثتُ إليك بشيء من تحف، وثياب وعطر، وبعثتُ ببَغلة خفيفة العنان، وطيئةِ الظهر؛ فاتخِذْهَا لركوبك؛ فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ وآله إلّا قبلتَ هديّتي، فإن أعظم أملي في سفرتي هذه أن أستفيدَ الأُنس بك، والتحرم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقَبْضِ هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرَّ بالعراقي في منزله فقام إليه، وقبّل يده، واستكثر منه، فرأى أدبًا وظرفًا وفصاحة، فأُعجب به وسُرَّ بنزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة. فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيرًا، فقد ملأنا شكرًا، وما نقدر على مكافأته.

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعُمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس وسمع غناءَ عمارة، تعجب وجعل يزيد عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سُرّ به إلى أن قال له: هل رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي، ما رأيتُ مثلَها وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية: حُسْن وجه، وحُسْن عمل. قال: فكم تساوى عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة، قال: تقول هذا لِتزيِّن لي رأيًا فيها، وتجتلب سروري! قال له: يا سيدي؛ والله إني لأحب سرورك، وما قلت لك إلا الجد، وبعد فإني تاجرٌ أجمع الدراهم إلى الدراهم، طلبًا للربح ولو أعطيتُها بعشرة آلاف دينار لأخذتُها، فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم ـ ولم يكن في ذلك الزمان جارية بهذا الثمن ـ فقال له عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتُها. قال: قد وجب البيع. وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبدُ الله لم يشعر إلا بالمال قد جيء به، فقيل لعبد الله: قد بعث العراقيّ بعشرة آلاف دينار، وقال: هذا ثمن عمارة فردّها، وكتب إليه: إنما كنتُ

(١) النزل: ما هُيِّىء للضيف أن ينزل فيه.

أمزح معك، ومما أُعلمك أن مثلي لا يبيع مثلَها، فقال له: جُعِلت فداءك! إن الجد والهزل في البيع سواء، فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جاريةً تساوي ما بذلْتَ، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحًا، وما أبيعُها بملك الدنيا لحرْمَتها بي، وموضعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنتَ مازحًا فإني كنتُ جادًّا، وما اطلعتُ على ما في نفسك، وقد ملكتُ الجارية، وبعثتُ إليك بثمنها، وليست تحل لك، وما لي مِنْ أخذها من بُدّ.

فمانعه إياها، فقال له: ليست لي بيّنَة، ولكني أسْتَحْلِفك عند قبر رسول الله ﷺ، ومنبره، فلما رأى عبدُ الله الجدَّ قال: بئس الضيفُ أنت! ما طرقَنَا طارق، ولا نزل بنا نازل، أعظمُ بليةً منك، أتحلفني فيقول الناس: اضطهد عبدُ الله ضيفَه وقَهَرَه، وألجأَه إلى أن استحلفه، أما والله لتعلمن أني سأعتصم في هذا الأمر بالصبر وحسنِ العزاء.

ثم أمر قَهْرَمانه بقَبْضِ المال منه، وبتجهيزِ الجاريةِ بما يُشْبهها من الخدم والثياب والطيب، فجُهِّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار.

فقبض العراقي الجارِية، وخرج بها؛ فلما برز من المدينة، قال لها: يا عُمارة: إني والله ما ملَكْتك قط، ولا أنت لي، ولا مثلي يَشْتري جاريةً بعشرة آلاف دينار، وما كنتُ لأقدم على ابن عم رسول الله ﷺ وآله فأسلبه أحبّ الناس إليه لنفسي، ولكني دَسِيسٌ[1] من يزيدَ بن معاوية، وأنتِ له، وفي طلبك بعثَ بي، فاسْتَتري مني.

ثم مضى بها حتى وردَ دمشق، فتلقَّاه الناسُ بجنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد؛ فأقام الرجلُ أيامًا، ثم تلطَّف للدخول عليه، فشرح له القصة ـ ولم يكن أحدٌ من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلًا ونُسْكًا ـ فلما أَخْبَره قال: هي لك، وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، وارحل من يومك فلا أسمعُ بخَبرك في شيءٍ من بلاد الشام.

فرحل العراقي، ثم قال للجارية: إني قلتُ لك ما قلت حين خرجتُ بك من المدينة؛ فأخبرتُك أنك ليزيد، وقد صرتِ لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وأني قد ردَدْتُك عليه، فاسْتَتِري مني.

---

(١) دسيس: مَن تدسّه ليأتيك بالأخبار.

ثم خرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريبًا من عبدِ الله، فدخل عليه بعضُ خدمه، فقال له: هذا العراقي ضيفُك الذي صنع بنا ما صنع، وقد نزل العَرْصة لا حيَّاه الله! فقال عبدُ الله: مَهْ! أَنْزِلوا الرجل وأكرموه! فلما استقرَّ بعث إلى عبد الله: جعلت فداءك! إنْ رأيتَ أن تأذنَ لي لأُشَافهكَ بشيء فعلت؛ فأذِن له؛ فلما دخل سلم عليه، وقبَّل يده فقرَّبه عبد الله، ثم اقتصّ عليه القصة حتى إذا فرغ، قال: قد والله وهبتُها لك قبل أن أراها وأضع يدي عليها، فهي لك ومردودة عليك، وقد علم الله تعالى أني ما رأيتُ لها وجهًا إلا عندك.

فبعث إليها، فجاءَت، وجاء بما جهزها به مُوَفَّرًا، فلما نظرتْ إلى عبد الله، خرَّت مغشيًّا عليها، وأهوى إليها عبد الله، وخرج العراقي وتصايَح أهلُ الدار: عُمارة! عمارة! فجعل عبدُ الله يقول، ودموعه تجري: أحلمٌ هذا؟ أحقٌّ هذا؟ ما أصدِّق بهذا! فقال له العراقي: جعلت فداءك! قد ردها عليك إيثارك الوفاء، وصبرُك على الحق، وانقيادك له.

فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أني تصبَّرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسْلَمت لأمرك! فرددتَها علي بمنّك؛ فلك الحمد. ثم قال: يا أخا العراق؛ ما في الأرض أعظم مِنَّةً منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقيّ أيامًا وباع عبدُ الله غنمًا لهُ بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقَهْرمانه: احملها إليه، وقل له: اعذر، واعلمْ أني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلًا لأكثر منه؛ فرحل العراقي محمودًا وافر المال.

الباب التاسع

قصص نساء العرب

قصص نساء العرب

مَصرَع الزبَّاء[1]

كان جَذيمة قد ملك ما على شاطىء الفرات، وكانت الزَّبّاء ملكة الجزيرة، وكان جَذيمة قد وَتَرها بقتل أبيها، فلما استجمع أمرُها، وانتظم شملُ مُلْكها، أحبَّت أن تغزوَ جَذيمة. ثم رأت أن تكتبَ إليه: أنها لم تجد مُلْكَ النساء إلا قُبْحًا في السَّماع، وضَعْفًا في السلطان، وأنها لم تجد لمُلْكِها موضعًا، ولا لنفسها كفئًا غيركَ؛ فأقبِلْ إليَّ لأجمع مُلْكِي إلى مُلْكك، وأصِل بلادي ببلادِك، وتتقلّد أمري مع أمرك.

فلما أتى كتابُها جَذيمةَ، وقدِم عليه رسلُها استخفَّه ما دعتْه إليه، ورغب فيما أطمَعَتْهُ فيه؛ فجمع أهلَ الحِجا والرأي من ثِقَاتِه ـ وهو يومئذ ببَقَّة من شاطىء الفرات ـ وعرض عليهم ما دعَتْهُ إليه وعرضت عليه؛ فاجتمعَ رأيُهم على أن يسيرَ إليها فيستوليَ على ملكها.

وكان فيهم قَصِير ـ وكان أَرِيبًا حازمًا عند جَذيمة ـ فخالفهم فيما أشاروا به، وقال: رأيٌ فاتر، وغَدْرٌ حاضر. ثم قال لجَذيمة: الرأيُ أن تكتبَ إليها، فإن كانت صادقة في قولها فلتُقْبِلْ إليك، وإلا لم تمكّنها من نفسك، ولم تقع في حِبَالَها، وقد وَتَرْتها وقتلتَ أباها؛ فلم يوافق جَذيمة وقال له: رأيُك في الكِنّ لا في الضّحّ.

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ٢١٣، جمهرة الأمثال: ٦٢.

ودعا جَذيمة عمرو بن عدي ابن أخته فاستشاره فشجّعه على المسير، وقال: إن قومي مع الزبّاء ولو رأوك صاروا معك، فأحبَّ جَذِيمة ما قاله، وعَصَا قصيرًا، فقال قصير: لا يُطاعُ لقصيرٍ أمر[١].

واستَخْلف جَذِيمة عَمْرو بن عديّ على مُلْكه وسلطانه، وسار في وُجُوه أصحابه، فأخذ على شاطىء الفرات من الجانب الغربي، فلما نزل دعا قصيرًا فقال: ما الرأي يا قصير؟ فقال قصير: ببَقَّة خلَّفْتُ الرأي[١]. قال: وما ظنُّك بالزَّبَّاء؟ قال: القولُ رِدَاف، والحَزْمُ عثراته تُخَاف[١].

واستقبلتهُ رُسُل الزباء بالهدايا والألطَاف، فقال: يا قصير؛ كيف ترى؟ قال: خَطْبٌ يسير في خطب كبير[١]. وسَتَلْقاك الجيوش؛ فإن سارت أمامك فالمرأةُ صادقة، وإن أخذَتْ جَنبَتَيْك، وأحاطت بك من خَلْفك فالقوم غادرون بك، وإذن فاركب العَصَا[٢] فإنها لا يسبق غبارها ـ وكانت العصا فرسًا لجذيمة لا تُجَارى ـ وإني راكبها ومُسَايرُك عليها.

فلقيَتْه الخيولُ والكتائب، فحالت بينه وبين العصا؛ فركبها قصير، ونظر إليه جذيمةُ على متْن العصا موليًا، فقال: ويل أمّه حَزْمًا على متن العصا[١]! وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقَتْ، وقد قطعَتْ أرضًا بعيدة.

وسار جذيمةُ وقد أحاطَتْ به الخيلُ حتى دخل على الزَّباء. فلما رأته قالت: أشَوار[٣] عروس ترى؟ فقال: أمر غَدْرٍ أرى! ثم دعت بالسيف والنِّطْع، وقالت: إن دماء الملوك شِفاء من الكلَب، فأمرت بطَسْت من ذهب قد أعدَّته له وسقَتْه الخمر حتى سكر، وأخذتْ منه الخمرُ مَأْخَذَها، فأمرت بِراهِشَيه[٤] فقُطعا، وقدّمت إليه الطَّسْت ـ وقد قِيل لها: إنْ قَطر من دمه شيء في غير الطَّسْت طُلِب بدمه ـ فلما ضَعُفَتْ يداه سقَطتَا فقطر من دمه شيء في غير الطَّسْت؛ فقالت: لا تُضَيِّعُوا دمَ الملك. فقال جذيمة: دَعُوا دمًا ضيّعه أهلُه[١]. وهَلَك جذيمة.

وخرج قصير من الحيّ الذي هلكت العصا بين أَظْهُرهم، حتى قدم على عمرو بن عدي ـ وهو بالحيرة ـ فقال له قصير: أثَائر أنت؟ قال: بل ثائرٌ سائر[١].

---

(١) ذهبت أمثالًا.
(٢) العصا: اسم الفرس.
(٣) الشوار: الهيئة والزينة.
(٤) الراهشان: عرقان في باطن الذراعين.

ووافَق قصيرٌ الناس وقد اختلفوا، فأصلح بينهم، ثم قال لعَمْرو بن عدي: تهيَّأ واسْتَعِدّ ولا تُطِلّنّ[1] دمَ خالك. قال: وكيف لي بها وهي أمنعُ من عُقَاب الجو[2]!

وكانت الزباءُ سألت كاهنةً لها عن هلاكها؛ فقالت: أرى هلاكَكِ بسبب غلام مهين غير أمين، وهو عمرو بن عدي. ولن تموتي بيده، ولكنّ حَتْفَك بيدك، ومِن قِبَله ما يكون من ذلك.

فحَذِرَتْ عمرًا، واتّخذَتْ لها نَفَقًا من مجلسها الذي كانت تجلسُ فيه إلى حصْن لها في داخل مدينتها، وقالت: إن فاجأني أمرٌ دخلتُ النّفق إلى حِصْني. ودعَتْ رجلًا مُصوِّرًا من أجود أهل بلاده تصويرًا، وأحسنهم عملًا، فجهَّزَتْه وأحسنت إليه، وقالت: سِرْ حتى تَقْدم على عمرو بن عدي متنكّرًا، فتخلو بحشَمِه فتنضمّ إليهم وتخالطهم وتعلِّمهم ما عندك من العلم بالصور، ثم أثْبِت[3] لي عَمْرَو بن عدي معرفة؛ فصوِّره جالسًا وقائمًا وراكبًا ومُتَفضِّلًا[4] ومتسلحًا بهيئته ولبْسَته ولونه، فإذا أَحْكَمْت ذلك فأَقْبل إليّ.

فانطلق المصوّر حتى قدم على عمرو بن عَدِيّ، وصَنَع الذي أَمَرَتْهُ به الزّبّاء، وبلغ من ذلك ما أوصتهُ به، ثم رجع إلى الزباء بِعِلْم ما وجهتهُ لهُ من الصورة على ما وصفَتْ وأرادتْ أن تعرف عمرو بن عدي، فلا تراهُ على حال إلا عرفَتْه وحذرَتْه وعلمت علْمَه.

وقال قصير لعمرو بن عديّ: اجْدَع أنْفي[5]، واضرب ظَهْري، ودَعْني وإيّاها. فقال عمرو: ما أنا بفاعل، وما أنت لذلك مستحقًا عندي. فقال قصير: خلِّ عنّي إذَنْ وخَلاكَ ذمّ[2]! فقال له عمرو: فأنت أَبْصَر. فجدع أنفه وأثر آثارًا بظهره؛ فقالت العرب: لأمرٍ ما جَدَع قصير أَنْفَه[2].

ثم خرج قصير كأنه هارب، وأظهر أن عمرًا فعل ذلك به، وأنه زعم أنه مَكَر بخاله جَذِيمة وغرّه؛ فسار حتى قَدِم على الزبّاء، فقيل لها: إن قصيرًا بالباب.

---

(١) طل دمه: هدر أو ألا يثأر به. (٢) ذهبت أمثالاً.

(٣) أثبته: عرفه حق المعرفة.

(٤) المتفضل: مَن يلبس ملابس النوم وهي لبسة المتفضل.

(٥) جدع أنفه: قطعها.

فأمرت به فأُدخل، فإذا أَنفُه قد جُدِع، وظهره قد ضُرِب؛ فقالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أني قد غررتُ خاله وزيَّنْتُ له المصير إليك وغَشَشْتُه ومالأَتُك؛ ففعل بي ما تَريْن؛ فأقبلْتُ إليكِ. فأَكرمَتْه، وأصابت عنده من الحزْم والرأي ما أرادت.

فلما عرف أنها استرسلت إليه، ووثقت به قال: إن لي بالعراق أموالًا كثيرة وطرائف وثيابًا وعِطْرًا، فابعثيني إلى العراق، لأحملَ مالي وأحملَ إليك من بزّها[١] وطرائفها وطِيبها، لتصيبي من ذلك أرباحًا عظيمة، وبعضَ ما لا غنى للملوك عنه. وكان أكثر ما يُطْرفها[٢] من الصَّرَفان[٣]، وكان يُعجبها؛ فلم يزل يُزين ذلك حتى أذنت له، ودفعت إليه أموالًا، وجهزت معه عبيدًا.

فسار قصير بما دفعتْ إليه حتى قَدِم العراق، وأتي الحيرة متنكرًا، فدخل على عمرو بن عديّ فأخبره الخبر، وقال: جهزني بصنوف البَزّ والأمتعة؛ لعلّ الله يمكنُ من الزبّاء؛ فتصيبَ ثأرك، وتقتلَ عدوّك. فأعطاه حاجته.

فرجع بذلك إلى الزّباء؛ فأعجبها ما رأت وسرّها، وازدادت به ثقةً، وجهّزَته ثانيةً؛ فسار حتى قدم على عمرو فجهّزَه وعاد إليها.

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو: اجمع لي ثقات أصحابك، وهيّيء الغرائر واحمل كل رجلين على بعيرٍ في غِرارتين، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتُك على باب نفَقِها، وخرجت الرجالُ من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة، فَمَن قاتَلهم قتلوه؛ وإن أقبلتِ الزباء تريد النَّفَق جَلّلْتها بالسيف.

ففعل عمرو ذلك، وحمل الرجال في الغرائر بالسلاح، وسار يكمن النهار ويسْري بالليل، فلما صار قريبًا من مدينتها تقدّم قصير فبشّرها؛ وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف؛ وقال لها: آخر البَزّ على القَلُوص[٤]. وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به. وقال لها: جئت بما صَاءَ وصَمَت[٥].

---

(١) البز: الثياب. (٢) يطرفها: يعطيها.

(٣) الصرفان: تمر رزين صلب.

(٤) ذهبت مثلًا، والبز: الثياب، والقلوص: الأنثى الشابة من الإبل.

(٥) أراد بما صاء: الشاء والإبل، وبما صمت: الذهب والفضة، وهو يريد أنه جاء بكل شيء، وقد ذهبت مثلًا.

ثم خرجت الزّبّاء فأبصرت الإبل تكادُ قوائمُها تَسُوخ في الأرض من ثقل أحمالها، فقالت يا قصير:

ما لِلجِمال مَشْيُها وئيدا أَجَنْدلًا يَحملن أم حديدا
أم صَرَفانًا تارزًا شديدا[١]

فقال قصير في نفسه:

بل الرجالُ قُبَّضًا قعودًا

فدخلت الإبل المدينةَ؛ حتى كان آخرُها بعيرًا مرّ على بوّاب المدينة، وكانت بيده منْخَسةٌ؛ فنخس الغرارة، فأصابت خاصرة الرجل الذي فيها، فسمع له صوتًا، فقال: شرٌّ في الْجُوالق[٢]!

فلما توسطت الإبلُ المدينةَ أُنيختْ، ودلَّ قصير عمرًا على باب النَّفَق الذي كانت الزبّاء تدخله، وأرَتْه إياه قبل ذلك وخرج الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السلاح، وقام عمرو على باب النُّفَق، وأقبلت الزبّاء تريده، فأبصرت عمرًا فعرفَتْه بالصورة التي صُوِّرت لها؛ فمصَّتْ خاتمها ـ وكان فيه السم ـ وقالت: بيدي لا بيد عمرو[٢]. وتلقّاها عمرو فجلّلها بالسيف وقتَلها، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلِها؛ وانكفأ راجعًا إلى العراق.

قبّح الله جَمالًا لَا نَفع فيهِ[٣]

كانت عَثْمة بنت ابن مطرود البَجَليَّة ذات عقل ورأي مستَمع في قومها، وكانت لها أخت يقال خَوْد؛ ذات جمال ومِيْسم وعقل. ثم إن سبعةَ إخوة من الأزد خطبوا خَوْدًا إلى أبيها، فأتوه وعليهم الحُلَل اليمانية، وتحتهم النَّجائِبُ الفُرْه[٤]. فقالوا: نحن بنو مالك بن غُفَيْلَة. فقال لهم: انزلوا على الماء، فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين في الحُلَل والهيئة، ومعهم ربيبة[٥] لهم كاهنة يقال لها: الشعثَاء.

(١) التارز: اليابس.
(٢) ذهبت مثلاً.
(٣) مجمع الأمثال: ١ ـ ٩٠.
(٤) فره: جمع فاره، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف.
(٥) الربيبة: الحاضنة.

فمرّوا بوصيدها[١]، يتعرّضون لها، وكلهم وسيمٌ جميل، وخرج أبوها فجلسوا إليه، فرحب بهم، فقالوا: بلغنا أن لك بنتًا، ونحن كما ترى شباب. وكلُّنا يمنع الجانب، ويمنح الراغب. فقال أبوها: كلكم خيار. فأقيموا حتى نرى رأينا.

ثم دخل على ابنته فقال: ما ترَيْن؟ فقد أتاك هؤلاء القوم. فقالت: زوّجني على قَدْري، ولا تشطط في مهري؛ فإن تخطئني أحْلاَمُهم فلا تخطئني أجسامهم. لعلي أصيب ولدًا، وَأُكْثِر عددًا.

فخرج أبوها، فقال: أخبروني عن أفضلكم، قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة: اسمع أُخْبِرْك عنهم: هم إخوة، وكلهم أُسوة. أما الكبيرُ فمالك، جريءٌ فاتك، يتعبُ السنابكَ[٢]، ويستصغر المهالك. وأما الذي يليه فالعَمْرو، بحر غَمْر[٣]، يقصر دونه الفخر، نَهْدٌ[٤] صقر. وأما الذي يليه فعلقمة، صليبُ[٥] المَعْجَمة، مَنِيعُ المَشْتَمة، قليل الجَمْجَمَة[٦]. وأما الذي يليه فعاصم، سيِّدٌ ناعم، جَلْدٌ صَارِم، أبيٌّ حازم، جيشه غانم، وجارُه سالم. وأمّا الذي يليه فَثَواب، سريع الجواب، عَتِيد الصواب، كريمُ النصاب[٧]؛ كلَيثِ الغاب. وأما الذي يليه فَمُدْرِك، بذُولٌ لما يملك، عَزوبٌ[٨] عمَّا يُتْرَك، يُفْنِي ويُهْلِك.

وأما الذي يليه فجندل، لِقِرْنِه مُجَدِّل[٩]، مُقلّ لما يحمِل، يُعطي ويَبْذُل، وعن عدوِّه لا يَنْكُل[١٠].

فشاورت أختَها عَثْمَة فيهم، فقالت: ترى الفتيان كالنَّخْل، وما يدريك ما الدَّخْل[١١]، اسمعي مني كلمة: إن شَرَّ الغَريبة يُعْلَن، وخيرَها يُدفَن، تزوَّجي في قومك، ولا تَغْرُرْكِ الأجسام.

فلم تقبل منها، وبعثَتْ إلى أبيها: زوّجني مُدْرِكًا، فتمَّ ذلك على مائةِ ناقةٍ ورُعاتِها. وحَمَلها مُدْرك، فلم تلبثْ عنده إلا قليلًا حتى صَبَّحَهُمْ فوارسُ من بني

---

(١) الوصيد: الفناء.
(٢) السنابك: أطراف حوافر الخيل.
(٣) الغمر: معظم البحر.
(٤) النهد: الأسد والكريم.
(٥) الصليب: الشديد.
(٦) قليل الجمجمة: كلامه بين.
(٧) النصاب: الأصل.
(٨) عزوب: بعيد.
(٩) جدله: صرعه على الجدالة (الأرض).
(١٠) لا ينكل: لا يجبن.
(١١) ذهبت مثلًا. يضرب لمن يكون منظره خير من مخبره.

مالك بن كِنانة، فاقتتلوا ساعة. ثم انكشف عنها زوجُها وإخوته وعشيرته. فَسُبِيَتْ فيمن سُبِين من النساء!

فبينا هي تسير بَكَتْ، فقالوا: ما يبكيك؟ أعلى فراق زوجك؟ قالت: قبَّح الله جمالًا لا نَفْعَ معه، إنما أبكي على عِصْياني أختي في قولها: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الخدل!»، وأخبرتهم كيف خطبوها.

فقال لها رجل منهم ـ يكنى أبا نُوَاس ـ شابٌ أسود أَفْوَهُ[1] مضطرب الخَلْق ـ أتَرْضيْن بي على أن أمنعَك من ذِئاب العرب؟ فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم، إنه مع ما ترين ليَمْنَع الحَلِيلَةَ[2]، وتتقِيهِ القبيلة.

قالت: هذا أجمل جمال وأكمل كمال؛ قد رضيتُ به. فزوَّجوها منه.

أفضَلُ النسَاء وَأفضَلُ الرّجَال[3]

خرجت العجْفاءُ بنتُ عَلْقَمة السّعديّ وثلاثُ نسوةٍ من قومها، وتواعَدْن رَوْضةٌ يتحدَّثْن فيها، فوافيْن بها ليلًا في قَمَرٍ زَاهِر، وليلة طَلْقةٍ ساكنة، وروضة مُعشِبَةٍ خَصبة.

فلما جلسْنَ قُلْنَ: ما رأينا كالليلة ليلةً، ولا كهذه الروضةِ روضة أطيَبَ ريحًا ولا أَنْضَرَ! ثم أَفَضْنَ في الحديث، فقلن: أيُّ النساءِ أفضل؟ قالت إحداهنّ: الخَرُود[4] الوَدُود الوَلُود. قالت الأخرى: خيرهنّ ذات الغَنَاء، وطِيبِ الثناء، وشدّة الحَياء. قالت الثالثة: خيرُهن السَّمُوع[5]، النَّفوع، غير المنُوع. قالت الرابعة: خيرُهنّ الجامعةُ لأهلها، الوَادِعَة، الرافعة لا الواضعة.

قلن: فأيّ الرجال أفضل؟ قالت إحداهنّ: إن أبي يُكرمُ الجار، ويُعْظِمُ النار، وينحَر العِشَار[6] بَعْدَ الحُوار[7]، ويحمل الأمورَ الكِبَار، ويأْنَفُ من الصَّغَار.

(١) رجل أفوه: عظيم الفم.
(٢) الحليلة: الزوجة.
(٣) مجمع الأمثال: ٢: ٧٢.
(٤) الخرود: الحيية الطويلة السكوت.
(٥) السموع: التي تسمع القول.
(٦) العشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر.
(٧) الحوار: ولد الناقة ساعة تضعه، أو إلى أن يفصل عن أمه.

فقالت الثانية: إن أبي عظيمُ الخَطَر، منيع الوَزَر[١]، عزيز النَّفر، يُحمَد منه الوِرْد[٢] والصَّدَر.

فقالت الثالثة: إن أبي صَدُوق اللسان، حَدِيد الجَنَان[٣]، كثير الأَعْوان يُروى السِّنَان عند الطِّعان.

قالت الرابعة: إن أبي كريم النِّزَال، مُنيف[٤] المَقَال؛ كثيرُ النَّوَال، قليلُ السؤال، كريمُ الفَعال.

ثم تنَافَرْنَ[٥] إلى كاهنةٍ معهنَّ في الحيِّ، فقلن لها: اسمعي ما قلنا، واحكمي بيننا وَاعْدِلي؛ ثم أَعَدْن عليها قولَهنَّ، فقالت لهن: كلُّ واحدةٍ منكن مارِدَة[٦]، بأبيها وَاجدة[٧]، على الإحسان جاهدة، لصواحباتها حاسدة، ولكن اسمعْنَ قَوْلي: خير النساء المُبْقيةُ على بَعْلها، الصابرةُ على الضرَّاء مخافة أن ترجِعَ إلى أهلها؛ فهي تُؤثِر حَظَّ زوجها على حَظِّ نفسها، فتلك الكريمة الكاملة. وخير الرجال الجواد الْبَطَل، القليلُ الفَشل، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العِلَل، كثيرَ النَّفل[٨]، ثم قالت: «كلُّ فَتَاةٍ بأبيها مُعْجَبَة»[٩].

نَكْبَة جَلِيلَة[١٠]

كانت جليلةُ بنت مُرة أختُ جَسّاس زوجًا لكُليب بن ربيعة؛ فلما قَتل جَسّاس كليبًا اجتمع نساء الحي للمأْتَم، فقُلْن لأخت كُلَيب: رَحِّلِي جليلةَ عن مأتمك؛ فإنَّ قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب؛ فقالت لها: يا هذه؛ اخْرُجي عن مَأْتمنا، فأنتِ أُخْتُ واتِرنا وشقيقةُ قاتِلنا؛ فخرجَتْ وهي تجرُّ أعطافَها؛ فلقيَها أبوها مُرَّة، فقال لها: ما وراءَك يا جليلةُ؟ قالت: ثُكل العَدد، وحُزْنُ الأبدِ، وفَقْد حليل، وقَتْلُ أخٍ عن قليل، وَبَين ذَيْنِ غَرْس الأحقاد، وتفتّت الأكباد؛ فقال لها: أو يكُفُّ

(١) الوزر: الملجأ.
(٢) الورد: الورود على الماء، والصدر: العودة من الاستقاء.
(٣) الجنان: القلب.
(٤) منيف المقال: مرتفع.
(٥) تنافرن. ذهبن وتحاكمن.
(٦) ماردة: عاتية قد بلغت الغاية.
(٧) وجد به: أحبه.
(٨) النفل: العطية.
(٩) ذهبت مثلًا.
(١٠) الأغاني: ٥ ـ ٦٣ (طبعة دار الكتب)، نهاية الأرب: ٥ ـ ٢١٤، ابن الأثير: ١ ـ ٢١٦، مهذب الأغاني: ١ ـ ٨٥.

ذلكَ كرَمُ الصفْح وإغلاءُ الدِّيَات؟ فقالت جليلة: أُمْنيّة مخدوع وربِّ الكعبة! أبا لبُدْن تَدَعُ لك تَغلبُ دمَ ربِّها!

ثم بلغ جليلةَ أنّ أخت كليب قالت حين رحلت: رِحْلَةُ المعتدي وفِراق الشامت! ويلٌ غدًا لآل مُرّة؛ من الكَرّة بعد الكرَّة! فقالت: وكيف تَشْمَت الحُرَّة بهتكِ سِترها، وترقب وترِها! أسعدَ الله جَدَّ أختي، أفلا قالت: نَفْرَة الحياة، وخَوْف الاعتداء! ثم أنشأت تقول:

يا ابْنةَ الأقوام إنْ شِئتِ فَلَا	تعْجلي باللَّوْم حتى تسْأَلي
فإذا أنتِ تَبَيَّنْتِ الّذي	يُوجِبُ اللومَ فَلُومي واعْذُلي
إن تكن أختُ امرئٍ ليمَتْ عَلَى	شَفَقٍ منها عليه فافْعَلِي
جَلَّ عندِي فعلُ جَسَّاسٍ فيَا	حَسْرتي عمّا انْجلَتْ أو تنْجَلِي!
فعلُ جَسَّاسٍ على وجْدِي به	قاطعٌ ظهري ومُدْنٍ أجَلِي
تحْملُ العَيْن قَذى العَين كَمَا	تحمل الأمّ أذى ما تَفْتَلِي[1]
يا قتيلًا قَوَّضَ الدهرُ بهِ	سقْفَ بيتي جميعًا من علِ
هَدَمَ البيتَ الذي اسْتحدثْتُه	وانثنى في هَدْمِ بيتي الأوّل
يا نسائي دونكُنّ اليوم قَدْ	خَصَّني الدَّهْرُ برُزْءٍ مُعضلِ
خَصَّني قتْلُ كُلَيبٍ بلظًى	من ورائي ولظًى مُسْتَقْبلي
ليس مَنْ يبكي ليومين كمَنْ	إنما يبكِي ليوم ينجَلِي
يشتفي المدرِكُ بالثأرِ، وفي	دركي ثأريَ ثُكلُ المُثْكِلِ[2]
ليتَهُ كانَ دَمِي فاحتَلبُوا	بدلًا منه دمًا من أكْحَلِي[3]
إنّني قاتلة مقتولَةٌ	ولعلّ الله أن يرتاحَ لي!

كَأنما تَزوجتَ بنت قَيس بن خَالِد![4]

كان زُرارة بن عُدُس رجلًا شريفًا، فنظر ذاتَ يوم إلى ابنِه لَقِيط، فرأى منه خُيَلاء وَنشاطًا، وقد جعل يضربُ غلْمَانه ـ وهو يومئذ شابّ ـ فقال له: لقد

(١) تفتلى: تربى. (٢) المثكل: التي لازمها الحزن.
(٣) الأكحل: عرق في الذراع يفصد.
(٤) الأغاني: ٩ ـ ١٣٠ (طبعة الساسي)، مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٥٣.

أصبحْتَ تصنعُ صنيعًا كأنما جئتَني بمائةٍ من هِجَان[١] ابن المنذر بن ماء السماء، أو تزوّجت بنت قيس بن خالد! قال لقيط: لله عليّ ألا يمسَّ رأسي غُسل، ولا آكل لحمًا ولا أشرب خمرًا حتى أجمَعهما جميعًا أو أموت.

فخرج لقيط ومعه ابنُ خال له يقال له القراد بن إهَاب، وكلاهما كان شاعرًا شريفًا، فسارا حتى أتَيا بني شَيْبان، فسلّما على ناديهم، ثم قال لَقيط: أفيكم قيس بن خالد؟ ـ وكان سيِّد ربيعة يومئذ ـ قالوا: نعم. قال: فأيّم هو؟ قال قيس: أنا قيس، فما حاجتك؟ قال: جئتك خاطبًا ابنتَك ـ وكانت على قيس يمينٌ ألّا يخطبَ إليه أحد ابنته عَلَانِية إلا أصابَه بشرٌ، وسمّع[٢] به ـ فقال له قيس: ومَن أنت؟ قال: لَقيط بن زُرارة بن عُدُس. قال قيس: عجبًا منك! هلّا كان هذا بيني وبينك؟ قال: لَمَ يا عمّ؟ فوالله إن فيك لرَغْبَة، وما بي من عَيْب، ولئن ناجَيْتُك لا أخدعُك، ولئن عَالنْتُك لا أفضَحُك. فأَعجبَ قيسًا كلامُه وقال: كُفءٌ كريم، إني قد زوّجتك ومهرتك مائة ناقة؛ ليس فيها نَابٌ ولا كَزُوم[٣]، ولا تبيت عندنا عَزَبًا ولا مَحْرُومًا.

ثم أرسل إلى أمّ الجارية: إني قد زوّجت لَقيط بن زُرَارة ابنتي فلانة فاصْنعِيها، واضربي لها ذلك البَلَق[٤]؛ فإنّ لِقيط بن زرارة لا يبيت فينا عَزَبًا.

وجلس لقيط يتحدَّث معهم. فذكروا الغَزْوَ، فقال لقيط: أمّا الغزو فأرْدَاها لِلّقاح، وأهزلُها للجمال، وأما المقام فأسمنُها للجمال، وأحبُّها للنساء. فأعجب ذلك قيسًا، وأمر لقيطًا فذهب إلى البَلَق فجلس فيه، وبعثتْ إليه أمُّ الجارية بمجْمرة وبخور، وقالت للجارية: اذهبي إليه فوالله لئن رَدَّها ما فيه خير؛ فلمّا جاءته الجارية بالمجمرة، بخّر شَعْرَه ولحيته. ثم ردّها عَلَيها، فلما رجعت الجارية إليها خبَّرتْها بما صنع، فقالت: إنه لخليق لِلْخيْر.

فلمّا أمسى لقيظ أُهديت الجاريةُ إليه، فمازحها بكلام اشمأزّت منه، فنام وطرح عليه طرف خميصة[٥]، وباتت قريبًا منه.

---

(١) إبل هجان: بيض كرام.
(٢) سمع به: فضحه وشتمه.
(٣) الناب: الناقة المسنة، والكزوم. ناقة ذهبت أسنانها هرمًا.
(٤) البلق: الفسطاط.
(٥) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

فلما استثقل انسلّت فرجعت إلى أمها، فانتبه لقيطٌ فلم يرَها، فخرج حتى أتى ابنَ خاله قُرَادًا وهو في أسفل الوادي، فقال: ارْحَلْ بَعِيرَك[١]، وإيَّاك أن يُسْمَع رُغاؤها.

فتوجّها إلى المنذر بن ماء السماء، وأصبح قيس ففقد لقيطًا، فسكت ولم يدْر ما الذي ذَهَب به، ومضى لقيط حتى أتى المنذر، فأخبره ما كان من قول أبيه وقوله، فأعطاه مائةً من هَجَائِنِه[٢]، فبعث بها قُرَاد إلى أبيه زرارة، ثم مضى إلى كِسرَى فكساه وأعطاه جوهرًا، ثم عاد إلى قيس بن خالد فجهّز بنته، ولما أرادت الرحيل قال لها: يا بنية، كوني لزوْجك أَمَةً يكنْ لك عبدًا؛ وليكن أكثرُ طِيبك الماءَ فإنك إنما يذهب بك إلى الأعداء، واعلمي أن زوجك فارس مُضر، وأنه يُوشِكُ أن يقتل أو يموت، فلا تخمشي عليه وجهًا ولا تحلقي شعرًا، قالت له: أما والله لقد ربَّيْتني صغيرة، وأقصيتني كبيرة، وزوّدتني عند الفراق شرَّ زَاد!

وارتحل بها لَقيط، فجعلت لا تمرّ بحيٍّ من أحياء العرب إلا قالت: يا لَقيط، أهؤلاء قَومُك؟ فيقول: لا، حتى طلعت على محلة بني عبد الله بن دارم، فرأت القِبابَ والخيل العراب؛ فقالت: يا لقيطُ، أهؤلاء قومك؟ قال: نعم. فأقام أيامًا يُطعم ويَنْحَر، ثم أقامت عنده حتى قُتِل يوم جَبَلَة[٣].

فبعث إليها أبوها أخًا له لِتُحْمَلَ إليه، فلما ركبتْ أقبلت حتى وقفت على نادي بني عبد الله بن دارم، فقالت: يا بني دارم؛ أوصيكم بالغرائب خيرًا، فوالله ما رأيتُ مثلَ لقيط لم تخمش عليه امرأةٌ وَجهًا، ولم تحلق عليه شعرًا، فلولا أني غريبة لخمشت وحلقت. فأثنوا عليها.

مَا وَراءَكَ يَا عِصَام[٤]

لما بلغ الحارثَ بن عمرو ملك كِنْدة جمالُ ابنة عوف بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ، وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة من بني كِنْدة يقال لها عصام، وذات عَقْلٍ ولسان وأَدَب وَبَيَان، وقال لها: اذهبي حتى تَعْلَمي لي علمَ ابنة عَوْف.

---

(١) البعير: الجمل البازل أو الجذع، وقد يكون للأنثى، ورحل البعير: حط عليه الرحل.

(٢) هجائنه، أي هجانه.

(٣) جبلة: هضبة حمراء بين الشريف والشرف، وهما ماءان لبني نمير وبني كلاب، وكان اليوم بين عبس وذبيان ابني بغيض.

(٤) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٩٢، العقد الفريد: ٣ ـ ٢٢٣.

فمضتْ حتى انتهتْ إلى أمها، فأعلمتْها ما قدمت له، فأرسلتْ إلى ابنتها، وقالت: أي بُنيّة؛ هذه خالتك أتتك لتنظرَ إليك، فلا تستري عنها شيئًا أرادت النظر إليه من وَجْهٍ وخلْقٍ، وناطقيها إن استنطَقَتْك.

فدخلَتَ عصامُ إليها، فنظرت إلى ما لم تَرَ عينُها مثله قطُّ بَهْجَةً وحُسنًا وجمَالًا؛ فإذا هي أكملُ الناس عقلًا وأفصحهمْ لسانًا؛ فخرجت من عندها وهي تقول: تركَ الخِداعَ من كَشفَ القناع.

ثم أقبلت إلى الحارث، فقال لها: ما وراءكِ يا عصام؟ قالت: صَرَّحَ المخضُ عن الزُّبد. قال: أخبريني. قالت: أُخْبِرُك صِدْقًا وحقًّا.

رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة، يزينُها شعر حالكٌ كأذناب الخيل المَضْفورَة، إن أرسلتهُ خِلْتَه السلاسل، وإن مَشَطتْهُ قلت عنا قيدُ كرم جَلاها الوَابل، وحاجبين كأنما خُطّا بقلم أو سُوِّدا بحُمَم، قد تقوَّسَا على عين الَظبْيةِ العَبْهَرةِ[١]، التي لم يَرُعْها قانصٌ ولم يَذْعَرْها قسورة[٢]، بينهما أنفٌ كحدّ السيف المصقول، لم يخْنِس[٣] به قِصَر، ولم يَمْضِ به طول، حُفّتْ به وَجْنَتَانِ كالأُرْجُوَان[٤] في بياض مَحْض كالجُمانِ[٥]، شُقّ فيه فمٌ كالخاتَم، لذيذ المبْتَسَم فيه ثنايا غُرّ، ذوات أُشُر[٦]، وأسنان تبدو كالدُّرر، يتقلّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحة وبيان، يحرِّكُه عقلٌ وافر، وجوابٌ حاصر[٧]... إلى أن قالت: فأمّا ما سوى ذلك فتركْتُ أن أسفه. غير أنه أَحْسن ما وصفه واصفٌ بنظم أو نَثر. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها، فزوّجه إياها.

فلما حُمِلتْ إلى زوجها؛ قالت لها أمها، أُمامة بنت الحارث:

أي بُنَيَّة؛ إن الوصيَّةَ لو تُركت لفَضْلِ أدب، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ لغافل؛ ولو أن امرأةً استغنَت عن الزوج لغَنَى أبَويها، وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه، وسكنَّ النّساء خُلِقْن للرجال، ولهنَّ خُلِقَ الرجال.

---

(١) العبهرة: الرقيقة البشرة الناصعة البياض. (٢) القسورة: الرماة من الصيادين.
(٣) خنس: تأخر، والخنس: الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.
(٤) الأرجوان: صبغ أحمر. (٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) أشر الأسنان: التحريز الذي فيها. (٧) انظر بقية الوصف في مراجع القصة.

أي بُنَيّة؛ إنكِ فارَقْتِ الجوّ الذي منه خرجْتِ، وخَلّفْتِ العُشّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لم تَعْرِفِيهِ، وقرينٍ لم تَألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومَليكًا، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لك عبدًا وشيكًا[١].

يا بنيّة احْمِلي عني عَشْرَ خصال تكن لك ذُخْرًا وذكرًا: الصُّحبة بالقناعة، والمُعاشرة بحُسْن السمع والطاعة، والتعهّد لموقع عَيْنِه، والتفقّد لموضع أنفِه؛ فلا تقع عينُه منك على قبيح، ولا يَشَمّ منك إلّا أطيبَ ريح، والكُحْل أحسن الحُسْن، والماءُ أطيبُ الطيبِ المفقود، والتعهّد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه؛ فإنّ حرارةَ الجوع مَلْهَبَة، وتنْغِيص النوم مَغْضبة. والاحتفاظ بِبَيْتِه ومالِه، والإرعاء[٢] على نفسه وحَشَمِه وعياله، فإنّ الاحتفاظ بالماء حسنُ التقدير، والإرعاءَ على العِيَال والحَشم جميلُ حسن التدبير؛ ولا تُفْشِي له سرًّا، ولا تَعْصِي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سرَّه لم تأمني غَدْرَه، وإن عصَيْتِ أمره أوغَرْتِ صدْرَه؛ ثم اتقى مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا، فإنَّ الخَصْلَةَ الأولى من التقصير، والثانيةَ من التكْدير، وكوني أشد ما تكونين له إعْظامًا يكن أشدّ ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقَةً يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنكِ لا تصلين إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤثِري رضَاه على رضَاك، وهَوَاهُ على هواكِ فيما أحببتِ وكرهت: والله يَخيرُ لكِ!

لَا أتزَوَّج إلّا مِن كَرِيم[٣]

كانت امرأةٌ من العرب من بَنَات ملوكِ اليمن ذاتَ جمالٍ وكمال، وحَسَب ومال، فآلت ألّا تزوّجَ نفسها إلا من كريم، ولئن خطبها لئيمٌ لَتَجْدَعنَّ أنفه؛ فتحَامَاها الناسُ حتى انْتَدَب[٤] إليها زيد الخيل، وحاتم بن عبد الله، وأوسُ بن حارثة الطائيّون، فارتحلوا إليها.

فلما دخلوا عليها قالت: مرحبًا بكم، ما كنتُم زُوارًا؛ فما الذي جاءَ بكم؟

(١) الوشيك: السريع. (٢) الإرعاء: الإبقاء.
(٣) الخزانة: ٤ ـ ١٦٠ (طبعة السلفية)، ذيل الأمالي: ١٥٤ (طبعة دار الكتب)، سرح العيون: ٧٥.
(٤) انتدب إليها: أسرع وخف.

قالوا: جِئْنَا زُوّارًا خُطّابًا، قالت: أَكْفاءُ كرام. ثمّ أنْزَلتهم وفرقت بينهم، وأسبغت لهم القِرَى، وزادَتْ فيه.

فلما كان اليوم الثاني بعثت بعضَ جواريها متنكرةً في زِيٍّ سائلة تتعرّضُ لهم؛ فدفع إليها زَيد وأوس شَطْر ما حمل إلى كل واحدٍ منهما. فلما صارت إلى رَحْل حاتم دفع إليها جميعَ ما كان من نَفَقَتِه، وحمل إليها جميع ما حمل إليه.

فلما كان اليوم الثالث دخلوا عليها، فقالت: ليصفْ كلُّ واحد منكم نفسه في شِعْره؛ فابتدر زيد وأنشأ يقول:

هلَّا سألتِ بني ذُبيان: ما حَسَبي ... عند الطِّعان إذا ما احْمَرَّتِ الحدَق![1]
وجاءتِ الخيلُ محمَرًّا بوَادِرها[2] ... بالماء يَسْفَحُ من لبَّاتِها العلَقُ[3]
والجارُ يعلم أنّي لست خاذِلَه ... إن نابَ دَهرٌ لعظْم الجار معترِقُ[4]
هذا الثناءُ، فإن ترضَيّ فراضيةٌ ... أو تسخَطي فإلَى من تُعْطَفُ العُنق!

وقال أوس بن حارثة: إنّك لتعلمين أنّا أكرمُ أحسابًا، وأشهرُ أفعالًا من أن نَصِفَ أنفسنا لكِ؛ أنا الذي يقول فيه الشاعر:

إلى أوس بن حارثةَ بن لأمٍ ... ليَقْضيَ حاجَتِي ولَقَد قضَاهَا
فما وطِىءَ الحصَى مثلُ ابنِ سُعْدَى ... ولا لبِسَ النعالَ ولا احْتَذَاها

وأنا الذي عقَّتْ عقيقته[5]، وأعتقت عن كلِّ شعرةٍ فيها عنه نَسَمة، ثم أنشأ يقول:

فإن تَنْكِحي ماويَّةَ الخير حاتمًا ... فما مثلُه فينا ولا في الأعاجمِ
فتًى لا يزالُ الدهرَ أكبرُ همِّه ... فكاكُ أسيرٍ أو معونةُ غارمِ

---

(١) إذا ما اشتد الحرب.
(٢) البادرة: اللحمة التي بين المنكب والعنق، وهي تحمر من الدم الذي يسيل عليها من فرسانها.
(٣) العلق: الدم.
(٤) اعترقه: أكل ما عليه من اللحم.
(٥) العقيقة: شعر كل مولود من الناس.

وإن تنكحي زيدًا ففارسُ قَوْمه
إذا الحربُ يومًا أقعدتْ كلَّ قائمِ
وإن تنكحيني تَنْكِحي غَيرَ فاجرٍ
ولا جارفٍ جَرْفَ العشيرةِ هادم
ولا متّقٍ يومًا - إذا الحربُ شمّرَتْ -
بأنفسها نَنْسي، كفِعل الأشائمِ[١]
وإن طارقُ الأضياف لاذَ برَحْله
وجدتِ ابنَ سُعْدى للقِرَى غير عَاتِم[٢]
فأيّ فتى أَهْدَى لكِ الله فاقبلي
فإنّا كرامٌ من رُؤُوسٍ أكارمِ

وأنشد حاتم يقول:

أماوِيّ قد طال التَّجَنُّبُ والهجْرُ
وقد عَذَرَتْني[٣] في طِلابِكُم عُذْرُ[٤]
أماويَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ
ويَبْقَى من المال الأحاديثُ والذِّكْرُ
أَمَاويّ إني لا أقُول لسائلٍ
إذا جاء يومًا: حَلَّ في مَالِنا النَزْرُ[٥]
أَماوِيّ إمَّا مَانِع فمُبيِّنٌ
وإما عَطَاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ[٦] الزّجْرُ
أماويَّ ما يُغْني الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ[٧] يومًا وضاقَ بها الصّدْرُ

---

(١) الأشائم: جمع أشأم وهو ضد الأيامن.
(٢) عتم الرجل عن الشيء: كف عنه بعد المضي فيه.
(٣) عذرتني: أي رفعت عني اللوم ومحيت الإساءة وطمستها.
(٤) العذر: جمع عذير، والعذير هو الحال. (٥) النزر: القلة.
(٦) نهنهه: منعه. (٧) الحشرجة: الغرغة عند الموت.

أمــاويَّ إن يُـصْـبِـحْ صَدَايَ[١] بـقَـفْـرَةٍ
مِــن الأرض لا مــاءٌ لَــدَيّ ولا خَــمْــرُ
تـرى أنَّ مـا أنـفـقـتُ لـم يَـكُ ضَـائِري
وأنَّ يَـدِي مـمـا بَـخِـلْتُ بـه صِـفْـرُ
أمــاويّ إنــي رُبَّ وَاحِــد أمّــه
أخـذتُ فـلا قَـتْـلٌ عـلـيـه ولا أَسْـر
وقــد عَــلِمَ الأقــوامُ لــو أنَّ حــاتِـمًـا
أرادَ ثــراءَ الــمــال كــانَ لــه وَفْـرُ
أمــاوِيّ إنَّ الــمــالَ مــالٌ بَــذَلْتُــه
فــأوّلُه شــكــرٌ وآخــرُه ذِكْــرُ
وإنّــيَ لَا آلُو[٢] بــمــالــي صــنــيــعــةً
فــأوّلُه زادٌ وآخــرُه ذُخْــرُ
يُـفَـكُّ بـه الـعَـانِـي[٣] ويُـؤكَـلُ طَـيّـبًـا
ومـا إنْ يـعـرّيـه الـقِـداحُ[٤] ولا الـقَـمْـرُ
ولا أَظْـلِمُ ابـنَ الـعـمِّ إن كـان إخـوتـي
شـهـودًا وقـد أودَى بـإخـوتِـهِ الـدَّهْـرُ
غـنـيـنَـا[٥] زمَـانًـا بـالـتَّـصعلُك والـغِـنَـى
وكـلّا سَـقَـانَـاهُ بـكـأسَـيـهـمـا الـدّهـر
فـمـا زادَنـا بَـأْوًا[٦] عـلـى ذي قـرابـةٍ
غِـنَـانـا، ولا أَزْرَى بـأحـسـابـنـا الـفـقـرُ
ومـا ضَـرّ جـارًا يـا ابْـنَـةَ الـقـوم فـاعْـلَمـي
يُـجـاوِرنـي ألا يـكـون لـه سـتـرُ
بـعـيـنـيّ عـن جـاراتِ قـومِـيَ غَـفْـلَةٌ
وفـي الـسـمـعِ مـنّـي عـن أحـاديـثـهـا وَقْـرُ

(١) الصدى: ما يبقى من الميت في قبره.
(٢) لا آلو: لا أقصر.
(٣) العاني: الأسير.
(٤) القداح: قداح الميسر. القمر: المقامرة.
(٥) غنينا: غني بالمكاو: أقام به.
(٦) البأو: الكبر والفخر.

فقالت: أمّا أنت يا زيد فقد وَترْتَ العرب، وبقاؤك مع الحُرّةِ قليل، وأمّا أنت يا أَوْس فرجل ذو ضَرائر، والدخولُ عليهنّ شَديد؛ وأماأنت يا حاتم فمرضيُّ الأخلاق، محمود الشِّيم، كريم النفس، وقد زوَّجْتُك نفسي!

سبيَّه عُرْوَة بن الوَرد[1]

أصاب عُرْوَةُ بن الوَرْد امرأة من بني كنانةَ، يقال لها سَلْمى، فأَعْتَقَها واتّخذها لنفسه، فمكثتْ عنده بِضْعَ عشرة سنة وولدتْ له أولادًا، وهو لا يشكُّ في أنها أرغبُ الناس فيه، وهي تقول له: لو حَججتَ بي، فأمُرُّ على أهلي وأراهم! فحَجّ بها، فأتَى مكة، ثم أتى المدينة، وكان يُخالِط من أهل يثربَ بني النّضير، فيُقْرِضُونه إن احْتَاج، ويُبايعهم إذا غَنِم.

وكان قومُها يُخالطون بني النَّضِير، فأتَوْهم وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنه خارجٌ بي قبل أن يخرجَ الشهرُ الحرام، فتعالَوْا إليه، وأَخبِرُوه أنكم تستحيُون أن تكونَ امرأة منكم معروفةُ النسب صحيحتُه سبيَّةً، وافْتَدُوني منه، فإنه لا يرَى أني أُفارِقُه، ولا أختارُ عليه أحدًا؛ فأتَوْهُ فسَقَوْه الشراب، فلما ثَمِلَ قالوا له: فادِنا بصاحبتنا؛ فإنَّها وَسِيطَةُ النسبِ فينا؛ معروفةٌ، وإن علينا سُبّةً أن تكونَ سبيّة، فإذا صارتْ إلينا، وأردتَ مُعاودتَها، فاخطُبْها؛ فإننا نزوِّجك؛ فقال لهم: ذاك لكم؛ ولكن لي الشرط فيها أن تخيِّروها، فإن اختارتْني انطلقتْ معي إلى وَلَدِها، وإن اختارتْكم انطلقتُم بها؛ قالوا: ذاك لك. قال: دعُوا ذلك إلى غَدٍ.

فلما كان الغد جاؤوه فامتنَع من فِدَائها، فقالوا له: فادَيْتنا به منذ البارِحة؛ وشَهِدَ بذلك جماعةٌ مِمَّن حضر، فلم يَقْدِر على الامتناع وفاداها، فلما فادَوْهُ خَيَّرُوها فاختارتْ أهلَها؛ ثم أقبلَتْ عليه، فقالت: يا عُرْوَةُ، أما إني أقول فيك - وإن فارقْتُك - الحقَّ: والله ما أعلمُ امرأةً من العرب ألقت سِتْرَها على بَعْلٍ خير منك، وأغضَّ طرفًا، وأقلَّ فُحشًا، وأجودَ يدًا، وَأَحْمَى لِحَقِيقةٍ[2]. وما مَرَّ عليَّ يومٌ منذ كنتُ عندك إلا والموتُ فيه أحبُّ إليّ من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاءُ أن أسمع امرأةً من قومك تقول: قالَتْ أَمَةُ عُرْوَةَ كذا وكذا؛ ووالله لا أنظرُ في وَجْه عَطَفانيّةٍ أبدًا[3]، فارجِع راشدًا إلى وَلَدِكَ وأَحْسِنْ إليهم!

---

(١) الشعر والشعراء: ٢٦، الأغاني: ٣ - ٧٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) الحقيقة: ما يجب على الرجل أن يحميه. (٣) غطفان: هم قوم عروة.

ثم تزوَّجها رجلٌ من بني عمِّها، فقال لها يومًا: يا سلمى؛ أثْنِي عليَّ كما أثنيتِ على عُرْوَة - وقد كان قولُها فيه شُهِر - فقالت له: لا تكلِّفْني ذلك؛ فإنِّي إن قلتُ الحقَّ غَضِبْتَ، ولَا واللاتِ والعَزَّى لا أكذب؛ فقال: عزمْتُ عليكِ لتأتِينِنِي في مجلس قومي فَلَتُثْنِينَّ عليَّ بما تعملين.

وخرج فَجلَسَ في نَدِيّ القوم، وأقبَلتْ فرمَاها القومُ بأبصراهم، فوقفَتْ عليهم وقالت: أنعِمُوا صباحًا، إن هذا عَزَم عليّ أن أُثْنِيَ عليه بما أعلمُ. ثم أقبلتْ عليه فقالت: والله إنّ شُربكَ لَاشْتِفاف[1]، وإنكَ لتنامُ ليلةَ تخاف، وتشبعُ ليلةَ تُضَافُ، وما تُرْضِي الأهْلَ ولا الجانب[2]. ثم انصرَفَتْ. فَلَامَهُ قومُه، وقالوا: ما كان أغناكَ عن هذا القولِ منها.

لَو كَان النسَاء كَمِثل هَذِي[3]

قال الحارث بن عَوْف يومًا لخارجة بن سِنان المُرّيّ: أَتُراني أخطبُ إلى أَحَدٍ فيردَّني؟ فقال له: نعم! قال: ومَنْ ذاك؟ قال: أَوْسُ بن حارِثة الطائيّ؛ فقال الحارث لغلامه: ارْحلْ بنا. ففعل، وركبا حتى أَتَيا أَوْسَ بن حارثة في بلاده، فوجداه في فِنَاء منزله، فلما رأى الحارثَ بنَ عَوْف قال: مَرْحبًا بك يا حارث، قال: وَبِكَ، قال: ما جاء بك؟ قال: جئتُك خاطبًا، قال: لستَ هناك!

فانصرف ولم يكلّمْه، ودخل أَوْس على امرأته مُغْضَبًا - وكانت من عبس - فقالت: مَنْ رجلٌ واقف عليكَ فلم يُطل، ولم تكلِّمْه؟ قال: ذاك سيّدُ العربِ الحارث بن عوف، قالت: فما لَكَ لم تستَنْزِلْه؟ قال: إنه اسْتحْمَق. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطبًا. قالت: أفتريدُ أن تزوِّجَ بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوِّجْ سيدَ العرب فمَنْ! قال: قد كان ذلك. قالت: فتَدَارَك ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تَلْحَقُه فتردُّه، قال: وكيف وقد فَرَط مني ما فَرط إليه! قالت: تقولُ له لقيتَني مُغْضَبًا بأمْرٍ لم تُقدِّم فيه قولًا، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت. عُدْ ولكَ عندي كلُّ ما أحببت، فإنَّه سَيَفْعلُ. فركب في أثرهما.

قال خارِجَة بن سنان: فوالله إني لأسيرُ مع الحارث إذ حانَتْ منِّي التفاتةٌ فرأيت أوسًا، فأقبلتُ على الحارث - وما يكلّمني غمًّا - فقلت له: هذا أَوْسُ بن

---

(١) الاشتفاف: شرب كل ما في الإناء. (٢) الجانب: الغريب، والمراد به الضيف.
(٣) الأغاني: ١٠ - ٢٩٤ (طبعة دار الكتب)، المستطرف: ٢ - ٢٢٢.

حارثة في أثرنا، قال: وما نصنعُ به؟ امضِ. فلمّا رآنا لا نقفُ عليه صاح: يا حارث! اربَعْ[١] عليَّ ساعةً، فوقفنا له، فكلّمتهُ بذلك الكلام، فرجع مسرورًا.

ودخل أوس منزلَه، وقال لزوجتِه: ادْعِي لي فلانة ـ لأكْبَرِ بناتِه ـ فأتَتْه، فقال: يا بُنيّة، هذا الحارثُ بن عوف سيدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالبًا خاطبًا، وقد أردتُ أن أزوّجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تَفْعَل، قال: ولِمَ؟ قالت: لأني امْرَأة، في وجهي رَدَّةٌ[٢]، وفي خُلُقي بَعْضُ العُهْدة[٣]، ولست بابنةِ عمّه فيَرْعَى رَحِمي، وليس بجارك في البلد فيستَحِي منك، ولا آمَنُ أن يَرَى مِنّي ما يَكْرَه فيطلّقنِي، فيَكونَ عليّ في ذلك مَا فِيه.

قال: قومي، بارك الله عليك، ادعِي لي فلانة ـ لابنته الوُسْطَى ـ فدَعَتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابتْه بمثل جوابها، وقالت: إني خَرْقَاء[٤]، وليست بيدي صناعة، ولا آمَنُ أن يَرَى مني ما يكره، فيطلّقني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم، وليس بابنِ عمِّي فيرعى حقِّي، ولا جارك في بلدك فيستَحْييك[٥]، قال: قومي، باركَ الله عليك، ادعَى لي بُهَيْسَة ـ صُغْرَى بناتِه ـ فأتى بها، فقال لها كما قال لهما، فقالت: أنتَ وذاك فقال لها: قد عَرَضْتُ ذلك على أختيك فأبَتَاه، فقالت ـ ولم يذكر لها مقالتَيْهما ـ: لكني والله الجميلةُ وجهًا، الصَّنَاع يَدًا، الرفيعَة خلقًا، الحسيبةُ أبًا، فإن طلّقني فلا أخْلَفَ اللهُ عليه بخير! فقال: بارك الله عليك. ثم خرج إلى الحارث فقال: زوجتُك يا حارِث بُهَيسةَ بنت أوْس؛ قال: قبلت، فأمر أُمّها أن تُهيئُها؛ وتُصْلح من شأنها؛ ثم أمر ببيتٍ فضُرب له؛ وأنزله إياه؛ فلما هُيئت بُعث بها إليه.

قال خارِجة بن سنان: فلما أدخلتْ إليه لَبِثَ هُنيهة ثم خرج إليّ، فقلت: أفَرَغْتَ من شَأْنِك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لـمَّا دخلت إليها قالت: مَهْ! أعندَ أبي وإخوتي؟ هذا والله مَا لَا يكون. قال خارجة: ثم أمر بالرِّحلة؛ فارتحلنا ورَحلْنا بها معنا؛ فَسِرْنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدَّم، فتقدمت، وعَدل بها عن الطريق؛ فما لبث أَنْ لَحِق بي؛ فقُلت: أفرغت؟ قال: لا

---

(١) ربع عليه: وقف له، أو مال إليه.
(٢) الردة: شيء من قبح.
(٣) العهدة: العيب.
(٤) خرقاء: امرأة غير صناع.
(٥) فيستحييك: يستحي منك.

والله، قلتُ: ولِمَ؟ قال: قالت لي: أكما يُفعل بالأمة الجَليبَة[١] أو السَّبِية الأخِيذَة[٢]! لا والله، حتى تَنْحر الجزُر[٣] وتَذْبح الغنم، وتدعوَ العرب، وتَعْمَل ما يُعْمَل لمثلي! قلت: والله إني لأرَى هِمّةً وعَقْلًا، وأرجو أن تكونَ المرأةُ مُنجِبةً إن شاء الله.

قال خارجة: فرحلْنا حتى جئنا بلادنا، فأحْضَرَ الإبلَ والغنم، ثم دخل عليها، وخرج إليّ، فقلت: أفرغت؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: دخلتُ عليها، وقلتُ لها: قد أحضَرْنا من المال ما قد تَرَيْن، فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشَّرف ما لا أراه فيك! قلت: وكيف؟ قالت: أتَفرغُ للنساء ـ والعربُ تَقْتُل بعضها بعضًا[٤]! قلت: فيكونُ ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصْلِحْ بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتكَ ما تريد، فقلت: والله إني لأرَى هِمَّةً وعقلًا، ولقد قالت قولًا...

قال خارجة: ثم قال الحارث: اخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطَلَحُوا على أن يحتَسبوا القتلى، فيُؤخَذ الفضلُ مِمن هو عليه، فحملْنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر! فمدح بذلك وقال فيه زهير قصيدته:

أمِنْ أُمِّ أوفَى دِمنَة لم تكلَّمِ

بنت حَاتِم الطّائي[٥]

قال عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام: يا سبحان الله! ما أزهَد كثيرًا من الناس في الخير! عجبتُ لرجل يجيئُه أخوه في حاجةٍ فلا يرى نفسَه للخير أهلًا! فلو كنّا لا نرجو جَنة ولا نخافُ نارًا، ولا ننتظر ثوابًا، ولا نَخْشى عقابًا لكان ينبغي لنا أن نطلبَ مكارمَ الأخلاق؛ فإنها تدل على سبيل النجاة.

فقام إليه رجل فقال: فِدَاكَ أبي وأمي يا أمير المؤمنين! أسمعتَه من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خيرٌ منه؛ لما أُتِيْنا بسبَايَا طيّىء كانت في النساء جارية

---

(١) الجليبة: المجلوبة. (٢) الأخيذة: المأخوذة.

(٣) جمع جزور؛ وهو البعير.

(٤) كان ذلك في أيام حرب عبس وذبيان، وهي المعروفة بحرب داحس والغبراء.

(٥) الأغاني: ١٦ ـ ٩٠٣ (طبعة الساسي)، سرح العيون: ٧٣.

حَمَّاء[١]، حوْراءُ العينين[٢] لَعْسَاء[٣]، لَمياء[٤] عَيطَاء[٥]، شماء الأنف، مُعْتدِلةُ القامة.

فلما رأيتها أُعْجبت بها؛ فقلت: لأطلبنَّها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها من فَيْئي[٦]، فلما تكلَّمَتْ أُنسيتُ جمالَها لما سمعتُ من فصاحتها، قالت: يا محمد، هلك الوَالد، وغاب الوافد؛ فإن رأيتَ أن تخلِّيَ عني، فلا تُشْمِت بي أحياءَ العرب! فإني بنتُ سيدِ قومي؛ كان أبي يَفكُّ العَاني، ويحمِي الذِّمَار؛ ويَقْري الضيف، ويُشْبع الجائع، ويفرِّجُ عن المكروب، ويُطعمُ الطعام، ويُفشي السلام، ولم يَردّ طالبَ حاجة قط؛ أنا بنتُ حاتم طيء. فقال لها رسول الله ﷺ: يا جارية؛ هذه صفاتُ المؤمن، ولو كان أبوك إسلاميًا لترحَّمْنا عليه، خَلُّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق!

أيّتهمَا أعظمُ العَرب مُصيبَةً؟[٧]

لما كانت وَقْعَةُ بدر قُتل فيها عُتْبَة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، والوليد بن عُتْبة، فأقبلَتْ هندُ بنتُ عتبة تَرْثِيهم، وبلغها تَسْوِيمُ[٨] الخنسَاء هَوْدَجها في الموسم، ومعاظَمتُها العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشَّريد وأخويها صَخْرٍ ومعاوية، وأنها جعلتْ تَشْهدُ الموسم وتبكيهم، وقد سوَّمت هودَجها براية، وأنها تقول: أنا أعظمُ العربِ مصيبةً؛ وإن العرب قد عرفَتْ لها بعض ذلك.

فلما أُصيبتْ هند بما أصيبت به وبلَغها ذلك، قالت: أنا أعظَمُ من الخنساء مصيبةً، وأمرتْ بهوْدجها فسُوِّم برايةٍ، وشهدَت الموسمَ بعُكَاظ ـ وكانت سوقًا يجتمع فيها العرب ـ فقالت: اقرِنوا جملي بجمل الخنساء، ففعلوا؛ فلما أن دَنَتْ منها قالت لها الخنساء: مَنْ أنت يا أخيَّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنكِ تُعَاظمين العرب بمصيبتك، فَبِمَ تعاظمينهم؟ فقالت

(١) حماء: سوداء.
(٢) الحور: سواد العين كلها؛ مثل الظباء، ولا يكون في بني آدم، بل يستعار لها.
(٣) جارية لعساء: في شفتها أدنى سواد، مشربة بحمرة.
(٤) اللمى: سمرة في الأنف.
(٥) امرأة عيطاء: طويلة العنق.
(٦) الفيء: الغنيمة.
(٧) الأغاني: ٤ ـ ٢١٠ (طبعة دار الكتب)، معاهد التنصيص: ١ ـ ١١٧.
(٨) سوم الشيء: جعل له سومة وعلامة ليُعرَف ويتميز.

الخنساء: بعمرو بن الشَّرِيد، وصَخْر، ومعاوية ابني عمرو. وبمَ تعاظمينهم أنتِ؟ قالت: بأبِي عُتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة بنِ ربيعة، وأخي الوليد؛ قالت الخنساء: أوَ سواءٌ عنك؟ ثم أنشأت تقول:

أبكِّي أبِي عَمْرًا بعينٍ غزيرة ... قليلٍ إذا نام الْخَلِيُّ هُجُودُها
وصِنْوَيَّ، لا أَنْسَى معاويةَ الذي ... له من سَرَاةِ الحرَّتَيْنِ[1] وُفُودُها
وصَخْرًا، وَمَنْ ذَا مِثلُ صخرٍ إذا غَدَا ... بساهمةِ الآطال قُبًّا[2] يَقُودُها!
فذلكِ يا هند الرزيّةُ فاعلمي ... ونيرانُ حَرْبٍ حين شبَّ وقودها

فقالت هند تُجيبُها:

أُبكِّي عَمِيدَ الأبْطَحَيْنِ[3] كليهما ... وحَامِيَهَا من كلِّ باغ يُرِيدُها
أبي عتبةَ الخيرات وَيْحَكِ فاعلمي ... وشيبةُ والحامي الذِّمار وليدُها
أولئك آل المجدِ من آل غالب ... وفي العزّ منها حين يُنْمِي عديدُها[4]

ثم قالت:

مَنْ حَسَّ لي الأَخَوَيْن كالـ ... ـغُصْنَين أو من رَاهُمَا[5]!
قَرْمان لا يَتَظَالما ... ن ولا يُرَامُ حِمَاهما
ونِلِي على الأَخَوَيْن والقـ ... ـبْرِ الذي وَارَاهما
لا مثل كهلي في الكهو ... ل ولا فتًى كفتاهُما
أَسَدان لا يتذلّلا ... ن ولا يرامُ حِماهُما
رُمْحان خَطّيان في ... كبد السماء سناهما
ما خلّفا إذ وَدَّعا ... في سُودَدٍ شَرْوَاهما[6]
سادا بغيرِ تكلُّفِ ... عفوًا يفيضُ نَدَاهُما

---

(١) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود. والمراد حرة بني سليم، وحرة بني هلال بالحجاز. أي هو مقصد الأشراف تأتيه وفودها فيما يلي بها.
(٢) الساهمة: الدقيقة، والآطال: جمع إطل وهو الخاصرة، والقب: جمع أقب، وهي الفرس الدقيقة الخصر، الضامرة البطن.
(٣) الأبطحان تريد بطحاء مكة وسهل تهامة.
(٤) عديدها: جموعها.
(٥) راهما: أصله رآهما.
(٦) شرواهما: مثلهما.

شجَاعة صَفيّة بنت عَبد المطلب[١]

قالت صفيّةُ بنت عبد المطلب: كان حسانُ بن ثابت معنا في حصن فَارع يوم الخَنْدَق، ومعنا النساء والصِّبْيان، فمرّ بنا رجلٌ من يهود، فجعل يطيف بالحِصْن؛ فقلت: يا حسان؛ إن هذا اليهوديّ ـ كما ترى ـ يُطيف بالحصن، وأنا والله لا آمنُ أن يَدُلّ علينا مَن وَرَاءَنا من يهود، ورسول الله قد شُغل عنا؛ فانزْل إليه واقْتُلْه. فقال: يغفرُ الله لكِ يا ابنةَ عبد المطلب، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب شجاعة!

قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئًا، اعتَجَرْتُ، ثم أخذتُ عمودًا، ونزلتُ إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته؛ فلما فرغتُ منه رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان؛ انزلْ إليه، فاسْلُبْه فإنه لم يمنعني من سلبِه إلا أنه رجل! فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب!

الخَنسَاء عِند عَائِشَة[٢]

دخلت الخنساء على عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وعليها صِدار[٣] من شَعر، قد استَشْعرته إلى جلدها؛ فقالت لها: ما هذا يا خنساءَ؟ فوالله لقد تُوُفِّيَ رسول الله ـ ﷺ ـ فما لبستُه.

قالت: إنَّ له معنًى دعاني إلى لباسه؛ وذلك أن أبي زوّجني سيد قومه، وكان رجلًا مِتْلَافًا، فأَسْرَفَ في ماله، حتى أنفَدَه، ثم رجع إلى مالي، فأَنْفَده أيضًا.

ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صَخْر، فأتيناه، فقسم ماله شَطْرين[٤]، ثم خيّرنا في أحسن الشطرين، فرجَعْنا من عنده على حال حسنة؛ فلم يزل زوجي حتى أذهب جميعه.

ثم التفت إليّ، فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فرحلنا إليه فقسَّم ماله شطرين، وخيَّرنا في أفضل الشطرين.

---

(١) الغرر: ٢٢٥، معاهد التنصيص ١ ـ ٧٤ الأغاني ٤ ـ ١٦٥ (طبعة دار الكتب).
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢٢، سرح العيون: ٢٩٩.
(٣) الصدار: ثوب رأسه كالمقنعة. وأسفله يغشى الصدر والمنكبين، وكانت المرأة إذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صدارًا من صوف.
(٤) شطر الشيء: نصفه.

فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرَهم مالك حتى تخيّرهم بين الشطرين! فقال:

والله لا أمنحُها شِرارها فلو هلَكْتُ قدّدتْ[١] خِمَارهَا
واتّخذت من شعرٍ صِدَارها

فآليتُ ألّا يفارق الصِّدَارُ جسدي ما بقيت!

إلـهُ عُمر يعْلم[٢]

نهى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته عن مَذْق[٣] اللّبنِ بالماء، فخرج ذات ليلة في حَواشي المدينة، فإذا بامرأةٍ تقولُ لابنةٍ لها: ألا تَمْذُقين لبنك فقد أصبَحْت؟ فقالت الجارية: كيف أَمْذُق وقد نهى أميرُ المؤمنين عن المَذق!

فقالت: قد مذَق الناسُ فامذُقي فما يدرِي أميرُ المؤمنين؟ فقالت: إن كان عمرُ لا يعلم فإله عمرَ يعلم، ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتُها من عمر. فلما أصبح دعا عاصمًا ابنه، فقالت: يا بنيَ؛ اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية ـ وَوَصَفَها له ـ فذهب عاصم، فإذا جاريةٌ من بني هلال. فقال عمر: اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتيَ بفارس يَسُودُ العرب، فتزوّجها عاصم بن عمر، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوجها عبد العزيز بن مروان؛ فأتت بعمر بن عبد العزيز!

كَذَلِكَ الدّهْر![٤]

لما قَدِمَ سعد بن أبي وقّاص القادسيّة، أتَتْه حُرَقَة بنت النعمان بن المنذر في جَوَارٍ كلُّهن في مثل زِيِّها، يطلبْنَ صِلَتَه.

فلما وقَفْنَ بين يديه قال: أيّتكنّ حُرَقة؟ قلن: هذه. قال لها: أنت حُرَقة؟ قالت: نعم، فمَا تكرَارك في السؤال؟ إن الدنيا دارُ زوال، لا تدومُ على حال؛ إنا

(١) قددت: قدت.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٧، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٣٨. مجمع الأمثال ٢ ـ ١٣٨، ابن أبي الحديد: ٣: ١١٠.
(٣) المذق: الخلط.
(٤) خزانة الأدب: ٣ ـ ١٨١ (المطبعة الأميرية).

كنَّا ملوكَ هذا المِصْر، يُجبَى إلينا خَرَاجُه، ويُطِيعنا أهلُه مَدَى الإمْرَةِ وزمان الدولة، فلما أدْبر الأمر وانقضى، صاح بنا صائح الدهر فصدع عَصَانا، وشتَّت مَلأَنا. وكذلك الدهر يا سعد؛ إنه ليس يأتي قومًا بمَسرَّةٍ إلَّا ويُعقِبُهم حسرة. ثم أنشأت تقول:

بينا نَسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نَتَنَصَّفُ
فأُفٍّ لدُنْيَا لا يدومُ نعيمُها تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ!

فقال سعد: قاتل الله عديَّ بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إنَّ الدهر صولةً فاحْذَرَنْها لا تبيتَنَّ قد أمنْتَ الدهورا
قد يبيتُ الفتى مُعَافًى فَيَرْدَى ولقد كان آمنًا مسرورا

ودخل عمرو بن معديكرب ـ وكان من قُصَّاد النعمان ـ وهي بين يدي سعد، فلما نظر إليها قال: أنت حُرَقه؟ قالت: نعم. قال: فما دَهَمَك؟ أين تتابُع نِعَمِك، وسطوات نِقَمِك؟ فقالت: يا عَمْرو، إن للدهر عَثَراتٍ تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفِضهُم بعد رِفعةً، وتُفْرِدُهُمْ بعد مَنعةٍ، وتُذلّهم بعد عِزّ. إن هذا الأمر كنا ننتظره فلما حلّ لم نُنْكِره.

فلما انصرفت من لَدُنْ سعد لقيها نساء القادسيّة فقلن لها: ما فعل بك الأمير؟ قالت: أَكْرَم وجهي، وإنما يُكرِم الكريمَ الكريمُ.

لَا تَذهَبِي بنَفسِكِ عَن الحَقّ(١)

قال عليّ بن أبي رافع: كنتُ على بيتِ مالِ عليّ بن أبي طالب وكاتبه، فكان في بيت ماله عِقْدُ لؤلؤ كان أصابه يومَ البصرة، فأرسلَتْ إليّ بنتُ عليّ بن أبي طالب؛ فقالت لي: إنَّه قد بلغني أن في بيت مالِ أمير المؤمنين عِقْدَ لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحبُّ أَن تُعيرَنيه، أتجمّلُ به في يوم الأضحى.

فأرسلتُ إليها: عاريةٌ مضمونة، مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنتَ أمير المؤمنين.
فقالت: نعم! عارية مردودة بعد ثلاثة أيام.

(١) مجاني الأدب: ٢ ـ ١٧٣.

فدفعتُه إليها وإذا أميرُ المؤمنين رآه عليها فعرفَه؛ فقال لها: من أين جاء إليك هذا العِقْد؟ فقالت: استَعَرْتُهُ من أين أبي رافع خازنِ بيتِ مال أمير المؤمنين؛ لِأَتَزَيَّنَ به في العيد، ثم أرُدَّه.

فبعث إليّ أميرُ المسلمين فجئته؛ فقال لي: أتَخُون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخونَ المسلمين! فقال: كيف أعَرْتَ بنت أميرِ المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم! فقلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إنها بنتك؛ وسألَتني أن أُعِيرَها العِقْدَ تتزين به فأعَرْتُها إياه عاريةً مضمونة مردودة على أن تردَّه سالمًا إلى موضعه؛ فقال: رُدَّه من يومك، وإياك أن تعود إلى مثله؛ فتنالك عقوبتي. ثم قال: ويلٌ لابنتي! لو كانت أخذت العقد على غير عاريَةٍ مردودة مضمونة لكانت إذن أولَ هاشمية قُطِعَت يَدُها في سرقة.

فبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أميرَ المؤمنينَ؛ أنا ابنتك وبَضْعَةٌ[1] منك، فمن أحقُّ بلُبْسِه مني! فقال لها: يا بنت أبي طالب؛ لا تذهبي بنفسك عن الحق! أكلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيَّنَّ في مثل هذا العيد بمثل هذا!

فقبضته منها ورددتُه إلى موضعه.

المغيرَة يخطُب بنت النعمَان[2]

سار المغيرة بن شعبة ـ حينما كان واليًا على الكوفة ـ إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر، وهي فيه عمياءُ مُتَرهِّبة، فاستأذَنَ عليها، فقيل لها: أميرُ هذه المدَرَةِ بالباب! فقالت: قولُوا له: أمِنْ وَلَدِ جَبَلَة بن الأيهم أنت؟ قال: لا. قالت: أفَمِنْ ولد المُنْذِر بن السماء؟ قال: لا. قالت: فمن أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي! قالت: فما حاجتك؟ قال: جئتُكِ خاطبًا! قالت: لو كنتَ جئتنِي لجمالٍ أو لِمالٍ لأطْلَبْتُك، ولكنك أردتَ أن تتشرّف بي في محافل العرب، فتقول: تزوَّجْتُ ابنةَ النُّعمان بن المنذر، وإلا فأيُّ خير في اجتماع أعور وعمياء؟

فبعث إليها: كيف كان أمرُكم؟ فقالت: سأختصِرُ لك الجوابَ: أمسَيْنَا مساء وليس في الأرض عَرَبيٌّ إلا وهو يرغب إلينا وَيَرْهَبُنا، ثم أصبحنا وليس في الأرض عربي إلا ونحن نرغبُ إليه ونرهبُه.

---

(١) بضعة، أي قطعة.

(٢) الكامل للمبرد: ١ ـ ١٧٧، المسعودي: ٢ ـ ٦٨.

وَلَقد أبيت على الطَّوَى[١]

قال تميم بن عديّ اليَرْبُوعيّ:

كنتُ مع عبد الله بن العبَّاس عند مُنصرَفه من دمشق، فسألته في بعض الأيام وقلتُ له: بماذا يتمُّ عقلُ الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروفَ مبتدِئًا به، وجادَ بما هو محتاجٌ إليه، وتجاوز عن الزَّلة، وجازى على المكْرُمة، وتجنَّبَ مواطنَ الاعتذار؛ فقد تمَّ عقْله. فحفظتُ ذلك منه، وألصقْته بقلبي.

ثم بعد أيام نزلْنا منزلًا، فطلبْنا طعامًا فلم نجده، ولا قَدَرنا عليه ـ فإنَّ زيادًا كان قد نزل بذلك المنزل قَبْلنَا بأيام قليلة في جَمْعٍ كثير؛ فأتَوْا على ما كان فيه من الطعام ـ فقال عبدُ الله لوكيله: اخرُج إلى هذه البَرِّيةِ، فلعلّك تجِدُ بها راعيًا معه طعام، فمضى الوكيلُ ومعه غِلْمان؛ فأطالوا التوقّف، فلما كادوا يرْجِعونَ لَاحَ لهم خِبَاء، فأمُّوه؛ فوجدوا فيه عجوزًا، فقالوا لها: هل عندك طعامٌ نبتاعه منك؟ فقالت: أمّا طعامُ بيع فلا؛ ولكن عندي أَكْلة لي، وبأولادي إليها أمسُّ حاجة، قالوا: وأين أولادُك؟ قالت: في رَعْيِهم، وهذا وقتُ عَوْدَتهم. قالوا: فما أعددتِ لهم؟ قالت: خُبزة[٢] تحت مَلَّتِها[٣] أنتظرُ بها أنْ يجيئوا، قالوا لها: فجودي لنا بنصفها، قالت: لا؛ ولكن بها كلِّها. قالوا: ولم مَنْعتِ النصف وجُدتِ بها كلّها، ولا خُبزَ عندك غيرها؟ قالت: إنَّ إعطَاء الشَّطر[٤] من خُبزَةٍ نقيصة؛ فأنا أمنع ما ينقصني، وأجودُ بما يرفعني، فأخذوا الخبْزَة لفَرْطِ حاجتهم إليها. وانصرفوا؛ ولم تسأل: مَنْ هم؟ ولا من أين جاؤوا!

فلما أتَوْا عبدَ الله، وأخبروه خبرَ العجوز عجِب من ذلك، وقال: ارجعوا إليها فاحملوها في دَعَةٍ، وأحضروها؛ فرجعوا إليها، وقالوا لها: إن صاحبنا أحبَّ أن يَرَاكِ. قالت: ومَنْ صاحبُكم؟ قالوا: عبد الله بن العباس. قالت: ما أعرف هذا الاسم. قالوا: العباس بن عبد المطلب، وهو عمُّ النبيّ. قالت: والله هذا الشرف العالي وذِرْوته الرفيعة، وماذا يريد منّي؟ قالوا: يريدُ أن يكافئَك على ما كان منك. قالت: لقد أفسَدَ الهاشميّ ما أثّل له ابنُ عمّه عليه السلام! والله لو كان ما فعلتُ معروفًا ما أخذتُ عليه ثَوابًا؛ وإنّما هو شيء يجبُ على كلّ إنسان أن يَفْعله.

---

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٣.
(٢) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج.
(٣) الملة: الرماد الحار والجمر.
(٤) شطر الشيء: نصفه.

قالوا: فإنّه يحبُّ أن يراكِ ويسمعَ كلامَك. قالت: أصيرُ إليه؛ لأنّي أحبُّ أن أرى رجلًا من جَناح النَّبيّ وعضوًا من أعضائه.

فلمّا سارت إليه رحَّب بها وأدنى مَجلسَها، وقال: مِمّن أنْتِ! قالت: من كلْب. قال: كيف حالُكِ؟ قالت: لم يبْقَ من الدنيا ما يفرِح إلا وقد بلغتُه، وإنّي الآن أعيشُ بالقنَاعة، وأصونُ القرابة، وأنا أتوقَّع مفارقةَ الدنيا صباحًا ومساءً. قال: أخبريني، ما الذي أعددتِ لأولادكِ عند انصرافهم بعد أخذنا الخُبزة؟ قالت: أعددتُ لهم قولي العربيّ:

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظلُّهُ حتّى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فأعجبه قولها؛ وقال لبعض غلمانه: انْطلق إلى خِبَائها، فإذا أقبل بنوها، فجيءْ بهم. فقالت للغلام: انطلق، فكن بفنَاء البيت، فإنّهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدَهم دائم النظر نحو الأرض، عليه شِعار الوَقار، فإذا تكلّم أفْصح، وإذا طُلب أنجح. والآخر حدِيد النَّظر، كثير الحذَر، إذا وَعَد فعل، وإن ظُلِمَ قَتل. والآخر كأنه شُعلة نار وكأنه يطْلب بثَار، فذاك الموتُ المائت والداءُ الكابت، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم، فقُلْ لهم عنّي: لا تجلسوا حتى تأتوني.

فانطلق الغلام، فأخبرهم الخبر، فما بَعُدَ أمدُه حتى جاؤوا، فأدناهم عبد الله وقال: إني لم أبعثْ إليكم وإلى والدتكم إلا لأصْلح من أمركم، وأصنع ما يجبُ لكم؛ فقالوا: إن هذا لا يكونُ إلا عن مسألة أو مكافأة فعلٍ جميل تقَدَّم، ولم يصدر منا واحدةٌ منهما؛ فإن كنت أردت التكرُّم مبتدئًا فمعروفك مشكور، وبرُّك مقبول مبرور. فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعَشرٍ من النوق؛ فقالت لهم العجوز: ليقلْ كل واحد منكم بيتًا من قوله:

فقال الأكبر:

شهدتُ عليكَ بحُسْنِ المقالِ وصدقِ الفعَال وطيبِ الخبرْ

وقال الأوسط:

تبرّعتَ بالبَذْل قبل السُّؤالِ فَعَالَ كريمٍ عظيمِ الخَطَرْ

وقال الأصغر:

وحقّ لمن كان ذا فعلُه أن يَسْتَرِقَّ رقابَ البَشَرْ

وقالت العجوز:

فَـعَـمَّـرَكَ الله مـن مـاجـدٍ … ووُقّيت - ما عشتَ شرَّ القدرْ

ثم ودَّعوه وانصرفوا.

قال تميم اليَرْبُوعيّ: فالتفت إلي وقال لي: يا تميم؛ وودت لو وَجَدْتُ مَزيدًا في ابْتَداء المعروف إلى هذه المرأة وبنيها، وجعل يتأوّه من تقصيره عن مراده في ذلك. فقلت له: لقد أحسنتَ وَأَرْجَحْتَ وقد شهد فعلُك بما سبقَ من قولك، فأَنْتَ أتمُ الناسِ عقلًا، وأكملُهم مُرُوءةً!

أبو الأسود الدُّؤلي وزَوجه[١]

قال أبو محمد القُشَيْرِيّ:

كان أبو الأسود الدُّؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سُفيان، وأقربِهم مجلِسًا، وكان لا ينطِقُ إلا بعقْل، ولا يتكلّمُ إلا بَعْدَ فهْم.

فبينما هو ذاتَ يوم جالسٌ، وعنده وجوهُ قريش وأشرافُ العرب، إذ أقبلتْ امرأة أبي الأسود حتى حاذتْ معاوية وقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته؛ إنَّ الله جعلك خليفةً في البلاد، ورَقيبًا على العباد؛ يُسْتَسْقَى بك المَطَرُ، ويُسْتَنْبَتُ بك الشَّجَر، وتُؤلَّفُ بك الأهْواء، ويأمَنُ بك الخائف، وَيُرْدَع بك الجَانِفُ[٢]، فأنت الخليفة المُصْطَفى، والإمامُ المُرْتضى، فأسألُ الله لك النّعمة في غير تغيير، والعافيةَ من غير تغْذِير[٣]. قد ألجأني إليك يا أميرَ المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المَنْهَجُ، وتفاقَم عليّ منه المخْرَج، لأمرٍ كرهتُ عارَه، لمّا خشيتُ إظهارَه؛ فليُنْصِفْنِي أميرُ المؤمنين من الخَصْم، فإني أعوذُ بعَقْوته[٤] من العارِ الوَبِيلِ، والأمر الجليل؛ الذي يشتدُّ على الحرائر ذات البعول الأجائر[٥].

فقال لها معاوية: ومَنْ بعلُك هذا الذي تَصِفِين من أمره المنكر؛ ومن فِعْلِه المشهَّر؟ فقالت: هو أبو الأسود الدُّؤليّ.

---

(١) بلاغات: النساء: ٥٣.

(٢) الجانف: المائل.

(٣) تعذير: نقص.

(٤) العقوة في الأصل: ما حول الدار.

(٥) البعول: جمع بعل، وهو الزوج، والأجائر: جمع أجور؛ تفضيل من جار.

فالتفت إليه وقال: يا أبا الأسود؛ ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هي تقولُ من الحق بعضًا، ولن يستطيعَ أحدٌ عليها نَقْضًا، أما ما ذكرتْ من طَلَاقها فهو حقّ؛ وأنا مُخْبرٌ عنه أميرَ المؤمنين بالصِّدْق؛ والله يا أميرَ المؤمنين ما طلَّقْتُها عن رِيبَةٍ ظهرتْ، ولا لأيِّ هفوةٍ حضرتْ؛ ولكِن كرهت شمائلَها؛ فقطعتُ عني حَبائلَها.

فقال معاوية: وأيّ شمائلها يا أبا الأسود كَرهْتَ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّك مهَيِّجُها عليَّ بجواب عَتِيدٍ[1] ولسانٍ شديد.

فقال معاوية: لا بدَّ لك من محاورتها، فارْدُدْ عليها قولَها عند مراجعتها. فقال أبو الأسود: يا أميرَ المؤمنين؛ إنها كثيرةُ الصَّخَب، دائمة الذَّرَب[2]، مهينةٌ للأهل، مُؤذية للبَعْل، مُسِيئةٌ إلى الجار، مُظهِرَة للعار، إنْ رأت خيرًا كتمتْه، وإن رأَتْ شرًّا أذاعته.

فقالت: والله لولا مكانُ أميرِ المؤمنين، وحضورُ مَن حضره من المسلمين، لردَدْتُ عيك بَوادِرَ كلامِك، بنوافذَ أَقْرَعُ بها كَلّ[3] سِهَامِك؛ وإنْ كان لا يجملُ بالمرأة الحرَّة أن تَشْتمَ بَعْلًا، ولا أن تُظهر لأحد جَهلًا.

فقال معاوية: عزَمْتُ عليكِ لما أَجَبْتِهِ. فقالت: يا أميرَ المؤمنين ما علمتُه إلا سَؤُولًا جَهُولًا، مُلِحًّا بخيلًا[4]، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذُودَ غَائل[5]، ليثٌ حين يَأْمَن، وثعلب حين يخاف، شَحِيح حين يُضَاف، إذا ذُكِرَ الجود انْقَمَع؛ لما يعرف من قِصَرِ رِشَائه[6]، ولؤم آبائه، ضَيْفُه جائع، وجارُه ضائع؛ لا يحفَظُ جارًا؛ ولا يَحْمي ذِمَارًا، ولا يُدْرِكُ ثارًا، أكرمُ الناس عليه مَنْ أهانه، وأهونُهم عليه مَن أكرمه.

فقال معاوية: سبحانَ اللهِ لما تأتي به هذه المرأة من السَّجْع! فقال أبو الأسود: أصلح الله أميرَ المؤمنين؛ إنها مطلَّقة، ومَنْ أكثر كلامًا من مُطلَّقة! ثم قال لها معاوية: إذا كان رَوَاحًا[7] فتعالى أَفصل بينكِ وبينه بالقضاء.

---

(١) عتيد: حاضر.
(٢) الذرب: حدة اللسان.
(٣) يقال: كل السيف؛ إذا لم يقطع، فهو كل وكليل.
(٤) اشتهر أبو الأسود بالبخل، وله في ذلك نوادر.
(٥) الدغائل: جمع دغيلة، والدغيلة: دخل في الأمر مفسد.
(٦) الرشاء في الأصل: الحبل.
(٧) الرواح: العشي.

فلما كان الرَّوَاح جاءت ومعها ابنها قد احْتَضَنَتْهُ؛ فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتَزِعَ اينه منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود، لا تُعْجِل المرأة أَنْ تنطِق بحُجَّتها.

قال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا أحقُّ بحملِ ابني منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود دَعْها تَقُلْ. فقال: يا أميرَ المؤمنين، حملتهُ قبل أن تَحْمِلَه. فقالت: صدق والله يا أميرَ المؤمنين، حَمَله خِفا وحملتُهُ ثِقْلًا، إنَّ بطني لوِعاؤُه، وإن ثَدْيي لَسِقاؤُه، وإن حِجْري لَفِنَاؤُه. فقال معاوية: سبحَان الله لما تأتين به! ثم قال لأبي الأسود: إنها قد غَلَبَتْك في الكلام، فتكلّف لها أبياتًا لعلك تغلبُها؛ فأنشأ يقول:

مَرْحبًا بالتي تجورُ علينا ... ثم سَهْلًا بالحامِل المحمولِ
أَغلقتْ بابها عليَّ وقالت: ... إن خيرَ النساء ذاتُ البُعولِ
شغلت نفسها على فراغًا ... هل سمعتم بالفارغ المشغولِ!

فأجابته:

ليس مَنْ قال بالصواب وبالحـ ... ـقّ كَمَن جار على مَنَارِ السبيل
كان قديي سقاءَه حين يُضْحى ... ثم حِجْري فناءَه بالأصيل
لست أبغي بواحدي يا ابن حَرْبٍ ... بدلًا ما علمته والخليلِ[١]

فقضى لها معاوية عليه، واحتملَتْ ابنها وانصرفت.

إنّ قُرَيشًا تُحَدث أنكَ مِن أحْلمِها[٢]

كتب معاوية إلى وَالِيهِ بالكُوفَة أن يحملَ إليه أمَّ الخيرِ بنت الحُرَيْش البارِقيَّةَ بِرَحْلَها، وأعلمه أنه مُجَازِيهِ بقولها فيه؛ بالخير خيرًا وبالشرِّ شرًّا.

فلما ورَدَ عليه كتابُه ركب إليها فأقْرأها إياه؛ فقالت: أمَّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعةٍ، ولا مُعْتَلَّةٍ بكَذِب! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أميرِ المؤمنين لأمورٍ تخْتَلِجُ[٣] في صَدْري.

(١) تريد بالخليل محمدًا رسول الله.
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٧، بلاغات النساء: ٤١.
(٣) تختلج في الأمر: تتردد فيه.

فلما حملها وأراد مفارقَتَها، قال لها: يا أمَّ الخير، إن أميرَ المؤمنين كتب إليّ: إنه يجازيني بقولك فيّ بالخير خيرًا وبالشرّ شرًّا، فما عندك؟ قالت: يا هذا؛ لا يُطْمعنَّك بِرُّك بي أن أسُرَّك بباطل، ولا تؤيسَنْك معرفتي بك أن أقولَ فيك غيْرَ الحق؟

فسارت خيرَ مسيرٍ، حتى قَدِمت على معاوية، فأنْزَلها مع جريمه ثلاثًا، ثم أَذِنَ لها في اليومِ الرابع، وعنده جُلَساؤه؛ فقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته؛ قال لها: وعليك السلام يا أُمَّ الخير، وبالرَّغْمِ منكِ دعوتني بهذا الاسم. قالت: مَهْ[1] يا أميرَ المؤمين! لكلّ أجل كتاب.

قال: صدقتِ، فكيف حالُكِ يا خالة؟ وكيفَ كنتِ في مسيركِ؟ قالت: لم أزل في عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ إليكَ؛ فأنا في عيشٍ أنيق، عند ملكٍ رفيق؛ قال معاوية: بحِسنِ نيتي ظفرتُ بكم وأُعنتُ عليكم! قالت: يا أمير المؤمنين؛ أعيذُك باللهِ من دَحْضِ[2] المَقَالِ وما تُرْدِي عاقِبَتُه، قال: ليس لهذا أرَدْناك. قالت: إنما أَجْري في ميدانك؛ فاسأل عمَّا بَدَا لكَ! قال: أخبرِيني كيف كان كلامُك يوم قُتل عَمَّار بن يَاسِر؟ قالت: لم أكنْ والله زَوَّرْتهُ[3] قبلُ، ولا رَوِيْتُه بعدُ، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثهنّ لساني حين الصّدْمة، فإن شئت أن أُحْدِث لك مقالًا غيرَ ذلك فَعَلْتُ. قال: لا أشاءُ ذلك.

ثم التفتَ إلى أصحابه فقال: أيكم يَحْفَظُ كلامَ أمّ الخير؟ فقال رجلٌ من القوم: أنا أحفظُه يا أميرَ المؤمنين كحفظي سورةَ الحمد. قال: هاتِه؛ قال: نعم! كأنيّ بها يا أميرَ المؤمنين في ذلك اليوم، عليها بُرْدٌ زَبيديّ كَثيفُ الحاشِية، وهي على جمل أَرْمَك[4] وقد أُحيطَ حولَها حِوَاء[5]؟ وبيدها سَوْطٌ مُنْتَشِر الضَّفْر[6]، وهي كالفحل يهدِر في شِقْشِقَته[7] تقول:

يا أيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنْ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيءٌ عَظيمٌ! إن الله قد أوْضَحَ الحقَّ، وأبَان الدليل، ونَوَّر السبيل، ورفعَ العَلَم، فلم يَدَعْكم في عَمْياءَ مُبْهمة! ولا

---

(١) مه: كف. (٢) دحض المقال: باطله.
(٣) زور الكلام: أعده؛ تريد أنها قالته ارتجالًا. (٤) أرمك: لونه لون الرماد.
(٥) الحواء: ما يعمل كالوسادة للراكب على رحل الجمل بدون هودج.
(٦) ضفر الشعر: لوى بعضه على بعض.
(٧) الشقشقة: شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

سوداءَ مُدْلَهِمَّة[١]، فإلى أين تُريدون رحمكم الله! أفرارًا عن أمير المؤمنين، أم فِرَارًا من الزَّحْف، أم رهبةً عن الإسلام أم ارْتِدادًا عن الحق! أَمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: الآية ٣١].

ثم رَفعتْ رأسها إلى السماء وهي تقول:

قد عِيلَ الصَّبْرِ، وضَعُف اليقين، وانتشر الرُّعْب، وبيدك يا ربّ أزِمَّة القلوب، فاجمع الكلمةَ على التقوى، وأَلِّف القلوبَ على الهُدَى، وارْدُد الحق إلى أهله. هَلمُّوا رحمكم الله إلى الإمامِ العادلِ، والوصيّ الوفيّ، والصديقِ الأكبر. إنها إحَنٌ بَدْرِية[٢]، وأحقادٌ جاهلية، وضَغائِنُ أُحُديّة[٢]، وثبَ بها معاوية حين الغَفْلة ليدركَ بها ثاراتِ بني عبد شمس[٣].

ثم قالت: قاتلوا أئِمَّةَ الكفرِ، إنّهم لا أَيْمَانَ لَهُمَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ، صبرًا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتِلُوا على بَصِيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأني بكم غدًا قد لقيتم أهل الشأم كحُمُر مُسْتَنْفِرَة[٤]، فرّتْ من قَسْوَرة[٥]، لا تَدْري أين يُسْلَك بها من لِجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادمين، حين تَحُلُّ بهم النَّدَامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله مَنْ ضَلَّ عن الحق وقع في الباطل، ومَن لم يسكن الجنة نزل في النار.

أيّها الناس، إن الأكْيَاسَ[٦] استقصروا عُمرَ الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مُدَّة الآخرة فسعَوْا لها؛ فالله الله أيُّها الناس قبلَ أن تَبطُل الحقوق، وتُعطّل الحدود، ويظهَر الظالمون، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان. فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ عن ابْنِ عمّ رسول الله ﷺ وزوجِ ابنته وأبي ابنيه[٧] خُلِق من طِينته، وتَفرّع عن نَبْعته،

---

(١) ادلهم الظلام: كثف، وأسود مدلهم، مبالغة.
(٢) بدر وأحد: واقعتان بين النبي والمشركين.
(٣) قوم معاوية. لأن عليًا قتل كثيرًا منهم في وقعتي بدر وأحد.
(٤) مستنفرة: نافرة.
(٥) القسور: الأسد، والجمع قسورة.
(٦) الأكياس: جمع كيس، وهو العاقل.
(٧) تريد الحسن والحسين وهما ابنا فاطمة.

وخصَّه بسرِّه، وجعلَه بابَ مدينتِه[١]، فلم يَزَلْ كذلك يؤيّدُه الله بمعونته، ويمضي على سُنَنِ استقامته لا يُعَرِّج[٢] لراحة اللذات.

وهو مُفَلِّق الهام، ومُكَسِّر الأصنام، إذْ صلّى والناس مُشْرِكون، وأطاع والناسُ مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قَتَل مُبَارِزِي بَدْر، وأفنى أَهلَ أُحُد، وفرَّق جَمْعَ هَوازن، فيا لها وقائع زَرَعَتْ في قلوب قوم نِفَاقًا، ورِدَّةً وشقاقًا! وقد اجتهدتُ في القَوْلِ، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: واللهِ يا أُمَّ الخير ما أَردتِ بهذا إلا قَتْلي! والله لو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ[٣] في ذلك.

قالت: والله ما يسوءُني يا ابنَ هند أن يُجْرِيَ اللهُ ذلك على يَدَيْ مَن يُسعدني الله بشقائِه، قال: هيهات، يا كثيرةَ الفضول! ما تقولين في عثمان بنِ عفان؟ قالت: وما عَسَيْتُ أن أقولَ فيه! استَخْلَفَهُ الناسُ وهم كارهون، وقتلوه وهم رَاضُون، فقال: إيهًا يا أُمَّ الخير، هذا ثناؤك الذي تَثْنِين؟ قالت: لكنّ الله يشهد، وكفى بالله شهيدًا، ما أردتُ بعثمان نَقْصًا، ولقد كان سبّاقًا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة.

قال: فما تقولين في طَلْحَة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقولَ في طلحة؟ اغتِيل مِن مَأمَنه، وأُتِيَ من حيث لم يَحْذَر؛ وقد وعده رسولُ الله ﷺ الجنةَ. قال: فما تقولين في الزُّبيْرِ؟ قالت: يا هذا؛ لا تَدَعْني كرَجيع الصَّبيغ يُعْرَكُ في المرْكَنِ[٤]، قال: حقًّا لتقولِنَّ ذلك، وقد عزمتُ[٥] عليك. قالت: وما عَسَيتُ أن قولَ في الزبير ابنِ عمة رسول الله ﷺ وحَوارِيّه[٦]؟ وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بالجنةِ، ولقد كان سبَّاقًا إلى كل مكْرُمة في الإسلام. وإني أسألكَ بحقِّ الله يا معاوية، فإن قريشًا تُحَدِّثُ أنكَ من أحلمها ـ أن تسَعَني بفَضل حلْمك، وأن تُعْفيني

---

(١) لعلها تشير إلى ما يروى عن النبيّ: أنا مدينة العلم وعلى بابها.

(٢) لا يعرج: لا يميل. (٣) ما حرجت: ما أثمت.

(٤) المركن: الإناء يغسل فيه الثياب. ويعرك. ويحك. والرجيع: المردود، أي لا تجعلني كالثوب المصبوغ، يحك في الإناء مرة أخرى لأخراج صبغه منه؛ تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

(٥) أقسمت عليك. (٦) الحواري: ناصر الأنبياء.

من هذه المسائل، وامْضِ لما شئتَ من غيرها. قال: نَعَمْ وكرامةً، قد أعفيتُك. وردَّها مكرّمة إلى بلدها.

سوْدة بنت عمَارة عِند معَاويَة[١]

وفدت سَوْدةُ بنت عُمارة على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذَنَتْ عليه فأَذِنَ لها. فلما دخلتْ سلّمت عليه، فقال لها: كيف أنتِ يا سَوْدَة؟ قالت: بخير يا أميرَ المؤمنين، قال لها: أنتِ القائلةُ يوم صِفّين[٢]:

شَمِّر كفعل أبيك يا ابنَ عُمارةٍ ... يوم الطِّعانِ ومُلْتَقى الأقرانِ[٣]
وانصُرْ عليًّا والحسينَ وَرَهْطَهُ ... واقْصِدْ لهندٍ وابنِها بهوانِ[٤]
إنَّ الإمامَ أخا النبيِّ محمدٍ ... عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمان
فَقِهِ الحُتُوفَ وسِر أمامَ لوائِه[٥] ... قُدُمًا بأبيضَ صارم وسنَان[٦]

قالت: إي والله، ما مثلي مَنْ رغب عن الحق، أو اعتذر بالكذب! قال لها: فما حملك على ذلك؟ قالَتْ: حبّ عليّ، واتباعُ الحقّ. قال: فوالله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئًا. قالت: أنشدك الله يا أميرَ المؤمنين؛ مات الرأس، وَبُتِر الذَّنَب، فدَعْ عنك إعادةَ ما مضى، وتذكَار ما قد نُسي! قال: هيهات! ليس مثلُ مقام إخيكِ يُنسى! وما لقيت من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك! قالت: صدق فُوكَ والله يا أميرَ المؤمنين؛ ما كان أخي ذميمَ المقام، ولا خفيَّ المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لتأْتمُّ الهُدَاةُ به ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسه نَارُ

وبالله أسأل يا أميرَ المؤمنين إعْفائي مما استعفيتُ منه! قال: قد فعلت، فقولي حاجتك! قالت: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّكَ أصبحت للناس سيّدًا، ولأمورهم متقلّدًا، والله سائلك عمّا افترض عليك من حقّنا، ولا تزال تُقَدِّم علينا مَن ينهض بعزِّك، ويبطش بسُلْطانك، فيَحْصُدُنا حَصَادَ السُّنْبُل، ويَدُوسنا دياسَ البقر، ويسومُنا

(١) العقد الفريد: ١ ـ ٢١١، بلاغات النساء: ٣٥.
(٢) هو يوم من أيام الحرب بين علي ومعاوية. (٣) الأقران: الأكفاء.
(٤) هند: أم معاوية. (٥) الحتوف: المنايا.
(٦) الصارم: السيف القاطع، والسنان: سنان الرمح.

الخسِيسعة، ويَسْلُبُنا الجليلة؛ هذا ابن أرطَاةَ[١] قدم علينا من قِبلك فقتل رجالي، وأخذ مالي، يقول لي: فُوهِي بما أستَعْصِمُ الله منه، وألجأ إليه فيه[٢]، ولولا الطاعةُ لكان فينا عزٌّ ومَنعة! فإما عزلتَه فشكرناك، وإمَّا لا فعرفناك!

فقال معاوية: إيّاي تهدِّدين بقومك! والله لقد هممت أن أردَّك إليه على قتَبٍ أشْرَس[٣]، فينفّذ حكمه فيك. فأطرقَتْ تبكي، ثم أنشأت تقول:

صلّى الإلـه على روحٍ تضمَّنه ... قبرٌ فأصبحَ فيه العدلُ مدفونا
قد حَالَف الحقَّ لا يبغي به بَدَلا ... فصار بالحقّ والإيمان مَقْرُونا

قال لها: ومَنْ ذلك؟ قالت: عليّ بن أبي طالب رحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صار عندَكِ كذلك! قالت: أتيته يومًا في رجل ولّاه صَدَقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغثِّ والسمين، فوجدته قائمًا يصلّي، فانفتلَ عن الصلاة[٤]، ثم قال برأفة وتعطُّف: ألكِ حاجة؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنّكَ أنتَ الشاهدُ عليّ وعليهم، إنّي لم آمرُهم بظلم خَلْقك، ولا بِترْكِ حقك؛ ثم أَخْرَج من جيبه قطعةً من جراب، فكتب فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ[٥] ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]. إذا أتاكَ كتابي هذا فاحْتَفِظْ بما في يديك حتى يأتيَ من يَقْبِضُه منك، والسلام.

فأخذْتُهُ منه يا أميرَ المؤمنين، ما خَزَمَه بخِزَام، ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتُبُوا بالإنصاف لها والعدل عليها. قالت: أَلِي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما أنتِ وغيرك! قالت: هي والله إذَنْ الفحشاء واللؤم؛ إن كان عدلًا شاملًا وإلّا يَسَعني ما يسعُ قومي.

---

(١) ابن أرطاة: بسر بن أرطاة كان معاوية سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة علي ويأخذ البيعة له.

(٢) تعني أنه يطلب منها أن تسب عليًا.

(٣) القتب: الإكاف على قدر سنام البعير، والمراد نفس البعير بدليل الصفة بعده، وأشرس: لم يرض.

(٤) انفتل عن صلاته: انصرف.

(٥) القسط: العدل، والبخس: النقص والظلم.

قال: هيهات، لَمَّظَكُم[١] ابن أبي طالب الجرأة، وغرّكم قوله:

فلو كنتُ بوّابًا على باب جنَّةٍ لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلام

اكتبوا لها ولقومها.

مثلكَ منْ قدَر فعفا[٢]

لما وَلِيَ معاويةُ الخلافةَ، وانتظمت إليه الأمور، وامتلأَت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده الله في مُراده، استحضر ليلةً خواصّ أصحابه، وذاكرهم وقائعَ أيام صِفِّين، ومَنْ كان يتولّى كِبْرَ الكريهةِ من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض، وآلَ حديثهم إلى مَنْ كان يجتهدُ في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمَّى الزَّرْقاء بنت عديّ، كانت تعتمِدُ الوقوفَ بين الصفوف، وترفعُ صوتها صارخة: يا أصحابَ عليّ؛ تسمِعهم كلامًا كالصوارم، مستحثَّةً لهم بقول لو سَمعه الجبانُ لقاتل، والمدّبرُ لأقبل، والمسالِمُ لحَارَب، والفارُّ لكرّ، والمتزلزل لاستقرّ.

فقال لهم معاوية: أيّكم يحفظُ كلامها؟ قالوا: كلُّنا نحفظه. قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية: بئْس ما أشرتُم به، وقُبْحًا لما قلتم: أيحسن أن يَشْتهر عني أننِي بعد ما ظفرت وقدرتُ قتلت امرأةً قد وفَتْ لصاحبها! إني إذنْ للئيم، لا والله لا فعلتُ ذلك أبدًا.

ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة: أن أَنفِذْ إليّ الزرقاء بنت عديّ، مع نفرٍ من عشيرتها وفُرسانٍ من قومها، ومهِّدْ لها وِطاء ليّنًا ومركبًا ذَلُولًا.

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأه عليها. فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزَائِغَةٍ عن الطاعة. فحملها في هَوْدجٍ، وجعل غِشاءه خَزًّا مبطَّنًا، ثمّ أحسن صُحْبتَها.

فلما قدمت على معاوية، قال لها: مرحبًا وأهلًا! خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافدٌ. كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: ربيبة[٣] بيتٍ أو طفلًا ممهدًا.

---

(١) لمظه: ذوقه.

(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٢، بلاغات النساء: ٣٧.

(٣) الربيب: الملك والسيد.

فقال: بذلك أمرناهم. هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: وأنّى لي بعلم ما لم أعلم! لا يعلم الغيبَ إلّا الله سبحانه وتعالى. قال: ألستِ الراكبة الجمل الأحمر يوم صِفّين وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتُحرِّضين على القتال! قالت: نعم. قال: فما حملكِ على ذلك؟ قالت: يا أميرَ المؤمنين، إنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذَّنَبُ، ولن يعودَ ما ذهب، والدَّهرُ ذو غيرٍ، ومن تفكّر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال: صدقتِ، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته. قال: للهِ أبوكِ! فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس، ارعَوُوا وارجعوا! إنكم أصبحتُم في فتنة غشتكم جَلَابيبَ الظلم، وجارت بكم عن قَصْدِ المَحَجّة، فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعِقِهَا، ولا تسلس لقائدها!

إن المصباح لا يضيءُ في الشمس، وإن الكواكبَ لا تنيرُ مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديدُ إلا بالحديد، أَلَا مَنِ استرشَدَنا أرشَدْناه، ومَن سألنا أخبرناه!

أيها الناس، إن الحقَّ كان يطلب ضالّتَهُ فأصابها. فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص! فكأنكم وقد الْتأَمَ شملُ الشَّتَات، وظهرت كلمة العدل، وغَلَبَ الحقُّ باطله. فإنه لا يستوي المحق والمبطل. أفمَنْ كان مؤمنًا كَمَنْ كان فاسقًا! لا يَسْتَوُن. فالنِّزَال النِّزالَ، والصبرَ الصبرَ! ألا إن خِضَابَ النساء الْحِنَّاءُ، وخِضَابَ الرجال الدماء. والصبرُ خيرُ الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين؛ فهذا يومٌ له ما بعده!

ثم قال: يا زَرْقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك! قال: لقد شاركتِ عليًا في كلّ دَم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، فمثلك مَنْ بَشَّر بخير، وسَرَّ جليسه.

فقال معاوية: أويسرُّكِ ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرّني قولك، وأنّى لي بتصديق الفعل! فضَحِك معاوية وقال: والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندي من حبكم له في حياته؛ اذكُري حاجتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إني آليت على نفسي ألّا أسأل أحدًا أَعنتُ عليه أبدًا. فقال: قد أشار علي بعض من عرفك بقَتْلِك. فقالت: لُؤْمٌ من المشير، ولو أطعته لشاركْتَه. قال: كلّا، بل نعفو عنك،

ونحسن إليك ونَزْعاك. فقالت: يا أميرَ المؤمنين، كرمٌ منك ومثلُك من قَدَرَ فعفا، وتجاوز عمن أساء، وأعطى من غير مسألةٍ.

فأعطاها كُسْوَة ودراهم، وأقطعها ضيعة تُغِلّ[١] لها في كل سنةٍ عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمةً، وكتب إلى وَالِي الكوفةِ بالوصية بها وبعشيرتها.

نَبّهكم عَليّ![٢]

يُروى أن عِكْرِشَةَ بنتَ الأطرش دخلت على معاوية مُتَوَكِّئَةً على عُكّازٍ لها، فسلّمتْ عليه بالخلافة، ثم جلست، فقال لها معاوية: الآن صِرْتُ عندكِ أمير المؤمنين! قالت: نعم، إذْ لا عليٌّ حيّ؟ قال: ألَسْتِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بصفّين وأنت واقفةٌ بين الصفّين تقولين:

أيُّها الناس، عليكم أنفسكم لا يضرُّكم مَنْ ضلّ إذا اهتديتم؛ إنَّ الجنة لا يَحْزَن من قَطَنها، ولا يَهْرَم من سَكَنها، ولا يموتُ من دخلها؛ فابْتَاعوها بدارٍ لا يدومُ نعيمُها، ولا تَنْصَرِم همومُها. وكونوا قومًا مُسْتَبْصِرين في دِينهم، مسْتَظْهرين على حقِّهم.

إنّ معاوية دَلَفَ إليكم بعَجم العرب، لا يفقَهون الإيمان، ولا يَدْرُون ما الحكمة، دعاهم إلى الباطل فأَجَابوه، واسْتَدْعاهم إلى الدنيا فلَبُّوه، فالله اللهَ عباد الله في دينِ الله! وإياكم والتّواكلَ فإنَّ ذلك يَنْقُضُ عُرَا الإسلام، ويُطفىء نورَ الحق. هذه بَدْرٌ الصُّغْرَى، والعقَبَةُ الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار؛ امضوا على بصيرتكم، واصبِروا على عزيمتكم، فكأنّي بكم غدًا وقد لقيتم أهلَ الشأْم كالحُمر الناهقة، تَقْصَع قصعَ البعير.

ثم قال: فكأني أراكِ على عَصَاكه هذه قد انكفأَ[٣] عليكِ العَسْكَران يقولون: هذه عِكْرِشَة بنت الأطرش، فإن كدتِ لَتَفُلِّين[٤] أهلَ الشأم لولا قَدَرُ الله، وكان أمرُ اللهِ قَدَرًا مقدورًا، فما حملكِ على ذلك؟

---

(١) تغل: تنتج.

(٢) بلاغات النساء: ٤١، العقد الفريد: ١ ـ ٢١٦.

(٣) انكفأ: رجع.

(٤) فل الجيش: هزمه.

قالت: يا أميرَ المؤمنين؛ يقول الله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: الآية ١٠١]. وإن اللبيبَ إذا كَرِه أمرًا لا يحبُّ إعادتَه.

قال: صَدَقْتِ، فاذكُري حاجتك. قالت: كانت صدقاتُنا تُؤخَذ من أغنيائنا فَتُرَدُّ على فقرائنا، وقد فَقَدْنا ذلك، فما يُجْبَرُ لنا كسير، ولا يُنْعَشُ لنا فقيرٌ، فإن كان عن رَأيكِ فمِثْلُكَ من انتبه من الغفْلةِ وراجع التَّوْبة، وإن كان من غيرِ رأْيِكَ فما مِثْلُكَ مَن اسْتَعَانَ بالخَوَنةِ، ولا اسْتَعْمَلَ الظَّلَمَةَ.

قال معاوية: يا هذه؛ إنه يَنُوء بنا عن أُمُورٍ رعيَّتَا تُغُورٌ تتفتّق؛ وبحورٌ تتدفّقُ. قالت: سبحانَ الله! واللهِ ما فرض اللهُ لنا حقًّا فجعل فيه ضَرَارًا لغيرنا وهو علّامُ الغُيُوب. قال معاوية: هيهات يا أهلَ العراق! نبّهكم عليٌّ فلن تُطَاقُوا.

ثم أمر بردِّ صدَقاتِهم فيهم وإنْصَافِهم.

وَهَل أَحُلُّ عندَك محَل عليّ[1]

حجّ معاوية سنةً من سنِيه، فسأل عن امرأة من بني كِنانة كانت تَنْزِلُ بالحَجُون[2]، يقال لها: دارِميَّة الحَجونيَّة، وكانت سوداء كثيرةَ اللحم، فأُخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها. فقال: ما حالك يا ابْنَةَ حام؟ فقالت: لست لحامٍ إن عِبْتَني؛ إنما أنا امرأة من بني كنانة ثُمَّتَ من بني أبيك. قال: صدقتِ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليك؟ قالت: لا يعلمُ الغيبَ إلا الله. قال: بعثتُ إليك لأسألك: عَلَامَ أحببتِ عليًّا وأبغضتِني، وواليتِه وعاديتِني؟ قالت: أوَتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أُعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببتُ عليًّا على عَدْلِه في الرعية، وقَسْمه بالسّوية، وأبغضتك على قتال مَنْ هو أولى منك بالأمر، وطِلْبَتِك[3] ما ليس لك بحق، وواليتُ عليًّا على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حبّه المساكين، وإعظامِه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفكك الدماء، وشقّك العصا، وجَوْرك في القضاء، وحكمك بالهوى.

---

(١) العقد الفريد: ١ ـ ١٣٢، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٥٩، بلاغات النساء: ٦٧.

(٢) الحجون: جبل بمكة. (٣) الطلبة: الطلب.

قال: فلذلك انتفخ بطنُك! قالت: يا هذا؛ بهند[١] والله كان يُضرب المثل في ذلك لأبِي. قال معاوية: يا هذه، اربَعي[٢]، فإنا لم نقل إلا خيرًا. فرجعت وسكنتْ.

فقال لها: يا هذه، هل رأيتِ عليًا؟ قالت إي والله لقد رأيته. قال: فكيف رأيتِه؟ قالت: رأيتُه والله لم يَفْتِنه المُلْكُ الذي فَتنَك، ولم تَشْغَله النعمة التي شغلتك. قال: هل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله، كان يَجْلُو القلوب من العمى، كما يجلو الزيتُ الصدأ.

قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أوَتفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فَحْلُها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصغّار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أَحُلُّ عندكِ محلّ علي؟ قالت: ماء ولا كَصَدَّاء[٣]، ومَرْعَى ولا كالسَّعْدان[٤]، وفتى ولا كمالِك[٥]، سبحان الله! أو دُونه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعُدْ بالحلم مني عليكمُ فمن ذا الذي بعدي يُؤَمِّل للحِلم!
خذيها هنيئًا، واذكري فعلَ ماجدِ جزاكِ على حرب العداوة بالسِّلْمِ

ثم قال: أما والله لو كان عليٌّ حيًا ما أعطاك منها شيئًا، قالت: لا والله ولا وَبَرَةً واحدة من مال المسلمين!

نَبَحَتنِي كلَابك[٦]

استأذنت بكّارة الهلاليّة على معاويةَ بن أبي سفيان فأذن لها ـ وهو يومئذٍ بالمدينة ـ وعنده مَرْوان بن الحكم، وعمرو بن العاص ـ فدخلت عليه، وكانت امرأةً قد أسنَّت، وعَشِيَ[٧] بصرها، وضَعُفَتْ قوَّتُها، تَرْعَشُ بين خادمين لها،

(١) هند: أم معاوية. (٢) ربع: وقف وانتظر وتحبس.
(٣) صداء: عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها.
(٤) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أفضل مراعي الإبل.
(٥) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة، والأمثال الثلاثة تضرب للشيء يفضل على أقرانه.
(٦) بلاغات النساء: ٤٠، العقد الفريد: ١ ـ ٢١٢.
(٧) عشي بصرها: ضعف.

فسلّمتْ وجلستْ، فردّ عليها معاوية السلام. وقال: كيف أنتِ يا خالة؟ فقالت: بخير يا أمير المؤمنين! قال: غَيَّرَكِ الدَّهرُ. قالت: كذلك هو ذُو غِيَر[١]، مَنْ عاش كَبِر، ومَن مات قُبِر! قال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين يوم صِفّين:

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا ... سيفًا حُسامًا في التراب دفينا[٢]

قد كنتُ أذْخَرُهُ ليوم كريهةٍ ... فاليومَ أبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونا[٣]

قال مروان: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هندٍ للخلافةِ مالكًا ... هيهات ذاك - وإن أراد - بعيدُ[٤]

منَّتْك نفسك في الخلاء ضلالةً ... أغْرَاك عمرو للشقَا وسعِيدُ

قال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كنتُ أطمعُ أن أموتَ ولا أرى ... فوقَ المنابر من أميَّةَ خاطبا

فالله أخّر مُدَّتي فتطاولتْ ... حتى رأيتُ من الزمان عجائبا

في كلّ يوم للزمان خطيبُهم ... بين الجميع لآل أحمدَ عائبا

ثم سكتوا! فقالت بكّارة: نَبَحَتْني كلابك يا أمير المؤمنين واعتَوَرتني[٥]، فقصُر مِحْجَني[٦]، وكثر عَجَبي، وعَشيَ بصري.

وأنا والله قائلةٌ ما قالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب، وما خفي عليك مني أكثر، فامضِ لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين. فضحك معاوية، وقال: ليس يمنعُنا ذلك من برّك. اذكري حاجتك: قالت: أما الآن فلا.

أروى بنت الحَارِث[٧]

دخلت أرْوَى بنتُ الحارثِ بن عبد المطلب على معاوية، وهي عجوز، فلما رآها معاويةُ قال: مرحبًا بكِ وأهلًا يا عمّة! فكيف كنتِ بعدنا؟ قالت: يا ابْنَ

(١) غير الدهر: أحواله المتغيرة.
(٢) احتفر الشيء: نقاه كما تحفر الأرض بالحديدة.
(٣) أدخره.
(٤) أي معاوية.
(٥) اعتورتني: تناوبتني.
(٦) المحجن: العصا المعقوفة الرأس.
(٧) العقد الفريد: ١ - ٢١٩، بلاغات النساء: ٣٢.

أخي؛ لقد كفرتَ بالنعمة، وأسأتَ لابن عمّك[١] الصُّحبة، وتسمَّيت بغير اسمك، وأخذتَ[٢] غيرَ حقك، من غير بلاءٍ كان منك ولا من آبائك، ولا سابقةٍ في الإسلام، بعد أن كفرتُمْ برسول الله ﷺ، فأتعس[٣] الله منكم الجُدود، وأَضْرَع منكم الخدود، وردّ الحقَّ إلى أهله، ولو كَرِه المشركون!

وكانت كلمتُنا هي العليا، ونبينا ﷺ هو المنصور على مَن ناوأه، ولو كره المشركون؛ فكنا ـ أهلَ البيت ـ أعظمَ الناس في الدين حظًّا ونصيبًا وقدرًا، حتى قبض الله نبيه، فوُليتم علينا من بعده، وتحتجُّون بقرابتكم من رسول الله، ونحن أقربُ إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون؛ وكان عليُّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ـ بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى؛ فغايتُنا الجنةُ، وغايتكُم النار.

وقال لها عمرو بن العاص: كُفِّي أيتُها العجوز الضالّة! وأَقصِري عن قولك، وغُضِّي من طَرْفِك!

فقالت: وأنت يا عمرو تتكلّم! اغْنَ بشأن نفسك؛ فوالله ما أنت من قريش في اللُّباب من حَسَبِها، ولا كريم منصبِها. وأمُّك كانت أشهرَ امرأةٍ تُغَنِّي بمكة، وآخَذهنّ لأجرة!

فقال مروان: كُفِّي أيتها العجوز أقصري لما جئتِ له. فقالت: وأنتَ أيضًا يا ابنَ الزرقاء تتكلم! ثم التفتتْ إلى معاوية فقالت: والله ما برأ عليّ هؤلاء غيرُك! وإن أُمَّك القائلة في قَتْل حمزة:

نـحـن جَـزَيْـنَـاكُـمْ بـيـومِ بَـدْرِ ... والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ[٤]

ما كان عن عُتبة لي من صبرِ ... أبي وعمي وأخي وصِهْرِي[٥]

شفيتَ وحْشِيُّ غليلَ صدري ... شفيتَ نفسي وَقضيتَ نَذْرِي[٦]

فشُكرُ وَحشيٌّ عليَّ دهري ... حتى تَرِمَّ أعظُمي في قبري

---

(١) تريد علي بن أبي طالب. (٢) تشير إلى أخذه الخلافة.

(٣) أتعس: أهلك، أو أعثر. والجدود: الحظوظ.

(٤) ذات سعر؛ من سعر الحرب: أوقدها. (٥) تشير إلى مَن قتل من بني أمية يوم بدر.

(٦) وحشي: قاتل حمزة يوم أحد.

فقال معاوية لمروان وعمرو: ويلكما! أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أَكْرَه، ثم قال لها: يا عمّة! اقصدي قَصْد حاجتك، ودعي عنكِ أساطير النساء، قالت: تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار! قال: ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟ قالت: أشتري بها عينًا خَرْخَارة[1] في أرضٍ خوّارة[2]، تكون لولد الحارث بن عبد المطلب! قال: نعم الموضعُ وضعتها؛ فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أستعين بها على عُسْر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام! قالت: نعم الموضعُ وضعتِها! فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت: أُزَوِّج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم. قال: نعم الموضعُ وضَعْتِها! هي لكِ!

ثم قال لها: والله لو كان عليٌّ ما أمر لكِ بها! قالت: صدقت! إن عليًّا أدّى الأمانة؛ وعمل بأمر الله، وأخذ به، وأنتَ ضيّعت أمانتك، وخُنْتَ الله في ماله، فأعطيت مال الله مَن لا يستحقُّه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبَينها، فلم تأخذ بها؛ ودعانا عليّ إلى أخذ حقنا الذي فرضَ الله لنا فشُغِلَ بحربك عن وضع الأمور مواضعها! وما سألتك من مالك شيئًا! فتَمُنَّ به؛ إنما سألتك من حقنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا: أتذكرُ عليًّا فضّ الله فاك! ثم علا نحيبها وقالت:

أَلَا يا عينُ ويحكِ أَسعدينا	ألا وابكي أميرَ المؤمنينا
رُزينا خَير مَنْ ركب المطايا	وفارسها ومَنْ ركب السفينا[3]
ومن لبس النعال أو احتذاها	ومن قرأ المثاني والمثينا[4]

فأمر لها بستة آلاف دينار وقال لها: يا عمّة؛ أنفقي هذه فيما تحبّين، فإذا احتجتِ فاكتبي إلى ابنِ أخيك يُحسن صَفَدَكِ[5] ومعونتك إن شاء الله!

أُم سِنَان تشكو مروَان[6]

حَبَس مزوان بن الحكم، وهو والي المدينة غلامًا من بني ليث، في جناية جناها بالمدينة، فأَتَتْه جدّةُ الغلام ـ وهي أُمُّ سنان بنت خَيْثمة المَذْحجيّة ـ فكلمته

---

(١) خرخارة: عين ماء جارية.

(٢) خوارة: منخفضة، والمراد: أرض للزراعة ليست وعرة.

(٣) رزينا: أصبنا. (٤) المثني: آيات القرآن.

(٥) الصفد: العطاء.

(٦) العقد الفريد: ١ ـ ٢١٤، بلاغات النساء: ٦٨.

في الغلام، فأغْلَظ لها؛ فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبتْ له فعرفَها، فقال لها: مرحبًا يا بنت خَيْثمة؛ ما أقدمكِ أرضَنا وقد عهدتك تشنئين[١] قُرْبي، وتحضّين[٢] عليّ عدوّي!

قالت: يا أمير المؤمنين! إن لبني عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأحلامًا وافرة، لا يَجهَلُون بعد علم، ولا يَسْفَهون بعد حِلْم، ولا ينتقمون بعد عَفْو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت. قال: صدقتِ! نحن كذلك، فكيف قولك[٣]:

عَزَب الرُّقادُ، فمقْلتِي لا تَرْقُدُ — والليلُ يُصْدِرُ بالهموم ويُوردُ[٤]
يا آل مَذْحجَ لا مُقامَ فشمِّروا — إنّ العدوَّ لآلِ أحمدَ يَقْصِدُ
هذا عليٌّ كالهلالِ تحفُّه — وَسْط السماءِ من الكواكب أسْعُد[٥]
خيرُ الخلائِق وابنُ عم محمدٍ — إن يَهْدِكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مُذْ شَهِد الحروبَ مظفَّرًا — والنصرُ فوق لِوائه ما يُفْقَد

قالت: قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين؛ وأرجو أن تكون لنا خَلفًا! فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وهي القائلة أيضًا؟

إمّا هلكتَ أبا الحسين فلم تَزَلْ — بالحقّ تُعرَف هاديًا مَهْدِيًّا
فاذهب، عليك صلاةُ ربك ما دَعَتْ — فوقَ الغصون حمامةٌ قمريًّا[٦]
قد كنتَ بعد محمدٍ خَلَفًا كما — أوصى إليك بنا، فكنتَ وفيًّا
فاليوم لا خلَفٌ يُؤَمَّل بعده — هيهات نَأْمُل بعده إنسيًّا

قالت: يا أمير المؤمنين؛ لسانٌ نَطق، وقول صَدَق، ولئن تحقّق فيك ما ظننَّا، فحظّك الأوفر، والله ما وَرَّثَك الشنآن[٧] في قلوب المسلمين إلّا هؤلاء، فأَدْحِض مقالتَهم؛ وأبعِدْ منزلتهم، فإنّك إن فعلتَ ذلك تَزْدَد من الله قربًا، ومن المؤمنين حُبًّا.

---

(١) تشنئين قربي: تبغضين. (٢) تحضين: تحرضين.
(٣) يذكرها بقولها في الحرب التي كانت بينه وبين عليّ بن أبي طالب لأنها كانت من شيعة علي.
(٤) عزب: بعد.
(٥) سعود النجوم عشرة: منها سعد الذابح وسعد السعود. وهي تشير إلى صحابة علي.
(٦) القمري: نوع من الحمام. (٧) الشنآن: البغض.

قال: وإنّك لتقولين ذلك؟ قالت: يا سبحان الله! والله ما مثلك مُدِح بباطل، ولا اعْتُذِر إليه بكذب؛ وإنّك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا.

كان والله عليّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال: ممن؟ قالت: من مرْوان بن الحكم، وسعيدِ بن العاص. قال: وبم استحققتُ ذلك عندك؟ قالت: بسَعة حلْمك، وكريم عفوك. قال: فإنهما يَطمَعَان في ذلك؟ قالت: هما والله من الرأي على مثل ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى[١].

قال: والله لقد قاربتِ؛ فما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ إن مروان تَبنَّك[٢] بالمدينة تَبنُّك مَنْ لا يريدُ منها البَرَاح، لا يحكمُ بعدل، ولا يقضي بسُنَّةٍ، يتتبَّعُ عثراتِ المسلمين، ويكشفُ عَوْرات المؤمنين، حبس ابن ابني فأتيتُه، فقال: كنتِ وكنتِ، فألْقَمتُه أخشنَ من الحجر، وألعقتُه أمَرّ من الصَّبر، ثم رجعتُ إلى نفسي باللائمة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى مَن هو أولى منه بالعفو عنه!

فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين؛ لتكون في أمري ناظرًا، وعليه مُعْدِيًا[٣]. قال: صدقتِ، لا أسألكِ عن ذنبه، ولا عن القيام بحُجَّته، اكتبوا لها بإطلاقه.

قالت: يا أميرَ المؤمنين، وأنَّى لي بالرَّجْعة[٤]! وقد نفِد زادي، وكلَّت راحلتي! فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم.

لَيلى الأخيليَّة عِندَ معَاوِيَة[٥]

بينا معاوية يسير إذ رأى راكبًا؛ فقال لبعض شُرَطه: ائتني به، وإيّاك أن ترَوِّعه[٦] فأتاه فقال: أجب أميرَ المؤمنين، فقال: إياه أردتُ.

فلما دنا الراكبُ حَدَرَ[٧] لِثامَه، فإذا ليلى الأخيليّة[٨]، فأنشأت تقول:

معـاوي لـم أكَـدْ آتيـك تَـهـوِي   بـرحْـلٍ نـحـو سـاحَـتِـك الـركـابُ

(١) تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان.

(٢) تبنك: أقام.   (٣) معديًا: معينًا ناصرًا.

(٤) الرجعة: الرجوع.

(٥) الأغاني: ١٠ ـ ٧٤، مهذب الأغاني: ٤ ـ ٢٣٩، زهر الآداب: ٤ ـ ٧٣.

(٦) تروعه: تفزعه.   (٧) حدر الشيء: أنزله.

(٨) هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله؛ من بني الأخيل بن عامر؛ من النساء المتقدمات في الشعر، هويها توبة بن الحمير، وخطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوجها إياه. توفيت نحو سنة ٨٠ هـ.

تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأنّى[١] إذا ما الأكُمُ[٢] قنّعها السرابُ
وكنتَ المرتجى، وبك استعاذت لِتُنْعِشَها إذا بخل السحابُ

فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلبُ إلى مثلِك حاجة، فتخيّر أنت. فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: أخبريني عن مضر. قالت: فاخِرْ بمضَر، وحارب بقيس، وكاثِرْ بتميم، وناظر بأسد. فقال: ويحك يا ليلى؟ أكما يقولُ الناس كان تَوبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كلُّ النّاسِ يقولون حقًّا! الناس شجرة بَغْيٍ، يحسدون النِّعم حيث كانت، وعلى مَنْ كانت، ولقد كان يا أمير المؤمنين سَبْط[٣] البَنَان، حديدَ اللسان، شجًى للأقران، كريم المخْبَر، عفيف المِئزَر، جميل المنظر، وهو يا أميرَ المؤمنين كما قلتُ له. قال: وما قلتِ له؟ قالت: قلتُ ولم أتعدّ الحق وعِلمِي فيه:

بعيد المدَى لا يبلغ القوم شَأْوَه ألدّ[٤] مِلَدٌّ يغلب الحقّ باطلُهْ
إذا حلّ ركب في ذراه وظلّه ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهُمْ ينصل السيف من كلّ فادحٍ يخافونه حتى تموتَ خصائلُه[٥]

فقال معاوية: ويحك يا ليلى! يزعم الناس أنه كان عاهرًا فاجرًا! فقالت من ساعتها مرتجلة:

معاذ النُّهي قد كان ـ والله ـ توبةٌ جوادًا على العَلّات جمًّا نوافِلُه[٦]
أغرَّ خَفَاجيًا يَرَى البُخْل سُبَّة[٧] تُحَالِف كفّاه الندى وأنامِلُه
عفيفًا بعيد الهمّ صُلْبًا قناتُه جميلًا محيَّاه قليلًا غَوَائِله
وكان إذا ما الضيفُ أرغَى بعيره لديه، أتاه نَيْلُه وفواضله
وقد علم الجوع الذي كان ساريًا على الضيف والجيران أنك قاتِلُه
وأنك رَحْبُ البَاعِ يا توبَ بالقِرَى إذا ما لئيمُ القومِ ضافت مَنازله!
يبيت قرير العينِ مَنْ كان جارَه ويُضْحِي بخيرٍ ضيفه ومُنازله

(١) تأنى: تتأنى.
(٢) الأكم: جمع أكمه: الموضع يكون أشد ارتفاعًا من غيره.
(٣) سبط البنان: سخي.
(٤) اللدد: شدة الخصومة.
(٥) الخصيلة: كل لحمة فيها عصب.
(٦) جوادًا على العلات: أي على كل حال.
(٧) خفاجة: حيّ من بني عامر.

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جُزتِ بتوبة قدره؛ فقالت: يا أمير المؤمنين والله لو رأيتَه وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعته؛ لا أبلغ كُنْهَ ما هو أهله! فقال لها معاوية: في أي سنّ كان؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

أتته المنايا حين تمَّ تمامُه ... وأقْصر عنه كل قِرْن يُصاولهْ
وصار كليث الغاب يحمي عرينَه ... فترضى به أشبالُه وحلائلُه
عطوف حليم حين يطلب حِلْمه ... وسمّ زُعاف لا تصاب مقاتلُه

فأمر لها بجائزة، وقال: أيٌّ ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين؛ ما قلت شيئًا إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدْتُ حيث أقول:

جزى الله خيرًا ـ والجزاء بكفّه ... فتى من عُقَيْلٍ ساد غَير مكلّف
فتًى كانت الدنيا تَهُونُ بأسْرِها ... عليه فلم ينفكّ جمّ التصرفِ
ينالُ علياتِ الأمور بهَوْنة ... إذا هي أعْيَتْ كلّ خِرْق مُشَرَّفِ[١]

أُمٌّ[٢]

دخل ابنُ الزّبير[٣] على أُمّه[٤] حين رأى من الناس ما رأى من خِذْلانهم، فقال: يا أُمّه؛ خَذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبقَ معي إلّا اليسير مِمّن ليس عنده مع الدفع أكثرُ من صبر ساعة، والقومُ يُعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيُكِ؟

فقالتْ: أنت والله يا بنيّ أعلم بنفسك؛ إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعُو فامْضِ له، فقد قُتِلَ عليه أصحابُك، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمانُ بني أُمية، وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت! أهلكتَ نفسَك وأهلكْتَ من

(١) الهونة: الرفق والسهولة. الخرق: السخي أو الظريف في سخاوة. مشرف: جعل له شرف.
(٢) تاريخ الطبري: ٧ ـ ٢٠٣، بلاغات النساء: ١٣٠، العقد الفريد: ٢ ـ ٢٧١.
(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام؛ طلب الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وبويع له في الحجاز والعراق واليمن، ومكث خليفة تسع سوات، ثم حاصره الحجاج بمكة. وقتل سنة ٧٣ هـ.
(٤) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي من قريش، من فضليات نساء العرب، وأخت عائشة لأبيها توفيت سنة ٧٣ هـ. وهذه المحاورة كانت حين حاصر الحجاج ابن الزبير في مكة، وحين خذل عبد الله أعوانه.

قُتِل معك. وإن قلتَ: كنتُ على حق، فلما وَهَن أصحابي ضعفتُ؛ فهذا ليسَ فعلَ الأحرار، ولا أهل الدّين... وكم خلودُك في الدنيا! القتلُ أحسن! والله لضَرْبةٌ بالسيف في عِزٍّ أحبُّ إليّ من ضربةٍ بسوط في ذلّ. قال: إني أخاف إن قتلوني أن يُمثّلوا بي! قالت: يا بنيّ؛ إن الشاة لا يضرُّها سلخُها بعد ذبحها.

فدنا ابنُ الزّبير، فقبّل رأسَها، وقال: هذا واللهِ رأيي؛ والّذي قمتُ به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركَنْتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ أن الله تُسْتَحَلَّ حُرَمه، ولكنّي أحببتُ أن أعلم رأيَكِ، فزدتنِي بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمّهْ فإنّي مقتول من يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك، وسلّمي لأمر الله؛ فإن ابنَك لم يعتمدْ إتيانَ منكَر ولا عملًا بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يغدِرْ في أمان، ولم يتعمّد ظُلْم مسلم ولا مُعاهَد، ولم يبلغني ظلمٌ عن عمالي فرضيتُ به، بل أنكرتُه؛ ولم يكن شيءٌ آثرَ عندي من رضا ربي؛ اللّهمَّ إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسي؛ أنتَ أعلمُ بي ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلوَ عني.

فقالت أمُّه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدَّمْتَني، وإن تقدَّمتُك فَفِي نفسي حَرَجٌ حتى أَنْظُرَ إلامَ يصير أمرُكَ. قال: جزاكِ الله يا أمّه خيرًا؛ فلا تَدَعِي الدُّعَاءَ لي قبلُ وبعدُ. فقالت: لا أدَعه أبدًا، فمن قتِل على باطل فقد قُتِلْتَ على حق! ثم قالت: اللهم ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرَّه بأبيه وبي، اللهم قد سلمتُه لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ فأَثِبْنِي في عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين.

ثم ودّعها وخرج، ولم يلبث أن قُتل رحمه الله!

التَلَطُّف فِي السُّؤَال[١]

دخلت امرأةٌ من هوازن على عبيد الله بن أبي بكرة[٢]، فوقفت بين السِّماطَين[٣]، وجعلت تُظْهِر وجهها مرة، وتستره أخرى؛ فلما أبصرها علم أنّ لها حاجةً؛ فقال لجلسائه: ما عليكم أن تقوموا حتى تقولَ هذه المرأة حاجتَها.

---

(١) غرر الخصائص الواضحة: ١٦٥.

(٢) عبيد الله بن أبي بكرة كان أجمل الناس وأشجعهم، ولاه الحجاج سجستان سنة ٧٨ هـ، ومات هناك.

(٣) السماطان: الصفان.

فتقدَّمت، وقالت: أصلح الله الأمير إني أتيتُك من أرضٍ شاسعةٍ، ترفعني رافعةٌ، وتخفضني واضعة؛ لملمّاتٍ قد أكلْن لحمي، وبَرَيْنَ عظمي فضاقَ بي البلدُ العريض. وقد جئتُ بلدًا لا أعرف فيه أحدًا، لا قرابة تكنفُني، ولا عشيرة تعرفني، بعد أن سألتُ أحياءَ العرب: مَنِ المرجوُّ نائلُه، المُعطَى سائلُه؛ فأُرسِلْتُ إليك، ودُللتُ عليك؛ وأنا ـ أصلحك الله ـ امرأةٌ قد هَلك عنها الوالد، وذهب عنها الطارف والتَّالِد، ومثلُك يسد الخلَّة، ويزيح العِلّة؛ فإما أن تُحسن صَفَدي[1] وتقيم أَوَدي، وإما أن تردّني إلى بلدي! فقال: بل أجمع لكِ كل ما ذكرت.

ثم أمر لها بعشرة آلاف درهم، وزادٍ وكسوة وراحِلَة.

نِسَاء بَنِي تميم[2]

قال الشَّعْبي: قال لي شُرَيح[3]: يا شَعبيّ؛ عليكم بنساء بني تميم، فإنّهنّ النساء! قلت: وكيف ذاك؟ قال: انصرفتُ من جنازة ذات يوم مُظْهِرًا[4]، فمررت بدور بني تميم، فإذا امرأة جالسة في سقيفة[5] على وسادة، وتُجاهها جارية رُؤْدة[6]، ولها ذُؤَابة على ظهرها كأحسن مَنْ رأيت من الجواري، فاستسْقيتُ ـ وما بي من عطش ـ فقالت: أيُّ الشراب أعجب إليك؟ ألنبيذ أم اللبن أم الماء؟ قلت: أيّ ذلك تيسّر عليكم. قالت: اسقوا الرجل لبنًا فإني إخالُه غريبًا. فلمّا شربت نظرت إلى الجارية فأعجبتني، فقلت: مَنْ هذه؟ قالت: ابنتي، فقلت: ومِمَّن؟ قالت: زينب بنت حُدير، إحدى نساء بني تميم. قلت: أفارغة أم مشغولة؟ قالت: بلْ فارغة. قلت: أتزوجينيها؟ قالت: نعم، إن كنت كفئًا؛ ولها عمٌّ فاقصِدْه.

---

(١) الصفد: العطاء.

(٢) مهذب الأغاني: ٣ ـ ٨٠، المستطرف: ٢ ـ ١٩، العقد الفريد: ٤ ـ ٨٠، الأغاني: ١٦ ـ ٣٦ (طبعة الساسي).

(٣) هو شريح بن الحارث. أدرك الجاهلية، واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة، فأقام بها قاضيًا مدة طويلة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير امتنع من القضاء فيها، وكان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة، وعقل وإصابة؛ كما كان شاعرًا محسنًا. توفي سنة ٨٧ هـ.

(٤) أظهر: دخل في الظهيرة، والظهيرة: حد انتصاف النهار.

(٥) السقيفة: الموضع المظلل.

(٦) الرؤدة: الشابة الحسنة.

وانصرفت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتنعت منّي القائلة[١]، فأرسلتُ إلى إخواني القُرَّاء[٢]، ووافيتُ معهم صلاة العصر، فإذا عمُّها جالس، فقال: أبا أميّة! حاجتَك، قلت: إليك. قال: وما هي؟ قلت: ذُكِرتْ لي بنتُ أخيك زينب، فقال: ما بها عنك رغبة، ثم زوَّجنيها. وما بلغتُ منزلي حتى ندمتُ وقلت: تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها! ثم هممت بطلاقها، ولكن قلت: أجمعُها إليّ، فإن رأيت ما أحبّ وإلّا طلقتها.

ثم مكثت أيامًا حتى أقبل نساؤها يُهادينها[٣]، ولما أدخلتْ قلت: يا هذه؛ إن من السنَّة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يُصلّيَ ركعتين وتصلّي ركعتين، ويسألا اللهَ خيرَ ليلتهما ويتعوَّذا به من شرِّها. فتوضّأتُ فإذا هي تتوضّأ بوضوئي، وصلّيت فإذا هي تصلّي بصلاتي، ولما قضينا الصلاة قالت لي: إنّي امرأة غريبة، وأنتَ رجل غريبٌ لا علمَ لي بأخلاقك، فبيّن لي ما تحبّ فآتيَه، وما تكره فأنزجرَ عَنه. فقلت: قدمْت خير مَقدَم؛ قدمت على أهل دارٍ، زوجُك سيد رجالهم، وأنت سيّدة نسائهم، أُحبُّ كذا وأكرهُ كذا، وما رأيتِ من حسنةٍ فابثثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

قالت: أخبرني عن أخْتَانك[٤] أتحبّ أن يزوروك؟ فقلت: إني رجل قاضٍ وما أحبّ أن تملُّوني. قالت: فمَنْ تحبّ من جيرانك يدخلُ دارك آذنُ له، ومَنْ تكرهُه أكرهُه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

وأقمت عندها ثلاثًا؛ ثم خرجتُ إلى مجلس القضاء؛ فكنت لا أرى يومًا إلا وهو أفضل من الذي قبله؛ حتى إذا كان رأس الحَوْل دخلتْ منزلي امرأة عجوز تأمر وتنهى. قلت: يا زينب؛ مَنْ هذه؟ قالت: أمي فلانة. قلت: حيَّاك اللهُ بالسلام، قالت: أبا أمية؛ كيف أنت وحالُك؟ قلت: بخير، أحمدُ الله. قالت: أبا أميَّة، كيف زوجُك؟ قلت: كخير امرأة، قالت: إن المرأة لا تُرى في حال أسوأ خُلُقًا منها في حالين: إذا حظيت عند زوجها، وإذا ولدت غلامًا، فإن رابَك منها

---

(١) القائلة: نصف النهار، وقال قيلًا: نام فيه.

(٢) جمع قارىء، وهم الذين يقرؤون القرآن ويتلونه.

(٣) يقال: تهادت المرأة إذا تمايلت في مشيتها، وكل من فعل ذلك بأحد فهو يهاديه.

(٤) الختن: الصهر، أو كل من كان من قبل المرأة.

ريب فالسَّوط، فإن الرجال ما حازت ـ والله ـ بيوتُهم شرًّا من الورهاء[١] المتدللة[٢].

قلت: أشهد أنها ابنتُك، فقد كفيتِيني الرياضة، وأحسنت الأدب. قالت: أتحب أن يزورك أُخْتانُك؟ قلت: متى شاءوا.

قال شريح: فكانت كل حولٍ تأتينا وتوصي تلك الوصية، ثم تنصرف. ومكثتُ مع زينب عشرين عامًا، فما غضبتُ عليها قط إلا مرّة كنت لها فيها ظالمًا.

لَيلى الأخيليَّة عِندَ الحجّاج[٣]

قال مولًى من الموالي: كنت أدخل مع عَنْبَسَةَ بن سعيد بن العاص إذا دخل على الحجاج؛ فدخل يومًا، فدخلتُ إليهما، وليس عند الحجاج أحدٌ إلا عَنْبَسَة؛ فأقْعَدني، فجيء إلى الحجاجِ بِطَبَقٍ فيه رُطَب، فأخذ الخادمُ منه شيئًا، فجاءني به ثم جِيء بطبق آخر، حتى كَثُرَت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلَّا جاءني منه بشيء، حتى ظننتُ أن ما بين يديَّ أكثرُ مما عندهما.

ثم جاء الحاجبُ؛ فقال: امرأةٌ بالباب؛ فقال له الحجاج: أدْخِلها، فدخلت، فلما رآها الحجاج طَأْطَأَ رأسه حتى ظننتُ أن ذقنَه قد أصاب الأرض؛ فجاءتْ حتى قعدت بين يديه؛ فنظرتُ فإذا امرأةٌ قد أسنّت، حَسَنَةُ الخَلْق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية.

فسألها الحجاج عن نسبها فانتَسبَتْ له؛ فقال لها: يا ليلى؛ ما أتى بك؟ فقالت: إخلافُ[٤] النجوم، وقلّةُ الغيوم، وكَلَبُ[٥] البَرْدِ، وشدّة الجَهد؛ وكنتَ لنا بعد الله الرِّفد[٦].

---

(١) الورهاء: الحمقاء.

(٢) يقال: تدللت المرأة على زوجها؛ إذا رأته جراءة عليه كأنها تخالفه وما بها خلاف.

(٣) الأمالي: ١ ـ ٨٦: زهر الآداب: ٤ ـ ٧٦، مصارع العشاق: ١٨٥، الأغاني: ١٠ ـ ٧٨ (طبعة الساسي)، فوات الوفيات: ٢ ـ ١٧٦، المحاسن والأضداد: ٢٤٦، سمط اللآلى: ١ ـ ٢٨٠، أشعار النساء: ٣ ـ ٣٧.

(٤) إخلاف النجوم؛ تريد: أخلفت النجوم التي بها يكون المطر فلم تأت بمطر.

(٥) كلب المطر: شدته.

(٦) الرفد: المعونة والعطية.

فقال لها: صِفي لنا الفِجَاج[١]، فقالت: الفِجَاج مُغْبرَّة، والأرض مُقْشَعِرّة، والمَبركُ[٢] معْتَلّ، وذو العيال مُخْتلّ[٣]، والهالك لِلْقُلّ[٤]، والناس مُسْنِتُون[٥]، رحمةَ الله يَرْجُون؛ وأصابَتْنا سِنون مُجْحِفة[٦] مبْلِطة[٧]، لم تَدَعْ لنا هُبَعًا[٨] ولا رُبَعًا، ولا عافِطَةً[٩] ولا نافِطة، أَذْهبتِ الأموال؛ ومزَّقت الرجال، وأهلكت العيال.

ثم قالت: إنّي قلت في الأمير قولًا، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجَّاج لا يُفْلَلْ سلاحُك[١٠] إنّها الـ ... ـمنايا بكفّ الله حيثُ تَرَاها
أحجّاجُ لا تُعْطِ العُصاةَ مُنَاهُمُ ... ولا اللهُ يُعْطِي للعصاة مُناها
إذا هبط الحجاجُ أرضًا مريضةً ... تتبّع أقْصى دائِها فَشفاها
شفاها من الداء العُضَال الذي بها ... غلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سقاها
سقاها فروَّاها بشرْب سِجَاله[١١] ... دماءَ رجالٍ حيث مال حَشَاها
إذا سمع الحجاج رِزَّ[١٢] كتيبة ... أعدَّ لها قبل النزول قِرَاها
أعدَّ لها مسمومةً فارسيَّة ... بأيدي رجال يَحْلُبون صَرَاها[١٣]
فما ولَدَ الأبكار والعونُ[١٤] مثلَه ... ببحرٍ ولا أرضٍ يجفُّ ثراها

فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلَها الله! والله ما أصاب صفتي شاعرٌ مذ دخلتُ العراق غيرها.

ثم التفتَ إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعدُّ للأمر عُدَّته، عسى ألّا يكون أبدًا. ثم التفت إليها، فقال: حسبك!

---

(١) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.
(٢) المبرك: أرادت الإبل؛ فأقامت المبرك مكانها.
(٣) ذو العيال مختل: أي محتاج، والخلة: الحاجة.
(٤) الهالك للقل: من أجل القلة. (٥) مسنتون: مقحطون.
(٦) السنة المجحفة: التي تجحف بالقوم قتلًا وإفسادًا للأحوال، أو مضرة بالمال.
(٧) مبلطة: ملزقة بالبلاط؛ تريد مهلكة.
(٨) الهبع: ما نتج في الصيف، والربع: ما نتج في الربيع.
(٩) العافطة: الضأن، والنافطة: الماعزة. (١٠) السلاح: يذكر ويؤنث.
(١١) السجال: جمع سجل، وهو الدلو العظيمة. (١٢) الرز: الصوت تسمعه من بعيد.
(١٣) الصرى: البقية. قال في السمط عند تفسير هذا البيت: تعني نصال الرماح والسهام كأنها مسقية، من أصابته لم ينج دنها.
(١٤) العون: جمع عوان، وهي التي كان لها زوج.

قالت: إنّي قد قلت مَن هذا! قال: حسبك، ويحك! حسبك.

ثم قال: يا غلام؛ اذهب إلى فلان؛ فقل له: اقطعْ لسانها، فذهب بها، فقال له: يقولُ لك الأمير: اقطعْ لسانها!

فأمر بإحضار الحجّام؛ فالتفتت إليه فقالت: ثكِلَتْكَ أُمُّك! أما سمعتَ ما قالت! إنما أمرك أن تقطعَ لساني بالصلة، فبعث إليه يستَثْبِته؛ فاستشاط الحجاج غضبًا، وهمَّ بقطعِ لسانه، وقال: ارْدُدْها. فلما دخلَتْ عليه قالت: كاد والله يقْطع مقْولي، ثم أنشأت تقول:

حـجَّـاجُ أنـت الـذي مـا فـوقَـه أحـدُ
إلا الـخـليـفـةُ والـمـستَـغـفَـرُ الـصَّـمَـدُ
حـجّـاجُ أنـت شـهـابُ الـحـرب إن لَقِـحـت[1]
وأنـت لـلـنـاس نـورٌ فـي الـدُّجـا يَـقِـدُ

ثم أقبلَ الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون مَنْ هذه؟ قالوا: لا والله أيُّها الأمير، إلا أنَّا لم نرَ قطُّ أفصح لسانًا، ولا أحسنَ محاورة، ولا أملحَ وجهًا، ولا أرصنَ شعرًا منها.

فقال: هذه ليلى الأخيلية، التي مات تَوْبة الخفاجيُّ من حبها، ثم التفتَ إليها؛ فقال: أنشدينا يا ليلى بعضَ ما قال فيك توبة.

قالت: نعم أيّها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تَبْكِيَنْ ليلَى إذا مُتّ قبلَها ... وقام على قبري النساءُ النوائحُ؟
كما لو أصاب الموتُ ليلى بكَيْتُهَا ... وجادَ لها دمعٌ من العين سافحُ[2]
وأُغْـبَـطُ مـن لَيْـلَى بـمـا لا أنـالُه ... بلى، كلّ ما قرَّت به العينُ طائح
ولـو أَنَّ لَيْـلَى الأخْـيَـلِيَّة سلّمتْ ... عَلَيّ؛ ودوني جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقا ... إليها صدًى من جانب القبر صائح

(١) أصله من لقحت الإبل؛ إذا حملت. والحرب إذا عظمت تتولد عنها الأمور التي لم تكن تحتسب (الخزانة ـ ١: ٤٢٦).

(٢) سافح: منصب.

فقال: زيدينا من شعره يا ليلى، قالت: هو الذي يقول:

حمامةَ بَطْنِ الوَادِيَيْنِ ترنَّمي ... سقاكِ من الغُرّ الغوادي[١] مَطِيرها
أَبِيني لنا، لا زَالَ ريشُكِ ناعمًا ... ولا زلتِ في خضراءَ غضٍّ نَضِيرُها
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تَبَرْقَعَتْ ... فقد رابني منها الغَدَاةَ سُفُورُها
وقد رابني منها صدودٌ رأيتُه ... وإعراضُها عن حاجتي وبُسُورُها[٢]
وأُشْرِف بالقُورِ[٣] اليَفَاع لعلّني ... أرى نارَ ليلى أو يراني بصيرُها
يقول رجالٌ: لا يضيرُك نَأْيُها ... بلى! كل ما شفَّ[٤] النفوس يَضِيرُها
بلى! قد يضيرُ العينَ أن تكثِرَ البُكا ... ويُمْنَعَ منها نومُها وسرورُها
وقد زعمتْ ليلى بأنّيَ فاجرٌ ... لنَفْسي تُقَاها، أو[٥] عليها فُجُورُها

فقال الحجّاج: يا ليلى؛ ما الذي رَابَه من سُفورك؟ فقالت: أيّها الأمير؛ كان يُلم بي كثيرًا؛ فأرسل إليَّ يومًا: إني آتيكِ، وفَطِن الحي؛ فأرصدوا له، فلمّا أتاني سَفَرْت عن وجهي، فعلم أن ذلك لشرّ؛ فلم يزد على التسليم والرجوع.

فقال: للهِ درُّك! فهل رأيتِ منه شيئًا تكرهينه؟ فقالت: لا والذي أسأله أن يصلحك، غير أنّه قال مرة قولًا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأتُ أقول:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيتُ منه شيئًا، حتى فرَّق الموت بيني وبينه. قال: ثم مَه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاةٍ له، فأوصى ابنَ عمّ له: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة، فنادِ بأعلى صوتك:

عفا الله عنها، هل أبيتَنَّ ليلةً ... من الدهر لا يسري إليَّ خيالها!

(١) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة.
(٢) بسورها: عبوسها.
(٣) القور: جمع قارة، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء: والبقاع كسحاب: التل.
(٤) شفه الهم: هزله. (٥) أو هنا بمعنى الواو.

وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله فعزّت علينا حاجةٌ لا ينالُها

قال: ثم مه! قالت: ثم لم يلبث أن مات؛ فأتانا نَعْيُه.

فقال: أنشدينا بعض مَرَاثيك فيه، فأنشدت:

لتَبْكِ العَذَارَى من خفاجةَ نِسْوَةٌ[١] بماء شؤون العَبْرَة المتَحَدِّرِ

قال لها: فأنشدينا؛ فأنشدته:

كأن فتى الفتيان تَوْبَة لم يُنِخْ قلائصَ يفحصن الحصى بالكَرَاكرِ[٢]

فلما فرغت من القصيدة، قال محصن الفَقْعَسي[٣] - وكان من جلساء الحجاج: من الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة! فنظرت إليه، ثم ردّت عليه ردًّا شديدًا، فقال الحجاج: هذا وأبيكَ الجواب، وقد كنتَ عنه غنيًّا.

ثم قال لها: سلي يا ليلى تُعْطَيْ، قالت: أعْطِ، فمثلُكَ أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فمثلك زاد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد، فمثلك زاد فتمّم، قال: لك مائة، واعلمي أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير! أنت أجْوَدُ جُودًا، وأمجد مجدًا، وأوْرَى زَنْدًا، من أن تجعَلها غنمًا. قال: فما هي؟ ويحك يا ليلى! قالت: مائة من الإبل برُعاتها. فأمر لها بها.

ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إليَّ النابغة الجعدي، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك؛ فخرج هاربًا عائذًا بعبد الملك. فاتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخُراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فماتت بقُومِس[٤].

---

(١) نسوة: تبيين، وارتفاعه بفعل مضمر، كأنها قالت تبكيه نسوة. وفي هامش الأمالي: «لعله المتحادر بالألف قبل الدال لتستقيم القافية».

(٢) الكركرة: رحى زور البعير، أو صدر كل ذي خف، وتفعل الإبل ذلك في شدة الحر يطلبن برد الماء لينلنه.

(٣) كان محصن الفقعسي من جلساء الحجاج. (٤) صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

الحجّاج يُخالِف سَجاياه[١]

خرج زيد بن شبيب الشيبانيّ في أيام عبد الملك بن مرْوان، فظفر به الحجاجُ وبأصحابه، وجَعَل يقتل كل مَقْدُور عليه منهم، فلمّا كان آخر الأمر قُدّم إليه رجلٌ منهم، له سَمْت ورُواء وهيئة.

فلما همّ الحجاج بقتْله سمع ضجةً بالباب؛ فقال لحاجبه: ما هذه الضجّة؟ قال: نِسوة في الباب يسأَلْن الدخولَ على الأمير. فقال الحجاج: ائذن لهنَّ بالدخول؛ فدخلْنَ وهنّ ثلاث وعشرون امرأة، كلُّهن أهل بيت هذا الرجل الذي همَّ الحجاج بقتله، فقال لهن الحجاج: ما حاجتكنّ؟ فتقدمت امرأةٌ منهنّ فقالت: أصلحَ اللهُ الأمير! إن رأيت أن تجود باستماع ما أقول! فقال لها: قولي ما أحببت، فقالت:

أحجّاجُ إمّا أَنْ تمنَّ بِتَرْكه ... علينا وإمّا أن تُقَتِّلَنَا مَعَا
أحجاج لو تشهد مقام بناته ... وعمّاتِه يندبَنه الليل أجمعَا
أحجاج لا تفجع به إن قتلتَهُ ... ثمانًا وتسعًا واثنتين وأربعَا
فَمنْ رجلٌ دانٍ يقومُ مَقَامَه ... علينا فمهلًا لا تَزِدْنَا تَضَعْضُعَا

فلانَ الحجاج لقولها، ووجد رقةً عليهن، وعفا عنه وأطلقه، وزَاد في عطائه مائة دينار، وكتب كتابًا إلى عبد الملك يذكرُ له خبرَه وخبرَ النسوة والمرأة وشِعْرَها، وأنه قد رَقَّ لهن، وأطلقَه وزاد في عطائه مائة دينار.

فكتب إليه عبد الملك يحمده على ذلك، وأمره أن يزيدَه مائة أخرى في عطائه.

أَسَدٌ عَليَّ وَفِي الحُروب نَعامةٌ[٢]

قَدِمَ الحجاج على الوليد بن عبد الملك؛ فدخل وعليه دِرْع وعمامة سوداء، وقَوْس عربيّة وكنانة، فبعثت إليه أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فقالت: مَنْ

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١١٨، المحاسن والمساوىء: ٦٠٢ (طبع ليبزج)، المستطرف: ١ ـ ١٩٥.

(٢) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٤٠، بلاغات النساء: ١٢٤، عيون الأخبار: ١ ـ ١٦٩.

هذا الأعرابي المُسْتَلْئم[١] في السلاح عندك، وأنتَ في غِلالة[٢]! فبعث إليها: إنّه الحجاج.

فأعادت الرسول إليه، فقال: تقول لك: والله لأنْ يخلُوَ بك ملكُ الموت أحَبُّ إليَّ من أن يخلوَ بك الحجّاج! فأخبره الوليد وهو يمازحه؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين: دَعْ منك مُفَاكَهة النساء بزخْرف القول؛ فإنّما المرأة ريحانة، وليست قَهرَمانة[٣]؛ فلا تُطْلعها على سرِّك، ومكايدة عدوِّك.

فلما دخل الوليد أخبَرها بمقالة الحجاج؛ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ حاجتي إليك أن تأمره غدًا بأن يأتيني مُسْتلئمًا، ففعل ذلك.

وأتاه الحجاج؛ فحجبته ثم أدخلته ولم تأذنْ له في القعود، فلم يزلْ قائمًا، ثم قالت: إيه يا حجّاج! أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتال ابنِ الزُّبير وابْنِ الأشعث! أما والله لولا أن الله عَلِمَ أنك شرُّ خَلْقِهِ ما ابْتَلَاكَ برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين[٤]؛ أوّل مولود في الإسلام.

وأمّا نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره، فإن كُنَّ يَلِدْنَ مثلكَ فما أحقه بالقبول منك، وإن كن يلِدْن مثله فهو غير قابل لقولك. أمَا والله لقد نَفَضَ نساءُ أميرِ المؤمنين الطيبَ من غدائرهن والْحَلْيَ من أيديهن وأرجلهن فبِعْنَه في أعطية أهل الشام، حين كنتَ في أضيقَ من القَرَن[٥]، فقد أظَلَّتك رماحهم، وأثخنك[٦] كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم؛ فأنجاك اللهُ من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه؛ قاتل الله القائل حين نظر إليك وسِنان غَزَالة[٧] بين كتفيك:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نَعَامةٌ ... فَتْخَاءُ تنفِرُ من صفير الصّافرِ[٨]
هلّا كرَرْت على غَزَالة في الْوَغى ... بل كان قَبْلُكَ في جَوانحِ طائر

(١) استلأم الرجل؛ إذا لبس ما عنده من عدة: رمح وبيضة ومغفر وسيف ونبل.
(٢) الغلالة: شعار تحت الثوب.
(٣) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس.
(٤) ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، سميت بذلك لأنها شقت نطاقها ليلة خروج النبيّ ﷺ إلى الغار، فجعلت واحدة لسفرة النبيّ، والأخرى عصامًا لقربته.
(٥) القرن هنا: الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز.
(٦) أثخن: غلب وقهر.
(٧) غزالة: امرأة شبيب الخارجي.
(٨) يقال ناقة فتخاء: ارتفعت أخلافها قبل بطنها؛ وهو ذم.

ثم قالت لجواريها: أَخْرِجْنَه؛ فأُخرج!

فدخل على الوليد، فقال: ما كنتَ فيه يا حجاج؟ قال: يا أمير المؤمنين: ما سكتت حتى ظننت نفسي قد ذهبت، وحتى كان بطن الأرض أحبَّ إليّ من ظهرها، وما ظننت أن امرأة تبلغ بلاغتها، وتحسن فصاحتها! قال: إنها بنت عبد العزيز!

الشعَراء عِندَ سكينَة بنت الحسَين[1]

اجتمع الفرزدقُ وجميل وجرير ونُصيب وكُثيّر في موسم من المواسم، فقال بعضهم لبعض: والله لقد اجتمعنا في هذا الموسم، وما ينبغي لنا أن نتفرّق إلّا وقد تتابعَ لنا في الناس شيء نُذْكَرُ به. فقال جرير: هل لكم في سُكينة بنت الحسين، نقصدها فنسلمَ عليها؛ فلعل ذلك يكون سببًا لبعض ما نريد! فقالوا: امضُوا بنا. فمكثوا أيامًا، ثم أذنت لهم، فدخلوا عليها وقعدت لهم حيث تراهم ولا يَروْنها، ثم أخرجت لهم وصيفة لها وضيئة، وقد رَوَتِ الأشعار والأحاديث، فأقرأها كلّ منهم السلام فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت الذي تقول:

أَبِيتُ أُمَنّي النفسَ أَنْ سوف نلْتقي ... وهلْ هُوَ مَقْدُورٌ لنفسي لقاؤها
فإن أَلْقَهَا أو يجمعِ الدهرُ بيننا ... ففيها شفاءُ النفس منها ودَاؤها

قال: نعم! قالت: قولُك أحسنُ من منظرك! وأنت القائل:

ودَّعْنَنِي بإشارةٍ وتحيَّةٍ ... وتركْنَنِي بين الديارِ قتيلَا
لم أَسْتطعْ ردَّ الجوابِ عليهمُ ... عند الوَدَاعِ وما شَفَيْنَ غَليلَا
لو كنتُ أملِكُهُمْ إذنْ لم يبرَحُوا ... حتى أُوَدِّعَ قَلْبِيَ المخبولَا

قال: نعم، قالت: أحسنتَ، أحسنَ اللهُ إليك! وأنت القائل:

هُمَا دَلّتَاني من ثمانين قامةً
كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسِرُهْ[2]

---

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٣٤ (طبع ليبزج)، مصارع العشاق: ٢٧٢، الأغاني: ١٤ ـ ١٩٦ (طبعة الساسي)، الموشح: ١٥٩.

(٢) كسر الطائر جناحية: إذا ضم منهما شيئًا، وهو يريد الوقوع أو الانقضاض.

فلما استوتْ رجلايَ في الأرضِ نَادَتَا:
أحيٌّ فيُرْجَى أم قتيلٌ نحاذِرُهْ!
فقلت: ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
وولّيتُ في أَعْقَابِ ليلِ أبادِرُهْ

قال: نعم، قالتْ: سَوْءَةً لك! فما دعاك إلى إفشاءِ سرِّها وسرِّك! هلا سترتَ عليها وعلى نفسك! فضرب بيده على جَبْهَتِهِ، وقال: نعم، فسوءة لي!

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت: أيّكم جرير؟ فقال: هأنذا؛ قالت: أنت القائل:

رُزِقْنَا به الصَّيْدَ الغزيرَ ولم نكُنْ كَمنْ نَبلُهُ محرومة وحبائِلُهْ
فهيهات هيهات العقيقُ ومَنْ به وهيهات حيٌّ بالعقيق نوَاصلُهْ

قال: نعم، قالت: أحسنَ اللهُ إليك، وأنتَ القائل:

كأنّ عيونَ المُجتَلين تعرَّضَتْ وشمْسًا تجَلَّى يوم دَجْنٍ سَحَابُها[1]
إذا ذُكرَتْ لِلْقَلْب كاد لذِكْرِهَا يطيرُ إليها واعْتَرَاهُ عذابُها

قال: نعم، قالت: أحسنتَ! وأنت القائل:

سَرَتِ العمومُ فبِتْنَ غيرَ نِيامِ وأخُو الهموم يَرَومُ كلّ مَرامِ
ذُمَّ المنازِلَ بعد منزلةِ اللّوى والعيشَ بعد أُولئك الأيّامِ
طَرَقَتكَ صائدةُ القلوبِ وليسَ ذا وقتَ الزيارةِ فارْجِعي بسلَامِ
لو كان عَهْدُكِ كالذي حدَّثتِني لَوَصَلْت ذاك فكان غير رِمامِ
تُجْرِي السِّواك على أغرَّ كأَنَّهُ بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتُونِ غَمَامِ

قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتَها صائدةَ القلوب، حتى إذا أناخت ببابك جعلتَ دونها حجابًا! ألا قلت:

طَرَقَتْكَ صَائدَةُ القلوب فمرحبًا نفسي فداؤك فادْخُلي بِسَلامِ

قال: نعم! فسوءةً لي!

---

(١) الدجن: المطر الكثير.

ودخلت على مولاتها وخرجتْ، وقالت: أيّكم كثيّر؟ فقال: هأنذا! فقالت: أنت القائل:

وأغـجَبَني يا عـزّ منـك خلائِقٌ ـ حسانٌ إذا عُدَّ الخلائقُ ـ أَرْبَعُ

دُنُوُّكِ حتى يطمَع الصبُّ في الصّبا وقطْعُكِ أسْبابَ الصِّبَا حين تُقْطَعُ

وأنك لا تدري غريمًا مَطَلْتِهِ أيشتَدُّ إن قاضاكِ أم يتضرَّعُ!

وأنك إن واصلت أعْلَمْتِ بالذي لديك فلم يُوجَدْ لكِ الدَّهْرَ مَطْمَعُ

قالت: نعم، قالت: أعطاك الله مُنَاكَ! وأنت القائل:

هنيئًا مريئًا غيرَ داءٍ مُخامر لعزّةَ من أعراضنا ما اسْتَحَلّتِ

فما أنا بالدّاعي لعزّةَ بالجوى ولا شامتٍ إنْ نَعْلُ عزَّةَ زلّتِ

وكنتُ كذي رجليْنِ رجلٍ صحيحةٍ ورِجْل رَمى فيها الزمَانُ فَشلّتِ

قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، وقالت: أيكم نُصَيْب؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

ولـولا أن يقـالَ: صَبَا نُصَيْبٌ لقلت: بِنفسِيَ النَّشأُ الصِّغَارُ[1]

قال: نعم! قالت: أحسنت وكرمت، إلا أنك صبوت إلى الصغار، وتركت الناهضات بأحمالها.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، وقالت: أيُّكم جميل؟ قال: أنا، قالت: أنتَ القائل:

لقد ذَرَفَتْ عيني وطَالَ سُفُوحُها وأصبحَ منْ نَفْسِي سقيمًا صَحيحُها

ألا لَيتنا كُنّا جميعًا وإن نَمُتْ يُجَاوِرُ في المَوْتَى ضَريحي ضَرِيحُها

أظلُّ نَهارِي مُسْتَهامًا ويَلْتَقي مع الليل رُوحي في المَنامِ ورُوحُها

فهل لِيَ في كِتْمانِ حُبِّيَ رَاحَةٌ! وهل تَنْفَعَنّي بَوْحَةٌ لو أبُوحُها؟

(١) النشأ: جمع ناشيء للمذكر وللمؤنث، وهو الحدث الذي جاوز حد الصغر.

قال: نعم! قالت: بارك الله عليك؛ وأنت القائل:

خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأَيْتُمَا قتيلًا بكَى من حُبِّ قاتلِهِ قَبْلِي؟
أبيتُ مع الهُلَّاكِ ضيفًا لأهلها وأهْلِي قريبٌ مُوسِعُون ذَوُو فَضْلِ
فيا ربّ إن تَهلِكْ بُثَيْنَةُ لا أَعِشْ فوَاقًا[1]، ولا أفرحْ بمالي ولا أهْلي
ويا ربِّ إن وَقَّيْتَ شيئًا فوقِّها حُتُوق المَنَايا، ربِّ واجمَعْ بها شَمْلي

قال: نعم! قالت: أحسنت. أحسن الله إليك، وأنت القائل:

ألَا ليتَ شِعْري هل أبيتنَّ ليلةً بوادِي القُرَى إني إذنْ لَسعِيدُ
لكلِّ حديث عندهُنَّ بَشَاشَةٌ وكلُّ قتيلٍ بينهنَّ شهيدُ
ويا ليتَ أيام الصِّبا كنَّ رُجَّعًا ودَهْرًا تولّى يا بُثَيْنَ يَعُودُ
إذا قلتُ: ما بي يا بُثينةُ قاتلي من الحبِّ قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ: رُدِّي بعض عقلي أعشْ به تناءتْ وقالت: ذاك منْكَ بعيدُ
فما ذُكِرَ الخِلَّان إلا ذكرْتها ولا البخلُ إلا قلتُ سوف تجودُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالبًا ولا حُبُّها فيما يبيدُ يبيدُ
يموت الهوَى مني إذا ما لقَيتُها ويحيا إذا فارقْتُها ويزيدُ

قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلت لحديثها مَلَاحة وبشاشة، وقتيلها شهيدًا، وأنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني بثينةُ لا يخفى عليّ مكانُها

قال: نعم، قالت: قد رضيتَ من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم!
قال: نعم.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، ومعها مُدْهُنٌ فيه غالية[2]، ومنديل فيه كسوة، وصرةٌ فيها خمسمائة دينار فصبت الغالية على رأس جميل، حتى سالت على لحيته، ودفعت إليه الصرة والكسوة، وقالت: ابسط لنا العذر؛ أنت أشعرهم، وأمرتْ لأصحابه بمائة مائة.

---

(١) فواقًا: فترة.
(٢) الغالية: الطيب.

الفَرزدق وَسكينة بنت الحسَين(١)

خرج الفرزدق حاجًّا؛ فلما قضى حجّه عدَل إلى المدينة، فدخل إلى سُكينة بنت الحسين، فسَلَّم، فقالت له: يا فرزدق، مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعرُ منك الذي يقول:

بنفسيَ مَنْ تجَنُّبُه عزيزٌ   عليّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمْسى وأُصبح لا أراهُ   ويطرُقُني إذا هجع النيامُ

فقال: أما والله لو أذنتِ لي لأسمعتُك أحسنَ منه. قالت: أقيموه؛ فأُخرج. ثم عاد إليها من الغد، فدخل عليها؛ فقالت: يا فرزدق، مَنْ أشعرُ الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ   ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هجر الضّجيعُ فراشها   كُتم الحديثُ وعفتِ الأسرار
لا يلبث القُرَناء أن يتفرّقوا   ليلٌ يكُر عليهمُ ونهارُ

فقال: والله لئن أذنتِ لي لأسمعنك أحسنَ منه، فأمرتْ به فأخرج.

ثم عاد إليها في اليوم الثالث، وحولَها موَلَّدَاتٌ لها كأنهن التماثيل؛ فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعْجِب بها، وبُهت ينظر إليها. فقالت له سكينة: يا فرزدق مَن أشعرُ الناس؟ قال: أنا؛ قالت: كذبت؛ صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إنّ العيون التي في طرفها مرَضٌ   قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يصْرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَرَاكَ به   وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانا

فقال: لئن تركتني لأسمعنَّك أحسنَ منه، فأمرت بإخراجه.

فالتفت إليها، وقال: يا بنت رسول الله، إن لي عليك حقًّا عظيمًا. قالت: وما هو؟ قال: ضربتُ إليك آباط الإبل من مكّة إرادَة التسليم عليك، فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطَرْدي، وتفضيلَ جرير عليّ، ومنعك إياي أن أُنشدَك شيئًا من

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ٣٨ (طبعة دار الكتب)، مصارع العشاق: ٧٤، المحاسن والمساوىء: ٢٣٣ (طبع ليبزج).

شعري، وبي ما قد عيلَ منه صبري؛ وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلّي لا أفارقُ المدينة حتى أموت، فإذا أنا متّ فمُري بي أن أُدرَج في كفني، ثم أُدفَن في ثياب هذه الجارية[١].

فضحكت سُكَينة وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخِذًا بريْطَتِها[٢]؛ ثم قالت له: يا فرزدق، احتفظ بها وأحْسِنْ صحبتها، فإني آثرتُك بها على نفسي، بارك الله لك فيها.

قال الفرزدق: فلم أزل والله أرى البركة بدعائها في نفسي وأهلي ومالي.

يَوم عِندَ امرأة مِن بَنِي أميّة[٣]

خرج النُّصِيب هو وكُثَيِّر والأحوصُ غِبَّ يوم أمطرتْ فيه السماءُ، فقال: هل لكم في أن نركبَ جميعًا فنسيرَ حتى نأتي العَقيقَ، فَنُمَتِّعَ فيه أبصارَنا؟ فقالوا: نعم؛ فركبوا أفضْلَ ما يقدِرُون عليه من الدواب، ولبسوا أحسنَ ما يقدرون عليه من الثياب، وتنكروا ثم سارُوا حتى أتَوا العقيقَ، فجعلوا يتَصفَّحُون ويرون بعض ما يشتَهُون، حتى رُفِعَ لهمْ سوادٌ عظيم فأمُّوه، فإذا وصائفُ ورجالٌ من الموالي ونساءٌ بارزاتٌ، فسألْنَهم أن ينزلوا فاستحْيَوْا أن يُجيبوهنَّ من أول وهلةٍ؛ فقالوا: لا نستطيع أو نمضي في حاجةٍ لنا، فحلَّفْنهمْ أن يَرْجِعُوا إليهنَّ، ففعلوا أوتوْهنَّ فسألْنَهم النزول فنزلوا.

ودخلت امرأةٌ من النّساء فاستأذنتْ لهم، فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت: ادخلوا.

قال النُّصيب: فدخلنا على امرأة جميلة برْزَةٍ على فرشٍ لها، فرحَّبَتْ، وحَيَّتْ؛ وإذا كراسيُّ موضوعةٌ، فجَلَسْنا جميعًا في صفٍّ واحدٍ كلُّ إنسانٍ على كرسي، فقالت: إن أحببتم أن ندعوَ بصبيّ لنا فَنُصَيِّحه ونَعْرُكَ أُذنَه فعلنا، وإن شئتم بدأنا بالغَدَاء، فقلنا: بل تَدْعِين بالصبيّ، ولن يفوتَنا الغدَاء.

فأومأت بيدها إلى بعض الخدم، فلم يكن إلا كلَا ولَا حتى جاءت جارية جميلةٌ قد سُتِرتْ بمُطْرَفٍ، فأمسكوه عليها حتى ذهل بُهْرُها[٤]، ثم كُشِفَ عنها،

---

(١) يشير إلى الجارية التي أعجبته. (٢) الريطة: الملاءة.
(٣) الأغاني: ١ ـ ٣٥٦ (طبعة دار الكتب).
(٤) البهر في الأصل: انقطاع النفس من الإعياء، ويراد هنا: الخجل والروع.

وإذا جارية ذات جمالٍ، قريبةٌ من جمال مَوْلَاتِها، فرحَّبَتْ بهم وحَيَّتْهم، فقالت لها مولاتُها: خُذَي العود ويحك! وغني من قول النّصيب، عافَى الله أبا مِحْجَن!

أَلَا هل من البَيْنِ المُفَرق من بُدٌّ   وهل مثلُ أيام بمُنْقطع[١] السَّعْدِ!
تَمَنَّيْتُ أَيَّامي أُولئكَ والمُنَى   على عهد عادٍ ما تُعِيدُ[٢] ولا تُبْدِي

فغنَّتْهُ، فجاءت به كأحسن ما سمعتُه قط؛ بأحلى لفظ وأشجى صوت، ثم قالت لها: خُذِي أيضًا من قول أبي مِحْجَن، عافى الله أبا محجن!

أرقَ المحبُّ وعاده سَهَدُهْ   لِطَوَارقِ الهمِّ التي تَرِدُهْ
وذكرتُ من رقَّتْ له كبدي   وأبَى فليس ترقُّ لي كبدُه
لا قَوْمُه قومي، ولا بلَدِي   ـ فنكُونَ حينًا جيرةً ـ بلَدُهْ
ووجَدْتُ وجْدًا لم يكن أحدٌ   قبْلِي منَ أجْلِ صبابةٍ يجِدُهْ
إلّا ابن عَجْلَانَ[٣] الذي تبلَتْ   هندٌ ففاتَ[٤] بنفسه كمَدُهْ

قال: فجاءت به أحسن من الأول، فكدت أطيرُ سرورًا، ثم قالت لها: ويحك! خذي من قول أبي محجن، عافى الله أبا محجن!

فيا لكَ من ليلٍ تمتعتُ طُولَه   وهل طائفٌ من نائم مُتَمَتِّعُ!
نعم إنّ ذا شَجْوٍ ـ متى يلقَ شجْوَه   ولو نائمًا مُستعتبٌ[٥] أو مودِّعُ
له حاجةٌ قد طَالمَا قد أسَرَّها   من الناسِ في صدْرٍ بها يتصدَّعُ
تحمّلَها طُولَ الزمانِ لعلّها   يكونُ لها يومًا من الدهرِ مَنْزعُ
وقد قُرِعَتْ في أمّ عمرو لِيَ العصا   قديمًا، كما كانت لذي الحِلْم تُقْرَعُ[٦]

قال: فجاءت والله بشيء حيَّرني وأذهلني طربًا لحسن الغناء، وسرورًا باختيارها الغناء في شعري، وما سمعتُ فيه من حُسن الصَّنْعة وجَوْدتها وإحكامها.

---

(١) منقطع المكان: حيث ينتهي، والسعد: موضع قرب المدينة.
(٢) أي لا فائدة منها.
(٣) هو عبد الله بن عجلان، شاعر جاهلي عاشق؛ عشق هند بنت كعب بن عمر ومات في سبيلها، فضرب المثل بعشقه (تزيين الأسواق: ٢ ـ ٧٦).
(٤) أي أن الكمد أهلكه وذهب بنفسه.
(٥) الاستعتاب: طلب العتبى وهو الرضا.
(٦) يشير إلى المثل: «إن العصا قرعت لذي الحلم» يضرب لمن إذا نبه انتبه، والمعنى أنه قد ليم قديمًا في حبها.

ثم قالت لها: خُذِي أيضًا من قول أبي محجن، عافى الله أبا محجن:

يا أَيُّها الرّكبُ إني غيرُ تابعكمْ حتى تُلِمُّوا وأنتم بي مُلِمُّونا
فما أرى مثلكُمْ ركبًا كَشَكلكمُ يدعوهُمُ ذُو هوًى إلا بَعُوجُونا
أم خَبِّرُوني عن دائي بعلمكُم وأعلمُ الناسِ بالداء الأَطَبُّونا[1]

قال نصيب: فوالله لقد زُهيتُ بما سمعت زهْوًا، خيّل إليّ أني من قُريش، وأن الخلافة لي، ثم قالت: حَسْبُكِ يا بُنيَّة، هاتِ الطعام يا غلام؛ فوثب الأحوصُ وكثيِّرٌ، وقالا: والله لا نَطْعَم لكِ طعامًا، ولا نجلس لكِ في مجلس، فقد أسأْتِ عِشْرَتَنا واستَخْفَفتِ بنا، وقدَّمتِ شعر هذا على أشعارنا، واستمعت الغناء فيه؛ وإن في أشعارنا لَمَا يَفْضُل شعرَه، وفيها من الغناء ما هو أحسنُ من هذا، فقالت: على معرفةٍ كلُّ مَا كان منيّ!

ثم خرجا مُغْضَبَيْنِ واحْتَبَسَتْنِي. فتغدّيت عندها، وأمرتْ لي بثلاثمائة دينار وحُلّتَيْنِ وطيبٍ، ثم دفعتْ إليَّ مائتي دينار، وقالت: ادفعها إلى صاحبيك، فإن قَبِلَاها وإلا فهي لك.

فأتيتُهما منازلَهما فأخبرتهما القصة، فأمّا الأحوص فقَبِلها، وأما كثُيِّر فلم يقبلها وقال: لعن الله صاحبتَك وجائزتها ولعنك معها، فأخذتها وانصرفتُ.

قال الراوي: فسألتُ النصيب: مِمَّن المرأةُ؟ قال: من بني أميّة، ولا أذكر اسمها ما حييتُ لأحد.

حَديث عَائِشة بنت طلحَة مَع النُّمَيرِي[2]

لمّا تَأَيَّمَتْ[3] عائشةُ بنتُ طلحة كانت تقيم بمكّة سنةً وبالمدينة سنة؛ وتخرج إلى مالٍ[4] عظيم لها بالطائف، وقصرٍ كان لها هناك فتتنزّه فيه، وتجلس بالعشيّات، فيتناضَلُ بين يديها الرُّماة.

---

(١) الأطبون: البارعون في الطلب.
(٢) الأغاني: ٦ ـ ٢٠٣ (طبعة دار الكتب).
(٣) تأيّمت المرأة: إذا مات عنها زوجها ولم تتزوج. وقد كانت عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر فهلك عنها فتزوجها بعده مصعب بن الزبير فقتل عنها، ثم تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر، فمات عنها، فلم تتزوج بعده. توفيت سنة ١١٠.
(٤) المال: ما ملكه الإنسان من كل شيء.

فمرّ بها النُّميريّ الشاعر[١]، فسألتْ عنه فنُسب لها، فقالت: ائتوني به فأتَوْها به. فقالت له: أنشِدْني ممّا قلت في زينب[٢]؛ فامتنع عليها وقال: تلك ابنةُ عمّي، وقد صارت عظامًا بالية، قالت: أقسمتُ عليك بالله إلّا فعلتَ؛ فأنشدها قوله:

تَضَوّعَ مِسكًا بطنُ نَعْمان[٣] إذ مشت ... به زينبٌ في نسوةٍ عَطِراتِ

تهادَيْنَ ما بين المُحَصَّبِ[٤] من مِنًى ... وأقبلْنَ لا شُعثًا ولا غَبِرَاتِ

أعَان الذي فوق السمٰوات عرشُه ... مَواشيَ بالبطحاء مُؤْتَجِرَاتِ[٥]

مرَرْنَ بفخٍّ[٦]، ثم رُحْنَ عشيَّةً ... يلبّين للرّحمٰن مُعْتمراتِ

يخبِّئن أطرافَ البَنَان من التّقى ... وَيَقْتُلن بالألحاظ مُقْتَدِراتِ

تقسّمن لُبِّي يوم نَعمان إنّني ... رأيت فؤادي عارِم[٧] النّظَراتِ

جَلَوْنَ وُجُوهًا لم تَلُحْها سمائمٌ ... حَرُورٌ، ولم يُسْفَعْن بالسَّبَرات[٨]

ولمّا رأتْ ركْبَ النميريّ راعَها ... وكنّ مِنَ إنْ يلقَيْنَه حذراتِ

فأَدْنَيْن حتى جاوز الركبُ دونَها ... حجابًا من القَسّيّ[٩] والحِبَرَاتِ

فكِدْتُ اشتياقًا نحوها وصبابةً ... تقطّعُ أنفاسي إثْرَها حَسَراتِ

فراجعتُ نفسي والحفيظةَ بعدمَا ... بلَلْتُ رداء العَصب[١٠] بالعِبرات[١١]

---

(١) هو محمد بن عبد الله، من ثقيف، شاعر غزل مولد من شعراء الدولة الأموية. توفي سنة ٩٠ هـ.

(٢) هي زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج الثقفي، وللنميري فيها أشعار كثيرة: شبب بها في حياتها ورثاها بعد موتها.

(٣) بطن نعمان: موضع بين مكة والطائف.

(٤) المحصب: موضع بين مكة ومنى.

(٥) مؤتجرات: طالبات للأجر.

(٦) فخ: موضع؛ بينه وبين مكة ثلاثة أميال.

(٧) عارم النظرات: شديدها.

(٨) لاحته الشمس: لفحته وغيرت وجهه، والسمائم: جمع سموم وهي ريح حارة، وسفعته: غيرته. والسبرات: جمع سبرة وهي شدة البرد.

(٩) القسي: نوع من الثياب، والحبرات: ضرب من برود اليمن.

(١٠) العصب: برود يصبغ غزلها ثم تنسج.

(١١) رُوِيَ أن هذه القصيدة حينما بلغت عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج: «قد بلغني قول الخبيث في زينب، فاله عنه، وأعرض عن ذكره؛ فإنك إن أدنيته أو عاتبته أطمعته، وإن عاقبته صدقته».

فقالت: والله ما قلتَ إلّا جميلًا، ولا ذكرتَ إلا كرمًا وطيبًا، ولا وصفتَ إلا دِينًا وتقًى! أعطوه ألف درهم.

فلما كانت الجمعة الأخرى تعرّض لها؛ فقالت: عليّ به، فأحضر. فقالت له: أنشدني من شعرك في زينبَ، فقال لها: أو أُنشِدُك من شعر الحارث بن خالد فيك؟ فوثب مواليها إليه؛ فقالت: دعوه فإنه أراد أن يَسْتَقِيد[1] لبنت عمّه؛ هات مِمّا قال الحارث فيّ فأنشدها[2]:

ظعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخلْق ... وغدا بلبّك مَطْلَع الشَّرْق
في البيت ذي الحسب الرفيع ومِنْ ... أهل التُّقَى والبرِّ والصّدق
ما صبَّحَتْ أحدًا برؤيتها ... إلّا غدا بكواكب الطَّلْقِ[3]

فقالت: والله ما ذكر إلّا جميلًا؛ ذكر أنّى إذا صبَّحتُ زوجي بوجهي غدا بكواكب الطَّلق، وأنّى غدوتُ مع أمير تزوَّجني إلى الشّرق، وأنّى أحْسَنُ الخلق في البيتِ ذي الحسبِ الرفيع؛ أعطوه ألف درهم واكْسُوه حلّتيْن، ولا تَعُدْ لإتْياننا بعد هذا يا نميريّ.

أتريد أن تقتلنِي![4]

أقبل أبو العباس السفاح على أخي أمّ سلمة بنت يعقوب، فسأله التزويج بها فزوجه إياها، فأصْدَقها خَمْسمائة دينار، وأهدى مائتي دينار، ودخل عليها من ليلته، وحظِيت عنده، وحلف ألا يتزوج عليها ولا يَتَسَرّى، وغلبت عليه غلبةً شديدة حتى ما كان يقطعُ أمرًا إلا بمشورتها وبأمرها، ثم أفضت الخلافةُ إليه، فوفَى لها بما حلف.

فلما كانَ ذات يوم في خلافته خلا به خالدُ بن صفوان؛ فقال: يا أمير المؤمنين إني فكرت في أمرك، وسعة ملكك، وقد ملّكْتَ نفسك امرأةً واحدة، فإن

---

(١) يأخذ بثأرها.

(٢) قال الحارث بن خالد هذه الأبيات حين تزوج مصعب بن الزبير عائشة، ورحل بها إلى العراق. والحارث بن خالد: أحد شعراء قريش المعدودين الغزلين، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة في شعره، لا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء إلا نادرًا.

(٣) يقال: يوم طلق؛ أي مشرق معتدل، وهو يريد: أن من تصبحه برؤيتها يرى اليوم طيبًا سعيدًا.

(٤) المحاسن والمساوىء: ٤٣٠ (طبع ليبزج)، ثمرات الأوراق: ٢ ـ ٢٩٢، المسعودي: ٢ ـ ٢١٥.

مِرضتْ مرضتَ، وإن تألمتْ أَلِمتَ، وحرمت نفسك الجواري، والتمتُّع بما تشتهي منهنّ؛ فإنَّ منهنّ ـ يا أمير المؤمنين ـ الطويلةَ الغَيْدَاء، وإنّ منهن الغضّةَ، والدقيقةَ السمراء، من مولدّات المدينة؛ ولو رأيتَ يا أميرَ المؤمنين الطويلة البيضاء، والسمراء اللَّعْسَاء[1]، من مولدّات البصرة والكوفة، وذوات الألسن العذبة والقُدُود المهفهفة، وحسن زيِّهنّ وزينتهنّ، وشكلهنّ لرأيت شيئًا حسنًا.

وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار، والنظر إلى ما عندهنّ من الحياء والتخفُّر!

وجعل خالد يجيد في الوصف، ويجدُّ في الإطناب، بحلاوة لفظه وجودة وصفه.

فلمّا فرغ قال له أبو العباس: ويحك يا خالد! ما صَكَّ مسامعي ـ والله ـ قطّ كلام أحسنُ مما سمعته، فأَعِدْ عليّ كلامك؛ فقد وقع مني موقعًا. فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف.

وبقي أبو العباس مفكرًا فيما سمع منه، فدخلت عليه أمّ سلمة امرأته. وكانت تبرّه كثيرًا، وتتحرى مسرّته وموافقته في جميع ما أراده ـ فقالت له: إني لأُنكِرُك يا أمير المؤمنين؛ فهل حدث أمر تكرَهُه؟ أو أتاك خَبَر فارتعتَ له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء!

قالت: فما قصَّتك؟ فجعل ينزوي عنها؛ فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له، فقالت: فما قلت له؛ إنه... قال: سبحان الله ينصحني وتشتمينه!

فخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت إلى خالد بعض خدمها، وأمرتهم ألّا يتركوا منه عضوًا صحيحًا.

قال خالد: فانصرفتُ إلى منزلي، وأنا مسرور بما رأيتُ من أمير المؤمنين؛ وإعجابه بما ألقيته إليه. ولم أشكّ أن صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى صار إليّ أولئك الخدم، وأنا قاعد على باب داري؛ فلما رأيتُهم قد أقبلوا نحوي أيقنتُ بالجائزة، حتى وقفوا علي؛ فسألوا عنّي؛ فقلت: هأنذا خالد؛ فسبق إليّ أحدهم بهراوة كانت معه، فلما أهوى بها إليّ وثبتُ فدخلتُ منزلي، وأغلقتُ الباب عليّ

---

(١) اللعس: سواد مشرب بحمرة.

واستترتُ، ومكثت أيامًا على تلك الحال لا أخرجُ من منزلي، ووقع في خَلدي أني أُتيتُ من قِبَل أمّ سلمة.

وطلبني أبو العباس طلبًا شديدًا، فلم أشعر ذات يوم إلّا بقومٍ قد هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنتُ بالموت.

ولما وصلت إلى الدار أومأ إليّ بالجلوس، ونظرتُ فإذا خلف ظهري بابٌ عليه ستور قد أُرْخِيَت، وحركةٌ خلفها! فقال: يا خالد: لم أرك منذ ثلاث. قلت: كنتُ عليلًا يا أميرَ المؤمنين. قال: ويحك! إنك وصفت لي في آخر دَخْلَةٍ من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قطّ؛ فأَعِدْه عليّ.

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أنّ العرب اشتقّت الضَّرَّة من الضّرِّ، وأن أحدهم ما تزوج من النساءَ أكثرَ من واحدة إلا كان في جَهْدٍ[1]، فقال: ويحك! لم يكن هذا في الحديث، قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثَافِيِّ[2] القدر يغلي عليهنّ. قال أبو العباس: برئتُ من قرابتي من رسول الله إن كنتُ سمعتُ هذا منك في حديثك! قلت: وأخبرتك أن الأربعة من النساء شرٌّ لصاحبهن يُشَيِّبْنَهُ ويُهَرِّمْنَه ويُسْقِمْنه. قال: ويلك! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت. قلت: بلى والله، قال: وتلك! أَوَتكَذِّبني! قلت: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين!

قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر. قلت: نعم، وأخبرتك أيضًا أن بني مخزوم ريحانةُ قريش، وأنت عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمع لعينيك إلى حرائر النساء وغيرهنّ من الإماء.

فقيل لي من وراء الستر: صدقتَ والله يا عمّاه وبَررت، بهذا حدَّثْتَ أميرَ المؤمنين، ولكنه بدّل وغيَّر، ونطق عن لسانك!

فقال أبو العباس: مالك قاتلك الله وأخزاك، وفعل بك وفعل!

فتركته وخرجت، وقد أيقنتُ بالحياة، فما شعرت إلا برسل أمّ سلمة قد صاروا إليّ، ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت[3] وبِرْذَوْن وغلام.

---

(١) الجهد: المشقة.

(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهي ما يوضع عليه القدر.

(٣) التخت: وعاء يصان فيه الثياب.

بَعدَ أن ذَهب الملك[١]

كانت الْخَيزُران أم الهادي والرشيد في دارها، وعندها أمّهاتُ أولادِ الخلفاء وغيرُهنّ من بنات بني هاشم؛ فبينما هي كذلك إذ دخلت عليها جارية من جواريها، فقالت: أعز الله السيدة! بالباب امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمال، في أطمارٍ رثّة، وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تأبى أن تُخبرَ باسمها، وهي تروم الدخول.

فقالت الخيزران للجارية: أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب، فدخلت امرأة ذاتُ بهاء وجمال، في أطمارٍ رثّة؛ فوقفت بجنب عُضَادة الباب ثم سلّمتْ متضائلة، وتكلمت فأوضحت عن بيان ولسان. فقالت: مَن أنت؟

قالت: أنا مزنة زوج مروان بن محمد، وقد أصارني الدهر إلى ما ترين، ووالله ما الأطمارُ الرثّةُ التي عليّ إلا عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر، وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطةَ العامة ـ على ما نحن فيه من الضرر ـ على بَادِرَة إلينا تزيل موضع الشرف؛ فقصدناكم لنكونَ في حجابكم على أية حال كانت؛ حتى تأتيَ دَعوة مَن له الدعوة.

فاغرورقتْ عينا الخيزران بالدموع، ونظرت إليها زينب[٢] بنت سليمان بن علي فقالت: لا خفَّفَ الله عنك يا مُزْنة! أتذكرين وقد دخلتُ إليك وأنت على هذا البِساط بعينه، فكلمتُك في جثة إبراهيم الإمام، فانتهرْتِينِي، وأمرت بإخراجي، وقلتِ: ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم! فوالله لقد كان مَرْوانُ أرْعَى للحقّ منك! لقد دخلتُ إليه فحلَف إنّه ما قتَله ـ وهو كاذب ـ وخيّرني بين أن يدفنَه، أو يدفعَ إليّ جُثّته، وعرض عليّ مالًا فلم أقْبله.

فقالت مزنة: والله ما أدّاني إلى هذه الحال التي ترينها إلّا تلك الفِعال التي كانت مني، وكأنكِ استحسنْتِها، فحرضتِ الخيزران على مثلها؛ إنما كان يجب أن تحضّيها على فعلِ الخير، وتركِ المقابلة بالشر؛ لتُحْرزَ بذلك نعيمها، وتصونَ دينها

---

(١) ثمرات الأوراق: ١ ـ ٢١٨، المسعودي: ٢ ـ ٢٤٩.

(٢) كان المهدي قد تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان، وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقها، فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا.

ثم قالت لزينب: يا بنت عم؛ كيف رأيت صَنيع الله بنا في العقوق، أفأحببتِ التأسي بنا! ثم ولّت باكية.

فأشارت الخيزران إلى جاريةٍ من جواريها، فعدلت بها إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها.

فلما دخل المهدي عليها - وقد انصرفت زينب - قصّت الخيزران عليه قصتها، وما أمرت به من تغييرِ حالها؛ فدعا بالجارية التي ردَّتْها، فقال لها لمَّا رددتِها إلى المقصورة: ما الذي سمعتِها تقوله؟ قالت لحقتُها: وهي تبكي في خروجها، وتقرأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: الآية ١١٢].

ثم قال للخيزرانُ: والله لو لم تفعلي بها ما فعلت ما كلمتك أبدًا، وبكى بكاءً كثيرًا، وقال: اللهمّ إني أعوذ بك من زوال النعمة!

ثم بعث جارية إلى مقصورتها التي أَخْلِيَتْ لها، وقال للجارية: اقرئي عليها السلام، وقولي لها: يا بنت عم؛ إن أخواتك قد اجتمعن عندي، ولولا أني ابن عمك لجئناك!

فلما سمعت الرسالة علمت مرادَ المهدي، فجاءت تسحب أذيالها فأمرها بالجلوس، ورحّب بها ورفع منزلتها.

ثم تذكروا أخبار أسلافهم، وأيام الناس والدولة وتنقّلها؛ فما تركت لأحد في المجلس كلامًا!

فقال لها المهدي: يا بنت عمّ؛ والله لولا أني لا أحب أن أجعلَ لقوم أنتِ منهم في أمرنا شيئًا لتزوّجتك، ولكن لا شيء أصْون لك من حجابي، وكونُكِ مع أخواتك في قصْري؛ لك ما لهنّ، وعليك ما عليهنّ، إلى أن يأتيك أمرُ مَنْ له الأمر فيما حكم به على الخلق.

ثم أَخْدَمها[1] وأجَازها، فأقامت في قصره إلى أن قضَى المهدي والهادي، ومضى صَدْر من أيام الرشيد وماتت في خلافته؛ فجزع عليها جزعًا شديدًا.

(١) أخدمت فلانًا. أعطيته خادمًا يخدمه.

أُمّ أمير المؤمنين بالبَاب[١]

كانت أُم جعفر بن يحيىٰ أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كان رُبِّي في حِجْرها، وغذِّي بِرِسْلِها إذْ أنّ أمه ماتتْ عن مَهْدِه، فكان الرشيد يشاورها، مُظهرًا لإكرامها، والتبرُّك برأيها. وكان آلى ـ وهو في كَفالتها ـ ألّا يحجبَها، ولا استشفعته لأحد إلّا شفّعها، وآلت عليه أم جعفر ألّا دخلتْ عليه إلّا مأذونًا لها، ولا شفعت لأحدٍ مقترف ذَنْبًا، فكم أسيرٍ فكّت، ومُبْهَم عنده فتحتْ، ومستغلق منه فَرّجَت!

وتغيّر الرشيد على البرامكة، فقتل جعفرًا، وسجن يحيىٰ والفضل، وسجن معهما أقاربهما، واستصفى ضياعهم وأموالهم. ثم احتجب عن الناس، فسعت إليه أم جعفر، وطلبت الإذنَ عليه ومتَّت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها، ولا أمر بشيء فيها، فلما طال ذلك بها خرجتْ كاشفةً وجهها، واضعةً لثامها، محتفية في مشيها، حتى صارتْ بباب قصر الرشيد.

فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظِئرُ أمير المؤمنين بالباب، في حالةٍ تقلب شماتة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويْحك يا عبد الملك! أو ساعية؟ قال: نعم يا أميرَ المؤمنين وحافية! قال: أدخلها يا عبد الملك، فربَّ كبد غذَّتْها، وكُربةٍ فرّجّتها، وعَوْرَة سترتها!

ودخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفية، قام محتفيًا حتى تلقّاها بين عَمَد المسجد، وأكب على تقبيل رأسها، ثم أجلسها معه؛ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ أَيَعْدو علينا الزمان، ويجفونا خوفًا لك الأعوان، ويُحردك[٢] بنا البهتان، وقد ربّيتُك في حجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوّي ودهري! فقال لها: وماذا يا أمَّ الرشيد؟ قالت ظِئْرُك[٣] يحيىٰ وأبوك، ولا أصِفُه بأكثرَ مما عرّفه به أميرُ المؤمنين؛ مِنْ نصيحته له، وإشفاقِه عليه. . .

فقال لها: يا أمَّ الرشيد، أمرٌ سَبق، وقضاء حُمّ[٤]، وغضب من الله نفذ.

---

(١) العقد الفريد: ٣ ـ ٣٣.
(٢) يحردك: يغضبك.
(٣) الظئر: من يعطف على ولد غيره. للذكر والأنثى.
(٤) حم: نزل ووقع.

فقالت: يا أميرَ المؤمنين ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ٣٩].

فقال: صدقتِ، فهذا مما لم يَمْحُه الله. فقالت: الغيبُ محجوبٌ عن النبيّين، فكيفَ عنك يا أميرَ المؤمنين! فأطرق الرشيد مَلِيًّا، ثم قال:

وإذا المنيّةُ أَنشَبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ[1]

فقالتْ بغير رَوِيَةٍ: ما أنا ليحيىٰ بِتَميمةٍ يا أميرَ المؤمنين، وقد قال الأول[2]:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجِدْ ذُخْرًا يكون كصالحِ الأعمالِ

هذا بعد قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤].

فأطرق الرشيد ثانية، ثم قال: يا أُم الرشيد، أقول:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تَكَدْ إليه بوجهٍ آخِر الدهر تُقبِل

فقالت: يا أمير المؤمنين، وهو يقول أيضًا[3]:

ستَقْطَعُ في الدنيا ـ إذا ما قطعتَني ـ يمينَكَ، فانظر أيَّ كف تبدَّلُ!

فقال هارون: رضيت! فقالت: هَبْهُ لي يا أمير المؤمنين، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تركَ شيئًا، لم يُوجدْه الله لفقده»، فأكبَّ مليًّا، ثم رفع رأسه وقال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الرُّوم: الآية ٤]. فقالت: يا أمير المؤمنين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: الآيتان ٤، ٥]، واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيّتكَ[4]: مَا استشفعتُ إلّا شفَّعتني! فقال: واذكري يا أمَّ الرشيد أَلِيَّتكِ ألّا شفعتِ لمقترف ذنبًا. فلمّا رأته قد صرَّح بمنعها، ولَاذَ عن مطلبها، أخرجت حُقًّا من زُمُرُّدَةٍ خضراء فوضعته بين يديه، فقال الرشيد: ما هذا! ففتحتْهُ، وأخرجت منه ذَوائبه وثناياه، وقد غَمَسَتْ جميع ذلك في المسك.

(١) التميمة: خرزة كان العرب في جاليتهم يعلقون العدد منها على أولادهم وقاية لهم من العين، والبيت لأبي ذؤيب.
(٢) البيت للأخطل.
(٣) هذا البيت والذي قبله لمعن بن أوس.
(٤) الألية: الحلفة.

فقالت: يا أميرَ المؤمنين، أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك، وبما صار معي من كريم جسدك، وطيّب جوارحك أن تشفّعني في عبدك يحيىٰ.

فأخذ هارون ذلك، ولثمه، ثم بكى طويلًا، فأبكى أهلَ المجلس، وذهب البشيرُ إلى يحيىٰ وهو لا يظنُّ إلا أن البكاء رحمةٌ له ورجوعٌ عنه. فلما أفاق رمى جميعَ ذلك في الحُقّ، وقال لها: لحَسَنٌ ما حفظتِ الوديعة. فقالت: وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين.

فسكت وأقفل الحُقّ، ودفعه إليها، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]. فقالت: والله يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]، ويقول: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: الآية ٩١]. ثم قال: وما ذاك يا أمَّ الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت ألا تحجبني ولا تمتهنني.

فقال: أحب يا أمّ الرشيد أن تبيعيني ذلك محكّمة فيه. فقالت: أنصفتَ يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك. فقال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطكَ. فقال: يا أمَّ الرشيد؛ أمالي من الحقّ عليك مثلُ الذي له! قالت: بلى! أنت أعزّ عليَّ وهو أحبُّ إلي. قال: فتحكّمي في تَمْنيَةٍ بغيره. فقالت: قد وهَبْتُكه وجعلتك في حِلٍّ منه؛ وقامت عنه غضبَى، وبقي مبهوتًا، ما يُحير لفظة.

كريم يجمَع بَين زَوجَين(١)

قال إبراهيم بن ميمون: حججتُ في أيام الرشيد، فبينا أنا بمكة أجول في سكَكِها إذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فأنكرتُ حالها، ووقفت أنظر إليها، فمكثتْ كذلك ساعةً ثم قالت:

أعمرٌو علامَ تَجَنَّبتَنِي ... أخذتَ فؤادي فعذَّبتني!
فلو كنتَ يا عمرو خيَّرتني ... أخذْتُ حذارِي فما نِلْتَني

فدنوت منها، فقلت: يا هذه؛ مَن عمرو؟ فارتاعت من قولي، وقالت: زوجي. فقلت: وما شأنُه؟ قالت: أخبرني أنه يهواني وما زال يدس إليَّ، ويعلق

---

(١) مصارع العشاق: ١٥٩.

بي في كُلِّ طريق، ويشكو شدةَ وَجْدِه حتى تزوّجني، فلبث معي قليلًا، وكان له عندي من الحبّ مثل الذي كان لي عنده، ثم مضى إلى جُدّة، وتركني قلت: صفِيه لي، فقالت: أحْسَنُ من تراه، وهو أسمرُ حلو ظريف.

قلت: فخبّريني، أتحبين أن أجمع بينكما؟ قالت: فكيف لي بذلك! وظننتني أهْزِل بها.

فركبتُ راحلتي، وصرت إلى جُدة، فوقفت في المرقى أتبصّرُ منْ يعمل في السفن، وأُصوِّت يا عمرو! يا عمرو! فإذا به خارجٌ من سفينة وعلى عنقه صَنٌّ[1]، فعرفته بالصِّفَة.

فقلت: «أعمرو، علام تجنَّبْتَني!» فقال: هيه! هيه! رأيتَها، وسمعتَه منها! ثم أطرق هنيهة، واندفع يغنّيه، فقلتُ: ألا ترجع! فقال: بأبي أنت! ومَنْ لي بذلك؟ ذلك والله أحبُّ الأشياء إليَّ، ولكن منعَ منه طلبُ المعاش. قلت: كم يكفيك كلَّ سنة؟ قال: ثلاثمائة درهم، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلت: هذه لعشر سنين، ورددْتُه إليها، وقلت له: إذا فَنِيتْ أو قاربتِ الفناء قدِمت عليّ وأعطيتُك، وإلّا وجهت إليك. وكان ذلك أحبَّ إليَّ من حَجِّي.

أعرَابيَّةٌ عَلَى قَبرِ زَوْجهَا[2]

قال الأصمعيّ: دخلتُ بعضَ مقابر الأعراب، ومعي صاحبٌ لي، فإذا جارية على قبر كأنّها تمثال، وعليها من الحَلْيِ والحلل ما لم أر مثله، وهي تبكي بعين غزيرة، وصوتٍ شَجِيّ! فالتفتُّ إلى صاحبي؛ فقلت: هل رأيتَ أعجبَ من هذه؟ قال: لا والله، ولا أحسبني أرَاه!

ثم قلتُ: يا هذه، إني أراك حزينة وما عليكِ زِيّ الحزن! فأنشأت تقول:

فإن تسألاني: فِيمَ حزني؟ فإنّني ... رهينةُ هذا القبر يا فتيانِ
وإني لأستحيِيه والتربُ بيننا ... كما كنتُ أَستحييه حين يراني

ثم اندفعت في البكاء، وجعلت تقول:

يا صاحب القبر، يا مَنْ كان ينعم بي ... بَالًا، ويكثِرُ في الدنيا مُواساتي

---

(١) الصن: شبه السلة المطبقة؛ يجعل فيها الطعام والخبز.

(٢) العقد الفريد: ١ ـ ٢٦.

قد زرتُ قبركَ في حَلْيِي وفي حُلَلي كأنني لستُ من أهل المصيبات

أردت آتيك فيما كنتُ أعرفُه أنْ قد تسرُّ به من بعض هيئاتِي

فمن رَآني رَأى غَيْري مولَّهة عجيبة الزّي تَبْكي بين أمواتِ!

علَى قبُورِ الذّاهِبين[١]

قال الأصمعيّ: دَفَعتُ يومًا في تَلَمُّسي بالبادية إلى وادٍ خَلَاء، لا أنيسَ به إلا بيت مُعْتَنز[٢]، بفنائه أعنز، وقد ظمِئتُ، فيمَّمْتُه فسلّمت، فإذا عجوزٌ قد برزت كأنها نعامة رَاخِم[٣]، فقلت: هل من ماء؟ فقالت: أو لَبَن! فقلتُ: ما كان بُغيتي إلا الماء، فإذا يسّرَ الله اللبن فإني إليه فقير.

فقامت إلي قَعْب فأفرغت فيه ماء، ونظّفت غَسْله، ثم جاءتْ إلى الأعنز فتغيَّرتهنّ[٤] حتى احتلبتُ قُراب[٥] مِلْءِ القَعْب، ثم أفرغت عليه ماءً حتى رَغَا، وطفت ثُمَالته[٦]، كأنها غمامةٌ بيضاء، ثم ناوَلَتْني إياه فشربت حتى تحبَّبت[٧] رِيًّا، واطمأنَنْتُ.

فقلت: إني إركِ مُعتنزةً في هذا الوادي الموحش، والحِلّة[٨] منك قريب، فلو انضممتِ إلى جَنَابهم[٩] فأنستِ بهم. فقالت: يا ابن أخي! إني لأنَسُ بالوَحْشة وأستريح إلى الوحدة، ويطمئنُّ قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر مَنْ عهِدتُ فكأني أخاطبُ أعيانهم، وأتراءى، أشباحَهم، وتَتَخَيّل لي أندية رجالهم، وملاعبُ وِلْدانهم، ومندى أموالهم.

والله يا ابنَ أخي، لقد رأيتُ هذا الوادي بَشع[١٠] اللّديدين[١١] بأهل أدواح[١٢] وقِباب، ونَعَمٍ[١٣] كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون

---

(١) الأمالي: ٢ ـ ٧.
(٢) معتنز: منفرد.
(٣) الراخم: التي تحضن بيضها.
(٤) تغيرتهن: احتلبت العنز وهو بقية اللبن في الصرع.
(٥) قراب: قريب.
(٦) الثمالة: الرغوة.
(٧) تحببت: امتلأت.
(٨) الحلة؛ وجمعها حلال: بيوت الناس.
(٩) الجناب: فناء الدار.
(١٠) بشع: ملآن.
(١١) اللديدان: الجانبان.
(١٢) الأدواح: الأشجار العظيمة.
(١٣) الهضاب: الجبال الصغار.

الرياح، ويحمون الصَّبَاح، فأحال عليهم الجَلَاءَ قَمًّا[١] بغرفة، فأُصبحتِ الأثارُ دارسة، والمحالُّ طامسة، وكذلك الدهر فيمن وثِق به.

ثم قالت: ازم بعينك في هذا الملا[٢] المُتَباطن[٣]. فنظرت فإذا قبور نحوِ أربعين أو خمسين. فقالت: أتَرَى تلك الأجداث؟ قلت: نعم. قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمات[٤] عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غَالَهمْ! انْصَرِفْ راشدًا رحمك الله.

الحَقّ أنطَقهَا وأخْرَسَه[٥]

قال الشّيبَانيّ: جلس المأمونُ يومًا للمظالم، فكان آخرُ مَنْ تقدم إليه وقد هَمَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئةُ السّفَر، عليها ثياب رَثّة.

فوقفت بين يديه وقالت: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمونُ إلى يحيىٰ بن أكثم. فقال لها يحيىٰ: وعليك السلام يا أمَةَ الله، تكلّمي في حاجتك؛ فقالت:

يا خيرَ منْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ ... ويا إمَامًا به قد أشرَقَ البلَدُ
تشكو إليك عميدَ القوْمِ أزْملةٌ ... عَدَا عليها فلم يُتْرَك لها سَبَدُ
وابْتزَّ مني ضيَاعي بعدَ منْعَتها ... ظُلْمًا وفُرِّقَ مني الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمونُ حينًا، ثم رفع رأسه إليها، وهو يقول:

في دُونِ ما قُلْتِ زال الصبر والجلدُ ... عني؛ وقُرِّح منِّي القلبُ والكبِدُ
هذا أوانُ صلاةِ العصرِ فانصرِفي ... وأحضري الخصمَ في اليوم الذي أعِدُ
والمجلس السبتُ إن يُقْضَ الجلوس لنا ... نُنْصِفْكِ منه؛ وإلَّا المجلس الأحد

---

(١) قما: كنسا.
(٢) الملا: ما اتسع من الأرض.
(٣) للتباطن: التطامن.
(٤) ألمأت: احتوت.
(٥) العقد: ١ ـ ١٥، المحاسن والمساوىء: ٣٥٠ (طبع ليبزج).

فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أوَّلَ مَن تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليكِ السلام، أين الخصمُ؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أميرَ المؤمنين ـ وأومأتْ إلى العباس ابنه.

فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذْ بيده فأَجْلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمةَ الله؛ إنكِ بين يدَيْ أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك، فقال المأمون: دَعْها يا أحمد، فإنّ الحق أنْطَقَها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضَيْعتِها إليها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغِر لها[1] ضيعتها ويُحْسِن معاونتها، وأمرَ لها بنفقة.

أجَارها ثم تزوّجَها[2]

قال إبراهيم بن المدبر: جاءني يومًا محمد بن صالح بعد أن أُطْلقَ من الحبس، فقال لي: إني أريد المقام عندك اليوم على خَلْوَة لأبثَّك من أمري شيئًا لا يصلحُ أن يسمعه غيرُنا. فقلت: أفعل؛ فصرفتُ مَن كان بحَضْرَتي وخَلَوْت معه.

فلما اطمأنَّ وأكلنا واضطجعنا قال لي: إني خرجت في سنة كذا وكذا، ومعي أصحابي على القافلة فقاتَلْنَا مَن كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة؛ فبينما أنا أحُوزُها وأُنِيخُ الجمالَ إذ طلعت عليَّ امرأة، ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها وجْهًا ولا أحلى منطقًا. فقالت: يا فتى؛ إنْ رأيتَ أن تدعوَ لي بالشريف المتولّي أمر هذا الجيش؟ فقلت: قد رأيتِه وسمِع كلامكِ! فقالت: سألتك بحق اللهِ وحقِّ رسوله؛ أنتَ هو؟ فقلت: نعم وحقِّ الله وحقِّ رسوله إني لهو. فقالت: أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى؛ ولأبي محل من سلطانه، ولنا نعمة إنْ كنتَ ممن سمعَ بها فقد كفاك ما سمعتَ، وإن كنتَ لم تسمع بها فسلْ عنها غيري! وواللهِ لا استأثرت عنك بشيء أملكه، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقهُ عليّ. وما أسألك إلا أن تصونَني وتَسْتُرَني، وهذه ألفُ دينار معي لنفقتي، فَخُذْها حالًا، وهذا حلْيٌ عليَّ ثمنه خمسمائة دينار فخذه؛ وما شئت بعده آخذه لك من تجارِ المدينة أو مكةَ أو أهل المَوْسم، فليس

---

(١) أوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج.

(٢) الأغاني: ١٥ ـ ٨٧ (طبعة الساسي).

منهم أحدٌ يمنعني شيئًا أطلبه، وادفعْ عني واحْمِني من أصحابك ومن عارٍ يلحقني. فوقع قولها من قلبي موقعًا عظيمًا. فقلت لها: قد وهب الله لك مالك وحَلْيَكِ وجاهك، ووهب لك القافلة بجميعِ ما فيها.

ثم خرجتُ، فناديتُ في أصحابي فاجتمعوا، فناديت فيهم: إني قد أجَرْت هذه القافلة وأهلها وخَفَرْتُها وحَمَيْتُها، ولها ذِمَّةُ الله وذمة رسوله وذمتي؛ فمن أخذ منها خيطًا أو عقالًا فقد آذنته بحَرْبٍ. فانصرفوا معي وانصرفت.

فلما أُخِذْتُ[1] وحبِستُ جاءني يومًا السجان، وقال لي: إنْ بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك، وقد حُظِرَ عليَّ أن يدخلَ عليك أحدٌ؛ إلّا أنهما أعطتاني دُمْلَج ذهب، وجعلتاه لي إن أوصلتهما إليك، وقد أذِنتُ لهما وهما في الدِّهليز. فاخرجْ إليهما إن شئت.

ففكرت فيمن يجيئني في هذا البلد وأنا به غريب لا أعرف أحدًا. ثم قلت: لعلهما من وَلد أبي أو بعض نساء أهلي. فخرجتُ إليهما فإذا بصاحبتي، فلما رأتني بكَتْ لما رأتْ من تغيير خلقي وثقل حديدي، فأقبلت عليها الأخرى فقالت: أهو هو! فقالت: إي والله إنه لَهُوَ هُوَ! ثم أقبلت عليّ فقالت: فداك إبي وأمي! والله لو استطعت أن أَقِيك مما أنت فيه بنفسي وأهلي لفعلت وكنت بذلك مني حقيقًا، ووالله لا تركت المعاونة لك والسعي في حاجتك وخلاصك بكل حيلة ومالٍ وشفاعة. وهذه دنانير وثياب وطيب فاستعِنْ بها على موضعك، ورسولي يأتيك في كل يوم بما يصلحك حتى يُفرِج الله عنك. ثم خرجت إليّ كسوة وطيبًا ومائتي دينار.

وكان رسولُها يأتيني كلَّ يوم بطعام نظيف، ويتواصل برُّها بالسجَّان، فلا يمتنع من شيء أريدُه. ثُمَّ مَنَّ الله بخلاصي فخطبتُها؛ فقالت: أمّا من جهتي فأنا مُتَابِعةٌ مطيعةٌ والأمر إلى أبي. فأتيتُه فخطبتها إليه، فردَّني فقمتُ من عنده منكسرًا مستحيًا.

قال إبراهيم بن المدبر: فقلت له: إن عيسى صنيعةُ أخي وهو لي مطيع وأنا أكفيك أمره. فلما كان من الغد لقيت عيسى في منزله وقلت له: قد جئتُك في

---

(١) حبسه المتوكل محمد بن صالح حين خرج عليه ثلاث سنين، ثم عفا عنه لشعر مدحه به.

حاجةٍ لي، فقال: مقضيَّة؛ ولو كنتَ استعملتَ ما أُحِبُّه لأمرتني فجئتك، وكان أَسَرَّ إلي. فقلت له: قد جئتُك خاطبًا إليك ابنتك، فقال: هي لك أَمَةٌ وأنا لك عبدٌ وقد أجبتك. فقلت: إني خطبتها على مَن هو خير مني أبًا وأمًا، وأشرف لك صهرًا: محمد بن صالح العلوي. فقال لي: يا سيّدي؛ هلا كان غير هذا! فلم أزل أرفق به حتى أجاب. وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرْته وما برحت حتى زوّجته، وسقتُ الصداقَ عنه.

كيفَ ربّت ابْنَها[1]

قال الفضل بن يزيد: نزل علينا بنو ثَعلبة في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب، أحبُّ أن أسمَعها وأجمَعها. فبينما أنا أدُور في بعض أحيائهم، إذا بامرأة واقفة في فناء خبَائها، وهي آخذةٌ بيد غلام. قلّما رأيتُ مثلَه في حُسنه وجماله، وهي تعاتِبُه بلسان رطب، وكلام عذب، تَحِنُّ إليه الأسماع، وترتاح إليه القلوب. وأكثر ما أسمع منها: أيْ بنيّ، وهو يبتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياءُ والخجل، لا يردّ جوابًا؛ فاستحسنتُ ما رأيت، واستحليت ما سمعت، ثم دنوت منه وسلّمت عليه، فردّ عليَّ السلام، فوقفت أنظر إليهما.

فقالت: يا حضريّ، ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع، والسرور بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضريّ، إن شئت سقتُ إليك من خبره ما هو أحسن ممّا شاهدتَ من أَدَبه، فقلت: قد شئتُ - يرحَمُك الله! فقالت: حملتُه والرزق عَسِر، والعيش نكِد، حملًا خفيفًا، حتى إذا مضت له تسعة أشهر وَلَدْتُه؛ فوَرَبِك ما هو إلّا أن صار ثالثَ أبويه حتى أفضَل الله عزّ وجلّ وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى؛ ثم أرضعتُه حَوْلَين كاملَيْن، فلما استتمّ الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فنشأ كأنه شِبل أسد، أقيه برد الشتاء وحرّ الهجير، حتى إذا مضت له خمسُ سنين أسلمتُه إلى المؤدب، فحفظهُ القرآن فتلَاه، وعلّمه الشعر فَرَوَاه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلُمَ، واشتدّ عَظمه، وكمل خلقه، حملته على عِتَاق الخيل فتفرّس وتمرّس[2]، ولبس السلاح،

---

(١) المستطرف: ١ - ٢٢٧.

(٢) تفرس: تثبت ونظر، ورأى الناس أنه فارس، وتمرس: عالج الأمور، واحتك بها.

ومشى بين بُوَيْتَاتِ الحيّ الخُيَلاء، فأخذ في قِرَى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وَجِلة، أُشفق عليه من العيون أن تصيبه.

ثم اتفق أن نزلنا بمنْهَل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيانُ الحيّ في طلب ثَأْرٍ لهم، وشاء الله أن أصابته وَعْكة[1] شغلته عن الخروج، وأمعن القوم، ولم يبق في الحيّ غيره، ونحنُ آمنون وادعون، ثم أدبر الليل، وأسفر الصباح، فطلعت علينا غُرر الجياد، وطلائع العدوّ، وما هو إلا هُنَيْهَة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًّا به.

ولما عَلَتِ الأصوات، وبرزت المخدّرات[2]، رَمى دِثاره[3]، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمَةَ حربه، وأخذ رُمحه بيده، ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله؛ فانصرفت وجوه الفرسان، ثم رأوه صبيًا صغيرًا لا مدَدَ وراءه، فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحنُ ندعو الله عزّ وجلّ له بالسلامة، حتى إذا مدّهم وراءه، وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرَّق شملهم، وشتّت جمعهم، وقلَّل كثْرتهم، ومَزَّقهم كلّ مُمَزَّق، ومَرَق كما يمرُقُ السهم. وناداهم: خلّوا عن المال! فوالله لا رجعت إلا به أو أهلِكَ دونه!

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفُرْسان، وحملوا عليه، وقد رفعوا إليه الأسنّة، وعطفوا عليه بالأعنّة، فوثب عليهم وهو يهْدِرُ كما يهدِر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يعطف على ناحية إلا حطّمها، ولا كتيبة إلا مزّقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه.

ثم ساق المال وأقبل به؛ فكبّر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته. فوالله ما رأينا قطّ يومًا كان أسمَحَ صباحًا، وأحسن رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيات الحي هذه الأبيات:

تأمّلْن فعلي هل رأيتُنَّ مثلَه
إذا حَشرَجَتْ نفسُ الجبان من الكرب!

---

(١) الوعكة: الألم من شدة التعب. (٢) المخدرات: المحجوبات من النساء.
(٣) الدثار: ما فوق الشعار من الثياب.

وضــاقــت عــليــه الأرضُ حــتــى كــأنــه
مـن الـخـوف مـسـلوب الـعـزيـمـة والـقـلْب
ألــم أعــط كــلّاً حــقَّــه ونــصــيــبَــه
من السَّمْهريّ اللّدن والـمُرهف العَضْبِ[١]
أنـا ابـنُ أبـي هـنـد بـن قـيـس بـن مـالـكٍ
سـليـل الـمـعـالـي والـمـكـارم والـسـيّـب[٢]
أنــى لِيَ أن أعــطــي الــظُّــلامــة مُـرْهَــفٌ
وطِـرْف[٣] قـويّ الـظّـهـر والـجـوف والـجـنْـب
وعــزمٌ صــحــيــح لــو ضــربــت بــحــدّه الــ
ـجـبـالَ الـرواسـي لانـحـطـطْـن إلـى الـتّـربِ
وعِــرضٌ نــقــيّ أتّــقــي أن أعــيــبَــهُ
وبـيـتٌ شـريـف فـي ذُرَا ثَـعْـلب الـغُـلْبِ[٤]
فــإن لــم أقــاتــل دونــكُــنَّ وأحــتــمــي
لــكــنَّ، وأحـمـيـكُـنَّ بـالـطـعـن والـضـرب
فــلا صــدق الــلاتــي مــشــيــنَ إلــى أبــي
يــهــنِّــيــنَــه بــالــفــارسِ الْبَــطَــلِ الــنَّــدْب[٥]

خَائف وَجَدَ مَأمنًا[٦]

قال وهب بن ناجية الرُّصافيّ: كنت أحد مَنْ وقعت عليه التهمةُ في مال مصر أيامَ الواثِق، فطلبني السلطان طلبًا شديدًا، حتى ضاقتْ عليّ الرُّصافة[٧] وغيرُها، فخرجت إلى البادية مرتادًا رجلًا عزيزَ الدار، منيعَ الجار، أعوذُ به، وأنزلُ عليه.

---

(١) السمهري: الرمح، وهو منسوب إلى سمهر؛ رجل كان يثقف الرماح، والمرهف: السيف الرقيق الحد، والعضب: القاطع.
(٢) السيب: العطاء.
(٣) الطرف: الكريم من الخيل.
(٤) ثعلب: أصله ثعلبة وهي قبيلة الغلام، والغلب جمع أغلب، وهو الأسد؛ يريد أنهم شجعان.
(٥) الندب: الخفيف في الحاجة.
(٦) محاضرات الأبرار: ٢ ـ ١١٦.
(٧) الرصافة: محلة ببغداد.

فبينما أنا أسيرُ إذا رأيت خيامًا، فعدلتُ إليها، فملتُ إلى بيت منها مضروب، وبِفنائه رُمْحٌ مركوز، وفرس مرْبوط؛ فدنوتُ فسلّمت، فردّ عليّ نساءٌ من وراء السّجف[1]، وقالت لي إحداهنّ: اطمئنّ يا حضَريّ، فنعم مناخُ الضيفان بَوّأك القدَر، ومهّدك السفر. قلت: وأنّى يطمئنُّ المطلوب، أو يأمنُ المرغوب، من دون أن يأوي إلى جَبَلٍ يعصِمُه، أو مأمنٍ أو مفزع يَمْنَعه! وقليلًا ما يهجع مَن السلطان طالبهُ، والخوفُ غالبه! قالت: لقد تَرجم لسانك عن ذَنْبٍ عظيم، وقلبٍ صغير، وايمُ الله لقد حللتَ بفناءِ رجل لا يُضَام بفنائه أحدٌ، ولا يجوع بساحته كَبِد، هذا الأسودُ بن قنان، أخواله كعب، وأعمامه شيبان، صُعلوك[2] الحيّ في ماله، وسيّدُهم في حاله، وسندُهم في فعاله[3]، صدوق الجوار، وقود النار؛ وبهذا وصفته أمامة بنت خزرج حيث تقول:

إذا شئتَ أن تلقى فتًى لو وَزَنْتَه ... بكلّ معديٍّ وكل يَماني

وفَى بهما فضْلًا وجودًا وسُودَدا ... ورأيا، فذاك الأسود بن قنان

فتًى لا يُرى في ساحةِ الأرض مثله ... ليوم ضِرَابٍ أو ليوم طِعَان

قال: فقلت: يا جارية، وأنّى لي به! فقالت: يا خادم، مولاكَ! فلم تلبث أن جاءت وهو معها في جماعةٍ من قومه، وقال: أيّ المُنعمين علينا أنت؟ فسبقَتْني المرأة، وقالت: هذا رجل نَبَتْ به أوطانُه، وأزعَجه زمانُه، وأوحشه سلطانُه؛ وقد ضِمِنَّا له ما يُضْمَن لمثله على مثلك، قال: بلّ اللهُ فاك، أشهدكم يا بَنِي عمّي أنّ هذا الرجلَ في جواري وفي ذِمّتي، فمن آذاه فقد آذاني، ومَن كاده فقد كادني.

وأمر ببيتٍ فضُرب إلى جانبه، وقال: هذا بيتك وأنا جارك، وهؤلاء رجالك فلم أزلْ بينهم في خفضٍ وسَعَةٍ إلى أن سِرتُ عنهم.

تحنُّ إلى وَطَنِهَا[4]

هَوى بعضُ خُلَفَاءِ بني العباس أعرابيةً فتزوّج بها، فلم يوافقْها هَوى المدن، فلم تزل تعتلّ وتتأوّه، مَعَ ما هي عليه من النّعيم والرّاحة، والأمرِ والنهي؛ فسألها

(١) السجف: الستر.

(٢) أصل الصعلوك الفقير. والمراد أنه ينفق حتى يصير فقيرًا.

(٣) الفعال: (بالفتح) الفعل الحسن من فاعل واحد، وإذا كان من فاعلين فهو الفعال (بالكسر).

(٤) محاضرات الأبرار: ٢ ـ ٢٤٨.

عن شأنها، فأخبرتهُ بما تجد من الشوقِ إلى البراري وأحاليبِ[١] الرّعاء، وورُودِ المياه التي تعودتْ؛ فبنى لها قصرًا على رأس البرية بشاطىء دجْلَة[٢]، وأمر بالأغنام والرّعَاء أن تَسْرَح بين يديها وتتراءى لها؛ فلم يزدها ذلك إلا اشتياقًا إلى وطنها.

ثم مرَّ بها يومًا في قصرها من حيث لا تشعر بمكانه، فسمعها تنتحبُ وتبكي، حتى ارتفعَ صوتُها، وعلا نحيبُها، ثم قالت:

وما ذنبُ أعرابيةٍ قذَفتْ بها ... صروفُ النَّوَى من حيثُ لم تك ظَنَّتِ
تمنّتْ أحاليبَ الرُّعاةِ وخيمةٍ ... بنجد فلم يُقْضَ لها ما تمنّتِ
إذا ذكَرَتْ ماءَ العُذَيبِ[٣] وطيبَه ... وبردَ حَصَاهُ آخر الليل أَنَّتِ
لها أنَّة عند العشاء وأنَّةٌ ... سحيرًا، ولولا أنّتاها لَجُنَّتِ

فخرج عليها الخليفة، وقال: قد قُضي ما تمنيت، فالحقى بأهلك من غير فراق؛ فما مرّ عليها وقتٌ أسرّ من ذلك، وسرى ماءُ الحياة في وجهها من حِينِها، والتحقت بأهلها بجميع ما كان عندها في قصرها، وظلّ الخليفة يزورُها في أهلها بين الحين والحين.

سَئمتُ حيَاتِي حِين فَارقت قَبْرَه[٤]

قال محدّث: سألت أبا الندى[٥] ـ وكان من أعلم مَنْ شاهدتُ بأخبار العرب: هل تعرف من شعر الذّلفاء بنت الأبْيَض في ابن عمها نجْدَة بن الأسْوَد؟ قال: نعم، كنتُ فيمن حضرَ جنازة نَجْدَةَ، حتى وضعناه في قبره، وأهَلْنَا عليه التراب، وصَدَرْنا[٦] عنه غير بعيد، فأقبلتْ نسوةٌ يتهادَيْنَ[٧]، فيهنَّ امرأة قد فاقتْهُنَّ طولًا، كالغصن الرطب، وإذا هي الذّلفاء؛ فأقبلت حتى أكبّتْ على القبر، وبكتْ

---

(١) الإحلابة: أن يحلب لأهله وهو في المرعى لبنًا، ثم يبعث به إليهم، وجمعه أحاليب، والرعاء جمع راع.
(٢) دجلة: نهر بالعراق.
(٣) العذيب: موضع.
(٤) معجم الأدباء: ١٧ ـ ١٦٠.
(٥) محمد بن أحمد أبو الندى الغندجاني اللغوي: رجل واسع العلم، راجح المعرفة باللغة وأخبار العرب وأشعارها.
(٦) رجعنا عنه.
(٧) يتمايلن في مشيتهن.

بكاءً مُحرِقًا، وأظهَرتْ من وجْدَها ما خِفْنَ معه على نفسها، فقلن لها: يا ذلفاء؛ إنه قد مات الساداتُ من قومك قبل نجدةَ، فهل رأيتِ نساءَهم قتلْنَ أنفسهنَّ عليهم؟ فلم يزلْنَ بها حتى قامت، فانصرفَتْ عن القبر، فلمّا صارت منه غير بعيد عطفتْ بوجهها عليه، وقالت:

سئمتُ حياتي حين فارقْتُ قبرَه ... ورُحْتُ وماءُ العينِ ينهلُّ هَامِلُه[1]

وقالت نساء الحيّ: قد مات قبلَهُ ... شريفٌ فلم تَهْلِكْ عليه حلائلُه[2]

صدقْنَ، لقد، مات الرجالُ ولم يَمت ... كنَجْدَةَ مِنْ إخوانه من يُعَادِلُهْ

فتًى لم يَضِقْ عن جِسْمِهِ لحدُ قَبْرِهِ ... وقد وسِعَ الأرضَ الفضاءَ فضائلُه

قال: فقلت: أحسنتَ والله يا أبا الندى وأحسنَتْ! فهل تعرف من شعرها شيئًا آخر؟ قال: نعم! كنتُ ممَّنْ حضرَ قبرَ نَجدةَ عند زيارتها إياه لتمام الحول، فرأيتها قد أقبلت حتى أكبَّتْ على القبر، وبكَتْ بكاء شديدًا، ثم أنشأت تقول:

يا قبرَ نجْدَةَ لم أهْجُرْكَ مقْلِيةً ... ولا جفوتُكَ من صَبْرِي ولا جَلَدي

لكِنْ بكيتُكَ حتى لم أجد مَدَدًا ... من الدموعِ ولا عونًا من الكَمَدِ

وآيَسَتْنِي جفوني من مَدَامِعها ... فقلت للعين: فِيضي من دم الكَبِدَ

فلم أزَلْ بدَمي أبكيك جاهدةً ... حتى بقيتُ بلا عينٍ ولا جَسَدِ

والله يعلمُ لولا الله ما رضيتْ ... نَفْسِي عليكَ سوى قَتْلٍ لها بيدِي

قال: فقلت: أحسنتَ والله يا أبا الندى وأحسنَتْ! فهل تعرف من شعرها شيئًا آخر؟ قال: نعم، حضرنا في زمن الربعي ونحنُ في رياضٍ خَضِرَةٍ مُعْشِبَةٍ، فركبَ الفتيانُ، وعقدوا العَذَبَ[3] الصُّفْرَ، في القنا الحُمر، وجعلوا يتجاولون. فلما أردنا الانصراف، قال بعضنا لبعض: ألا تجعلون طريقكم على الذلفاء! لعلها إذا نظرت إليكم تسلتْ بمن بقي عمن هلك!

قال: فخرجنا نؤمُّها فأصبناها بارزةً من خبائها، وهي كالشمس الطالعة، إلا أنه يعلُوها كسوفُ الحزن، فسلّمنا عليها، وقلنا: يا ذلفاء؛ إلى متى يكون هذا

---

(١) ينهل: ينصب؛ وهامله: دمعه الفائض. (٢) أي زوجاته.
(٣) أي الرايات، والقنا الحمر: الرماح.

الوَجْد على نَجْدَةَ! أما آن لكِ أن تتسلّيْ بمن بقِيَ من بني عمّك عمّنْ هَلَكَ؟ ها نحن أُولاء سادات قومك وفتيانهم ونجومهم، وفينا السادة والذَّادَة[١]؛ والبأس والنّجدةُ؛ فأطرقتْ مليًّا، ثم رفعت رأسها باكية وهي تقول:

صدقتمْ إنكمْ لنجومُ قومي ... لُيُوثٌ عند مُخْتَلَفِ العَوَالي[٢]

ولكنْ كان نجدةُ بدرَ قومي ... وكَهْفَهُمْ المنيفَ على الجبال!

فما حسنُ السماءِ بلا نجومٍ ... وما حسن النجوم بلا هلال!

ثم دخلت خباءها، وأرسلتْ سِتْرَها، فكان آخرَ العهد بها!

عمَر بن أَبِي رَبيعَة فِي مَضرب فَاطِمة بنت عَبد الملك[٣]

كان عمرُ بن أبي ربيعة جالسًا بمنًى في فناء مضربِه، وغِلْمانُه حولَه إذ أقبلتْ امرأة بَرْزَة[٤] عليها أثَر النعمة؛ فسلمتْ فردّ عليها عمرُ السلام، فقالت له: أنت عمرُ بن أبي ربيعة؟ فقال لها: أنا هو؛ فما حاجتَك؛ قالت له: حيّاك الله وقرَّبَك؛ هل لك في محادثةِ أحسنِ الناس وجهًا، وأنمّهم خَلْقًا، وأكْمِلهم أدَبًا وأشرفهم حسبًا! قال: ما أحبَّ إليَّ ذلك! قالت: على شَرْط! قال: قولي، قالت: تُمْكُنني من عينيك فأَشُدُّهما وأقودُك، حتى إذا تَوَسَّطَتْ الموضعَ الذي أريدُ حَلَلْتَ الشدّ، ثم أفْعلُ ذلك بك عند إخراجك حتى أنْتهيَ بك إلى مضربك، قال: شأنَكِ. ففعلت ذلك به.

قال عمر: فلما انتهتْ بي إلى المضْرب الذي أرادتْ كَشَفَتْ عن وجهي فإذا أنا بامرأةٍ على كرسي لم أَرَ مثلها قَطُّ جمالًا وكمالًا، فسلّمتُ وجلستُ، فقالت: أأنتَ عمر بن أبي ربيعة؟ قلت: أنا عمر، قالت: أنت الفاضح للحرائر؟ قلت: وما ذاك ـ جعلني الله فداءك! قالت: ألست القائل:

قالت: وعَيْشِ أخي ونعمةِ والدي ... لأنَبِّهنّ الحيَّ إنْ لم تَخْرُجِ

فخرجتُ خَوْفَ يمينها فتبسّمتْ ... فعلمتُ أن يمينها لم تَخْرُجِ[٥]

---

(١) الذادة: المدافعون، جمع ذائد.

(٢) العوالي: جمع عالية، وهي أعلى القناة أو النصف الذي يلي السنان.

(٣) الأغاني: ١ ـ ١٩٠.

(٤) برزة: بارزة الجمال.

(٥) لم تخرج: لم تضق ولم تكن جادة في حلفها.

فـتـنـاولـتْ رأسـي لـتـعـرف مَـسَّـهُ بِمُخَضَّبِ الأطراف غير مُشَنَّج[١]

فـلثِـمـتُ فـاهَـا آخِـذًا بـقـرونـهـا شُرْبَ النزيف[٢] ببرد ماءِ الحَشْرَج[٣]

ثم قالت: قم فاخرج عني، ثم قامتْ من مجلسها وجاءت المرأة فشدَّتْ عينيّ، ثم أخْرجَتْني حتى انتهتْ بي إلى مضربي وانصرفتْ وتركتني، فحللتُ عينيّ وقد دخلني من الكآبة والحُزْن ما الله به أعلم؛ وبتُّ ليلتي؛ فلما أصبحت إذا أنَا بِهَا، فقالت: هل لك في العَوْد؟ فقلت: شأنَكِ، ففعلت بي مثلَ فِعْلِها بالأمسِ حتى انتهتْ بي إلى الموضع، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسيّ، فقالت: إيهِ يا فضَّاح الحرائر! قلت: بماذا - جعلني الله فداءك؟ قالت: بقولك: «وناهدة الثديين».

ثم قالت: قم فاخرج عنّي.

فقمت فخرجت ثم رُدِدْتُ، فقالت لي: لولا وَشْكَ الرحيل، وخوفُ الفَوْتِ، ومحبَّتِي لِمُنَاجاتك، والاستكثارِ من محادثتك لأقصيتُك، هات الآن كلِّمْني وحدِّثْني وأَنْشِدني، فكلمتُ آدب الناس وأعلمتهم بكل شيء، ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخَلَا لِيَ البيت، فأخذت أنظر، فإذا أنا بتَوْر[٤] فيه خَلُوق[٥]، فأدخلتُ يدي فيه ثم خبَأتُها في رُدْني[٦]؛ وجاءت تلك العجوز فشدَّت عيني ونهضتْ بي تقودني، حتى إذا صرتُ على باب المضرب، أخرجت يدي فضربتُ بها على المضْرب ثم صرت إلى مضْربي، فدعوت غِلْماني فقلت: أيكم يقفني على باب مضرب عليه خَلُوق، كأنه أثر كف فهو حرٌّ وله خَمْسمائة درهم.

فلم ألبثْ أن جاء بعضُهم فقال: قم، فنهضت معه فإذا أنا بالكفِّ طَرّية؛ وإذا المضرب مضربُ فاطمة بنتِ عبد الملك بن مروان، فأخذتُ في أُهْبَةِ الرحيل، فلما نفرتْ نفرتُ معها فبصرتْ في طريقها بقِبابٍ ومضرب وهيئةٍ جميلةٍ، فسألتْ عن ذلك، فقيل لها: هذا عمرُ بن أبي ربيعة، فساءها أمره؛ وقالت للعجوز التي كانت

---

(١) مشنج: متقبض.
(٢) النزيف: المنزوف، وهو من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه.
(٣) الحشرج: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.
(٤) النور: إناء صغير. (٥) الخلوق: نوع من الطيب.
(٦) الردن: الكم.

تُرسلها إليه: قولي له: نَشَدْتُك اللهَ والرحمَ ألّا تصحَبني، وَيْحك! ما شأنُكَ؛ وما الذي تُريد؟ انصرف ولا تفضحني وتُشيط[١] بدمك.

فسارت العجوز إليه فأدَّتْ إليه ما قالت لها فاطمة، فقال: لست بمنصرف أو تُوَجِّه إليّ بقميصها، فوجهت إليه بقميص من ثيابها، فزاده ذلك شَغَفًا؛ ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف، وقال في ذلك:

ضاق الغَدَاة بحاجتي صدري ... وييئستُ بعد تَقَارب الأمر
وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقْتُها ... عَرَضًا فيا لِحَوادث الدهرِ
وكأنَّ فاهَا عند رَقْدَتها ... تجري عليه سُلَافَةُ الخمر
فسبَت فؤادي إذ عرضْتُ لها ... يومَ الرحيل بساحةِ القصرِ
بمزيّن رَدْعُ[٢] العبير به ... حسَن الترائب[٣] واضح النحر
وبجِيد آدمَ[٤] شادِنٍ[٥] خَرِق[٦] ... يَرْعَى الرياضَ ببلدةٍ قَفْرِ
لما رأيتُ مطيّها حِزَقًا[٧] ... خفقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صبرِ
وتبادَرَتْ[٨] عيناي بعدهمُ ... وانهلَّ دمعُهما على الصَّدْرِ
ولقد عصيت ذوي القرابة فيكم ... طُرًّا وأهلَ الوُد والصِّهرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا: ... أجننتَ أم بك داخل السِّحر!

---

(١) أشاط بدمه: أهدره.
(٢) الردع: أثر الطيب في الجسد.
(٣) الترائب: جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.
(٤) الآدم: الأسمر.
(٥) شدن الظبي: ترعرع وشبّ.
(٦) الخرق: الخائف المتحير.
(٧) حزقًا: جماعات.
(٨) تبادرت: سالت دموعها.

الباب العاشر

قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم

قصص الكهانة، والقيافة، والزجر، والعرافة، والفأل، والطيرة، والفراسة، والنوم والسهر، والرؤيا

العرب والأساطير

قصص العرب في الجاهلية وأوابدهم

قال في المستطرف[1]: للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلًا، وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المَائدة: الآية ١٠٣].

قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرًا بحروا أذنها أي شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا أعتق عبدًا وقال هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث.

وأما الوصيلة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم.

وأما الحام، فالذَّكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يُحمَل عليه ولا يُمنَع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٩٠]، فالخمر ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمرًا، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وإحداها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرًا يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهي لم يمضِ.

---

(١) المستطرف: ص ٣٥٠ ـ ٣٦١.

ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء. كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم وجهه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: الآية ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل.

وفاخر الفرزدق رجلًا عند بعض خلفاء بني أمية فقال: أنا ابن محيي الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢].

الرّفادة في الحج

فكانت خرجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصي، فيصنع به طعامًا للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصيًّا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم.

وقيل: أول مَن أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر في الكعبة.

سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد وابن سماك الأسدي

واعلم وفّقني الله وإياك إنه لم يسمع بعجب[1] أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. فأما

(١) العجب: الخيلاء والكبر.

سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله؟

وأما عبد الله بن زياد التميمي، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودي من نواحي المسجد كثّر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططًا.

وأما ابن سماك، فإنه أضلّ راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتي عليَّ لا صليت له أبدًا. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل، فقال: إنما كانت يميني يمينًا قصدًا. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثًا مستبشعًا ومثلًا بين العالمين مستبشعًا، نعوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حُكِيَ عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم، وأعانني على الانتقام منهم، فكنت أتقرّب إليه بدمائهم، فقيل له: مَن هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت في جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

أديان العرب في الجاهلية

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحرث بن كعب وكندة، وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي وابنه علي وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًا.

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنمًا من حيس فعبدوه دهرًا طويلًا، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل: إن أول مَن غيّر الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطوني منها صنمًا أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنمًا يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا في البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنمًا على بئر في جوف الكعبة يقال له هُبل، وأيضًا اتخذوا أسافًا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون.

وكان أساف ونائلة رجلًا وامرأة، فوقع أساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله.

واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها وكانت لقريش وبني كنانة العزّى، وكان حجابها بني شيبة. وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف.

وكانت مناة للأوس والخزرج ومَن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر، فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عبادًا فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه، فكرهوا ذلك، فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: مَن نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة في مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحًا عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نُوح: الآية ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زمانًا طويلًا، فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها.

وذكر الواحدي في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها. وأن مَن سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم. وقال الواقدي: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

أوابد العرب

الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنًا منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال: لم تخني.

الرئيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقأ عينه الأخرى.

العرداء: يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرىء داء العر.

ضرب الثور عن البقر، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس وتنازع في كيفياتها، فمنهم مَن زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه. وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهبت حرارته وحل به اليبس

والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصورًا في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ[١]

ثم جاء الإسلام، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبيّ ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرًا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت. والصفر زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه الصفر وهي حية تكون في البطن. تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة، فإذا تثنيت عاشت.

الغيلان والتغوّل للعرب

في الغيلان والتغوّل أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفردًا لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحُكِيَ أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف، وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب في قولهم، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن وصعيد مصر في أعاليه، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها أمنكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه، وآذا رآه الإنسان وقع مغشيًا عليه، ومنهم مَن يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه.

---

(١) هام: طائر يقال أنه يخرج من رأس الميت ويعرف «بالصدى».

ذكر الهواتف

أما الهواتف: فقد كانت كثرت في العرب وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن مَن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

هاتــف

ومن عجيب ما حُكِيَ من أمر الهواتف: ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجًا، فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه: ليت شعري هل بغت علي. فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق، فأجابه صوت في الظلام: نعم نعم وناكها حجية. وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كيه. فسكت الرجل، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيراني يسلمون عليَّ فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كيه، فقلت لأهلي من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيرًا، فسألتها عن اسمه، فقالت حجية، فقلت: إلحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السّنّ، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه، وقال: أبدليني بأحسن منها، فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جزّ النواصي: فكانوا إذا أسروا رجلًا ومنُّوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن مَن خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلًا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق

عليه برقعها فسد حبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها.

ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبكار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن.

وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

في الكهانة والقيافة
والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة
والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

الكهـانة

كانت الكهانة فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يُسمَع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها وللكهنة أخبار.

سطيح

فمنهم: سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح أعلَمَ كسرى بذلك، فتصبر كسرى تشجعًا، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غمًّا على غمهم، فكتب كسرى كتابًا إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إليّ رجلًا عالمًا بما أريد أن أسأله عنه.

فوجّه إليه عبد المسيح الغساني، فقال له كسرى أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبذان فقال علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك وائتني بالجواب.

فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرًا يذكر فيه أنه

جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما ولا العجم لعبد المسيح مقامًا، يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكًا وملكات بعدد الشرافات وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

شق وسطيح

حُكِيَ. . . أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى منامًا هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته ما يفسره لك إلا شق وسطيح فأحضرهما، وقال لسطيح: إني رأيت منامًا هالني فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض نهمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئًا ما تفسيره.

قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين.

قال: ومَن ذا الذي يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومَن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من العلي، قال: وممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر قال: والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق.

ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطيح.

الخزاعي الكاهن

حُكِيَ أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، فرضي أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكمًا، فخبؤوا إليه شيئًا وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبيًا فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتم لي كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتًا ونسبًا، فقال: والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر.

فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية.

هند بنت عتبة والكاهن

حُكِيَ... أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه[1] بن المغيرة وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجًا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هندًا رجع هاربًا، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها: مَن هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحدًا قط وما انتبهت حتى أنبهتني، قال: فارجعي إلى بيت أبيك.

وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقًا دسّيت عليه مَن يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يك كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهّان اليمن.

فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد قالوا: غدًا نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه

---

(١) كانت تحت الفاكه: أي زوجة له.

عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطىء ويصيب ولا آمنه أن يسمني[١] بسيما تكون علي سبّة[٢]. فقال لها: لا تخشي فسوف أختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها، قال: خبأتم لي تمرة في كمرة. قال: إني أريد أن أبين من هذا. قال: حبة بر في إحليل مهر.

قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضي حتى بلغ هندًا فقال: انهضي غير رسحاء[٣] ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده وقالت: إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه.

القيـــافة

وأما القيافة: فهي على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفرًا فيلحقه بأحدهم.

حُكِيَ عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكبًا على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال: ولد التاجر فوقع في نفسي من ذلك شيء فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة.

فقالت: يا ولدي إن أباك كان شيخًا كبيرًا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غدًا في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختصّ به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا

---

(١) يسمني: يلطخني ويطيعني. (٢) السبة: العار.

(٣) الرسحاء: قليلة لحم العجز والفخذين «القبيحة».

آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن في قطبة وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبيّ ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله إلى هٰهنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى.

وقيل: القيافة لبني مدلج في أحياء مضر.

أصابا جميعًا

واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خنثى فأصابا جميعًا.

ومنهم مَن كان يخطّ الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتي بعده.

خراش القائف

قال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لي في الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحيت ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين، فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض فضحك منها مالك هزوًا وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

الزّجر والعرافة

وأما الزّجر والعرافة: فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبيّ ﷺ حين بعث زاجرًا ومصورًا، فقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال

للمصور: ائتني بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

وبعث صاحب الروم إلى النبيّ ﷺ رسولًا وقال له: انظر إليه ومل إلى جانبه وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبيّ ﷺ على نشز عال واضعًا قدميه في الماء وعن يمينه علي رضي الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال: ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة.

وقال المدايني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان، حين أتاها فخرج هاربًا ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أني أرجع إلى الفسطاط. فمات ولم يرجع.

وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالًا ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب بن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان.

وكان هناك عرّاف، وقيل: قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

علي والعـرّاف

روى المدايني أن عليًا رضي الله عنه بعث معقلًا، في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك في وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشًا فذهب به، فقال

شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تُغلَبون ولا تَغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

الإسكندر والعرافة

حُكِيَ أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبًا فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكًا ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

سيف بن ذي يزن وزهير العرّاف

حُكِيَ أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، فقال: فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من إعلى إلى أدنى وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

عـرّاف بغدادي

حُكِيَ أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطىء فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال: نعم ويخلع عليه. قال: فقلت له بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يمينًا وشمالًا فوجدت رجلًا على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريق بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال: وكان الأمر كذلك.

الفـــأْل

وأما الفأْل: فقد رُوِيَ أن النبيّ ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. ورُوِيَ أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار.

وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأْل فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما أشبه ذلك.

الطِّيــرة

وأما الطِّيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: مَن عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إلـٰه غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعنه ﷺ أنه قال: ليس منا مَن تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهّن له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (رفعه) من افتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة[١] من السحر. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: مَن أتى كاهنًا فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضًا في دبرها فقد برىء مما نزل على محمد. وأنشد المبرد[٢] هذه الأبيات يقول:

لا يعلم المرء ليلًا ما يصبحه إلا كواذب ما يجري به الفالُ
والفال والزجر والكهان كلّهم مضللون ودون الغيب أقفالُ[٣]

وقال لبيد:

لعمري ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

---

(١) شعبة: ناحية وجانبًا.

(٢) المبرد: ٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ. ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م. محمد بن الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه «الكامل» و«المذكر والمؤنث» و«التعازي والمرائي» و«شرح لامية العرب».

(٣) الفأل والزجر: الفال: ما يتفاءل فيه الإنسان والزجر إطلاق الطائر، فإن طار يمينًا حصل التفاؤل وإن طار شمالًا حصل التشاؤم.

وقال آخر:

تعلّم أنّه لا طير إلّا ... على متطيّر وهو الثبور[١]
بل شيءٌ يوافق بعض شيءٍ ... أحايينًا وباطله كثير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا وإن أخذت شمالًا أخذوا شمالًا، ومنه قول امرىء القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ معًا ... كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عَلِي

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بصرًا، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب البين صاح فقل به ... ترفّق رماك الله يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشّاق أقبح منظرٍ ... وأبشع في الأبصار من رؤية اللّحدِ
تصيح ببينٍ ثم تعثر ماشيًا ... وتبرز في ثوبٍ من الحزن مسودٌ
متى صحت صحّ البين وانقطع الرجا ... كأنّك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطيّر بالإبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال مَن ارتحل. وفي ذلك قال بعضهم مفردًا أجاد:

زعموا بأن مطيّهم سبب النوى ... والمؤذنات بفرقة الأحباب

وقالوا: مَن تطيّر من شيء وقع فيه.

المأمون وإبراهيم بن المهدي

حُكِيَ عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول: يا عم إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجئته وقد

---

(١) الثبور: الهلاك.

بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم فقال لها: غنينا شيئًا فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الأبيات:

همو قتلوهُ كي يكونوا مكانه ... كما فعلتْ يومًا بكسرى مرازبه(١)

بني هاشمٍ كيف التواصلُ بيننا ... وجند أخيه سيفه ونجائبه(٢)

قال: فغضب وتطير وقال لها: ما قصتك ويحك انتبهي وغني ما يسرني. فغنت تقول:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصرًا ... وأكثر حزمًا منك ضرِّج بالدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة غنّي غيره فغنت تقول هذه الأبيات:

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا وريب الدهر عدّاءُ

تبكي فراقهم عيني فأرقّها ... إنّ التفرّق للمشتاق بكاءُ

قال: فانتهرها وقال لها: قومي إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه.

ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلي وقال: يا عمي أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفًا يقول: قضي الأمر الذي فيه تستفيان. فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئًا وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: انصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به.

أبو الشمقمق وخالد بن يزيد

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو

---

(١) مرازبه: عند الفرس «الرؤساء».

(٢) النجائب: الكريم الفاضل النسيب من الإنسان والحيوان.

الشمقمق يقول:

ما كان مندقّ اللواء لريبةٍ تخشى ولا أمرٍ يكون مبذّلا[١]

لكنّ هذا الرمح ضعّف متنه صغر الولاية فاستقلَّ الموصلا

فسُرَّ خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم.

الحجاج بن يوسف والطيرة

دخل الحجاج الكوفة متوجهًا إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شاهت الوجوه وتبت الأيدي ويؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله لو أن لي بكم قوة أو آوى إلي ركن شديد، فأي ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذًا في أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

أيّنا أشأم

وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول مَن استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيدًا كثيرًا فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لي به لكن ائذن لي في الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحًا على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

---

(١) مبذال: محقرًا ومبتذلًا هينًا.

طيرة صاحب قرطبة

حُكِيَ أيضًا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذي الليالي علمنا أنْ ستطوينا فشعشعينا بماء المزن واسقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

نور الدين وهمام الدين

حُكِيَ أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج، فتجاولا في الكلام ثم قال محمود: يا مَن درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير قال: فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدرًا في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

الفراسة

وأما الفراسة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: الآية ٧٥]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسي منه، فتفرس ذلك مني فقرأ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبي فتفرس ذلك أيضًا فقرأ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشّورى: الآية ٢٥].

وحُكِيَ عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلًا فقال أحدهما: إنه نجار وقال الآخر: أنه حداد، فسألاه عن صنعته فقال: كنت حدادًا وأنا الآن نجار.

رائحة الكفر

حُكِيَ أن شخصًا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية قال: من رآه: ولقد رأيته متكئًا على دكة وبيده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فسلم علي وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باقٍ على حاله أم لا؟ فقال له: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحِجر: الآية ٢]. قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت.

كان الحسن ابن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه، كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطىء وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ما عند الله خير وأبقى فاعلم إن جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قومًا يخرجون من عند قاض وهم يقولون: ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل.

وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنسانًا يمشي ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيرًا يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني.

وإذا رأيت رجلًا خارجًا من عند الوالي وهو يقول يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع. ويقال عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها يدل على السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

وكانت الفرس إذا تقول فشا الموت في الوحوش دل على ضيقه، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب، وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب، وإذا

قوقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار. والله أعلم بكل شيء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد أو عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

النوم والسهر

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل». ورُوِيَ أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلسًا، وكان زمعة بن صالح يسهر ليلًا طويلًا فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركب المعرّسونا أكلّ هذا الليل ترقدونا[1]

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. (وأنشدوا):

يا أيها الراقد كم ترقدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته حظًّا إذا ما هجع الرقّدُ
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى قنطرة الحشر لكم موعد

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى غمومًا ونومات العصير جنون

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يومًا بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة.

---

(١) المعرسونا: النازلون للاستراحة.

والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى ونومة الخلق هي التي أمر النبيّ ﷺ بها أمته فقال: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل، ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون.

وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثوري لطبيب: دُلّني على شيء إذا أردت النوم جاءني، فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله، وكان طاوس يقول لأن تختلف السياط على ظهري أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ويقول: اللهم إن النار منعتني النوم وأنشدوا في المعنى:

غيرت موضع مرقدي ... يومًا ففارقني السكونُ
قل لي فأوّل ليلتي ... في حفرتي أنى أكونُ

وأنشد أبو دلف:

أمالكتي ردّي عليّ رقاديا ... ونومي فقد شرَّدته عن وساديا
أما تتقين الله في قتل عاشقٍ ... أمتِّ الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفي:

رقدت رقاد الهيم حتى لو أنني ... يكون رقادي مغنمًا لغنيت[1]

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبدًا أسود قيل إنه نام أسبوعًا وقيل إنه تماوت على أهله وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسجى ونام وندب فإذا هو قد مات.

الــــرؤيـــا

وأما الرؤيا: فقد قيل فيها أقاويل وهو أنهم قالوا إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم مَن رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح.

---

(١) رقاد الهيم: نوم الإبل العطاش.

ومنهم مَن زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحورًا وعيونًا ومياهًا كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكًا، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثًا وأمواتًا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة. ومَن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة.

والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة، وكان النبيّ ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم مَن يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم مَن يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

رؤيا النبيّ ﷺ

فمن ذلك ما حُكِيَ أن النبيّ ﷺ رأى في الجنة غرفًا فقال: لمن هذه؟ فقيل لأبي جهل بن هشام فقال ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبدًا. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلمًا، فتأولها به وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلبًا أبقع[1] يلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عامًا وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه إني رأيت كأني رقيت أنا وأنت درجًا في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله اقبض بعدك بسنتين ونصف. ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته وموت النبيّ ﷺ وموت عمر رضي الله تعالى عنهما ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

رؤيا أم الشافعي

وحُكِيَ أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول عالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

---

(١) الأبقع: الذي اختلف لونه، أو كان فيه سواد وبياض.

عمر بن الخطاب وصاحب الرؤيا

وحُكِيَ أيضًا: أن عاملًا أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة والله لا وليت لي عملًا فعزله. ثم اتفق أن عليًا رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

ابن سيرين

وأما من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتًا، فاستوى جالسًا فقال: ما التي تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطؤها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتمًا أختم به فروج النساء وأفواه الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء.

وجاءه رجل فقال: رأيت جارة لي قد ذبحت في بيت من دارها، فقال هي امرأة نكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع زوجته في ذلك البيت.

وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت في النوم كأني أسد الزقاق سدًا وثيقًا شديدًا، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون في جرابة آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتارًا وحلقًا فسلموه إلى السلطان.

وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا، ونادى منادٍ من خلق أن ائتني ابن سيرين فقصّ عليه، فتقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيتي هذا؟ فأعادت عليه فقال لأخته: هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام.

وجاءه رجل فقال: رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقي صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحُكِيَ أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف مني فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحُكِيَ أن رجلًا رأى عيسى عليه السلام قال له: يا نبي الله صلبك حق، قال: نعم، فعبره على بعضهم، فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم. ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك. وأتى ابنة مغيث آتٍ في المنام فقال لها:

لك البشيرى بولد أشبه شيء ... بالأسد إذا الرجال في كبد[1]

تغالبوا على بلد ... كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة.

وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأني بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت عليًّا رضي الله تعالى عنه في المنام فقال لي: ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة، فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: مَن رآني في منامه فقد رآني حقًّا، فإن الشيطان لا يتمثل بي، وجاء إلى النبيّ ﷺ فقال: رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأي عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته.

وقال رجل لعلي بن الحسين: رأيت كأني أبول في يدي، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك سألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ.

(١) الكبد: التعب.

وقال النبيّ ﷺ الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألني عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين.

العرب والأساطير

كانت العرب تمرُّ في الجاهلية بضعف في التعليل. أعني عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول.

مثلًا: يمرضُ أحدُهُم فيصفون لهُ علاجًا فيفهم نوعًا عامًا من الارتباط بين الداء والدواء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف! يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء. لذا لا يرى عقله بأسًا من أن يعتقد أن دَمَ الرئيس يشفي الكَلَب! أو أن سبب المرض روحٌ شرير حلّ فيه فيداويه بما يطردُ هذه الأرواح. أو أنه خِيفَ على الرجل الجنون فنجوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى إلى كثير من ذلك.

ولا يستنكر شيئًا لأن القبيلة تفعله. لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه، وما يزيل هذه العوارض. وهذه الدرجة لا يصل إليها العقل في طوره الأول.

وقد مُلِئَتْ كتبُ الأدبِ بالخرافاتِ والأساطيرِ التي كانت العرب تعتقدها. فهم يحدثوننا عن سدِّ مأربَ وسبب خرابه.

كان بين ثلاثة جبال تحصر ماء السيل والعيون، وليس للماء مخرج إلَّا من جهة واحدة، فسدَّ الأوائلُ تلك الجهة بالرصاص والحجارة الصلبة.

فكانوا إذا أرادوا سَقْيَ زَرْعِهم فَتحوا من ذلك السدِّ بقدرِ حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدُّونه إذا أرادوا.

ثم يحدثوننا أن سبب خرابه جُرذان حُمْر كنَّ يحفرنَ السَّد الذي يليها بأنيابها، فتقتلع الحَجرِ الذي لا ينقله مائة رجل ثم تدفعهُ بمخاليب رجليها حتى تسدَّ الوادي من الناحية التي يجتمع فيها الماء. ويُفتح من ناحية السد.

وقد عجزوا عن أن يفهموا أن ليس هناك ارتباط صحيح بين هذه الجرذان الخرافية وخراب السد. وأن السبب الصحيح هو إهمال تعهد السد وصيانته، بحيث لم يعد يقوى على تحمل السيل.

وكذلك قالوا: إن الذي بنى الخورنق هو النعمان بن امرىء القيس. بناه له رجل من الروم يقال له: سنِّمار. فلما أتمَّهُ قال له سنمار:

إني أعلم موضع آجُرَّة لو زالت لسقط القصر كله. فقال النعمان: أيعرفها غيرك؟ قال: لا. قال: لا جَرَم، لأدعنَّها وما يعرفها أحد. ثم أمر بقذفه من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع. فضرب به المثل، وقيل: «جزاه جزاء سنمار».

وقد صدَّق الناس هذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر على آجرة واحدة. وكذلك قصة لقمان بن عاد. لما بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها فلما هلكوا خُيِّر لقمان بين أن يبقى بقاء سبع بقرات سمر، من أضب عفر، في جبل وعر، لا يمسها قطر.

أو بقاء سبع أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر. فكان آخر نسوره اسمه لبد. وقد ذكرته الشعراء، فقال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

ويطول القول عن هذا القبيل في كتب التاريخ، من حوادث تتعلق بالقبائل البائدة: كعادٍ وجديس وطسم، أو بالحوادث البعيدة عن زمن الهجرة كجذيمة الأبرش والزبَّاء.

ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم، بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم في طَوْرِ مثل طَوْرهم كاليونان، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها موضوعًا لما يسمى «علم الميثولوجيا».

أسطورة شداد بن عاد

حدَّث شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة، وكان معمرًا عالمًا بملوك بني حمير وأمورها قال: كان باليمن رجل من عاد بن قحطان، وهو عاد الأصغر ـ وأما

عاد الأكبر فلم يبق منهم أحد. قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحَاقَّة: الآية ٨]، وأن هذا الرجل العادي كان يقال له الهميسع بن بكر، وكان جسورًا لا يهاب أمرًا، وكانت الصعاليك تقصده من آفاق الأرض، وكان أكثر طلبه المغاور والكهوف يطلبها في جبال اليمن وعمان والبحرين. فأتاه رجل من عبس وآخر من خزاعة وكانا صعلوكين جسورين فقالا له: يا هميسع خذنا معك أين ما أردت فإنَّا نبلغ مرادك.

فمضى معهما حتى أتى بهما جبلًا وعليه غابة فيها الثعابين لا تُرام، والهميسع أمامهم وكان قد أتى الجبل مرارًا وحده، وكان إذا عاين الثعابين يجزع ويرجع. فلما أتى ومعه الصعلوكان جَسَر بهما وتشجع، فلم يزل يتزايا للثعابين وتهرب منه حتى بلغ باب كهف عظيم كأنه جبل، فسمعوا من داخل الكهف دويًا عظيمًا وهينمة، وعلى باب الكهف نقشٌ بالحميري فقالا له: اقرأ يا هميسع. فقرأه فإذا مكتوب هذين البيتين:

لا يدخل البيت إلّا ذو مخاطرةٍ أو جاهلٍ بدخول الكهف مغرور
إن الذي عنده الآجال حاضرةً موكلٌ بالذي يغشاه مأمورُ

فغلب الخوف والجزع على الخزاعي في أول أمره. ثم إن الجزع غلب أيضًا على العبسي فاستدرك نفسه العبسي وثبت. فقال الخزاعي: يا هميسع قد عاش في الدنيا كثير ممن لم تبلغ نفسه هذا المبلغ. ثم قال له: يا هميسع لقد بعْتَ نفسكَ من دهرك بأبخس ثمن. فقال الهميسع: نمضي بالكهف أم لا؟

قالا له: نمضي. فسارا قليلًا فوجدا بابًا مكتوب عليه بالخط الحميري:

انظر لرحلِك لا يساق فإنه حتم الحمام إلى العرين يساقُ
يا ساكني جبليْ شمام لعله يُدني بما أجنبتما الميثاقُ
قوموا إلى الإنسيّ إن محلَّهُ يدعو إلى يوم الفراق فراقُ

قال: فولّى العبسي هاربًا عنه، وناداه الهميسع فلم يلتفت له. ومضى وهو يقول: قاتل الله أخا عاد ما أجسره.

قال: فهمَّ الهميسع أن يفر، ولكنه حمل نفسه على الأصعب، ومضى حتى بلغ إلى باب هو أعظم هولًا وأشدُّ وحشةً وعليه نقش بالقلم الحميري -

فقرأه الهميسع فإذا فيه:

قد كان فيما قد مضى واعظٌ لنفسك البيّنة المسمعةْ
إن جهل الجاهل ما قد أتى وكان حينًا قلبه في دَعَةْ

فدخل الباب الثالث فسمع دويًا عظيمًا كالرعد وهدَّةً عظيمة، فبينما هو كذلك إذ برز إليه تنين أحمر العينين فاتحًا فاه، فلما رآه الهميسع رجع هاربًا إلى خلفه فسكن التنين. فوقف العادي وقال في نفسه: قد رآني، ولو كان حيوانًا لم يدعني وما هو إلّا طلسم، فأخذ حذره من صدمته ـ وأقبل يمشي قليلًا قليلًا ويُخفف وطأ قدميه، حتى وضع قدمه في موضع فتحرك التنين ودوى.

فأخذ قدومًا كان معه فحفر على الموضع حتى ظهرت له سلاسل على بكرات، فأجنه الليل فأسرع الخروج من الكهف وجمع حطبًا من الغيضة وأضرمها نارًا وبات عند باب الكهف. فلما غشيه الليل سمع بكاءً عظيمًا وحنينًا داخل الكهف، فلم يزل ينتظر ويرتقب وينظر حتى نظر إلى نار عظيمة خارجة إليه من داخل الكهف. فلما رآها لم يبرح من موضعه حتى غشيته، فصبر لها فلم تؤلم فيه شيئًا. ثم أتته أخرى ثانية أكبر من الأولى، فصبر لها كذلك. فلما مالت عنه أخذ مقياس النيران التي أضرمها وأقبل يضرب بها حيطان الكهف يمينًا وشمالًا حتى سمع نداءً من داخل الكهف يهتف:

يا هميسع لا حاجة لنا في دخولك. فأقام حتى أصبح، فدخل الكهف إلى أن وصل إلى الباب الذي رأى فيه التنين، ثم حفر على بقية حد التنين حتى قلعه.

وسقط التنين، فسار إليه الهميسع وقلع عينيه، فإذا هما ياقوتتان حمراوان لا قيمة لهما. وسار حتى انتهى إلى باب هو أعظم هولًا وأشدُّ وحشة. فلما همَّ أن يفتحه سمع دويًا عظيمًا، وبدا له أسد عظيم، فرجع أيضًا إلى خلفه، فرجع عنه الأسد بدويّ عظيم. فحفر على موضع حركته كما صنع بالتنين حتى أبطل حركته، وقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان.

ثم دخل بابًا فإذا هو بدار عظيمة، وفيها بيت في وسطه سرير من ذهب وعليه شيخ على رأسه لوح من ذهب فيه مكتوب:

أنا شداد بن عاد، عشت خمسمائة عام، وقتلت ألف مبارز، وتزوجت ألف امرأة، وركبت ألف جواد من عتاق الخيل. وتحته مكتوب:

من ذاك يا شداد عاد أصبحت ... آمـالـه مـهـزومـة الأقـدام
يـا مـن رآنـي إنـنـي لـك عـبـرةً ... من بعد ملكِ الدهر والأعوام
فكأنني ضيفٌ ترحل مسرعًا ... وكـأنـنـي حـلـم مـن الأحـلام
احذر تصاريف الزمان وريبه ... لا تـأمـنـنَّ حـوادث الأيـام

قال: ثم ملت إلى الركن الذي عن يمينه، فإذا هو سريرٌ من ذهب وعليه جاريتان فوق رأسيهما في الحائط لوح من ذهب - أو قال من عاج - فيه مكتوب: «أنا حبة، وهذه لبَّة بنت شداد بن عاد. أتت علينا أزمان أنفقنا فيها الطارف والتليد، ثم طلبنا صاعًا من بُرٍّ بصاع من دُرّ فلم نجده. فمن رآنا فلا يثق بالزمان وليكن على بيان، فإنه يُحدث العز والهوان».

قال: فأخذ الهميسع الألواح - وما بالبيت من درٍّ وجوهر وياقوت وخرج.

لما مات شداد بن عاد صار الأمر إلى أخيه لقمان بن عاد - وكان الله أعطى لقمان ما لم يعط غيره من الناس في زمانه. أعطاه حاسة مائة رجل، وكان طويلًا لا يقاربه أهل زمانه[1].

قصة لقمان بن عاد والنسور السبعة

أُعطي لقمان بن عاد ما لم يُعطه غيره من الناس في زمانه. أعطاه الله حاسة وقوة مائة رجل. وكان حكيمًا.

كان لقمان بن عاد بعد كل صلاة يدعو بطول العمر، وقد دعا بذلك في الكعبة. فأتاه صوت وهو في الكعبة: يا لقمان بن عاد؛ أطلب تُجَبْ. فطلب طول العمر وقال: «اللهم يا رب البحار الخضر، والأرض ذات النبتِ بعد القطر، أسألك طول العمر، وعمرًا فوق عمر».

فنودي: قد أجيبتْ دعوتك، وأُعطيتَ سؤلك، ولا سبيل إلى الخلود، واختر: إن شئت بقاء سبع بقرات عُفر، في جبل وعْر، لا يمسَّهُنَّ ذُعر. وإن

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير، ص ٧٧ - ٧٨.

شئت سبع نوايات من ثمر، مستودعات في صخر، لا يمسَّهُنَّ ندى ولا قطر. وإن شئت سبعة نسور، كلما هلك نسر عقب بعده نسر. فقال: أنا أختار سبعة نسور.

فكان يأخذ فرخ النسر من وكره ويربيه حتى يموت. وكان آخرهم لُبَد.

النسر الأول: المصون

بينما لقمان يدور ذات يوم في جبل قبيس بمكة إذ سمع مناديًا لا يرى شخصه، وهو يقول: يا لقمان بن عاد المغرور ببقاء النسور، اطلع إلى رأس «ثبير» ليس يعد وقدرك المقدور.

فطلع رأس ثبير فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلَّقتا عن فرخيهما، فاختار لقمان أحد الفرخين، ثم عقد في رجليه سيرًا ليعرفه وسماه: المصون. ثم قال: المصون الخالص المكنون، من بيت المصون، ومحذور السنون، وغبط العيون، والباقي بعد الحصون، آلى آخر الدهر الخؤون.

فكان لا يغفل عن إطعامه حتى صار طائرًا مسخرًا له، يدعوه فيجيبه، حتى أدركه الكبر فضعف ومات، فجزع لقمان جزعًا شديدًا، وقال: هذا بلاء.

النسر الثاني: عِوَض

كان لقمان بالطائف يبكي نسره مصون، إذ سمع مناديًا يناديه: يا لقمان بن عاد دونك البدل، رأس الجبل، مرعى الوعل، رأس السرماج المعتزل، مأمورٌ بطاعتك كالأول.

طلع لقمان إلى رأس الجبل فوق مرعى الوعل، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان تفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، فسماه عوض، ثم قال: أنت العوض، المبرأ من تلف العَرَض، وآفات المرض، وتعواج الجرض، وحقك عليَّ أفضل مفترض، أوديه كلما عرق نبض.

ولما كبر وأدركه الضعف. دعاه لقمان يومًا تحت شجرةٍ ومعه لحم ليطعمه، فأقبل النسر كاسرًا بجوزه غصون الشجر فخرّ ميتًا. فهال لقمانَ موته هولًا عظيمًا.

النسر الثالث: الخلف

كان لقمان بالسراة، فبينما هو سائر حزينًا على نسره عوض، سمع هاتفًا يهتف: يا لقمان بن عاد، اطلع الصفا، تجد عند العرثون شرفًا، تصادف فيه خلفًا، واسمه خلف، وأقبلْ بالحياة نَصَفا.

فطلع لقمان رأس الجبل، فوجد وكر نسر فيه بيضتان تفلقتا على فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، وقال:

أنت الخَلَف، كما وصفك من وصف، احترازًا من التلف، وأبقى مما قد سلف، ولك عندي أفضل النَصَف. وكان يطعمه ويذلك، حتى كبُر وضعف ولم يقدر أن يطير، فصنع له قفصًا كان يأخذه فيه أينما ذهب. وكان مرةً في عكاظ، إذ اجتمع إليه من حضر من العرب وطلبوا إليه أن يريهم نسره. فبينما هم يقلبونه وينظرون إليه إذ مات النسر في أيديهم وبينهم. فاغتمَّ لقمان لموته وجزع عليه جزعًا شديدًا. ويقال إن لقمان هو أول مَن حمل نسرًا في قفص.

النسر الرابع: المغيَّب

وتوجه لقمان إلى جبل قريب وهو حزين على نسره خلف، إذ سمع مناديًا ينادي: يا لقمان بن عادٍ، اطلع الجبل، تلق عند السهور[١] ذي الرتب، في تلة العربون المنتصب، مغيبًا لم تغيب، من حلول موت قد كتب، على أهل المشرق والمغرب.

فطلع لقمان ذلك الجبل حيث وصف الذي ناداه، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين، وسماه مغيبًا، ثم قال:

أنت المغيَّب، وقد سماك مَن لا يكذب، عيشك معي العيش المخصب، ويزاح عنك المكدر المخرب، وأنا عليك حدب، في بقائك مرتقب، فكن أبقى ممن ذهب. فكان لقمان لا يغفل عن إطعامه. ودعاه يومًا من رأس جبل فلم يجبه فطلع إليه فوجده ميتًا، فهاله موته هولًا شديدًا وبكى بكاءً مرًّا.

---

(١) كذا في الأصل.

النسر الخامس: ميسرة

لما كان لقمان يبكي على النسر، سمع صوتًا يقول: يا لقمان بن عاد، لك في الجبل الأيسر، بين منبت الشيث والعرعر، فوق الشاهق الأغرّ، فأخرجه منه واستبشر، فبطاعتك قد أُمر، وإلى الموت يصير البشر. فطلع لقمان فوجد عشًّا فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخين، فاختار أحد الفرخين وعقد في رجله سيرًا ليعرفه، وسماه ميسرة. ثم قال: أنت الميسر المحبب إليك اليسر، إنك النسر الباقي بقاء الدهر. وكان لقمان يطعمه ويربيه، ودعاه يومًا ليطعمه فوجده ميتًا، فهاله موته وجزع جزعًا شديدًا.

النسر السادس: أنس

بينما لقمان يبكي على نفسه ذات يوم، لأن ذهاب النسور أنقص من عمره، إذ سمع مناديًا يقول: يا لقمان بن عاد، لك الصفا الأسود، حيث الشجر المتلبد، خلصة بيت الرشد، فرخٌ به وفاء الوعد، مأمور بطاعتك فاصعدْ.

فصعد لقمان فوجد وكرَ نسر فيه بيضتان قد انشقتا وتفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين وسماه أنسًا، ثم قال: أنت الأنس من الروعات والدحس، والدهر غير التعس، وحياتك ببقاء النفس. وكان لقمان لا يعدل عن إطعامه حتى نهض طائرًا مسخَّرًا له، يدعوه إلى المأكل فيجيبه، حتى كبر وضعف. فبينما لقمان سائرًا من الطائف إلى مكة ومعه لحم قد بضعه له، والنسر يحوم فوقه إذ دعاه إلى الأكل، فانقض كاسرًا فوقع فمات، فاغتمَّ لقمان غمًّا شديدًا وبكى.

النسر السابع: لُبَد

وبينما لقمان يبكي نفسه، إذ بصوتٍ يناديه يقول: يا لقمان بن عاد، لك فوق الصيف الأسود، حيث الشجر المتلبد، خلصة بيت الرشد، فرخ به وفاء الوعد، مأمور بطاعتك فاصعدْ.

فصعد لقمان فوجد وكر نسرٍ فيه بيضتان قد انشقتا وتفلقتا عن فرخيهما، فاختار أحد الفرخين. وعقد في رجله عقدة، وسماه لُبَد. وقال: أنت لُبَد، الباقي المخلد، إلى الآخر الأبد، عيشك معي رغد، ويزاح عنك النكد، ويوفق لك الرشد، وعمرك لا ينفد.

وكان لا يغفل عنه أبدًا. وجاء رجل إلى لقمان من عاد الآخرة. فقال: يا عم، ما بقي لك من عمرك إلّا هذا النسر. فقال لقمان: يا بني، هذا لُبَد! ولُبَد في لغة العرب معناه الدهر.

فلما دنا أجل لقمان وبلغ الميقات، أقبل ذلك النسر لبد حتى وقع على شجرة، فدعاه لقمان، فأراد أن يقوم فلم يستطع. فناداه مرعوبًا حتى قام تحته وهو يقول: انهض لبد، أنت الأبد، لا يقطع بي الأمد، نهضا شدد، نهض المجرد، الحارث بن ذي شدد. فلم يطق لبد أن ينهض، وتفسخ ريشه ومات. فهال ذلك لقمان وجاء لينهضه، فاضطربت عروق ظهره وخرَّ ميتًا.

وكان منظرهما هذا بمرأى رجل من العمالقة. يقال له: المثنَّى بن عمليق ـ والعمالقة سكان السراة والحجاز كلها. فقال وهو يبكي على لقمان ويرثيه:

فنيت وأفنى الله نسلك من نسر هلكت وأهلكت من عاد وما تدري

فمن ذا ينجي بعد لقمان فكره يخلصه يا قوم من تلف الدهر

وذهب المثنى إلى ناس من قومه العماليق فأخبرهم بأمر لقمان ونسره فانطلقوا ودفنوهما. ويقول ربيعة الكلابي شعرًا بذلك:

لما رأى لبد النسور تطايرت رفع القوادم كالعقير الأعزلِ

من تحته لقمان يرجو نهضه ولقد رأى لقمان أن لا يأتلي

ولقد جرى لبد فأدرك شأوه ري المنون وكان غير مغفلِ

غلب الليالي خلف آل محرق وكما فعلن بتبّع وبهرقل

وغلبن أبرهة الذي ألفيته قد كان يخلد فوق غرفة موكلِ

والحارث الحراب كانت داره دارًا أقام بها ولم يتحمّلِ

تجري مواهبه على مَن نابه جَرْيَ الفرات على قرار الجدول

وعاش كل نسر مائة عام، وكان لقمان عاش قبل النسور زمنًا ورأى عذاب قوم هود، وكان من وفد عاد الذين ذهبوا إلى مكة ليستسقوا قبل أن يحل بهم العذاب[1].

(١) انظر كتاب التيجان ص ٣٧٠ ـ ٣٨١.

قصة العنقاء والنبي سليمان في القضاء والقَدَر

عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال: إنك تأتين كذا وتفعلين كذا. فقالت: والله رب السماء والثرى، إنّا لنحرص على الهدى، ولكن قضاء الله يأتي إلى منتهى علمه وقَدَره. قال سليمان: صدقت. لا حيلة لنا بالقضاء والقدر.

قالت العنقاء: لست أومن بهذا. قال لها سليمان: أفلا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت: بلى. قال: إنه يولد الليلة غلام في المغرب، وجارية من الشرق، هذا ابن ملك وهي بنت ملك، يجتمعان في أمنع المواضع وأهولها على سفاح يقدّر الله تعالى فيهما.

قالت العنقاء: يا نبيَّ الله قد ولدا؟ قال: نعم الليلة. قالت: فهل أخبرتني بهما وما اسمهما يا نبيَّ الله، فإني أفرق بينهما وأبطل القدر.

قال: إنك لا تقدرين. قالت: بلى. وكفلتها البومة. فأشهد سليمان عليهما الطير.

العنقاء والفتاة

حلّقت العنقاء في الهواء وأشرفت على الدنيا وأبصرت كل بيت حتى أبصرت الجارية تنام في مهدها وفي قصر والديها. فاختطفتها وطارت بها إلى جبل شاهق أصله في جوف البحر وعليه شجرة عالية لا ينالها طائر إلا بجهد. فاتخذت لها وكرًا واسعًا وأرضعتها وحضنتها حتى كبرت. وكانت العنقاء تغدو إلى سليمان كل يوم. ولم تعلم أحدًا بذلك.

لقاء الشاب والفتاة

وبلغ الغلام مبلغ الرجال وكان ملكًا من ملوك الدنيا. وكان يلهو بالصيد ويحبه. فقال يومًا لأصحابه: قد تمكنت من كل صيد البر. فما رأيكم إن ركبنا البحر فننال من صيده الكثير؟

وركب الملك وقرَّ في البحر يتصيد حتى سار مسيرة شهر. فأرسل الله تعالى على سفينته ريحًا عاصفًا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها إلى جبل العنقاء الذي فيه الجارية.

وأصبح الملك فرأى سفينته راكدة. فأخرج رأسه من السفينة، فرأى الجبل ورأى شجرة جميلة أعجبه منظرها.

سمعت الفتاة التي في عش العنقاء صوتًا وجلبة ولم تكن قد سمعت شيئًا من قبل، فأطلت رأسها، فرأى الملك وجهًا جميلًا وشعرًا أجمل. فأخذه القلق فناداها: مَن أنت؟ فأفهمها الله لغته وقالت: لا أدري ما تقول ولا من أنت، إلا أني أراك بشبه وجهك وجهي وكلامك كلامي. وإني لا أعرف إلا العنقاء أمي.

فقال لها الملك: وأين أمك العنقاء؟ قالت: في نوبتها. تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتعود في الليل، وتجيء تحدثني عنه، وإنه لملك عظيم.

قال لها: أرأيت إن هاجت الريح وأزعجتك من وكرك فمن يمسكك أن تقعي في البحر؟ قالت: أفزعتني بكلامك. وكيف يكون معي إنسيٌّ مثلك يحدّثني ويحميني؟

قال الملك: أوَلا تعلمين أن الله الذي اتخذ سليمان نبيًا وسخَّر له الطير والرياح، هو الذي رحِمَكِ وساقني إليك صاحبًا وأنيسًا وإني ملك من أبناء الملوك.

قالت: كيف تصير إليَّ وأصير إليك؟ قال لها: عندما تأتي العنقاء تكثرين من وحشتك وبكائك. فإذا قالت ماذا تريدين، أخبريها بحديثك. فلما جاءت العنقاء وجدتها حزينة باكية فقالت: ما بك يا بنية؟ قالت: الوحدة والوحشة! فقالت لها: يا بنية لا تخافي سأستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف يومًا.

ثم عاد الملك ثانية، فأخبرته الفتاة بما قالت والدتها العنقاء، فقال لها: سأنحر من دوابي هذه فرسًا وأبقر بطنه وأجوفه وأثيره وأدخل فيه وألقيه على رأس السفينة هذه. فإذا جاءت العنقاء فقولي لها: إني أرى عجبًا، حلقة ملقاة على هذه السفينة. فلو اختطفتِها وحملتِها إلى وكري هذا فأنظر واستأنس بها، كان أحب إلي من كينونتك معي وتركك زيارة سليمان.

وهكذا لما جاءت العنقاء قالت لها الفتاة ما علّمها الملك. فانقضت العنقاء إلى السفينة واختطفت الفرس والملك في جوفها. ففرحت الفتاة، فقالت العنقاء: لو علمت أن هذا يفرحك كنت آتيك به منذ حين.

وذهبت العنقاء إلى نوبتها عند سليمان، وخرج الملك من جوف الفرس.

وجلس مع الفتاة يلاعبها ويقبلها. وفرح كل واحد منهما بصاحبه.

في مجلس النبيّ سليمان

وجاء الخبر إلى سليمان باجتماعهما من قبل الريح - وكان مجلس سليمان يومئذٍ مجلس الطير - فدعا بعرفاء الطير وأمرهم أن لا يدعوا طائرًا إلا حشروه، ففعلوا، وكانت العنقاء بينهم. فأول سهم خرج في تقديم الطير: سهم الحدأة، ثم جاء سهم العنقاء فسألها سليمان: ما قولك في القَدَر؟

قالت: يا نبيّ الله، إن لي من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وآتي بالخير. قال لها: وأين شرطك الذي بيني وبينك عن الجارية والغلام؟ قالت: قد فرقت بينهما. قال سليمان: الله أكبر! فائتني بها الساعة والخلق شهود لأعلم تصديق ذلك. وأمر العريف أن لا يفارقها أبدًا.

فعادت العنقاء إلى العش. وكان الملك إذا سمع حفيف جناحيها اختبأ بجوف الفرس. ولما وصلت قالت للفتاة: إن سليمان أمرني أن أحضرك لمجلسه. قالت الفتاة: فكيف ستحملينني؟ قالت: على ظهري. قالت: أخاف أن أنظر إلى أهوال البحر فأقع. أدخل في جوف الفرس ثم تحملين الفرس على ظهرك أو في منقارك فلا أر شيئًا ولا أفزع. قالت: أصَبْتِ!

فدخلت الفتاة في جوف الفرس وحملتها العنقاء وطارت حتى وقفت بين يدي سليمان وقالت: يا نبيّ الله هذه الفتاة في جوف الفرس. فنظر إليها طويلًا وقال لها: أتؤمنين بقدر الله تعالى وقضائه، وأنه لا حيلة لأحد في دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشر؟ قالت العنقاء: أؤمن بالله وأقول: إن المشيئة للعباد والقوة. فمَن شاء فليعمل خيرًا، ومَن شاء فليعمل شرًّا. قال سليمان: كذبتِ! ما جعل الله من المشيئة إلى العباد شيئًا. ولكن مَن شاء الله أن يكون سعيدًا كان سعيدًا، ومَن شاء أن يكون كافرًا كان كافرًا. فلا يقدر أحد أن يرد قضاء الله وقدره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم. وإن الولد الذي قد وُلِد بالمغرب والجارية التي ولدت بالمشرق قد اجتمعا الآن وفي مكان واحد على سفاح. وقد حملت منه الجارية ولدًا. قالت العنقاء: لا تقل ذلك يا نبيّ الله، فإن الجارية معي في جوف فرسي هذا. قال سليمان: الله أكبر! أين البومة المتكفلة بالعنقاء؟ قالت: ها أنا. قال سليمان: على مثل قول العنقاء أنت؟ قالت: نعم. قال: يا قدر الله

السابق قبل الخلف، أخرجهما على قضاء الله وقدره! قال: فأخرجهما جميعًا من الفرس.

أما العنقاء فتاهت وفزعت فطارت في السماء وأخذت نحو المغرب واختفت في بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت ألَّا تنظر في وجه طير ولا ينظر طير في وجهها.

وأما البومة فلزمت الآجام والجبال وقالت: أما بالنهار فلا خروج ولا سبيل إلى المعاش. فهي إذا خرجت نهارًا وبَّخَتْها الطير واجتمعت عليها وقالت: يا قدرية! فهي تخضع لهذا[1].

خبر الرجل الذي قُبض بأرض الهند

قال الكسائي: كان سليمان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يريه ملك الموت، فأراه إياه.

وكان يعوده ويأتيه كل خميس. فأتاه في بعض الأيام على صورة البشر وجعل يطيل النظر إلى رجل في مجلس سليمان حتى أرعب ذلك الرجل. فلما خرج ملك الموت قال الرجل لسليمان: يا نبيَّ الله لقد أفزعني هذا الرجل الذي كان بمجلسك من نظره إلي، فمن هو؟

قال: هو ملك الموت. قال الرجل: يا نبيَّ الله أسألك أن تأمر الريح أن تحملني إلى أرض الهند. فأمر سليمان الريح فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند.

ثم جاء ملك الموت إلى سليمان. فقال له: قد كنت اليوم عندي وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا سافيًا حتى خاف منك.

قال: يا نبيَّ الله، إني كنت قد أمرتُ بقبض روحه في موضع من الهند في هذا اليوم. فلما رأيته عندك عجبت متى يصل هذا الرجل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به فألقته في البقعة التي أمِرتُ بقبض روحه فيها، فقبضت روحه هناك، فعجب سليمان من ذلك.

(١) نهاية الأرب: ١٤/٦٦ ـ ٦٨.

حكايا عن النبيّ سليمان

زوال ملكه أربعين يومًا

حكى الثعلبي في خبر الفتنة: سمع سليمان (ع) أن في جزيرة من جزائر البحر رجلًا يقال له «صيدون»، ملكًا عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه في البحر.

فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنود من الجن والإنس، فقتل ملكها وسبى ما فيها.

وأصاب بنت الملك وكان اسمها «جرادة» لم ير الناس أجمل منها، فتزوجها وطلب منها أن تسلم فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة. وقيل: إنه عندما طلب إليها أن تسلم قالت له: إن أكرهتني على الإسلام قتلتُ نفسي. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوج بها وهي مشركة أربعين يومًا وكانت تعبد صنمًا لها في خفيةٍ عن سليمان، إلى أن أسلمت. فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يومًا لأنه سكن مع امرأة كافرة.

صخر الجنّي

وجمع سليمان عليه السلام عفاريت الجن والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجني، فقالوا: يا نبيّ الله، إنَّ الله قد أعطاه قوة جماعة منا، ويصعب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتي في كل شهر إلى عين في جزيرة فيشرب ماءها. والرأي أن ننزف الماء ونملأها خمرًا. فإذا جاء وشرب وسكر ذهبت قوته فنحمله إليك.

ثم خرجوا ففعلوا ذلك واختفوا في تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشرب فاشتم رائحة الخمر وقال: أيتها الخمرة، إنك لطيبة، غير أنك تسلبين عقلي وتجعلين من الحليم جاهلًا، وأمرك كلّهُ ندامة. وانصرف ولم يشرب.

ثم عاد في اليوم الثاني وقد أجهده العطش فقال: ما من قضاء يأتي من الله إلّا كان مبرمًا. ثم عزل على العين فشرب حتى امتلأ. ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريت إليه ومعهم طابع سليمان، فلما رآه ذلّ وخضع، فحملوه حتى وقّفوه بين يدي سليمان وهو يخرج من فمه لهيب النيران، ومن منخريه الدخان.

فلما عاين ضعفت قوته وخرّ ساجدًا على وجهه، ثم رفع رأسه وقال: يا نبيّ الله، ما الذي أحوجك إليّ وأنا بعيد عن الآدميين؟ فقال له سليمان: إن الناس اشتكوا من وقع الحديد وصوته على الحجر.

قال صخر: يا نبيّ الله عليك بوكر العقاب وعشّه وبيضه، فليس شيء بالطيور أبصر منه. فأتي به فوضعه في البرية وغطاه بمعدن شديد الصفاء، وضعه على عش العقاب.

وجاء العقاب فلم يجد عشه. فطار في الهواء حتى نظر إلى عشّهِ في تلك البرية، فانقضَّ عليه وضرب الصفحية برجله ليكسرها فلم يقدر على ذلك. فطار وتعلّق بالهواء وغاب يومه وليلته. ثم أقبل صبيحة اليوم الثاني وفي منقاره قطعةً من حجر السامور. فانقضَّ على الجام بذلك الحجر فضربه به، فانشق المعدن نصفين ولم يسمَع له صوت. وأخذ العقاب عشه وبيضه، وترك حجر السامور هناك، فأخذه صخر وهو في صفاء المرآة وحرِّ النار.

فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور[١] من أين احتمله، فأخبره أنه من جبل شامخ. فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا ما قدروا. فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْع من غير أن يسمع صوت.

الجنّي يسرق خاتم سليمان

قال الكسائي: وكان لسليمان جارية اسمها «الأمينة» فكان إذا أراد الدخول إلى الصلاة والوضوء أو إلى الحمام سلَّمَ الخاتم إليها، فإذا اغتسل أخذ خاتمه منها.

وفي أحد الأيام دخل سليمان الحمام وسلَّم خاتمه إلى الأمينة، فجاء صخر الجني بصورة سليمان وأخذ الخاتم من الجارية. ولما صار الخاتم في يده لم يستقر في يده لأنه شيطان، فرماه في البحر، فجاء الحوت بإذن الله فابتلعه ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيه ومعه الناس وهم يظنون أنه سليمان. فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صّ: الآية ٣٤]. قيل: الجسد هو صخر الجني.

---

(١) هو الألماس.

لما خرج سليمان من الخلاء، وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتم، فقالت الجارية: أعوذ بالله منك، قد دفعت الخاتم إلى سليمان فعلم سليمان أن الله قد أوقع به البلية. فخرج يريد القصر ويقول للناس: أنا سليمان فلم يصدقه أحد.

وهام سليمان أن يدور في الأحياء وهو يقول: إلـٰهي إني تائبٌ إليك من خطيئتي. فلم يزل كذلك أربعين يومًا لم يطعم شيئًا. ثم وجد قرصة يابسة ملقاة، فأخذها ولم يقدر على أكلها ليُبسها. فأقبل إلى ساحل البحر وقعد يبل القرصة فأخذها الموج من يده. فقال: إلـٰهي رزقتني بعد أربعين يومًا قرصة يابسة، فأخذها البحر من يدي فارزقني فأنت الرزاق الكريم.

وجعل يمشي وهو يبكي، فإذا بصيادين فسألهم شيئًا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا: انصرف عنا، فما رأينا أوحش من وجهك! اذهب وحق سليمان إنْ قمنا لأوجعناك ضربًا!

قال: يا قوم، أنا والله سليمان. فضربه رجل منهم على رأسه وقال: أتكذب على نبيّ الله؟ فبكى وبكت الملائكة لبكائه. ورحمه أولئك القوم فناولوه سمكة وأعطوه سكينًا. فشق بطنها لينظفها. . . فخرج الخاتم من بطنها فلبسه في إصبعه وعاد إليه حسنه وجماله. فسار يريد قصره، وجعل يمر بتلك القرى التي أنكرته. فكل من أنكره عرفه وسجد له. وبلغ ذلك صخرًا الجني فهرب وعاد سليمان إلى قصره واجتمع له الإنس والجن والطير والشياطين والسباع. كما كانوا أول مرة. فبعث العفاريت في طلب صخر فأتوه به. فأمر أن ينقروا له صخرتين وصفده بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه، وختم عليه بخاتمه وطرحه في بحيرة طبرية. فيقال: إنه فيها إلى يوم القيامة.

ثم أمر الله الرياح أن تحشر له سائر الشياطين فحُشِرَت له. فصفد مَرَدتهم بالحديد وحبسهم.

سليمان يطوف الأرض

قال الكسائي: ملك سليمان شرق الأرض ومغربها وطاف أقطارها حتى انتهى إلى جبل قاف، فوقف هناك ثم قال للريح: هل جريت هناك؟ قالت: لا يا نبيّ

الله، وإنه لآخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى. ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التنين المحدق بالعالم، فسار أيامًا على طرفٍ من أطراف الأرض فإذا هو بملك يقول: يا ابن داوود إن هذا التنين محيط بالعالم الذي هو مسيرة خمسمائة عام. ثم ارتفع إلى مستقر الغمام ونظر إلى مجمع القطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار. فإذا هو بملك يقول: «اللهم أعط كل منفقٍ خَلَفًا وكل ممسكٍ تلفًا».

سليمان وشجرة الخرّوب

ثم أمر الريح أن تحط بساطه إلى الأرض المقدسة. وكانت مدة غيبته مائة وثلاثين يومًا. وكان طول سفرته هذه يرى شخصًا بين يديه يسبق كل شيء، فسأله مَن هو؟ فأخبره أنه ملك الموت، فوقعت عليه الرعدة وتغيّر لونه وجعل ابنه رحبعم خليفته وأوصى الناس بالسمع والطاعة له.

وأخذ بالصوم والصلاة طول ليله. فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيها نبات حسن يتسلى به.

فخرج في بعض الأيام فرأى نبتًا غريبًا لم يكن قد رآه قبل ذلك. فقال: أيها النبت ما أنت؟ قال: أنا الخرنوب الذي لا أنبت في موضع إلَّا خربته.

قال سليمان: فما تضع هٰهنا فلست من نبات هذه الرياض؟ قال: قد أمرت أن أنبت هنا. فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نبته. فقال له: ألم آمرك أن تلحق بموضعك من البراري. قال الخروب: يا نبيّ الله أن هذا الموضع سيخرب عن قريب. فسكت سليمان.

ذكر حَشْر الطير لسليمان بن داود

قال الكسائي: لما أتى الله الملك والنبوة لسليمان (ع) أحبَّ أن يستنطق الطير فحشرت له. فكان جبرائيل يحشر طير المشرق والمغرب من البر، وكان ميكائيل يحشر طير الهواء والجبال.

نظر سليمان إلى عجائب خلقها، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه ومعاشه فيخبره. وكان بين يديه سبعة ألوية من ألوية الأنبياء، يمسكها سبعة من الملائكة.

قال: ولما حشرت الطير له جاءته فوجًا فوجًا، فسلمت عليه الخطَّافة بثلاث لغات وقالت: يا نبيّ الله، أنا ممن اختارني نوح وحملني في السفينة ومنيّ تناسل كل خُطَّافة في الدنيا، ودعا لي آدم وقال: إنك تدركين من أولادي مَنْ خلافته مثل خلافتي، وتحشر له الطير والوحوش والمردة. فإذا رأيتِهِ فاقرأيه مني السلام. ثم قالت له: يا نبيّ الله، إن معي سورة تعجب الملائكة من نورها ما أعطيَت لأحدٍ من بني آدم غير أبيك إبراهيم، فإنها نزلت كرامة له يوم أُلقيَ في النار فهل لك أن تسمعها مني؟ قال: نعم.

فقرأت سورة (الحمد) حتى بلغت ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فمدَّت صوتها بآمين، وسجدت، وسجد معها سليمان عليه السلام.

ثم تقدم النسر، وهو يومئذٍ في صورة عظيمة، قال: السلام عليك يا نبيّ الله يا ملك الدنيا. ما رأيت ملكًا أعظم من مُلكك! وإني قد صحبتُ آدم (ع) وساعدته على كثرة حزنه، وأنا أول مَن علِمَ بهبوطه إلى الأرض. وكنت معه إلى أن تاب الله عليه. وقال لي: إنه يكون من ذريتي من يُحشر له الطير، فإذا رأيته فأقرئهُ مني السلام وقد أدّيت إليك وديعته. فاصطنعني يا نبيَّ الله، فإني عليم بمعادن الأرض وجبالها. ومعي آية عظيمة لا يفتر لساني عنها، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النّساء: الآية ٨٧].

ثم سجد، فسجد معه سليمان. فلما رفع رأسه جعله سليمان ملكًا على الطير.

ثم تقدمت العقاب، فوقفت بين يديه وسلَّمَتْ عليه وقالت: يا نبيّ اللهُ، إن خلقي كان أعظم من هذا، ولكن حزني على هابيل يوم قتله قابيل صيرني إلى ما أنا عليه. ولقد توحشت الأرض والجبال يوم قتل، ومعي آية أعطانيها ربي وهي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥] ثم قالت له: سلّطني على مَن شئت فإني قوية سميعة.

ثم تقدمت العنقاء، وهي يومئذٍ شديدة البياض، وصدرها كالذهب الأحمر ووجهها كوجه إنسان، ولها ذوائب، ورجلان صفراوان؛ ولها تحت جناحيها يدان كل يد فيها ثلاثون إصبعًا. فوقفت بين يديه وسلَّمتْ وقالت: إنَّ الله فضَّلك على كثير من الملوك حين أبرزني إليك بصورتي هذه، فمرني ما شئت. فوالله ما نطقت

لأحد إلَّا لصفوة الله آدم. فإني وقفت بين يديه وتعجب من حسن صورتي، وقال: ماأشبهك بطيور الجنان!. فمنذ كم خلقك ربك؟ قلت: من ألفي عام. ثم تبخترت بين يديه فقال: أيها الطائر إنك معجب بنفسك وبخلقك، والعجب يهلك صاحبه. لقد فاز المفلحون وخسر المبطلون.

ثم تقدم الغراب، فسلم وقال: يا نبيّ الله لقد فضلك الله على كثير من ولد آدم، وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيمًا.

وإني كنت أبيض قبل ذلك، فصرت أسود كما ترى، لمَّا سمعتهم يقولون: اتَّخذَ الرحمٰن ولدًا، وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولدًا. ولقد دعا لي أبوك آدم ونوح بطول. وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شيء وهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدَّثِّر: الآية ٣٨].

ثم تقدمت الحمامة، فسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله، أنا الحمامة التي أختارني أبوك آدم لنفسه إلفًا وأنيسًا، وكنت آنس به وبتسبيحه. وكان إذا ذكر الجنَّة يصيح صيحةً عظيمة ويقول: أتراني أعود إليها؟ وإن لم أرجِع إليها لأكوننَّ من الخاسرين.

واعلم يا نبيَّ الله أنه قد علَّمني كلمات حفظتها عنه وهي: الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين. وقد أقبلت إليك طائعة لأمرك. فمرني بما شئت.

ثم تقدم الهدهد، فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال: ما أحببت أحد كما أحببتك يا نبيَّ الله، لأني أرى الدنيا ضاحكة لك. وقد أعطاك الله ملكًا عظيمًا، فاتخذني رسولًا آتيك بالأخبار وأدلك على مواضع الماء. فقال له: أراك أكْيَسُ الطيور، وأرى فخاخ بني إسرائيل تصطادك، ولا تغني عنك كياستك شيئًا. قال الهدهد: يا نبي الله. الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر. قال: صدقت.

وادي النمل

قيل: لما سار سليمان لقصد الغزو مرَّ في طريقه بوادي النمل (وهو وادي السدير بالطائف) فنظر إليهم فإذا هم يزيدون على مئة ألف كردوس مثل السحاب. فقال سليمان: إني أرى سحابة في الأرض لا أعلم ما هي. فحملت الريح إليه قول النملة كما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: الآيتان ١٨، ١٩].

ونزل سليمان ونزل الناس معه فقال: أتدرون ما هذا السواد؟ هذه أمة من الأمم يقال لها النمل. وأخبرهم بقول النملة، وسجد لله وسجدوا معه ودخلت النمل مساكنها زمرًا زمرًا والنملة تناديهم: الوحا الوحا! فقد وافتكم الخيل. فصاح سليمان وأراها الخاتم، فجاءته خاضعة، فوقفت بين يديه وسجدت ثم قالت: يا نبيَّ الله ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم وها أنا أسجد بين يديك.

قال لها: ما الذي تكلمت به قبل وصولي إليك؟ قالت: يا نبيّ الله، إني رأيتك في موكبك وعسكرك، فناديت النمل أن يدخلوا مساكنهم لئلا يحطمهم جندك وأنا كمثل غيري من الملوك أريد الصلاح لقومي. فقال لها: كم عددكم؟ وما تأكلون وما تشربون؟

قالت: يا نبيّ الله، لو أمرت الجن أن يحشرونا إليك لعجزوا. وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبل ولا غابة إلا وفي أكنافها مثل سلطانك كراديس من النمل. ولقد خلقنا قبل أبيك آدم وإنا لنأكل رزق ربنا ونشكره. فأمرها أن تعرض النمل عليه فنادتهم، فمرُّوا زمرة زمرة، وسلَّموا عليه بلغاتهم وهو ينظر إليهم. فقالت ملكة النمل: يا نبيَّ الله، منَّا في الجبال، ومنَّا ما يأوي قرب المياه والأشجار والزرع وفي الهواء ـ وهي الطيارة ـ فإذا نبتت أجنحتها هلكت واختطفها الطير. والنملة لا تموت حتى تلد كراديس من النمل. وإنها لتجمع في صيفها ما يملأ بيتها وهي مع ذلك تظن أنها لا تشبع. وفي تسبيحها تسأل ربها أن يوسِّع عليها الرزق.

قال الثعلبي: اسم النملة التي كلمت سليمان: طاحية.

سليمان وملك الموت

قال سليمان ذات يوم لأصحابه: قد أتاني الله المُلْك كما ترون، وما مرّ علي يوم في ملكي بحيث صفا لي من الكدر، وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتم فيه، وليكن غدًا. فلما كان الغد دخل قصرًا له وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ورفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئًا يسوؤه.

ثم أخذ عصاه بيده وصعد فوق قصره واتكأ عليه ينظر في ممالكه، فإذا بشاب حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال: السلام عليك يا سليمان. فقال سليمان: وعليكم السلام؛ كيف دخلت هذا القصر وقد مُنعتَ من دخوله؟ أما منعك البوَّاب والحجاب؟ أما هبتني حين دَخلت قصري بغير إذني؟

فقال ملك الموت: أنا الذي لا يحجبني حاجب ولا يمنعني بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن.

فقال له سليمان: فمن أذِن لك في دخوله؟ قال: ربي! فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت، فقال له: أنت ملك الموت؟ قال: نعم. قال: فيم جئت؟ قال: جئت لأقبِضَ روحك.

قال: يا ملك الموت، هذا يوم أردت أن يصفو لي وما أسمع فيه ما يغمني. قال له: يا سليمان إنك أردت يومًا يصفو لك فيه عيشك حتى لا تغتم فيه، وذلك اليوم لم يُخلق في الدنيا، فارضَ بقضاء ربك فإنه لا مَردّ له. فقبض ملك الموت روحه وهو متكىء على عصاه.

وبقي سليمان على حالته لم يسقط إلى الأرض ولم يتحرك ولا مال. فهابوه وما جسروا أن يتقدموا. ولم تزل الأنس والجن والشياطين والوحش والطير في الطاعة والأعمال حتى مضت سنة. ثم وقعت الأرَضَة في أسفل العصا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: الآية ١٤] فخرَّ سليمان عند ذلك. كالخشبة اليابسة. وكانت الجن قبل ذلك تدّعي علم الغيب. وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: الآية ١٤] أي في تلك السنة في نقل الصخور والبنيان وغير ذلك[1].

خطيئة داود

كان داود عليه السلام قسم أيامه ثلاثة أقسام: يومًا للعبادة ويومًا للناس يقضي فيه، ويومًا يخلو فيه بنسائه وأهله.

---

(١) نهاية الأرب: ١٣/ ١٢٥ ـ ١٢٩.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحٰق ويعقوب، فقال: يا رب إن الخير كلَّه ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي!

فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبروا عليها. ابتُلِيَ إبراهيم بالنمرود وبذبح ابنه، وابتلي إسحٰق بالذبح وبذهاب بصره، وابتُلِيَ يعقوب بالحزن على يوسف؛ وأنك لم تبتل بشيء من ذلك.

فقال داود: ربّ فابتلني بمثل ما ابتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم. فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلًى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس.

دخل داود محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان بصورة حمامةٍ من ذهب، فيها كل الحسن، فوقعت بين رجليه. فمد يده ليأخذها. فلما أهوى عليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها. فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة فنظر داود من الكوّة فأبصر امرأة في بستان على شطِّ بركة لها تغتسل، وكانت من أجمل النساء خلقًا، فعجب من حسنها. وحانت منها التفاتة، فأبصرته، فنفضت شعرها فتغطى بدنها، فزاده إعجابًا بها. فسأل: مَن هي؟ قالوا: هي بتشايع بنت سايع، وهي زوجة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة في البلقاء، بُعِثَ مع أيوب أبي حروية أخت داود.

بعث داود إلى ابن أخته أن أبعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت. وكان كل من قُدِّم قبل التابوت لا يحلُّ له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد. فبعثه أيوب وقدمه فقتل أوريا. فلما انقضت عِدَّة المرأة تزوجها داود؛ وهي أم سليمان.

تزوج عليه السلام بامرأة أوريا، ولم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله عزّ وجلّ ملكين في صورة البشر يطلبان أن يدخلا عليه، فوجداه في عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه فتسوراه المحراب عليه فما شعر وهو يصلي إلَّا وهما بين يديه جالسان. فذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صٓ: الآيتان ٢١، ٢٢] أي تجُرْ ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صٓ: الآية ٢٢] أي وسط الطريق. ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [صٓ: الآيــة ٢٣]، قـــال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ

نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ [صَ: الآية ٢٤].

ولما ذهب الرجلان انتبه داود أنه أخطأ؛ فهو له تسع وتسعون زوجة ولأوريا زوجة واحدة. ولما علم داود أنه ابتلي سجد فمكث أربعين ليلة ساجدًا باكيًا حتى نَبَتَ الزرع من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول في سجوده: ربِّ داود، زلَّ داود زلَّةً أبعد مما في المشرق والمغرب. ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثًا في الخلوق من بعده.

ثم جاء جبرائيل فقال: يا داود إن الله تعالى غفر لك الهم الذي هممت به(١).

سحرة فرعون

رغم أن فرعون وهامان كانا من أمهر السحرة وأنهما بسحرهما استوليا على الناس فإن فرعون بعث يجمع السحرة لديه وأمرهم بمعارضة موسى (ع) في الأجل المضروب.

قالوا له: أيها الملك قد علمت أنه ليس في الدنيا أقدر منا على السحر، فإذا كانت الغلبة لنا على موسى فما الذي يكون لنا عندك في الجزاء؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٤٢] أدنيكم مني وأشارككم في ملكي. ثم قالوا: وأن غلبنا موسى وأبطل سحرنا علمنا أن ما جاء به ليس من السحر ولا حيلة لنا عندئذٍ إلا أن نؤمن به ونصدقه. فقال فرعون: إن غلبكم موسى صدقته أنا أيضًا معكم. ولكن اجمعوا كيدكم وحيلتكم. وأخيرًا حان يوم الموعد وكان يوم السبت وهو يوم سوق لهم. ووافق أنه أول يوم في السنة عندهم وكانوا يحتفلون به ويتخذونه يوم الزينة ـ وقيل: أن المكان كان في الإسكندرية. فاجتمع في الموعد حشود الناس والآلاف المؤلفة، حتى ضاقت بهم البلدة وساحتها. وكان لفرعون تجاه تلك الساحة منصة فوقها قبة من حديد يطل منها على الجموع وينظر إليهم. ولما ارتفع النهار أقبل فرعون في زينته وقد حفّت به أشراف قومه، وأشرفوا على الجموع، وأقبل السحرة تحمل ستون بعيرًا عصيهم وحبالهم، وامتلأت الساحة بالجموع التي لا تحصى.

---

(١) نهاية الأرب: ١٤/ ٦٥.

ثم أقبل موسى (ع) متكئًا على عصاه ومعه أخوه هارون لا غير، حتى انتهى إلى المجتمع الهائل. وبعد أن توقف هنيهة جعل ينظر إلى السماء فهال الناس ذلك وجعلوا يتساءلون عن معناه وأثره. ولما تقابل مع السحرة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طـه: الآيـة ٦١].

فازداد السحرة في كلامه رغبة ودهشة. وأخذوا يتناجون بينهم فيقول بعضهم لبعض: ما هذا قول ساحر. ويقول آخرون: إن الرجل ينظر إلى السماء ونحن لم يبلغ سحرنا السماء. فكاد شملهم يتشتت وجمعهم يتفرق. وأبى فريق منهم إلا الجحود والإصرار.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيـة ٤٤]، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طـه: الآيـة ٦٦].

فأوحى الله تعالى إلى موسى ووعده النصر والغلبة وأمره بإلقاء العصا فقال لـه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طـه: الآيـة ٦٩]، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعـراف: ١٠٧].

فهجم الثعبان بعدما استوى على جميع ما في الميدان مما يراه الناس حيات وأفاعي وجعل يلتقفها بكل سرعة حق أتى على آخرها، ولم يترك منها شيئًا أصلًا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٧ - ١١٩].

ولما ظهر ثعبان موسى (ع) واتجه يبلع أفاعي السحرة، انهزمت جموع الناس وأفواج الخلائق هاربين وقد انخلعت أفئدتهم فزعًا ورعبًا وتسابقوا إلى الفرار ووطىء بعضهم بعضًا. وانهزم معهم فرعون بمن معه وقد انقطع فؤاده وعزب عقله، خاصة حين اتجه الثعبان نحو الناس بعد أن ابتلع أفاعي السحرة وقصد منصَّة فرعون، فأوحى الجليل إلى رسوله العزيز: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: الآية ٢١].

فتقدم موسى (ع) وأدخل يده في فم الثعبان فعاد عصًا من خشب عادية. أما السحرة فلما عاينوا ذلك وهم اثنان وسبعون شيخًا من علماء السحرة ورؤسائهم

المهرة الذين أفنوا أعمارهم في إتقان مهنتهم. وكان رؤساؤهم أربعة، فأسرعوا فورًا بعدما تبيّن لهم الهدى ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف: الآيات ١٢٠ - ١٢٢] وتبعهم بقية السحرة فآمنوا كلهم، وآمن معهم جمع كثير من الناس وشهدوا لله تعالى بالوحدانية ولموسى وهارون بالنبوة وانصرفت بقية الناس مدهوشين مما شاهدوا يتذاكرون في محافلهم ذلك(١).

حكايا وأساطير عن الإسكندر

استنادًا إلى بعض الأوراق من مخطوطة لا نعلم لها عنوانًا ولا تاريخًا وهي تتعلق بمواقف غريبة ومفاجئات عجيبة حدثت للإسكندر واضطرته للعودة قسرًا وجبرًا؛ وهي مفاجآت بعضها عسكري وآخر معنوي، ولعله الأهم. وحتى نفهم القصة لا بد من التذكير بأن الهند والصين كانتا في زمان الإسكندر وحتى قرون طويلة بعده تشتمل كل منهما على ممالك عديدة، وهما ما زالتا حتى اليوم، لم تستكمل أي منهما وحدتها القومية التامة. وذلك لأسباب أهمها سلطة الاستعمار أو عملائه. والآن فلنقرأ قصة الإسكندر في الشرق.

قصة الإسكندر وملك الهند

تقول القصة: رُوِيَ عن الملك الإسكندر أنه أخضع الملوك حتى انتهى إلى مطلع الشمس من العمران، فبلغه أنه بأقصى أرض الهند ملكًا ذا حكمة وديانة، قاهرًا لقوته الغضبية، زاهدًا في الدنيا وشهواتها، يتحلى بكل خُلق كريم ومنقبة رفيعة فأرسل له الإسكندر كتابًا يقول فيه: إذا وصلك كتابي وكنت واقفًا فلا تقعد أو كنت ماشيًا فلا تجلس حتى تأتيني، وإلا مزقت مُلكك وألحقته بمن مضى.

فكتب إليه ملك الهند الجواب بأحسن خطاب، ولقبه بملك الملوك العادلة، وأخبره أن عنده أربع هدايا ليست موجودة عند أحد من ملوك الأرض.

الأولى: ابنته التي لم تطلع الشمس على أجمل منها منظرًا.

الثانية: قدح إذا ملأته ماءً شرب عسكرك كله ولم ينقص منه شيء.

الثالثة: طبيب لا يعجزه مرض إلّا مرض الموت.

---

(١) ماذا في التاريخ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

الرابعة: فيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأل عنه. ثم قال: إني لَمُهْدٍ هذه الهدايا إلى ملك الملوك إذا عفَّ عن هذا المطلب.

فلما وصل كتاب الملك للإسكندر قلق قلقًا عظيمًا لهذه الهدايا وأرسل أربعة من الحكماء يستقصون صدقها فيأتوه بها.

فلما وصل الحكماء إلى ملك الهند، أخذ يباحثهم في العلم والهندسة والكيمياء وعلم النجوم وما أشبه ذلك، حتى ملأ صدورهم حكمة. وبعد أن استضافهم لثلاثة أيام خيّرهم في البقاء أو الرجوع، فاختاروا الرجوع حسب أمر الملك لهم. فلما برزت ابنة الملك عليهم ما وقع نظر أحد منهم عليها إلا علق بها.

لما وصلوا إلى الإسكندر، وكان من أعظم الملوك هيبة وشهرة، وما إن نظر إلى ابنة الملك حتى شغف بها شغفًا عظيمًا وأمر بإنزالها مع حرمه ثم أمر بالقدح فشرب منه وسقى عساكره فلم ينقص منه شيء وهو قدح أبينا آدم عليه السلام، وهو مضروب من الخواص الروحانية. ثم شاهد من الطبيب ما بهر عقله، وأمر بإنزال الفيلسوف في دار الضيافة، فبعث إليه مع خادمه قدحًا مليئًا بالسمن وأمره أن لا يكلمه البتة... فأخذ القدح وتأمله بحدقتيه وبصيرته، وتناول إبرًا كثيرة وأغرزها في السمن حتى أصبح وجه السمن كالقنفذ وأرجعها إلى الإسكندر.

فأخذ الإسكندر الإبر وذوّبها وجعلها كالكرة وأرجعها للفيلسوف. فلما وصلت إلى الفيلسوف بردخها وطرقها وأزال درنها حتى أصبحت كالمرآة وأعادها للإسكندر.

فلما وصلت إلى الإسكندر وضعها في طاسة ماء حتى رسب، وأرسلها إلى الفيلسوف. فلما وصلت إلى الفيلسوف كوَّرها حتى طافت على وجه الماء وأعادها إلى الإسكندر.

فلما وصلت للإسكندر ثقبها وملأها ترابًا وأرجعها للفيلسوف. فلما وصلت إليه دمعت عيناه وتغيّر لونه وأرجعها على حالها. فأمر الإسكندر بمثوله بين يديه.

فلما مثل بين يديه حيّاه بتحية الملوك، فنظر إليه الإسكندر وتأمله فوضع الفيلسوف أصبعه على أنفه. فقال له الإسكندر: لماذا وضعت يدك على أنفك؟

فأجابه الفيلسوف: لأنك لما نظرت إليّ وتأملتني فكرت أن حكمة هذا الشاب ليست على قدر صورته، فوضعت إصبعي على أنفي لأخبرك أنه كما أن الأنف زائد على الوجه، كذلك أنا ليس في بلاد الهند مثلي. أما خطر ببالك هكذا؟ قال الإسكندر: صدقت أيها الرئيس.

ثم قال له الإسكندر: والآن اجلس أيها الفيلسوف وأخبرني عن معنى ما جرى بيني وبينك من المراسلة. فقال له: أيها الملك، لقد بعثت لي قدحًا مليئًا بالسمن؛ فخبرني أنك قد امتلأت من الحكمة كما امتلأ هذا القدح بالسمن. فلا يزاد عليه شيء كما لا يزاد على حكمتك شيء، فأخذت الإبر وغرزتها في السمن لأعلمك أن عندي من لطائف الحكمة ما يخرق حكمتك كما تخرق الإبر السمن.

فأخذت الإبر وجعلتها كرة، لتخبرني أن نفسك من قتل الأعداء وسفك الدماء صارت كهذه الكرة.

فأخذتها وبردختها حتى صارت كالمرآة لأخبرك أنك بالتوبة إلى الله تعالى تتجوهر نفسك وتنصقل حتى تصير مثل هذه المرآة فتشرف على الموجودات بصفائها وقوة صقلها. فوضعتها في طست ماء لتخبرني أن الأيام والليالي قد عجزت عن ذلك، فكوّرتها حتى طافت على وجه الماء لأخبرك أنه في الوقت القصير قد يجري بها أكثر مما جرى لها في الوقت الطويل.

فثقبتها وملأتها ترابًا لتخبرني بالموت. فأنا أخضع مثلك للموت ولا أغيره. ضاق عند ذلك صدر الإسكندر وذهب هائمًا على وجهه حتى وصل إلى وادٍ وفي ذلك الوادي غار مهجور.

فدخل فيه، وإذا بتقدير العزيز الحكيم موجود في ذلك الغار ملك محنط مسجى في نعشه عن يمينه مفاتيح خزائنه ولوح نحاس مكتوب فيه: «بهذا ملكناه». وعلى يسارة لوح نحاس مكتوب فيه: «وبهذا تركناه».

حكمة من الصين

وهذه قصة أخرى لا تقل في عبرتها عن الأولى تدلنا على عظمة الشرق وغناه بالنبالات العظيمة والنفوس السامية والعقول النيِّرة.

قيل إن الإسكندر لما أصبح قريبًا من بلاد الصين وشعرت ملوكها بالخطر، أتاه حاجبه ذات ليلة وقد مضى من الليل جانب فقال له: إن رسول ملك الصين يستأذن بالدخول عليك.

قال له: مُرْهُ بالدخول. فلما دخل وقف بين يديه وقبّل الأرض أمامه وطلب أن يخلي له المجلس.

فأمر الإسكندر أن ينصرف مَن بحضرته. ثم أمر أن يفتشوه ـ ولم يعلم أنه ملك الصين ـ فلم يجدوا معه شيئًا من السلاح.

فلما خلي لهما المكان قال له: أنا ملك الصين وقد حضرت بين يديك لأسألك عما تريده مني. فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ولو كان بأصعب الوجوه جئت به إليك واستغنيت عن حربك.

فقال الإسكندر: ما الذي أمكنك مني وأهجمك عليّ؟ قال: لعلمي أنك رجل عاقل، وليس بيني وبينك عداوة، ولعلمي أن أهل مملكتي متى قتلتني لا يسلمونك أمرهم، ولا يمنعهم ذلك من تنصيب أحد أولادي ملكًا عليهم ثم ينسبوك إلى الجهل وقلّة الحزم.

فأطرق الإسكندر مفكرًا ثم رفع رأسه إليه وقد تبيّن صدقه. وقال له: أريد منك ارتفاع مالك لثلاث سنوات، ثم نصف ارتفاعه كل سنة. فقال له ملك الصين: وهل تريد غير هذا؟ قال: لا. قال: قد أجبتك. فقال الإسكندر: وأنا رفعت عنك ذلك لأجل مجيئك. فشكره وانصرف.

لما أصبح الصباح وطلعت الشمس إذا بجيشٍ يحيط بجيش الإسكندر فتواثب رجال الإسكندر إلى خيولهم. فبينما هم كذلك، إذا بملك الصين قد أقبل وهو راكب على فيل عظيم، وعلى رأسه التاج، فلما وصل قبالة الإسكندر ترجل ومشى إليه، وقبّل الأرض بين يديه. فقال له الإسكندر: لقد غدرت ما هذا الجيش العظيم الذي جئت به؟ قال ملك الصين: أردت أن أعلمك أني أطعتك لا لقلّة ولا لذلّة. وأن الذي غاب من جيشي أكثر بكثير مما هو حاضر منه. وعلما أن مَن حارب الإله قهر وغلب. فأردت طاعته بطاعتك.

ثم قدم للإسكندر هدايا وتحفًا أضعاف ما كان يأمله الإسكندر، فقبلها وهو معجب بحكمته وحسن سياسته.

ملكة صينية

هذه القصة بطلتها ملكة لبيبة. قيل إنه لما توغل الإسكندر في أطراف الأرض سمعت به ملكة إحدى مقاطعات الصين، فأحضرت عندها مَن يحسن الرسم وأمرته أن يرسم لها الإسكندر. فرسمه على البسط والأواني والحيطان وهي تنظر إلى رسومه حتى استقرّت في نفسها صورته.

فلما أصبح الإسكندر على أطراف بلدها، قال لأحد مستشاريه: أريد أن أدخل هذا البلد متنكرًا لأرى كيف أمره وأمر ملكته. فقال له مستشاره: افعل ما تريد. فدخل متنكرًا إلى عاصمة المملكة، ونظرت إليه الملكة من حصنها فعرفته بالصورة التي عندها.

فأمرت بإحضاره. فلما مثل بين يديها وتأكدت منه، أمرت أن يؤخذ فيترك يومين بلا أكل ولا شرب حتى كادت قوته تسقط وروحه تزهق واضطرب العسكر لغيبته.

فلما كان اليوم الثالث. مدت الملكة سماطًا طوله مئة ذراع ووضعت عليه آنية من الذهب وضروب الجواهر وأنواع التحف وما في ذلك شيء يؤكل أو يشرب.

وأمرت أن يوضع في آخر السماط رغيف خبز وقدح ماء في أحد زوايا السماط. فأتى إليها وأكل الرغيف وشرب الماء. ثم رجع وجلس في مكانه. فخرجت الملكة إليه وقالت له: ما أصدَّ عنك الذهب ولا الجواهر غائلة الجوع وصائدة العطش وقد أغناك عن كل هذا ما قيمته درهم واحد. فما لك وللتعرض إلى أموال الناس وأنت بهذه المثابة؟

فقال: لك ملكك وبلادك، ولا بأس عليك بعد اليوم.

ما قيل عند نعش الإسكندر

من أنفس العبارات التي قيلت فوق نعش الإسكندر عند التأبين، قول أحد الحكماء:

قد كان هذا الملك يخزن الذهب واليوم هو خزين فيه.

وقال آخر: كم قد أمات هذا الشخص لئلّا يموت، فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت؟!

وقال أفلاطون الثاني: أيها الساعي المتوثّب، لقد جمعت ما خذلك. فلما تولّى عنك لزمتك أوزاره، وعاد على غيرك جناه وثماره.

وقال ميلاطوس: خرجنا إلى الدنيا جاهلين، وأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين[١].

أسطورة بناء الإسكندر لمدينة الإسكندرية

ذكر أن الإسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية، فوجد في موضعها آثار بناء عظيم، وعمدًا كثيرة من الرخام، في وسطها عمود عظيم كتب عليه بالقلم المسند ـ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: «أنا شداد بن عاد، شددت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هٰهنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام وكرم، من جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم. فأصابني ما أعجلني، وعما أردت قطعني، مع وقوع ما أطال همّي وشجني، وقلّ نومي وسكني، فارتحلت بالأمس عن داري لا لقهر ملك جبار، ولا لخوف جيش جرار، ولا عن رهبة ولا عن صَغَار، ولكن لتمام المقدار، وانقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار. فمن رأى أثري، وعرف خبري، وطول عمري، ونفاذ صبري، وشدة حذري، فلا يغترّ بالدنيا بعدي، فإنها غرّارة، تأخذ منك ما تعطي وتسترجع ما تولي». وكلام كثير يُري فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون إليها.

نزل الإسكندر متفكرًا، يتدبر هذا الكلام ويعتبره. ثم بعث فجمع الصناع من البلاد، وخط الأساس، وحشد العمد والرخام، وأتته المراكب بأنواع الرخام، وأنواع المرمر من جزيرة صقلية وبلاد إفريقية وأقاصي بحر الروم مما يلي مصبه. وحمل إليه أيضًا من جزيرة رودس.

(١) سر الأسرار، ص ٤٤ وما بعدها.

لما بنيت الإسكندرية وشيّدت، أمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها: «هذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح، واليمن والسعادة والسرور، والثبات في الدهور، فلم يرد الباري عزّ وجلّ ملك السمٰوات والأرض ومفني الأمم أن يبنيها كذلك، فبنيتها وأحكمت بنياتها، وشيّدت سورها، وآتاني الله من كل شيء علمًا وحكمًا، وسهّل لي العلم.

وجوه الأسباب، فلم يتعذَّر عليَّ شيء في العالم مما أردته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته، لطفًا من الله عزّ وجلّ، وصنعًا بي، وصلاحًا لي ولعباده من أهل عصري، والحمد لله رب العالمين، لا إلٰه إلا الله رب كل شيء.

ورسم الإسكندر بعد هذه الكتابة وكل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده في مستقبل الزمان: من الآفات، والعمران، والخراب، وما يؤول إليه إلى وقت دثور العالم. وكان بناء الإسكندرية طبقات، وتحتها قناطر مقنطرة، عليها دور المدينة، يسير تحتها الفارس بيده رمح، ولا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء.

وكانت الإسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر، وأسواقها وشوارعها مقنطرة بالآجر لئلا يصيبها المطر.

وكانت آفات البحر وسكانه ـ على ما زعم الأخباريون من المصريين والإسكندرانيين ـ تختطف بالليل أهل المدينة، فيصبحون وقد فقد منهم الكثير.

ولما علم الإسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعي المسالّ، وهي باقية إلى هذه الغاية، وكل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السَّرْوة، وطول كل واحدة منها ثمانون ذراعًا، على عمد من نحاس، وجعل تحتها صورًا وأشكالًا وكتابة، وذلك عند انخفاض درجة من درجات الفلك وقربها من هذا العالم. وعند أصحاب الطلسمات من المنجمين والفلكيين أنه إذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى في مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتي في هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والدافعة. وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفي الكتب في هذا المعنى، ولهم في ذلك سرّ من أسرار الفلك.

منارة الإسكندرية

أما منارة الإسكندرية فذهب الأكثر من المصريين والإسكندرانيين - ممن عنيَ بأخبار بلدهم - إلى أن الإسكندر بن فيلبس المقدوني هو الذي بناها.

ومنهم مَن رأى أن دلوكة الملكة هي التي بنتها، وجعلتها مرقبًا لمن يرد من العدو إلى بلدهم، ومنهم مَن رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها، ومنهم مَن رأى أن الذي بنى مدينة رومية هو الذي بنى مدينة اسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به[1].

سليمان وملكة سبأ

لما أخبر الهدهد النبيّ سليمان أن في سبأ قومًا تحكمهم ملكة ويعبدون الشمس، كتب إليها سليمان كتابًا وأرسله مع الهدهد، فانطلق حتى أتاها وصار بحذاء رأسها وهي على سرير ملكها تنظر إلى طائر من فوقها فألقى الكتاب في حجرها فنظرت إليه ونظر الناس إلى طائر رمى إليها الكتاب، فجمعت أهل الرأي وقالت ما ذكر الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٩ - ٣١] فأجابوها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: الآيات ٣٣ - ٣٥] فبعثت وفدًا، أربعين رجلًا من رجالها، وبعثت معهم بمائة وصيفة ووصيف ولدوا في شهر واحد، لهم ذوائب وقصاص، والزي واحد، وختمت عل سراويلهم.

وبعثت بمائة فرس نتجت في يوم واحد ألوانها واحدة.

وبعثت بحق رصاص فيه من الجوهر والزمرد والياقوت الأحمر والأصفر والأبيض والأسود. ملحم لا يوصل إليه ولا ينكسر.

---

(١) مروج الذهب: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٥.

وبعثت بخرزة غير مثقوبة، وكتبت إليه: اثقب هذه الخرزة بغير حديد ولا علاج أنس أو جن. وبعثت إليه بخرزة مثقوبة ثقبًا ملتويًا وسألته أن يدخل فيه خيطًا. وقالت للوفد: إن قبل الهدية فهو ملك من الملوك ويهون علينا محاربته، وإن رده ولم يقبلها فهو نبيّ، وقد كتبت إليه كتابًا، فادفعوه إليه واسألوه عما في الحُقّ، وأن يفصل بين الذكر والأنثى من الوصائف والوصفاء، وأن يميز الخيل وأيها نتج قبل صاحبه، وعن الولاء وعن قرابة ما بين ذلك.

فلما قدم الوفد إلى سليمان قرأ الكتاب وقال لعلمائه:

مَن يميّز بين الجواري والغلمان ولا ينزع ثيابهم؟ فأعلموه أنه لا علم لهم بهم. واشتد إعجابه بما جاءه من قبلها وشقّ عليه بعض ما سألته عنه.

وعلّمه الله من حكمته، فدعا بالغلمان والجواري، فأمر بطشت فمليء ماء ودعاهم واحدًا بعد واحد وقال: اغسلوا أيديكم. فكان الغلمان إذا غسلوا أيديهم حدروا الماء حدرًا والجواري يصببن الماء صبًّا، فميّزهم على ذلك.

ودعا بالخيل، فقال: نتجن في يوم واحد. وقال: هذا خال هذا وهذا عم هذا، وهذا ابن عم هذا وابن أخ لهذا.

ثم دعا بالخرزة التي لم تثقب فوضعها بين يديه ثم قال لمن حضر: مَن يثقبها؟ فتكلمت دودة بين يديه فقالت: يا نبيّ الله أنا أثقبها على أن تجعل رزقي في الخشب. قال: نعم، فلزمت الدودة الخرزة تثقبها حتى خرجت من الجانب الآخر في ثلاثة أيام، ثم انطلقت لرزقها.

ثم دعا بالحُقّ فحركه، ثم قال: فيه جوهر، عدة الجوهر كذا وكذا، والزمرد كذا وكذا، والياقوت الأحمر كذا، والياقوت الأصفر كذا والأبيض كذا. حتى فرغ من جميع ذلك والوفد ينظرون.

ثم دعا بالخرزة الملوي ثقبها وقال لمن بحضرته: أيكم يأخذ هذه الخرزة الملوي ثقبها فيدخل فيها خيطًا؟ فأجابته دودة تكون في الصفصاف وقالت: أنا أدخله فيها على أن تجعل رزقي في الخشب. قال سليمان: ذلك لك فأخذت خيطًا فأوثقته في رأسها ودخلت في الخرزة من ثقبها حتى خرجت من الجانب الآخر ثم انطلقت إلى رزقها في الخشب.

ثم أن سليمان ردّ جميع ما أمرت به إليها وقال كما ذكر الله ذلك في كتابه؟

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: الآيتان ٣٦، ٣٧].

ثم قال سليمان حين ولّى الوفد إليها:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وكان سليمان إذا أصبح جلس بجلسائه مجلسًا يقضي فيه بين الناس ويأمرهم بأمره، فلا يزال فيه حتى يؤذيه حر الشمس.

قال سليمان: أريد أعجل من هذا، قال رجل من الإنس، يقال له آصف بن برخيا: قد علمت اسم الله الأكبر وأنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك.

لما دخلت بلقيس ملكة سبأ على سليمان، تركها ثلاثة أيام، فقال لها قومها: ما تقولين في أمر هذا الرجل؟ أتدخلين في طاعته أم تحاربينه؟ وهل تيقنت أنه نبيّ؟ قالت: سأعلمكم منه ما تعرفون أهو نبيّ أم ملك من هذه الملوك. انظروا إليه، إذا أنا دخلت عليه فأمرني بالجلوس فهو ملك، فإن الملوك لا يُجلس عندهم إلى بإذنهم. وإن لم ينهني ولم يأمرني فإنه نبي. وإني سأسأله عن ثلاثة أشياء لا أشك فيها، فإن أخبرني بها فإنه نبيّ، وأنا داخلة في أمره ولا طاقة لكم به، وإن لم يخبرني فليس بنبيّ.

فلما دخلت عليه سلّمت عليه وحيّته بتحية الملوك، ثم قامت بين يديه لا يأمرها بالجلوس ولا ينهاها عن القيام، حتى إذا طال ذلك عليها رفع سليمان رأسه لها وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]؛ فمن شاء فليجلس ومَن شاء فليقم. قالت: الآن علمت أنك نبيّ.

سليمان والنملة

رُوِيَ أن سليمان (ع) كان على ساحل البحر ينتظر بعض جنوده فأبصر نملة تحمل حبة حنطة وهي تسعى نحو الماء فتعجب من قصدها الماء مع أنها تهرب منه إن وقعت فيه قهرًا فما أن وصلت إلى شاطىء البحر حتى خرجت ضفدع فدنت

من النملة ثم فتحت فاهًا فدخلت النملة في فيها باختيارها فأطبقت الضفدع فمها وغاصت في البحر وما لبثت إلا برهة يسيرة ثم عادت الضفدع فقفزت إلى البر ثم فتحت فاهًا فخرجت النملة من فيّها وليس معها حبة الحنطة.

فلما نظر سليمان النملة تقدم إليها وسألها عن شأنها مع الضفدع وأين ذهبت معها وكيف أرجعتها وأين وضعت الحبة.

فقالت النملة: اعلم يا نبيّ الله أنه يوجد في قعر هذا البحر صخرة مجوفة في وسطها دودة عمياء لا تستطيع الخروج منها لطلب المعاش. وقد وكّلني الله تعالى برزقها وسخرني مع هذه الضفدع لتأمين معاشها.

فأنا أحمل لها طعامها من البر وهذا الحيوان ينقلني في فمه إليها فإذا وصل بي إلى الصخرة وضع فمه على ثقبها ثم قذفت بي إلى داخلها فأوصل الحبة إلى الدودة فأضعها في فمها ثم أعود إلى البر مع هذا الحيوان.

فدهش سليمان (ع) من تلك القصة وزاد تسبيحًا ثم سألها هل سمعت لها تسبيحًا قالت: نعم سمعتها تردد هذا الدعاء:

«يا من لا ينساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجة من رزقه، لا تنس عبادك المؤمنين من رحمتك الواسعة».

عوج بن عنق

تمر الأجيال وتنطوي الأيام ولا تلد النساء مثل عوج بن عنق. ذلك الرجل الذي يحق للتاريخ إن صدقت الأخبار أن يدوّن اسمه ويحتفظ بما يؤثر عنه ليكون عظة المغرورين بقواهم.

قيل: أرسل نبيّ بني إسرائيل سبعة أشخاص إلى العمالقة يدعوهم إلى الله تعالى فرآهم أحد العمالقة، فحملهم في مكة، وأتى بهم إلى الملك، وألقاهم أمامه. وحينما علم بخبرهم سخر منهم. وكان عوج حاضرًا، فغضب لكرامة قومه وأخذته الحمية. وسألهم الملك عن قومهم وسعة بلدهم، فاقتطع صخرة بقدرها وحملها على رأسه، وجاء ليلقيها عليهم فيهلكهم عن آخرهم فدعا عليه نبيهم فأرسل الله من السماء طائرًا عظيمًا نقرها فمزقها، فهبطت في عنقه، فأصبحت طوقًا، فجعل يعالجه فجاء موسى (ع) وكان طوله عشرة أذرع وطول عصاه مثلها،

فقفز عن الأرض وضربه بعصاه، فأصابه في عقبه وهو مشغول بنفسه فوقع على الأرض، وأكلته السباع والهوام، ولم يستطع دفع ما ألمَّ به.

وقيل: إنه كان قبل الطوفان، وإنه تعلّق بسفينة نوح وهمَّ بأن يغرقها فكلمه (ع) فيها، فقال:

ما أردت سوءًا، وإنما أريد أن أهتدي بها كي لا أعثر ببعض الجبال أثناء سيري في الماء.

وقيل: إنه كان يأخذ السمكة من البحر فيشقها ويرفعها إلى كبد السماء حتى تشوى في حرارة الشمس.

وقيل: إن أمه تشبهه، وإن بينه وبين آدم آحاد، وأنه بقي إلى زمان موسى، والله أعلم بذلك كله.

ومن حكايات العجائز التي كانوا يروونها لنا ونحن صغار، أن عوج بن عنق عندما كان مريضًا مرض الموت مرَّ به أناس عند رأسه فقال لهم:

أرجوكم أن تطردوا الذباب عن رجلي فإني أشعر بهم. ولما وصلُوا إلى مكان رجليه وجدوا أن الذي ينهش رجليه وحوش لا ذباب ولكنه لطوله لم يشعر بالألم من ذلك كثيرًا.

في أبيات لخَّص فيها المعري قصة «جلڤر في بلاد العمالقة والأقزام» فقال:

زعموا رجالًا كالنخل جسومهم ... ومعاشرًا قاماتهم أشبارُ

إن يصغروا أو يعظموا فبقدرةٍ ... ولِربِّنا الإعظام والإكبار

يستصغر الحيُّ الحقير وتحته ... أممٌ توهم أنه الجبارُ[1]

قصة عبد الله بن جدعان والكنز

كان عبد الله بن جدعان صعلوكًا ترب اليدين شريرًا فاتكًا يجني الجنايات، فيعقل عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته عشيرته، ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤدي عنه ديّة أو يؤويه.

---

(١) رسالة الغفران: ١/ ٣٤.

فخرج في شعاب مكة حائرًا ثائرًا يتمنّى الموت أن ينزل به. فرأى شقًّا في جبل فظن أن به حية، فتعرض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئًا. فدخل فإذا ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين. فحمل عليه الثعبان فأفرج له، فانساب عنه مستديرًا. ثم خطا خطوة أخرى فصفر الثعبان وأقبل إليه كالسهم، فزاغ عنه. ثم وقف ينظر إليه ويفكر في أمره فوقع في نفسه أنه مصنوع وليس حيًّا. فأمسكه بيده فإذا هو مصنوع من ذهب، وعيناه ياقوتتان. فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فإذا جثث طوال على سُررٍ لم يُرَ مثلهم طولًا وعظامًا، وعند رؤوسهم لوحٌ من فضة فيه تاريخهم. وإذا هم رجال من ملوك جرهم، وآخرهم موتًا هو الحارث بن مضاض صاحب الغيبة الطويلة. وإذا عليهم ثياب من وشيٍ لا يمسُّ منها شيء ألا انتثر كالهباء من طول الزمان. ومكتوب في اللوح عظات.

قال ابن هشام: كان اللوح من رخام. وكان فيه: «أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبيّ الله هود عليه السلام. عشت خمسمائة عام، وقطعت غوْر الأرض، ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت» وتحت مكتوب:

قد قطعت البلاد في طلب الثروة ... والمجد قالصَ الأثواب
وسريت البلاد قفرًا لقفرٍ ... بقناة وقوة واكتساب
فأصاب الردى بنات فؤادي ... بسهام من المنايا صياب
فانقضت مدتي وأقصر جهلي ... واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيبُ محل الشباب
صاح هل رأيت أو سمعت براعٍ ... ردَّ في الضَرْعِ ما قرى في الحلاب

وإذا وسط البيت كومٌ عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة. وأرسل إلى أبيه المال الذي خرج به وأنفق على قومه وعشيرته.

وجعل ينفق على الناس، ويفعل المعروف، ويطعم كل مَن يحتاج. وقال في القاموس كانت له جفنة يأكل منها الراكب لعظمها، بل كانت جفنة يأكل منها الراكب على البعير[1].

---

(١) بلوغ الأرب: ٨٩/١.

يوسف وزليخا

كانت زليخا زوجة العزيز فرعون مصر ـ وقصتها معروفة بالقرآن عندما أحبت يوسف عليه السلام.

لما مات العزيز فرعون مصر، وافتقرت زليخا وعمي بصرها، جعلت تتكفف للناس، فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك، فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه. ثم قيل لها: لا تفعلي لأنه ربما يذكرك بما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه. فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه.

فجلست على رابية في طريق خروجه ـ وكان يوسف يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته ـ فلما أحسّت زليخا به قامت ونادت: «سبحان مَن جعل الملوك عبيدًا لمعصيتهم، والعبيد ملوكًا بطاعتهم!». فقال: مَن هذه؟ مَن أنت؟ قالت: أنا التي خدمتُكَ بنفسي، وأكرمتُ مثواك بجهدي، وكان مني ما كان، وذقت وبال أمري، وذهبت قوتي، وتلف مالي، وعمي بصري، فصرتُ أسأل الناس؛ فمنهم مَن يرحمني. ومنهم مَن لا يرحمني. وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها،صرت مرحومتهم، وهذا جزاء المفسدين.

فبكى يوسف (ع) بكاءً شديدًا وقال لها: هل في قلبك من حبك لي شيء؟ قالت: نعم، والذي اتخذ إبراهيم خليلًا لنظرة إليك أحبُّ إليَّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة. فأرسل إليها يوسف أنه يريد الزواج بها، فقالت للرسول: أنا أعرف أنه يستهزىء بي. هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي فكيف يقبلني الآن، وأنا عجوز عمياء؟! فتزوجها وصلّى إلى الله باسمه العظيم الأعظم أن يردّ إليها ما فقدته، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيأتها يوم راودته عن نفسه.

وولدت زليخا له: أفراثيم ومنشا، وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرّق الموت بينهما. وكان يوسف وهو ملك على خزائن الأرض يجوع ويأكل خبز الشعير فقيل له: لما تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[١].

---

(١) قصص الأنبياء: ١٢٥. وتواريخ النساء: ١٦٩.

بساط سليمان

قال الكسائي: كان سليمان إذا ركب الريح تقدم أمام بساطه البعوض ثم الزنابير وكل ما يطير بالهواء ثم الشياطين. وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية: الشمال، والجنوب، والصبا، والدَّبور، والصرصر، والعقيم، والكرس، والراكي.

فيبسط بعضها على بعض، ثم يبسط بساطه على هذه الرياح؛ وكان من السندس الأخضر، أخضر البطن أحمر الظهر، أهداه الله تعالى إليه من الجنة، لا يعلم طوله ولا عرضه إلا الله.

وكان سليمان إذا ركبه جعل اللون الأخضر ما يلي الأرض، فإذا رفع الناس رؤوسهم إليه يرونه على لون السماء. وكان يجلس على كرسيه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار على كراسي معدة لهم، وهو جالس في وسط البساط والريح في يده. ويتغدّى ويتعشّى على مسيرة شهر. قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سَبأ: الآية ١٢].

خاتم سليمان

قيل: أوحى الله إلى جبرائيل أنه قد سبق في علمي أني أمِّلك سليمان الدنيا، ليعلم الجن والأنس أني لم أخلق خلقًا هو أفضل من ذريَّة آدم. وأمره أن يأخذ الخاتم من الجنة ويأتيه به. فجاء جبرائيل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضيء كالكوب الدريّ، ورائحته كالمسك، وعليه كتابة «لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله»، فأعطاه لسليمان وقال له: هنيئًا لك يا ابن داود.

حشر الجنّ لسليمان

قال الكسائي: أمر الله عزّ وجلّ جبريل أن يحشر الجن، فنادى: أيتها الجن والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود. فاجتمعت الجن وهي تقول: لبيك يا حجة الله. فحشرها سليمان طائعة ذليلة تسوقها الملائكة، فوقفت بأجمعها بين يدي سليمان، فنظر في عجائب خلقها وسجد لله شاكرًا. ثم قام على قدميه والخاتم في إصبعه. فلما نظرت إليه الجن خرَّت ساجدة ثم رفعت رؤوسها وقالت: يا ابن داود، قد حشرنا إليك وأمرنا بطاعتك. فختم على أكتافهم بخاتمه وجندهم وصفد مردتهم بالحديد ولم يتخلَّف إلا صخر الجني، تغيَّبَ في جزيرة.

وفرق سليمان الأعمال عليهم من الحديد والنحاس وقطع الصخور وعمارة القرى والمدن والحصون. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: الآية ١٣][١].

قصة سواد بن قارب الدَّوْسي

كان سواد بن قارب من أعلم أهل الكهانة والشعر، وأطولهم باعًا في جميع المكارم. وقد وفد على النبيّ ﷺ فأسلم. وكان رئيُّه من الجن قد أتاه ثلاث ليالٍ في حال سِنتِهِ يضربه برجله ويقول: قم يا سواد بن قارب، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث نبيٌّ من لؤي بن غالب. وقد أورد قصته هذه مفصّلة جمعٌ من الثقات منهم الإمام الماوردي في كتابه «أعلام النبوة»، قال: بينما كان عمر بن الخطاب ذات يوم جالسًا إذ مرَّ به رجل فقيل له: أتعرف هذا المارُّ يا أمير المؤمنين؟ قال: مَن هو؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الدوسي رجل من أهل اليمن. وكان له رئيٌّ من الجن. فأرسل إليه عمر فقال:

أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أنت الذي أتاك رئيُّك بظهور النبيّ ﷺ قال: نعم يا أمير المؤمنين. بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيٌّ من الجن فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالي؛ واعقل إن كنت تعقل. إنه قد بعث رسول من لؤيّ بن غالب. يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته. وأنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتطلابها ... وشدِّها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكّة تبغي الهدى ... ما صادقُ الجنِّ ككذَّابها
فارحل إلى الصفوة من هاشمٍ ... ليس قُداماها كأذنابها

قلت له: دعني فإني أمسيت ناعسًا، ولم أرفع بما قال رأسًا. فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل. إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته، وأنشأ يقول:

عجبتُ للجنِّ وتخبارها ... وشدِّها العيس بأكوارها

---

(١) نهاية الأرب: ١٤/ ٩٥.

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوا الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ بين روابيها وأحجارها

فقلت: دعني قد أمسيتُ ناعسًا، ولم أرفع بما قال رأسًا. فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، فقد بعث رسولٌ من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته. وأنشأ يقول:

عجبتُ للجن وتجساسها وشدِّها العيس[1] بأحلاسها[2]
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما خيِّروا الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم وأسْمُ بعينيك إلى راسها

قال: فلما أصبحت وقد امتحن الله قلبي للإسلام، فرحلت على ناقتي وأتيت المدينة، فإذا رسول الله ﷺ فقلتُ: اسمع مقالي يا رسول الله! قال: هات، فأنشأت أقول:

أتاني رئيٌّ بعد هَدْءٍ ورقدةٍ ولم أكُ فيما قد بلوتُ بكاذبِ
ثلاثُ ليالٍ قوله كلُّ ليلة أتاكَ رسولٌ من لؤيِّ بن غالب
فشمرتُ عن ذيلي الإزار ووسَّطت بي الذِّعْلِبُ الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا شيء غيره وأنَّك مأمون على كلِّ غائِبِ
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسلٍ وإن كان فيما جئت شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعةٍ بمُغْنٍ فتيلًا عن سواد بن قارب

ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحًا شديدًا حتى رؤي الفرح في وجوههم. قال: فوثب إليه عمر فالتزمه وقال: قد كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ فقال: مذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن.

---

(١) العيس: الإبل البيض.
(٢) الأحلاس: جمع حلس: وهو كساء على ظهر البعير.

أسطورة بناء تدمر

تدمر بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حمص ـ وعلى شرقيها وأرضها سباخ وكان فيها شجر ونخيل وزيتون.

وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور. وكان لها سور وقلعة. وقدم العرب الأقدمون. وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام.

واختلف في بانيها بعض المؤرخين. فقال: إن سليمان الحكيم عليه السلام قد بناها له الجن بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأشقر. وفي ذلك يقول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر:

ولا أرى فاعلًا في الناس يشبهُهُ	وما أُحاشي من الأقوام من أحدِ
ألا سليمان إذ قال الإله لهُ	قم في البرية فاصدُدْها عن الفنِدِ
وجَيِّش الجن أني قد أذِنتُ لهم	يبنُون تدمر بالصفّاحِ والعمدِ
فمن أطاع فأعقبْه معاقبةً	كما أطاعك وادلِلْهُ على الرشدِ
ومَن عصاك فعاقبه معاقبةً	تُنهي الظلوم ولا تقعد على ضمدِ
ألَا مثلك أو من أنت سابقُهُ	سبْقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ

ذكر الثعالبي في تفسيره:

وهذا مذهب من مذاهب العرب على سبيل المبالغة لا الحقيقة، كما كانوا يزعمون أن عبقر مدينة للجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب. فزعموا أن تدمر من بناء الجن لما يرون من قوتها الباهرة وصنعها العجيب. وقال بعضهم: إنها من أبنية العرب الأقدمين.

العنكبوت في الأسطورة

تحكي الأسطورة الإغريقية أنه كان في سالف الأزمان عذراء جميلة تسمى «أراكن» تجيد فن التطريز والحياكة، ولها صيت ذائع في هذا المجال وقد وصل بها الغرور أن تحدَّتْ إلـٰه الحكمة والفنون والصنائع النسوية عند الإغريق ـ الإلـٰه أثينا ـ ودعته إلى مسابقة تقام بينهما في فن التطريز. وتمادت في هذا التحدي بأن أعلنت على الملأ أنها سوف تفوز على الإلـٰه أثينا. وعندما سمع ما قالته أراكن، قام بتمزيق كل ما قامت العذراء بحياكته من لوحات فنية عقابًا لها على فعلتها. وعندما

رأت أراكن ما حدث لغزلها حزنت حزنًا شديدًا، وقامت بشنق نفسها بتعليق رقبتها بأحد الخيوط التي تستعملها في الحياكة.

وعندما علم الإلٰه أثينا بذلك ندم على ما فعله بغَزْل العذراء ندمًا شديدًا وقام بفك الخيط من رقبة أراكن، وحوله إلى خيط من الحرير، ثم قام بتحويل الجسد الميت إلى عنكبوت، وأسبغ عليها صفة البراعة في التطريز بخيوط الحرير التي تملكها، وأن تظل قادرة على الحياكة حتى آخر يوم في حياتها حتى لا تحزن مرة أخرى على ما أصابها من فعله.

واليوم نرى العنكبوت تقوم بعمل تصاميم رائعة من الحرير الذي تنتجه من جسمها.

والعناكب من الحيوانات التي حيك حولها كثير من الخرافات والأساطير. فكثيرون يعتقدون أنه إذا ما مشت العنكبوت على الثوب القديم الممزق فإنها تعمل على إصلاحه وإعادة حياكته. وإذا قتلت العنكبوت أثناء سيرها على الأثواب فإن تلك الأثواب سوف تصبح ممزقة وبها ثقوب كبيرة.

والإنجليزي يردد قولًا مأثورًا مفاده: إذا أردت أن تعيش بسلام فدع العنكبوت تعيش بسلام. وهو يتفاءل إذا وجد عنكبوتًا تمشي على ملابسه، لأن ذلك يعني هبوط ثروة مالية على صاحب الثوب.

وهنود النيفاكو في الولايات المتحدة الأميريكة ماهرون في الحياكة، ويشيع بينهم أن خبراتهم تلك قد تعلمها الأجداد على يد عنكبوت تحولت إلى امرأة لتدربهم على فن الحياكة. ويهدد هؤلاء أطفالهم بأن المرأة العنكبوت ستعاقبهم إذا لم يكفّوا عن الشغب والشيطنة.

أما حكايات العنكبوت في الإسلام فقد قصتها كتب الهجرة النبوية. فعنكبوت الغار هي أحد أسباب نجاة الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق من الكفار الذين لاحقوه عند هجرته من مكة إلى المدينة. وقد كرّم الله العنكبوت بتسمية سورة كاملة باسمها في القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤١] والمعروف أن أُنثى العنكبوت هي التي تقوم بالحياكة وليس الذكر.

من أساطير كاتمندو ـ في نيبال

إنسان الثلج

يقولون: ثلاثة في حكم المستحيل: الغول، والعنقاء والخلُّ الوفي. ولكن إذا كان هذا الحكم ما زال ينطبق على المستحيلين الآخرين، إلا أن الأول لم يعد مستحيلًا.

أهل نيبال يؤكدون أن الغول ـ وهو بالنسبة لهم «الجيتي» أو «البيتي» كما ينطقونه، ويعني إنسان الثلج الوحشي ـ ما زال يعيش في جبال هملايا، وهم ينسجون حوله الأساطير، ويتناقلون عنه الحكايات خلال جلوسهم حول المدفأة في الشتاء.

حتى الذين كتبوا عن نيبال وجبال هملايا تحدثوا في كتبهم عن أوصاف الوحش البشري ذي الشعر الأشعث الذي التقى به جندي أوروبي عام ١٤٠٠ م تمامًا كما رآه المستكشفان البريطانيان الميجور واديل والكولونيل هوارد بري، حيث كانا يرأسان حملة المتسلقين في الجانب الشمالي من أفرست.

وذكر الاثنان أنهما تبعاه وتوقفا عند آثار قدميه البشرية الضخمة على ثلوج السفح. ويقول النيباليون أن جسده الضخم يغطيه شعر كثيف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، وإنه يسير معتدل القامة.

يقولون: إن الجبل كان مليئًا بعدد كبير من هذه الوحوش البشرية، وأن رهبان التبت تآمروا للتخلص منهم، فاتفقوا على أن يقيموا حفلًا ساهرًا على السفح حيث يختفي المئات من هذه الغيلان خلف المغارات. وخلال الحفل تظاهروا بتناول الخمر المصنوع من منقوع الأرز. وحين بدا كأنهم سكروا حتى الثمالة راحوا يتبادلون الطعان بسكاكين زائفة. ومع انتهاء الحفل بدأوا يبتعدون واحدًا وراء الآخر. وهنا خرجت الوحوش البشرية من مغاورها، وراحوا يقلّدون الرهبان في اكتراع كل ما تركوه من خمر حتى انتشوا، ثم راحوا يضربون بعضهم بالسكاكين الحقيقية التي تركها الرهبان عن قصد. وكانت المعركة من العنف والشدة بحيث تساقط الجميع ولم يبق منهم سوى واحد فقط ـ هو الذي ما يزال يجوب سفوح الهملايا ويشاهده الناس بين الحين والآخر.

ورواية ثانية يحكيها أحد الحمالين الذين يساعدون الرحالة والمتسلقين إلى قمم هملايا، مفادها أن أحد تجار الفيروز كان يعبر الممر الجبلي حين فوجيء بالوحش الرهيب يوقفه ويرغمه على الذهاب معه إلى مغارة في عمق الجبل، حيث كانت أنثاه تستلقي وتصرخ بعد أن سدت حلقها قطعة كبيرة من العظم حتى تعذّر عليها التنفس. وطلب الوحش من التاجر أن يشفيها وإلا قتله. وفي رعشة الخوف من الرجل مدّ يده المرتجفة ليضرب الأنثى على ظهرها بقوة، فانقذفت قطعة العظم من حلقها وتنفست الصعداء.

ومكافأة له أعطاه الوحش كيسًا مقفلًا وطلب منه أن لا يفتحه إلا بعد أن يصل إلى داره. وإذ فتح الكيس وجده مليئًا برؤوس بشرية، ومن كل شعرة تتدلى حبة فيروز. وكانت الحصيلة هائلة كسب التاجر من ورائها ثروة ضخمة.

ومن أجل الحصول على ثروة مماثلة يجوب رجال «الشرباس» سفوح الجبل حاملين أحمال المتسلقين على أمل أن تتاح لهم فرصة مماثلة بلقاء إنسان الثلج ـ كما يسمونه[١].

حديث هلاك عاد

قيل: لما توالت ثلاث سنوات على عاد بأزمتها وقحطها، وهم في ذلك غير تائبين ولا مطيعين لنبيهم هود عليه السلام، قام رجل من أشرافهم وذوي أنسابهم، يقال له: زميل بن عنز، أخو القيل بن عنز؛ وكان القيل رأس عاد وسيدها.

فقال زميل: يا قوم إني فكرت لما نزل بكم من هذا القحط، ورأيت رأيًا، وقلت فيه قولًا، وأنا عارضٌ ذلك عليكم. فقالت الجماعة: إن رأيك أصيل، وإن فعلك جميل، فقل نسمع ما تقول. فقام زميل وقال:

ألا نـزلـت بـنـا حـجـج ثـلاثٌ ... عـلـى عـادٍ فـمـا تـحـتـال عـادُ
فـدمـعُـهُـمُ يَـبـل الـتـرب مـنـهـا ... ومـا يـدرون مـا بـهـم يـرادُ
وقد علمت بنو عاد بن عوصٍ ... بـأن مـشـورتـي لـهـم سـدادُ
وإنـي عـارضٌ رأيـي عـلـيـهـم ... ومـا مـنـي بـه فـيـه انـفـرادُ
بـأن يـتـخـيّـروا وفـدًا يـسـيـروا ... إلى البيت العتيق لهم سدادُ

(١) مجلة العربي، العدد ٣٢٦، سنة ١٩٨٦.

فَيَسْتَسْقُوا المليك البرَّ غيثًا به تحيي البرية والعبادُ
وقد جربتم ذاكم فعرفي لديه في بدايته السدادُ
لأن الله مقتدرٌ حكيم غفورٌ رازقٌ برٌّ جوادُ
فإن يسمع مقالتنا سقانا فقد نزلت بنا أزمٌ شدادُ
وإن تهلك فأمر الله ماضٍ له منا المقادة والقيادُ

وفد عاد

وسارت عاد إلى مكة وقد جهزوا من عظمائهم وأشرافهم وذوي أحسابهم سبعين رجلًا، ثم وضعوا على رأسهم أربعة منهم وهم:

قيل بن عنز، ولقمان بن عاد ـ صاحب النسور، وأبو سعيد مرثد بن سعد ـ وهو خيرُ النفر، وجلهمة بن الخيبري فساروا إلى مكة ـ وسكانها يومئذٍ من العماليق ـ وهم يومئذٍ ملوك الحجاز وأرضها. فنزلوا على رجل يقال له بكر بن معاوية قد تزوج امرأة من عاد وهي أخت جلهمة بن الغيبري فولدت ابنه معاوية ـ وكان منزلهم بظهر مكة خارجًا عن الحرم. ففرحوا بالوفد وأكرموهم. وكان معاوية قد كبر وضعف، وكانت الرياسة لابنه بكر بن معاوية فأنزل بكر أخواله عنده شهرًا يأكلون اللحم ويشربون الخمر وتغنيهم قينتان يقال لهما الجرادتان.

ويقال إنه أول مَن اتخذ القيان في الأرض للغناء، وكان أكثر العرب مالًا في زمانه. فأقبل الوفد على اللهو والشراب وتركوا ما جاؤوا من أجله.

لما رأى ذلك معاوية بن بكر غمه ذلك وقال: إن تركت أخوالي وأصهاري، إنَّها لَهَلْكتهم وهلك مَن خلفوا من أهلهم وقومهم في بلادهم. وهم أيضًا ضيوفي ووجوه قومي وأنا أستحي أن آمرهم بالشخوص لما قدموا له. ثم قال شعرًا وحفظه للجرادتين، وأمرهما إذا انتشى القوم وأخذ فيهم الشراب أن تقوما على رأس كبيرهم وشريفهم قَيل بن عنز وتغنياه. ولما انتشوا قامت الجاريتان على رأس قيل بن عنز وأنشأتا تقولان:

ألا يا قَيْلُ ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي آل عادٍ إن عادًا قد أضحوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فلا تراهم ولا الشيخ الكبير ولا الغلاما

وإن الوحش تأتيهم نهارًا فما تخشى لعاديٍّ سهاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أيامى
وأنتم هٰهنا فيما اشتهيتهم نهاركم وليلكم نياما
فقبح وفدكم من كل وفدٍ ولا لقوا التحية والسلاما

فلما سمعوا شعر الجرادتين وَرَعَته أسماعهم فزعوا لذلك وتركوا ما هم فيه من اللهو وقال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومُكم لهذا البلاء الذي قد نزل بهم، ولكم منذ شهرها هنا، فانطلِقوا إلى بيِّنة ربكم واطلبوا الغوث من ربكم لقومكم.

أبو سعيد المؤمن ينصح عادًا

فقال لهم أبو سعيد المؤمن: يا قوم حلمكم لأمر أدعوكم إليه تُذكرون به حاجتكم وتغيثون به قومكن. قالوا: وما ذاك؟ قال: تؤمنون بنبيكم هود عليه السلام، وتؤمنون بربكم، فذلكم خير لكم. قال: فكرهوا قوله وردوا النصيحة. فقال في ذلك أبو جلهمة:

أبا سعيد كأنك من قبيل سوى عادٍ وأمك من ثمود
أتأمرنا لنترك دين وفد ورَمْلَ وآل قدٌ والعنود
أنترك دين أقوام كرامِ ذوي حسب ونتبع دين هود
وأنا لا نطيعك ما حيينا ولسنا فاعلمنَّ على عهود

قال: فغضب من ذلك رجل من الوفد من قوم أبي سعيد فأجابه:

فمرثد مخُّ عادٍ في ذراها وأنت لساقطٍ وغْدٍ كَنودِ
نماه يا زنيم إلى المعالي من أخوال وأعمامٍ صمودِ
وأفضلُ قوم عادٍ بعد هود وخيرهم الكريمُ أبو سعيدِ

سير الوفد إلى الكعبة

ثم سار الوفد إلى الكعبة. وقبل مسيرهم طلبوا من بكرٍ وابنه أن يحبسوا أبا سعيد المؤمن ففعلا، وكلماه في ذلك، فقال: نعم. ووقف عنهم هو ولقمان بن عاد.

ومضى سائر الوفد إلى البيت يتقدمهم قيل بن عنز. وصفّ الوفد حوله ولاذ بالكعبة ودعا وتضرع فسمع مناديًا ينادي من السماء يقول: يا قيل بن عنز، ما جئت تطلب، فاسألْ تُعْطَ فقال: جئت أطلب القطر الذي ينبت الشجر، ويكثر الثمر، ويحيي به البشر، ويصلح به قومي وبلادي. فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاء وحمراء وسوداء. ثم قيل له: اختر أيها شئت. قال: أما البيضاء فجهام ليس فيها مطر ولا لغيثها روي. وأما الحمراء فجهام غير أتيّ، ينفي السرَّاء ويأتي بالضراء. ولا حاجة لنا فيها.

وأما السوداء فكثيرة الماء والروي، معقبة الرخاء، مبلغة المنى، غائظة الأعداء، وقد أخذتها لقومي وبلادي.

فناداه المنادي: رمادًا أرمدًا، لا يبقي من عاد بن عوص أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا، إلَّا القبيل الأبعدا. ويعني بقوله: إلَّا القبيل الأبعدا: من أولاد عملوق بن لاوذ - وهي أخت بكر بن معاوية كما ذكرنا، هزيلة العملوقية زوجة أبي سعيد المؤمن. وكانت امرأة مؤمنة فاضلة، آمنت بهود وكانت محبة له ولأصحابه، وكانت تلطف بهم وتوسع عليهم مالها. فنجاها الله من العذاب وولدها، وكانوا هم عاد الآخرة.

هزيلة العملوقية تصف كارثة قوم عاد

لما هلكت عاد لم يسلم إلا هزيلة بنت هزيل من العماليق وبنوها، وهم: عمر وعامر وعمير. وهي زوجة أبي سعيد المؤمن. فإن الله نجاهم من العذاب بإيمان أصحابهم، وأمر الله سبحانه وتعالى فحملتهم الريح برفق وشفقة هي وولدها، ولم تؤذهم ولم تضرهم، حتى أتت مكة فألقتهم في بيت بكر بن معاوية الذي فيه وفد عاد.

فبينما القوم في لهوهم ولذَّتهم إذ أقبلت هزيلة ببنيها حتى هجمت على عمها الشيخ بكر بن معاوية في منزله، فقال: ويحك! ما بك؟ فاستعبرت هزيلة باكية وقالت: الخبر أفظع وأوجع وأجزع من أن أصفه لك. فقال لها: ويحك خبريني، لقد أكثرتِ وجدي! قالت هزيلة: إن الخبر أفظع من أن أسمعكموه قِيلًا، ولكني سأقوله شعرًا وأرويه للجرادة فتقوله: فقالته الجرادة:

إن عــادًا آثــرت حــقًّــا   عــلى الــرشــد الــصــدودا

لم تقل في غيِّها حين عَتَتْ قولًا سديدا
بل طغتْ بغيًا وقالت لن نطيع الدهر هودا
كذَّبوا عبدًا تقيًّا مسلمًا برًّا رشيدا
وعصوا ربًّا عظيمًا قاهر البطشِ مجيدا
فدعا هودٌ مليكًا مبديًا لهم معيدا
أن يذلَّهُمُ بأيدٍ يقمعُ العاصي النكودا
فاستجاب له إلٰه عز مقتدرًا حميدا
جلَّ ربًّا ذا اقتدارٍ منعمًا عدلًا أبيدا
كي يتوبوا فأراهم ما يردُّ الصدُّ قودا
عابدين من ضلالٍ صنمًا يدعى الصَّمُودا
يطلبون الغيث منه بعد ما خَرّوا سجودا
الذي يحوي سفاهًا سألوا منه رفودا
أفكوا من حيث طاعوا فيه شيطانًا مريدا
ثم قال لهم زميلٌ بعد ما ذاقوا الجهودا
اسمعوا قولي ورأيي وابعثوا وفدًا جنودا
نحو بيت الله كيما يسألوا الربَّ ودودا
أن يغيث القوم منا متهمًا ثم النجودا
بعثوا سبعين كهلًا تبعوا قيلًا جليدا
بعثوا لقمان رأسًا وأبا سعد مزيدا
وأبا جلهمة القرم فتى الحي الجلودا
ثم قيلًا نجل عنزٍ قائدًا ليس مقودا
ثم ساروا بسوادٍ نحو خَشْداءِ أسودا
فأتوا مكة شحًّا بين خزٍّ وبرودا
أحسن الناس اعتدالًا ووجوهًا وخدودا
كلهم أكرم عادٍ أمهاتٍ وجدودا
نزلوا بالمرء بكرٍ وابنه شهرًا جديدا
يشربون الخمر صرفًا لا يملُّون الركودا

ثم هبُّوا بعدما هيَّا ... لهم بكرٌ نشيدا
ثم غنَّتهم بصوتٍ ... فينةً تسمى الجرودا
نهضوا إذ سمعوها ... كأنهم كانوا رقودا
فأتوا بيت مليكٍ ... لم يزل للخلق عيدا
فدعوا فاختار لقمان ... فتى الحي الخلودا
ببقا عمرِ نسورٍ سب ... عةِ دهرًا أبيدا
وحبا الله أبا سعدٍ ... تقاه والسعودا
فنجا بالبرِّ زادًا ... ثم تقوى الله زيدا
وأرى قيلًا ثلاثًا ... من سحاباتٍ فرودا
قطعةً بيضاء كانت ... ما بها في الغيث جودا
ثم حمراء لم يردها ... ظنَّها غيثًا ثميدا
فارتضى السوداء التي ... صاورت بها الأقطار سودا
أبصرت مهد على الر ... يح مطيعين ركودا
في أكفهم لها لجم ... يخيلن الوقودا
قالت الويل لعاد ... ويلها ويلًا جديدا
ليلة حلت به الد ... هر على عاد الصدودا
أن نرى السبعة منهم ... كلهم كانوا حسودا
كل قرم مثل طودٍ ... لابسٍ فيها الحديدا
كي يردوها ومن ذا ... يستطيع لها ردودا
خلفت أجسامهم في ... الجو والقفر بديدا
عَذبت سبع ليالٍ ... أمة كانت يهودا
ثم أيامًا ثمانًا ... ما هبوطًا ما صعودا
تحسب الأصوات إن ... يهوون في الجو رعودا
ثم خرّوا في قصور ... صيرت فلقًا بديدا
استباح الدهر صدًّا ... ومنافًا والخلودا
وجهارًا لم تذره ... وهباءً والعنودا
قيل فانظر أين عاد ... ثم دع عنك السمودا

لــن تــراهــم آخــر الــدهــر كــمــا كــانــوا قــعــودا
ثــم نــجّــانــي إلــٰهــي وبــنــي جــدي الأبــيــدا
قــد تــفــاتــوا ثــم بــادوا فــي ديــارهــم حــصــيــدا
حــمــلتــنــي وبــنــيُّ نــحــوكــم ريــح بــرودا
ونــجــا هــود وأصــحــا ب لــه خــرّوا ســجــودا
مــعــه ثــم ثــلاثــون يــقــيــمــون الــحــدودا[١]

كتابة «باسمك اللهمّ»

قال المسعودي: ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف أن السبب في كتابة قريش واستفتاحها في أوائل كتبها: «باسمك اللهمّ» هو أن أمية بن أبي الصّلْت الثقفي خرج إلى الشام في نفرٍ من ثقيف وقريش في عير لهم، فلما قفلوا راجعين نزلوا مكانًا، واجتمعوا لعشاقهم، إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم، فحصبها بعضهم بشيء في وجهها، فرجعت، فشدّوا سفرتهم ثم قاموا وارتحلوا من مكانهم.

فأشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصاها فقالت: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة، التي جاءتكم عشية؟ قالوا: ومَن أنت؟ قالت: أنا أم العوام، أويمْتُ منذ أعوام. أما وربِّ العباد، لتفترقُنَّ في البلاد. ثم ضربت بعصاها الأرض فأثارت بها الرمل. وقالت: أطيلي إيابهم، وأنفري ركابهم. فوثبت الإبل، فكأنَّ على ذروة كل بعير شيطانًا، حتى افترقت في البوادي.

قال: فجمعناها في آخر النهار إلى غد، ولم نكد. فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولًا، وعادت إلى مقالتها الأولى: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة. أطيلي إيابهم، وأنفري ركابهم. فخرجت الإبل ما تملك منها شيئًا، فجمعناها من آخر النهار إلى غد، ولم نكد فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز. ففعلت مثل فعلتها الأولى والثانية، فتفرّقت الإبل وأمسينا في ليلة مقمرة، وقد يئسنا من ظهورنا.

---

(١) كتاب التيجان في ملوك حمير: ص ٣٥٣ ـ ٣٥٨، وفي الشعر كثير من التحريف والألفاظ المبهمة في الأصل رسمًا أو معنى ـ فتأمل.

فقلنا لأمية بن أبي الصلت: أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟ فتوجَّهَ إلى الكثيب الذي كانت تأتي العجوز منه؛ حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيبًا آخر حتى هبطَ منه، ثم وجد بيتًا فيه قناديل، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية. قال أميَّة: فلما وصلت إليه رفع رأسه إلي وقال: إنك لمتبوع[١]. قلت: أجل. قال: فمن أين يأتيك صاحبك؟

قلت: من أذني اليسرى. قال: فبأي الثياب يأمرك؟ قلت: بالسواد. قال: هذا خطب الجن. كدتَ ولم تفعل، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى، وأحبُّ الثياب إليه البياض، فما جاء بك؟ وما حاجتك؟ فحدثته حديث العجوز. قال: صدقت وليست بصادقة. هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لا تزال تضع بكم هذا حتى تهلككم إن استطاعت. قال أمية: فما الحيلة؟ قال: اجمعوا ظهوركم، فإذا جاءتكم وفعلت ما كانت تفعل فقولوا لها: «سبعًا من فوق وسبعًا من أسفل، باسمك اللهم» فإنها لا تضركم. فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له. فجاءتهم وفعلت كما كانت تفعل، فقالوا لها: سبعًا من فوق وسبعًا من أسفل باسمك اللهم. فلم تضرهم. فلما رأت الإبل لم تتحرك، قالت: قد عرفتُ صاحبكم؛ لَيَبْيَضنَّ أعلاه، ويسودَّنَّ أسفله». فلما أدركنا الصبح، نظرنا إلى أمية قد بَرِصَ في عذاريه ورقبته وصدره، واسودَّ أسفله.

قال المسعودي: وكان أمية أول مَن كتب «باسمك اللهمّ»، إلى أن جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، فرفع ذلك وكتب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»[٢].

قصص متفرقة

قَوم عَاد يُستسقُون بمَكّة[٣]

لما كذَّبت عادٌ هودًا ـ عليه السلام ـ توالت عليهم ثلاثُ سنوات، لم يرَوْا فيها مطرًا. فبَعثوا من قومهم وفدًا إلى مكة؛ ليستسقوا لهم، ورَأّسُوا[٤] عليهم

---

(١) أي أن له رئيًا يحدّثه. والرئيّ هو الجنيّ الذي يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب.

(٢) مروج الذهب: ١/ ٧١ ـ ٧٣.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: ١ ـ ١٢٦، مجمع الأمثال: ١٠ ـ ١١٥، المسعودي: ١ ـ ٣٢١، ٢: ٤٥٦.

(٤) رأسوه: جعلوه رئيسًا.

قَيْلَ بن عُنُق ولُقَيْمَ بن هَزَّال، ولقمان بن عاد، وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق، وكان سيِّدَهم بمكة معاوية بن بكر.

فلما قدموا نزلوا عليه؛ لأنهم كانوا أخوالَه وأصهاره؛ فأقاموا عنده شهرًا، وكان يكرِمُهم، والجرَادَتَان[1] تُغنيانهم؛ فنسُوا قومَهم؛ فقال معاوية: هلك أخوالي، ولو قلتُ لهؤلاء شيئًا ظنوا بي بخْلًا، فقال شعرًا، وألقاه إلى الجَرادتين، فأنشدتاه، وهو:

ألا يا قَيْلُ[2] وَيْحَك قم فَهيْنِمْ[3] ... لـعـلَّ الله يـبـعـثُـهـا غَـمَـامـا!

فـيـسـقـي أرضَ عـاد؛ إنّ عـادًا ... قدَ آمْسَوْا لا يُبينون الـكـلاما

من العَطَشِ الشديد فليس نرجو ... بـه الـشيخَ الـكـبير ولا الـغلاما

وقـد كـانـت نـسـاؤهـمُ بـخـيـر ... فقد أمست نساؤهم أيَامَى[4]

وإن الـوحـشَ يـأتـيـهـم جـهـارًا ... ولا يـخـشـى لـعـاديّ سِـهَـامـا

وأنتم هـٰهـنـا فـيـما اشـتـهيـتم ... نـهـاركـم ولـيـلـكـم الـتـمـامـا[5]

فـقُـبِّـح وَفْـدُكـم مـن وفْـدِ قـومٍ ... ولا لُـقُّـوا الـتـحـيـةَ والـسـلامـا

فلما غنَّتهم الجرادتان بهذا قال بعضُهم لبعض: يا قوم؛ إنما بعثَكم قومُكم يتغوّثون[6] بكم!

فقاموا ليدعُوا، وتخلّف لقمان، وكانوا إذا دَعَوْا جاءهم نداءٌ من السماء: أَنْ سَلُوا ما شئتم، فتعطَوْن ما سألتم! فدعَوْا ربهم، واستَسْقَوا لقومهم، فأنشأ الله ثلاث سَحَابات: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء: يا قَيْلُ، اختر لقومك ولنفسك واحدةً من هذه السحائب!

فقال: أما البيضاءُ فَجفْل[7]، وأما الحمراءُ فَعارِض[8]، وأما السوداء فهُطْل، وهي أكثر ماء، فاختارها!

---

(١) الجرادتان: مغنيتان لمعاوية المذكور، كانتا بمكة.
(٢) قيل: هو رئيسهم من عاد. (٣) الهينمة: الصوت الخفي، والمراد الدعاء.
(٤) الأيامى: جمع الأيم: وهي مَن لا زوج لها. (٥) الالتمام: النزول.
(٦) غوث الرجل واستغاث: صاح واغوثاه. (٧) الجفل: السحاب هراق ماءه ومضى.
(٨) العارض: السحابة المعترضة في الأفق.

فنادى مُنَادٍ: قد اخترتَ لقومك رَمَادًا رِمدِدًا[١]، لا تَذَر من عاد أحدًا، ولا والدًا ولا ولدًا!

وسيّر الله السحابةَ التي اختارها إلى عاد ونُودي لقمان سَلْ، فسأل عُمْرَ ثلاثة[٢] أنسر، فأُعطي ذلك!

وكان يأخذ فرخ النسر من وَكْرِه، فلا يزال عنده حتى يموت! وكان آخرُها لُبَدَ، وهو الذي يقول فيه النابغة:

أضحتْ خَلَاءً وأضحى أهلُها احتَملوا ... أَخْنَى عليها الذي أَخْنى على لُبَدِ

زَيد بن عَمرُو يتَلمَّس الدّين الصَّحيح[٣]

خرج زيدُ[٤] بن عَمْرو إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتَّبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دِينهم، فقال: لعلِّي أدين بدينكم فأخبرْني به؛ فقال اليهوديّ: إنك لا تكونُ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غَضب الله. فقال زيد بن عمرو: لا أَفِرُّ إلّا من غضب الله، وما أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنا أستطيع، فهل تدلّني على دينٍ ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلَمُه إلا أن يكون حَنيفًا، قال: ومَا الحنيف؟ قال: دينُ إبراهيم. فخرج من عنده وتركهُ.

فأتى عالمًا من علماء النصارى، فقال له نحوًا ممّا قال لليهوديّ. فقال له النصراني: إنّك لَنْ تكون على ديننا حتى تأخذَ بنصيبِك من لَعْنَة الله، فقال: إني لا أحملُ من لعنةِ الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنا أستطيع، فهل تدلُّني على دينٍ ليس فيه هذا؟ فقال له نحوًا مما قال اليهودي؛ لا أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. فخرج من عندهما وقد رضي بما أخبرَاه واتّفقا عليه من دينِ إبراهيم، فلما برزَ رفع يدَه، وقال: اللهمّ إني على دِينِ إبراهيم.

---

(١) الرمدد بالكسر: المتناهي في الدقة. (٢) يقال سبعة.

(٣) الأغاني: ٣ ـ ١٢٦.

(٤) كان زيد بن عمرو أحد مَن اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من كل ذبائحها وكان يقول: يا معشر قريش، أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! توفي سنة ١٧ ق.هـ.

النعمَان بن المنْذر يَتنصَّر(١)

خرج النعمان بن المنذر إلى الصيد ومعه عَدِيُّ بن زيد، فمرّوا بشجرة، فقال له عديّ بن زيد: أيُّها الملكُ، أتدري ما تقولُ هذه الشجرة؟ قال: لا، قال: تقول:

رُبَّ ركْبٍ قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ
عصفَ الدهرُ بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهرُ حالًا بعد حالِ

ثم جاوز الشجرةَ فمرّ بمقْبَرةٍ، فقال له عديّ: أيها الملك، أتدري ما تقولُ هذه المقبرة؟ قال: لا، قال: تقول:

أيـهـا الـركـبُ الـمـخِـبُّـو ... نَ على الأرض الـمـجِـدُّونْ
فـكـمـا أنـتـمُ كـنَّـا(٢) ... وكـمـا نـحـن تـكـونُـونْ

فقال له النعمان: إن الشجرةَ والمقبرة لا تتكلّمان وقد علمتُ أنك إنما أردت عِظَتي، فما السبيلُ التي تُدْرَكُ بها النجاةُ؟ قال: تدعُ عبادةَ الأوثان وتعبدُ الله، وتَدِينُ بدين المسيح عيسى ابن مريمَ، قال: أوَفي هذا النجاة؟ قال: نعم، فتنصَّر يومئذ!

طِريفة الكَاهِنَة(٣)

كانت العمارةُ في أرض سَبَأٍ أزيد من مَسيرة شَهْرَيْن للراكب المجدّ، وكان أهلُها يقتبسون النارَ بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر، ثم مُزِّقُوا كلَّ مُمزَّق.

وكان أولَ مَن خرجَ من اليمن في أوّل الأمر عَمْرُو بن عامر مُزَيْقِيَاء(٤)، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ، يقال لها طَريفة الخير، وكانت رأت في

---

(١) الأغاني: ٢ ـ ٩٦.

(٢) جاء في الأغاني: أن الشعر من مجزوء الرمل المسبغ وتقطيعه:

فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن ... فـاعـلاتـن فـاعـلاتـان

فيكون على هذا غير موزون.

(٣) شرح مقامات الحريري: ١ ـ ٢٦٥، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٨٣، مجمع الأمثال: ١ ـ ٢٥٢، المسعودي: ١ ـ ٢٤٤، معجم البلدان: مأرب.

(٤) ملك اليمن، ومزيقياء: لقبه، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره.

منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهُم، فأرعدتْ وأبرقتْ، ثم صَعَقتْ[١] فأحرقت كلَّ ما وقعتْ عليه. ففزِعت طريفةُ لذلك فزعًا شديدًا وأتت المَلِك عَمْرًا، وهي تقول: «ما رأيت كالبرق أزال عني النومَ! رأيتُ غيمًا أَرْعَدَ وأبرق، وزَمْجَرَ وأصعق، فما وقع على شيء إلا أحرق». فلما رأى ما داخلها من الفزع سكّنَها.

ثم إن عمرًا دخل حديقةً له، ومعه جاريتان مِنْ جَواريه؛ فبلغ ذلك طريفة، فخرجتْ إليه وخرج معها وَصِيف[٢] لها اسمه سِنان؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاثُ مَنَاجد[٣] منتصِبات على أرجلهنّ، واضعات أيديهنّ على أعينهنّ، فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني. فلما ذهبتْ أخبرها، فانطَلَقتْ مُسرعة، فلما عارضَها الخليج الذي في حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سُلَحفاة، فوقعت في الطريق على ظهرها، وجعلت تَرُوم الانقلابَ فلا تستطيع، وتستعين بذَنبها فَتَحْثُو الترابَ على بطنها من جَنَباته، وتقذِف بالبول قَذْفًا.

فلمّا رأتها طريفةُ جلست إلى الأرض، فلما عادت السلحفاةُ إلى الماء مضت طريفةُ إلى أن دخلتْ على عمرو، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديدِ حرّها؛ فإذا الشجرُ يتكَفّأ[٤] من غير ريح، فلما رآها استحيا منها، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية؛ ثم قال لها: هلُمّي يا طريفة، فكَهَنَتْ[٥] له، وقالت: «والنورِ والظَّلماء، والأرضِ والسماءِ؛ إن الشجرَ لَهَالِك، وليعودَنَّ الماءُ كما كان في الزمن السَّالك».

قال عمرو: مَنْ أخبرك بهذا؟ قالت: أخبرني المناجد، بسنينَ شدائد، يَقطع فيها الولدُ الوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: «أين قولَ النَّدْمان لَهْفا، لقد رأيت سُلَحْفا[٦]، تجرِفُ الترابَ جَرْفًا، وتقذِفُ البول قَذْفًا»؛ فدخلتُ الحديقة، فإذا الشجر من غير ريح يتكَفّأ!

---

(١) أصابت بصاعقة: وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد.

(٢) الوصيف: الخادم، غلامًا كان أو جارية.

(٣) هي دواب تشبه اليرابيع، واليربوع: دويبة نحو الفأرة، لكن ذنبه وأذنيه أطول منها، ورجليه أطول من يديه.

(٤) يميل.

(٥) كهن له: قضى له بالغيب.

(٦) السلحفاة.

قال: ما تَرَيْنَ في ذلك؟ قالت: هي داهية دَهْيَاء[١] من أُمور جسيمة، ومصائبَ عظيمة! قال: وما هو ويلك! قالت: «أجل؛ إن فيه الويل، ومالَك فيه من قَيْل[٢]، وإنّ الويل فيما يجيءُ به السيل»!

فألقى عمرو نفسه عن فراشه، وقال: ما هذا يا طَرِيفة! قالت: «خَطْبٌ جليل، وحُزْنٌ طويل، وخَلَف[٣] قليل!» قال: وما علامةُ ما تذكرين؟ قالت: «اذهب إلى السدّ، فإذا رأيت جُرَذًا[٤] يُكْثِرُ بيديه في السدّ الْحَفْر، ويقلّب برجليه من أجَلِّ الصخر، فاعلم أن غَمَرَ الغَمْرُ[٥]، وأن قد وقع الأمر».

قال: وما الذي تَذْكرين أنه يقع؟ قالت: «وعدٌ من الله تعالى نزل، وباطل بَطل، ونَكالٌ بنا نَكل؛ فبغيرك يا عمرو يكون الثّكل[٦]»!

فانطلق عمرو فإذا الْجُرَذ يقلب برجليه صخرةً ما يقلبُها خمسون رجلًا، فرجع إلى طَرِيفة فأخبرها الخبر، وهو يقول:

أبصرتُ أمْرًا عادني منه أَلَمْ ... وهاج لي من هَوْله بَرْحُ السَّقَمْ[٧]
من جُرَذٍ كفَحل خنزير الأُجُمْ[٨] ... أو كَبْش صِرْم[٩] من أفاريق[١٠] الغَنَمْ
يَسْحَبُ صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ ... له مخاليبُ وأنيابٌ قُضُم[١١]
ما فاتَه سَحْلًا[١٢] من الصخر قَصَمْ[١٣]

فقالت طَرِيفة: وإن علامة ذلك الذي ذكرتُه لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضعَ بين يديك فإن الريحَ تملؤُها من تراب البَطْحَاء من سِهْلَةِ[١٤] الوادي ورَمْله، وقد علمتَ أن الجِنانَ مُظَلَّلَةٌ لا يدخلها شمسٌ ولا ريح.

---

(١) داهية دهياء: شديدة.
(٢) قال قيلًا: نام في القائلة، وهي نصف النهار، والمراد الإقامة والمكث.
(٣) الخلف: ما استخلفته من شيء.
(٤) ضرب من الفئران.
(٥) الغمر: الماء الكثير.
(٦) الثكل: كسبب وقفل: الموت والهلاك.
(٧) البرح: الشدة.
(٨) الأجم: جمع أجمة، وهو الشجر الكثير الملتف.
(٩) الصرم: الجماعة.
(١٠) الأفاريق: الفريق تجمع على فرق، وجمعت في الشعر على أفارق وجمع الجمع أفراق وجمعه أفاريق.
(١١) قضم قضمًا: أكل بأطراف أسنانه.
(١٢) سحله: قشره ونحته.
(١٣) قصم: كسر.
(١٤) السهلة: تراب كالرمل يجيء به الماء.

فأمر عَمْرو بزجاجة فوُضِعَتْ بين يديه، ولم تمكث إلا قليلًا حتى امتلأت من التراب، فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكونُ ذلك الخراب الذي يَحْدث في السدّ؟ قالت: فيما بيني وبينك سبع سنين! قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلا الله تعالى، ولو علمهُ أحدٌ لعلمتُه، وإنه لا تأتي عليّ ليلة فيما بيني وبين سبع السنين إلا ظننتُ هلاكَه في غَدِها أو مَسائها!

ثم رأى عمرو في منامه سيلَ العَرِم[١]، وقيل له: إن آيةَ ذلك أن ترى الحَصْباء قد ظهرت في سعف النخل؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أنه واقعٌ، وأن بلادَهم ستخرَب.

فكتم ذلك، وأجمع على بَيْع كلّ شيء له بأرض مَأْرِب، وأن يخرج منها هو وولده؛ ثم خشيَ أن تُنْكِرَ الناسُ عليه ذلك، فأمر أَحَدَ أولادِه إذا دعاه لِمَا يدعوه إليه أَنْ يتأبّى عليه[٢]، وأن يفعلَ ذلك به في الملأ من الناس؛ وإذا لطمَه يرفعُ هو يده، ويَلْطِمُه.

ثم صنع عمرو طعامًا، وبعث إلى أهل مَأْرِب: إن عمرًا قد صنع طعامًا يوم مَجْدٍ وذكر، فاحضَروا طعامه!

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنُه الذي أمره بما قد أمره، فجعل يأمره فيتأبّى عليه؛ فرفع عمرٌو يده فلطمه، فلطمه ابنُه؛ فصاح عمرو: واذلّاه يوم فخرِ عمرو! يهيجُهُ صَبِيٌّ ويَضْرِبُ وجهه! وحلف ليقتلنّه، فلم يزالوا به حتى تركه، وقال: والله لا أقيمُ بموضع صُنِع هذا بي فيه! ولأبيعنَّ أموالي حتى لا يرِثَ بعدي منها شيئًا!

فقال الناسُ بعضهم لبعض: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يَرْضَى؛ فابتاع الناسُ منه كلَّ ماله بأرض مَأْرِب، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سَيْلِ العَرِم، فقام ناسٌ من الأَزْدِ فباعوا أموالَهم؛ فلما أكثروا البيعَ استنكر الناسُ ذلك فَأمسكوا عن الشراء! فلما اجتمعت إلى عمرو أموالُه أخبر الناسَ بشأن السيل وخرج، فخرج لخروجه منها بَشَرٌ كثير.

---

(١) العرم: السيل الذي لا يطاق، وقيل: هو المطر الشديد. وقيل: هو اسم واد.

(٢) تأبى عليه: امتنع.

عُفَيْرَاء وَمَرْثَد بن عبْد كُلَال[١]

قفل مَرْثَد[٢] بن عبد كُلال من غَزَاةٍ غزاها بغنائمَ كثيرة، فوفدَ عليه زعماءُ العرب وشعراؤُها وخطباؤُها يهنئونه؛ فرفع الحجابَ عن الوافدين، وأوسعهم عطاءً، واشتدَّ سُرُوره بهم.

فبينما هو كذلك إذ نام يومًا؛ فرأى رُؤْيا في المنام أَخافَتْهُ وأَذْعَرتْهُ، فلما انْتَبَهَ أُنسِيهَا، حتى لم يذكر منها شيئًا، وثبت في نفسه ارتياعُه بها، فانْقَلَبَ سرورُه حزنًا، واحتجب عن الوفود، حتى أساءُوا به الظنَّ.

ثم إنه حَشَر الكُهَّانَ: فجعل يخلو بكاهنٍ بعد كاهنٍ، ثم يقول له: أخبرني عما أُريدُ أن أَسأَلَك عنه! فيجيبه الكاهنُ: بأَن لا علمَ عندي! حتى لم يَدَعْ كاهنًا عَلِمَه إلا كان إليه منه ذلك! فتضاعفَ قَلَقُهُ، وطالَ أَرَقُه، وكانت أُمُّهُ قد تكهّنَتْ[٣]، فقالت له: أبيتَ اللعن أيُّها الملك! إن الكواهنَ[٤] أَهْدَى إلى ما تسأَلُ عنه، لأنَّ أَتْبَاعَ الكَواهن من الجانِ، أَلطفُ وأظرف من أتباع الكهان.

فأمر بحشر الكواهن إليه، وسألهنَّ كما سأل الكهان، فلم يجدْ عند واحدة منهنَّ علمًا مما أراد عِلْمَه، ولما يئس من طَلِبَتِهِ سَلَا عنْها، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيَّد، فأَوْغَل[٥] في طَلَب الصيد، وانفرد عن أصحابه، فرُفعت له أبياتٌ من ذَرَا[٦] جبل، وكان قد لَفَحَه[٧] الهَجِيرُ، فعدَل إلى الأبيات، وقصد بيتًا منها منفردًا عنها، فبرزتْ إليه منه عجوز، فقالت له: انزِلْ بالرّحْب والسَّعة، والأَمْن والدَّعة، والجَفْنة المُدعْدَعة[٨]، والعُلْبة[٩] المُتْرَعَة.

---

(١) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٩٦، الأغاني: ١٠ ـ ٢١.

(٢) هو أخو تبع بن حسان لأمه، وكان ذا رأي وبأس وجود، وملك إحدى وأربعين سنة.

(٣) تكهنت: قضت بالغيب.

(٤) الكواهن: جمع كاهنة.

(٥) أوغل في طلب الصيد: بالغ في ذلك وأمعن.

(٦) ذر الجبل: كنفه وستره.

(٧) لفحه: أحرقه، والهجير: نصف النهار وشدة الحر.

(٨) الجفنة: القصعة، والمدعدعة: التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها، ثم ملئت بعد ذلك.

(٩) العلبة: إناء من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها، والمترعة: المملوءة.

فنزل عن جَوَادِه، ودخلَ البيت، فلما احتجبَ عن الشمس، وخفقت عليه الأرْواح[١]، نام فلم يستيقظ حتى تصرَّم الهَجِيرُ، فجلس يمسحُ عينيه، فإذا بين يديه فتاةٌ لم يرَ مثلها قَوَامًا ولا جمالًا؛ فقالت: أبيت اللعن أيُّها الملك الهُمَام! هل لك في الطعام؟ فاشتدّ إشفاقُه، وخاف على نفسه لَمَّا رأى أنها عرفته، وتصامّ عن كلمتها، فقالت له: لا حَذَر، فِدَاكَ البَشر، فجدُّك الأكبر، وحظُّنا بك الأوْفَر.

ثم قرَّبت إليه ثريدًا وقديدًا وحَيْسًا[٢]، وقامت تَذُبُّ عنه حتى انتهى أكلُه، ثم سقته لبنًا صَرِيفًا وضَرِيبًا[٣]، فشرب ما شاء، وجعل يتأمَّلها مُقبِلةً مُدْبِرة، فملأت عينه حُسْنًا، وقلبَه هوًى، فقال لها: ما اسمُكِ يا جارية؟ قالت: اسمي عُفَيراء، فقال لها: يا عُفَيراء، مَنِ الذي دعوتهِ بالملك الهمام؟ قالت: مَرْثَد العظيم الشّان! حاشرُ الكواهن والكُهّان، لِمُعضِلة[٤] بَعُدَ عنها الجان!

فقال: يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك! إنها رؤيا مَنام، ليست بأَضغاث أحْلام!

قال الملك: أصبتِ يا عفيراء! فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيتَ أعاصيرَ[٥] زوابع، بعضُها لبعض تابع، فيها لَهَبٌ لامع. ولها دُخَان ساطع[٦] يقفوها نهرٌ مُتدَافِع، وسمعتَ فيما أنتَ سامع، دعاءَ ذي جَرْس[٧] صادع: هلموا إلى المشارع[٨]؛ فرَوِيَ جارع[٩]، وغَرِق كارع[١٠]!

فقال الملك: أَجَلْ! هذه رؤياي! فما تأويلُها يا عُفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع ملوك تبَابع[١١]. والنهر علم واسع. والداعي نبيٌّ شافع. والجارع وليٌّ تابع والكارع عدو منازع!

---

(١) الأرواح: جمع ريح.
(٢) القديد: اللحم المقدد، والحيس: تمر وأقط وسمن.
(٣) الصريف: اللبن آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب. والضريب: اللبن الذي يحلب من عدة لقاح في إناء واحد فيضرب بعضه ببعض.
(٤) العضلات: الشدائد. وبعد عنها الجان: لم يطيقوها.
(٥) الأعاصير الزوابع: هي من الرياح ما يثير التراب فيعليه في الجو ويديره.
(٦) ساطع: مرتفع. (٧) الجرس: الصوت.
(٨) المشارع: جمع مشرعة وهي التي ينحدر إليها الماء.
(٩) أي من شرب جرعًا روي. (١٠) أي ومن أمض في الشرب غرق.
(١١) التبابع جمع تبع، وهو لقب لملوك اليمن.

فقال الملك: يا عفيراء، أَسِلْمٌ هذا النبيُّ أم حرب؟ فقالت: أُقْسِمُ برافعِ السماء؛ ومُنزلِ الماءِ من العَمَاء[١]، إنه لَمُطِلٌ[٢] الدماء، ومُنَطِّقٌ[٣] العقائل نُطُقَ الإماء.

فقال الملك: إلَامَ يدعو يا عفيراء؟ قالت: إلى صلاةٍ وصيامٍ، وصلةِ أَرْحَامٍ، وكَسْرِ أصنام، وتعطيل أَزْلَام[٤]، واجْتناب آثام!

فقال الملك: يا عُفَيْرَاء؛ إذا ذبحَ قومُهُ فمن أعضادُه[٥]؟ قالت: أعضادُه غَطَاريفُ[٦] يَمَانُون، طائرُهم به ميمون، يُغْزِيهم فيَغْزون؛ ويُدَمِّثُ[٧] بهم الحُزُون، وإلى نَصْرِه يَعْتَزُون!

فأطرق الملك يُؤَمِرُ[٨] نَفْسَه في خطبتها؛ فقالت: أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي غَيور، ولأمري صَبُور، والكَلَفُ بي ثُبُور[٩].

فنهض الملك، وحَالَ[١٠] في صَهْوَةِ اجواده وانطلق؛ فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء[١١]!

كَاهِنَة بَنِي سَعْد[١٢]

نذَر عبد المطلب بن هاشم أنه متى رُزق عشرة أولاد ذكورًا، ورآهم بين يَدَيْهِ رجالًا أن ينحرَ أحَدَهم عند الكَعْبَةِ شكرًا لربه!

فلما استكمل وَلَدُه العَدد، وصاروا مِنْ أَظْهَر العُدَد، قال لهم: يا بَنِيَّ؛ كنتُ نذَرْتُ نَذْرًا علمتموه قبل اليوم، فما تقولون؟

---

(١) العماء: السحاب الكثيف. (٢) طل دمه: هدر، أو ألا يثأر به.
(٣) منطق العقائل: الكرائم من النساء؛ أي يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء للمهنة والخدمة.
(٤) الأزلام: سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية؛ أي يطلبون معرفة ما قسم لهم.
(٥) الأعضاد: الأنصار: أي إذا قطعوه وتركوا نصرته.
(٦) الغطاريف: السادة، وتريد الأنصار وهم من أهل اليمن.
(٧) يدمث: يسهل. (٨) يؤامر نفسه: يشاور.
(٩) ثبور: هلاك.
(١٠) حال أي وثب واستوى، والصهوة: مقعد الفارس من ظهر فرسه.
(١١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.
(١٢) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٤٦، ابن هشام: ١ ـ ١٠٣، الطبري: ٢ ـ ١٧٤.

قالوا: الأمرُ لك وإليك. ونحنُ بين يديك! فقال: لينطلقْ كلُّ واحدٍ منكم إلى قِدْحِه[١]، وليكتبْ عليه اسمه، ففعلوا؛ ثم أتَوْه بالقِدَاح فأخذها.

ثم دعا بالأمين الذي يَضرِبُ بالقداح، فدفع إليه قِدَاحَهم، وقال: حرّك ولا تَعْجَلْ.

وكان أحبّ ولد عبد المطلب إليه عبدُ الله. فضرب صاحبُ القِداح السهمَ، فخرج على عبد الله؛ فأخذ عبد المطلب الشَّفْرَةَ[٢]، وأتى بعبد الله وأضجعه بين إسَاف[٣] ونَائِلَة.

وهَمّ بذبْحه، فوثب إليه ابنُه أبو طالب، وكان أخا عَبْدِ الله لأبيه وأمّه، وأمسك بيده عن أخيه.

فلما سمعت بنو مخزوم بذلك - وكانوا أخواله - وثَبُوا إلى عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الحارث، إنا لا نُسلم إليك ابنَ أختنا للذبح، فاذبحْ منْ شئتَ مِنْ ولدك غيره!

فقال: إني نذرتُ نذرًا، وقد خرج القِدْح، ولا بدّ من ذبحه! قالوا: كلّا! لا يكونُ ذلك أبدًا، وفينا رُوح؛ وإنا لنفْدِيه بجميع أموالنا من طارفٍ وتَالد.

ثم وثب الساداتُ من قريش إلى عبد المطلب، فقالوا: يا أبا الحارث؛ إن هذا الذي عزمْتَ عليه لعظيم، وإنك إن ذبحتَ ابنَك لم تَتَهنَّأ بالعيش من بعده، ولكن تثبّتْ حتى نصيرَ معك إلى كاهنةِ بني سعد، فما أمرتْك من شيء فامْتَثِلْهُ.

فقال عبد المطلب: لكم ذاك.

ثم خرج في جماعةٍ من بني مَخْزُوم نحو الشام[٤] إلى الكاهنة؛ فلما دخلوا عليها أخبرَها عبدُ المطلب بما عزَم عليه من ذَبْح ولده. فقالت الكاهنةُ: انصرفوا عني اليوم. فانصرفوا.

(١) القدح: السهم. (٢) الشفرة: السكين العظيم.

(٣) إساف ونائلة: صنمان كانا لقريش، وضعهما عمرو بن حي على الصفا والمروة، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة.

(٤) في سيرة ابن هشام والطبري: فانطلقوا حتى قدموا المدينة.

وعادوا من الغَدِ، فقالت: كم دِيَةُ الرجلِ عندكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلدكم، وقرّبوا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه، وقدّموا معه عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القِدَاح، فإن خرج القِدْحُ على الإبل فانحروها، وإن خرج على صاحبكم فزيدوا على الإبل عشرًا عشرًا حتى يَرْضَى ربكم.

فانصرف القومُ إلى مكةَ؛ وأقبلوا عليه يقولون: يا أبا الحارث؛ إن لكَ في إبراهيمَ أسوةً حسنة؛ فقد علمْتَ ما كان من عَزْمه على ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيدُ ولد إسماعيل، فقدّم مالَك دون ولدك!

فلما أصبحَ عبدُ المطلب قرّبَ عَبْدَ الله وعشرًا من الإبل، ثم دعا بأمينِ القِدَاح وجعل لابنه قِدْحًا، وقال: اضرب ولا تَعْجَلْ، فخرج القِدْحُ على عبد الله، فجعلها عشرين، فضرب فخرج على عبد الله؛ فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القِدْح على عبد الله؛ فجعلها أربعين، . . . وكلما خرج القِدْح على ابنه زادها عشرًا، حتى جعلها مائة، فضرب فخرج القِدْح على الإبلِ، فكبّر عبدُ الله وكبّرت قريش، وقالت: يا أبا الحارث؛ إنه قد رَضِيَ رَبُّك، وقد نجا ابنُك من الذبح.

فقال: لا والله حتى أضرَب عليه ثلاثًا! فضرب الثانيةَ فخرج على الإبل، فضرب الثالثة فخرج على الإبل، فعلم عبدُ المطلب أنه قد بلغ رِضَا ربه في فِدَاء ابنه.

فقُرّبت الإبلُ، وهي مائةٌ من جِلّة إبلِ عبد المطلب، فنُحِرَت كلها، فداءً لعبد الله، وتُرِكَتْ في مواضعها، لا يُصَدُّ عنها أحدٌ ينتابها ممن دبّ ودرَج[١]؛ وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحًا.

مَصْرع العُزّى[٢]

كانت العُزّى شيطانةً تأتي ثلاث سَمُراتٍ[٣] ببطن نَخْلَة[٤]. فلما افتتح النبيّ ﷺ مكةَ بعث خالدَ بن الوليد، فقال له: إيت بطنَ نخلة؛ فإنك تجد ثلاثَ

(١) درج: مشى. ودب: مشي على هينته، والمقصود كل واحد.
(٢) الأصنام لابن الكبي: ٢٥.
(٣) سمرات: جمع سمرة، وهي نوع من الشجر.
(٤) بطن نخلة: قريبة من المدينة.

سمُراتٍ فاعضدِ[١] الأولى! فأتاها فعضَدَها. فلما جاء إليه ـ عليه السلام ـ قال: هل رأيتَ شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضِدِ الثانية! فأتاها فعَضَدها. ثم أتى النبيَّ عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضدِ الثالثة! فأتاها، فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرَها، واضعةٍ يديْها على عاتقها، تَصرِف[٢] بأنيابها، وخَلْفَها دُبَيّة بن حَرَمى الشَّيْباني وكان سادِنَها[٣] ـ فلما نظر إلى خالد قال:

أعُزَّاء شُدّي شَدَّةً لا تُكَذِّبي ... على خالدٍ! ألقي الخِمَارَ وشَمِّري!

فإنك إلّا تَقْتُلِ اليومَ خالدا ... تُبُوئي بذُلٍّ عاجلًا وتَنَصَّري

فقال خالد:

يا عُزُّ كفرانَك لا سبحانَكِ ... إني رأيتُ الله قد أهانَكِ!

ثم ضربها ففلقَ رأسَها، فإذا هي حُمَمَةٌ[٤]. ثم عضَدَ الشجرة، وقتل دُبَيّة السّادِن. ثم أتى النبيّ ﷺ، فأخبرهُ. فقال: «تلك العُزَّى، ولا عُزَّى بعدها للعرب! أما إنها لن تُعْبَد بعد اليوم».

أُمَيَّةُ بنُ أبِي الصَّلْت وَرؤيَا شَقّ الصّدر[٥]

دخل يومًا أميّة[٦] بن أبي الصَّلْت على أُخْتِهِ، وهي تهيّئ أدَمًا[٧] لها، فأدركه النَّوْم؛ فنام على سَرِيرٍ في ناحية البيت، ثم انشقَّ جانبٌ من السقف في البيت، وإذا بطائرَيْن قد وقع أحدُهما على صَدْرِهِ؛ ووقف الآخرُ مكانه، فشقَّ الواقعُ صدرَه فأخرج قلبَه فشقّه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوَعَى؟ قال: وَعَى، قال: أقَبِلَ؟ قال: أبَى. قال: فرُدَّ قلبَه في موضعه. ثم نهض فأتبعهما أمية طَرْفَهُ، وقال:

لبَّيكُما لبيكُما ... هأنذا لَدَيْكُما

لا بريءٌ فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأنْتَصر.

---

(١) فاعضد: فاقطع.
(٢) تصرف: تصوت.
(٣) السادن: خادم الكعبة وبيت الأصنام.
(٤) الحمم: الفحم، واحدته بهاء.
(٥) الأغاني: ٤ ـ ١١٧.
(٦) كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها قبل بعثة النبيّ ﷺ ولبس المسوح تعبدًا، وحرم الخمر، وشك في الأثان. ولما بعث النبيّ ﷺ قال: «إنما كنت أرجو أن أكونه». ولم يسلم.
(٧) تهيئه وتقدره قبل القطع وتقيسه لتقطع منه مزادة أو قربة أو خفًا.

فرجَع الطائر فوقع على صدره فشقّه، ثم أخرج قلبَه فشقه؛ فقال الطائر الأعلى: أوَعى؟ قال: وَعَى، قال: أقَبِل؟ قال: أبي؛ ونهض، فأتبعهما أمية بصرَه وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

لا مالٌ يغنيني؛ ولا عشيرةٌ تحميني. فرجَع الطائر فوقع على صدره فشقّه؛ ثم أخرج قلبه فشقَّه. فقال الطائر الأعلى: أوَعَى؟ قال: وَعى. قال: أقبِلَ؟ قال: أبي. ونهض فأتبعهما أمية بصره، وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

محفوفٌ بالنعم، محوط من الرِّيَب. فرجع الطائرُ فوقع على صدره فشقَّه، وأخرج قلبه فشقّه، فقال الأعلى: أوَعَى؟ فقال: وَعى. قال: أقبِل؟ قال: أبى. ونهض فأتبعهما أمية بَصَرَه، وقال:

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما
إن تَغفِرِ اللهم تَغفِر جمًّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا[1]

قالت أخته: ثم انطبقَ السقف؛ وجعل أُمية يمسح صدرَه، فقلت: يا أخي، هل تجدُ شيئًا؟ قالَ: لا، ولكني أجد حرًّا في صدري، ثم أنشأ يقول:

ليتنى كنتُ قبلَ ما قد بدا لي في فِنَان[2] الجبال أرْعى الوُعُولا
اجعَلِ الموتَ نُصْبَ عينيك واحذَرْ غَوْلَةَ الدهرِ إن للدهر غُولَا[3]

أم العَوّام![4]

خرج ركبٌ من ثَقِيف إلى الشام، وفيهم أُميةُ بنُ أبي الصَّلت، فلما قَفلوا راجعين نزلوا منزلًا ليتعشَّوْا بعَشَاء، إذْ أقبلت عَظَايةٌ[5] حتى دَنَتْ منهم، فَحَصَبَها بعضُهم بشيء في وَجْهِها، فرجعت، وكفَتُوا[6] سُفْرَتَهُمْ، ثم قاموا يرحَلون مُمْسِين، فطلعت عليهم عجوزٌ من وراء كثيبٍ مقابلٍ لهم تتوكّأ على عصا، فقالت: ما

---

(١) ألم: ارتكب اللمم، وهو صغار الذنوب. (٢) القنان: أعالي الجبال، واحدها قنة.
(٣) كل ما اغتال الإنسان فأهلكه. (٤) الأغاني: ٤ ـ ١٢٥.
(٥) العظاية: دريبة ملساء، تشبه سام أبرص، من طبعها أنها تمشي مشيًا سريعًا ثم تقف.
(٦) كف الشيء: ضم بعضه إلى بعض. والسفرة: ما يبسط تحت الخوان من جلد أو غيره.

منعكم أن تُطعِمُوا رَحيمةَ، الجاريةَ اليتيمةَ، التي جاءتكم عَشِيّة! قالوا: ومن أَنْتِ؟ قالت: أنا أمّ العوّام، إمْتُ[١] منذُ أعوام؛ أما وربِّ العباد، لتَفترقُنّ في البلاد! وضربَت بعصاها الأرْضَ، ثم قالت: بَطّئي إيابَهم، ونَفِّري ركابَهم؛ فوثبتِ الإبلُ كأنَّ على ذرْوَةِ كلِّ بعير منها شيطانًا، ما يُمْلَكُ منها شيء، حتى افترقت في الوادي.

قال الراوي: فجمعناها في آخرِ النهار من الغَدِ ولم نَكَدْ، فلما أنخْنَاها لنُرحِلَها طلعت علينا العجوزُ، فضربت الأرضَ بعصاها، ثم قالت كقولها الأول، ففعلت الإبلُ كفِعلها بالأمس، فلم نَجْمعها إلا الغَدَ عشية؛ فلما أنخْنَاها لنُرحِلها أقبلت العجوز، ففعلت كفعلها في اليومين، ونفَرت الإبل.

فقلنا لأُميَّة: أَينَ ما كنتَ تُخبرنا به عن نفسك؟ فقال: اذهَبُوا أنتم في طلب الإبل ودَعُوني؛ فتوجّه إلى ذلك الكثيبِ الذي كانت العجوزُ تأتي منه حتى عَلَاه، وهبطِ منه إلى وادٍ؛ فإذا فيه كنيسةٌ وقناديل، وإذا رجلٌ أبيضُ الرأسِ واللحية مُضْطَجع معترض على بابها؛ فلما رأى أميةَ قال: إنك لَمَتْبُوع، فمن أين يأتيك صاحبُك؟ قال: من أُذني اليسرى؛ قال: فبأي الثياب يأمُرك؟ قال: بالسَّوَاد؛ قال: هذا خَطيب الجنّ، كدتَ والله أَنْ تَكُونَه ولم تفعل؛ إن صاحبَ النبوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أذنِه اليُمنى، ويأمُره بلباس البياض، فما حاجتُك؟ فحدَّثَه حديثَ العجوز؛ فقال: هي امرأةٌ يهودية من الجن، هلك زوجُها منذ أعوام، وإنها لن تزالَ تصنعُ ذلك بكم حتى تُهلِككم إن استطاعت.

فقال أمية: وما الحيلةُ؟ فقال: جمّعوا ظَهْرَكم[٢]؛ فإذا جاءتكم ففعلتْ كما كانت تفعلُ فقولوا لها: «سَبْع من فوق، وسَبْع من أسفل، بِاسْمِك اللهمّ»! فلن تضرّكم.

فرجع أميّةُ إليهم وقد جمّعوا الظّهر؛ فلما أقبلت قال لها ما أمرَه به الشيخ، فلم تضرّهم. فلما رأتِ الإبلَ لم تَتَحرَّك قالت: قد عرفتُ صاحبَكم، وليَبْيَضنَّ أعلاه، وليَسْوَدَّنَّ أسفلُه؛ فأصبح أمية وقد برص في عِذارَيْه واسودّ أسفلُه.

---

(١) آمت المرأة: إذا فقدت زوجها.

(٢) الظهر: الركاب التي تحمل عليها الأثقال في السفر.

فلما قدِموا مَكة ذكروا لهم هذا الحديث؛ فكان ذلك أولَ ما كَتَبَ أهلُ مكة: «باسْمِك اللهم» في كُتُبهم!

عُمَارة بن الوَليدَ وَالسَّوَاحِر[١]

كان عُمَارَةُ[٢] بن الوليد المخزومي قد خرج هو وعَمْرو بن العاص بن وائل السَّهْمي ـ وكانا كلاهما تاجرين ـ إلى النجاشي، وكانت أرضُ الحبشة لقريش مَتْجَرًا وَوَجْهًا، وكلاهما مُشرِك شاعر فاتك وهما في جاهليَّتِهما؛ وكان عُمارة مُعْجَبًا بالنساء صاحبَ مُحادثة، فركبا في السفينة لياليَ. وحذِر عمرٌو على زوجته من عُمارة، فجعل إذا شرب معه أقَلَّ عمرٌو من الشراب، وأرَقَّ لنفسه بالماءِ؛ مخافةَ أن يسكر فيغلبَه عُمَارةُ على أهله.

ثم إن عَمْرًا جلس إلى ناحية السفينة، فدفعه عُمَارة في البحر. فلما وقع فيه سبح حتى أخذ بالقَلْس[٣]، فارتفع فظَهرَ على السفينة. فقال له عُمَارة: أما والله لو علمتُ يا عمرو أنك تُحْسن السِّباحة ما فعَلْتُ؛ فاضطَغَنَها عمرو، وعلم أنه أراد قتله.

فمضيا على وجههما ذلك، حتى قدِما أرضَ الحبشة ونزلاها، وكتب عمرو بن العاص إلى أبيه العاص: أن اخْلَعْني[٤]، وتبرّأْ من جَرِيرتي[٥] إلى بني المُغيرة وجميع بني مخزوم. وذلك أنه خشي على أبيه أن يُتْبَع بجريرته وهو يَرْصُدُ[٦] لعُمارة ما يَرصد.

فلما ورد الكتابُ على العاص بن وائل مشى في رجالٍ من قومه إلى بني المغيرة وغيرهم من بني مخزوم؛ فقال: إن هذين الرجُلَيْنِ قد خرجا حيث علمتُم، وكلاهما فاتكٌ صاحبُ شَرّ، وهما غَيرُ مأمونَيْن على أنفسهما، ولا ندري ما يكون؛ وإني أَبْرَأُ إليكما من عَمْرِو من جَرِيرته، وقد خلعتهُ.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ٥٦.

(٢) عمارة بن الوليد: هو الذي دفعت به قريش إلى أبي طالب حين طلبوا إليه أن يسلم إليهم محمدًا ﷺ ويأخذه عوضًا عنه.

(٣) القلس: حبل غليظ من حبال السفن.

(٤) يقولون: إنا خلعنا فلانًا، فلا تأخذ أحدًا بجناية تجنى عليه، ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها.

(٥) جريرتي: جنايتي.

(٦) رصيده رصدًا: رقبه.

فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم: أنت تخاف عَمْرًا على عُمارة! وقد خلَعْنا نحن عُمَارةَ، تبرأنا إليك من جَرِيرته، فَخَلِّ بين الرجلين.

فقال السَّهْمِيُّون[١]: قد قَبِلنا؛ فابعثوا مُنَادِيًا بمكة: إنّا قد خلعناهما، وتَبَرَّأَ كلُّ قوم من صاحبهم ومما جرَّ عليهم. فبعثوا مناديًا يُنَادِي بمكة بذلك. فقال الأسود بن المطَّلب: بَطَلَ والله دمُ عُمَارة بن الوليد آخرَ الدهر!

فلما اطمأنّا بأرض الحبشة لم يلبث عُمارة أن دَبّ لأمرأةٍ عند النجاشي فأدخَلَتْه فاختلف إليها. وجعل إذا رجع يُخْبِر عَمْرو بن العاص بما كان من أمره. فجعل عمرو يقول: ما أُصدِّقُ أنك قدَرتَ على هذا الشأن! إن المرأة أرفعُ من ذلك.

فلما أكثر على عمرو بما كان يخبرُه قال له: إن كنتَ صادقًا فقل لها: تَدْهُنُك من دُهْنِ النجاشي الذي لا يدَّهنُ به غيرُه فإني أعرفه، لو أتيتَني به لصدَّقتُك! ففعل عُمارةُ فجاء بقارورة من دُهْنِه؛ فلما شمَّه عَرَفه. فقال له عمرو عند ذلك: أنت صادق! لقد أصبتَ شيئًا ما أصاب أحدٌ مثلَه قطُّ من العرب، ونلتَ من المرأة شيئًا؛ ما سمعنا بمثل هذا ـ وكانوا أهلَ جاهلية ـ ثم سكت عنه؛ حتى إذا اطمأنّ دخل على النجاشي فقال: أيها الملك! إن ابن عمي سفيهٌ. وقد خشيتُ أن يَعُرَّني[٢] عندك أمرُه، وقد أردتُ أن أعلِمك شأنَه؛ ولم أفعل حتى استبنتُ أنه قد دخَل على بعض نسائك، وهذا من دُهْنِك قد أُعْطِيَه وَدَهنني منه.

فلما شمَّ النجاشي الدُّهن قال: صدَقتَ. هذا دُهني الذي لا يكون إلا عندي. ثم دعا بِعُمَارةَ ودعا بالسَّوَاحِر فجرَّدوه من ثيابه فَنفخْنَ فيه، ثم خلَّى سبيله؛ فخرج هاربًا.

فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخطاب؛ فخرج إليه عَبْدُ الله بن أبي ربيعة، فرَصَده على ماءٍ بأرض الحبشة، وكا يَرِدُه مع الوحش فورَد، فلما وجد رِيْحَ الإِنْسِ هرَب، حتى إذا أجهده العطشُ ورَد. فشرِب حتى تملّأ[٣] ونفر، فخرجوا في طلبه.

---

(١) السهميون: قوم عمرو بن العاص. (٢) عره: لطمه بعيب.
(٣) امتلأ.

قال عبدُ الله بن ربيعةَ: فسعيتُ إليه فالتزمته؛ فجعل يقول لي: يا بَحِير[١]؛ أَرْسِلْني! يا بحير أرسلني، إني أموت إن أمسكتموني.

قال عبد الله: وضغطْتُه فمات في يدي مكانه. فواريتُه ثم انصرفت، وكان شَعرُه قد غطى كل شيء منه.

فِي حَفرِ زَمزَم[٢]

قال عبدُ المطَّلب بن هاشم: إني لنائم في الحِجْرِ[٣] إذ أتاني آتٍ، فقال: احفِر طِيْبَة[٤]، قلت: وما طِيبَة؟ فذهب عني. فلما كان من الغدِ رجعت إلى مَضْجَعي، فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احْفِر بَرَّة[٥]، فقلت: وما برَّة؟ فذهب عني. فلما كان الغَدُ رجعتُ إلى مضجَعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احْفِر المضْنُونة[٦]، فقلت: وما المضنونة؟ فذهب عني. فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي، فنمتُ فيه فجاءني، فقال: احْفِر زمزم، إنك إن حفرتها لا تندم. فقلت: وما زمزم؟ قال: لا تُنْزَفُ أبدًا ولا تُذَم[٧]، تَسقي الحَجِيجَ الأعظم، وهي بين الفَرْثِ والدم[٨]، عند نُقْرَة الغُرَاب الأعْصم[٩]، عند قَرْيَةِ[١٠] النمل.

---

(١) كان اسم عبد الله في الجاهلية بحيرًا، وسماه رسول الله ﷺ عبد الله.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ ـ ٩٨، البداية والنهاية لابن كثير: ٢ ـ ٢٢٤.

(٣) الحجر: ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال.

(٤) طيبة ـ بكسر الطاء: اسم زمزم، قيل: سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من أولاد إسماعيل. أما طيبة بفتح الطاء فهي اسم لمدينة الرسول.

(٥) برة: اسم لزمزم أيضًا. قال في الروض الأنف: هو اسم صادق عليها لأنها فاضت للأبرار.

(٦) المضنونة: سميت المضنونة، لأنه ضنّ بها على غير المؤمنين.

(٧) لا تذم: من قول العرب: بئر ذمة، أي قليلة الماء، والمعنى أن ماءها لا ينقطع أبدًا.

(٨) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ولم ير الفرث والدم، فبينا هو كذلك ندت بقرة من جازرها، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام، فنحرها في الموضع الذي رسم لعبد المطلب، فسال هناك الفرث والدم، فحفر عبد المطلب حيث رسم له.

(٩) الغراب الأعصم: الذي في جناحيه بياض.

(١٠) شبه مكة ـ مكان زمزم ـ التي يرد إليها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك، وهي لا تحرث ولا تزرع، بقرية النمل التي لا تحرث ولا تزرع ولا تبذر، وتجلب إليها الحبوب من كل جانب.

قال ابن إسحٰق: فلما بيّن له شأنَها، ودلّه على موضعها، وعرف أنه قد صدق غدا بمعْوله، ومعه ابنُه الحارثُ بنُ عبد المطلب، ليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها.

فلما بدا له الطَّوِيُّ[1] كبّر، فعرَفتْ قريش أنه قد أدرك حاجتَه، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبدَ المطلب؛ إنها بئرُ أبينا إسماعيل؛ وإنّ لنا فيها حقًّا، فأشْرِكنا معك فيها. قال: ما أنا فاعل؛ إن هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم، وأُعطِيتُه من بينكم. فقالوا له: فأَنْصِفنا؛ فإنّا غيرُ تاركيكَ حتى نخاصِمَك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم مَن أُحَاكِمُكُم إليه. قالوا: كاهِنَةُ بني سَعْد. قال: نعم ـ وكان بالشام.

فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَرٌ من بني أمية من بني عَبْد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ ـ والأرض إذ ذاك مَفَاوز ـ فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنيَ ماءُ عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَكة، فاستَسقوْا مَن معه من قبائل قريش، فأبَوْا عليهم؛ وقالوا: إنّا بمفَازة ونحن نَخْشَى على أنفسنا مِثْلَ ما أصابكم.

فلما رأى عَبْدُ المطلب ما صَنع القوم؛ وما يتخوَّفُ على نفسه وأصحابه قال: ماذا تَرَوْن؟ قالوا: ما رأْيُنا إلا تَبعٌ لرأيك، فمرْنا بما شئتَ. قال: فإني أرى أن يَحْفِرَ كلُّ رجل منكم حُفرَتَه لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجلٌ دَفعه أصحابُه في حُفْرَة، ثم وَارَوه حتى يكونَ آخرُكم رجلًا واحدًا؛ فضيْعَةُ رجلٍ واحد أَيسَرُ من ضَيْعَةِ رَكْب جميعه. قالوا: نِعْمَ ما أمرتَ به! فقام كلُّ واحد منهم فحفر حُفْرَته؛ ثم قعد ينتظر الموت عطشًا.

ثم إن عبدَ المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءَنا بأيدينا هكذا للموت ـ لا نضربُ في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا ـ لَعَجْزٌ، فعسى الله أن يرزقَنَا ماءً ببعض البلاد، ارْتحلوا. فارتحلوا حتى إذا فرغوا، ومَن معهم من قبائل قريش ينظرون إلى ما هم فاعلون، تقدّم عبد المطَّلب إلى راحلته فركبها؛ فلما انبعثت به انفجرتْ من تحت خُفّيها عيْنٌ من ماءٍ عذب، فكبّر عبد المطلب وكَبَّر أصحابُه؛ ثم نزل فشربَ وشربَ أصحابُه، واستقَوا حتى مَلئوا أسقيتهم.

---

(١) الطوي: البئر المطوية بالحجارة.

ثم دعا القبائلَ من قُرَيش؛ فقال لهم: هَلُمُّوا إلى الماءِ فقد سقَانا اللهُ؛ فاشربوا واستقوا. فجاءُوا فشربوا واسْتَقَوْا؛ ثم قالوا: والله قد قُضِي لك علينا يا عبدَ المطلب؛ والله لا نخاصِمُك في زمزم أبدًا؛ إن الذي سقاك هذا الماءَ بهذه الفَلَاة لَهُوَ الذي سقاك زَمْزَم! فارْجع إلى سِقَايَتِك رَاشِدًا. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلّوا بينه وبينها!

سَيْفُ بن ذِي يَزن وَالبشَارة بِرَسُولِ الله[١]

لما ظَفِر سَيفُ[٢] بنُ ذي يَزَن بالحبشة؛ أتى وفودُ العرب: خطباؤها وأشرافُها وشعراؤُها لتَهنئَتِهِ ومَدْحِه، وذِكْرِ ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه. وقدم إليه وفدُ قريش، وفيهم عبدُ المطلب بن هاشم، وأميّةُ بنُ عبد شمس، وعبدُ الله بن جُدْعان، وأسَد بن خُوَيلد بن عَبد العُزّى، في ناسٍ من أشراف قريش. فلما قدموا عليه وجَدُوه في رَأس قَصْرٍ يقال له غُمدان، فاستأذنوا عليه، فأذن لهم؛ فدخلوا عليه، فإذا الملك مُضَمّخٌ بالعَنْبَر[٣]، يُرَى وَبِيضُ الطيبِ من مَفرِقِهِ[٤]، عليه بُرْدَان ومُؤْتَزِرٌ بأحدها، مُرْتَدٍ بالآخر، سيفُه بين يديه، وعن يمينه وعن يساره الملوكُ وأبناءُ الملوك والمقاول[٥].

فدنا عبدُ المطلب واستأذن في الكلام؛ فقال له: إنْ كنتَ مِمّنْ يَتكلّمُ بين يدي الملوك فتكلَّمْ، فقد أَذنّا لك. فقال عبد المطلب: إن الله أحلّك - أيها الملك - محلًا رفيعًا، صَعْبًا مَنِيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبَتَك مَنْبِتًا طابت أَرُومَتُه[٦]، وعزّت جُرْثُومَته[٧]، وثبت أصلُه، وبَسَقَ فَرْعُه[٨]. في أكرم مَوْطن، وأطيب مَعْدِن، وأنت - أبيتَ اللعن[٩] - مَلِكُ العرب وربيعُها الذي به تُخصِب، وأنت - أيها الملك - رَأسُ العَرب الذي إليه تنقاد، وعَمودها الذي عليه العِماد، ومَعْقلُها الذي تلجأ إليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٢ - ٣٢٨، الأغاني: ١٦ - ٧٥، طبعة بولاق، العقد: ١ - ١٧٥، بلوغ الأرب: ٢ - ٢٦٦، المختار من نوادر الأخبار - مخطوط.

(٢) هو ملك اليمن من قبل كسرى أنو شروان، كان يكاتبه ويصدر عن رأيه إلى أن قتل بيد الأحباش قبيل الإسلام.

(٣) التضميخ: لطخ الجسم بالطيب حتى كأنه يقطر.

(٤) الوبيض: اللمعان، ومفرق الرأس حيث يفرق فيه الشعر.

(٥) المقاول: جمع مقول، وهو الرئيس دون الملك.

(٦) الأرومة: الأصل. (٧) الجرثومة: الأصل.

(٨) بسق: طال. (٩) من تحيات ملوك العرب في الجاهلية.

العِبَاد، سَلفك خيرُ سلف، وأنت لنا منهم خيرُ خَلَف، ولن يَخْملَ ذِكرُ مَن أنتَ سَلَفُه، ولن يهلِك مَنْ أنتَ خَلَفُه. ونحن ـ أيها الملك ـ أهلُ حَرَم الله وسَدَنَةُ بيته، أَشْخَصَنا إليك الذي أَبْهَجَنا؛ لكشف الكَرْب الذي فدَحنا؛ فنحنُ وفدُ التَّهْنئَةِ لا وفدُ المَرْزِئَة[1].

فقال ابنُ ذي يزن: فأيّهم أنت أيُّها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم. قال: ابنُ أختنا؟ قال: نعم ابنُ أختكم. قال: ادْنُ، فأدْنَاه وقال: مرحبًا وأهلًا، وناقةً ورَحْلًا، ومُسْتَنَاخًا سَهْلًا، ومَلِكًا رِبَحْلًا[2]، يُعْطى عطاءً جزلًا، قد سمع الملكُ مَقالَتَكُم، وعرف قرابتَكم، وقَبِلَ وَسِيلتَكم، فأنتم أهلُ الليل والنهار، لكم الكَرامَةُ ما أقمتُم، والحِبَاءُ[3] إذا ظعنتم. ثم اسْتُنْهِضُوا إلى دار الضيافة والوفود؛ فأقاموا شَهْرًا لا يُؤْذَنُ لهم ولا يَصِلُون إليه.

ثم انتبه انتباهةً؛ فأرسل إلى عبد المطلب، فأخْلاه[4] وأدنى مجلسه، وقال: يا عبدَ المطلب؛ إني مُفْضٍ إليك مِنْ سِرّي وعلمي ما لو كان غيرُك لم أَبُحْ له؛ ولكنّي رأيتُكَ مَعدِنَهُ، فَأطلعتك عليه؛ فليَكنْ عندك مطويًّا حتى يأذنَ الله فيه؛ فإنّ الله بالغُ أَمْرَه. إني أجدُ في الكتاب المكنون، والعلْم المخزون، الذي اختزنّاه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا، فيه شرفُ الحياة، وفضيلةُ الوَفَاة، وهو للناس عامة، ولرهطك كافّة، ولك خاصّة.

قال عبدُ المطلب: أيّها الملك؛ فمثلُك مَنْ سَرَّ وبرَّ، فما هو، فِدَاك أهلُ الوَبَر، زُمَرًا بعد زُمَر، قال: إذا وُلِدَ بتِهامة غلام بين كتفيه شَامَة، كانت له الإمامَةُ ولكم به الزَّعَامة، إلى يوم القيامة.

فقال له عبدُ المطلب: أبيتَ اللعن! لقد أُتيتُ بخبرٍ ما أُتِيَ بمثله وافد، فلولا هيبةُ الْمَلكِ وإجلاله وإعظامُه، لسألتُهُ مِنْ كَشف بشارته إياي ما أزْدَادُ به سرورًا.

قال ابنُ ذِي يَزَن: نبيٌّ هذا حِينهُ الذي يولَدُ فيه ـ أو قد وُلِدَ ـ اسمه أحمد؛ يموت أبوه وأمه، ويكفله جدُّه وعمُّه، والله باعثهُ جهارًا، وجاعل منّا له أنصارًا، يُعِزُّ بهم أولياءَه، ويُذِلّ بهم أعداءَه؛ يُكَسِّر الأوثان، ويخْمِد النيران، ويعبد

---

(١) رزأه ماله: أصاب منه شيئًا ورزأه رزءًا ومرزئة: أصاب منه خيرًا، أي لسنا وافدين للعطاء.

(٢) الربحل: الكثير العطاء. (٣) الحباء: العطاء.

(٤) أخلاه: خلا به.

الرحمـٰن، ويزجر الشيطان؛ قولُه فصلٌ، وحكمُه عَدْل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

قال عبد المطلب: أيها الملك: عزَّ جَدُّك، وعلا كَعْبُك، وطاب مُلْكك، وطال عُمْرك! فهل الملك سَارِّي بإفصاح؛ فقد أَوْضَح بعض الإيضاح!

فقال ابن ذي يَزَن: والبيتِ ذي الحُجُب، والعلامات والنُّصُب[1]، إنك يا عَبْد المطّلب، لجدُّه غير الكَذِب. فخرَّ عبد المطلب ساجدًا ثم رفع رأسه؛ فقال له ابن ذي يَزَن: ارفع رأسك، ثَلِجَ صدرك، وعَلا أمرُك! فهل أحسستَ شيئًا مما ذكرتُ لك؟ فقال: نعم؛ أيها الملك! كان لي ابنٌ وكنتُ عليه شفيقًا، وبه رفيقًا؛ فزوّجْتُه كريمةً من كرائم قَوْمِي، وهي آمنةُ بنتُ وَهْب بنِ عبد مناف؛ فأتت بغلام سَمّيْتُه محمدًا، مات أبوه وأمّه، وكفلتُه أنا وعَمّه، بين كتفيه شَامَة، وفيه كلُّ ما ذَكر الملكُ من علامة.

قال ابنُ ذي يَزَن: إن الذي قلتُ لك لكما قلتُ؛ فاحتفظ بابْنِك، واحذر عليه من اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعلَ الله لهم عليه سبيلًا، والله مظهرٌ دَعْوَتَه، وناصرٌ شِيعته؛ فاطْوِ ما ذكرتهُ لك دون هؤلاء الرَّهط الذين معك، فإني لستُ آمنُ أن تُدَاخِلهم النَّفاسَة[2]، من أن تكونَ لك الرياسة؛ فَيَبْغُونَ له الغوائل. وينسبون له الحبائلَ، وهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم؛ ولولا أني أعلم أن الموتَ يَجْتَاحُنِي قبل مَبْعَثِه لسِرتُ بخَيْلي ورَجلِي حتى أصيرَ بيَثْرِبَ دارِ مُلْكه؛ فأكونَ أخاه ووزيره، وصاحبَه وظهيره؛ فإني أجدُ في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، أنَّ في يثربَ استحكامَ أَمْرِه، وأَهْلَ نُصْرَته، وارتفاعَ ذكره؛ وموضعَ قَبْرِه، ولولا الذِّمَامة[3] لأظهرتُ أَمْرَه، وأوطأتُ العرب كَعْبَه، على حداثةِ سنّه؛ ولكني صارفٌ ذلك إليك، عن غير تقصير بك.

ثم أمر لكل رجُلٍ من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء سُود، وحُلّتين من حُلل اليمن، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فِضّة، وكَرِشٍ مملوءةٍ بالعنبر. ولعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك.

---

(١) النصب: كل ما عبد من دون الله، جمعه أنصاب.

(٢) النفاسة: الحسد، نفس عليك فلان ينفس نفسًا ونفاسة: حسدك.

(٣) الذمامة: كل حرمة تلزمك ـ إذا ضيعتها ـ المذمة.

وقال له: إذا حال الحَوْلُ فأْتني بأمره وما يكونُ من خبرَه. فمات ابنُ ذي يزن قبل أن يَحُولَ الحَوْلُ!

فكان عبدُ المطلب كثيرًا ما يقول: يا معشرَ قريش؛ لا يَغْبِطَنّي رَجُلٌ منكم بجزيل عطاءِ الملك، وإن كان كثيرًا، فإنه إلى نَفَاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولِعَقبي ذكرُه وفَخْره وشَرَفه.

فإذا قيل له: وما ذاك؟ قال: ستعلمون ما أقولُ لكم بعدَ حِين!

بِشَارة بحِيرَى[١]

خرج أبو طالب[٢] بن عبد المطلب في رَكْبٍ إلى الشام تاجرًا، فلمّا تهيّأ للرحيل وأجمع المسير، صَبَّ[٣] به رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون، فرقّ له وقال: والله لأخرجنّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا. فخرج به.

فلما نزل الرّكب بُصْرَى[٤] مرّوا ببَحِيرَى[٥] - وكانوا كثيرًا ما يمرّون به قبل ذلك فلا يكلِّمُهم، ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام، فلمّا نزلوا به قريبًا من صَومعته صنع[٦] لهم طعامًا كثيرًا، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشر قريش، وأُحِبُّ أن تحضروا كلُّكم صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرُّكم. قال له رجل منهم: والله يا بَحيرى إنَّ لكَ لَشأنًا اليوم! ما كنتَ تصنع هذا بنا وقد كُنّا نمرُّ بك كثيرًا! فما شأنُك اليوم؟ قال له بَحيرى: صدقت، قد كان ما تقولُ؛ ولكنكم ضَيْف[٧]، وقد أحببتُ أنْ أُكرِمكم وأصنعَ لكم طعامًا، فتأكلوا منه كلُّكم.

---

(١) ابن هشام: ١ - ١١٨.

(٢) كان أبو طالب هو الذي ولي أمر رسول الله ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب.

(٣) الصبابة: رقة الشوق، يقال: صببت (بكسر الباء) أصب، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك تسع سنين فيما ذكر بعض مَن ألف في السير، وقال الطبري: كانت سنة اثنتي عشرة سنة.

(٤) بصرى: من أرض الشام.

(٥) كان بحيرى يقيم في صومعة له هناك وكان إليه علم أهل النصرانية.

(٦) زعموا أنه رأى رسول الله وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها.

(٧) الضيف: يطلق على الواحد والجمع.

فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله من بين القوم لحداثة سنّه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بَحيرى في القوم، ولم ير الصفةَ التي يعرفُ ويَجِدُها عنده قال: يا مَعْشَرَ قُريش، لا يتخلفَنّ أحدٌ منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرَى، ما تخلّفَ عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلامًا، وهو أحدثُ القوم سنًّا. فقال: لا تفعلوا، ادْعُوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللّاتِ والعُزّى إن كان لَلؤم بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه، وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بَحِيرى، جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده ـ وقد كان يجدها عنده من صِفَتِه ـ حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم، وتفرّقوا؛ قام إليه بَحيرى فقال: يا غلام؛ أسألُك بحقّ اللّاتِ والعُزّى إلّا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ وإنما قال له بَحِيرى ذلك لأنه سمع قومَه يحلفون بهما.

قال الراوي: زعموا أن رسولَ الله ﷺ قال: لا تسألني باللات والعُزّى شيئًا، فوالله ما أبغضتُ شيئًا قطّ بغضَهما! فقال له بَحيرى: فبالله إلّا ما أخبرتَني عمّا أسألك عنه! فقال له: سلْني عمّا بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسولُ الله يُخْبِرُه؛ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتمَ النبوّة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عَمّه أبي طالب، وقال له: ما هذا الغلامُ منك؟ قال: ابني. قال له بَحِيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا! قال: فإنه ابنُ أخي. قال: فما فَعَلَ أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبْلَى به. قال: صدقت! فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يَهود، فوالله لئن رأَوْه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنّه شرًّا، فإنّ لابْنِ أخيك هذا شأنًا عظيمًا، فأَسْرِع به إلى بلدك. فخرج به أبو طالب سريعًا حتى أقدمَه مكة حين فرغ من تجارته بالشام!

فِي بعثَةِ رَسُول الله[1]

قال العباس بن عبد المطلب:

خرجتُ في تجارة إلى اليمن، في ركْبٍ منهم أبو سفيان بن حَرب، فقدِمتُ اليمنَ، كنتُ أصنعُ يومًا طعامًا وأنصرفُ بأبي سفيان وبالنَّفَر، ويصنع أبو سفيان

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣٤٩، والبداية والنهاية لابن كثير: ٢ ـ ٣١٨.

يومًا، فيفعل مثلَ ذلك. فقال لي في يوم الذي كنتُ أصنعُ فيه: هل لك يا أبا الفضل أن تنصرفَ إلى بيتي وتُرسلَ إلى غَدائك؟ فقلت: نعم، فانصرفتُ أنا والنفرُ إلى بيته وأرسلْتُ إلى الغداء.

فلما تغدَّى القوم قاموا واحتبسني فقال لي: هل علمتَ يا أبا الفضل أن ابنَ أخيك يزعمُ أنه رسولُ الله؟ قلت: وأيُّ بَنِي أخي؟ قال أبو سفيان: إياي تكتم! وأيُّ بني أخيك ينبغي أن يقولَ هذا إلا رجلٌ واحد! قلت: وأيُّهم هو على ذلك؟ قال: محمد بن عبد الله. قلت: ما فعل! قال: بلى قد فعل! ثم أخرج إليّ كتابًا من ابنه حَنْظلة بن أبي سفيان فيه: «إن محمدًا قام بالأبْطح[1] غُدْوَةً فقال: أنا رسولُ اللهِ أدعوكم إلى الله».

قلتُ: يا أبا حَنْظَلة، لعلَّه صادق! قال: مهلًا يا أبا الفضل؛ فوالله ما أُحبُّ أن تقولَ مثلَ هذا، وإني لأَخْشَى أن تَكون على بَصَرٍ من هذا الأمر. ثم قال: يا بني عبد المطلب، إنه والله ما برِحتْ قريشٌ تزعُمُ أن لكم يُمْنَةً وشؤمةً، كلّ واحدة منهما عامّةٌ، فنشدتُك الله يا أبا الفضل هل سمِعْتَ ذلك؟ قلت: نعم. قال: فهذه والله إذَنْ شُؤمتكم. قلت: فلعلّعها يُمْنَتُنا!

فما كان بعد ذلك إلا ليال حتى قدِم عَبْدُ الله بن حُذَافة السَّهميّ بالخبر وهو مُؤمِنٌ، فَفشَا ذلك في مجالس أهلِ اليمن يتحدّث به فيها، وكان أبو سفيان يجلسُ إلى حَبْرٍ من أَحْبَار اليمن، فقال له اليهودي: ما هذا الخبر الذي بلغني؟ قال: هو ما سمعت، قال: أيْنَ فيكم عَمُّ هذا الرجل الذي قال ما قال؟ قال أبو سفيان: صَدَقوا، وأنا عمّه. قال اليهوديّ؛ أأخو أبيه؟ قال: نعم. قال: حَدِّثني عنه. قال: لا تسألني، فما كنتُ أحسب أن يَدَّعي هذا الأمر أبدًا، وما أحِبُّ أن أعيبَه وغيرُه خيرٌ منه. قال اليهوديّ: فليس به أذًى؛ ولا بأس على يهودَ وتوراةِ موسى منه.

قال العباس: فتأدَّى إليَّ الخبرُ فحَمِيتُ وخرجتُ حتى أجلسَ إلى ذلك المجلس من غَدٍ، وفيه أبو سفيان والحَبْر. فقلت للحَبْر: بلَغني أنك سألتَ ابنَ عمِّي هذا عن رجلٍ منّا يزعم أنه رسولُ الله فأخبركَ أنه عمُّه؛ وليس بعمّه، ولكنه ابن عمّه وأنا عمّه أخو أبيه. فقال: أأخو أبيه؟ قلتُ: أخو أبيه.

---

(١) أبطح مكة: مسيل واديها.

فأقبل على أبي سفيان فقال: أَصَدَق؟ قال: نعم صدَق. قال: فقلت: سَلْنِي عنه، فإن كذبتُ فليردد عليَّ. فأقبل عليَّ فقال: أنشدُكَ الله، هل فشَتْ لابن أخيك صَبْوَةٌ أو سَفْهَةٌ؟ قلت: لا وإلٰه عبد المطّلب، ولا كذب ولا خَانَ، وكان اسمهُ عند قريش الأمين. قال: فهل كتب بيده؟ قال عبّاس: فظننتُ أنه خيرٌ له أن يكتبَ بيده، فأردتُ أن أقولَها، ثم ذكرتُ مكانَ أبي سفيان، وأنه مُكَذِّبي ورادٌّ عليّ، فقلت: لا يكتب. فذهب الحَبْر وتَرَك رِداءَه وجعل يصيح: ذُبحتْ يهود! قُتِلَتْ يهود!

قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان: يا أبا الفضل، إن اليهوديّ لَفَزِعٌ من ابن أخيك. قلت: قد رأيت ما رأيتَ! فهل لك يا أبا سفيان أن تُؤمِن به، فإن كان حقًّا كنتَ قد سبَقْت، وإن كان باطلًا فمعك غيرُك من أكْفائك؟ قال: لا والله ما أومِن به حتى أرى الخَيْلَ تطلعُ مِنْ كَدَاء[1]! فقلت: ما تقول؟ قال: كلمةٌ والله جاءت على فمي ما ألقيتُ لهَا بالًا، إلا أني أَعْلَمُ أنَّ الله لا يتركُ خيلًا تطلُع من كَدَاء.

قال العباس: فلما فتح رسولُ الله ﷺ مكةَ ونظرنا إلى الخيل قد طَلَعت مِنْ كَدَاء، قلتُ: يا أبا سفيان، أتذكُر الكلمة؟ قال لي: والله إني لذاكرُها! فالحمْدُ لله الذي هداني للإسلام!

تطيّر المنصُور[2]

قال الربيع[3]: نام المنصورُ[4] ليلةً ـ وكان في قصره في بغداد ـ فانْتَبَهَ مرعوبًا، ثم عاوده النومُ فانتبه كذلك فَزِعًا مرعوبًا، ثم راجع النوم فانتبه كذلك، ثم قال: يا ربيع! فقلت: لَبَّيك يا أمير المؤمنين! قال: لقد رأيت في منامي عجبًا، قلت: ما رأيتَ، جعلني الله فداك! قال: رأيتُ كأنَّ آتيًا أتاني، فهَيْنَمَ[5] بشيء لم

---

(١) كداء: جبل بمكة. (٢) محاضرات الأبرار: ١٤٢.

(٣) هو الربيع بن يونس، كان يخدم المنصور، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره وكان جليلًا نبيلًا عارفًا بخدمة الخلفاء، مات سنة ١٧٠ هـ.

(٤) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا. توفي سنة ١٥٨ هـ.

(٥) الهينمة: الصوت الخفي.

أفهمه؛ فانتبهتُ فَزِعًا، ثم عاوذتُ النوم فعاودني يقولُ ذلك الشيء، ثم عاودني يقولُه حتى فهمتُه وحفظته وهو:

كأن بهذا القصرِ قد باد أهلُه   وعُرِّي منه أهلُه ومنازِلُهْ
وصار رئيسُ القوم من بعد بهْجَةٍ   إلى جَدَثٍ تُبْنَى عليه جنادِلهْ

وما أحسبني يا ربيعُ إلا حانَتْ وفَاتي، وحضر أَجَلِي، ومالي غيرُ ربّي! قُمْ فاجعل لي غُسْلًا[1]. ففعلت فاغتسل وصلّى ركعتين، وقال: أنا عازم على الحج، فهيء لي آلة الحج، فخرج وخرَجْنا، حتى إذا انتهى إلى الكُوفَةِ، ونزل النَّجَف[2] أقام أيامًا، ثم أمر بالرحِيل، فتقدمتْ جنودُه، وبقيتُ أنا وهُوَ القصر، فقال لي: يا ربيع؛ جئني بِفَحْمَةٍ من المطبخ، وقال لي: اخرج فكن مع دابتي إلى أن أخرج، فلما خرج وركب رجعتُ إلى المكان كأني أطلب شيئًا، وجدته قد كتب على الحائط بالفحمة:

المرءُ يهوى أن يعيـ   ـش وطولُ عيش قد يَضُرُّه
تَفْنَى بشاشتُه ويبْـ   ـقى بعد حُلْوِ العيش مرُّه
وتخونُه الأيامُ حتى   ما يَرى شيئًا يسرُّه
كَم شامتٍ بي إن هلكـ   ـتُ وقائل: للهِ دَرُّه!

المنصور تُنْعِي إليهِ نَفسه[3]

قال الفضلُ بن الربيع: كنتُ مع المنصور في السفر الذي مات فيه، فنزل منزلًا من المنازل، فبعث إليّ وهو في قُبَّةٍ، ووجهُه إلى الحائط، فقال لي: ألم أنْهَكَ أن تدَعَ العامة يدخلون هذه المنازل، فيكتبوا مالًا خيرَ فيه؟

قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أما ترى على الحائط مكتوبًا:

أبا جعفرٍ حانت وفاتُك، وانقضتْ   سِنُوك وأمرُ الله لا بدَّ نازلُ
أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أو مُنَجِّمٌ   يردُّ قضاءَ اللهِ أم أنتَ جاهلُ!

(١) الغسل: بالضم والكسر الماء الذي يغتسل به.

(٢) النجف: التل. أو النجفة التي يظهر الكوفة، وهي تمنع السيل أن يعلو منازل الكوفة وقبورها. والنجفة أيضًا: موضع بين البصرة والبحرين.

(٣) المسعودي: ٢ ـ ٣٤٥.

فقلت: والله ما أرى على الحائط شيئًا! وإنه لنقيٌّ أبيض! قال: إنها والله إذَنْ نفسي نُعِيَت إليّ، الرّحيلَ! بادرْ بي إلى حَرَمِ ربي وأمْنه، لأهربَ من ذنوبي، وإسْرَافِي على نفسي، فرحلنا وقد ثقل، حتى إذا بلغنا بئر مَيْمُون تُوفي بها!

رُؤيَـا الرَّشيد[١]

قال جبريل بن بَخْتَيْشُوع:

كنتُ مع الرشيد[٢] بالرَّقة[٣]، وكنتُ أولَ مَنْ يدخلُ عليه في كلّ غَدَاة، فأتعرَّف حاله في ليلته، فإن كان أنكر شيئًا وصفَه، ثم يَنْبَسِط فيحدثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه، ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها؛ فدخلتُ عليه في غَداة يوم، فسلّمتُ فلم يكَدْ يرفَعُ طَرْفه، ورأيته عابسًا مفكرًا مهمومًا؛ فوقفتُ بين يديه مَلِيًّا، وهو على تلك الحال.

فلمّا طال ذلك أقدمتُ عليه فقلت: يا سيّدي؛ جعلني الله فِدَاكَ! ما حالُك هكذا! أعلّة! أخبِرْني عنها فلعله يكونُ عندي داؤُها؛ أو حادثة في بعض مَن تحبّ فذلك ما لا يُدْفع ولا حيلة فيه إلا بالتسليم، والغمُّ لا دَرْكَ فيه؛ أو فَتْقٌ وَرَدَ عليك في مُلْكِك، فلم تَخْلُ الملوك من ذلك، وأنا أَوْلَى مَنْ أفضَيْتَ إليه بالخبر، وتَرَوَّحْتَ إليه بالمشورة.

فقال: وَيْحَك يا جبريل! ليس غَمّي وكرْبي لشيء مما ذكرتَ، ولكن لرؤيا رأيتُها في ليلتي هذه، وقد أفزعَتْني، وملأتْ صَدْري، قلت: فَرَّجتَ عنِّي يا أمير المؤمنين! فدنوتُ منه فقبّلت رِجْلَه، وقلت: أهذا الغمُّ كله! الرُّؤيَا إنما تكون من خاطرٍ أو غيره؟ وإنما هي أضغاثُ أحلام!

بعد هذا كله قال: فأقصُّها عليك: رأيتُ كأني جالس على سريري هذا إذ بدَتْ من تحتي ذِرَاعٌ أعرِفها، وكفٌّ أعرِفها، وأفهمُ اسمَ صاحبها، وفي الكف تُربةٌ

(١) الطبري: ١٠ ـ ١١٠.

(٢) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي، كان دينًا محافظًا، كثير الجهاد، توفي سنة ١٩٣ هـ. وجبريل هو طبيب هارون الرشيد وجليسه توفي سنة ٢١٣ هـ.

(٣) الرقة: مدينة مشهورة على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب، ويقال لها: الرقة البيضاء، وبقربها كانت واقعة صفين المشهورة.

حمراء، فقال لي قائلٌ أسمعه ولا أرى شَخْصه: هذه التربةُ التي تُدْفَنُ فيها؛ فقلْتُ: وأين هذه التربة؟ قال: بِطُوس[١]. وغابت اليَدُ وانقطع الكلام وانتبهتُ.

فقلت: يا سيّدي؛ هذه والله رؤيا بعيدةٌ ملتبسة، وأحسبُك أخذتَ مضجعك، ففكّرت في خُرَاسان وحروبها، وما قد وَرَدَ عليك من انتقاض بعضها. قال: قد كان ذلك.

قلت: فلذلك الفِكْرُ خالَطَك في منامك ما خالَطَك؛ فولّد هذه الرؤيا، فلا تحفلْ بها ـ جعلني الله فداك ـ واتْبعْ هذا الغمّ سرورًا يخرجُه من قلبك.

وما برحتُ أطيّبُ نَفْسَه بضروبٍ من الحيل حتى سَلَا وانبسط، وأمر بإعْداد ما يشتهيه ويزيدُ في ذلك اليوم من لهوه.

ومرّت الأيامُ فنسيَ ونسينا تلك الرؤيا فما خطرتْ لأحدٍ منا ببالٍ، ثم قدّر مسيرُه إلى خُراسان حين خرج رَافِع[٢]، فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلّة، فلم تزل تتزايدُ، حتى دخلنا طُوس؛ فبينما هو يُمَرَّضُ في بستان إذ ذكر تلك الرؤيا؛ فوثب متحاملًا يقوم ويسقط، فاجتمعنا إليه، كلٌّ يقول: يا سيدي ما حالك؟ وما دَهَاك؟

فقال: يا جبريل! تذكرُ رؤياي بالرّقة؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني بشيء من تربة هذا البستان؛ فمضى مسرور فأتى بالترْبة في كفّه حاسرًا عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه والله الكفّ بعينها، وهذه والله التربة الحمراء، ما خرمتُ شيئًا، وأقبل على البُكاء والنحيب، ثم مات بها ـ والله ـ بعد ثلاثة، ودفن في ذلك البستان!

تطيّـر الأمين[٣]

قال إبراهيم بن المهدي: خرج الأمينُ[٤] ذات ليلة يريد أن يتفرَّجَ من الضيق

---

(١) طوس: مدينة بخراسان، وبها مات الرشيد.

(٢) هو رافع بن الليث، خرج إليه الرشيد سنة ١٩٢ هـ حينما استفحل أمره فيما وراء النهر.

(٣) الطبري ١٠ ـ ١٩٥، المحاسن والمساوىء: ٣٦١ ـ طبع ليبرج، المسعودي: ٢ ـ ٣٠١.

(٤) الأمين: هو محمد بن هارون الرشيد، اتخذ الفضل بن الربيع وزيرًا، فأغرى الفضل بينه وبين المأمون فنصب محمد ابنه موسى لولاية العهد بعده، وأخذ له البيعة، وجعله في حجر علي بن عيسى، وأمر عليًا بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون سنة ١٩٥ هـ ووجه المأمون طاهر بن=

الذي هو فيه، فصار إلى قَصْرٍ له، ثم أرسل إليّ، فحضرت عنده، فقال: ترى طيبَ هذه الليلة، وحسنَ القمر في السماء، وضوءَه في الماء على شاطىء دِجْلة! فهل لك في الشراب؟ فقلت: شأنك! فشرب رطلًا، وسقاني آخر، ثم غنّيتهُ ما كنتُ أعلم أنه يحبُّه؛ فقال لي: ما تقولُ فيمن يضربُ عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك!

فدعا بجارية متقدّمة عنده اسمها «ضَعْف»، فتطيّرْتُ من اسمها ونحن على تلك الحال[1]، فقال لها: غني؛ فغنّت بشعر الجَعْدِي:

كُليبٌ لَعمرِي كان أكثر ناصرًا ... وأيْسَرَ جُرْمًا منك ضُرِّج بالدَّم

فاشتدّ ذلك عليه، وتطيَّر منه، وقال: غَنِّي غَيرَ ذلك، فغنّت:

أَبكي فِراقَهُمُ عيني فَأَرَّقها ... إنّ التفرُّقَ للأحباب بَكَّاءُ

ما زال يَعدو عليهم ريبُ دهرِهم ... حتى تَفانَوْا ـ وريبُ الدَّهرِ عدَّاءُ

فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء غيرَ هذا؟ فقالت: ما تغنَّيتُ إلا ما ظننتُ أنك تُحِبُّه! ثم غنَّت:

أما وربِّ السُّكُونِ والحرَكِ ... إن المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ

ما اختلفَ الليلُ والنهارُ، وما ... دارَتْ نجومُ السماءِ في الفَلكِ

إلا لنَقْلِ النعيم مِنْ مَلِكٍ ... قد زال سلطانُه إلى مَلِكِ

ومـلْكُ ذِي العرشِ دائمٌ أبدًا ... ليس بِفانٍ ولا بمشترَكِ

فقال لها: قُومي، غَضِبَ الله عليك ولعنك!

وكان له قَدَحٌ من بلَّوْرٍ حسَنُ الصَّنعة، وكان موضوعًا بين يديه، فَعثرت الجارية به فكسرتهُ، فقال: ويحك يا إبراهيم! أما ترى ما جاءت به هذه الجارية؟ ثم ما كان من كَسْرِ القَدَح! والله ما أظن أمري إلا قد قَرُب. فقلت: يُدِيمُ الله مُلكك، ويُعِزّ سلطانك، ويَكْبِتُ عدوك! فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتًا: «قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تَسْتَفْتِيَان». فقال: يا إبراهيم، أما سمعتَ؟ قلتُ: ما سمعتُ

= الحسين، فالتقيا بالري فاقتتلا، ولم يزل القتال بينهما حتى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ.

(١) كان الأمين قد حاصره طاهر بن الحسين من قبل المأمون.

شيئًا، وكنتُ قد سمعْتُ؛ قال: تسمع حسًّا! فدنوت من الشط فلم أرَ شيئًا، ثم عاوَدْنا الحديث، فعاد الصوتُ بمثله.

فقام مُغْتَمًّا إلى مجلسه بالمدينة. فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قُتِل!

ذنب لَا يَطمع صَاحبه فِي غُفرَانِه(١)

قال يوسف الكوفي ـ وكان قد رَوَى الأشعارَ والأحاديث:

حججتُ ذاتَ سنةٍ، فإذا أنا برجلٍ عند البيت، وهو يقول: اللهم اغفرْ لي وما أراك تَفْعَلُ! فقلت: يا هذا؛ ما أعجَبَ يأْسَك مِنْ عَفْو الله! قال: إن لي ذنبًا عظيمًا! فقلت: أخبرني.

قال: كنتُ مع يحيىٰ بن محمد بالمَوْصِل، فأمَرَنا يومَ جمعة؛ فاعترضْنا المسجد؛ فقتلنا ثلاثين ألفًا؛ ثم نادى مناديه: من عَلق سَوْطه على دار فالدارُ وما فيها له، فعلقت سوطي على دار ودخلتُها، فإذا فيها رجلٌ وامرأة وابنان لهما، فقدَّمْتُ الرجلَ فقتلتُه، ثم قلتُ للمرأة: هاتي ما عندك! وإلا ألحقتُ ابنيكِ به؛ فجاءتني بسبعة دنانير: فقلتُ: هاتي ما عندك؟ فقالت: ما عندي غيرها، فقدّمتُ أحد ابنيها فقتلتُه. ثم قلت: هاتي ما عندك وإلا ألحقْتُ الآخر به، فلما رأت الجدّ مني قالت: ارْفُق! فإنَّ عندي شيئًا كان أوْدعنيه أبوهما، فجاءتني بِدِرْع مُذهبة لم أر مثلها في حُسْنها؛ فجعلتُ أقلّبها فإذا عليها مكتوب بالذهب:

إذا جـارَ الأمـيـرُ وحـاجِـبَـاه ... وقاضي الأرض أسرفَ في القضاء
فـويـلٌ ثـم ويـلٌ ثـم ويـلٌ ... لقاضِي الأرْضِ من قاضي السماء

فسقط السيفُ من يدي وارتعدتُ، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى.

طيرَة ابن الرُّومِي(٢)

قال عليُّ بن إبراهيم: كنتُ بِدَارِي جالسًا؛ فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب مني، فبادرْتُ هاربًا؛ وأمرتُ الغلامَ بالصعود إلى السَّطْح، والنظرِ إلى كلّ ناحية، من أين تأتينا الحجارة؟ فرجع إليَّ وقال لي: امرأة من دار ابن

(١) أمال الزجاجي: ٣٥.
(٢) زهر الآداب: ٢ ـ ١٧٧، ذيل زهر الآداب: ٢٢٣، معجم الأدباء: ١٣ ـ ٢٩٦.

الرومي[١] الشاعر! قد تشوفَتْ[٢]، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقُونا جرَّةً من ماء! وإلا هلكنا، فقد مات مَنْ عندنا عطَشًا!

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عقل ومعرفة: أن تصعدَ إليها وتخاطبَها، ففعلتْ وبادرت بالجرَّة، وأتبعَتْها شيئًا من الطعام، ثم عادتْ إليَّ فقالت: ذكرتِ المرأةُ أن البابَ عليها مُقْفَلٌ منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابنِ الرومي؛ وذلك أنه يلبس ثيابَه كلَّ يوم ويتعوَّذُ؛ ثم يصير إلى الباب، والمِفتاح معه؛ فيضعُ عينَه على ثَقْبٍ في خشبِ الباب، فتقعُ على جارٍ له كان نازلًا بإزائه؛ وكان أحدَب يقعدُ كل يوم على بابه؛ فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابَه، وقال: لا يفتح أحدٌ الباب!

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادمٍ لي كان يعرِفُه، فأمرتُه أن يجلسَ بإزائه ـ وكانت العينُ تميل إليه ـ وتقدّمتُ إلى بعض أعواني أن يدعوَ الجارَ الأحدب. فلما حضر عندي أرسلتُ وراءَ غلامي، لينهضَ إلى ابن الرومي، ويستدعيه. فإني لجالسٌ، ومعي الأحدب؛ إذ وافى أبو حُذَيفة الطَّرَسُوسِي؛ ومعه بِرْذَعَة المَوَسْوس، صاحبُ المعتضد؛ ودخل ابنُ الرومي؛ فلما تخطّى عتبةَ باب الصَّحْن عَثَر؛ فانقطع شِسْعُ[٣] نَعْله، فدخل مذعورًا! وكان إذا فاجأَهُ الناظرُ رأى منه منظرًا يدل على تغيّر حاله.

فدخل، وهو لا يرى جاره المتطيّر منه؛ فقلت له: يا أبا الحسن، أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال: قد لحقني ما رأيتَ من العَثْرَة، لأني فكرتُ أنَّ به عاهةً! وهي قَطْع أُنْثَيَيْه[٤]! قال بِرْذَعَة: وشيخُنا يتطيّر؟ قلت: نعم ويُفْرِط! قال: ومَنْ هو؟ قلت: علي بن العباس[٥]. قال: الشاعر؟ قلت: نعم! فأقبل عليه وأنشده:

ولما رأيتُ الدهرَ يُؤْذِنُ صَرْفُه ... بتَفْرِيقِ ما بيني وبين الحبَائبِ[٦]

---

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي، ولد ببغداد وعاش فيها متأثرًا بالأدب اليوناني وبالثقافة العربية كذلك، فكان شعره صورة طريفة في الأدب العربي من حيث الابتكار والتنسيق المنطقي والاستقصاء في أسلوب جزل متين، ومات سنة ٢٨٣ هـ.

(٢) تشوفت: نظرت وتطاولت.

(٣) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.

(٤) يعني أنه مجبوب.

(٥) هو اسم ابن الرومي.

(٦) الحبائب: مفرده حبيبة.

رجعتُ إلى نفسي فوطَّنْتُها على ... ركوبِ جميلِ الصبرِ عند النَّوَائِبِ!
ومَنْ صحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها ... فأيّامُه محفوفةٌ بالمصائبِ
فَخُذْ خُلْسةً مِنْ كلِّ يوم تَعِيشُه ... وكُنْ حَذِرًا من كامِنَاتِ العَوَاقِبِ
وَدَعْ عنكَ ذِكْرَ الفأل والزَّجْر واطَّرِح ... تَطَيُّرَ جارٍ أو تفاؤلَ صاحبِ!

فبَقِيَ ابنُ الرومي باهتًا ينظر إليه! ولم أدرِ أنه قد شَغَلَ قلبه يحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبِرْذَعَة معه.

فحلف ابنُ الرومي لا يتطيَّرُ أبدًا مِنْ هذا ولا مِنْ غيره، وعجب من جودة الشعر ومعناه؛ وحُسْن مَأتاه، فقلت له: لَيْتَنا كَتَبْنَاه! قال: اكْتُبْهُ فقد حفِظتُه وأَمْلاهُ عليّ!

تطيُّر الرشيد بن المعتَمد[1]

قال ابنُ اللّبانة[2]: كنتُ بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أُنْسه، فورد الخبر بأَخْذِ يوسف بن تاشفين غَرْنَاطة، فتفجَّع وتلهَّف، واسترجع[3] وتأسّف، وذكر قصر غَرْنَاطة، فدعَوْنا لقصره بالدوام، ولملكِه بتراخي الأيام، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء؛ فغنّى:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ[4] وطال عليها سَالِفُ الأمَدِ

فاستحالَتْ[5] مَسَرّته، وتجهَّمت أسِرَّتُه، وأمر بالغناء من ستارته فَغُنِّي:

إنْ شئتَ ألّا ترى صَبْرًا لمصطَبر ... فانظر على أي حالٍ أصْبحَ الطَّلَلُ

فتأكّد تطيُّره؛ واشتدَّ ازْبِدادُ وجهه وتغيُّره، وأمر مغنيةً أخرى بالغناء، فغنّت:

يا لَهف نفسي على مالٍ أُفرِّقُه ... على المُقلّين[6] من أهلِ المروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلَى مَن جَاءَ يسألُني ... ما لستُ أملِك، من إحدى المُصيباتِ

---

(١) نفح الطيب: ٢ ـ ٣٩٢.
(٢) هو أبو بكر الداني، ويعرف بابن اللبانة، وقد قال عنه في المطمح ص ٢٥٦: المديد الباع، لفريد الانطباع الذي ملك للمحاسن مقادًا، وغدا له البديع منقادًا...
(٣) استرجع عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) أقوت: خلت. (٥) استحالت: تغيرت.
(٦) أقل: افتقر.

فتلافيتُ الحال بأَنْ قلت:

مـحـل مَـكـرمَـة لا هُـدَّ مَـبْـنـاه
وشَـمْـل مَـأثـرةٍ لا شَـتَّـتَ اللهُ

الـبـيـت كـالـبـيـت لـكـن زاد ذَا شـرفًـا
أنّ الـرشـيـدَ مـع الـمـعـتـدّ رُكـنـاهُ

ثـاوٍ عـلى أَنْـجُـم الـجَـوْزَاءِ مـقـعـدهُ
ورَاحِـلٌ فـي سـبـيـل الـسَّـعْـدِ مَـسْـرَاهُ

حـتـم عـلى الـمَـلْكِ أن يَـقْـوَى وقـد وصـلت
بـالـشـرق والـغَـرْبِ يُـمْـنَـاه ويُـسْـرَاه

فلعمري لقد بَسَطتْ من نفسه، وأعادَتْ عليه بَعْضَ أُنْسِه. على أني وقعتُ فيما وقعوا فيه لقولي: «البيت كالبيت».

وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء، فغنّى:

ولما قَضَيْنَا مِنْ منًى كلَّ حاجةٍ ... ولم يَبْقَ إلا أن تُزَمَّ[1] الرَّكائب

فأيقنّا أن هذا التطيّر يعقبُه التغيّر!

رُؤيَـــا[2]

قال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حُجَّاجًا، فإذا أنا برَجُلٍ من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب؛ وقد رفضَ الدنيا، وأقبل على الآخرة، فجمعتني وإياه الطريقُ، فأنِسْتُ به؛ وقلتُ له: هل لك أن تعادِلَني[3]؛ فإنَّ معي فضلًا من راحِلتي! فحزاني خيرًا، ثم أنِسَ إليّ؛ فجعل يحدِّثني؛ فقال:

أنا رجلٌ من وَلَدِ العباس، كنت أسكنُ البَصْرَةَ، وكنت ذا كِبْرٍ شديد؛ ونعمةٍ طائلة، ومالٍ كثير، وبَذَخٍ زائد. فأمرت يومًا خادمًا لي أن يحشوَ لي فِرَاشًا من حرير ومخدّة بوزْدٍ نَثِير! ففَعل.

---

(١) زم البعير: خطمه.
(٢) مجاني الأدب؛ ٤ ـ ٢٠.
(٣) عادله في المحمل: ركب معه.

فإني لنائم إذا بقِمَع وَرْدَةٍ قد نَسِيَه الخادم، فقمتُ إليه، فأوجعته ضربًا؛ ثم عُدْتُ إلى مَضْجَعي بعد إخراج القِمَع من المُخَدَّة؛ فأتاني آتٍ في منامي في صورةٍ فظيعةٍ، فهزَّني؛ وقال: أَفِقْ من غَشْيَتِك، وانتبه من رَقْدتك، ثم أنشأ يقول:

يا خِلُّ، إنّك إن تَوَسَّدْ لَيِّنًا وُسِّدْتَ بعدَ اليَوْمِ صُمّ الجَنْدَلِ
فامْهَدْ لِنَفسِكَ صالحًا تَسْعَدْ به فَلَتَنْدَمَنَّ غدًا إذا لم تَفْعَلِ

فانْتَبَهتُ مرعوبًا، وخرجتُ من ساعتي هاربًا إلى ربي!

فراسَة أبنَاء نزَار[١]

لما حضرتْ نِزَارًا الوفاةُ جَمعَ بَنِيه: مُضَرَ وإيادًا وربيعة وأنمارًا، وقال لهم: يا بَنِيّ؛ هذه القبّةُ الحمراء ـ وكانت من أدَم[٢] ـ لمضر، وهذا الفرسُ الأدهم[٣] والخباءُ[٤] الأسود لربيعة، وهذه الخادم ـ وكانت شَمطاء[٥] ـ لإياد، وهذه النَّدوة[٦] والمجلس لأنمار يجلس فيه؛ فإن أشكل عليكم كيف تَقْتَسِمُون فَأتوا الأفْعَى الجُرْهمي، ومنزلُه بنَجْران[٧]. فلما ماتَ تشاجرُوا في ميراثه، فتوجَّهوا إلى الأفعى الجرهمي.

فبينما هم في مسِيرهم إليه، إذ رأى مُضَرُ أَثَرَ كَلأً قد رُعِي؛ فقال: إن البعير الذي رَعَى هذا لأعْوَر! قال ربيعة: إنه لأزْوَر[٨]! قال إياد: إنه لأبْتر[٩]! قال أنمار: إنه لَشَرُود[١٠]!

ثم ساروا قليلًا فإذا هم برجل يُنْشِدُ[١١] جملَه، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهوَ أعْوَر؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزْور؟ قال: نعم، قال إياد: أهو أبْتَر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شَرُود؟ قال: نعم! وهذه والله صِفَةُ بعيري

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ١٥، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٦٤، المسعودي: ١ ـ ٣٠٢.
(٢) الأدم: الجلد. (٣) الأدهم: الأسود.
(٤) الخباء: يكون من وبر أو صوف أو شعر. (٥) شمطاء: برأسها شيب يخالط السواد.
(٦) الندوة: مجلس القوم نهارًا.
(٧) نجران: مدينة شهيرة باليمن، جرت فيها حوادث قصة «أصحاب الأخدود».
(٨) الأزور: مَن يمشي على شق. (٩) الأبتر: مقطوع الذنب.
(١٠) الشرود: النافر. (١١) أنشد الضالة: طلبها.

فدُلُّوني عليه. قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب! وتعلق بهم، وقال: كيف أصدّقكم وأنتم تَصِفُون بعيري بصفَتِه! فساروا حتى قدموا نَجْرَان.

فلما نزلوا نادى صاحبُ البعير: هؤلاء أخذُوا جَمَلِي، ووصفوا لي صِفتَه، ثم قالوا: لم نَره.

فاختصموا إلى الأفعى الجرهمي ـ وهو حَكَم العرب ـ فقال الأفعى: كيف وصفتُموه ولم ترَوْه؛ قال مُضَر: رأيته رَعَى جانبًا وترك جانبًا؛ فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيتُ إحدى يديه ثابتةَ الأثَر والأخرى فاسدتَه؛ فعلمت أنه أزور؛ لأنه أفسده بشدة وَطْئه لازْوِرَاره. وقال إياد: عرفتُ أنه أبْتَر باجتماع بَعْرِه، ولو كان ذَيَّالًا[١] لَمَصَعَ به[٢]. وقال أنمار: عرفتُ أنه شَرُود، لأنه كان يَرْعَى في المكان الملتفِّ نبتُه، ثم يَجوزُه إلى مكانٍ أرقّ منه وأخبثَ نبتًا؛ فعلمتُ أنه شَرُود. فقال للرجل: ليسوا بأصحابِ بعيرك فاطلبه!

ثم سألهم: مَن أنتم؟ فأخبروه، فرحّب بهم، ثم أخبروه بما جاء بهم، فقال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى! ثم أنزلهم، فذبح لهم شاة، وأتاهم بخمْر، وجلس لهم الأفعى، حيث لا يُرى وهو يَسْمَعُ كلامهم. فقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحمًا أطيبَ منه، لولا أن شَاتَهُ غُذِيتْ بلبن كَلْبة، فقال مضر: لم أر كاليوم خمرًا أطيبَ منه لولا أن حُبْلَتَها[٣] نبتَتْ على قَبْر، فقال إياد: لم أر كاليوم رجلًا أسرى[٤] منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدْعَى له، فقال أنمار: لم أرَ كاليوم كلامًا أنفع في حاجتنا من كلامنا؛ وكان كلامُهم بأُذُنِه، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين!

ثم دعا القَهْرَمان[٥] فقال: ما هذه الخمر؟ وما أمرُها؟ قال: من حُبْلَةٍ غرسْتها على قَبْرِ أبيك لم يكن عندنا شَرَابٌ أطيبُ من شرابها، وقال للراعي: ما أَمْرُ هذه الشاة؟ قال: هي شاةٌ صغيرة أرضعتها بِلَبنِ كَلْبة، وذلك أن أُمَّها كانت قد ماتت ولم يكن في الغنم شاةٌ وُلِدت غيرها.

---

(١) ذيالًا: له ذيل طويل.

(٢) مصع به: يقال مصعت الدابة بذنبها؛ أي حركته.

(٣) الحبلة: الكرم أو أصل من أصوله. (٤) السرو: المروءة في شرف.

(٥) القهرمان: القائم بأمور الرجل.

ثم أتى أمَّه فسألها عن أبيه فأخبرتُه أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يُولَدُ له، قالت: فخِفْتُ أن يموتَ ولا وَلَدَ له فيذهبَ المُلْكُ!

فخرج الأفعى عليهم، فقصَّ القومُ عليه قصتَهم، وأخبروه بما أوصى به أبوهم، فقال: ما أشْبَهَ القُبّةَ الحمراء من مال فهو لمضر، فذهب بالدنانير والإبل الحُمْر، فسمى مُضر الحمراء لذلك. وقال: أما صاحبُ الفرَس الأدْهم والخِباء الأسود فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيلُ الدهْم، فقيل: ربيعة الفرس. وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الحَبَلَّق[١] والنَّقَد[٢]، فسمى إياد الشمطاء، وقَضَى لأنمار بالدراهم وبما فَضَل، فسُمّي أنمار الفضل، وصَدَرُوا[٣] من عنده على ذلك!

ارعَيْ واحْذَرِي[٤]

خرج أعرابيٌّ مكفوفُ البصر، ومعه ابنةُ عَمٍّ له لرَعْيِ غنم لهما، فقال الشيخ: أجدُ ريحَ النسيم قد دنا، فارفعي رأسَك فانظرِي، قالت: أراها كأنها رَبْرَب[٥] معزى هَزْلى، قال: ارعَيْ واحْذَرِي.

ثم قال لها بعد ساعة: إني أجدُ ريح النسيم قد دنا، فارفعي رأسك فانظري. قالت: أراها كأنها بغَالٌ دُهْم، تجرُّ جِلَالها؛ قال: ارعَيْ واحْذَرِي.

ثم مكث ساعة، ثم قال: إني لأجدُ ريح النسيم قد دنا فانظري. قالت: أراها كأنه بطنُ حمارٍ أصْحَر[٦]. فقال: ارعَيْ واحْذرِي. ثم مكث ساعة، فقال: إني لأجدُ رِيح النسيم فما تَرَيْن؟ قالت: أراها كما قال الشاعر[٧]:

دانٍ مُسِفٌّ[٨] فُوَيْقَ الأرض هَيْدَبُهُ[٩] ... يَكادُ يَدْفَعُه مَنْ قَام بالرَّاحِ
كأنما بين أعلاه وأسْفَلِهِ ... رَيْطٌ[١٠] مُنَشرةٌ أو ضَوْءُ مصباحِ

---

(١) الحبلق: غنم صغار لا تكبر، أو قصار المعز ودمامها.
(٢) النقد: جنس من الغم قبيح الشكل.
(٣) صدروا: رجعوا.
(٤) الأغاني: ١١ ـ ٧١.
(٥) الربرب: القطيع.
(٦) الصحرة: حمرة في غبرة.
(٧) هو عبيد بن الأبرص.
(٨) المسف: الذي قد أسف على الأرض، أي دنا منها.
(٩) الهيدب: السحاب يقرب من الأرض كأنه متدل.
(١٠) الريط: جمع ريطة وهي كل ملاءة غير ذات لفقين، كلها نسج واحد.

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ[١] كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ[٢] والمستَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ[٣]

فقال: انْجِي، لا أبالك! فما انقضى كلامُه حتى هطلت السماء عليهما!

حَديث قُس بن سَاعدَة مَع مَلك الرّوم[٤]

قال إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: حضرتُ مجلسَ المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين؛ ألَا أُحَدِّثُك عن الفضلِ بن يحيىٰ؟ قال: بلى! فقلت: دخلتُ دار الرشيد، وإذا الفضلُ بن يحيىٰ وإسماعيل بن صبيح، وعبدُ الملك بن صالح في بعض تلك الأَرْوِقَة يتحدّثون؛ فلما بَصُرَ بي الفضلُ أوْمأ إليّ، وقال: يا إسحٰق؛ انتظرْنَاك منذ الغَدَاة؛ لتساعدَ على ما نحنُ فيه من المُذاكرة! فقلت: يا سيدي؛ أنا السُّكَيْتُ[٥] إذا أُجْرِيت الجِيَاد، وفاز السابق والمُصَلِّي! فقال عبد الملك: مدحتَ نفسك، ولما تكذّب.

ولما فرغ عبدُ الملك من حديثه قال الفضل: إن لقُسٍّ[٦] حديثًا سمعتُه من الخليل بن أحمد؛ فهل عند واحدٍ منكم له ذِكْرٌ؟ فسكت القومُ، فقلتُ: يا سيدي؛ ما نعرفُ له حديثًا إلا حديثَ خُطبته بعُكاظ! قال: ذاك شيءٌ قد فَهِمَتْه العامَّةُ واختَبَرَتْه الخاصة. ثم أَطْرَقَ ساعة، فقلنا: إن رأيتَ أَنْ تحدِّثنا؟ فقال:

حدَّثني الخليل بن أحمد: أنَّ قيصر ملك الروم بعث إلى قُسّ بن ساعدة أسْقف نَجْرَان ـ وكان حكيمًا طبيبًا بليغًا في مَنْطِقه؛ فلما دخل عليه ومثَل بين يديه حمِد الله وأثنى عليه، فأمره بالجلوس، فجلس ورحَّبَ به؛ وأدْنَى مجلسه، وقال: ما زِلْتُ مشتاقًا إليك لِمَا سمعتُ من مُنَاظَرَتِكَ في الطب.

---

(١) النجوة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاؤك.
(٢) العقوة: ساحة الدار.
(٣) القرواح: أرض قرواح: واسعة. والقرواح أيضًا: البارز الذي لا يبرزه عن السماء شيء.
(٤) المحاسن والمساوىء: ٣٥١ ـ طبع ليبزج.
(٥) السكيت: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل.
(٦) هو قس بن ساعدة خطيب العرب قاطبة، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة، والموعظة الحسنة. كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى نبذ الأوثان، في المحافل العامة، ومواسم الأسواق وسمعه النبيّ قبل البعثة يخطب بعكاظ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه، وعمر طويلًا ومات قبيل البعثة.

فكان أول ما سأله عن الشراب، فقال: أيُّ الأشربة أفضل عاقبةً في البدن؟ قال: ما صَفَا في العَيْنِ، واشتدَّ على اللسان، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكَرْم. قال: فما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعًى ولا كالسَّعدان[١]! قال: فما تقول في نَبِيذ الزبيب؟ قال: مَيّت أُحْيِي، وفيه بعضُ المُتْعة وما كاد يَقْوى شيءٌ بعد الموت! قال: فما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نِعْم شرابُ الشيخ للمعدة الفاسدة. قال: فما تقول في أنبذة التمر؟ قال: أوساخ يطيبُ مذاقها في اللّهَوَات، وتسوءُ عاقبتُها في البدن، وتولّد الأرواح[٢] في البَطْنِ لرقَّتها.

قال: فمن أي شيء يكون الثمَل الذي يُذهب الغمّ ويطيّب النفس؟ قال: زعموا أنَّ العقلَ تُصَعِّده سَوْرَةُ الشراب إلى الدِّماغ؛ فإذا صعدت السَّوْرَة إلى الدماغ الذي هو أصله، احتجب البصرُ بغير عمى، والسمع بغير صَمَم، واللسانُ بغير خَرَس؛ فلا يزال العقلُ كذلك محتجبًا حتى تفكّه الطبيعة من إسَارِ السكر، إمّا بقوة فيعجل، وإما بضَعْفٍ فيبطىء.

قال: فمِنْ أيِّ شَيْءٍ الخُمَار[٣] من بَعْدِ صَحْوِ السكران؟ قال: من إعْيَاء الطبيعة عن مُجَاهَدة السَّورة في افتكاك العَقْلِ وتخلصه، حتى يردّها النومُ إلى هُدُوءٍ وما أشبهه. قال: الصِّرْف أفضلُ أم الممزوج؟ قال: الصِّرْفُ سلطانٌ جائر، والجائر مذموم، والممزوج سلطانٌ عادل، والعادل محمود.

قال: فصِفْ لي الأطعمةَ. قال: الأطعمةُ كثيرة مختلفة. وجملةُ ما آمرُك به الإمساكُ عن غاية الإكثار، فإن ذلك من أفضل ما بَلَوْنَاه من الأدوية، ورأسُ ما نأمرُ به من الحِمْيَةِ. قال له: عَمَّنْ حملتَ الحكمة؟ قال: عن عِدةٍ من الفلاسفة. قال: فما أفضلُ الحكمة؟ قال: معرفةُ المرء بقَدْرِه. قال: فما تقولُ في الحلم؟ قال: حلمُ الإنسان ماءُ وجهه. قال: فما تقول في المال وفضله؟ قال: أفضلُ المال ما أُعطي منه الحق. قال: فما أفضلُ العطيّة؟ قال: أن تُعْطِيَ قبل السؤال.

---

(١) السعدان: نبت ذو شوك، وهو من أنجع المرعى، وهذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله.

(٢) الأرواح: جمع ريح.

(٣) الخمار: بقية السكر.

قال: فأخبرني عما بَلَوْتَ[١] من الزمان وتصرّفه، ورأيتَ من أخلاقِ أهْلِه. قال: بَلَوْنا الزمانَ فوجدناهُ صاحبًا يخونُ صاحبَه، ولا يعتِبَ مَن عاتبه، ووجدنا الناسَ صورةً من صُوَر الحيوان، يتفاضلون بالعقول، ووجَدْنَا الأحسابَ ليست بالآباء والأمهات، ولكنّها في أخلاقٍ محمودة، وفي ذلك أقول:

لـقـد حَـلَبْـتُ الـزمـانَ أشْـطُـرَهُ	ثم مَخَضْتُ[٢] الصريحَ[٣] مِنْ حَلَب
فـلم أرَ الـفَـضْـلَ والـمَـعَـالِيَ فـي	قَـوْلِ الـفَـتـى: إنّـنـي مِـن الـعَـرَبِ
حـتـى نَـرَى سـامـيًـا إلـى خُـلُق	يَـذُودُ مـحـمُـودُهُ عـن الـنَّـسَـبِ
مـا يـنـفـعُ الـمـرءَ فـي فُـكـاهَـتِـهِ	مـن عَـقْـلِ جَدٌ مـضـى وعَـقْـلِ أبِ
مـا الـمـرءُ إلا ابْـنُ نَـفْـسِـه فَـبِـهَـا	يُـعْـرَفُ عـنـد الـتـحـصـيـل لـلـنُّـوَبِ

ووجدنا أبلغَ العظاتِ النظرَ إلى محلِّ الأموات، وأحمَد البلاغة الصمتَ، ووجدنا لأهل الحَزْم حذارًا شديدًا، وبذلك نجَوا من المكروه، والكرمُ حسنُ الاصطبار، والعزُّ سُرعَةُ الانتصار، والتجربةُ طولُ الاعتبار.

قال: خبرني هل نظرتَ في النجوم؟ قال: ما نظرتُ فيها إلا فيما أردتُ به الهِدَاية، ولم أنظر فيما أردتُ به الكَهانة، وقد قلت في النجوم:

علم النجوم على العقول وَبَالُ	وطِلَابُ[٤] شيءٍ لا يُنالُ ضَلَالُ
ماذا طِلابُك علمَ شيءٍ أُغْلِقَتْ	مـن دُونـه الأفـلاكُ لـيس يُـنـالُ
هيهاتَ ما أحدٌ بغامض قَدْرِه	يـدري كـم الأرزاقُ والآجـالُ
إلا الـذي فـوق الـسـمـاء مكـانـه	فـلـوَجْـهِـهِ الإكـرامُ والإجـلالُ

قال: فهل نظرتَ في زَجْر[٥] الطير؟ قال: نحن معاشرَ العرب مولَعون بزَجْرِ الطير. قال: فما أعجبُ ما رأيتَه منه؟ قال: شَخَصتُ أنا وصاحبٌ لي من العرب إلى بعض الملوك، فألفيناهُ يريد غَزو قوم كانوا على دين النصرانية، فخرج حتى إذا كان على فراسخَ من مدينته أمر بضرب فَساطيطه وأزْوِقَتِه لتتَوافى إليه جنودُه، وضُرب له فُسطاط على شاطىء نهر، وأمر بخباءٍ فضُرِب لي ولصاحبي، فبينا نحن

---

(١) بلوت: خبرت.
(٢) مخض اللبن: أخذ زبده.
(٣) الصريح: الخالص.
(٤) طلاب: طلب.
(٥) الزجر: ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان.

كذلك إذ أقبل طائران: أسود وأبيض، وأنا وصاحبي نرمُقُهما، حتى إذا كانا على رأسه رَفْرَفا، ثم غابا، ثم رجعا أيضًا، حتى إذا كانا قريبًا منه طوَيَاه، ثم أقبلا نحونا فوقعا ثم رَتَعا[١]. فقال صاحبي: ما رأيتُ كاليوم طائرين أعجبَ منهما، فأيهما أنتَ مختار؟ فقلت: الأسود. قال: الأبيض أعجبهما إليّ، فما تأوّلتَهما؟ قلت: الليل والنهار يطويان هذا الرجلَ في سفره فيموت، وتأوّلت اختيارك الأبيض أنك تنصرف بيد بيضاء مُخْفِقَةٍ[٢] من المال. فإذا هو قد غضب.

فلما جَنَّ الليل بعثَ إلينا الملك لنَسْمُر عنده، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر، فسألني فأخبرته وصدقْتُه. فغَضِب، وقال: هذه حميّةٌ منك لأهلِ دينك! فقلت: أما أنا فقد صدقْتُك. فأمر بحَبسي ومضى لوجهه. فلم يتجاوزْ إلا قليلًا حتى مات! فأوْصَى لي بعشرين ناقة، وقال: قاتل الله قُسًّا! لقد مَحَضني النصيحة. فانصرفتُ من سفَري ذلك بعدَّةٍ من الإبل، وانصرف مُخْفِقًا من المال.

قال الملك: وما رأيتَ أيضًا من الزجر أعجب؟ قلت: ما رأيتُ مرةً عند الملك الهُمَام أبي قَابُوس، وقد خرج عليه خارجٌ من مُضَر يريد مُلْكه، وقد حشد له، فبعث إلى بعض عمّاله في توجيه أربعمائة فارس، ووجّهني مع الرسول، وأمرنا بالشدّ على أيديهم في جَمْع الخيلِ والرجال ـ وكان الرسولُ شاعرًا، فبينا نحن نسير إذ سنحت لنا ظباء فيها تَيس[٣] يقدُمُها، وكان أبو قابوس يواعد للقائه في يوم كذا وكذا، فنحن نقول: إن كان الملكُ خرج في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا، وقد أقبلنا، ونحن نقود جيشًا عَرمْرَمًا، فأنشأ الرسول يقول:

ألا لَيْتَ شعْرِي ما تقولُ السَوانحُ ... أغادٍ أبو قَابُوس أمْ هُو رائحُ؟

فنظرت إلى التَّيس عند فراغه من هذا البيت، فوجدته قد دخل في مَكنِسِه[٤] حتى توارى فيه، فدخلني من ذلك ما لم أقدر على أنْ أُمْسك نفسي؟ حتى استرجعت، فقال لي رفيقي: مالك؟ قلت: إن صَدَق الزجر فصاحبُك قد ثَوَى في التراب، والتحفَتْ عليه أطباقُ الثَّرى! قال: كيف ذلك؟ قلت: وافَقَ فراغُك من البيت دخولَ التيس في مَكْنِسه، فأعْرَض عني.

---

(١) الرتع: الأكل والشرب رغدًا في الريف. (٢) محفقة: خالية.
(٣) التيس: الذكر من الظباء والمعز والوعول.
(٤) المكنس ـ بكسر النون: مولج الوحش من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر.

فلما أصبحتُ في اليوم الذي واعدَنا للقائه لم يُوَافِ، ولم يكن بأَوْشَكَ من أن أتانا الخبرُ بهلاكه وقُعود ابنه.

فأكرمه قَيْصَر وأحسنَ جائزته.

قلنا: أيَّد الله الوزير! لقد بلغْتَ ما بلغْتَ باستحقاق، ولقد حُزْتَ قصبة الرهان في كل مَنْقَبة، فتبسَّم وقال: عِزُّ الشريف أدبُه، وإذا رسولُ الرشيد قد وافاه فنهض نحوه، وتصدَّع المجلس وانصرفنا.

فلما مضى من الليل بعضُه إذا أنا بطارق قد طرقني، وبين يديه غلمان على أعناقهم البِدَرُ[1]، وإذا رسولُ الفَضْل وقد حمل إليّ مائة ألف درهم، وقال: الوزيرُ يقرأ عليك السلام. ويقول: ضجرتَ باستماع الأحاديث، وأوجبْتَ عليّ بذلك مِنّة، وهذا عطاء وَتِحٌ[2] في جنب قَدْرِك عندي، فخذه ولا تعتدَّ به.

فقلت: سبحان الله الذي خلق هذا الرجل! وَجَبَلَه على كرم بذَّ به من مَضَى ومَنْ غَبَر. وإذا هو قد وجَّه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وجَّه به إليَّ، فغدوتُ إليه وأردتُ أن أشكره، فقال: والله لئن ذهبتَ تكشفُ ما سَتَر الله لأَجْفُوَنّك! فكأنما ألقمني حجرًا. واحتبسني عنده، فطعِمْت وشربت، ورُحْت وقد حملني على عِدَّة أفراس بِسُروج ولُجُم مُذْهَبَة، ووجَّه معي بعشرة تخوت[3] ثياب وعشر بِدَرٍ.

فقال المأمون: وَيْحك يا إسحٰق! ثوابُ حديثك ضعفُ ما أمر لك به الفضل، وقد أَمَرتُ لك بمائة ألف درهم.

فقبضْتُ ذلك وانصرفت.

فِي مَوتِ رَسُول الله ﷺ[4]

قال أبو ذُؤَيب الهذَلي[5]: بلغَنَا أن رسولَ الله ﷺ عليل؛ فأوجس أهلُ الحيِّ

---

(١) البدر: جمع بدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.

(٢) وتح: قليل.

(٣) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٤) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٣١٥، نهاية الأرب: ٣ ـ ١٤٢، معاهد التنصيص: ١ ـ ١٩٣.

(٥) أبو ذؤيب الهذلي: شاعر مقدم من شعراء هذيل، كان في جند عبد الله بن سعد حينما فتح إفريقية وعاد إلى مصر ومات بها.

خِيفةً عليه، فبتُّ بليلةٍ ثابتةِ النجوم، طويلةِ الأناة، لا ينجابُ دَيْجورها[١] ولا يَطْلُع نورُها، حتى إذا قَرُب السَّحر غَفوْتُ، فهتَف لي هاتفٌ يقول:

خَـطْـبٌ أجَـلٌ أنـاخَ بـالإسـلامِ بيـن النـخيـل ومَـعْـقـد الآطـامِ[٢]
قُـبِضَ النـبـيُّ محـمـد فعيـونُـنـا تُذْرِي الدموعَ عليه بالتَّسْجَامِ[٣]

فوثَبْتُ من يومي فَزِعًا؛ فنظرتُ إلى السماء فلم أر إلا سَعْد الذابح[٤]؛ فتفاءلتُ به ذَبْحًا يقع في العرب، وعلمتُ أن النبيّ ﷺ قد مات، أو هو ميِّت من علّته.

فركبتُ ناقتي وسِرْتُ حتى أصبحتُ، فطلبتُ شيئًا أزْجره، فعنَّ لي شَيْهَمٌ[٥] قد أرَمَ[٦] على صِلّ[٧]، وهو يتلوَّى، والشَّيْهم يَقْضَمهُ حتى أكله، فزجرتُ ذلك شيئًا مُهِمًّا؛ فقلت: تَلوِّي الصّلّ انفتالُ[٨] الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم أوَّلتُ أكْلَ الشَّيْهم إياه: غَلَبة القائم على الأمر.

فحثَثْتُ ناقتي حتى إذا كنْتُ بالعِلْيَةِ[٩] زجرتُ الطير فأخبرني بوفاته. ونعب غرابٌ سانِحًا[١٠] بمثل ذلك، فتعوَّذت من شرّ ما عَنَّ لي في طريقي، ثم قدمتُ المدينة، ولأهلها ضَجِيجٌ كضجيج الْحَجيج، أهلّوا جميعًا بالإحرام، فقلت: مَهْ! قالوا: قُبِض رسول الله ﷺ، فجئتُ المسجد فأصَبتُه خاليًا، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأصبتُ بابه مُرتجًا[١١]، وقد خَلَا به أهلهُ، فقلت: أينَ الناس؟ فقيل: في سقيفة بني ساعِدة، وصارُوا إلى الأنصار.

---

(١) الديجور: الظلام.
(٢) الأطم: القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح، جمعه آطام.
(٣) سجم الدمع: قطر وسال قليلًا أو كثيرًا.
(٤) منزل من منازل القمر.
(٥) الشيهم: ذكر القنافذ.
(٦) أرم عليه: عض.
(٧) الصل: الحية.
(٨) انفتل عن الشيء: انصرف.
(٩) علية القوم: جلتهم.
(١٠) نعب الغراب: صاح. والسانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك. والعرب تختلف في العيافة، فمنهم مَن يتيامن بالسانح: ويتشاءم بالبارح، ومنهم مَن يخالف ذلك.
(١١) أرتج الباب: أغلقه.

فجئتُ السقيفةَ، فوجدتُ أبا بكر وعمَر رضي الله عنهما، وأبا عُبَيْدَة وسالمًا، وجماعة من قريش، ورأيتُ الأنصارَ فيهم سَعْدُ بن عبادة ومعهم شعراؤهم، وأمامهم حسانُ بن ثابت، في مَلأ منهم، فأويت إلى الأنصار، فتكلموا فأكثروا، وتكلّم أبو بكر، فلِلّه من رجل لا يُطيل الكلام، ويعلم مواضِعَ الفَصْل.

والله لقد تكلّم بكلام لم يسمعْه سامعٌ إلا انْقادَ له ومال إليه. وتكلم بعده عمرُ رضي الله عنه بكلام دونَ كلامه، ومدَّ يَدَه فبايَعَه، ورجع أبو بكر رضي الله عنه، ورجعت معه؛ فشهدْتُ الصلاةَ على رسول الله ﷺ، وشهدْتُ دفْنَه!

عِيَافَة لهِب[1]

تعشق كُثَيِّر[2] امرأةَ من خُزاعة يقال لها أمّ الحُوَيْرِث؛ فشبّب بها فكرِهَتْ أن يُسَمِّع بها ويفْضَحها كما سَمَّع بِعَزَّة، فقالت له: إنك رجل فقير لا مالَ لك فابْتَغِ مالًا، ثم تعالَ فاخطبْني كما يخطبُ الكِرامُ، قال: فاحلفي وَوَثّقي أنك لا تتزوَّجين حتى أَقْدَمَ عليك، فحلفَتْ ووثّقتْ له. فمدح عبدَ الرحمٰن بن إبريق الأزْديّ وخرج إليه، فلقي ظباءً سوانح[3]، ولقي غُرابًا يفحصُ التراب بوجهه، فتطيّر من ذلك، حتى قدم على حيّ من لِهْب[4]، فقال: أيُّكم يَزْجُر[5]؟ قالوا: كلّنا! فمن تريد؟ قال: أعْلَمكم بذلك! قالوا: ذلك الشيخ المنْحني الصُّلْب، فأتاه فقصّ عليه القصّة فكرِه ذلك له، وقال: قد ماتت أو تزوجتْ رجلًا من بني عمّها؛ فقال كُثَيِّر:

تيمَّمْت لِهْبًا أَبْتَغِي العلم عندهم ... وقد رُدَّ علمُ العائفينَ إلى لِهْبِ
فيمَّمتُ شيخًا منهمُ ذَا بَجالَةٍ[6] ... بصيرًا بزَجْرِ الطير مُنْحَنِيَ الصُّلْبِ!
فقلتُ له: ماذا ترى في سَوانحٍ ... وصوتِ غرابٍ يفحص الوَجْه بالتُّربِ

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ١٤٠، الأغاني: ٩ ـ ٣٤.

(٢) كثير بن عبد الرحمٰن: من الشعراء الغزليين، ولكنه كان دعيًا في الحب غير مرغوب فيه لقبح صورته وهوان شخصيته فوق نفاقه السياسي، وتردده بين الشيعة وبني أمية. فأخذ يشهر بعزة بنت حميد الضمري حتى عرف بها، وكانت وفاته سنة ١٠٥ هـ.

(٣) السانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك.

(٤) لهب: قبيلة من اليمن معروفة بالعيافة وزجر الطير.

(٥) الزجر: ضرب من التكهن، وهو اليمن والتشاؤم بالطير وغيرها.

(٦) يبجله الناس: يعظمونه.

فقال: جرى الطيرُ السَّنِيحُ بِبَينِهَا ونادَى غُرَابٌ بالفراقِ وبالسَّلْبِ
فإلَّا تَكنْ ماتت فقد حَالَ دونها سِوَاكَ خليلٌ باطنٌ من بني كَعْبِ

ثم مدح الرجلَ الأزديّ فأصاب منه خيرًا، ثم قدِمَ عليها، فوجدها قد تزوَّجتْ رجلًا من بني عمِّها، فأخذه الهُلَاس[١]، فَكُشِحَ[٢] جَنْبَاه بالنار، فلما انْدَمَل[٣] من عِلّته، وضع يدَه على ظهره؛ فإذا هو برَقْمتين[٤]؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: أخذكَ الهُلَاس، وزعم الأطباء أنه لا عِلَاجَ لك إلا بالكَشْحِ بالنار، فكُشِحْتَ بها، فأنشأ يقول:

عفا اللهُ عن أمِّ الحُوَيْرثِ ذَنْبَها عَلَامَ تُعَنِّيني وتكْمِي[٥] دَوَائيا؟
ولو آذَنُوني قبل أن يرقُموا بها لقلتُ لهم: أُمُّ الحُوَيْرث دَائيا

أبو النَّشْنَاش وَلِهْب[٦]

كان أبو النَّشْنَاش من لُصوص بني تميم، وكان يعترضُ القوافلَ في شُذَّاذٍ[٧] من العرب بين طريق الحجاز والشام، فَيَجْتاحُها، فظَفِر به بعضُ عمال مروان بن الحكم، فحبسه وقيّده مدة، ثم استطاع أن يهرُب في وقت غِرَّة، فهرب، ومرَّ بغُرَاب على بَانَة[٨]، يَنْتِفُ ريشه وينعَب، فجزِع من ذلك، ثم مرَّ بحيٍّ من لِهْب، فقال لهم: رجل كان في بلاءٍ وشر، وحَبْس وضيق، فنجا من ذلك، ثم نظر عن يمينه فلم يرَ شيئًا، ونظر عن يساره فرأى غرابًا على شجرة بَانٍ، ينتف ريشه، وينعَب! فقال له اللِّهبي: إن صدَقتِ الطيرُ يُعادُ إلى حَبْسه وقَيْده، ويطول ذلك به، ويُقْتَل ويُصلب، فقال له: بِفِيكَ الحَجَر! قال: لا، بل بفيك! وأنشأ يقول:

وسائلةٍ أين الرحيلُ وسائلٍ ومَنْ يسأل الصُّعلوك أينَ مَذَاهِبه؟

---

(١) الهلاس: الضمور، أو مرض السل.
(٢) كشح: كوى.
(٣) اندمل: برىء.
(٤) المرقوم من الدواب: الذي يكون على أوظفته كيات صغار، وكل واحدة منها رقمة، والمراد أنه وجد أثر كيتين.
(٥) كمى الشيء: ستره وكتمه.
(٦) الأغاني: ١١ ـ ٤٢، ديوان الحماسة: ١ ـ ٣١.
(٧) الشذاذ: الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم.
(٨) البان: شجر لحب ثمره دهن طيب.

مـذاهـبـه أن الـفِـجـاج عـريـضـة إذا ضَـنَّ عـنـه بـالـنَّـوَالِ أقـاربـه
إذا المرءُ لم يَسْرَح[١] سَوَامًا ولم يُرِحْ سَوامًا ولـم يَبْسُط له الوجهَ صاحبُه
فلَلْمَوْتُ خيرٌ للفتى من قعوده عديمًا ومِن مَوْلًى تُعَافُ مشاربُه
ودَوِّيَّة[٢] قَفْرٍ يحارُ بها القطا[٣] سَرَتْ بأبي النَّشْنَاشِ فيها ركائبُه
لِيُدْرِكَ ثأرًا أو ليكسب مَغْنَمًا ألا إن هذا الدهرَ تَتْرَى عجائبُه
فلم أرَ مثلَ الفقر ضاجَعَهُ الفتى ولا كَسَواد الليل أخفقَ طالبُه
فعِش مُعْدِمًا[٤] أو مُتْ كريمًا فإنني أرى الموتَ لا يُبقى على مَنْ يُطَالِبُه

غرَاب يُبَشّر بموتِ الحجّاج[٥]

قال مُحدّث: كنتُ في حَبْس الحجاج؛ فحُبِس معنَا رجل، فأقام حِينًا لا نسمعهُ يتكلمُ بكلمة، حتى كان اليوم الذي مات الحجاجُ في الليلة التي تليه، فأقبل غراب في عشيَّةِ ذلك اليوم، فوقع على حائط السجن فنعق[٦]، فقال الرجل: ومَنْ يقدرُ على ما تقدرُ عليه يا غراب؟ ثم نعق الثانية فقال: مثلُك مَنْ بشَّر بخير يا غراب! ثم نعق الثالثة فقال: منْ فِيك إلى السماء يا غراب!

فقلت له: ما سمعناك تكلّمتَ مذ حُبِست إلى الساعة، فما دعاك إلى ما قلت؟ قال: إنه نعق فقال: إني وقعْتُ على سِرّ الحجاج، فقلت: ومَن يقدرُ على ما تقدر عليه؟ ثم نعق الثانية، فقال: إن الحجاج أصابه وَجَع، فقلت: مثلُك مَنْ بشّر بخير! ثم قال في الثالثة: الليلة يموت! فقلت: مَنْ فِيك إلى السماء.

ثم قال الرجل: إن انْسَلخ[٧] الصبحُ قبل أن أخرجَ فليس عليَّ بأس، وإن دُعيتُ قبل الصبح فستُضْرَبُ عنقي، ثم تلبثون ثلاثًا لا يدخلُ عليكم أحد، ثم يُدْعَى بكم في اليوم الرابع، فيهتف على رؤوسكم بالكفالة، فمن وَجَدَ له كفيلًا خلّى سبيله، ومَن لم يَجِدْ له كفيلًا فويلٌ له طويلًا.

---

(١) يقال سرح الماشية سرحًا: أخرجها بالغداة إلى المرعى، والسوام والسائمة: الإبل أرسلت لترعى، وأراح الماشية: ردها من العشي إلى مراحها ليلًا.
(٢) الدوية: منسوبة إلى الدو وهو الفلاة البعيدة الأطراف.
(٣) يضرب المثل بالقطا في الهداية فيقال: أدل من قطاة.
(٤) المعدم: الذي افتقر.
(٥) الفرج بعد الشدة: ١ ـ ١١٤.
(٦) نعق الغراب: تعب وصاح.
(٧) انسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجًا لا يبقى معه شيء من ضوئه.

فلما دخل الليل سمعنا الصراخَ على الحجاج، ثم أُخْرِج الرجل قبل الصبح، فضُربَ عنقه، ثم لم يدخل علينا أحد ثلاثًا، ثم دُعِي بنا وطلب منا الكفالة، ثم صار الأمر إليّ، فمكثتُ طويلًا حتى خِفت أن أُرَدَّ إلى الحبس، ثم تقدم رجل فضمِنني، فقلت له: يا عبدَ الله؛ مَن أنْتَ حتى أشكرك؟ فقال لي: اذهَبْ، ولستُ بمسؤولٍ عنكَ أبدًا، فانطلقت.

صَـدقَ الزاجر[1][2]

كان المنصورُ ألزمَ خالدَ بْنَ برمك ثلاثَةَ آلاف درهم، ونذَرَ دَمَه فيها، وأجّلَه ثلاثة أيام، فقال خالدٌ ليحيىٰ ابنه: إني قد طُولبتُ بما ليسَ عندي، وإنما يُرَادُ بذلك دمي، فانصرفْ إلى أهلك فما كنتَ فاعلًا بعد موتي فافعله، ثم قال: يا بُنيّ؛ ولا يمنعنَّك ذلك من أن تَلْقَى إخوانَنا، فتُعلِمهم حالنا.

قال يحيىٰ: فأتيتُ إخوانَ والدي، فمنهم مَن جَبَهَني[3] بالرد، ثم بعث إليّ بمالٍ جليلٍ، ومنهم مَن لم يأذنْ لي، وبعَثَ بمالٍ في أَثَرِي لكيلا يُخْبر به المنصور.

فدخلتُ على عُمَارة[4] بن حَمْزَة، وهو متّجِهٌ بوجهه إلى الحائط، فسلّمتُ فردَّ ردًّا ضعيفًا، فضاقت بي الأرضُ، ثم كلمتُه فيما كنتُ أتيتُه فيه، فقال: إن أمكننا شيء فسيأتيك. فانصرفتُ عنه، وصِرْتُ إلى أبي، فأعلمتُه ذلك، وقلتُ: أراكَ تَثِقُ من عُمَارة بما لا يُوثَقُ به.

فوالله إني لفي ذلك الحديث، إذ طلع رسولُ عُمَارة بمائة ألف درهم، ورسولُ صاحب المصلى بمائة ألف درهم، ورسول مبارك التركي بمائتي ألف درهم، فجمعنا في يومين ألفي ألف درهم، وبقِيَتْ ثلاثمائة ألف درهم، فتعذَّر ذلك، فوالله إني لمارّ بالجسر مهمومًا مغمومًا، إذ وَثَب إليَّ زاجرٌ، فقال: قف أخبرك، فلم ألتفت إليه، فلحقَني وتعلقَ بي، فقلت: وَيْحك! اذهبْ عني، فإني مشغولٌ عنك، فقال: أنت والله مهموم، والله ليُفرجنَّ همك، ولتمرنّ غدًا في هذا

---

(١) الزجر: العيافة والتكهن. (٢) المحاسن والمساوىء: ٣٤٩.

(٣) جبهه: رده عن حاجته واستقبله بما يكره.

(٤) عمارة بن حمزة: من الولاة الأجواد الشعراء جمع له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز والرمة والبحرين، وله في الكرم أخبار عجيبة، وتوفي نحو سنة ١٨٠ هـ.

الموضع واللواءُ بين يديك، فأقبلتُ أعجب من قوله، فقال لي: إن كان ذلك فلي عليك خمسةُ آلاف درهم! قلت: نعم! ولو قال خمسين ألف درهم لقلت: نعم؛ لِبُعْدِ ذلك عني!

ثم مضيتُ؛ فوالله ما انصرفتُ حتى وردَ على المنصور الخبرُ بانتقاض أَمْرِ الموصل، وانتشار الأكراد بها؛ فقال المنصور: ويحكم؟ مَنْ لها؟ - وكان المسيّبُ[1] بن زُهير عند المنصور. وكان صديقًا لخالد - فقال: عندي - والله - مَنْ يكفيكه، وأنا أعلمُ أنك ستلقاني بما أكره، ولكني لا أدَعُ على حالٍ نُصْحَك! فقال المنصور: ويحك! قل، فلستُ أردّ عليك. قال: يا أمير المؤمنين، ما ترميها بمثل خالد! فقال المنصور: ويحك! وتراه يصلُهُ لنا بعد ما آتيناه به؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنا زعيمه بذلك، والضامنُ عليه.

فتبسمَ المنصورُ، وقال: صدقتَ. والله ما لها غيرُه، فليحضر غدًا! فأُحْضِر، فصفح عما بقي عليه، وعقد له.

قال يحيىٰ: فمرَرْنَا واللهِ بالزاجر واللواءُ بين يديّ، فلما رآني قال: أنا هٰهنا أنتظرك منذ غُدوة.

فتبسمتُ إليه وقلتُ: امضِ، فمضى معي، ودفعتُ إليه خمسة آلاف الدرهم!

وُفودُ الفَارابِي عَلَى سَيْف الدَّولة[2]

نزل أبو نَصْر الفارابي[3] بدمَشْق، ودخل على سيف الدولة[4] بن حَمْدان، وهو إذ ذاك سلطانها، ووقف بين يديه؛ فقال له سيفُ الدولة: اجلس! قال: أَجْلِس حيث أنا أو حيث أَنْتَ؟ فقال: حيث أنت.

فتخطّى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مُسند[5] سيفِ الدولة، وزاحمه فيه، حتى أخرجه عنه.

---

(١) كان المسيب بن زهير على شرطة المنصور والمهدي العباسيين، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ.

(٢) ثمرات الأوراق للحموي: ٩٧.

(٣) نشأ الفارابي بالشام واشتغل فيها، وكان فيلسوفًا كاملًا، بارعًا في كل فن، وألّف كتبًا كثيرة في مواضع لم يسبقه إليها أحد، توفي سنة ٣٣٩ هـ.

(٤) سيف الدولة: هو علي بن عبد الله، صاحب المتنبي وممدوحه. وهو أول مَن ملك حلب من بني حمدان، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٥) كل شيء أسندت إليه شيئًا فهو مسند بالضم؛ وكذلك ما يسند إليه يسمى مسندًا بكسر الميم.

وكان على رأس سيف الدولة مماليكُ؛ وله معهم لسانٌ خاص يسارُّهم به؛ فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخَ قد أساء الأدب؛ وإني سائلُه عن أشياء، إن لم يعرفْها فاخرجُوا به!

فقال له أبو نَصْر بتلك اللغة: أيها الأمير؛ اصبر؛ فإن الأمورَ بعواقبها. فعجِبَ سيفُ الدولة منه، وعَظُم عنده.

ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن، فلم يزل كلامُه يعلو وكلامُهم يسفل، حتى صمَتُوا، وبقيَ يتكلم وحده.

ثم أخذوا يكتبون ما يقول؛ فصرفهم سيفُ الدولة، وخَلَا به، فقال له: هل لك في أن تأكلَ؟ قال: لا؛ قال: فهل لك أن تشرَب؟ قال: لا. فقال: هل تسمع؟ قال: نعم.

فأمر سيفُ الدولة بإحضار القِيَان، فحضر كلُّ ما هو في الصَّنْعة، فخطَّأ الجميع، فقال له سيفُ الدولة: هل تحسنُ هذه الصنعةَ؟ قال: نعم.

ثم أخرج من وَسطِه خريطة[١] ففتحها، فأخرج منها عيدانًا وركَّبها، ثم لعب بها؛ فضحك كلُّ مَن في المجلس؛ ثم فكّها وركبها تركيبًا آخر؛ فبكى كلُّ مَن في المجلس؛ ثم فكّها وغير تركيبها، فنام كلُّ مَن في المجلس، فتركهم نيامًا وخرج!

صَحِيفَة المتَلَمِّس[٢]

وفد المُتَلَمِّسُ[٣] هو وابن أخته طَرفة بن العبد[٤] على عمرو بن هِنْد[٥]، فنزلا منه في خاصَّته، وكانا يركبان معه للصيد، فيركضانِ طولَ

(١) الخريطة: مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشد على ما فيها بالعرا.
(٢) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٣٧٤، مجمع الأمثال: ١ ـ ٣٦٤.
(٣) المتلمس: لقب غلب عليه، واسمه جرير، وهو خال طرفة بن العبد، من شعراء الجاهلية المقلين وضعه، ابن سلام في الطبقة السابعة من شعراء الجاهلية.
(٤) طرفة: هو أبو عمرو، طرفة بن العبد البكري، أحد فحول شعراء الجاهلية. مات أبوه وهو صغير. وربّاه أعمامه، ومال إلى البطالة وقول الشعر، ومات ولم تزد سنّه على ست وعشرين سنة.
(٥) عمرو بن هند: آل إليه الملك بعد قتل أبيه، وقد ولي إمارة الحيرة من سنة ٥٦٣ ـ ٥٧٨ م.

النهار، فيتعبان، وكان يشربُ فيقِفان على بابه النهار كلّه لا يصلان إليه؛ فضجر طرفة فقال فيه:

فليتَ لنا مكانَ الملكِ عَمْرو رَغُوثًا[١] حَوْلَ قبّتنا تخور

وكان طَرفة عدوًّا لابن عمه عبد عمرو ـ وكان كريمًا على عمرو بن هند ـ فهجاه طَرَفة فقال:

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنًى وأن له كَشْحًا إذا قام أَهْضما[٢]
تظَلُّ نساء الحيّ يعكُفن حولَه يقُلْنَ عَسِيبٌ من سرَارة مَلْهَما[٣]

فهمَّ عمرو بقتل طرَفة، وخاف من هجاء المتلمس له؛ لأنهما كانا خليلين، فقال لهما: لعلّكما قد اشتقتُما لأهلِكما، وسرَّكما أن تنصرفا! فقالا: نعم! فكتب لهما بصحيفتين وخَتَمهما، وقال لهما: اذهبا إلى عاملي بالبحرين، فقد أمرتُه أن يَصِلكما بجوائز!

فذهبا فمرّا في طريقهما بشيخ لم يرُقْهما أمرُه؛ فقال المتلمّس: ما رأيت شيخًا كاليوم أحمقَ من هذا! فقال الشيخ: ما رأيتَ من حمقى؟ وإنّ أحمق منّي مَنْ يحمل حَتفَه بيده، وهو لا يدري!

فاسْتَراب[٤] المتلمّس بقوله، وطلع عليهما غلامٌ من أهل الحيرة، فقال المتلمّس: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم! ففضَّ الصحيفةَ، وقرأها فإذا فيها:

«إذا أتاك كتابي مع المتلمس فاقطعْ يديه ورجليه وادْفنه حيًّا»!

فقال لطرفه: ادفعْ إليه صحيفتك، فإنّ فيها مثلَ هذا! فقال: كلا! لم يكن ليجترىء عليّ فقذف المتلمسُ بصحيفته في نهر الحيرة، وقال:

وألْقيتُها بالثّني من جَنْب كافرٍ[٥] كذلك أَقنُو[٦] كلَّ قِطّ مُضلَّلِ
رضيت لها بالماء لما رأيتُها يجولُ بها التيَّار في كلّ جَدْوَلِ

---

(١) الرغوث: كل مرضعة. وتخور: تصيح. (٢) الكشح: الخصر، والأهضم: الدقيق.

(٣) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها، وسرارة الروضة: خير منابتها. وملهم: موضع كثير النخل، شبه كشحه الأهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان.

(٤) استراب: شك. (٥) كافر: نهر بالجزيرة.

(٦) أقنو: أجاري وأكافىء، والقط: الصك (لسان العرب ـ مادة قنا).

ثم مضى المتلمّس حتى لحق بملوك بني جَفْنة بالشام؛ وذهب طرَفة إلى عامل البَحْرين، فأعطاه صحيفته، ففصده من أكْحَلِه؛ فَنَزَفَ[١] حتى مات!

إن العَصَا قُرِعَت لِذي الحِلْم[٢]

لقي النعمانُ بن المنذر سعدَ بن مالك، ومعه خيل بعضُها يُقاد، وبعضها أَعْرَاء مُهملة، فلما انتهى إلى النعمان سأله عنها، فقال سعدٌ: إني لم أقُدْ هذه لأمْنعها، ولم أعَرِّ هذه لأضيِّعها[٣].

فسأله النعمان عن أرضه: هل أصابه غَيْثٌ يحمد أثره، ويروي شجره؟ فقال سعد: أمّا المطر فغزير، وأما الورق فشكير[٤]، وأما النافذة فساهرة[٥]، وأما الحازرة[٦] فشَبعى نائمة.

فقال النعمان ـ وحسده عَلَى ما رأى من ذَرَب لسانه: وأبيك إنك لمفوَّهٌ، فإن شئتَ أتيتُك بمَا تعيا عن جوابه. فقال: شئت، إن لم يكن منك إفراط.

فأمر النُّعمان وَصيفًا فلَطمه ـ وإنما أراد أن يتعدّى في القول فيقتله ـ فقال: ما جوابُ هذه؟ فقال سعد: سفيهٌ مأمور[٧]؛ قال النعمان للوصيف: الْطمه أخرى. فلطمه؛ وقال: ما جواب هذه! قال: لو نُهيَ عن الأولى لم يَعُدْ للأخرى.

فقال النعمان: الْطمه أخرى ففعل. فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ربٌّ يؤدبُ عبدَهُ. فقال: الْطِمه أخرى، ففعل. فقال: ما جواب هذه؟ فقال: ملكتَ فأسجِحْ[٨]؛ فقال النعمان: أصبتَ فاقعد؛ فمكث عنده ما مكث.

ثم بدا للنعمان أن يبعثَ رائدًا يرتادُ له الكلأ؛ فبعث عمرو بن مالك أخا سعد بن مالك، فأبطأ عليه فأغضبه ذلك. فأقسم لئن جاء حامدًا للكلأ أو ذامًّا ليقتلنَّه.

---

(١) نزف دمه: سال حتى أفرط. والأكحل: عرق في اليد يفصد.

(٢) الأمثال: ١ ـ ٣٣، بلوغ الأرب ١ ـ ٣٣.

(٣) لأهبها.

(٤) شكير: صغير لم يكبر.

(٥) النافذة: التي نفذت من الهزال.

(٦) الحازرة: حزرة المال: خياره.

(٧) سارت أمثالاً.

(٨) الإسجاح: حسن العفو.

فلما قدم عمرو دخل على النعمان؛ وعنده الناس وسَعْدٌ قاعدٌ لديه مع الناس، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه؛ فقال سعد: أتأذنُ لي فأُكلّمه؟ قال: إن كلّمتَه قطعتُ لسانك. قال: فأُشير إليه؟ قال: إن أشرتَ إليه قطعت يدك. قال: فأُومي إليه؟ قال: إذن أنزع حدقتيْك. قال: فاقرع له العصا؟ قال: اقرعْ.

فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه؛ وأخذ عصاه التي كانت معه وأخوه قائم؛ فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة، فنظر إليه أخوه، ثم أومأ بالعصا نحوه، فعرف أنه يقول له: مكانك، ثم قرع العصا قرعةً واحدة؛ ثم رفعها إلى السماء، ثم مسح عصاه بالأخرى؛ فعرف أنه يقول: قل له: لم أجد جدبًا. ثم قرع العصا مرارًا بطرف عصاه ثم رفعها شيئًا؛ فعرف أنه يقول: ولا نباتًا. ثم قرع العصا قرعة، وأقبل بها نحو النعمان، فعرف أنه يقول: كلّه.

فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدي النعمان. فقال له النعمان: هل حَمدْت خِصْبًا، أو ذممت جَدبًا؟ فقال عمرو: لم أذمم جدبًا، ولم أحمد بقْلًا، الأرض مُشكلة لا خصبها يُعرف، ولا حدبها يوصف، رائدها واقف، ومنكرها عارف؛ وآمنها خائف.

فقال النعمان: أولى لك! بذلك نجوتَ، فنجا!

فِطرَة[١]

اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: وعيشِك يا رسولَ الله ما سجدتُ لصنم قطّ، فغضب عمر بن الخطاب، وقال: تقولُ: وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط، وقد كنت في الجاهليّة كذا وكذا سنة؟ فقال أبو بكر: ذلك أني لما ناهزتُ الحلم أخذني أبو قحافة[٢] بيدي، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشمّ العوالي، فاسجدْ لها، وخلّاني وذهب.

فدنوتُ من الصنم، وقلتُ له: إني جائع فأطعمني، فلم يُجبني. فقلت: إني عطشان فاسقني، فلم يجبني. فقلتُ له: إني عارٍ فاكْسُني. فلم يجبني. فأخذتُ

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٤٢. (٢) أبوه.

صخرة، وقلت: إني مُلْقٍ هذه الصخرةَ عليك، فإن كنت إلـهًا فامْنع نفسك، فلم يجبني. فألقيت عليه الصخرةَ، فخرَّ لوجهه، فأقبلَ والدي، وقال: ما هذا يا بني؟ فقلتُ: هو الذي ترى!

فانطلق بي إلى أمّي؛ فأخبرها؛ فقالت: دَعْه فهذا الذي ناجاني به الله! فقلتُ: يا أمّاه، ما الذي ناجاك به الله؟ فقالت: ليلة جاءني المخاض لم يكن عندي أحد؛ فسمعتُ هاتفًا يهتف، فأسمع الصوت ولا أرى الشخص؛ وهو يقول: يا أمةَ الله، أبشري بالولد العتيق، اسمه في السماء صديق!

حَدِبٌ عَلى إخوَتِه[1]

لما ولد لسعيد بن العاص[2] عَمْرٌو، وترعرع[3]، تفرّس فيه النجابة، وكان يفضّله على ولده، فجمع بنيه - وكانوا يومئذ أكثر من خمسةَ عشرَ رجلًا - ولم يعدُ عمرًا معهم؛ وقال: يا بَنيّ، قد عرفتم خِبْرَة الوالد بولده، وإن أخاكم عمرًا لذو همة واعدة[4]، يسمو جَدّه؛ ويبعد صيته، وتشتدّ شكيمتُه، وإنّي آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه أن تُظَاهُروه وتوازِروه وتعزّزوه، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألَّف بكم الكرام، ويخْسأ[5] عنكم اللئام، ويلبسكم عِزًّا لا تنهجُه[6] الأيّام.

فقالوا جميعًا: إنك تُؤْثره علينا، وتحابيه دوننا. فقال: سأريكم ما ستَره البغي عنكم؛ وصرفهم ثم أمهلهم، حتى ظَنّ أن قد ذَهِلوا عمّا كان.

وراهق عمرو البلوغ، واستدعاهم دونه، فلما حضروا قال: يا بَنيَّ؛ ألم تروا إلى أخيكم عمرو، فإنه لا يزال يُلْحِفُ في مسألتي مالي، فأُحْسِن عليه لصغره، إلى أن ستثبت أن أمه باعثته على ذلك، فزجرتُها فلم تكُفّ، وقد جاء يسألني الصَّمْصَامة[7] كأن لا ولد لي غيره، وقد عزمتُ على أن أقَسِّم مالي فيكم دونه!

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٩٩.

(٢) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين، ولاه عثمان الكوفة وهو شاب، وكان قويًا فيه تجبر وشدة، توفي سنة ٥٩ هـ.

(٣) ترعرع: شب.

(٤) رجى خيرها، ويقال شجرة واعدة: إذا ظهر لرائيها أن قد حان إثمارها.

(٥) يخسأ: يبعد ويطرد. (٦) لا تخلقه.

(٧) الصمصامة: يريد سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي يضرب به المثل، وكان فيما يقال قد صار إلى سعد بن العاص.

فقالوا كلّهم: يا أبانا، هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إيّاه دوننا.

فقال: يا بنيّ؛ والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطّ، وما كان ما قلته لكم إلا اختلافًا، تساهلت فيه لمَا أمّلته من صلاح أمركم.

ثم قال: ادخلوا المخْدع. فدخلوا، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره، فلما حضر قال: يا بُنيّ؛ عليك حَدِب مُشْفِق لصغر سنك، ونفاسة إخوتك على مكانك إني مني، وإني لا آمنُ بغتةَ الأجل، ولي كنزٌ ادّخرْته لك دون إخوتك، وهأنذا مُطْلِعُك عليه؛ فاكتم أمره.

فقال: يا أبت؛ طال عمرك، وعلا أمرك، وإني لأرجو أن يطيلَ بك الإمتاع، فأما ما ذكرته من شأن الكنز؛ فما يعجبني أن أقطعَ دون إخوتي أمرًا، وأزدرع في صدرهم غَمْرًا[١].

فقال: انصرف يا بُنيّ، فِدَاك أبوك! فوالله مالي من كنز، ولكني أردتُ أن أبْلُوَ رأيك في إخوتك؛ وبني أبيك.

فانطلق عمرو، وخرج إخوته من المخدع، فاعتذروا إلى أبيهم وأعطَوْه موْثقًا على اتِّبَاع مشورته!

فِرَاسَـــة أعرَابي[٢]

قال أبو السَّمْراء:

خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين إلى مصر، حتى إذا كنّا بين الرَّمْلَة[٣] ودمشق إذا نحن بأَعْرابيّ قد اعترض، فإذا شيخٌ فيه بقيّة، على بعير له أوْرَق[٤]، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحٰق بن إبراهيم الرافقي، وإسحٰق بن أبي ربعيّ، ونحن نسايرُ الأمير، وكنا يومئذ أفْرَه[٥] من الأمير دَوَابَّ، وأجودَ منه كُسًا[٦].

---

(١) الغمر: الضغن والحقد. (٢) عصر المأمون: ١ ـ ٤١٣.
(٣) الرملة: خمسة مواضع، أشهرها بلد بالشام.
(٤) الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، هو من أطيب الإبل لحمًا لا سيرًا.
(٥) دابة فارهة: نشيطة حادة قوية. (٦) جمع كسوة.

فجعل الأعرابيّ ينظرُ في وجوهنا، فقلت: يا شيخُ؛ قد ألححتَ في النظر! أعرفتَ شيئًا أم أنكرته؟ قال: لا، والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوءٍ أراه فيكم؛ ولكنّي رجلٌ حسنُ الفِرَاسة في الناس، جيّدُ المعرفة بهم؛ فأشرتُ له إلى إسحٰق بن أبي رِبْعيّ، فقلت: ما تقول في هذا؟ فقال:

أرى كاتبًا دَاهِي الكتابة بينٌ ... عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدْنَ إنه ... عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحٰق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومُظهر نُسْكٍ ما عليه ضميره ... يحبُّ الهدايا بالرجال مَكور
إخال به جبنًا وبُخْلًا وشيمةً ... تُخبّر عنه إنه لَوَزِير

ثم نظر إليّ؛ وأنشأ يقول:

وهذا نديمٌ للأمير ومُؤْنِس ... يكونُ له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعرِ والعلم راويًا ... فبعض نديم مرةً وسميرُ

ثم نظر إلى الأمير؛ وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سَيْبُ[1] كَفِّه ... فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداءٌ من جمال وَهَيْبَةٍ ... ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصِمَ الإسلامُ منه بذائد[2] ... به عاش معروفٌ ومات نكيرُ
ألا إنما عبد الإلٰهِ بن طاهر ... لنا والدٌ برٌّ بنا وأمير

فوقع ذلك مِن عبد الله أحسنَ موقع، وأعْجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه!

البُحْتُرِي وَأبو تَمّام[3]

حدَّثَ البُحْتُرِيّ[4] قال: أول ما رأيتُ أبا تمام[5] أنّي دخلتَ على أبي سعيد

(١) السيب: العطاء.
(٢) الذائد: الحامي.
(٣) الأغاني: ١٨ ـ ١٦٩.
(٤) هو الوليد بن عبادة الطائي، كان شاعرًا مطبوعًا، قيل: إنه أشهر مَن استحق لقب شاعر بعد أبي نواس. مات سنة ٢٨٤ هـ.
(٥) هو حبيب بن أوس، كان يعد رأس الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين، ولّاه الحسن بن وهب=

محمد بن يوسف، ود مدحتُه بقصيدة فسُرَّ أبو سعيد، وقال: أحسنت يا فتى، وأجدتَ!

وكان في مجلسه رجلٌ نبيلٌ رفيعُ المجلس فوق مَن حضر عنده تكاد تمسُّ ركبتُه ركبتَه فأقبلَ عليَّ، ثم قال: يا فتى؛ أمَا تَسْتَحِي منّي! هذا شعرٌ لي تَنْتَحِله وتنشدُه بحضرتي! قال أبو سعيد: أحقًّا تقول؟ قال: نعم! وإنما أخذه منّي فسبقني به إليك وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شكَّكَني - علم الله - في نفسي وبقيتُ متحيّرًا.

فأقبل عليّ أبو سعيد فقال: يا فتى؛ قد كان في قرابتك لنا وودِّنا لك ما يغنيك عن هذا! فجعلتُ أحلفُ له بكل مُحْرجة من الأيمان أن الشِّعرَ لي ما سبقني إليه أحدٌ، ولا سمعته منه ولا انْتَحَلْته. فلم ينفعْ ذلك شيئًا.

وأطرق أبو سعيد، ثم دنا مني حتى تمنيْتُ أني سُخْتُ في الأرض؛ فقمت مُنْكَسِرَ البال أجرُّ رجليَّ وخرجت.

فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردُّوني. فأقبل عليَّ الرجل فقال: الشعرُ لك يا بنيّ، والله ما قلتُه قطّ، ولا سمعتُ إلا منك؛ ولكنني ظننتُ أنك تهاوَنتَ في موضعي؛ فأقدمتَ عَلَى الإنشاد بحضرتي، من غير معرفة كانت بيننا، تريدُ بذلك مضاهاتي ومكاثرتي حتى عرَّفني الأمير نسبك وموضعك. ولوَدِدت ألّا تلدَ أبدًا طائيّةٌ إلا مثلك.

وجعل أبو سعيد يضحك، ودعاني أبو تمام وضمَّني إليه وعانقني وأقبل يقرِّظُني. ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه، واقتديتُ به.

فِرَاسَة عَضد الدّولَة[1]

قدم رجل إلى بغداد للحجّ، وكان معه عِقد يساوي ألفَ دينار، فاجتهد في بيعه، فلم يَنْفُق[2]؛ فجاء إلى عطّار موصوف بالخير، فأودعه إياه، ثم حجَّ، وعاد، فأتاه بهدية، فقال له العطار: مَن أنت؟ وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العِقد الذي أودعتك إياه؛ فما كلَّمه حتى رَفسهُ رَفسةً رماه عن دُكّانه، وقال: تدَّعي عليَّ مثل هذه الدعوى!

= بريد الموصل، فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ هـ.

(١) الأذكياء: ٣١.

(٢) نفق ينفق (بضم الفاء): إذا كثر مشتروه.

فاجتمع الناس، وقالوا للحاج: ويلك! هذا رجل خير، وما وجدت مَنْ تدَّعي عليه إلا هذا! فتحيّر الحاج وتردَّد إليه، فما زاده إلا شتمًا وضربًا. فقيل له: لو ذهبتَ إلى عضد الدولة؛ فله في هذه الأشياء فراسة!

فكتب قصته، ورفعها لعضد الدولة، فصاح به فجاء، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة، فقال: اذهب إلى العطَّار بكْرة، واقعد على دكَّته[1]، فإن منعك فاقعد على دكةٍ تقابله من بُكرة إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإني سأمرُّ عليك في اليوم الرابع، وأقفُ وأسلّم عليك، فلا تقُم لي ولا تزِدْني على ردّ السلام، وجوابِ ما أَسْأَلُكَ عنه، فإذا انصرفتُ فأعِدْ عليه ذكر العقد، ثم أعلمني ما يقولُ لك، فإن أعطاكه فجيء به إليّ.

فجاء إلى دُكّانِ العطار ليجلس فمنعه، فجلس على دكّةٍ تقابله ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع اجتاز عضُد الدولة في موكبه العظيم؛ فلما رأى الخراسانيَّ وقف وقال سلامٌ عليكم؛ فقال الخراساني ـ ولم يتحرَّك: وعليكم السلام. فقال: يا أخي؛ تقدمُ فلا تأتي إلينا ولا تعرضُ حوائجك علينا! فقال: كما اتفق، ولم يشبعه الكلام، وعَضد الدولة يسأله، ويُحفى[2] وقد وقف، ووقف العسكر كله، والعطّار قد أُغمي عليه من الخوف.

فلما انصرف التفت العطار إليه. فقال: ويحك! متى أودعتني هذا العقد؟ وفي أيّ شيء كان ملفوفًا؟ فذكّرني لعلي أذكره؛ فقال: مِنْ صفته كذا وكذا، فقام وفتش، ونفض جرّةً عنده، فوقع العقد، فقال: قد نسيتُ، ولو لم تذكّرني الحال ما ذكرت؛ فأخذ العقد، ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة؟ ثم قال في نفسه: لعله يريدُ أن يشتريه! فذهب إليه فأعلمه، فبعث به مع الحاجب إلى دُكان العطار، فعلق العقد في عُنق العطَّار، وصلبه بباب الدكان، ونودي عليه: هذا جزاء مَن استودع فجحد[3]، فلمّا ذهب النهار أخذ الحاجب العقد، فسلّمه إلى الحاج، وقال: اذهب به!

---

(١) الدكة: بناء يسطح أعلاه للقعود.
(٢) أحفى السؤال: ردده.
(٣) جحد: أنكر.

الباب الحادي عشر

قصص الجن والشياطين

في خلق الجن وصفاتهم

قال في المستطرف[1]: رُوِيَ عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقًا سمّاه جانًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٧] وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٥] وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجان من لهبها والشياطين من دخانها، وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعًا من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكانًا في الأرض قد طبقوها برًّا وبحرًا، سهلًا وجبلًا، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جندًا من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أممًا كثيرة.

قبائل الجن وطرد إبليس

ذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم مَن يسترق السمع، ومنهم مَن ينط مع لهب النار، ومنهم مَن يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكًا، وأقاموا على ذلك مدة طويلة.

---

(١) المستطرف: ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤.

ثم تحاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد بل يلقح كالطير، ويبيض ويفرخ قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلّطهم على الخلق، وأقربهم إليه وأدناهم منه، ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفي الحديث: إن إبليس لعنه الله قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رحيمًا فاجعل لي مسكنًا قال: مسكنك الأسواق قال: فاجعل لي طعامًا، قال: ما لم يذكر اسمي عليه. قال: فاجعل لي شرابًا قال: كل مسكر. قال: فاجعل لي مؤذنًا. قال: المزامير. قال: فاجعل لي صيدًا، أو قال مصائد قال: النساء.

في مكايده لعنه الله

منها: أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصًا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه: لو حملتها إلى جارك برصيصًا ليدعو لها، قال: فجاء إبليس إلى العابد، وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتًا مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك في جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها.

قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاؤوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين في الطريق، فقال له: إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرّأ منه ومات الرجل كافرًا.

ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك

وجئت لشيء لا يعود عليه نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصرعه العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة إيام، فلما رآه لا يرجع قال له: اترك قطعها، وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهده على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه. فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة، فعارضه إبليس في الطريق، وتحاور معه، وتجاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عني، وأخبرني كيف غلبتني، فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

في المتشيطنة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم، وأخذ بعض مَن في المركب.

ومنها السعلاة يُحكَى أن صنفًا منها يتزيّا بزيّ النساء، ويتراءى للرجال.

وحُكِيَ أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولادًا ذكورًا وإناثًا، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت نارًا من بعد عند الجبانة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالى، وتغيّر لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيرًا، ثم طارت ولم تعد إليه.

ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحُكِيَ أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأتاه شخص بسراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل

لك أن ذلك من كرامتي، والله إني لأعلم أنه شيطان، وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم مَن يحمل الفانوس بين يدي الشيخ، ومنهم مَن يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم مَن ينشد الشعر.

ومن حكاياتهم

وقال بعض المسافرين: أبق لي غلام، فخرجت في أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير، قال: فدنوت منهم، وسلّمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك قلت: وما أعلمك بغلامي؟ قال: كعلمي بجهلك، قلت: أوَ جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق.

قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيّدًا، فلما رأيته غشي عليَّ، فلما أفقت قال: أنفخ في يده، ففعلت، فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك ولا في وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه.

ومنها نوع يقال له: العفريت يخطف النساء، يقال: إن رجلًا اختطفت ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتي، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت نارًا عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني هٰهنا، فهو يغيب عني بالليل، ويأتيني بالنهار، فقلت لها: امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فيأخذني ويقتلك، فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتي، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتي وخططت حولها خطًّا، وقرأت آيات من القرآن، وتعوّذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يا ذا الذي للحين يدعوه القدر
خل عن الحسناء ثم سرْ
وإن تكن ذا خبرةٍ فينا اصطبر(١)

(١) الحين: الموت والقضاء. وخل: أي تخلى عنها. ورسلًا: رفقًا وتحببًا، وعلى رسلك: =

قال، فأجبته:

يا ذا الذي للحين يدعوه الحمق

خل عن الحسناء رسلًا وانطلقْ

ما أنت في الجنّ بأوّل من عشق

قال: فتبدّى لي في صورة أسد، وجاذبني وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس مني قال: هل لك في جز ناصيتي، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلِّ بيني وبين الجارية، فقلت: لا أبيع ديني بدنياي، ولا حاجة لي بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءني منها أولاد.

وقيل: لما سخّر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيبوا نبيّ الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعًا وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هي سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم مَن له خرطوم وذنب، ومنهم مَن له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع. قال: فعند ذلك تعجّب نبيّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكرًا لله تعالى، وقال: إلٰهي ألبسني هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرّقهم في الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص في البحار، وأبنية الحصون، وفي استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [صٓ: الآية ٣٩].

= أي تمهل.

في ذكر عجائب المخلوقات

قال الشيخ عبيد الله، صاحب كتاب تحفة الألباب:

دخلت إلى باشقرد[١] فرأيت قبور عاد فوجدت سنَّ أحدهم طوله أربعة أشبار كلوح الرخام ـ قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ٥٣٠ هـ من نسل عاد رجلًا طويلًا، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعًا كان يسمَّى دنقي أو دبقي. كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير. وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل.

وكان هذا العملاق قد اتخذ له درعًا تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله.

وكان خيِّرًا متواضعًا، وكان إذا لقيني يسلم عليَّ ويرحب بي ويكرمني. وكان رأسي لا يصل إلى ركبته، رحمه الله تعالى.

وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار. وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلده. قيل: إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته[٢].

عَوْج بن عَنَق

ورُوِيَ أن عوج بن عنق كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله. قيل: كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعًا. وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطَّى أحدكم الجدول الصغير وعمَّره الله دهرًا طويلًا حتى أدرك موسى (ع). وكان جبارًا في أفعاله يسير في الأرض برًّا وبحرًا ويُفسد ما شاء.

ويقال: إنه لما حُصِر بنو إسرائيل في التِّيه، ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم، فبعث الله طيرًا في منقاره حجر مدوَّر فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق في عنقه.

---

(١) باشقرد: بلاد بين القسطنطينية وبلغار. (٢) المستطرف: ١٥٩/٢.

وأخبر الله عزّ وجلّ موسى بذلك، فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله.

ويقال: إن موسى كان طوله عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع. وقفز في الهواء عشرة أذرع، وضرب عوج بن عنق، فلم يصل إلى عرقوبه! فتبارك الله أحسن الخالقين.

عَنَق أُمُّ عوج بن عنق

وقيل: إن أم عوج اسمها عَنَق بنت آدم (ع). وكانت مفردة بغير أخ. وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان، وفي كل يد عشرة أصابع، ولكل إصبع ظفران كالمنجلين. وقيل: هي أول مَن بغى في الأرض، وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين. وصرفهم في وجوه السحر. وكان قد أنزل الله على آدم أسماء عظيمة يرد الشياطين بها، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها. فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلّمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسدًا أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجًا بسنتين[١].

قومٌ يرون الجنّ

قال ابن الأعرابي:

قال لي أعرابي مرةً ـ وقد نزلت عندهم: ما أطيب ماءكم هذا، وأعذى[٢] منزلكم! قلت: نعم؛ وهو بعيد من الخير كلّه، بعيدٌ من العراق واليمامة والحجاز، كثير الحيَّات، كثير الجَان. فقلت: أترون الجن؟ قال: نعم، مكانهم في هذا الجبل ـ وأشار بيده إلى جبل يقال له: سُواج ـ ثم حدَّثني بأشياء[٣].

. . . ويسمعون حِسَّها

قال عبيد بن أوس الطائي في أخت عَديٍّ بن أوس:

هل جاء أوسًا ليلتي ونعيمها ومقام أوسٍ في الخباء الحشرجِ[٤]

---

(١) المستطرف: ٢/١٥٩.

(٢) عذا البلد غدوًا: طاب هواؤه.

(٣) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٧/٤١٨.

(٤) الخباء الحشرج: الذي ضُمَّت أجزاؤه بعضها إلى بعض.

ما زلتُ أطوي الجن أسمع حِسَّهُم حتى دفعت إلى ربيبة هَوْدَج
فوضعت كفِّي عند مقطع خصرها فتنفست بهرًا ولمَّا تنهج[١]
فتناولت رأسي لتعرف مسَّهُ بمخضَّبِ الأطراف غير مشنَّج
قالت بعيشِ أخي وحرمةِ والدي لأنبهنَّ الحي إن لم تخرج
فخرجتُ خيفة قومها فتبسَّمتْ فعلمتُ أن يمينها لم تلجج[٢]
فلثمتُ فاها قابضًا بقرونها شربَ النزيف ببردِ ماءِ مثلج[٣]

الجنّ تبني مدينة تدمر

كان أهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان (ع) بأكثر مما بيننا اليوم وبين سليمان فأما القوارير والحمامات، فذلك مما لا شكّ فيه. وقال البَعيث[٤]:

بني زيادٌ لذكر الله مصنعةً من الحجارة لم تعمل من الطين
كأنها غير أن الإنس تعرفها مما بنتْ لسليمان الشياطين

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإلهُ لهُ قُمْ في البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ[٥]
وخَيِّسِ الجنَّ إني قد أذِنْتُ لهم يبنون تدمُرَ بالصفَّاح والعَمَدِ[٦][٧]

الحرقانة

كان وادي الجن من أرض الجوّ حرمًا عند العرب، لا ينزلونه أبدًا، حتى أتى رهط من بني حلوان بن لحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير، فنزلوه. فبينما هم نائمون في جوف الليل إذ سمعوا دويًا وهينمة، وناداهم منادٍ: «إنما هذا محرمُ الراهب وحمى أبرهة».

---

(١) تنفست بهرًا: انقطع نفسها من الإعياء. ونهج نهجًا ونهيجًا: تتابع نفسه من الإعياء.
(٢) أي لم تكن يمينًا كاذبة.
(٣) النزيف: العطشات حتى يبست عروقه وجفّ لسانه.
(٤) هو خداش بن بشر بن خالد، المعروف بالبعيث المجاشعي. خطيب شاعر، من أهل البصرة توفي سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م.
(٥) الفَنَد: الباطل.
(٦) خيِّس الجن: ذلّلها وليّنها.
(٧) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٧/ ٤١٨.

وأتتهم نار عظيمة فأكلت أموالهم، وأكلت أناسًا، فولَّوا هاربين، فسمي ذلك الموقع بالحرقانة.

والرابع: هو ملك من الجن تزوَّج ابنتَهُ ـ العَيوف ـ الملكُ أبرهة ذو المنار، فقال له الرابع: أيها الملك، منزلي وادي الجن من أرض جَوّ (وهي أرض اليمامة اليوم) فتتعرى نساؤنا لرجالكم، ونساؤكم لرجالنا. فقال له أبرهة: أنا أتدبر لك الأمر، أُصدرُ أمرًا إليهم وأمنعهم من أن ينزلوا بوادي الجن. وهم لا ينزلون فيه إلى اليوم(١).

الحيَّة ذات الرأسين

وهي حية تسمَّى الزمرّدة، تسكن في الرمل ولها رأسان في طرفيها. وهي من الخفة تضرب بطرفيها. وما أكل بهذا الرأس ألْقتهُ بالآخر. وتعمى في الليل لأن جميع حيوان الأرض يخاف منها ولا يستطيع عليها لخفتها، ويسري سمُّها في الأبدان كسير البرق في الهواء.

وتقول الأساطير: إن الملك أبرهة بن ذي مراثد ـ وكان عند مروره في حنو قراقر بأرض العراق ـ ظهرت الزمردة لجيشه وأضرَّت بعساكره كثيرًا. فكان ينام في النهار ويسير في الليل، لأنها هي لا تظهر في الليل. وكان يوقد النيران ليرى الجيش الطريق أمامه. وهو أول منار جُعِلَ في الدنيا. وسُمي أبرهة ذو المنار.

أسماء الغول عند العرب

قال الجاحظ: كانوا يسمّون مَن يجاور منهم الناس «عامرًا» والجمع عمار؛ فإن تعرَّض للصبيان فهو «رَوْح»؛ فإن خبث فهو «شيطان»؛ فإن زاد على ذلك فهو «مارد»؛ فإن زاد على ذلك فهو «عفريت»؛ فإن ظهر ولُطف وصار خيرًا كله فهو «ملك».

وكانوا يفاضلون بينهم ويعتقدون مع كل شاعر شيطانًا، ويسمونهم بأسماء مختلفة قال الجاحظ:

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/٢٤٣.

وفي النهار ساعات يُرى فيها الصغير كبيرًا، أو يوجد لأوساط الفيافي والرمال مثل الدويّ، وهو طَبْع ذلك الوقت.

قال ذو الرمة:

إذا قال حادينا لترنيم نبأةٍ صهٍ لم يكن إلّا دويُّ المسامعِ[١]

عِموا ظلامًا!

ومن هتاف الجن وأشعارهم ما رواه الجاحظ لسمير بن الحارث الضبيّ[٢]:

ونارٍ قد حظأتُ بُعَيْدَ وهنٍ بدارٍ لا أريد بها مقاما[٣]
سوى تحليل راحلةٍ وعينٍ أكالئها مخافة أن تناما[٤]
أتوا ناري فقلت: منونَ أنتم؟ فقالوا الجن، قلت عموا ظلاما[٥]

تغوُّل الغيلان

زعموا أن عمر بن ضُبيعة رأى غلمانًا ثلاثة يلعبون نهارًا. فوثب غلام منهم فقام على عاتِقَيْ صاحبه، ووثب الآخر فقام على الأعلى منهما. فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون. فقال عمير بن ضبيعة: فما مررت بشجرة يومئذ إلا وسمعت من تحتها ضحكًا فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر.

وكان العرب يزعمون أن الغول يتغوّل[٦] لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها، وربما ضيّفوها.

وقال: تأبط شرًا يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها:

فأصبحتُ والغولُ لي جارةٌ فيا جارتا أنتِ ما أَهْوَلا

---

(١) النبأة: الصوت ليس بالشديد ولا بالمسترسل.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٤ ـ الحيوان: ٤: ٤٨١.
(٣) حضأ النار: ألهبها وسعّرها. (٤) أكالئها: أراقبها.
(٥) مَنون أنتم: من أنتم. وهو من الشاذ.
(٦) تغوّل الأمرُ: تناكر وتشابه، أي أشكل. وتغوّلت المرأة: تشبّهت بالغول في تنكّرها. وتغوّلت الغيلانُ القومَ: ضلّتهم عن المحجّة.

وطالبتُها بُضعَها فالتوث ... فكان من الرأي أن تُقتلا
وكنتُ إذا هممتُ اعتزمتُ ... فأَخرِ إذا قلتُ أن أفعلا
فجلَّلْتُها مرهَفًا صارمًا ... أبانَ المرافِقَ والمفصلا
فطار بقحف ابنةِ الجن ذو ... شقاشِقَ قد أخلق المحملا
فمن يكُ يسألُ عن جارتي ... فإن لها باللِّوَى منزلا
عظاءَةُ قفرٍ لها حُلَّتا ... نِ من ورقِ الطَّلْح لم تُغزلا

وكان يزعم أنه يرافق الغول وللسعلاة ويبيت مع الذئاب والأفاعي[١].

حكايات عن الغول

رِجْلُ عَنْز

كانوا يزعمون أن رجلي الغول كرجلي العنز. وكانوا إذا اعترضهم الغول في الفياء يرتجزون ويقولون:

يا رجلَ عنزٍ انهقي نهيقا ... لن نترك السبب والطريقا

وقد وصفها أحدهم:

وحافر العنز في ساقٍ مدملجةٍ ... وجفنِ عينٍ خلاف الأنس بالطولِ

تلوُّن الغول

وذلك أنهما كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتنبههم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد. فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

وقد ذكر جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب، أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام، وأن الغول كانت تتغوّل له، وأنه ضربها بسيفه؛ وذلك قبل ظهور الإسلام. وهذا مشهور عندهم[٢].

---

(١) الحيوان: ٦/ ١٦٧. وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٦.
(٢) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤١.

عَلامٌ من الغيلان

حكى الأصمعي عن بعضهم أنه خرج هو وصاحب له يسيران، فإذا غلامٌ على الطريق. فقال له: مَن أنت؟ قال: أنا مسكين قد قُطع بي. فقال أحدهما لصاحبه: أَرْدِفْهُ خلفك. فأردفه. فالتفت الآخرُ إليه فرأى فمه يتأجج نارًا، فشدَّ عليه فذهبت النار، ففعل ذلك مرارًا. فقال ذلك الكلام: قاتلكما الله ما أجلدكما! واللهِ ما فعلتُها بآدميّ إلا وانخلع فؤاده. ثم غاب فلم يريا أثره[١].

تزوج الغول وأولدها بنين

قالوا: إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين، ومكثت عنده دهرًا، فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستره عني. فإني إن لم تستره عني تركت ولدك عليك، وطرتُ إلى بلاد قومي. فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطّى وجهها بردائه فلا تبصره. وإلى هذا المعنى إشار أبو العلاء المعري في قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرق:

طَرِبْنَ لضوءِ البارق المتعالي ببغداد وَهْنًا ما لهنَّ ومالي
سمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنها بنارَيْهِ من هنًا وثَمَّ[٢] صوالي

إلى أن يقول:

إذا لاح إيماضٌ سترتُ وجوهها كأنّيَ عمرٌو والمطيُّ سَعالي
وكم هَمَّ نِضوٌ أن يطير مع الصبًا إلى الشام لولا حبسُه بعقالِ

قالوا: فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

أمسِكْ بنيكَ عمرو إنيّ آبِقُ بَرْقٌ على أرض السعالي آلِقُ

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤١.

(٢) من هَنًا وثَمَّ: من هنا وهناك.

قال: فبنو عمرو بن يربوع ظلوا يُدعون بني السعلاة. ولذلك قال الشاعر يهجوهم:

يا قبح الله بني السعلاةِ عمرو بن يربوع شرار النّاتِ
ليسوا بأخيارٍ ولا أكياتِ[(١)(٢)]

ومن شعرهم في الغول، قال تأبَّط شرًّا:

لهانَ على جُهَيْنةَ ما أُلاقي من الرَّوْعات يوم رَحَا بِطانِ[(٣)]
لقيتُ الغول تسري في ظلامٍ بسهبٍ بالعباءة صَحْصَحَانِ[(٤)]
فقلتُ لها: كلانا نِقْضُ أرضٍ أخو سَفَرٍ فخلّي لي مكاني[(٥)]
فشدَّتْ شدَّةً نحوي فأهوى لها كفي بمصقولٍ يماني
فقالت: زِدْ فقلتُ: رُويدَ إني على أمثالها ثَبْتُ الجِنانِ

وفي رواية أخرى:

ألا من مبلغٌ فتياتِ جَهْمٍ بما لا قَيْتُ عنْدَ رَحا بطانِ
بأني قد لقيتُ الغولَ تلوي بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحانِ[(٦)]
فصدَّت فانتحيتُ لها بعَضْبٍ حُسامٍ غير مؤْتَشبٍ يماني[(٧)]
فقدَّ سراتها والبَرْكَ منها فخرَّتْ لليدينِ وللجرانِ[(٨)]
فقالت: ثنِّ قلتُ لها: رويدًا مكانك إنني ثَبْتُ الجنان
ولم أنفك مضطجعًا لديها لأنظر مصبحًا ماذا دهانيَ

---

(١) قوله «النات» و«أكيات» يريد: «الناس» و«أكياس»، فجعل السين تاء لتكون مع تاء السعلاة. وهذا من عيوب الشعر.
(٢) شروح سقط الزند: ١١٦٢ ـ ١١٦٧. ونوادر أبي زيد: ١٤٦.
(٣) رحابطان: موضع في بلاد هذيل. (٤) الصحصحان: ما استوى من الأرض.
(٥) النِّقض: المهزول. وفي رواية أخرى «كلانا نضو دهر» وهما بمعنى واحد.
(٦) المرت: قفر لا نبات فيه.
(٧) العضب: السيف القاطع. وغير مؤتشب: أي صريح في انتسابه إلى بلاد اليمن.
(٨) سراة الفرس: أعلى متنه. والبرك: الصدر. الجران: باطن العنق. وخرّت لليدين وللجران: أي خرّت على يديها وعنقها، كما تقول: وخرّت لليدين وللفم.

إذا عــيــنــان فــي رأسٍ دقــيــق ... كرأس الـمـهر مشقوقِ الـلسانِ
وسـاقـا مُـخْـدِجٍ ولـسـانُ كـلـبٍ ... وثـوبٌ مـن عـبـاء أو شِـنـان[١]

وقال بعضهم:

وصار خليلُ الغول بعد عداوةٍ ... صفيًّا وربَّته القفارُ البسابسُ[٢]

وقال آخر:

فــللّه دَرُّ الـغـول أيُّ رفـيـقـةٍ ... لصاحبِ قَفْرٍ في المهامِهِ يُذْعَرُ[٣]
أرَنَّتْ بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدت ... حواليَّ نيرانًا تلوح وتزهر[٤]

سعدة بنت جرهم الساحرة

روى محمد بن هشام أن رجلًا قال:

خرجنا أنا وأبي إلى صحراء عدن ـ وكان جدي قد دفن مالًا معها وأوصى أبي أنه إذا احتاج إلى المال ما عليه إلا أن يأتي إلى موضع كذا من الصحراء. ولما قعد بنا الدهر سرت مع أبي حتى أصبنا ثلاث روابي متقابلات. فقال لي: لقد اشتبه عليَّ الموضع، ما أدري أي هذه الروابي هي؟ فما رأيك؟ فقلت له: لا بد من الحفر إن كنت تعلم أن المال في إحداهن. ثم لاح له أمر وعلامة. فقال لي: احفر هٰهنا. فحفرت فكنت إذا حفرت وأعييت حفر مكاني أبي حتى انتهينا إلى بلاطة عظيمة، فحرصنا على قلعها فعجزنا عن قلعها. ثم حفرت الثانية فوصلت إلى بلاطة أخرى فأعجزتنا. فحفرنا الثالثة فقال لي أبي: ما ترى يا بني؟ قلت له: أنت شيخ كبير لا تستطيع شيئًا، فهل لك أن تخلفني هٰهنا وتمضي فتأتي ببعير وعبد من عبيدنا؟

فقال أبي: يا بني، الموضع مهول وأخشى عليك الوحشة وغُلظ البلد. قلت له: دع عندي من الشراب والطعام ما يكفيني. وخرج على وجهه، فبات عني ليلتين. فلما كان في الليلة الثالثة ـ وأنا قائم أصلي، وكنت كثير التلاوة

---

(١) المخدج: التي ألقت ولدها قبل تمام حمله. والشنان: جمع شَنّ، وهو القربة فيها الماء البارد.

(٢) البسابس: الخالية. (٣) المهامه: المفازات المقفرة والبلاد البعيدة.

(٤) بلوغ الأرب: ٢/ ٣٤٤. وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ٤١٥. ومعجم البلدان: ٣/ ٣١.

للقرآن ـ فلم أشعر إلا ورجل جميل الوجه نقيّ الثياب طيب الريح يمشي وهو يقول:

لولا تلاوتُك القرآنَ ما امتسكت ... بالأرض رجلاك فاعلم أيها الرجلُ
في بلدة لعُتاة الجن ماردة ... في كل أفق لها من همسها زَجَلُ
لك النصيحةُ عندي وهي واجبةٌ ... على ذوي الدين إن لم يسبق الأَجَلُ
فاستوقر[1] اليوم من رزق خُصصتَ به ... ولا تَعُدْ راجعًا ينأى بك الأجلُ

قال: فحفظت الشعر. وطلع أبي والعبد معه والبعير، فأخبرته بما كان، وأتينا المكان إلى ما حفرنا أولًا، وقلعنا الحجر فإذا بشيخ يده مغلولة إلى عنقه بغلٍّ من حديد في هامته، وأصبنا عند رأسه ورقةً من ذهب عليها كتابةٌ لا نعرفها. فأخذنا الورقة، وأعدنا البلاطة إلى موضعها، وأهلنا التراب على البلاطة حتى رجعت كما كانت. ثم أتينا البلاطة الثانية، فإذا تحتها عجوز مسودة الذوائب واضعة إحدى يديها على رأسها والأخرى على عورتها، وإلى جانبها كتاب في لوح لا ندري ما هو. فأخذنا اللوح وأعدنا البلاطة وأهلنا التراب.

ثم قلعنا البلاطة الثالثة، فإذا تحتها سرداب دقيق ضيق، فدخلناه فأصبنا خابيتين مكشوفتين فيهما رجلان متقاربة أسنانهما متشابهة، عليهما حلل مرصعة بالذهب ورأينا كتابًا على الجرتين لا نعرف ما هو.

وأصبنا مالًا كثيرًا وذهبًا وفضة وغير ذلك من الدر والياقوت ما لم يُرَ مثله قط.

فقال لي أبي: وثقنا بالغنى والحبور. فقلت له: يا أبي، وكيف الخلود مع الفناء! لا خير فيما يفنى، وإن مالنا من هذا قليل في حياة قصيرة؟

وأوقرنا جملنا ثم حملنا نحن ما نستطيع فلم نقدر أن ننهض به. فلم نزل ننقص منه ونريد النهوض، فلم نستطع حتى أخذنا في أيدينا درة وياقوتة فلم نقدر نهوضًا بهما.

---

(١) استوقِرْ: احملْ حملًا ثقيلًا. وأوقر جمله: حمّله حِملًا ثقيلًا.

فقال لي أبي: أَلقِ ما معك يا بني، فقد أخذنا رزقنا. فعلمنا أننا منعنا غير ما صار إلينا وأعتق أبي العبد وكثرت نعمنا ووهب للعبد مالًا جسيمًا. وقد حذرناه هو والعامل من أن يعود أحد إلى هذا المكان.

ولكن العبد أخذ لذلك الموضع ما يصلحه، فأخذ معه عونين وسار لأنه يعرف علامات الموضع. فلما نال من الغار توارى عن عَوْنيه ليقضي أربه، وبات عوناه أرقين قد ذعرهما ما يريان من وحشة ذلك الموضع وهوله.

فحدّثني العونان قالا: سمعنا في جوف الليل حسًّا وذعرًا وحركة شديدة من ناحية العبد واضطرابًا، فجزعنا من القيام إليه لخوف دَاخَلَ قلوبنا.

فلما أصبحنا وجدناه ميتًا وفي حلقه آثار وفي ثيابه أخداش. فحفرنا له وأوريناه ولينا هاربين لئلا يدركنا الليل في ذلك الموضع.

قال: ومكثت الورقة واللوح عندنا سنين لا نجد أحدًا يعلم ما فيهما. فبينما أنا في موضع إذا برجل من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، نبيل جميل، وهو يسأل[١]. فقلت له: يا عبد الله، إنك لجميل وخليق بالخبر فما اضطرك للمسألة؟

قال لي: يا عبد الله، الحمد لله الذي أحسن إليك، وأغناك عن خلقه ومنعك عن هذا المقام. وحدّثني كيف تغيّرت أحواله بعد أن كان من أعز الناس.

قلت له: إنك لفقيه، فما دينك؟ قال: الإسلام. قلت: فهل تقرأ؟ قال: نعم، بثلاثة ألسن. فوقع في نفسي أمر الورقة واللوح فأخرجتهما إليه فإذ هو يقرأ ذلك الكتاب، وإذا هو بالمسند[٢] قد كتب.

وأما الشيخ المغلولة يده إلى عنقه والمضروب في رأسه، فقد كان عمرو بن لحي أول من غيّر دين إسماعيل، وعَبَدَ اللّات (الأصنام). وقرأ اللوح الثاني الذي كان مع العجوز فإذا فيه: هذه سعدة بنت جرهم، جلبت السحر من ديناوند وتعلمته، وسحرت سبعة أخوة من خيار جرهم فصيرتهم وحوشًا لا يَقَرُّون[٣] مع

---

(١) أي يتسوّل ويطلب الصدقة.

(٢) المسند: خط قديم لحمير في بلاد اليمن مخالف لخطنا هذا.

(٣) لا يَقَرُّون مع الإنس: لا يألفونهم ولا يستقرون بينهم.

الإنس ولا يطمئنون إلى دعة ويرعون مع الوحش كما ترعى فأتت أمهم إلى نابت بن قيذار بن إسماعيل في الشهر الأصمّ[١] فقالت له: يا ولي الله، إن سعدة الساحرة أتلفت أولادي عني وما أحوج ما كنت إليهم. فأنا مؤمنة وهي كافرة، فهل أدعو الله عليها؟ فقال لها: افعلي. فقالت: ربِّ إنه الشهر الأصمُّ، حرَّمتُ ما حرَّمتَ فيه، فانتقم ممن لم يُحرِّمْ حرامك ولم يُحِلَّ حلالك.

قال نابت: اللهم افعل! قال: فأنساها الله السحر، وهتك عنها الستر، ستر الحياء، فما لبست ثوبًا حتى ماتت.

ورجع السبعة النفر إلى نابت فأعلموه بما كان يتخايل لهم في أعينهم وقلوبهم، فدعا عليها نابت فهلكت وكُفِّنت، فلم تقبلها الأرض حتى غرقت. وذلك مقام الظالمين[٢].

قتلتهما الجنّ
(حرب بن أمية ومرداس بن أبي عامر)

كان حرب بن أمية يوم عكاظ. ويقال إن سبب وفاته أن الجن قتلته وقتلت مرداس بن أبي عامر السلمي لإحراقهما شجر القرية وازدراعهما إياها وهذا شيء قد ذكرته العرب في أشعارها وتواترت الروايات بذكره، فذكرته والله أعلم.

وذلك أن حرب بن أمية لما انصرف من حرب عكاظ هو وأخوته مر بالقُرَيَّة[٣] وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتفّ لا يرام. فقال له مرداس بن أبي عامر: أما ترى هذا الموضع؟ قال: بلى! قال: نعم المزدرع هو، فهل لك أن نكون شريكين فيه ونحرق هذه الغيضة ثم نزرعه بعد ذلك؟ قال: نعم.

فأضرم النار في الغيضة. فلما استطارت وعلا لهبها سُمِع من الغيضة أنين وضجيج كثير ثم ظهرت منها حيَّات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها ـ وقال

---

(١) الشهر الأصمّ: هو شهر رجب. سمي بذلك لأنهم كانوا لا يتصايحون فيه بحرب.

(٢) كتاب التيجان: ص ٢١٧.

(٣) القُريَّة: وهي أربعة مواضع: محلة ببغداد، وموضع في جبل طيء، وموضع بنواحي المدينة، ومن أشهر قرى اليمامة.

مرداس بن أبي عامر في ذلك:

إني انتخبت لها حربًا وإخوتَهُ إني بحبل وثيق العقد دسَّاسُ
إني أُقَوِّمُ قبل الأمر حجَّتهُ كيما يقال وليُّ الأمر مِرْداسُ

قال: فسمعوا هاتفًا يقول لما احترقت الغيضة:

ويلٌ لحرب فارسا مطاعنًا مخالسا[(١)]
ويل لعمرو فارسا إذ لبسوا القوانِسا[(٢)]
لتقتلَنْ بقتله جحاجحًا عنابسا[(٣)]

ولم يلبث حرب بن أمية ومرداس بن أبي عامر أن ماتا. فأمَّا مرداس فدُفِنَ بالقرية. ثم ادعاها بعد ذلك كليب بن أبي عهمة السلمي، ثم الظَّفري. فقال في ذلك عباس بن مرداس:

أكليب مالك كل يوم ظالمًا والظّلم أنكد وجهِهِ ملعونُ
قد كان قومك يحسبونك سيدًا وأخال أنك سيدٌ معيونُ[(٤)]

إلى أن يقول:

وأفعل بقومك ما أراد بوائل يوم الغدبر سميُّك المطعونُ[(٥)]
وإخال أنك سوف تلقى مثلها في صفحتيك سنانها المسنون
إن القُرَيَّة قد تبيّن أمرها إن كان ينفع عندك التبيين
حيثُ انطلقت تُخطُّها إلى ظالمًا وأبو يزيدَ بجوها مدفون[(٦)(٧)]

ابن الحمارس والجن

قال شرقي بن القطامي: كان رجل من كلب، يقال له عبيد بن الحمارس، شجاعًا، وكان نازلًا بالسماوة. فلما حسر الربيع وقلّ ماؤه وأقلعت أنواؤه، تحمَّل

(١) المخالس: الذي يختلس الطعنة اختلاسًا.
(٢) القوانس: جمع قونس، وهو بيضة الحديد توضع على الرأس أثناء القتال.
(٣) الجحاجح: الأسياد الكرام. والعنابس: الأسود.
(٤) المعيون: الحسن المنظر في ما تراه العين، ولا عقل له. والذي أصابته عين.
(٥) يشير إلى تحكم كليب وائل بموارد الماء ونفيه بكر بن وائل عنها حتى كان يقتلهم عطشًا.
(٦) أبو يزيد هو مرداس بن أبي عامر. (٧) الأغاني: ٦/٣٤٣.

إلى وادي تُبَل، فرأى روضة وغديرًا، فقال: روضةٌ وغدير، وخطبٌ يسير، وأنا لما حَوَيْتُ مُجير. فنزل هناك وله امرأتان: اسم إحداهما الرباب، والأخرى خوله. فقالت له خوله:

أرى بلدةً قفرًا قليلًا أنيسها ... وإنَّا لنخشى إن دجا الليلُ أهلها

وقالت الرباب:

أرتك برأيٍ فأستمع عنك قولها ... ولا تأمَنَنْ جنَّ العزيق وجهلَها

فقال مجيبًا:

أَلَستُ كميًّا في الحروب مُجرَّبا ... شُجاعًا إذا شَبَّتْ له الحربُ مُجْرِبا

سريعًا إلى الهيجا إذا حمي الوغا ... فأقسم لا أعدو الغدير منكَّبَا

ثم صعد إلى تُبَلْ، فرأى هشيمة ـ وهي الأنثى من القنافذ ـ فرماها فأقعصها[1]، ومعها ولدها، فارتبطه. فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجن:

يا ابن الحمارس قد أسأتَ جوارنا ... وركبتَ صاحبنا بأمرٍ مفظعِ

وعقرتَ لَقْحَتَهُ وقُدْتَ فصيلها ... قَوْدًا عنيفًا في المنيع الأرفعِ[2]

ونزلت مرعى شائنًا وظلمتنا ... والظلم فاعله وخيمُ المرتعِ

فلنطرقنَّك بالذي أوليتنا ... شرٌّ يجئك وماله من مَدْفَعِ

فأجابه ابن الحمارس:

يا مدَّعي ظلمي ولستُ بظالِمٍ ... أسمع لديك مقالتي وتسَمَّعِ

أن كنتم جنًّا ظلمتم قنفذًا ... عُقِرَتْ فشرُّ عقيرةٍ في مصرعِ

لا تطمعوا فيما لديَّ فمالكم ... فيما حَوَيْتُ وحُزْته من مَطْمَعِ

فأجابه الجنيّ:

يا ضارب اللَّقحة بالعَضْب الأفلّ ... قد جاءك الموت وأوفاهك الأجلْ[3]

وساقك الحَيْنُ إلى جنِّ تُبَلْ ... فاليوم أقويت وأعيتك الحِيَلْ

---

(١) قعصه بالرمح، وأقعصه: ضربه ضربة سريعة.

(٢) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. والفصيل: ولد الناقة.

(٣) العضب والأفلّ: السيف القاطع.

فأجابه ابن الحمارس:

يا صاحب اللَّقحة هل أنت بَجَلْ مُستمعٌ مني فقد قلتَ الخَطَلْ[1]

وكثرةُ المنطق في الحرب فشلْ هيَّجْتَ قمقامًا من القوم بطلْ[2]

ليثَ لُيوثٍ وإنْ هَمَّ فَعَلْ لا يَرْهبُ الجنَّ ولا الإنس أجلْ

من كان بالعفو من جنِ تُبَلْ

قال: فسمعها شيخ من الجن، فقال: لا والله لا نرى قتل إنسانٍ مِثلَ هذا، ثابت الجنان ماضي العز، فقام ذلك الشيخ وحمِدَ الله ثم أنشد:

يا ابن الحُمارِس قد نزلتَ بلادنا فأصبت منها مشربًا ومناما

فبدأتنا ظلمًا بعقر لقوحنا وأسأت لما أن نطقت كلاما

فاعمد لأمرِ الرُّشْدِ واجتنب الردى إنّا نرى لك حرمةً وذماما

واعزم لصاحبنا لقوحًا متبعًا فلقد أصبت بما فعلت إثاما

فأجابه ابن الحمارس:

الله يعلم حيث يرفع عرشه أني لأكره أن أُصيب إثاما

أما ادّعاؤك ما ادَّعيتَ فإنني جئت البلاد ولا أريد مقاما

فأقمتُ فيها مالنا ونزلتها لأريح فيها ظهرنا أياما

فليغدُ صاحبكم علينا نُعطِه ما قد سألت ولا نراه غراما

ثم غرِمَ للجن لقومًا متبعًا للقنفذ وولدها.

وهذه الحكاية وإن كانت كذبًا إلا أنها تتضمن أدبًا. وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها. ويقال أن الشرقي القطامي كان يصنع أشعارًا وينحلها غيره[3].

(١) بَجَلْ: نعم. والخطل: الكلام الفاسد المضطرب.

(٢) القمقام: السيّد الجامع للسيادة.

(٣) بلوغ الأرب: ٣٥٦/٢؛ وشرح نهج البلاغة: ٤٢٢/١٩.

عبيد بن أيوب العنبري
رفيق الغول والسعلاة

قال عبيد بن أيوب[١] ـ وكان جوّالًا في مجهول الأرض، لمّا اشتدّ خوفه، وطال تردده، وأبعد في الهرب؛ وكان يكنّى أبا المطراب أو أبا المطراد:

لقد خفتُ حتى لو تمرُّ حمامةٌ ... لقلت عدوٌّ أو طليعة معشرِ
فإن قيل: أمْن، قلت: هذي خديعةٌ ... وإن قيل: خوْف، قلتُ: حقًّا فشمِّرِ
فللّه دَرُّ الغول أي رفيقةٍ ... لصاحب قفرٍ خائفٍ متنفِّرِ
أرنَّتْ بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدتْ ... حواليَّ نيرانًا تلوح بأزهَرِ
وأصبحتُ كالوحشيّ يتبع ما خلا ... ويطلب مأنوسَ البلاد المبعثَرِ

وقال عبيد بن أيوب أيضًا:

تقول وقد ألْمَمْتُ بالإنس لمّةً ... مُخَضَّبَةُ الأطراف خُرْسُ الخلاخلِ[٢]
يهذا خليل الغول والذِّئبِ والذي ... يهيم بربَّات الحجال الهراكلِ[٣]
رأتْ خَلَقَ الأدراس أشعثَ شاحبًا ... على الجدب بسّامًا كريمَ الشمائلِ[٤]
تعوَّدَ من آبائه فتكاتِهم ... وإطعامَهم في كل غبراءَ شامِلِ[٥]

حكاية النُّورَة[٦]
وتآمر الجنّ على زواج سليمان من بلقيس

عندما قرر النبيّ سليمان الزواج من بلقيس، ملكة سبأ، اجتمعت الجن وقالوا: إن هو تزوج منها أتته بولد تجتمع فيه فطنة الإنس والجن وكيد النساء، فلا

---

(١) من شعراء العصر الأموي. كان لصًا حاذقًا. أباح السلطان دمه وبرىء منه قومه فهرب في مجاهل الأرض واستصحب الوحوش وأنس بها. وكان يزعم أنه يرافق الغول والسعلاة ويبايت الذئاب والأفاعي.
(٢) ألمّ بالإنس لمّةً: التقى بهم لقاءً يسيرًا.
(٣) الهراكل: جمع هركلة، وهي المرأة الحسنة الجسم والخلق والمشية. وربات الحجال: النساء.
(٤) الأدراس: الثياب الخلقة البالية.
(٥) كتاب الحيوان: ٤ ـ ٧/٤١٨.
(٦) النُّورة: أخلاط تُضاف إلى الكلس، من زرنيخ وغيره، تستعمل لإزالة الشعر.

نصيب راحة ولا نأمن على أنفسنا الهلكة، وينحجب عنا كل خير وينزل بنا كل سوء وشر. تعالوا فلنزهّده فيها، فإنه قد ذكر أنه يريد الزواج منها.

فقال عفريت من الجن يقال له زوبعة: أنا أكفيكم سليمان. ثم أتاه فقال: يا نبيّ الله، بلغني أنك تريد الزواج من بلقيس، وأمُّها من الجن، ولم تلد جنيّةٌ من إنسيّ ولدًا قط إلا كانت رجله كحافر الحمار وساقه شعراء[1]، حادَّ النفس حارَّ الجسم. قال سليمان: فكيف لي أن أنظر إلى ذلك منها، وأعلم من غير أن تعلم ما أريد؟

قال زوبعة: أنا أكفيك ذلك. وصنع زوبعة لسليمان قصرًا من زجاج أبيض ووضع سريره في صدره، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره. ثم قال زوبعة لسليمان: أرسل في طلبها، فلتدخل عليك فإنك ترى الذي تريد.

فبعث إليها سليمان وهو على كرسيه، ليس في البيت مجلس غيره. فلما رأت الماء والسمك تسبح فيه، حسبته لُجَّةً[2] فكشفت عن ساقيها لتخوض الماء. فلما رآها سليمان ونظر إلى بياض ساقيها وعليهما شعر كثير أسود، قال لها: لا تكشفي عن ساقيك ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ [النَّمل: الآية ٤٤]. فنظرت فإذا مُلكها ليس بشيء عند الله. ولما سمعت ذلك استترت، وتعجبت منه واستدلَّت به على التوحيد والنبوّة. وقالت: يا نبيَّ الله، لقد ظهر الحقُّ وذهب الباطل.

ثم قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٤].

ثم تردَّد سليمان في أمر بلقيس شهرًا، فقال له رجل صالح من الجن، كان يحب ما يوافق سليمان: هل كرهتَ منها غير ذاك الشعر؟ قال: كلَّا! قال: فإني سأجعلها لك مثل الفضة من غير ريب. قال سليمان: وكيف؟ قال: سوف ترى. فصنع لها الجنّيُّ حمَّامًا ونُورَة، وهي كانت أول نورة عملها مخلوق وأول حمام من صنع ذلك الجنّي[3].

---

(١) شعراء: كثيرة الشعر. (٢) اللجَّة: البحر.

(٣) عن كتاب التيجان؛ والتفسير الكبير للرازي: ٢٤/ ١٧٢.

شياطين الشعراء

كان من مذاهب العرب أن لكل شاعر شيطانًا يُلقي إليه الشعر.

قال بعضهم:

إني وإن كنتُ صغيرَ السنِّ ... وكان في العين نُبُوٌّ عنّي
فإن شيطاني أميرُ الجنِّ ... يذهب في الشعر كلَّ فنِّ

وقال آخر:

لقد كان جنّيُّ الفرزدق قُدوةً ... وما كان فينا مثلُ فَحْل المخبَّلِ
ولا في القوافي مثل عمرٍو وشيخه ... ولا بعد عمرٍو شاعرٌ مثل مِسْحلِ[١]

وقال الفرزدق يصف قصيدة له:

كأنها الذهبُ العقيان حبَّرها ... لسانُ أشعرِ خلقِ الله شيطانا

وقال أبو النجم[٢]:

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرْ ... شيطانُه أنثى وشيطاني ذَكَرْ

وقال الأعشى:

دعوتُ خليليَ مِسْحلًا ودعوا له ... جُهُنَّامَ جَدْعًا للهجين المذمَّمِ[٣]

وقال كُثَيِّر[٤] عَزَّة:

ما قلتُ الشعر حتى قُوِّلتُه. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: بينا أنا يومًا نصفَ النهار، أسير على بعير لي بالغميم أو بقاع حمدان[٥]، إذا براكب قد دنا مني حتى صار إلى جانبي. فتأملته فإذا هو من صُفْرٍ[٦]، وهو يجرّ نفسه في الأرض جرًّا.

---

(١) «عمرو» هو اسم شيطان المخبَّل السعدي. و«مِسْحَل» اسم شيطان الأعشى.
(٢) هو الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم. من أكابر الرجّاز ومن أحسن الناس إنشادًا للشعر. نبغ في العصر الأموي، وتوفي سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م.
(٣) جُهُنَّام هو تابع أو شيطان الشاعر الذي كان يهاجي الأعشى.
(٤) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمٰن الخزاعي. اشتهر بحبّه العذري لعزّة بنت حُميل الضمرية، وشعره فيها عذب كثير. توفي سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م.
(٥) الغميم وبقاع حمدان: موضعان.
(٦) الصُفر: النحاس.

فقال لي: قُل الشعر؛ وألقاه عليّ. قلت: مَن أنت؟ قال: أنا قرينُك من الجن. فقلت الشعر بعد ذلك(١).

شيطان حسان بن ثابت الأنصاري

قال حسان(٢):

إذا ما ترعرع فينا الغلام فما إنْ يقال له: من هُوَهْ؟
إذا لم يَسُدْ قبل شَدِّ الإزار فذلك فينا الذي لا هُوَهْ
ولي صاحبٌ من بني الشَّيْصَبان فطَوْرًا أقولُ وطورًا هُوَهْ

ولهذا الشعر قصة طريفة رواها صاحب «لسان العرب» قال:

الشيصبانُ، والبَلْأَزُ، الجَلْأَزُ، والجانُ، والقازُ، والخيتعور: كلها من أسماء الشيطان. والشيصبان أبو حيّ من الجن. قال: وكانت السعلاة لقيت حسان بن ثابت في بعض أزقة المدينة، فصرعته وقعدت على صدره وقالت له: أنت الذي يأمل قومك أن تكون شاعرهم؟ فقال: نعم. قالت: والله لا ينجيك مني إلا أن تقول ثلاثة أبيات على رويّ واحد. فقال حسان هذه الأبيات. وفيها روايات أخرى(٣).

شيطان الأعشى

ذكروا أن هاجس الأعشى (أي شيطان شعره) كان اسمه مِسْحَل بن أُثاثة. ويروون عن الأعشى أنه قال:

خرجتُ أريد قيس بن معد يكرب بحضرموت، فضللت في أوائل أرض اليمن، لأني لم أكن سلكت ذلك من قبل فأصابني مطر، فرميت ببصري أطلب مكانًا ألجأ إليه. فوقعت عيني على خباء من شعر، فقصدت نحوه وإذا على باب الخباء رجل، فسلّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام، وأدخل ناقتي خباء آخر كان بجانب البيت، فحططت رحلي وجلست، فقال: مَن أنت؟ وأين تقصد؟

---

(١) الأغاني: ٩/ ٢٤.
(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري؛ الصحابي، شاعر النبيّ ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام.
(٣) لسان العرب: ١/ ٤٩٥.

قلت: أنا الأعشى، أقصد قيس بن معد يكرب. فقال: حيَّاك الله! أظنُّك امتدحته بشعر؟ قلت: نعم قال: فأنشدنيه، فابتدأت مطلع القصيدة:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجمالها غضبًا عليك، فما تقولُ بدالها؟

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال: حسبُك! أهذه القصيدة لك؟ قلت: نعم. فنادى: يا سميّة أخرجي. وإذا جارية خماسية قد خرجت، فوقفت، وقالت: ما تريد يا أبتِ؟ قال: أنشدي عمَّك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب ونسيتُ بك في أولها. فاندفعَتْ تنشد القصيدة حتى أتيت على آخرها لم تخرم منها حرف. فلما أتمتها قال: انصرفي، ثم قال: هل قلتَ شيئًا غير ذلك؟ قلت: نعم، كان بيني وبين ابن عم لي - يقال له يزيد بن مسهر ويكنَّى أبا ثابت - ما يكون بين بني العم، فهجاني وهجوته فأفحمته. قال: ماذا قلت فيه؟ قلت: قلت:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الرَّكب مرتحِلُ وهل تطيق وداعًا أيها الرجل؟

فلما أنشدته البيت الأول قال: حسبك! ومن هريرة هذه التي نسبت فيها؟ قلت: لا أعرفها، سبيلها سبيل التي قبلها.

فنادى: يا هريرة! فإذا جارية قريبة السِّن من الأولى خرجت، فقال: انشدي عمَّك قصيدتي التي هجوتِ بها أبا ثابت يزيد بن مسهر. فأنشدتها، من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفًا.

فأُسقط في يدي، وتحيّرت، وتغشَّتني رعدة، فلما رأى ما نزل بي قال: ليُفْرخ[١] رُوعك يا أبا بصير! أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسي، ورجعت إليَّ. ثم دلّني على الطريق، وأراني سَمْتُ مقصدي وقال: لا تَعُجْ[٢] يمينًا ولا شمالًا حتى تصل بلاد قيس[٣].

دِعْبل الخزاعي ورجلٌ من الجنّ

وزعم دِعْبل الخزاعي[٤] أن رجلًا من الجن استنشده قصيدته «مدارس آيات خلت». قال:

---

(١) أفرخ رُوعه: خلا قلبه من الهم. (٢) عاج: مال وانحرف يمينًا أو شمالاً.

(٣) بلوغ الأرب: ٣٦٨/٢. وشرح مقامات البديع: ٢٧٣.

(٤) هو دعبل بن علي الخزاعي. شاعر هجَّاء. هجى الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. توفي=

لما هربت من الخليفة المتوكل العباسي بتُّ ليلة في نيسابور وحدي، وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة. فإني لفي ذلك إذ سمعتُ والباب مردود علي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أَنْجُ يرحمك الله! فاقشعر بدني من ذلك، ونالني أمر عظيم.

فقال: لا تُرَعْ عافاك الله؛ فإني رجل من إخوانك الجن من ساكني اليمن طرأ إلينا طارىء من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك.

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مقفرُ العرصات

فأحببت أن أسمعها منك.

قال: فأنشدته إياها، فبكى حتى خرَّ، ثم قال: رحمك الله! ألا أحدِّثك حديثًا يزيد في نيَّتك ويعينك على التمسّك بمذهبك؟ قلت: بلى. قال: مكثتُ حينًا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام، فصرتُ إلى المدينة فسمعته يقول:

حدَّثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: عليٌّ وشيعتُه هم الفائزون.

قال دعبل:

ثم ودَّعني لينصرف، فقلت له: يرحمك الله. إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل.

قال: أنا ظبيان بن عامر[1].

عبيد بن الأبرص وشجاع الجنّي

سافر عبيد بن الأبرص[2] في ركب من بني أسد، فبينا هم سائرون إذا بحيوان فاتحًا فاه من العطش. وكانت مع عبيد فضلة من ماء ليس معه غيرها، فنزل فسقى الحيوان حتى رويَ وانتعش، فانساب بالرمل. فلما كان الليل ونام

= سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م.

(١) الأغاني: ٢٠/١٤٣.

(٢) شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها. عاصر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. عُمّر طويلًا حتى قتلته النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم نحسه.

القوم، ندَّتْ[١] رواحلهم، فلم يُرَ لشيءٍ منهم أثر. فقام كل واحد يطلب راحلته فتفرقوا.

وبينا عبيد كذلك، وقد أيقن على الهلاك والموت إذا بهاتف يهتف:

أيها الساري المضلُّ مذهَبَهُ دونك هذا البكرَ فاركَبْهُ
وبكرُكَ الشاردُ أيضًا فاجنِبْهُ حتى إذا الليلُ تجنَّى غَيْهَبُهُ[٢]
فحُطَّ عنه رحله وسيِّبْهُ

فقال له عبيد: أيهاذا المخاطب، نشدتك الله إلَّا أخبرتني من أنت؟ فأنشأ يقول:

أنا الشجاعُ الذي ألفَيْتَهُ رَمِضًا في قفرةٍ بين أحجارٍ وأعقادِ[٣]
فجُدْتَ بالماء لما ظنَّ حامِلَهُ وزدت فيه ولم تبخل بإنكادَ[٤]
الخيرُ يبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوْعَيْتَ من زاد

فركب البكر وأجنب بكره، فبلغ أهله مع الفجر. فنزل وحلَّ راحلته وخلّاه فغاب عن عينيه، ثم جاء من سَلِم من القوم بعد ثلاثة أيام[٥].

تأبّط شرًّا يَقتل الغُول[٦]

قال عمرو بن أبي عَمْرو الشيباني: نزلت على حيٍّ من فَهْم، فسألتهم عن خبر تأبَّطَ شرًّا، فقال لي بعضهم: وما سؤالك عنه؟ أتريدُ أن تكون لِصًّا! قلت: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء العدَّائين فأتحدثَ بها. فقالوا: نُحدّثك بخبره:

إنَّ تأبط شرًّا كان أَعْدَى ذِي رِجْلين وذي ساقين وذي عَيْنَيْن، وكان إذا جاع لم تقمْ له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينتَقي على نظره أَسْمَنَها، ثم يجري خلفه فلا يفوتُه حتى يأخذَه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله.

(١) ندَّ البعير: نفر وشرد.
(٢) البكر: الفتيّ من الإبل. وجنبه جنبًا: قاده إلى جنبه.
(٣) الرمض: الذي احترق جوفه من شدة العطش. ألفيته: وجدته.
(٤) الإنكاد: قلة العطاء. (٥) الأغاني: ١٩/١٧٢.
(٦) الأغاني: ٨ ـ ٢٠٩. البلدان: ٤ ـ ٢٣١.

وإنما سمي تأبط شرًّا؛ لأنه فيما حُكِيَ لنا: لقي الْغُولَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له: رحى بِطَان[1]، في بلاد هُذَيل، فأخذت عليه الطريق، فلم يزلْ بها حتى قَتَلَها، وبات عليها. فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه، فقالوا له: لقد تأبط شرًّا، وقال في هذا:

ألا مَـنْ مُـبْـلِـغٌ فـتـيـانَ فَـهْـمٍ ... بـمـا لاقـيـتُ عـنـد رَحَـى بِـطـانِ
وأنـي قـد لـقـيـتُ الـغُـولَ تَـهْـوِي ... بِسُهْبٍ كالصحيفة صَحْصحَانِ[2]
فقلتُ لـهـا: كِلَانَا نِضْوُ أَيْـنٍ[3] ... أخـو سـفَـرٍ فَـخَـلِّي لـي مـكـانِ
فـشـدت شَـدَّةً نـحـوي فـأهـوَى ... لـهـا كـفّـي بـمـصـقـولٍ يَـمـانـي
فـأضـربـهـا بـلا دَهَـشٍ فَـخَـرَّتْ ... صـريـعًـا لـلـيـديـن ولـلـجِـرَانِ[4]
فقالت: عُدْ فقلت لها: رويدًا[5] ... مـكـانَـكِ! إنـنـي ثَـبْـتُ الـجـنَـانِ
فـلـم أنْـفَـكَّ مـتـكـئًـا عـلـيـهـا ... لأنـظـرَ مُـصْـبِـحًـا مـاذا أتَـانـي
إذا عـيـنـان فـي رأسٍ قـبـيـحٍ ... كـرأس الـهـرّ مـشـقـوق الـلـسـانِ
وسـاقَـا مُـخْـدَجٍ وشَـواة كـلـبٍ[6] ... وثـوبٌ مـن عَـبَـاءٍ أو شـنـانِ

رئيّ[7] الأعشى[8]

قال جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ: سافرتُ في الجاهلية فأقبلتُ على بَعيري ليلةً أريد أن أسْقيهُ، فجعلت أُريدُهُ على أن يتقدم، فوالله ما يتقدَّم، فتقدمت فدنوتُ من الماء وعَقَلتهُ، ثم أتيتُ الماء فإذا قومٌ مشوَّهُون عند الماء فقعدت.

فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهًا منهم فقالوا: هذا شاعرُهم. فقالوا له: يا فلان؛ أنشدْ هذا فإنه ضفٌ؛ فأنشد:

ودِّعْ هـريـرةَ إن الـركـب مُـرتـحِـلُ

(١) رحى بطان: موضع لهذيل.
(٢) الصحصحان: ما استوى من الأرض واتسع.
(٣) الأين: الإعياء والتعب.
(٤) الجران للبعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره.
(٥) زعمت العرب أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت بها، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت.
(٦) مخدج: ناقص الخلق، والشواة: جلدة الرأس، والشنان: جمع شن وهو القربة الخلق.
(٧) الرئي: الجنى.
(٨) الأغاني: ٩ ـ ١٥٦.

فلا والله ما خرم منها بيتًا واحدًا، حتى انتهى إلى هذا البيت:

تسمع للجَلْيِ وَسْواسًا إذا انصرفتْ كما استعانَ بريحِ عِشْرِقٌ زَجِلُ[١]

فأعجِب به. فقلت: مَن يقول هذه القصيدة؟ قال: أنا. قلت: لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى بني ثعلبة أنشدنيها عامًا أوّلَ بنجْران. قال: فإنك صادق، أنا الذي ألقيتُها على لسانه، وأنا مِسْحَل صاحبه، مَا ضاع شعر شاعر وضعه عند مَيْمون بن قيس!

هَاجِس الأعشى[٢]

قال الأعشى[٣]: خرجتُ أريدُ قَيْس بن مَعْدِ يَكرب بحضرموت، فضَلَلْتُ في أوائل أرْضِ اليمن؛ لأني لم أكُنْ سلكتُ ذلك الطريقَ قبلُ، فأصابني مطر، فرميتُ ببصري أطلبُ مكانًا ألجأ إليه، فوقعتْ عيني على خِبَاء[٤] من شعَر، فقصدتُ نحوَه، وإذا أنا بشيخ على بَابِ الخِبَاء، فسلَّمتُ عليه، فردّ عليّ السلام، وأدخل ناقتي خِباءً آخر كانَ بجانب البيت، فحططتُ رَحْلِي وجلست، فقال: مَنْ أنت؟ وإلى أين تقصد؟ قلت: أنا الأعشى، أَقْصِد قَيْس بن مَعْدِ يكرب فقال: حيّاك الله! أظنُّك امْتَدَحته بشعر؟ قلت: نعم، قال: فأنْشِدْنيه، فابتدأتُ مطلع القصيدة:

رَحلَتْ سُمَيَّة غُدْوَةً أجمالـها غَضَبًا عليك فما تقولُ بدَا لَها!

فلما أنشدتُه هذا المطلع قال: حسبك! أهذه القصيدة لك؟ قلت: نعم، قال: مَن سُمَيَّة التي تَنْسُبُ بها؟ قلت: لا أعرفها، وإنما هو اسم أُلْقِيَ في رُوعِي[٥]؛ فنادى: يا سُمية؛ اخْرُجي، وإذا جارية خماسيّة[٦] قد خرجتْ، فوقفتْ وقالت: ما

---

(١) الوسواس: صوت الحلى، والعشرق: شجيرة مقدار ذراع، لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب، فسمع له خشخشة على الحصى. شبه وسواس حليها بصوته إذا ضربته الريح. والزجل: رفع الصوت بالطرب، والزجل بالكسر: صفة منه.

(٢) خزانة الأدب: ٣ ـ ٥٤٩ (طبعة بولاق).

(٣) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسي من فحول شعراء الجاهلية، وطال عمره حتى كان الإسلام، فأعد قصيدة يمدح بها النبيّ وقصده بالحجاز فلقيه كفار قريش وصدوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء، ويرجع إلى بلده ففعل، ولما قرب من اليمامة سقط عن ناقته فدقت عنقه ومات.

(٤) الخباء من الأبنية: يكون من وبر أو صوف أو شعر.

(٥) الروع: القلب والعقل.

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار.

تريد يا أبتِ؟ قال: أنشدِي عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب، ونسَبْتُ بكِ في أولها، فاندفعت تُنشِدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تَخْرِمْ منها حرفًا، فلما أتمَّتْها قال: انْصرفي، ثم قال: هل قلتَ شيئًا غير ذلك؟ قلت: نعم، كان بيني وبين ابن عمٍّ لي يقال له يزيد بن مُسْهِر، ما يكون بين بني العم، فهجاني وهجوته فأفْحَمتُه. قال: ماذا قلت فيه؟ قال: قلت:

ودع هُريرَةَ إن الركبَ مُرتحلُ وهل تُطيقُ وَدَاعًا أيُّها الرَّجُلُ!

فلما أنشدته البيتَ الأول، قال: حَسْبُكَ! مَن هُريرةُ هذه التي نسَبْتَ بها؟ قلت: لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها؛ فنادى: يا هريرة؛ فإذا جاريةٌ قريبة السنّ من الأولى خرجتْ، فقال: أنشدي عمك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيدَ بنَ مسهر، فأنشدَتْها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفًا، فَسُقِط في يدي وتحيّرت وتغشتْني رِعْدة.

فلما رأى ما نزل بي قال: ليُفْرِخْ رَوْعُك[1] يا أبا بصير؛ أنا هاجِسُك مِسْحَل بن أُثَاثة، الذي أَلْقى على لسانك الشعر.

قال الأعشى: فسكنَتْ نفسي ورجعت إليّ، وسكن المطر، فدلّني على الطريق، وأراني سَمْتَ مقصدي، وقال: لَا تَعُجْ يمينًا ولا شمالًا حتى تقع ببلاد قَيس.

عَبِيد بن الأبرص وَالشّجَاع[2]

قال القاضي يحيىٰ بن أكثم: دخلت يومًا على هارون الرشيد، وهو مطرق مفكر، فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت:

الخير أبْقَى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص! فقال: أخبرني عنه. فقلت: يا أمير المؤمنين؛ حدث عَبيد قال:

كنتُ في بعض السنين حاجًّا، فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعتُ ضجّة عظيمة في القافلة ألحقَتْ أولها بآخرها، فسألتُ عن القصة، فقال لي

(١) ليفرخ روعك: ليذهب رعبك وفزعك، فإن الأمر ليس على ما تحاذر.

(٢) المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)، الأغاني: ١٩ ـ ٨٦، المستطرف: ١ ـ ٢٤٤.

رجل من القوم: تقدم ترَ ما بالناس. فتقدّمتُ إلى أول القافلة فإذا أنا بشُجاع[١] أسود فاغِرٍ فَاه كالجِذْع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرُغاء البعير؛ فهالني أمرُه، وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضَنا ثانيًا؛ ولم يجسُر أحد من القوم أن يَقْربه، فقلتُ: أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاصِ هذه القافلة منه.

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللتُ سيفي، فلما رآني قَربتُ منه سكَن، وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعني فيها، فلما رأى القِربة فتح فاه، فجعلت فم القربة في فيّه، وصببتُ الماء كما يُصبّ في الإناء. فلما فرغت القربة تسيّب في الرمل ومضى؛ فتعجبت من تعرُّضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا، ومضينا لحجّنا.

ثم عُدْنا في طريقنا ذلك، وحططنا في منزلنا ذلك، في ليلة مظلمة مُدْلهمّة، فأخذت شيئًا من الماء وعدلتُ إلى ناحية عن الطريق، فأخذتني عيني؛ فنمتُ مكاني؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسًّا، وقد ارتحلوا، وبقيتُ منفردًا لم أر أحدًا، ولم أهتدِ إلى ما أفعلُه، وأخذتني حيرة، وجعلت أضْطَربُ، وإذا بصوت هاتف أسمعُ صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُه ... ما عنده من ذي رشادٍ يصحبُه
دونك هذا البَكْر منا تركبه ... وبَكْرُك الميمون حقًّا تَجْنبه[٢]
حتى إذا ما الليل زال غَيهبُه[٣] ... عند الصباح في الفلَا تسيّبه[٤]

فنظرت فإذا بِبَكْرٍ قائم عندي وبَكْرِي إلى جانبي، فأنختُه وركبته، وجنبتُ بكري؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى البكْر، وقلت:

يا أيها البَكر قد أنجيتَ من كَرب ... ومن هموم تضل المدْلج الهادي
ألا فَخَبِّرْنيَ بالله خالِقِنا ... من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميدًا فقد بلّغتنا مِننا ... بوركتَ من ذي سنام رائح غادي

---

(١) الشجاع: الذكر من الحيات.
(٢) جنب البعير: قاده إلى جنبه.
(٣) الغيهب: شدة سواد الليل.
(٤) سيب الشيء: تركه.

فالتفت البكر إليّ، وهو يقول:

أنا الشجاعُ الذي ألْفَيتَني رَمِضًا والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصَّادي
فجدتَ بالماء لمّا ضنّ حامِلُه نصف النهار على الرّمْضَاء في الوادي
الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنَّا لا يُمنُّ به لك الجميلُ علينا إنك البادي

فعجب الرشيدُ من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكُتبت، وقال: لا يضيع المعروف أين وُضع!

ومَن عِبيد لولا هَبيد[(١)]

قال رَاوٍ:

خرجتُ على بعيرٍ لي صعب يمرّ لا يُملِّكني من أمر نفسي شيئًا، حتى مرّ على جماعةِ ظباء في سفحِ جبل، على قُلّتهِ رجل عليه أطْمَار[(٢)]، فلما رأتني الظباء هربت، فقال: ما أردت إلى ما صنعت؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدَعكم[(٣)] عن ذلك! فداخلني عليه من الغيظ ما لم أقدِر أن أحمله، فقلت: إن تَفْعل بي ذلك لا أرضى لك؛ فضحك، ثم قال: امضِ ـ عافاك الله ـ لبَالِك.

فجعلت أردّد البعير في مراعي الظباء، لأُغضبه، فنهض وهو يقول: إنك لجليد القلب؛ ثم أتاني فصاح ببعيري صيحة، ضرب بجِرَانه[(٤)] الأرض، ووثبتُ عنه إلى الأرض، وعلمت أنه جَانٌّ، فقلت: أيها الشيخ؛ إنك لأَسْوَأُ مني صنيعًا؛ فقال: بل أنت أظلم وألأم، بدأتَ بالظلم، ثم لَؤُمت في تركِكَ المضي، فقلت: أجل! عرفتُ خطئي، قال: فاذكر الله فقد رُعْناك، وبذكر الله تطمئن القلوب، فذكرت الله تعالى، ثم قلت دهشًا: أتروي من أشعار العرب شيئًا؟ فقال: نعم، أروي وأقول قولًا فائقًا مبرّزًا، فقلت: فأرني من قولك ما أحببت؛ فأنشأ يقول:

طافَ الخيالُ علينا ليلةَ الوادي من آل سلْمى ولم يُلْمِمْ بميعاد

---

(١) الجمهرة: ٢٣.
(٢) الأطمار: جمع طمر، وهو الثوب الحلق.
(٣) قدعكم: كفكم ومنعكم.
(٤) جران البعير: مقدم عنقه من مذبحه إلى منخره.

إني اهتديت إلى مَنْ طال ليلُهُمُ في سَبْسَبٍ[١] ذات دَكْدَاك وأَعْقَادِ[٢]
يكلّفون سُرَاها كل يَعْمَلةٍ[٣] مثل المَهَاةِ إذا ما حثَّها الحادي
أبلغ أبا كَربٍ[٤] عني وأسرتَه قولًا سَيَذْهَبُ غَوْرًا بعد إنجاد
يا عَمْرو؛ ما راح من قومٍ ولا ابتكروا إلا وللموتِ في آثارهم حادي
لا أعرفنَّك بعد اليوم تندُبني وفي حياتيَ ما زوَّدتني زادِي
أمّا حِمَامُك يومًا أنتَ مُدركه لا حاضِرٌ مُفْلِتٌ منه ولا بادِي

فلما فرغ من إنشاده قلت: لهَذا الشعر أشهر في معدّ بن عدنان من ولد الفرس الأبلق[٥] في الدُّهم[٦] العِراب[٧]، هذا لعَبيد بن الأبرص الأسدي، فقال: ومن عَبيد لولا هَبيد! فقلت: ومَن هَبيد؟ فأنشأ يقول:

أنا ابنُ الصّلادم أُدْعى الهبيد حبوت القوافي قَرْمَى[٨] أسد
عبيدًا حبوتُ بمأثورةٍ وأنطقت بِشْرًا[٩] على غير كَدْ
ولاقى بمُدرك رهطُ الكُمَيت[١٠] ملاذًا عزيزًا ومجدًا وجَدْ
منحناهمُ الشعر عن قُدْرة فهل تشكرُ اليومَ هذا مَعَد!

فقلت: أما عن نفسك فقد أخبرتني، فأخبرني عن مُدْرك، فقال: هو مُدْرك بن واغم صاحب الكُميت، وهو ابن عمي، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن. ثم قال: لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا! فقلت: هات، أريد الأنْسَ به، فذهب فأتاني بعُسٍّ[١١] فيه لبن ظبي، فكرهته لزُهومته[١٢]، فقلت: إليك! ومَجَجْتُ ما كان في فمي منه، فأخذه ثم قال: امضِ راشدًا مصاحبًا، فوليت

---

(١) السبسب: المفازة.
(٢) الدكداك: أرض فيها غلظ، الأعقاد: جمع عقد، ما تعقد من الرمل.
(٣) اليعملة: الناقة النجيبة.
(٤) أبو كرب: عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار.
(٥) الأبلق: ما فيه سواد وبياض.
(٦) الدهم: السود.
(٧) العراب: الأصيلة.
(٨) القرم: السيد، ويريد بقرمى أسد عبيدًا وبشرًا فهما من قبيلة أسد.
(٩) بشرًا: هو بشر بن أبي خازم الشاعر.
(١٠) الكميت: هو الكميت بن زيد الأسدي.
(١١) عس: إناء.
(١٢) الزهومة: رائحة منتنة غير مقبولة.

منصرفًا، فصاح بي من خلفي؛ أما إنك لو شربت ما في العُس، لأصبحت أشعر قومك.

قال: فندِمت على أني لم أشرب ما في عُسّه في جوفي على ما كان من زُهومته، وأنشأت أقول في طريقي:

أسفت على عُسّ الهِبيد وشربه ... لَقَدْ حَرَمَتْنِيه صروف المقادِرِ

ولو أنني إذْ ذَاك كنتُ شربته ... لأصبحتُ في قومي لهم خيرَ شاعر

لَافظ بن لاحظ![1]

حدّث أحد الرواة قال: خرجت في طلب لِقَاح[2] لي على فَحْلٍ كأنه فَدَن[3]، يمرُّ بي يسبق الريح، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفِنائها شيخٌ كبير، فسلّمت فلم يردّ عليّ، فقال: من أين؟ وإلى أين؟ فاستحمقته؛ إذ بَخِل بردِّ السلام، وأسرعَ إلى السؤال، فقلت: مِنْ هنا! وأشَرْتُ إلى خلفي، وإلى هٰهنا! وأشرت إلى أمامي؛ فقال: أمّا مِنْ هٰهنا فنعم، وأما إلى هٰهنا فوالله ما أراك تبتهج بذلك، إلا أن يسهل عليك مُدَاراة من تَرد عليه! قلت: وكيف ذلك أيها الشيخ؟ قال: لأن الشكلَ غير شكلِك، والزيَّ غيرُ زيك، فضرب قلبي أنه من الجن، وقلتُ: أتروي من أشعار العرب شيئًا؟ قال: نعم وأقول، قلت: فأنشِدْني - كالمستهزىء به! فأنشَدَني قول امرىء القيس:

قفا نَبْك من ذِكْرى حبيبٍ ومَنْزِلِ ... بسِقْط[4] اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَلِ

فلما فرغ قلت: لو أن امرأ القيس يُنْشَر لرَدَعك عن هذا الكلام. فقال: ماذا تقول؟ قلت: هذا لامرىء القيس، قال: لستُ أولَ مَن كُفِر نعمة أسداها! قلت: ألا تستحي أيها الشيخ، ألِمثلِ امرىء القيس يقال هذا؟ قال: أنا والله منَحْتُه ما أعجبك منه! قلتُ: فما اسمك؟ قال: لافظ بن لاحظ، فقلت: اسمان منكَران! قال: أجل! فاستحمقتُ نفسي له، بعد ما استحمقته لها، وأنِسْتُ به لطول محاورتي إياه، وقد عرفت أنه من الجنّ، فقلت له: مَنْ أشعرُ

(١) الجمهرة: ٢٣.
(٢) اللقاح: الإبل.
(٣) الفدن: القصر.
(٤) سقط اللوى والدخول وحومل: مواضع بنجد.

العرب؟ فأنشأ يقول:

ذهب ابنُ حُجْر[١] بالقريض وقولهِ ولقد أجاد فما يُعَاب زياد[٢]
لله هاذر إذْ يجودُ بقوله إنّ ابن ماهر بعدَها لجوادُ

قلت: مَن هاذر؟ قال: صاحب زياد الذُّبياني وهو أشعر الجن، وأضنهم بشعره، ولقد علّم بنيةً لي قصيدة له من فيه إلى أذنها، ثم صرخ بها: اخْرُجي فدًى لك ما وَلَدَتْ حوّاء! فقلت له: ما أنصفتَ إيها الشيخ، فقال: ما قلتُ بأسًا، ثم رجعت إلى نفسي فعرفتُ ما أراد، فسكت، ثم أنشدتني الجارية:

نأتْ بسعادَ عنك نوًى شَطُون[٣] فباتَتْ والفؤادُ بها حزين

حتى أتت على قوله منها:

كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قال: لو كان رأيُ قوم نوحٍ فيه كَرَأْيِ هاذر ما أصابهم الغَرق! فحفظت البيتين، ثم نهض بي الفَحْل فعدتُ إلى لقاحي.

تَابع زهَير بن أَبِي سَلمى[٤]

قال عليّ بن الجَهم القُرشي: دخلتُ على المتوكل يومًا، وهو جالسٌ وحدَه، فسلمتُ عليه فردّ السلام؛ وأجلَسني، فحانت مني التفاتة، فرأيتُ الفتحَ بن خاقان[٥] واقفًا في غير رتبته التي كان يقوم فيها، متكئًا على سيفه مُطْرِقًا، فأنكرت حاله، فكنت إذا نظرتُ إليه نظر إليّ الخليفة، فإذا صرفتُ وجهي نحو الخليفة أطرق.

فقال: يا عليّ، أنكرت شيئًا؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! فقال: ما هو؟ قلت: وقوفُ الفتحِ في غير رُتْبَتِه التي كان يقومُ فيها!

---

(١) ابن حجر: امرؤ القيس.
(٢) زياد: النابغة الذبياني.
(٣) شطون: بعيدة.
(٤) معجم الأدباء: ١٦ ـ ١٨٠.
(٥) هو الفتح بن خاقان بن أحمد القائد، كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب، وكان من أولاد الملوك، اتخذه المتوكل أخًا، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسي.

قال: سوءُ اختياره أقامَه ذلك المُقَام. قلت: ما السببُ يا أمير المؤمنين؟ قال: خرجتُ من عند قَبيحَة[١] آنفًا، فأسرَرْتُ إليه سرًّا، فما عداني السرُّ إذْ عادَ إليّ! قلت: لعلَّك أسْرَرْتَه إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين! قال: ما كان هذا؟ قلت: فلعل مُسْتَمِعًا استمعَ عليكما! قال: ولا هذا أيضًا.

فأطرقْتُ مليًا؛ ثم رفعتُ رأسي، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجًا! قال: ما هو؟ قلت: حدّثنا الفضل بن دُكَيْنٍ، قال أبو الجوزاء: طلّقْتُ امرأتي في نفسي، وأنا في المسجد، ثم انصرفْتُ إلى داري، فقالتْ لي امرأتي: أطلّقْتنِي يا أبا الجوزاء؟ قلتُ: من أين لك هذا؟ قالت: خبّرتني جارتي الأنصارية! قلت: ومَنْ خبّرها بذلك؟ قالت: ذكرت أنّ زوجَها خبّرها بذلك!

فغدوتُ على ابن عباس فقصصت عليه القصة؛ فقال: علمتُ أن وَسْوَاسَ[٢] الرجل يحدّث وَسْواس الرجل، فمِنْ هٰهنا يَفْشو السر.

قال أبو نُعَيْم: فكان في نفسي من هذا شيء حتى حدّثني حمزة الزيات، قال: خرجت سنة من السنين أريد مكة، فلما جُزْتُ في بعض الطريق ضلّت راحلتي، فخرجتُ أطلبُها، فإذا باثنين قد قبضَا عليّ، أحِسّ حسَّهما؛ وأسمعُ كلامهما، ولا أرى شخصَهما! فأخذاني وجاءَا بي إلى شيخ قاعدٍ على تَلْعَةٍ[٣] من الأرض، حسن الشَّيْبَةِ؛ فسلّمت عليه فردّ السلام؛ فأفرخ[٤] رُوعي؛ ثم قال: مِنْ أين؟ وإلى أين؟ فقلت: من الكوفة أريد مكة.

قال: ولم تخلّفْتَ عن أصْحَابك؟ فقلتُ: ضلّت راحلتي فجئتُ أطلبُها!

فرفع رأسَه إلى قوم على رأسه؛ فقال: زامِلَة[٥]؛ فأُنيخَتْ بين يديّ؛ ثم قال لي: أتقرأ القرآن! قلت: نعم! قال: هاته! فقرأت حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩].

---

(١) قبيحة: جارية المتوكل.
(٢) وسواس الرجل: الشيطان الذي يوسوس له. والوسوسة: الصوت الخفي والهمس.
(٣) التلعة: ما ارتفع من الأرض.
(٤) الروع: القلب، وأفرخ: أخرج ما به من خوف.
(٥) منادى محذوف منه حرف النداء، اسم ناقته.

فقال لي: على رِسْلِك! تدري كم كانوا؟ قلت: اللهم لا! قال: كنا أربعة؛ وكنتُ المخاطِبَ لهم فقلت: «يا قومنا أجيبوا داعيَ الله».

ثم قال لي: أتقول الشعر؟ قلت: اللهم لا! قال: أفَتَرْويه؟ قلت: نعم! قال: هاته! فأنشدته قصيدة:

أَمِنْ أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمانةِ الدَّرَّاج فالمُتَثَلَّمِ[1]

فقال: لمن هذه؟ قلت: لزهير بن أبي سُلْمَى! قال: الجني؛ قلت: بل الإنسي! مرارًا.

فرفع رأسه إلى قومٍ على رأسه، فقال: زهيرُ! فأتى بشيخٍ كأنه قطعة لحم؛ فأُلقِيَ بين يديه، فقال له: يا زهير! قال: لبيك! قال: «أَمِنْ أم أوفى» لمن؟ قال: لي! قال: هذا حمزة الزياتُ يذكرُ أنها لزهير بن أبي سلمى الإنسي، قال: صدَق هو، وصدقتَ أنت!

قال: وكيف هذا؟ قال: هو إلْفِي من الإنس، وأنا تابعُه من الجنّ، أقول الشيء فألقيه في وَهْمِه، ويقولُ الشيء فآخذه عنه؛ فأنا قائلها في الجن، وهو قائلها في الإنس.

قال أبو نعيم: فصدّق عندي هذا الحديثُ حديثَ أبي الجوزاء إن وَسواس الرجل يحدث وَسْواس الرجل! فمن هٰهنا يفشو السر!

فاستفرغ[2] المتوكل ضحكًا، وقال: إليَّ يا فتحُ! فصبّ عليه خلعًا[3]، وحُمِل على شيء من الظَّهْر، وأمر له بمال، وأمر لي بدون ما أمر له به.

فانصرفت إلى منزلي، وقد شاطرني الفتح ما أخذ، فصار الأكثر إليَّ، والأقلّ عنده.

---

(١) أم أوفى: على حذف مضاف، أي أمن منازل أم أوفى، والدمنة ما بقي من آثار الديار، وحومانة الدراج: ماء في طريق البصرة إلى مكة، والمتثلم: موضع أول أرض الصمان.

(٢) بذل جهده في الضحك.

(٣) ما يخلع على الإنسان من الثياب وغيره.

حَاتِم يَقْرِي الضّيف بَعْد مَوته[١]

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم[٢]، فنزلوا قريبًا منه، فقام إليه رجل يقال له أبو الخَيْبَرِي[٣]، وجعل يركض[٤] برجله قَبْرَه؛ ويقول: اقْرِنا، فقال له بعضهم: ويلك! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات؟ إن طيًّا تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرَاه، ثم أجنَّهم الليل، فناموا.

فقام أبو الخيبري فزعًا، وهو يقول: واراحلتاه! فقالوا له: مالك؟ قال: أتاني حاتم في النوم؛ وعقَر ناقتي بالسيف؛ وأنا أنظرُ إليها، ثم أنشدني شعرًا حفِظته، يقول فيه:

أبا الخَيْبَرِيِّ، وأنت امرؤٌ ... ظلومُ العشيرة شتَّامُها
أتيتَ بصحبك تَبْغي القِرَى ... لدَى حُفرةٍ قد صَدَتْ[٥] هامُها
أَتبْغِي لي الذمّ عند المبيت ... وحَوْلك طيٌّ وأنعامُها
فإنَّا لنشبعُ أضيافنا ... وتأتي المطيّ فَنَعْتَامُها[٦]

فقاموا، وإذا ناقة الرجل تَكُوس[٧] عقيرًا، فانتحروها وباتوا يأكلون، وقالوا: قَرانا حاتم حيًّا وميتًا!

وأردفوا صاحبهم، وانطلقوا سائرين، وإذا برجلٍ راكب بعيرًا وهو يقود آخر، قد لحقه، وهو يقول: أيكم أبو الخَيْبَرِيّ؟ قال الرجلُ: أنا! قال: فخذ هذا البعير؛ أنا عدي بن حاتم؛ جاءني حاتم اليوم في النوم، وزعم أنه قراكم بناقتك، وأمرني أن أحملك؛ فشأنُك والبعير[٨]!

---

(١) بلوغ الأرب: ١ ـ ٧٤.

(٢) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طيء، وهو من أجواد العرب، وله أخبار كثيرة في السخاء مشهورة، حتى جرى ذكره مجرى الأمثال، وكان مع ذلك شاعرًا وشجاعًا، توفي سنة ٥٠٦ م.

(٣) قال في القاموس: كأنه ولد بخيبر. وخيبر: حصن قرب المدينة.

(٤) ركض الرجل ركضًا من باب قتل: ضرب برجله.

(٥) صدت: صوتت. والهامة: طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتيل، فلا يفتأ ينادي بثأره حتى يؤخذ به.

(٦) نعتامها: عتمت الإبل، واعتمت، واستعتمت: إذا حلت عشاء.

(٧) تكوس: كاس البعير، مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب.

(٨) إلى هذه القصة أشار ابن دارة الغطفاني في قوله يمدح عدي بن حاتم:

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل ... لدن شب حتى مات في الخبر داعيا =

ودفعه إليهم وانصرف.

جَارُ مَالِك بن حَرِيم[١]

خرج مالك بن حَرِيم في نفر من قومه يريدون عُكاظ، فاصطادوا ظَبْيًا، وأصابهم عطش شديد، فانتهوْا إلى موضع، فَقَصَدُوا الظَّبْي، وجعلوا يشربون من دمه من العطش، فلما ذهب دمُه ذبحوه، وخرجوا في طلب الحطب، وكَمَنَ مالك في خِبائه فأثار بعضُهم شُجاعًا[٢]، فأقبل منسابًا حتى دخل رَحْل مالك، فلاذَ به، وأقبل الرجل في أثره؛ وقال: يا مالك، استيقظ فإن الشجاع عندك؛ فاستيقظ مالك، ونظر إلى الشُّجاع، فإذا هو يلُوذُ[٣] بخ؛ فقال للرجل: عزمتُ عليك إلّا تركته، فكفّ عنه وانسابَ الشُّجاع إلى مأمنه، وأنشأ مالك يقول:

وأوصاني الحريم بعزِّ جاري ... وأمنعه وليس به امتناع

وأدفع ضَيْمَه وأذُبُّ عنه ... وأمنعه إذا منع المَتَاع

ثم ارتحلوا واشتدّ بهم العطش، وإذا بهاتف يهتف بهم ويقول:

يا أيها القوم لا ماءَ أمامكم ... حتى تسوموا المطايا يومها التعبًا

ثم اعدلوا شَامَةً فالماءُ عن كثبٍ ... عينٌ رَواء وماء يذهب اللّغَبا[٤]

حتى إذا ما أصبتم منه ريَّكم ... فاسقوا المطايا ومنه فاملئوا القِرَبا

فعدلوا شامة، فإذا هم في عين خَرّارة في أصل جبل، فشربوا وسقوا إبلهم. وحملوا ريّهم حتى أتوْا عُكاظ، ثم أقبلُوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع، فلم يروا شيئًا، وإذا بهاتف يقول:

يا مالِ عني جزاك الله صالحةً ... هذا وداعٌ لكم مني وتسليمُ

لا تزهدنْ في اصطناع الخير مع أحدٍ ... إن الذي يحرم المعروفَ محرومُ

من يفعل الخير لا يَعْدَمْ مغبته ... ما عاش، والكفر بعد الغبّ مذموم

= به تضرب الأمثال في الشعر ميتا ... وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ... ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

(١) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٦٢.

(٢) الشجاع: الذكر من الحيات.

(٣) يقال: لاذ به: لجأ إليه.

(٤) الشامة: ضد اليمنة، والكثب: القرب، واللغب: التعب.

أنا الشجاع الذي أنجيتَ من رهقٍ شكرتُ ذلك إن الشكر مقوم

ثم طلبوا العين فلم يجدوها.

الجنّ وابن الحَمَارس[١]

كان عبيد بن الحُمارِس الكلبي رجلًا شجاعًا، وكان نازلًا بالسَّماوَةِ[٢]، أيام الربيع، فلما حَسَرَ الربيع، وقلّ ماؤه، وأقلعت أنواؤه، تحمل[٣] إلى وادي تُبَل[٤] فرأى روضة وغديرًا، فقال: روضة وغدير وخطب يسير، وأنا لما حويتُ مُجير.

فنزل هناك، وله امرأتان: اسم إحداهما الرَّباب، والأخرى خَوْلة؛ فقالت له خَوْلة:

أرى بلدةً قفرًا قليلًا أنيسُها وإنا لَنَخْشَى ـ إن دجا الليلُ ـ أهْلَها

وقالت له الرَّباب:

أرَتْك برأيي، فاستمعْ عنك قولَها ولا تأمَنن جنَّ الغَريف[٥] وجَهلها

فقال مجيبًا لهما:

ألستُ كميًّا[٦] في الحروب مجرّبًا
شجاعًا إذا شُبَّتْ له الحرب مِحْرَبا[٧]
سريعًا إلى الهيجا[٨] إذا حَمِس[٩] الوغى
فأُقسم لا أغدو الغدير مُنَكّبا[١٠]

ثم صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة[١١]، فرماها فأقْعَصَها[١٢]، ومعها ولدها فارتبطه؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن:

يا ابن الحُمَارس قد أسأتَ جوارنا وركبت صاحبنا بأمر مُفْظع

---

(١) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٥٥، ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٤٤٨.
(٢) السماوة: بادية قرب الشام.
(٣) تحمل: سافر.
(٤) تبل: واد على أميال يسيرة من الكوفة، وأعلاه متصل بسماوة كلب.
(٥) الغريف: الجلفاء.
(٦) الكمى: الشجاع.
(٧) المحرب: صاحب الحرب.
(٨) الهيجاء: الحرب.
(٩) حمس: اشتد وصلب في القتال.
(١٠) نكب: عدل.
(١١) الشيهمة: الأنثى من القنافذ.
(١٢) أقصعها: قتلها مكانها.

وعقَرْتَ لَقْحَتَهُ[1] وقُدْتَ فصيلها ... قودًا عنيفًا في المنيف الأرفع
ونزلت مَرْعى شائنًا وظلمتنا ... والظلمُ فاعلُهُ وخيم المَرْتَع
فلنطرقنَّك بالذي أَوْلَيْتَنا ... شَرًّا يجيك وماله من مَدْفع

فأجابه ابن الحُمارس:

يا مُدَّعي ظُلْمي، ولستُ بظالمٍ ... اسْمَعْ لديك مقالتي وتسمّع
لا تطمعوا فيما لديّ فما لكم ... فيما حويتُ وحُزْتُهُ من مطمع

فأجابه الجنى:

يا ضاربَ اللَّقْحَة بالعضب[2] الأفل[3] ... قد جاءك الموتُ ووافاك الأجلْ
وساقك الحَيْن إلى جِنٍّ تُبَل ... فاليوم أقويت[4] وأَعْيَتْكَ الحِيَلْ

فأجابه ابن الحمارس:

يا صاحب اللَّقْحَة هل أنت بجل ... مستمع مني فقد قُلْتَ الخَطَلْ
وكثرةُ المنطق في الحرب فشل ... هيجت قُمْقامًا[5] من القوم بَطَلْ
ليث ليوث، وإذا همّ فعل ... لا يرهبُ الجنَّ ولا الإنسَ أَجَلْ

من كان بالعَقْوَة[6] من جِنّ تُبَلْ

فسمعها شيخ من الجن؛ فقال: لا والله لا نرى قَتلَ إنسان مثل هذا، ثابتِ القلب، ماضي العزيمة! فقام ذلك الشيخ فأنشد:

يا ابن الحُمَارس قد نزلت بلادَنا ... فأصبت منها مَشْرَبًا ومناما
فبدأْتَنا ظلمًا بعقر لقُوحنا ... وأسأت لَمَّا أن نطقتَ كلاما
فاعمد لأمرِ الرشد واجْتَنِبِ الردى ... إنا نرى لك حرمةً وذِمامَا
واغرم لصاحبنا لقوحًا مُتْبَعًا ... فلقد أصبتَ بما فعلتَ أثاما[7]

(١) اللقحة: الناقة.
(٢) العضب: السيف.
(٣) الأفل: المثلم.
(٤) أقوى: افتقر.
(٥) القمقام: السيد.
(٦) العقوة: المحلة.
(٧) الأثام: الإثم.

فأجابه ابن الحُمارس:

الله يعلم حيث يرفع عرشه إني لأكرهُ أن أُصِيبَ أثامَا

أما ادّعاؤكَ ما ادّعيتَ فإنني جئتُ البلاد ولا أريد مقاما

فأَسَمت[١] فيها مالنا ونزلتُها لأريح فيها ظهرَنا أياما

فَلْيَغْدُ صاحبكم علينا نُعْطه ما قد سألتَ ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحًا متبعًا[٢].

حَارِس مَال ابن الخَشْرَم[٣]

خرجَ نُجَيح اليَرْبُوعي يومًا إلى الصيد، فعرض له حمارُ وَحْشٍ فاتّبعه، حتى دفع إلى أَكَمَة، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أَطْمَارٍ[٤]، بين يديه ذهب وفضة ودُرّ وياقوت. فدنا منه نجيح؛ فتناول منها بعضها، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها؛ فقال: يا هذا؛ ما الذي بين يديك؟ وكيف تستطيعُ حملَه؟ أَلَكَ هو أَمْ لِغيرك؟ فإني أعجب مما أرى، أجواد أنت فتجود لنا، أم بخيل فأعذرك؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين، وهو سعد بن خَشْرَم، فأْتِني بسعد يعطك ما تشاء.

فانطلق نُجيح مسرعًا، قد استطير فُؤاده، حتى وصل إلى مَحَلّته[٥]، ودخل خِباءه، فوضع رأسه، ونام لما به من الغم؛ لا يدري مَنْ سعد!

فأتاه في منامه آتٍ؛ فقال له: يا نُجيح؛ إنّ سَعْد بن خشرم في حي مُحَلِّم من ولد ذُهْل بن شيبان؛ فخرج وسأل عن بني مُحَلِّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذَا هو بشيخ قاعد على باب خِبائه، فحيّاه نُجيح، فردّ عليه، فقال له نُجيح: مَن أنت؟ قال: خَشْرَم بن شمّاس. قالَ: وأين ابنُك؟ قال: خرج في طلب نُجيح اليَرْبُوعي؟ وذلك أن آتيًا أتاه في منامه، فحدّثه أن مالًا له في نواحي بني يَرْبوع لا يعلم به إلا

---

(١) أسام المال: أرعاه. والمال (هنا): الإبل.

(٢) قال ابن أبي الحديد بعد إيراده هذه القصة في شرح نهج البلاغة: وهذه الحكاية وإن كانت كذبًا إلا أنها تتضمن أدبًا، وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها.

(٣) المحاسن والأضداد: ٦٩.

(٤) الأطمار: الملابس البالية.

(٥) المحلة: منزل القوم.

نُجيح، فضرب نجيح بطن فرسه، وهو يقول:

أيطلبني مَنْ قد عَناني طِلَابُه فياليتني ألقاك سعدَ بنَ خَشْرَمِ
أتيتَ بني يَرْبوع تبغي لقاءنا وقد جئتُ - كي ألقاك - حيَّ مُحَلِّمِ

فلما دنا من محلَّته استقبل سعدًا، فقال له: أيها الراكب؛ هل لقيت سعدًا في بني يربوع؟ فقال: أنا سعد؛ فهل تدلُّني على نُجيح؟ قال: أنا نجيح! وحدّثه بالحديث؛ ثم قال: الدالُّ على الخير كفاعله.

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما، وترك المال، فأخذه سعد كله، فقال له نجيح: يا سعد؛ قاسمني، فقال له: اطوِ عن مالي كشحًا! وأبى أن يعطيه شيئًا، فانتضى نجيح سيفه، وجعل يضربه، حتى برد: فلما وقع قتيلًا تحوَّل الرجل الحافظ للمال سِعْلَاةً[١]، وأعاد المال إلى مكانه؛ فلما رأى نجيح ذلك ولّى هاربًا إلى قومه!

فِي مَوتِ أميّة بن أبِي الصَّلت[٢]

لما بُعث النبيّ ﷺ أخذ أمية بِنْتَيْه وهرَب بهما إلى أقصى اليمن، ثم عاد إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر غَيْلان هناك إذ سقط غراب على شُرْفة في القَصْر، فَنَعَب نَعْبَةً؛ فقال أمية: بفيك الكَثْكَث[٣]! فقال أصحابه: ما يقول؟ قال: يقول: إنك إذا شربت الكأس التي بيدك مِتّ. فقلت: بفيك الكثكث، ثم نعب نَعْبَةً أخرى، فقال أمية نحوَ ذلك، فقال أصحابه: ما يقول؟ قال: زعم أنه يقع على هذه المزْبَلة[٤] أسفل القصر، فيستثير عظمًا فيبتلعه فيشجي به فيموت، فقلت نحو ذلك. فوقع الغرابُ على المزْبَلة، فأثار العظم، فيشجى به فمات.

فانكسر أمية، ووضع الكأس من يده، وتغيّر لونه، فقال له أصحابه: ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا وكان باطلًا! ثم ألحُّوا عليه حتى شرب الكأس، فمال وأُغمِيَ عليه، ثم أفاق، ثم قال: لا بريءٌ فأعتذر، ولا قويٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه.

---

(١) السعلاة: الغول أو ساحرة الجن.
(٢) الأغاني: ٤ ـ ١٣٣.
(٣) الكثكث: التراب.
(٤) موضع السرجين.

فِي بَحْر الخَزَر[١]

قال ميمون الآمدي: ركبت بحر الخَزَر أريد بلدًا حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجّج[٢] مركبنا، فاستاقته ريحُ الشمال شهرًا في اللُّجة، ثم انكسر بنا، فوقعتُ أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس.

فجعلنا نطوف حتى أَشْرَفْنَا على هُوَّة، وإذا بشيخ مستندٍ إلى شجرةٍ عظيمة، فلما رآنا تَحَشْحَش[٣] وأناف إلينا! ففزِعْنا منه، ثم دنونا نحوه، وقلنا: السلام عليك أيها الشيخ! قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فأَنِسْنا به، فقال: ما خطْبُكُما؟ فأخبرناه، فضحك وقال: ما وطيء هذا الموضع أحد من ولد آدم قط، فمن أنتما؟ قلنا: من العرب، قال: بأبي وأُمي العرب، فمن أيِّها؟ قلت: أما أنا فرجل من خُزاعة، وأما صاحبي فمن قريش. قال: بأبي قريشٌ وأَحْمَدُها! قال: يا أخا خُزاعة، هل تدري مَن القائل:

كَأَنْ لم يَكُنْ بين الحَجُونِ[٤] إلى الصَّفَا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سَامرُ

بلى نحن كُنَّا أهلَها فأبادَنا
صُروفُ الليالي والجُدُودُ العواثر

قلت: نعم، ذلك الحارث بن مضاض الجُرهمي قال: ذلك مُؤدِّيها، وأنا قائلها في الحرب التي كانت بينكم معشر خُزاعة وبين جُرْهم.

يا أخا قريش؛ أَوُلِد عبد المطلب بن هاشم؟ قلت: أين يذهبُ بك، رحمك الله، فرَبَا وعظم وقال: أرى زمانًا قد تقارب إبَّانه، أَفَوُلِد ابنه عبد الله؟ قلنا: وأينَ يذهبُ بك، إنك لتسألُنا مسألةَ مَنْ كان في الموتى.

قال: فتزايد، ثم قال: فابنه محمد الهادي؟ قلت: هيهات! مات رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة.

---

(١) الجمهرة: ٢٦.

(٢) لجحت السفينة: خاضت اللجة: ولجة البحر: معظمه.

(٣) تحشحش: تحرك، أناف: أشرف.

(٤) الحجون: جبل بمكة ومقبرة.

فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت، وانخفض حتى صار كالفرخ، وأنشأ يقول:

ولـرُبّ راجٍ حِيـلَ دون رجائـه ومُـؤمِّـلٍ ذهـبـت بـه الآمـالُ

ثم جعل ينوح ويبكي، حتى بلّ دمعُه لحيته، فبكينا لبكائه، ثم قال: ويحكما! فمن ولي الأمر بعده؟ قلنا: أبو بكر الصديق، وهو رجل من خير أصحابه قال: ثمّ مَن؟ قلنا: عمر بن الخطاب، قال: أفمن قومه؟ قلنا: نعم. قال: أما إن العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك!

نجّي[١] سَوَاد بن قَارِب[٢]

وفدَ سَوَادُ بنُ قارب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فسلّم عليه فردّ السلام، فقال عمر: يا سواد! قال: لبيك يا أميرَ المؤمنين! قال: ما بقيَ من كهانتك؛ فغضب ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ ما أظنك اسْتَقْبَلْتَ بهذا الكلام غيري؛ فلما رأى عمرُ الكراهية في وجهه قال: يا سواد؛ إن الذي كنَّا عليه من عبادةِ الأوثان أعظم من الكهانة، فحدّثني بحديث كنتُ أشتهي أن أسمعَه منك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا في إبلي بالسَّرَاة، وكان لي نجيٌّ من الجن؛ إذ أتاني في ليلةٍ وأنا كالنائم، فَرَكَضَنِي برجله، ثم قال: ثم يا سواد، فقد ظهر بتِهامة نبيٌّ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، قلت: تنحَّ عني فإني ناعس؛ فولّى عني وهو يقول:

عـجـبـت لـلجِـنّ وتَـطْـلابـهـا وشـدِّهـا الـعـيسَ بـأكـوارهـا[٣]
تـهـوى إلى مكة تبغي الـهدى مـا مـؤمـنـو الـجـنّ كـكـفـارهـا
فارحل إلى الصَّفوَة من هاشم بـيـن روابـيـهـا وأحـجـارهـا

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني؛ فقال مثل ذلك القول، فقلت: تنحّ عني فإني ناعس، فولّى عني وهو يقول:

عَـجِـبْـتُ لـلجـنّ وتَـخْـبَـارِهـا وشَـدِّهـا الـعِـيسَ بـأقـتـابـهـا[٤]

---

(١) النجي: مَن يلقى بالقول السر.
(٢) بلوغ الأرب: ٢ ـ ٣٠٣، الجمهرة: ٢٥.
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل.
(٤) الأقتاب: جمع قتب، وهو ما يوضع على سنام البعير.

تهوى إلى مكةَ تبغي الهدى ما مؤمنو الجنّ ككفّارها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذنابها

ثم أتاني في الليلة الثالثة، فقال مثلَ ذلك، فقلت: إني ناعس، فولّى عني وهو يقول:

عجبت للجنّ وإيجاسها[1] وشدّها العِيس بأحلاسها[2]
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
فارْحَلْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ واسمُ بعينيك إلى رَاسِها

قال سَوَاد: فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلتُ لناقةٍ من إبلي، فشددتُ عليها، وأتيتُ النبيّ ﷺ فأسلمتُ وبايعت، وأنشأتُ أقول:

أتاني نجيٌّ بعد هَدْءٍ[3] ورَقْدَةٍ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
ثلاث ليالٍ قولُهُ كل ليلةٍ أتاك رسولٌ من لؤيّ بن غالب
فشمّرت عن ذيلي الإزار وأرْقَلَتْ[4] بي الذِّعْلب[5] الوجْناء بين السَّباسب
فأشهد أنَّ الله لا ربَّ غيره وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنكَ أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يا ابْنَ الأكْرَمين الأطَايِبِ
فمرني بما أحببتَ يا خيرَ مُرْسَلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعةٍ بمغنٍ فتيلًا عن سَوادِ بن قارب

ففرح رسول الله وأصحابه بمقالتي فرحًا شديدًا حتى رئي الفرح في وجوههم؛ فوثب إليه عمر فالتزمه، وقال: قد كنت أحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رئيّك اليوم؟ فقال: منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن!

---

(١) أوجس: وقع في نفسه الخوف.
(٢) الحلس: كساء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة المرشحة.
(٣) الهدء: السكون. (٤) أرقلت: أسرعت.
(٥) الذعلب: الناقة السريعة شبهت بالذعلبة وهي النعامة لسرعتها (اللسان مادة ذعلب)، والوجناء: الشديدة. والسباسب، جمع سبسب: المفازة.

لَيلى الأخيليّة عَلى قَبر توبَة[١]

مَرَّت ليلى الأخيليةُ[٢] مع زوجها بقَبْرِ توبة بن الحميّر، فقال لها: هذا قبرُ الكذّاب الذي قال:

ولـو أنّ لـيـلى الأخـيلـيّة سلَّمَتْ   عـليَّ ودونـي جَـنْـدَلٌ وصـفـائِحُ
لسَلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقَا   إليها صدًى من جانب القبرِ صائِح

فقالت: دَعْه، فقال: أقسمتُ عليك إلا ما دنوتِ منه فَسلَّمتِ عليه فأبت، فكرر عليها ذلك، فلما تقدّمتْ إلى القبْر، وقالت: السلام عليك يا توبة، طار من جانب القبر طائر كان هناك، وزقَّا ونفر منه جمل ليلى، فوقعت من أعلاه فاندقّت عنقها وماتت من وقتها!

جَان يختَطِف فَتَاة[٣]

حدّث زياد بن النَّضْر الحارثي قال: كنا على غَدِيرِ لنا في الجاهلية، ومعنا رجلٌ من الحيّ يقال له: عمرو بن مالك، معه بنية له شابة، على ظهرها ذُؤابة، فقال لها أبوها: خذي هذه الصَّحْفة، ثم ائتي الغدير، فجيئينا بشيء من مائه.

فانطلقت فواقفها عليه جان فاختطفها، فذهب بها؛ فلما فقدناها نادى أبوها في الحيّ، فخرجنا على كل صَعْب وذَلول[٤]، وقصدنا كل شِعْبٍ[٥] ونَقْب، فلم نجد لها أثرًا؛ ومضت على ذلك السنون، حتى كان زمنُ عمرَ بن الخطاب، فإذا هي قد جاءت، وقد عفَا[٦] شَعْرها وأظفارها، وتغيّرت حالها، فقال لها أبوها: أي بنية؛ أنّى كنت؟ وقام إليها يقبّلها، ويَشم ريحها، فقالت: يا أبت؛ أتذكرُ ليلَة الغدير؟ قال: نعم! قالت: فإنه واقفني عليه جان، فاختطفني، فذهب بي، فلم أزلْ فيهم، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قومًا مشركين، أو غزاهم قوم مشركون

---

(١) ديوان الصبابة: ١٨٤.
(٢) هي ليلى بنت عبد الله من بني الأخيل بن عامر، من النساء المتقدمات في الشعر، وكان توبه بن الحمير يهواها، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها، توفيت سنة ٨٠ هـ.
(٣) المنتقى من أخبار الأصمعي: ١٣.
(٤) الصعب: الجمل العصي، والذلول: الجمل الهادىء.
(٥) الشعب: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض، أو ما انفرج بين الجبلين.
(٦) عفا شعرها: كثر وطال.

فجعل لله تبارك وتعالى نذرًا إن هم ظفروا بعدوّهم أن يعتقني ويردّني إلى أهلي فظفروا؛ فحملني فأصبحتُ عندكم، وقد جعل بيني وبينه أَمَارةً، إن احتجتُ إليه أن أولْوِل بصوتي، فإنه يحضرني.

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها، وأصلح من شأنها، وزوّجها رجلًا من أهله؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبَعْلها فعيَّرها؛ وقال: يا مجنونة! والله؛ إن نشأتِ إلا في الجن.

فصاحت ووَلولت بأعلى صوتها، فإذا هاتفٌ يهتف: يا معشر بني الحارث؛ اجتمعوا وكونوا حيًّا كرامًا، فاجتمعنا فقلنا: ما أنت ـ رحمك الله؟ فإنا نسمع صوتًا ولا نرى شخصًا! فقال: أنا رابُّ[1] فلانة، رعيتُها في الجاهلية بحسبي؛ وصُنْتُها في الإسلام بديني، والله إن نلتُ منها محرّمًا قط! واستغاثت في هذا الوقت، فحضرتُ فسألتها عن أمرها، فزعمت أن زوجها عيّرها بأنْ كانت فينا، ووالله، لو كنت تقدمت إليه لفقأتُ عينيه! فقلنا: يا عبد الله؛ لك الحِباء والجزاء والمكافأة! فقال: ذلك إليه (يعني الزوج)!

فقامتْ إليه عجوز من الحيِّ، فقالت: أسألك عن شيء، فقال: سَلِي! قالت: إن لي بنيةً أصابتها حَصْبة[2]، فتمزَّقَ رأسها، وقد أخذتها حُمَّى الرِّبْع[3]؛ فهل لها من دواء؟ قال: نعم! اعمِدي إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذي يكون على أفواه الأنهار، فخذي منه واحدة، فاجعليها في سبعة ألوان عهن[4]، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها، وأبيضها وأكحلها وأزرقها، ثم افْتلي ذلك الصوف بأطراف أصابعك، ثم اعقديه على عضدك؛ ففعلت أمها ذلك، فكأنما نَشِطتْ من عِقَال!

لَا بقَاء للإنسَان[5]

لبس سليمان[6] بن عبد الملك يوم الجمعة في ويلاته لباسًا شُهِر به، وتعطَّر

---

(١) راب: كافل.
(٢) الحصبة: بثر يخرج بالجسد.
(٣) الربع في الحمى: أن تأخذ يومًا وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.
(٤) العهن: الصوف.
(٥) مروج الذهب: ١ ـ ١٦٣.
(٦) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحًا بليغًا، إلا أنه كان نهمًا، توفي سنة ٩٦ هـ.

ودعا بتَخْت[١] فيه عمائم، وبيده مرآةٌ، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضي بواحدةٍ منها، فأرخى من سُدولها، وأخذ بيده مُخْصَرة[٢]، وعلا المنبر ناظرًا في عِطفيه، وجمع جمعه، وخطب خطبته التي أرادها، فأعجبته نفسه، فقال: أنا الملك الشاب، السيد المُهاب، الكريم الوهّاب، فتمثّلَتْ له جاريةٌ من بعض جواريه، فقال لها: كيف ترين أمير المؤمنين؟ قالت: أراه مُنى النفس، وقرّة العين، لولا ما قال الشاعر! قال: وما قال الشاعر؟ قالت:

أنت نعم المتاع لو كنتَ تَبْقَى غير أن لا بقاء للإنسان
أنت من لا يريبنا منك شيء علم الله ـ غير أنك فان ـ

فدمعتْ عيناه وخرج على الناس باكيًا، فلما فرغ من خُطبتِه وصلاتِه دعا بالجارية، فقال لها: ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين؟ قالت: والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم، ولا دخلتُ عليه؟ فأكْبرَ ذلك، ودعا بقيِّمَةِ جواريه، فصدقتها في قولها، فراع ذلك سليمان، ولم ينتفع بنفسه، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدَّةً حتى تُوفي.

الغَرِيض يَتلقّى غِنَاءَه عَن الجن[٣]

قال مولى لآل الغَرِيض[٤]:

حدّثتني بعض مَوْلَيَاتي وقد ذَكَرْنَ الغَريض فترحّمن عليه وقلن: جاءنا يومًا يحدّثنا بحديث أنْكَرْناه عليه، ثم عَرَفْنا بعد ذلك حقيقته، وكان من أحسن الناس وجهًا صغيرًا وكبيرًا، وكنا نَلْقَى من الناس عَنَتًا بسببه، وكان ابنُ سُريج في جوارنا فدفعناه إليه فلقِنَ الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا ففتن أهل مكة بِحُسْن وجهه مع حسن صوته؛ فلما رأى ذلك ابن سُرَيج نحّاه عنه، وكان بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة، فبرّز فيها، فجاءني يومًا فقال: نهتني الجنّ أن أنوح، وأسمعتني صوتًا

---

(١) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) المخصرة: ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب، والخطيب إذا خطب.

(٣) الأغاني: ٢ ـ ٣٧٣.

(٤) اسمه عبد الملك، والغريض لقبه، كان يضرب بالعود، وينقر بالدف أخذ الغناء عن ابن سريج ثم فاق عليه، وتوفي في خلافة سليمان بن عبد الملك.

عجيبًا، فقد ابتنيتُ عليه لحنًا فاسمعيه مني، واندفع فغنّى بصوت عجيب في شعر المرّار الأسدي:

حلفتُ لها بالله ما بين ذي الغَضَا وهضب القَنَانِ[1] من عَوَانٍ ولا بِكْرِ
أَحَبُّ إليـنـا منـك دَلّاً ومـا نـرى بـه عـنـد لَيْلَى من ثـوابٍ ولا أجـرِ

فكذّبناه وقلنا: شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا اللّحن، فكان في كل يوم يأتينا فيقول: سمعتُ البارحة صوتًا من الجن بترجيع وتقطيع قد بنيت عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنْكِرُ عليه؛ فإنا لكذلك ليلة وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة في جمع سَمَرْنا فيه ليلتنا، والغريض يغنينا بشعر عمر بن أبي ربيعة:

أمِـنْ آل زيـنـب جَـدَّ الـبُـكُـور نـعـم فـلأَيِّ هـواهـا تَـصِـيـرُ

إذ سمعنا في بعض الليل عَزيفًا عجيبًا وأصواتًا مختلفة ذعرتنا وأفزعتنا، فقال لنا الغريض: إن في هذه الأصوات صوتًا إذا نمتُ سمعتُه، وأُصْبِحُ فأبني عليه غِنائي، فأصْغَيْنَا إليه، فإذا نغمته نغمة الغريض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة.

شَيطَان أَبِي نُوَاس[2]

قال رَزِين الكاتب: اجتمعنا يومًا أنا وأبو نواس[3] وعلي بن الخليل في سوق الكَرْخ[4]، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها، فقال أبو نواس: أَدْبَرَ مَن كان في نفسي، وكان أَسْرَع الخَلْقِ في طاعتي؛ فما أدري ما أَحْتَال له؟ فقال علي بن الخليل يمازحه: يا أبا علي؛ سل شيخك وأستاذَك يُعطِّفْه عليك؛ فقال له أبو نواس: من تَعْنِي؟ قال: مَن أنت في طاعته ليلَك ونهارك ـ يعني إبليس ـ، فإن لم يَقْضِ لك هذه الحاجة، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة، ولا أن تُقِرَّ عينه بمعصية. فقال: هو أسدُّ رأيًا من أن يُخِلَّ بي أو يَخْذُلني، وانقضى مجلسنا ذلك.

(١) القنان: جبل لبني أسد.
(٢) المأمون: ٣ ـ ٢٣٣.
(٣) هو الحسن بن هانىء، رحل إلى بغداد، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، وهو أول مَن نهج للشعر طريقته الحضرية، وأخرجه من اللهجة البدوية، توفي سنة ١٩٢ هـ.
(٤) من أسواق بغداد.

فلما كان بعدَ أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا في أحاديثنا، فضحك أبو نواس، فقلنا له: ما أضحكك؟ فقال: ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ: سَلْ شيخَك يعطفه عليك، حينئذٍ قد سألتُه يا أبا الحسن، فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتاني من غير أن أبعثَ إليه ومن غير أن أستزيره، فعاتبني واسْتَرْضَاني، وكان الغضب مني والتجني، وأحسب الشيخَ ـ يعني إبليس ـ كان يتسمَّع علينا في وقت كلامنا، وقد قلت أبياتًا في ذلك؛ فقلنا: هاتها، فأنشد:

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتْ ... عنّي الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقي فكاد يَقْتُلني ... ذكرُ حبيبي والهمُّ والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلت له ... في خَلْوَةٍ والدموعُ تنحدرُ:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد ... أَقرح جَفْني البكاءُ والسهرُ
إن أنتَ لم تُلْقِ لي المودّةَ في ... صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قُلْتُ شعرًا ولا سمعتُ غِنا ... ولا جرى في مفاصِلي السَّكَرُ[1]
فما مضتْ بعد ذاك ثالثة ... حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
فيا لها مِنَّةً لقد عظُمَتْ ... عندي لإبليس مالها خَطَرُ

إبليس فِي ضِيَافَةِ إبرَاهيم الموصلّي[2]

قال إبراهيم بن إسحٰق الموصلي:

سألتُ الرشيد[3] أن يَهبَ لي يومًا في الجمعة لا يبعثُ فيه إليَّ بوجه وَلا بسبب لأَخْلُوَ فيه بجَواريَّ وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، وقال لي: هو يوم أَسْتَثْقِله، فالْهُ فيه بما شئت؛ فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمتُ في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجتُ إليه، وأمرتُ بوّابي فأغلق الأبوابَ، وتقدمتُ[4] إليه ألا يأذنَ عليَّ لأحد.

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفُّوا بي وَجَواريّ يتردَّدْن بين يدي، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال، عليه قميصان ناعمان وخُفَّان قصيران، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ

---

(١) السكر: السكر.
(٢) الأغاني: ٥ ـ ٢٣١، ذيل زهر الآداب: ٢٦٤.
(٣) أعظم خلفاء بني العباس، وأكبرهم شأنًا، كان محافظًا كثيرًا لجهاد وافر العطاء. توفي سنة ١٩٣.
(٤) تقدمت إليه: أمرته.

لاطِئة[١]، وبيده عُكازة مُقَمَّعة بِفِضة، وروائحُ المسك تفوح منه حتى ملأ البيتَ والدار، فداخلني بدخوله عليّ - مع ما تقدمت فيه - غيظٌ ما تداخلني قطُّ مثلُه وهممتُ بطرد بوّابي ومَنْ حجبني لأجله، فسلّم عليّ أحسنَ سلام؛ فرددتُ عليه، وأمرته بالجلوس فجلس، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سَلّى ما بي من الغضب، وظننت أن غلماني تَحَرَّوْا مسَرَّتي بإدْخالهم مثله عليَّ لأدبه وظَرْفه.

فقلتُ: هل لك في الطعام، فقال: لا حاجةَ لي فيه، فقلت: هل لك في الشراب، فقال: ذلك إليك، فشربتُ رطلًا وسقيتُه مثلَه، فقال لي: يا أبا إسحٰق؛ هل لك أن تُغني لنا شيئًا من صَنْعتك وما قد نَفقْتَ[٢] به عند الخاصّ والعام؟ فغاظني قولُه، ثم سهَّلتُ على نفسي أمرَه، فأخذتُ العود فجسَسْتُهُ ثم ضربت فغنّيتُ، فقال: أحسنت يا إبراهيم! فازداد غيظي وقلت: ما رضي بما فعله من دخوله عليّ بغير إذن واقتراحه أن أُغَنّيه حتى سمَّاني ولم يُكَنِّنِي ولم يُجمِل مخاطبتي! ثم قال: هل لك أن تزيدنا؟ فَتَذَمَّمْتُ[٣] فأخذتُ العود فغنَّيتُ، فقال: أَجَدْتَ يا أبا إسحٰق! فأَتِمَّ حتى نكافِئَك ونُغنّيك، فأخذت العود وتغنّيت وتحفّظتُ وقمتُ بما غنيتهُ إياه قيامًا تامًّا ما تحفَّظت مثلَه، ولا قمتُ بغناء كما قمتُ به له بين يَدَيْ خليفة قطُّ ولا غيره، لقوله لي: أكافئك، فطرِب وقال: أحسنتَ يا سيِّدي، ثم قال: أتأذن لعبدك بالغناء؟ فقلت: شأنكَ، واستضعفتُ عقلَه في أن يغنيني بحضرتي بعد ما سمعه مني، فأخذ العود وجسّه فوالله لَخِلْتُه ينطق بلسان عربي لِحُسْنِ ما سمعتُه من صوته ثم تَغَنّى:

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يَبِيعُنِي ... بها كبِدًا ليستْ بذات قُرُوحِ

أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها ... ومَنْ يشتري ذا عِلَّةٍ بصحيحِ؟

أئِنُّ من الشوق الذي في جوانبي ... أنِينَ غَصيصٍ بالشراب جَريح

قال إبراهيمُ: فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ ما في البيت يجيبه ويُغَنّي معه من حُسن غنائه، حتى خِلتُ والله أني أسمعُ أعضائي وثيابي تُجاوِبه؟

(١) اللاطئة: قلنسوة صغيرة تلزق بالرأس. (٢) نفقت: يريد سار ذكرك به.
(٣) تذمم الرجل: استنكف، ويقال: لو لم أترك الكذب تأثمًا لتركته تذممًا.

وبقيتُ مبهوتًا لا أستطيعُ الكلام ولا الجواب ولا الحركةَ لِمَا خالَطَ قلبي، ثم غنّى:

ألا يا حماماتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدَةً ... فإنِي إلى أصواتكنّ حزينُ
فعُدْن فلمّا عُدْن كِدْن يُمِتْنَني ... وكدتُ بأسراري لهن أبينُ
دَعَوْن بتَرْدَاد الهَدير كأنما ... سُقِينَ حُمَيًّا أو بهنَّ جُنُونُ
فلم تَرَ عيني مثلهن حمائما ... بكَينَ ولم تَدْمَع لهن عيونُ

فكاد، والله أعلم، عقلي أن يذهب طربًا وارتياحًا لما سمعتُ، ثم غنّى:

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتِ من نجدِ ... لقد زادني مَسْراك وَجْدًا على وَجْد
أَأَنْ هتفتْ وَرْقَاءُ في رونق الضُّحَا[1] ... على فَنَن غضّ النبات من الرَّنْد[2]
بكيتَ كما يبكي الحزينُ صبابةً ... وذُبْتَ من الحزن المبرِّح والجهْد
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يُمَلُّ وأنَّ النأي يَشْفِي من الوَجْد
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنّ قرب الدار خيرٌ من البعد
على أنّ قرب الدار ليسَ بنافِع ... إذا كان من تَهواه ليس بذِي عَهْد

ثم قال: يا إبراهيم؛ هذا الغناء فخذه وانح نحوه في غنائك وعلِّمه جَوارِيَك، فقلتُ: أعِدْه عليّ، فقال: لستَ تحتاج، قد أخَذتَه وفرغتَ منه، ثم غاب من بين يديّ، فارتعتُ وقمتُ إلى السيف فجرّدته، وعدتُ نحو أبواب الحرَم فوجدتُها مُغْلقةً، فقلتُ للجواري: أيّ شيء سمعتنّ عندي؟ فقلت: سمِعنا أحسنَ غناءٍ سُمِعَ قَطّ، فخرجتُ متحيّرًا إلى باب الدار، فوجدته مُغْلقًا؛ فسألتُ البوّابَ عن الشيخ. فقال لي: أي شيخ هو؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد، فرجَعتُ لِأتأمّل أمري، فإذا هو قد هَتف بي من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحٰق، أنا إبليس وأنا كنتُ جليسَك ونديمَك اليومَ، فلا تُرَعْ.

فركبت إلى الرشيد وقلت: لا أُطرفه أبدًا بطُرْفة مثل هذه، فدخلتُ إليه فحدّثته بالحديث، فقال: وَيْحك! تأمّلْ هذه الأصواتَ، هل أخذتها؟ فأخذت العود أمتحنُها، فإذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزَم على الشراب، وأمر لي بصلةٍ وحُمْلانٍ وقال: الشيخ كان

---

(١) رونق الضحا: حسنة وإشراقه.
(٢) الرند: شجر طيب الرائحة.

أعلم بما قال لك من أنك أخذتَها وفرغتَ منها، فلَيته أمْتَعنا بنفسه يومًا واحدًا كما أَمْتعك!

دِعبَل بن عَلِي وَرَجُل مِنَ الجِن[١]

قال دعبل[٢] بن عليّ: لما هربتُ من الخليفة بتُّ ليلةً بنيسابور وحدي، وعزمتُ على أن أعملَ قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة؛ فإني لفي ذلك؛ إذ سمعتُ ـ والباب مرودٌ عليّ ـ مَن يقول: السلام عليكم ورحمة الله، انْجُ يرحُمك الله، فاقشعرَّ بدني من ذلك، ونالني أمرٌ عظيم، فقال لي: لا تُرعْ، عافاك الله، فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليَمن، طرأ إلينا طارىء من أهل العراق، فأنشدَنا قصيدتك:

مَدارسُ آيات خلتْ من تلاوةٍ ... ومنزل وحْي مُقْفِر العَرَصَاتِ

فأحببتُ أن أسمعها منك، قال: فأنشدته إياها، فبكى حتى خرّ، ثم قال: رَحِمَكَ الله، ألا أحدِّثُك حديثًا يَزيد في نيّتك، ويُعينك على التمسُّك بمذهبك؟ قلت: بلى، قال: مكثتُ حينًا أَسْمَع بذكر جعفر بن محمد، فصرت إلى المدينة فسمعتُه يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «عليٌّ وشيعتُه هم الفائزون»، ثم ودَّعَني لينصرف، فقلت له: يرحمُك الله، إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل، فقال: أنا ظبيان بن عامر!

---

(١) الأغاني: ٧ ـ ٣٩.

(٢) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذي نباهة أحسن إليه أم لم يحسن، توفي سنة ٢٤٦ هـ.

الباب الثاني عشر

قصص شجعان العرب وفرسانهم

في الشجاعة وثمرتها
والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس
والتحريض على القتال

في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قال في المستطرف[1]: قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: الآية ٤]. وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأي في الحرب إمام الشجاعة.

قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنّة تحت ظلال السيوف»، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن[2] سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيونًا من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدوّ فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نورًا يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعن رفعه: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه:

---

(١) المستطرف: ص ٢٢٧ ـ ٢٤٠.

(٢) جفن السيف: غمده.

«إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنّة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل».

وقيل: إن أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك رضي الله عنه لم يشهد بدرًا، فلم يزل متحسرًا يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أُحد قال: «واها لريح الجنّة دون أحد». فقاتل حتى قتل، فوجد في بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. وعن فضالة بنت عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وعن سهل بن حنيف رفعه: «مَن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة.

في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومَن فقدها لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي: هل من مبارز. والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه، يكون رابط الجأش[١] ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش[٢] ولا تأخذه الحيرة، فينقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه. والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة[٣] ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجّي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

(١) الجأش: النفس والقلب. (٢) الدهش: الحيرة والذهول.
(٣) الساقة: مؤخر الجيش.

وحكى أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عيّروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقوامًا هذا ضربهم، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلًا، ولا يغفل عنه وإن كان حقيرًا، فكم برغوث أسهر فيلًا، ومنع الرقاد ملكًا جليلًا. قال الشاعر:

فلا تحقرنْ عدوًّا رماك ... وإنْ كان في ساعديه قِصَرْ
فإنّ السيوف تحز الرقاب ... وتعجز عمّا تنال الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبًا ورتبوا فيها ترتيبًا، ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولًا بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] فقوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ مشتمل على كل ما هو مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة.

وفسّر النبيّ ﷺ القوة حين مرّ على أُناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملًا صالحًا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن في استجادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفًا بمواضع الفرص خبيرًا بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعًا كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا وإلّا ردَّ الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وكان عظماء الترك يقولون: ينبغي للعاقل العظيم للقياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك،

وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم. اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من الهمّ والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم، وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعدًا جميلًا، ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهمات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهًا عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخبارًا مزورة، ويرمي بها في جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالًا عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة. ويغلب الضعف بإقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب[1] أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال في القلب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنًا للجناحين يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان.

مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجّى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان. وقلّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع، اللهمَّ إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصدًا وتعمدًا، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطلق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا.

ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه.

---

(١) سواس الحروب: خبراءها ومجربوها.

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثبات قلبي، وإصابة رأيي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي.

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه مسلمة، فقبّله بين عينيه.

وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملّكوا عليهم رجلًا من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعًا، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يومًا، وهو مردف حظيّة[1] له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وأناثها بالذكران، فرمى ظبيًا ذكرًا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال: إن من أعظم المكايد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندًا منشورًا، ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه. وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ   وواحدٌ كالألف إن أمر عنى[2]

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيرًا من عشرة آلاف.

---

(١) مردف حظية: أي مركب خلف حصانه عشيقة له.

(٢) أمر عنى: ألم وحصل.

شجاع واحد يربح المعركة

لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء. قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومَن غاب منهم ومَن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر مَن في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومَن غاب منهم، فعدهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكًا مسرورًا، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تزحزح عن مقامه، حتى فني أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة وداخلوا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرًا، وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

شجاعة فارس

حكى أبو بكر الطرطوشي[1] رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيىٰ قال: بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن

---

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، ويقال له ابن أبي رندقة، أديب، من فقهاء المالكية من أهل طرطوشة بشرق الأندلس. رحل إلى المشرق وزار أكثر دياره، وأدّى مناسك الحج، واستقرّ في الإسكندرية إلى أن مات سنة ٤٧٦ هـ. من كتبه: «سراج الملوك»، و«التعليقة في الخلافيات» خمسة أجزاء، و«بر الوالدين»، و«الفتن»، وغير ذلك.

خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعي، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعًا كثيرًا وجيشًا واسعًا كبيرًا، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي. قال له المنصور: ما سكوتك، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا، قال: أفيهم خمسون رجلًا من الأبطال؟ قال: لا، قال: فسبه المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال.

فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي[1] السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، ففرح المشركون، وصاحوا. واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العلج[2] يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج، فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة.

فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي؟ فبعث إليه، فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالًا، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته، ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال: حبًا وكرامة.

ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج

---

(١) شاكي السلاح: متأهب للقتال. (٢) العلج: الكافر.

يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

شجاعة أبي الوليد بن فتحون

حُكِيَ أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لِمَ لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه.

ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، فصاح المشركون سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومي، فصاح الكفار سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه.

وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العلج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويلًا، في طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجرّه حتى ألقاه بين يدي المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في

صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعمل حيلته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلًا ولا نهارًا، وليبدل زيّه ويغيِّر خيمته كي لا يلتمس عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرج وهو نائم في قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح.

شجاعة ألب أرسلان

وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقل أن يجمع لغيرهم من يعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس[١] يتلو بعضها بعضًا، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق، والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم.

ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت[٢] أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غدًا يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلميون وجلين لما دهمهم، فلما

(١) كراديس: جماعات من الفرسات الخيالة. (٢) تواترت: اتصلت.

أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمين، فبلغوا اثني عشر ألفًا فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلّوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك.

وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه، ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي بسهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا مَن كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا مَن كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل بمزق، وعمل السيف فيهم أيامًا، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيرًا بين يدي ألب أرسلان والحبل في عنقه.

فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني؟ قال: وهل تشك أنني كنت أقتلك، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به، فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادي عليه مَن يشتري ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين، وينادون عليه بالدراهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئًا، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئًا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال: قد أنصفك إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فعزلته الروم، وكحلوه بالنار.

في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

عمّ رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. قتل في غزاة أُحد، رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير ممانع، وعظم قتله على النبيّ ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلًا من قريش، وكبّر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه

آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهي، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. رُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه قال: والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من موتة على فراش. وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض.

وقال رضي الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانبًا واخرج إليَّ ليعلم أينا المران على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخًا[1] يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي.

وقيل له كرّم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني. وقيل له: كيف تقتل الأبطال؟ قال: لأني كنت ألقى الرجل، فأقدر أني أقتله، ويقدر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عونًا عليه.

وقال مصعب بن الزبير: كان عليّ رضي الله عنه حذرًا في الحروب شديد الروغان[2] لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدرًا لا ظهر لها، فقيل له: أما

---

(١) شدخًا: شدخه بالسيف أي قطعه من رأسه إلى وسطه.
(٢) الروغان: الحذر والانتباه.

تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا مكنت عدوي من ظهري، فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ. قتله عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو في صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمٰن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجية، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق[1] أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل عليّ بن أبي طالب. فقال لها: لك ما سألت إلا عليّ بن أبي طالب، وكيف لي به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنّة. فقال:

ثلاثة آلافٍ وعبدٍ وقينةٍ وضرب علي بالحسام المخذّمِ[2]
فلا مهر أغلى من علي وإن علا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجمِ

قيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب، ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد.

قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله. ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، فأخذه، فأومأ علي رضي الله عنه إلى المغيرة أن صلّ بالناس، فصلّى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على عليّ، فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس.

قال: ثم إن الحسن رضي الله عنه صلّى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ وإني أحتسب عند الله عزّ وجلّ مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائل ﷺ: «من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فيَّ» فإنها أعظم المصائب، والله الذي لا إلٰه إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقًّا، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم

---

(١) الصداق: المهر. (٢) المخذم: السيف القاطع.

عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه في السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عزّ وجلّ على يديه، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. إلا أن قريشًا أعطت أزمّتها شياطينها، فقادتها بأعنتها إلى النار، فمنهم مَن قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم مَن أسرّ الضغينة حتى وجد عن النفاق أعوانًا. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضي في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاءً شديدًا.

ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، فأقبل يخطر[1] واضعًا شعره على أدنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته، فإن تخلني أقتل معاوية، فإن أنا قتلته أضع يدي على يدك، وإن أُقتل، فهو الذي تريد. فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه

سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم. أيّد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا أزحفًا، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان. وكان ينشد ويرتجز ويقول:

لا ترعبونا بالسيوف المبرقةْ   إنّ السّهامَ بالردى مفرّقهْ
والحرب دونها العقالُ مطلقةْ   وخالدٌ من دينه على ثقةْ[2]

رضي الله عنه.

(١) يخطر: يمشي مختالًا.
(٢) العقال: الأسر أو ما يمنع من الحراك.

الزبير بن العوام رضي الله عنه

حواري رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يحاول. قتله عمرو بن حرموز، اغتاله وهو في الصلاة.

عمرو بن معديكرب الزبيدي

فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرًا.

رُوِيَ عنه رضي الله عنه أنه سأله يومًا، فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطىء ويصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على هذا الجسر قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأتم وجدتموني قتيلًا بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حيًا، فحلوه فانتبهوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمي بنشابة، فغار وشب فصرعني.

ويُروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين،

وفيه يقول العباس بن مرداس[١]:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي زبيدًا فقد أوى بنجدتها عمرو

طلحة الأسدي رضي الله عنه

كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلامًا، ثم ارتد وتنبأ، وجمع جمعًا عظيمًا، ففل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح.

والمقداد بن الأسود رضي الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوي الجنان رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه.

وسعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه كان فارسًا بطلًا راميًا، وهو أول مَن رمى في سبيل الله بسهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه.

أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع.

والمثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه هو أول مَن فتح حرب الفرس.

وأبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية.

وعمار بن ياسر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين مع عليّ رضي الله عنه.

هاشم بن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية عليّ رضي الله عنه بصفين.

---

(١) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أمه الخنساء الشاعرة. أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم، كما كان بدويًا قحًا، لم يسكن مكة ولا المدينة، وهو ممن ذم الخمر في الجاهلية وحرمها. ومات في خلافة عمر سنة ١٨ هـ له ديوان شعر مطبوع.

مالك بن الحرث النخعي الأشتر رضي الله عنه، مات مسمومًا في شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنودًا منها العسل.

القمقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه.

عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه

قاتل جرجير ملك إفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم ولا لحمًا على عصب ولا عصبًا على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفسًا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه. ولقد قام يومًا إلى الصلاة، فمرّ حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره، فوالله ما خشع له بصره وقطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور.

أبو هاشم محمد بن عليّ بن أبي طالب بن الحنفية رضي الله عنه

كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقي به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يومًا: ما بال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه يقحمك[1] الحروب دون الحسن والحسين رضي الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه، فكان يتّقي عينيه بيديه. وقيل: إن أباه عليًّا رضي الله عنه اشترى درعًا فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: يا أبت علّم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذي حده أبوه.

وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدّث بها الحديث غضب. مات حتف أنفه[2] بشعب رضوى.

عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه والي خراسان شجيع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة.

---

(١) يقحمك: يدفعك.

(٢) حتف أنفه: أي على الفراش من غير قتل ولا ضرب.

وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج ولي خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه.

مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان.

عمير بن الحباب السلمي فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس.

مسلمة بن عبد الملك بن مروان. فحل بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل: إنه جلس يومًا ليقضي بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخّرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحليني قلّته[١].

المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلبًا. قال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبد الله عضّ على ساعدي بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنّة، فكيف تعمل فيه الأسنان، ويقال: إنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين. وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقًا في العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعي

كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفًا، فظهر به وقتله بيده وهزم جيشه.

عبد الله بن الحر الجعفي، شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره في الشجاعة مشهورة.

---

(١) تنحليني قلته: أي تعطيني وترميني به.

جحدر بن ربيعة العكلي، كان بطلًا شجاعًا فاتكًا مغيرًا شاعرًا، قهر أهل اليمامة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيرًا، فوجّه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلًا عظيمًا إن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيرًا، فتوجه الفتية في طلبه حتى إذا كانوا قريبًا منه أرسلوا يقولون له: إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يومًا إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقًا، وقدموا به على العامل، فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير: كلب الزمان، وجفوة السلطان وجرأة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني[1] الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه، قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه.

ثم قال: يا جحدر إني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى، فأمر به، فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسدًا ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسدًا كان كاسرًا خبيثًا قد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفًا وأنزلوه إليه مقيّدًا، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطّى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر، وهو ينشد ويقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضنْكِ ... كلاهما ذو قوةٍ وسفكٌ[2]
وصولةٍ وبطشةٍ وفتكِ ... إن يكشف الله قناع الشكٌ
فأنت لي في قبضتي وملكي

---

(١) ابتلاني: اختبرني.
(٢) ضنك: ضيق وشدة.

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته، فكبّر الناس وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درّك ما أنجبك، ثم أمر به، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، ونقرب من منزلتك وإما أن نأذن لك، فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثًا، ولا تؤذي بها أحدًا، قال: بل أختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سمّاره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولّاه على اليمامة. وكان من أمره ما كان.

المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنًا، وكان المهلب يقول: ما شهد معي المغيرة حربًا إلا رأيت البشرى في وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان، وفي يديه شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكليبة، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكليبة مصعب بن الزبير، وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلًا قط إلا فرّقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط في كربة إلا فرجها وهو من الإسلام. وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيدًا كريمًا، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم[1]:

مات المغيرة بعد طول تعرّضٍ　　　للقتل بين أسنّةٍ وصفائحِ

أبو بلال مرداس

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين. وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات، نذرت امرأته غزالة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفًا. ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخواج، وخاطبوه بأمير

---

(١) هو زياد بن سليمان، أو سليم الأعجم. أبو أمامة مولى بني عبد القيس من شعراء الدولة الأموية، جزل الشعر، فصيح الألفاظ، ولد ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنه وطال عمره، ومات حوالي سنة ١٠٠ هـ وأكثر شعره في مدح أمراء عصره، وهجاء بخلائهم.

المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها، قُتل في بعض وقائع الخوارج.

معن بن زائدة الشيباني

قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي.

الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد.

عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتتبع حمار وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه، فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق في غيره، طعن فارسين رديفين، فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة ... يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مدّ قناتِهِ ... ميلًا إذًا نظم الفوارس ميلا[1]

وسأله يومًا رجل شيئًا، فقال له: أتسأل وجدك القائل:

ومَن يفتقر منّا يعشْ بحسامِهِ ... ومَن يفتقر من سائر الناس يسألِ
وإنّا لنلهو بالسيوف كما لهتْ ... فتاةٌ بعقدٍ أو سخاب قرنفلِ

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإني علمته على نفسي.

بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

مما جاء في مدح السيف

قال رسول الله ﷺ: «الخير في السيف والخير مع السيف والخير بالسيف».

وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب، وممن تمثل به نهشل، فقال:

أخٌ ماجدٌ ما خانني يوم مشهدٍ ... كما سيف عمرٍو لم تخنه مضاربُه

---

(١) مد قناته: طولها. ونظم الفوارس: سلكها في رمحه جميعًا.

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلي لم أخنه ولم يخنّي ... إذا ما صاب أوساط العظامِ
خليلي لم أهبه من قلاه ... ولكنّ المواهب للكرامِ
حبوت به كريمًا من قريشٍ ... فسرّ به وصِينَ عن اللئامِ
وودّعت الصّفيَّ صفيَّ نفسي ... على الصمصام أضعاف السلام[١]

ولم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي، فلم يجدوه، فجد الهادي في طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوبًا عليه هذا البيت:

ذكرٌ على ذكرٍ يصول بصارمٍ ... ذكرٌ يمانٍ في يمين يماني[٢]

وقال ابن الرومي:

لم أر شيئًا حاضرًا نفعه ... للمرء كالدرهم والسيفِ
يقضي له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيفِ[٣]

وقال زيد بن عليّ رضي الله عنهما:

السيف يعرفُ عزمي عند هزّته ... والرمح لي خبرٌ والله لي وَزَرُ[٤]
إنّا لنأمل ما كانت أوائلنا ... من قبلُ تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر:

يبيتُ ضجيعي السيف طورًا وتارةً ... يعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاهُ في الروع صاحبًا ... وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتًى له ... بها كلفٌ ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده عليَّ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ

---

(١) الصمصام: السيف القاطع.
(٢) الذكر: السيف القاطع، والذكر: الرجل.
(٣) الحيف: الظلم.
(٤) الوزر: الملجأ.

له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوَتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك. أعرفه بقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[١]

وقال الأجدع الهمداني[٢]:

لقد علمت نسوان همدان أنّني لـهـنّ غـداة الـروع غـيـرُ خـذولِ
وأبذل في الهيجاء وجهي وإنّني له في سوى الهيجاء غيرُ بذولِ

وقال آخر:

عشرون ألف فتًى ما منهم أحدٌ إلّا كـألـف فـتًـى مـقـدامـةٍ بـطـلِ
راحـت مـزاودهـم مـمـلـوءةً أمـلًا ففرّغوها وأوكوها من الأجل[٣]

غلام شجاع

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج[٤] المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أي بني، وهو يبتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جوابًا.

فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلّمت، فرد عليَّ السلام، فوقفت أنظر إليها، فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت يا حضري: إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يرحمك الله.

---

(١) فلول: ثلمات.

(٢) هو الأجدع بن مالك بن أمية بن جعفر بن سلمان بن معمر الوادعي الهمداني اليماني، فارس همدان، وشاعرها في عصره، كان قبيل الإسلام ووقير ابنه «مسروق» على عمر في خلافته.

(٣) مزاودهم: المزود، وعاء يوضع فيه الزاد. وأوكوها: أي بعد أن فرغوها ملؤها من الأجل وهو الموت وشدوا الرباط عليها.

(٤) السبج: الخرز الأسود الذي يصنع منه العقد.

فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملًا خفيفًا حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عزّ وجلّ أن أضعه، فوضعته خلقًا سويًا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عزّ وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربي كأنه شبل أسدٍ أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن، فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده.

فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل[١] فتفرّس وتمرّس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قري الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل[٢] من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم، ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًا به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات[٣] رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبيًا صغيرًا لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت، ونحن ندعو الله عزّ وجلّ له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنّة، وعطفوا عليه بالأعنّة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا مَن نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل

---

(١) عتاق الخيل: كريمها. (٢) منهل: مشرب.

(٣) المخدرات: أي النساء، والخدر: الستر.

به، فكبّر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يومًا كان أسمح صباحًا وأحسن رواحًا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

تأمّلن فعلي هل رأيتُنّ مثلَهُ
إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب[١]

وضاقت عليه الأرض حتى كأنّه
من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعطِ كلا حقّه ونصيبه
من السمهري اللدن والمرهف العضب[٢]

أنا ابن أبي هند بن قيس بن مالك
سليل المعالي والمكارم والسيب[٣]

أبى لي أن أعطي الظلامة مرهفٌ
وطرفٌ قويُّ الظهر والجوف والجنب

وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بحدّه الـ
ـجبال الرواسي لانحطَطْن إلى التربِ

وعرضٌ نقي أتّقي أن أعيبه
وبيتٌ شريفٌ في ذرى ثعلب الغلب[٤]

فإن لم أقاتل دونكنّ وأحتمي
لكنْ وأحميكنّ بالطعن والضرب

فلا صدّق اللاتي مشين إلى أبي
يهنّينه بالفارس البطل الندب

(١) حشرجت: غصت واختنقت.
(٢) السمهري: الرمح. اللدن: الطري الرخص، والمرهف العضب: السيف القاطع.
(٣) والسيب: الكرم.
(٤) ثعلب الغلب: ثعلب: اسم قبيلة، والغلب: صفة لهم تدل على غلبهم وانتصارهم.

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم[(١)]
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم[(٢)]

وقال آخر:

فوارسُ قوالون للخيل أقدمي ... وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهُمُ سمرُ العوالي كأنّما ... تشيب على أطرافهن ذُبال[(٣)]

وقال آخر:

قومٌ إذا اقتحموا العجاج رأيتهم ... شمسًا وخلت وجوههم أقمارا[(٤)]
لا يعدلون برفدهم عن سائلٍ ... عدَلَ الزمانُ عليهم أو جَارا[(٥)]
وإذا الصريخ دعاهم لملمّةٍ ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

قَوْس حَاجب بن زُرارة[(٦)]

توالت على مُضر الجدُوبة والقَحْط سبعَ سنين؛ حتى كادوا يَهلِكون، فلما رأى حاجِبُ بن زُرَارة الجَهْدَ والجدْبَ على قومه جمع بني زُرارة فقال: إني قد أزمعتُ على أن آتيَ الملكَ فأطلبَ إليه أن يأذنَ لقومنا فيكونُوا تحت هذا البَحْر حتى يُحْيوْا، فتلكأ بعضُهم عليه، وقال بعضهم: رَشَدْتَ فافعلْ؛ غيرَ أنَّا نخاف عليك بكْرَ بن وائل لِمَا كان بيننا وبينهم، ولا بدَّ لك من وُرود مياههم. فقال: ما مِنهُمْ وَجْهٌ من الناس ولا شريفٌ إلَّا ولي عنده يدٌ خَضْرَاء إلا ابن الطَّويلة التيْمي، وأنا أرجو أن أداريَه؛ ثم ارْتَحَل.

فجعل لا يأتي على ماءٍ لبكرٍ إلا أكرمه سيدُهم، ونحرَ له وقَرَاهُ، حتى نزل قُضْوَان، وعليه ابنُ الطويلة التيمي، فلمَّا أضاء الصُّبح، وناديهم قريب من منزل حاجب الذي حلّ فيه، دعا حاجبٌ بِنِطْع، ثم أمر فصُبّ عليه التمر؛ ثم نادى حيَّ على الغَدَاء. فنظر ابنُ الطويلة، فإذا هو بحاجب، فقال لأهل المجلس: أجيبوه؛

---

(١) دجون: أظلمن.
(٢) رجوم: ما ترجم به الشياطين لتطرد.
(٣) ذبال: الذبالة: الفتيلة، والذبل: أول الشباب.
(٤) العجاج: غبار الحرب.
(٥) لا يعدلون برفدهم: أي لا يمنعون عطاءهم.
(٦) نقائض جرير والفرزدق: ١ ـ ٤٦٢.

فإنه سيدُ قومه، فأتوْه فأكلوا، وأهدى إليه ابنُ الطويلة جَزورًا وشِيَاهًا، فنحر وأكل وأطعم.

ولما أراد حاجب أن يَرتحل قال له ابنُ الطويلة: إني معك حتى تبلغَ مأمَنك؛ فإني لا أدري ما يعرِض لك أمَامَك. فقال حاجب؛ ليس أمامي أحد أخافُه عليّ.

وارتحل حاجبٌ حتى أتى كسرى؛ فلما شكا إليه الْجَهْد في أنفسهم وأموالهم، وطلب أن يأذن لهم فيكونوا في حَدِّ بلاده حتى يعيشوا ويُحْيَوْا قال له: إنكم ـ معشرَ العرب ـ حُرَصاء على الفَسادِ، فإن أذنتُ لهم أفسدوا البلاد وأغاروا على الرّعيّة وآذوهم. قال له حاجب: فإني ضامنٌ للملك ألّا يفعلوا، قال: ومَنْ لي بأن تَفِيَ بما تقول؟ قال: أَرْهَنُك قوْسي بالوفاء بما ضمنتُ لك.

ولما جاء حاجب بقَوْسِه ضحك القوم الذين كانوا حول الملك لمّا رأوا قوسه، وقالوا: بهذه العصا تَفى للملك بما ضمنتَ له. فقال الملك لهم: ما كان لِيُسْلِمها لشيء أبدًا. وأمرَهم فقبضوها، وأذن للعرب في أن يدخلوا الرِّيْفَ[1].

ومكث بنو زُرارة في الريف مدة، ثم مات حاجب، وبعدها زال القحط، وخرج أصحابُ حاجب إلى بلادهم وارتحل عُطَارِد بن حاجب إلى كسرى ليطلبَ قوس أبيه، ولما دخل عليه وكلّمه في القوس قال له كسرى: ما أنت بالذي وضعتَها عندي. قال: أجلْ أيُّها الملك! ما أنا بالذي وضعتُها. قال: فما فعل الذي وضعَها؟ قال: هَلَك، وهو والدي، وقد وَفَى لك أيها الملك بما ضمن لك عن قومه، ووفى هو بما قال للملك؛ قال كسرى: ردُّوا عليه قَوْسَه؛ وكساه.

فَتكَة البَرّاض[2]

كان البرَّاضُ بن قَيْس الكناني رجلًا فاتكًا خليعًا[3]، يَجْني الجنايات على أهله، فخلعه قومُه، وتبرَّؤوا من صَنِيعه، ففارقهم، وقدم مكةَ، فحالف حرَب بن

---

(١) الريف: الأرض فيها الزرع والخصب.

(٢) المضاف والمنسوب: ١ ـ ١٠١، مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٣، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٦٠.

(٣) البراض بن قيس الكناني: فاتك جاهلي يضرب بفتكة المثل، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة، ثم رحل إلى العراق. وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس.

أمية، ثم نَبَا به المقام بمكة أيضًا، ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق، وقدِم على النعمان بن المنذر الملك ـ وكان النعمان يبعث كلَّ عام بلَطِيمةٍ[١] للتجارة إلى عُكَاظ[٢] تباعُ له هناك ـ فقال يومًا، وعنده البرَّاض وعُروة بن عُتْبة بن جعفر المعروف بالرَّحَّال[٣]: مَن يُجيز لي لطيمتي هذه حتى يُبَلِّغَهَا عُكاظ؟ فقال البرّاض: أَبيتَ اللعن! أنا أُجيزها على كِنانة. فقال النعمانُ: إنما أريدُ منْ يجيزُها على كِنانة وقَيس. فقال عروة: أكلْبٌ خليع[٤] يجيزها! أبيْتَ اللعن! أنا أجيزها على أهل الشِّيح والقَيْصُوم[٥] من أهل تهامة وأهل نجد! فقال البراض ـ وقد غضب: وعلى كِنانة[٦] تجيزُها يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم!

فدفع النعمانُ اللطيمةَ إلى عُروة الرحال، وأمره بالمسير بها، وخرج البراض يَتْبَعُ أثره وعُروة يَرى مكانَه ولا يخشى منه، حتى إذا كان عُروة بين ظَهْرَانَيْ[٧] قومه أدركه البرَّاضُ بن قيس، فأخرج قِداحه يَسْتَقْسِمُ[٨] بها في قتل عُروة، فمرَّ به عروة فقال: ما تصنع يا برَّاض؟ فقال: أَسْتَقْسِمُ في قتلك، أيؤذن لي أم لا؟ فقال عروة: هِمَّتُكَ أضعف من ذلك! فوثب إليه البرَّاض بالسيف فقتله.

فلما رآه الذين يقومون على العِير[٩] والأحمال قتيلًا انهزموا فاستاق البرَّاضُ العِير، وسارَ على وجهه إلى خَيْبَر، وتبعه رجلان ليأخذاه: أحدهما غَنَوِيٌّ والآخر غَطَفَانيّ، وسارا حتى لقيهما البرَّاض بخيْبر، فقال لهما: مَنِ الرجلان؟ قالا: نحن من قَيْس، قدِمنا لنقتل البرَّاض، فأنزلهما وعَقَل راحلتيْهما ثم قال: أيّكما أجْرَأ عليه

---

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب وبز التجار.

(٢) عكاظ: موضع كان بين نخلة والطائف، كانت تقام من أول ذي القعدة إلى اليوم العشرين منه، وكان يجتمع بها أكثر أشراف العرب للمتاجرة ومفاداة الأسرى والتحكيم في الخصومات والمفاخرة والمنافرة بالشعر والخطب.

(٣) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك.

(٤) كان في الجاهلية إذا قال قائل: هذا ابني خلعته لا يؤخذ بجريرته.

(٥) الشيح والقيصوم: نباتان مما يطلع في السهل، ويريد على العرب كلهم.

(٦) كنانة: هم قوس البراض.

(٧) بين ظهراني قومه: أي في وسطهم.

(٨) الاستقسام: كانوا إذا أراد أحدهم سفرًا أو تزويجًا أو نحو ذلك من المهام ضرب بالقداح، وكان على بعضها مكتوب: أمرني ربي، وعلى بعضها الآخر: نهاني ربي، والباقي غفل، فإن خرج أمرني ربي مضى لشأنه، وإن خرج نهاني ربي، أمسك، وإن خرج الغفل أجالها، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الأمر أو النهي.

(٩) العير: الإبل تحمل الميرة، ولا واحد لها من لفظها.

وأجودُ سيفًا؟ قال الغَطَفانيّ: أنا، فأخذه ومشى معه لِيَدُلّه ـ بزعمه ـ على البرَّاض، ثم قال للغَنَويّ: احفظ راحلتيكما، ففعل.

وانطلق البرَّاض بالغَطَفاني حتى أخرجه إلى خَرِبةٍ[1] في جانب خَيْبر، وقال له: هو في هذه الخَربة يأوي إليها، فأمهلني حتى أنظر أهُوَ فيها؟ فوقف، ودخلَ البراض؛ ثم خرج فقال: هو فيها وهو نائم، فأرِني سيفَك حتى أنظر إليه: أضاربٌ هو أم لا، فأعطاه سيفَه، فضربه به حتى قتله، ثم أخفى السيف وعاد إلى الغَنَويّ، فقال له: لمْ أرَ رجلًا أجبنَ من صاحبك، تركتُه في البيت الذي فيه البرَّاض وهو نائم فلم يُقْدِم عليه! فقال: انظر لي مَن يحفظ الراحلتين حتى أمضي إليه فأقتله، فقال: دَعْهُما وهما عليّ، ثم انطلقا إلى الخربة، فقتله وسار بالعِير إلى مكة.

عِنْدَ كسرى[2]

خرج أبو سفيان في جماعةٍ من قريش، يريدون العراق بتجارة؛ فلما ساروا ثلاثًا جمعهم أبو سفيان؛ فقال لهم: إنا من مَسيرنا هذا لعلى خَطَرٍ، لقد قَدِمْنا على ملك جبّار، لم يأذنْ لنا في القدوم عليه، وليستْ بلادُه لنا بِمَتْجَر، ولكن أيُّكم يذهبُ بالعِير، فإن أُصيبَ فنحنُ بُرَآء من دمه، وإن غَنِمَ فله نصفُ الربح. فقال غَيلان[3] بن سَلَمة: دعوني إذَنْ، فأنا لها.

فلما قَدِمَ بلاد كسرى تَخلَّق[4]، ولبسَ ثوبين أصفرين، وشهرَ أمرَه، وجلس بباب كسرى حتى أُذِن له، فدخل عليه، وخرج إليه الترْجُمان[5] وقال له: يقولُ لك الملك: ما أدخَلَك بلادي بغير إذني!

فقال: قل له: لستُ من أهل عداوةٍ لكَ، ولا أتيتُكَ جاسوسًا لِضِدٍّ من أضدادكَ؛ وإنما جئتُ بتجارة تَسْتَمْتِعُ بها؛ فإن أردتَهَا فهيَ لكَ، وإنْ لم تُرِدْها، وَأَذِنْتَ في بَيْعِها لرعيَّتِك بعتُهَا؛ وإن لم تأذن في ذلك رَدَدْتُهَا؛ وجعل يتكلم،

---

(١) الخربة: موضع الخراب.

(٢) بلوغ الأرب: ١ ـ ٣٢٠، العقد الفريد: ١ ـ ١٧٥.

(٣) غيلان بن سلمة الثقفي شريف شاعر جاهلي، كانت له ثلاثة أيام: يوم يحكم فيه بين الناس، ويوم ينشد فيه شعره: ويوم ينظر فيه إلى جماله، وأسلم بعد فتح الطائف.

(٤) تخلق: تطيب.

(٥) الترجمان: بضم التاء المشددة وفتحها: المفسر.

فإذا سمع صوتَ كسرى سجد. فقال له الترْجُمَان: يقولُ لك الملكُ: لِم سجدت؟ فقال: سمعتُ صوتًا عاليًا، حيث لا ينبغي لأحد أن يعلوَ صوتُهُ إجلالًا للملك، فعلمتُ أنه لم يُقْدِم على رفع الصوتِ هناك غيرُ الملك؛ فسجدتُ إعظامًا له.

فاستحسنَ كسرى ما فعل؛ وأمرَ له بِمِرْفَقَةٍ[1] توضع تحته. فلما أُتِيَ بها رأى عليها صُورَةَ الملك؛ فوضعها على رأسه؛ فاستجْهله كسرى واستحمقه. وقال للترجمان: قل له: إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها. قال: قد علمتُ، ولكني لما أُتيتُ بها رأيتُ عليها صورةَ الملك، فلم يكن من حقّ مثلي أن يجْلِس عليها؛ ولكن كان حقُّها التعظيم؛ فوضعتها على رأسي؛ لأنه أشرف أعضائي وأكرمُها عليّ!

فاستحسنَ فعله، ثم قال له: ألك ولد؟ قال: نعم! قال: فأيُّهُمْ أحبُّ إليك! قال: الصغير حتى يكبرَ، والمريضُ حتى يَبْرَأَ، والغائب حتى يئوبَ. فقال كسرى: زِهْ! ما أدْخلَك عليَّ، ودلّك على هذا القول والفعل إلا حظُّكَ! فهذا فعلُ الحكماء وكلامُهم، وأنت من قومٍ جُفاة لا حكمة فيهم؛ فما غذاؤك؟ قال: خبز البُرّ. قال: هذا العقل من البُرّ لا من اللبن والتمر.

ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها، وكساه، وبعث معه من الفُرس مَن بَنى له أُطُمًا[2] بالطائف، فاكن أوَّلَ أُطمٍ بُنيَ بها.

عِنْـدَ النجَاشِي[3]

قال عمرو[4] بن العاص: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخَنْدَق جمعتُ رجالًا من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون ـ والله ـ أني أرى محمدًا يعلو الأمور عُلُوًّا منكرًا؛ وإني قد رأيت أمرًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحَق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومُنا فنحن مَنْ قد عَرَفُوا، فلن يأتينا منهم إلا

(١) المرفقة: المخدة. (٢) الأطم: القصر، وجمعه آطام.

(٣) الروض الأنف: ٢ ـ ١١٢.

(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل أحد دهاة العرب وفصائحهم وساستهم وفاتح مصر على عهد عمر بن الخطاب، توفي سنة ٤٣ هـ.

خير. قالوا: إن هذا لرأي! قلت: فاجمعوا لنا ما نُهْدِيه له، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدَم.

فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنَّا لَعِنده، إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمْري ـ وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر[١] وأصحابه. قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضَّمْري، لو قد دخلتُ على النجاشي فسألتُه إياه فأعطانيه، فضربت عنقه! فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أني قد أجْزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد.

قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي؛ أهديتَ إليَّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك؛ قد أهديت إليك أَدَمًا كثيرًا؛ ثم قربتُه إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلتُ له: أيها الملك؛ إني قد رأيتُ رجلًا خرج من عندك؛ وهو رسولُ رجلٍ عدوٍّ لنا، فأَعْطِينه لأقتلَه، فإنه قد أصاب من أشارفنا وخِيارنا.

فغضب؛ ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره؛ فلو انشقَّت لي الأرض لدخلتُ فيها[٢] فرَقًا منه! ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكَه! قال: أتسألني أن أُعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لِتَقْتُله؟ قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطِعْنِي واتّبعه، فإنه واللهِ لَعَلى الحقّ، وليظهرنَّ على مَنْ خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعتهُ على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حالَ[٣] رأيي عما كان عليه؛ وكتمتُ أصحابي إسلامي. ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مقبلٌ من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المِيسم، وإن الرجلَ لنبيّ، اذهب والله فأسْلم فحتى متى؟ قلت: والله ما جئتُ إلا لأسْلم.

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب، وكان قد هاجر إلى الحبشة.
(٢) فرقًا: خوفًا. (٣) حال رأيي: تغير.

فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدَّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ فقلت: يا رسولَ الله، إني أبايعك على أن يُغفرَ لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايعْ فإن الإسلام يَجبُّ[١] ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان، فبايعته ثم انصرفت.

رسُولُ الله ﷺ فِي سُوق عُكَاظ[٢]

رَوى عبدُ الرحمٰن العامري عن أشياخٍ من قومه، قالوا:

أتانا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ بسوق عُكاظ؛ فقال: ممَّن القوم؟

قلنا: من بني عامر بن صَعْصَعَة! قال: من أيِّ بني عامر؟ قلنا: بنو كعب بن ربيعة. قال: كيف المَنَعَةُ فيكم؟ قلنا: لا يُرام ما قِبَلنا، ولا يُصْطلى بنارنا! فقال: إني رسول الله؛ فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلِّغ رسالةَ ربي، ولم أُكرِه أحدًا منكم على شيء؟ قالوا: ومن أيِّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد المطلب؟ قالوا: فأين أنت من بني عبد مناف؟ قال: هم أولُ من كذّبني وطرَدني! قالوا: ولكنا لا نطرُدك ولا نؤمن بك، ولا نمنعك أنْ تبلِّغَ رسالةَ ربك.

فنزل إليهم والقوم يتسوَّقون[٣] إذ أتاهم بُجْرة بن قيس القُشيري؛ فقال: مَن هذا الذي أراده عندكم أنكره! قالوا: هذا محمدُ بن عبد الله القرشي. قال: وما لكم وله؟ قالوا: زعم لنا أنه رسول الله ويطلب إلينا أن نمنَعه حتى يبلغ رسالةَ ربه. قال: فماذا رددتم عليه؟ قالوا: قلنا: في الرحب والسعَة؛ نخرجك إلى بلادنا؛ ونمنعك مما نمنع منه أنفسَنا. قال بُجرة: ما أعلم أحدًا من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشرَّ من شيء ترجعون به، بدأتم لتُنابِذَكم الناس، وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومُه أعلمُ به؛ لو آنسوا منه خيرًا لكانوا أسعدَ الناس به، تعمِدون إلى مرَهَّقٍ[٤] قد طرده قومُه وكذبوه فتؤوونه! فبئس الرأيُ ما رأيتم!

ثم أقبل على رسول الله فقال: قم؛ الحَق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربتُ عنقك! فقام رسول الله إلى ناقته فركبها. فغمزها بُجرة[٥] فَقَمَصَتْ[٦]

---

(١) يجب ما قبله: يقطع.
(٢) أسواق العرب: ٢١٧.
(٣) تسوق القوم: إذا باعوا واشتروا.
(٤) فلان مرهق: أي متهم بسوء وسفه.
(٥) في تاريخ الطبري صفحة ٢٣٢ من الجزء الثاني: بجيرة بن فراس.
(٦) قمصت: وثبت.

برسول الله فألقته، وعند بني عامر يومئذ ضُباعَةُ بنت عامر بن قُرْط، وكانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر، أيُصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم! فقام ثلاثة من بني عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه، فأخذ كل رجل منهم رجلًا، فجَلَد[1] به الأرض، ثم جلس على صدره، فقال رسول الله: اللهم بارك على هؤلاء، والْعنْ هؤلاء.

فلما صدَر الناسُ رجعتْ بنو عامر إلى شيخ لهم، قد أدركته السنّ حتى لا يقدر أن يوافيَ معهم المَوْسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم. فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم حدّث أنه أحدُ بني عبد المطلب، يزعم أنه نبيّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه، ونخرج به معنا إلى بلادنا! فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تَلَاف؟ هل لذُناباها[2] تطَلُّب؟ فوالذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيليٌّ قط، ألَا إنها الحق، فأين كان رأيكم!

زُفَر بن الحَارِث يُجِير خَالِد بن عتّاب[3]

استعمل الحجاجُ خالدَ بن عتَّاب على الرَّي، وكانت أمه أمَّ ولد؛ فكتب إليه الحجاج يسبُّ أُمّه، ويقول: أنت الذي هربتَ عن أبيك حتى قُتل ـ وقد كان حلف ألّا يسبَّ أحدٌ أمّه إلا أجابه كائنًا من كان.

فكتب إليه خالد: كتبتَ إليّ تشتمُ أمي، وتزعمُ أني فرَرْتُ عن أبي حتى قُتل؛ ولعمري لقد فرَرتُ عنه، ولكن بعد أن قُتل، وحين لم أجد لي مقاتِلًا. ولكن أخبرني عنك يا لئيم حين فررتَ أنت وأبوك يوم الحَرَّة[4] على جملٍ ثَفَال[5]، أيُّكما كان أمامَ صاحبِهِ.

فقرأ الحجاج الكتاب وقال: صدق!

---

(١) جلد به الأرض: ضربها.
(٢) أصل الذنابي: الذنب.
(٣) الأغاني: ١٦ ـ ٤٠.
(٤) كانت وقعة الحرة أيام يزيد. وهي موضع بظاهر المدينة، وقعت في ذي الحجة من سنة ٦٢ هـ.
(٥) الثفال: البطيء من الإبل.

أنا الذي فَرَرْتُ يوم الحرَّه ثم ثنيتُ كَرَّة بفَرَّه
والشيخُ لا يفِرُّ إلا مرّه

ثم طلبه ففرَّ إلى الشام، وسلم بيتَ المال، ولم يأخذ منه شيئًا.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه. وقدم خالد الشام، فسأل عن خاصةِ عبد الملك فقيل له: رَوْح بن زِنبَاع. فأتاه حين طلعت الشمس، فقال: إني جئتُك مستجيرًا. فقال: إنني أجرتك إلا أن تكون خالدًا. قال: فإني خالدٌ. فتغيَّر، وقال: أنشدُك الله إلا خرجتَ عني، فإني لا آمَنُ عبدَ الملك! فقال: أنْظِرني[1] حتى تغربَ الشمس. فجعل رَوح يُراعيها حتى خرج خالد!

فأتى زُفر بن الحارث الكلابي، فقال: إني جئتك مستجيرًا. قال: قد أجرتك. قال: أنا خالد بن عتَّاب. قال: وإن كنتَ خالدًا.

فلما أصبح دعا ابنين له؛ فتهادَى بينهما ـ وقد أسنَّ ـ فدخل على عبد الملك وقد أَذِن للناس؛ فلما رآه دعا له بكرسي، فجُعِل عند فراشه. فجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ إني قد أجرتُ عليك رجلًا فأجره. قال: قد أجرتُه إلا أن يكون خالدًا. قال: فهو خالد. قال: لا ولا كرامة!

فقال زفر لابْنَيْهِ: أنهضَاني. فلما ولى قال: يا عبد الملك؛ أما والله لو كنتَ تعلم أن يدِي تُطيق حَمْل القناة لأجرتَ من أجرتُ! فضحك، وقال: قد أَجزْناه.

وأرسل إلى خالد بألفي درهم.

احْتَكِمُوا وأكثِرُوا[2]

استعمل الوليدُ[3] بنُ عبد الملك عُثمانَ بن حيَّانَ المرّي على المدينة، وأمَرهُ بالغِلظة على أهل الظِّنَّة[4]، فلما استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك أخذه بألفي ألف درهم، فاجتمعت القَيْسِيّةُ في ذلك، فتحمَّلُوا شَطْرَها[5]، وضاقوا ذَرْعًا بالشَّطر

(١) أمهلني.
(٢) العقد الفريد: ١ ـ ١٥٤.
(٣) الوليد بن عبد الملك: من ملوك الدولة الأموية ولي الخلافة سنة ٨٦ هـ، وكانت وفاته بدير مران سنة ٩٦ هـ.
(٤) التهمة.
(٥) الشطر: النصف.

الثاني، ووافقَ ذلك استعمال سليمانَ يزيدَ بن المهلب على العراق، فقال عمرُ بنُ هُبَيْرة: عليكم بيزيدَ بن المهلب، فما لها أحدٌ غيره.

فتحمَّل إلى يزيد عمرُ بن هبيرة، والقعقاع بن حبيب، والهذيل بن زفر بن الحارث، وسار معهم عثمان؛ فاستأذنَ لهم يَحْيىٰ حاجِبُه؛ فخرج يزيدُ إلى الرُّواق[1] فقرَّب ورحَّب، ثم دعا بالغَداء، فَأُتُوا بطعام ما أَنْكَروا منه أَكْثَرُ مما عرفوا.

فلما تَغَدَّوْا تكلم عثمانُ بن حيان ـ وكان لَسِنًا مُفَوَّهًا ـ فقال: زادَكَ الله في توفيقك أيها الأمير؛ إن الوليدَ وجّهني إلى المدينة عاملًا عليها، وأمرني بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة، وإنّ سليمان أغرمني[2] غُرْمًا ـ والله ـ ما يَسَعهُ مالي، ولا تحمِلُه طَاقَتي؛ فأَتَيْنَاك لتحملَ من هذا المال ما خفَّ عليك، وما بقي ـ والله ـ ثقيلٌ عليّ.

ثم تكلمَ كلّ منهم بما حَضَره؛ فقال يزيد بن المهلب: مرحبًا بكم وأهلًا، إنَّ خيرَ المال ما قُضِي فيه الحقوق، وحُمِلَتْ به المغَارِم؛ وإنما لي من المال ما فَضَلَ عن إخواني، وايمُ الله لو علمتُ أن أحدًا أَمْلأَ بحاجتكم مني لهديتكُم إليه! فاحْتَكِمُوا وأَكْثِرُوا!

فقال عثمان بن حيّان: النصف ـ أصلح اللهُ الأمير. قال: نعم وكرامة! اغْدُوا على مالكم فخُذُوه؛ فشكروا له، وقاموا فخرجوا.

فلما صاروا على باب السرادق، قال عمر بن هُبيرة: قَبَّحَ الله رأيكم، والله ما يُبَالي يزيد؛ أنصفَها تحمَّل أم كلَّها؛ فمنْ لكم بالنصف الباقي؟

قال القوم: هذا والله الرَّأْيُ! وسمِع يزيدُ مُناجاتهم؛ فقال لحاجبه: انظر يا يحيىٰ، إن كان بقي على القوم شيءٌ فلْيَرْجِعُوا!

فرجعوا إليه، وقالوا: أَقِلْنَا! قال: قد فعلتُ! قالوا: فإن رأيتَ أن تَحْمِلَها كلّها؛ فأنتَ أهلُها، وإن أبيتَ فما لها أحدٌ غيرك! قال: قد فَعَلْتُ.

وغَدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أتاني عثمان بن حَيّان وأصحابه. قال: أَمَسَّكَ في المال؟ قال: نعم. قال سليمان:

---

(١) الرواق: سقف في مقدم البيت أو الفسطاط. (٢) أغرمني: غرمني.

والله لآخُذَنَّهُ منهم! قال يزيد: إني قد حملتُه! قال: فأدِّه! قال يزيد: والله ما حملتُه إلا لأؤدِّيه.

ثم قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إن هذه الحَمَالة[١] وإنْ عَظُمَ خطبُها، فَحَمْدُها والله أعظمُ منها، ثم غدا يزيدُ بالمال على الخُزّان فدفعه إليهم.

فدخلوا على سليمان فأخبروه بقَبْضِ المال؛ فقال: وَفَتْ يمينُ سليمان؛ احْمِلوا إلى أبي خالد مالَه.

أنتَ أخو النّدى وحَلِيفُه[٢]

قال بعضُ مَشْيَخَةِ قريش: أَذِنَ الوليدُ بنُ عبد الملك يومًا للناس، فدخلوا عليه، وأَذِنَ للشعراء؛ فكان أولَ من بَدَرَ بين يديه عُوَيْفُ[٣] القَوافي الفَزَاري فاستأذَنَهُ في الإنشاد، فقال: ما بقَّيْتَ لي بعد ما قلتَ لأخي بني زُهْرَة؟ قال: وما قلتُ له مع ما قلتُ لأمير المؤمنين؟ قال: ألستَ الذي تقول:

يا طلحُ أنتَ أخو الندى وحليفُه ... إنَّ النّدى من بعد طلحةَ ماتا
إن الفَعَال[٤] إليك أَطْلَقَ رَحْلَهُ ... فبحيثُ بِتَّ من المنازل باتا

ألستَ الذي تقول:

إذا ما جاء يومُك يا ابنَ عوفٍ ... فلا مَطَرَتْ عَلَى الأرضِ السَّمَاءُ
تَسَاقى الناسُ بعدَك يا ابنَ عوفٍ ... ذَرِيعَ[٥] الموتِ ليس له شِفَاءُ

ألم تقمْ علينا الساعةُ يومَ قامتْ عليه؟ لا والله لا أسمعُ منك شيئًا، ولا أنفعُك بنافعة أبدًا. أخرِجوه عني!

فلما أُخرج قال له القرشيون والشَّاميون: وما الذي أعطاك طلحةُ[٦] حين استخرج هذا منك؟ قال: أمَا واللهِ لقد أعطاني غيرُه أكثرَ من عطيته، ولكن لا والله

---

(١) الحمالة: الغرم يحمل عن القوم. (٢) الأغاني: ١٧ ـ ١٠٨.
(٣) هو عويف بن معاوية من قيس عيلان، كان شاعرًا مقلًا من شعراء الدولة الأموية وبيته كان أحد البيوتات المقدمة الفاخرة في العرب.
(٤) الفعال: الفعل الحسن، أو الكرم. (٥) موت ذريع: سريع.
(٦) هو طلحة بن عبد الله بن عوف من بني زهرة أحد الأجواد المقدمين، كانت عادته إذا أصاب مالًا أن يفتح بابه ليغشاه أصحابه والناس فيطعم ويجيز حتى ينفد ما عنده فيغلق الباب فلا يقصده أحد، توفي سنة ٩٧ هـ.

ما أعطاني أحدٌ قطُّ أَحْلى في قلبي، ولا أبقى شكرًا، ولا أجدرَ ألَّا أنساها من عطيته! قالوا: وما أعطاك؟ قال:

قَدِمتُ المدينة ومعي بُضيّعةٌ[1] لي، لا تبلغ عشرة دنانير، أريد أن أبتاعَ قَعُودًا من قِعْدَان الصَّدَقة. فإذا برجل في صحْنِ السُّوق على طِنْفِسة قد طُرحتْ له، وإذا الناسُ حوله، وإذا بين يديه إبلٌ؛ فظننتُ أنه عاملُ السوقِ، فسلّمت عليه فأثبتني[2] وجهلْتُه؛ فقلتُ: رَحمكَ اللهُ! هل أنتَ مُعيني على قَعُودٍ من هذه القِعْدَان تَبْتاعه لي؟ فقال: نعم! أومَعَكَ ثمَنُهُ؟ فقلت: نعم!

فأهْوى بيده إليَّ فأعطيته بُضيِّعتي؛ فرفع طِنْفِسَتَهُ وألقاها تحتها، ومكث طويلًا، ثم قمتُ إليه فقلت: رحمكَ الله! انظرْ في حاجتي. فقال: ما منعني منك إلا النسيان، أمَعك حَبْل؟ قلت: نعم. قال: أفرجوا، فأفرجوا عنه حتى استقبل الإبل التي بين يديه، فقال: اقرن هذه وهذه وهذه، فما برحتُ حتى أمر لي بثلاثين بَكْرَة، أَدْنى بكرة منها خيرٌ من بضاعتي! ثم رفع طنْفسَته فقال: وشأنك ببضاعتك فاستَعنْ بها على مَن ترجعُ عليه.

فقلتُ: رحمك الله! أتدري ما تقول؟ فما بَقي أحَدٌ عنده إلا نهرَني وشتمني!

ثم بعث معي نفرًا فاطْرَدوها[3] حتى أطْلعُوها من رأس الثنيةِ، فوالله لا أنْساه ما دمتُ حيًا أبدًا.

ثَابِت الجنَان[4]

قال أحمد بن داود: ما رأيت رجلًا عُرِض على الموت، ورأى النِّطْع مفروشًا والسيفَ مسلولًا، ولم يكترثْ لذلك؛ ولا عَدَل به عما أراد إلّا تميمَ بنَ جميل؛ وقد كان خرج على المعتصم في أيام دولته، ونزع يدَه من الطاعة؛ وانقطع إلى بعض النواحي؛ وكان قد عظم أمره على المعتصم؛ ولقد رأيتُه وقد جيء به مكتوفًا أسيرًا، وقد اجتمع الناسُ من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتُله المعتصم، وكان المعتصم قد جلس له مجلسًا؛ وأمر الناس بالدخول.

---

(١) البضاعة: القطعة من المال الذي يتجر فيه، والبضيعة تصغيرها.

(٢) أثبتني: عرفني حق المعرفة.

(٣) أطردت الإبل: أي أمرت بطردها، وطرد الإبل: ضمها من نواحيها.

(٤) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط، نهاية الأرب: ٦: ٦١.

ودخل تميم، وحضر السيّاف وفرش النِّطع، وكان تميمُ جميلَ الوَجه تامَّ الخلْقة عذْب المنطق، فرآه المعتصم غيرَ دَهِش ولا مُكترِث لما نزل به. فأراد أن يستنطقه ليعلمَ أين عقله في ذلك الوقت! فقال له: يا تميم؛ إن كان لك عذْر فأْت به، فقال:

أما إذا أذِن أميرُ المؤمنين؛ فالحمد لله الذي جبَر بك صَدْعَ[1] الدين، ولَم بك شَعثَ[2] المسلمين، وأنار بك سبيل الحقِ، وأخْمَد بك شِهاب الباطل؛ إنّ الذنوبَ يا أَميرَ المؤمنين تُخْرِس الألسنةَ الفصيحة، وتُعيِي الأفئدة الصحيحة، ووالله لقد كُبر الذنب، وعَظُمت الجريرة، وانقطعت الحجَّة، وساءَ الظن، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق، ثم أنشد:

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْع كامنًا ... يُلاحظني مِن حيثما أتلفّتُ
وأكبرُ ظنِّي أنك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرىء مما قضى الله يفْلتُ[3]
وأيُّ امرىء يأتي بعذْرٍ وحُجَّة ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَت[4]
وما جَزَعي من أن أموت وإنني ... لأعْلم أنّ الموتَ شيء مُؤقَّتُ[5]
ولكنّ خلفي صبيةً قد تركتُهمْ ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تتفَتَّتُ
كأنّي أراهم حين أنعى إليهمُ ... وقد خمَشُوا[6] تلك الوجوه وصوّتوا
فإنْ عشْتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ ... أذُودُ الرَّدى عنهم، وإن مُتُّ موتوا[7]

قال: فبكى المعتصم حتى ابتلّت لحيته وقال: إن من البيات لسِحْرًا، ثم قال: يا تميمُ؛ كاد السيفُ أن يسبقَ العفو، وقد وهبتك لله تعالى ولصِبيتك، وغفرت لك الصَّبوة[8]، ثم أمر بفكّ قيوده؛ وعقد له الولاية على موضعه الذي كان خرج منه، ووصله بشيءٍ كثير.

---

(١) الصدع: الشق.
(٢) الشعث: انتشار الأمر.
(٣) أفلت: تخلص ونجا.
(٤) أصلت السيف: استلّه من غمده.
(٥) مؤقت: مقدر.
(٦) خمش وجهه: لطمه.
(٧) موتوا: كثر فيهم الموت.
(٨) الصبوة: الزلة.

تَأَبّط شرًّا وابن بَرَّاق[١]

أغار تأبط شرًّا ومعه ابن[٢] برّاق على بجيلَة، فأطردا لهما نعمًا، ونذِرت[٣] بهما بَجِيلة فخرجتْ في آثارهما، ومضيا هاربيْن في جبال السَّرَاة، وركبَا الحَزْن، وعارضتهما بجيلةُ في السهل، فسبقوهما إلى الوَهْط[٤]، فدخلوا لهما في قصبة العين، وجاءا ـ وقد بلغ العطش منهما ـ إلى العين.

فلما وقعا عليها، قال: تأبط شرًّا لابن براق: أقلّ من الشرب فإنها ليلة طرْد، قال: وما يدريك؟ قال: والذي أعْدُوا بطيْرِه[٥]، إني لأسمع وجيبَ[٦] قلوب الرجال تحت قدميّ ـ وكان من أسمع العرب وأكيدهم ـ فقال له ابن براق: ذاك وجيبُ قلبك. فقال له تأبط شرًّا: والله ما وجبَ قط ولا كان وجّابًا، وضرب بيده عليه، وأصاخ نحو الأرض يستمع، فقال: والذي أعدو بطيره؛ إني لأسمع وجيب قلوب الرجال. فقال له ابن براق: فإني أنزل قبلك.

فنزل فبرك وشرب، وكان أكلّ القوم عند بجيلة شوْكةً، فتركوه وهم في الظلمة. ونزل ثابت[٧]، فلما توسط الماء وثبُوا عليه، فأخذوه وأخرجوه من العين مكتُوفًا، وابن براق قريبٌ منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عَدْوه. فقال لهم ثابت: إنه من أصلف الناس وأشدهم عُجْبًا بعدْوه، وسأقولُ له استأسر[٨] معي، فسيدعوه عُجْبه بعدوه إلى أن يعدوَ بين أيديكم، وله ثلاثة أطلاق[٩]؛ أولها كالريح الهابّة، والثاني كالفرس الجواد، والثالث يكبو فيه ويعثر. فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه؛ فإني أحبُّ أن يصير في أيديكم كما صرتُ إذ خالفني، قالوا: فافعل.

فصاح به تأبط شرًّا: أنت أخي في الشدّة والرخاء، وقد وعدني القوم أن يمنّوا عليك وعليّ، فاستأسرْ ووَاسني بنفسك في الشدة كما كنت أخي في الرخاء؛ فضحك ابنُ براق، وعلم أنه قد كادهم، وقال: مهلًا يا ثابت، أيستأسرُ من عنده هذا العدو؟ ثم عدا، فعدا أول طلق مثلَ الريح كما وصف لهم، والثاني كالفرس

---

(١) الأغاني: ١٨ ـ ٢١١ (طبعة الساسي)، بلوغ الأرب: ٢ ـ ١٤٣.
(٢) اسمه عمرو بن براق.
(٣) نذر به: علم.
(٤) الوهط: ماء بالطائف.
(٥) يقال: طير الله لا طيرك. أي فعله وحكمه.
(٦) وجب القلب: اضطرب.
(٧) ثابت: اسم تأبط شرًّا.
(٨) استأسر: كن أسيرًا.
(٩) الطلق: الشوط.

الجواد، والثالث جعل يكْبو ويعثر ويقعُ على وجهه؛ فقال ثابت: خذوه؛ فعدوْا بأجمعهم، فلما أن نفّسوا عنه شيئًا عدا تأبط شرًّا في كتافه، وعارضه ابنُ براق فقطع كتافه وأفلَتَا جميعًا، فقال تأبط شرًّا قصيدته القافية في ذلك:

يا عيدُ[١] مالك من شوقٍ وإيراق ومرِّ طيفٍ على الأهوال طَرّاق
يسرى على الأيْنِ[٢] والحيات محتفيًا نفسي فداؤك من سارٍ على ساقِ

أتتك بحَائِنٍ رِجْلَاه[٣]

كان المنذر بن ماء السماء[٤] ينادِمُه رجلان من العرب: خالد بن المضَلَّل، وعمرو بن مسعود الأسديان، فشرب ليلةً معهما، فراجعاه الكلام، فأَغْضبَاه، فأمر بهما فقُتِلا وجُعِلا في تابوتَيْن، ودُفنَا بظاهر الكوفة.

فلما أصبح وصَحَا سأل عنهما فأُخبر بذلك، فندِم وركبَ حتى وقف عليهما؛ فأمر ببُنيان الغَرِيّين[٥]، وجعل لنفسه في كل سنة يومين: يوم بؤس، ويوم نعيم.

فكان يضع سريره بينهما؛ فإذا كان يومُ نعيمه فأولُ مَنْ يطلعُ عليه ـ وهو عَلَى سريره ـ يعطيه مائةً من إبل الملوك، وأولُ مَنْ يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظِربان[٦] ويأمر به فيذبح، ويُغَرّي بدمه الغريَّان.

فلم يزل كذلك ما شاء الله.

فبينما هو ذات يوم من أيام بؤسه، إذ طلع عليه عَبِيد بن الأبرَص[٧]، فقال له الملك: ألا كان الذِّبحُ[٨] غيرك يا عبيد! فقال: أتتك بحَائِنٍ رجلاه.

---

(١) العيد: ما اعتاده الإنسان من هم أو شوق أو مرض، ومالك من شوق: يعني ما أعظمك، والإيراق مصدر آرقه، وطراق: أي يأتي ويطرق في الليل.
(٢) الأين: الذكر من الحيات، ومحتف: حاف غير منتعل.
(٣) مهذب الأغاني: ٢ ـ ٢٠٧، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٨، ذيل الأمالي ١٩٩ (الطبعة الأميرية) الشعر والشعراء: ١٤٤ (طبعة أوربا).
(٤) في كتاب المعارف أن الذي قتل عبيدًا هو النعمان بن المنذر، وهو صاحب الغريين (راجع صفحة ٢٨٣، وانظر القصة رقم ٦٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب).
(٥) الغريان: سميا بذلك لأنه كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه.
(٦) دويبة شبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم منتن الرائحة.
(٧) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي قديم من المعمرين: كان شاعر بني أسد غير مدافع.
(٨) الذبح: ما يذبح.

فقال له الملك: أو أجلٌ قد بلغ إنَاه! ثم قال يا عبيد: أَنْشدني فقد كان يعجبني شِعْرُك، فقال: حال الجَريضُ دون القرِيض[١]، وبلغ الحزامُ الطُّبْيَين[٢]، فقال: أنشدني:

أَقْفَر من أَهْلِه مَلْحُوب[٣] ... فالقطَبِيَّات[٤] فالذَّنُوب[٥]

فقال:

أَقْفَر مِنْ أهله عبيدُ ... فاليومَ لا يُبدى ولا يُعِيد

عَنَّت له مِعَنَّةٌ[٦] نَكُود ... وحَان له منها وُرُود

فقال: أنشدني هبلتْكَ أمُّك! فقال: المنَايا عَلَى الحوايا[٧]. فقال بعضُ القوم: أنشد الملكَ؛ هبلتك أمُّك! فقال: لا يرْحلُ رَحْلكَ مَنْ ليس معك.

فقال له آخر: ما أشدَّ جزعك من الموت! فقال:

لا غَرْوَ من عيشة نافده ... وهل غيرُ ما ميْتَةٍ واحده

فأبلغْ بَنيَّ وأعمامَهُمْ ... بأنَّ المنايا هي الرَّاصدَه

لها مُدَّةٌ فنفُوس العباد ... إليها، وإن كَرِهَتْ، قاصده

فلا تجزعوا لحِمَامٍ دنا ... فَلِلْموتِ ما تلدُ الوالده

فقال له المنذر: لا بدَّ من الموت! ولو عرض لي أبي في هذا اليوم لم أجد بُدًّا من ذبْحه. فأما إذ كنتَ لها وكانت لك، فاخْترْ خصلة من ثلاث خصال: إن شئتَ من الأكحل[٨]، وإن شئت من الأبجل[٩]، وإن شئتَ من الوريد[١٠].

---

(١) مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق. والجريض: الغصص. والقريض: الشعر.
(٢) مثل يضرب إذا اشتد الأمر وتفاقم. والطبي: حلمات الضرع.
(٣) ملحوب: موضع.
(٤) القطبيات: جمع قطبية، وهي ماء.
(٥) الذنوب: موضع.
(٦) أصل المعنة: المرأة تعترض في كل شيء.
(٧) الحوية: كساء يحوى حول سنام البعير ثم يركب، ومعناه: قد تأتي المنية الشجاع وهو على سرجه.
(٨) الأكحل: عرق في اليد.
(٩) الأبجل: عرق غليظ في الرجل أو في اليد بإزاء الأكحل.
(١٠) الوريد: عرق في العنق.

فقال: ثلاث خصال؛ مَقادُها شرُّ مقاد، وحاديها شرُّ حاد، ولا خيرَ فيها لمُرْتاد؛ فإن كنت لا بدّ قاتلي فاسقني الخمرَ حتى إذا ذَهِلَتْ لها ذَوَاهلي، وماتت لها مفَاصلي؛ فشأنك وما تريد!

فأمر المنذر له بحاجته من الخمر، فلما أخذتْ منه وقُرّب ليُذْبح قال:

وخيّرني ذو البؤس في يوم بُؤسه ... خِلالًا أرَى في كلها الموت قد بَرَقْ
كما خُيِّرت عادٌ من الدهر مرّة ... سحائبَ ما فيها لذِي خيرةٍ أَنَقْ[1]
سحائب ريحٍ لم توَكَّلْ ببلدة ... فتَتْرُكَها إلا كما ليلةِ الطَّلَقْ[2]

وأمر به ففُصد، فلما مات طُلي بدمه الغريان.

السُّلَيْك بن السُّلَكَة وَرفيقَاه[3]

كان السُّلَيْك[4] من أشدِّ رجال العرب وأنكَرهم[5] وأشعرهم، وكان أَدَلَّ الناس بالأرض، وأعلمهم بمسالكها، وأشدَّهم عدوًا على رجليه لا تعلق به الخيل، وكان يقول: اللهم إنك تهيىء ما شئتَ لما شئتَ إذا شئتَ، اللهم إني لو كنتُ ضعيفًا كنتُ عبدًا، ولو كنتُ امرأة كنت أَمَةً، اللهم إني أعوذُ بك من الخَيبة، أما الهيبة فلا هيبة[6].

ذكروا أنه أَمْلق[7] مرَّة حتى لم يبق له شيء فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غِرَّة من بعض من يمرُّ به، فيذهب بإبله، حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة، فاشتمل الصمَّاء[8]، ثم نام.

---

(١) الأنق: الإعجاب بالشيء.

(٢) الطلق: سير الليل لورود الغب، وهو أن يكون بين الإبل وبين الماء ليلتان؛ فالليلة الأولى يخلي الراعي إبله إلى الماء ويتركها مع ذلك ترعى وهي تسير ليلتها، فهي ليلة الطلق، والليلة الثانية ليلة القرب، وهو السوق الشديد.

(٣) الأغاني: ١٨ ـ ١٣٤ (طبعة الساسي)، الأمثال: ١ ـ ٤١٨.

(٤) كان السليك من تميم، وأمه أمة سوداء اسمها السلكة، وهو من أشد رجال العرب وأنكرهم، وأكثرهم علمًا بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وله في ذلك أخبار كثيرة. قتله أسد بن مدرك سنة ١٧ ق هـ تقريبًا.

(٥) النكارة: الدهاء.

(٦) أي لا أهاب أحدًا.

(٧) أملق: افتقر.

(٨) اشتمل الصماء: اشتمال الصماء أن يرد فضلة ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها.

فبينما هو نائم إذ جثم عليه رجل فقعد على جنبه، وقال: استأسر[١]! فرفع السُّليك إليه رأسَه، وقال: الليلُ طويل وأنت مقمرٌ[٢]؛ فجعل الرجل يَلْهَزُه[٣] ويقول: يا خبيث، استأثر، فلما آذاه بذلك أخرج السليك يده، وضم الرجلَ إليه ضمَّة صرخ منها، وهو فوقه، ثم قال: مَن أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرتُ، فقلت: لأخرجنّ فلا أرجعُ إلى أهلي حتى أستغني فآتيهم وأنا غنيّ. قال الرجل: انطلقْ معي.

فانطلق فوجدا رجلًا قِصَّتُه مثل قصتهما، فاصطحبوا جميعًا حتى أتوا الجوفَ[٤]؛ جَوْف مراد، فلما أشرفُوا عليه إذا فيه نَعَمٌ[٥] قد ملأ كلّ شيء من كثْرَتِه، فهابوا أن يغيروا فيطْردوا[٦] بعضها، فيلحقهم الطلب، فقال لهما سُليك: كُونَا قريبًا مني حتى آتي الرِّعاء[٧]، فأعلم لكما علم الحيّ: أقريب أم بعيد، فإن كانوا قريبًا رجعتُ إليكما، وإن كانوا بعيدًا قلت لكما قولًا أُوحي إليكما به فأغيرا.

فانطلق حتى أتى الرِّعاء فلم يزل يتسقَّطُهم[٨] حتى أخبروه بمكان الحي، فإذا هم بعيد، إن طُلِبُوا لم يُدْركوا؛ فقال السليك للرِّعاء: ألا أغنّيكم؟ فقالوا: بلى! غنّنا، فرفع صوته وغنّى:

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي ... سوى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[٩]

أتنظرانِ قريبًا رَيثَ غَفْلَتِهم ... أم تغدوان فإن الرِّبحَ للغادي

فلما سمعا ذلك أتيا السُّليك، فأطردوا الإبل، فذهبوا بها، ولم يبلغ الصَّريخ[١٠] الحي؛ فيأتوهم بالإبل.

---

(١) استأسر: كن لي أسيرًا.
(٢) ذهبت مثلًا، وأقمر الرجل: ارتقب طلوع القمر.
(٣) يلهزه: يلكمه.
(٤) موضع بأرض مراد.
(٥) النعم: واحد الأنعام، وهي الإبل والشاء.
(٦) قال في اللسان: طردت الإبل: أي ضممتها من نواحيها.
(٧) الرعاء: الرعاة.
(٨) تسقطه: عالجه ليبوح بما عنده.
(٩) أذواد: جمع ذود، ثلاثة أبعرة إلى عشرة.
(١٠) الصريخ: المستغيث كالصارخ.

السُّلَيْك يقتُل ويَنهَب[(١)]

زعموا أن السُّلَيْك بن السُّلَكَةِ خرج يريد أن يغير في ناسٍ من أصحابه؛ فمرّ على بني شيبان، في ربيع، والناس مخصبون في عَشِيَة فيها ضباب ومطر؛ فإذا هو ببيت قد انفرد عن البيوت عظيم، وقد أمسى.

فقال لأصحابه: كونوا بمكان كذا وكذا حتى آتي هذا البيت، فلعلي أصيبُ خيرًا، أو آتيكم بطعام. فقالوا له: افعل.

فانطلق إليه وجَنَّ عليه الليل فإذا البيت بيت يَزيدَ الشيباني، وإذا الشيخ وامرأتُه بفناء البيت؛ فاحتال السليك حتى دخل البيت من مؤخره؛ فلم يلبث أن أراح[(٢)] ابنُ الشيخ بإبله في الليل، فلما رآه الشيخ غضب، وقال: هلا كنت عشيتها ساعةً من الليل! فقال ابنه: إنها أبتِ العشاء! فقال يزيد: إن العاشية تهيجُ الآبية[(٣)]!

ثم نفض الشيخ ثوبَه في وجهها، فرجعت إلى مراتعها، وتبعها الشيخ حتى مالت لأدنى روضة؛ فرتعت فيها، وقعد الشيخ عندها يتعشى، وقد خَنس[(٤)] وجهُه في ثوبه من البَرد.

وتبعه السليك حين رآه انطلق؛ فلما رآه مُعتنزًا[(٥)] ضربه من ورائه بالسيف، فأطار رأسَه، وأطْرد إبله.

وبقي أصحاب السليك ـ وقد ساء ظنُّهم، وخافوا عليه، فإذا به يُطْرِد الإبل، فأطردوها معه!

السَخِيُّ العَدَّاء[(٦)]

قال رجلٌ من بني تميم:

كنتُ عند المهاجر بن عبد الله وَالي اليمامة؛ فأُتِيَ بأَعْرابي قد كان معروفًا بالسَّرَق[(٧)]؛ فقال له: أخبرني عن بعضِ عجائبك. قال: إنها لكثيرةٌ، ومن أَعْجَبِهَا:

---

(١) الأمثال: ١ ـ ٤١٧.
(٢) الإراحة: رد الإبل والغنم من العشي إلى مراحها، حيث تأوي إليه ليلًا، وقد أراحها راعيها.
(٣) أي إذا رأت التي تأبى الرعي التي تتعشى هاجتها للرعي، فرعت معها.
(٤) خنس: قبض.
(٥) اعتنز: تنحى.
(٦) عيون الأخبار: ١ ـ ١٨٧.
(٧) السرق: السرقة.

أنه كان لي بعير لا يُسْبَق؛ وكانت لي خيلٌ لا تُلْحَقُ، فكنتُ لا أخرج فأرجع خائبًا، فخرجتُ يومًا، فاحتَرَشْتُ[١] ضَبًّا، فعلّقته على قَتَبي[٢]، ثم مررت بخِباء سَرِيٍّ[٣] ليس فيه إلا عجوز، فقلت: أَخْلِق بهذا الخباء أن يكون له رائحةٌ من غَنم وإبل، فلما أمسيْت إذ بإبلٍ مائة، فيها شيخ عظيم البَطْن، مُئدَن[٤] اللحم، ومعه عبد أسود وَغْد[٥].

فلما رآني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فاحْتَلَبَها، وناولني العُلْبة فشربت ما يَشربُ الرجل، فتناولَ الباقي، فضرب به جَبهتَه، ثم احْتَلَبَ تسع أَيْنق، فشرب ألبانهنّ، ثم نحر حُوَارًا[٦] فطبخَه، ثم ألقى عظامه بيضًا، وحَثَا كُومَةً من بَطحاء[٧] وتوسّدها، وغطّ غطيطَ البَكْر.

فقلت: هذا واللهِ الغنيمة! ثم قمت إلى فَحْل إبله فخطمتُه[٨]، ثم قرنْتُه إلى بعيري، وصِحْتُ به، فاتّبعني الفحل، واتّبعته الإبل، فسارت خَلْفي كأنها حبل ممدود، فمضيتُ أبادر ثَنِيّةً بيني وبينها مسيرةُ ليلة للمُسْرِع، فلم أزل أضربُ بعيري بيدي مرة، وأقرَعُه برجلي أخرى، حتى طلَع الفجر.

فأبصرت الثنيّة، فإذا عليها سَوَاد، فلما دنَوْتُ إذا أنا بالشيخ قاعدًا وقوسُهُ في حِجْره، فقال: أضيفُنا؟ قلت: نعم! قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا.

فأخرج سهمًا كأنّ نصلَه لسانُ كلب، ثم قال: أبْصِرْ بين أذني الضبّ، ثم رماه فصدَع عَظْمَه عن دماغه، وقال: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول!

قال: انظُر هذا السهم الثاني في فَقْرَةِ ظهره الوسطى! ثم رمى به؛ فكأنما قدّره بيده، ثم وضعه بإصبعه، ثم قال: أرأيت؟ قلت: إني أُحِب أن أستَثبتَ.

---

(١) احترش الضب: اصطاده.
(٢) القتب: الإكاف الصغير على قدر سنام البعير.
(٣) السرى: من له مروءة في شرف.
(٤) مئدن اللحم: كثيره.
(٥) الوغد: الدنيء الذي يخدم ببطنه.
(٦) الحوار: ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه.
(٧) البطحاء: مسيل واسع فيه دقاق الحصي.
(٨) خطمه: وضع فيه الخطام: وهو ما وضع في أنف البعير ليقاد به.

قال: انظر هذا السهم الثالث في عُكْوة[١] ذَنَبه، والرابع والله في بَطْنِكَ. ثم رماه فلم يخطىء العُكْوَة، فقلت: أنزلُ آمنًا؟ قال: نعم. فنزلتُ؛ فدفعت إليه خِطَام فَحْله، وقلت: هذه إبِلك لم يذهب منها وبرَة - وأنا أنتظر متى يرميني بسهم ينتظمُ قلبي. فلما تنحّيت قال لي: أقبل، فأقبلتُ والله خوفًا من شره، لا طمعًا في خيره.

فقال: أيْ هذا؛ ما أحسبك جَشِمْتَ الليلةَ ما جشِمتَ إلا من حاجة. قلت: أجل! قال: فاقْرُن من هذه الإبل بعيرين وامضِ لِطِيَّتك، قلت: أما واللهِ حتى أخبرك عن نفسك قبلًا!

ثم قلت: والله ما رأيت أعرابيًا قط أشدَّ ضِرْسًا، ولا أعدى رِجْلًا، ولا أرْمى يدًا، ولا أكرم عفوًا، ولا أسخَى نفسًا منك!

زَيْــد الخَيْل[٢][٣]

أخبر شيخ من بني نَبْهان قال: أصابت بني شيبان سَنَةٌ ذهبت بالأموال؛ فخرج رجلٌ منهم بعِياله حتى أنزله الحِيرة، فقال لهم: كونوا قريبًا من الملك يُصبْكم خيره حتى أرجعَ إليكم، وآلى أليّة[٤]؛ لا يرجع حتى يكسبهم خيرًا أو يموت.

فتزوّد زادًا ثم مشى يومًا إلى الليل، فإذا هو بمُهْرٍ مقيّد، حول خِباء، فقال: هذا أولُ الغنيمة. وذهب يحُلُّه ويركبه، فنودي: خلِّ عنه واغنم نفسك. فتركه.

ومضى سبعة أيام حتى انتهى إلى عَطَن[٥] إبل مع تطفيل[٦] الشمس، فإذا خِباء عظيم وقُبّة من أَدَم، فقال في نفسه: ما لهذا الخِباء بُدٌّ من أهل، وما لهذه القبة بُدٌّ من رَبّ، وما لهذا العَطَن بُدٌّ من إبل. فنظر في الخِباء فإذا شيخٌ كبير قد اختلفت تَرْقُوَتَاه كأنه نَسْر.

(١) العكوة: أصل الذنب.
(٢) الأغاني: ١٦ - ٤٧ (طبعة الساسي).
(٣) هو زيد بن مهلهل، كان فارسًا مغوارًا مظفرًا شجاعًا بعيد الصيت في الجاهلية، وكان شاعرًا محسنًا خطيبًا لسنًا، كريمًا، وأدرك الإسلام، ووفد إلى النبيّ ﷺ سنة تسع، وسرّ به وقرطه وسماه: زيد الخير. وسمي في الجاهلية بزيد الخيل لكثرة خيله. توفي سنة ٩ هـ.
(٤) آلى آلية: حلف يمينًا.
(٥) العطن: مبرك الإبل.
(٦) تطفيل الشمس: ميلها للغروب.

قال: فجلست خَلْفه. فلما وجبتِ[١] الشمس إذا فارس قد أقبل لم أرَ فارسًا قطّ أعظمَ منه ولا أجسم، ومعه أسودان يمشيان جنبيه، وإذا مائة من الإبل مع فحْلها، فبرَكَ الفحل، وبرَكت حوله، ونزل الفارس؛ فقال لأحد عَبْدَيه: احلُب الفُلانة[٢]، ثم اسقِ الشيخ، فحلب في عُسٍّ حتى ملأه ووضعه بين يدي الشيخ، وتنحّى، فكرع منه الشيخ مرة أو مرتين ثم نَزع[٣]، فَثُرت إليه فشربته، فرجع إليه العبد فقال: يا مولاي؛ قد أتى على آخره. ففرح بذلك وقال: أحلُب الفُلانة، فحلبها، ثم وضع العُسّ بين يدي الشيخ، فكرع منه واحدة، ثم نزع، فثُرت إليه فشربت نصفه، وكرهت أن آتي على آخره فأتهم، فجاء العبد فأخذه، وقال لمولاه: قد شرب، فقال: دَعْه.

ثم أمر بشاة فذبحت، وشوى للشيخ منها: ثم أكل هو وعبداه. فأمهلت حتى إذا ناموا وسمعت الغطيط[٤] ثُرتُ إلى الفحل، فحللت عِقاله ورِكبتُه، فاندفع بي وتبعته الإبل. فمشيتُ ليلتي حتى الصباح.

فلما أصبحتُ نظرتُ فلم أر أحدًا، فسللتها سلّا عنيفًا، حتى تعالى النهار، ثم التفتُ التفاتة، فإذا أنا بشيء كأنه طائر، فما زال يدنو حتى تبيَّنْتُه، فإذا هو فارس على فرس، وإذا هو صاحبي بالأمس، فعقلتُ الفحل، ونثلتُ كنانتي، ووقفت بينه وبين الإبل، فقال: احْلُلْ عِقال الفَحْل. فقلتُ: كلا والله، لقد خلَّفت نُسَيَّاتٍ بالحيرة، وآليتُ أليّة لا أرجع حتى أفيدهن خيرًا أو أموت، قال: فإنّك لَمَيِّت؛ حلَّ عقاله لا أمَّ لك! فقلت: ما هو إلا ما قلت لك. فقال: إنك لمغرور، انصب لي خِطامه، واجعل فيه خمس عُجَر[٥]؛ ففعلت، فقال: أين تريد أن أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع. فكأنما وضعه بيده.

ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم، فرددت نَبلي[٦]، وحططت قوسي، ووقفتُ مستسلمًا؛ فدنا مني وأخذ السيف والقوس ثم قال: ارتَدِفْ[٧] خلفي، وعرف أني الرجل الذي شربتُ اللبنَ عنده؛ فقال: كيف ظنُّك بي؟ قلت: أحسن ظن. قال: وكيفَ؟ قلت: لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك

---

(١) وجبت الشمس: مالت للغروب.
(٢) الفلانة: كناية عن غير الإنسان.
(٣) نزع: انتهى.
(٤) غطيط النائم: نخيره.
(٥) العجرة: العقدة.
(٦) النبل: السهام العربية، ولا واحد لها.
(٧) المرتدف: الراكب خلف الراكب.

الله بي. فقال: أترانا كنا نهيجك وقد بتّ تنادم مهلهلًا[١]! قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم، أنا زيد الخيل، فقلت: كُنْ خيرَ آخذ. فقال: ليس عليك بأس. ومضى إلى موضعه الذي كان فيه. ثم قال: أما لو كانت هذه الإبل لي لسلَّمْتُها إليك، ولكنها لبنت مهلْهل، فأقم عليَّ فإني على غارة.

فأقمتُ أيامًا، ثم أغار على بني نمير فأصاب مائة بعير، فقال: هذه أحبُّ إليك أم تلك؟ قلت: هذه. قال: دونكها، وبعث معي خفراء من ماء إلى ماء حتى وردوا بي الحيرة، فلقيني نَبَطِيّ فقال: يا أعرابي، أيسرُّك أن لك بإبلك بُسْتانًا من هذه البساتين؟ قلت: وكيف ذاك؟ قال: هذا قُرْبُ مخرج نبيٍّ يخرج، فيملك هذه الأرض، ويحول بين أربابها وبينها، حتى إن أحدهم لبيتاع البستان من هذه البساتين بثمن بعير.

قال: فاحتَملتُ بأهلي حتى انتهيتُ إلى موضع، فبينما نحن على ماء لنا، جاءنا رسول الله ﷺ فأسْلَمْنا، وما مضت أيامٌ حتى اشتريتُ بثمن بعير من إبلي بستانًا بالحيرة.

جَحْــدَر[٢]

كان جَحْدَر بن ربيعة من لصوص العرب وشياطينهم، يُغير على أحيائهم فينهَبُها، وربما فتك بمن تعرّض له؛ واشتدَّ شَرُّهُ في أيام الوليد بن عبد الملك، حتى أباد خَلْقًا كثيرًا.

فبلغ أمرُه الحجَّاجَ[٣]؛ فكتب إلى عامِله باليمامة، يؤنِّبه لعجزه عن الضرب على يديْ ذلك الفاتك، وأمره أن يُوقِعَ به، أو يحملَه إليه أسيرًا.

فأوطأ[٤] العاملُ جماعة من فِتْيَة بني حَنْظَلة، وجعل لهم الجعائل[٥] العظيمة إن هم أتَوْه به مَغْلولًا[٦] أو مقتولًا!

(١) مهلهل: أبو زيد الخيل.
(٢) المستطرف: ١ ـ ٢٢٤، المحاسن والمساوىء: ٧٧ (طبع ليبزج).
(٣) نشأ بالطائف، وولي العراق والمشرق، وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ.
(٤) أوطأ جماعة: اتفق معهم.
(٥) الجعالة ما جعل للإنسان من شيء على فعل.
(٦) الغل: طوق من الحديد يجعل في العنق.

فأرسلوا إليه يقولون: إنهم يريدون الانقطاع إليه، والخضوع لأمره؛ فأَخْلَد جَحْدَر إلى قولهم، وأدخلهم في صُحبته. فأخذوا ينهبون تحت لوائه، إلى أن صادفوا منه غِرَّة[1]، فشدُّوا وِثاقه، وقدموا به إلى العامل الذي وجّههم به إلى الحجاج.

فلما مَثَلُوا بين يديه قال الحجاج: أنت جَحْدر؟ قال: نعم، فقال: وما جرّأك على ما بلغني عنك؟ قال: جَوْر الزمان، وجراءة الجنَان! قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلانِي الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه.

فقال: يا جحدر؛ إني قاذفٌ بك إلى حفيرة بها سبعٌ شرِس، فإن قتلك كفانَا مؤُونتك، وإن قتلتَه عفونا عنك لشجاعتك! فقال: أصلح الله الأمير! لقد قرُب الفرج!

فأمر الحجاج بحبْسه، وكتب إلى العامل أن يرتاد[2] له سَبُعًا عَتِيًّا[3]، ويحمله إليه. فارتاد له أسدًا خبيثًا، كريه المنظر، قد أفنى جميع ما باليمامة من حيوان، ووضعه في قفص من حديد، وأنفذه إلى الحجاج.

فأمر أن يُلْقى في الحفيرة، ولا يُطعم شيئًا ثلاثة أيام، حتى إذا ما اشتد به الجوع، أُخرج إليه جحدر، وما أُعطي إلا سيفًا، والحجاجُ مشرف على الحفيرة؛ والناسُ حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بفريسته!

فلما رُفع[4] له نهض وزرأ زئيرًا رجّ الجبال، وراع الحاضرين، فأنشد جحدر:

لـيـثٌ ولـيـثٌ فـي مـجـالٍ ضـنـك ... كـلاهـمـا ذو قـوّةٍ وسَـفْـكِ
وصـولـةٍ وبـطـشـةٍ وفَـتْـك ... إن يـكـشـفِ الله قـنـاعَ الـشـكّ
فـأنـتَ لـي فـي قـبـضـتـي ومِـلْـكـي

---

(١) الغرة: الغفلة. (٢) يرتاد: يطلب.
(٣) العتي: ما جاوز الحد، ويقصد: الشديد الهائل.
(٤) رفع: ظهر من بعيد.

ثم أدْلِيَ به، فوقع عليه وقوعَ الصاعقة، فصرخ الأسدُ عند رُؤيته صرخة عظيمة، فأجابه هو بأعظم منها، وضربه بسيفه ضربة فلقَتْ هامته؛ فكبّر الناس، وأعجب به الحجاج، وقال: لله دَرُّك[١]! ما أنجدك[٢]!

ثم خيّره بين أن يُقيم عنده مكرمًا، أو يلحقَ ببلاده على ألّا يؤذيَ أحدًا، ولا يحدث حدثًا؛ فاخْتَارَ جحدر الإقامة معه، وأحسن أدبه، حتى حَظِي عنده وجعله من سُمّاره وخواصه؛ وبعد ذلك بزمن غير طويل ولّاه اليمامة، ومكث فيها مدة، قام فيها بأعباء الولاية خيرَ قيام.

صَديقا ابن سُريج على قبره[٣]

حدَّث إسحٰق بن يعقوب عن أبيه قال:

إنَّا لبِفِناء دار عمرو بن عثمان بالأبطح في صُبْح خامسة من الثمان[٤]، فما إنْ دَرَيْتُ إلا برجل على راحلة، على رَحْلٍ جميل وأَدَاةٍ حسنة، مع صاحبٌ له على راحِلَةٍ قد جَنَبَ[٥] إليها فرسًا وبغْلًا، فوقفا عليَّ وسألاني، فانتسبتُ لهما عُثمانيًا، فنزلا وقالا: رجلان من أهلِك أقدَمَتْنا حاجةٌ نحبُّ أن نقضيها قبل أن نُشْدَه[٦] بأمر الحج؛ فقلت: ما حاجتُكما؟ قالا: نريد إنسانًا يَقِفُنا على قبر عُبيد بن سُريج!

قال: فنهضت معهما حتى بلغتُ بهما مَحَلَّةَ بني قارة من خُزَاعة بمكة، وهم موالي عُبَيْد بن سريج[٧]، ثم التسمتُ لهما إنسانًا يصحَبُهُما حتى يَقِفَهَما على قبره بدَسْم[٨]، فوجدتُ ابنَ أبي دُبَاكِل فأنْهَضْتُهُ معهما. ثم أخبرني بعدُ: أنه لما أوقَفَهما على قبره نزلَ أحدُهما فحسرَ عمامته عن وجهه، فإذا هو عبد الله بنُ سعيد بن عبد الملك بن مَرْوان، فعقَرَ ناقته، واندفع يندبُه بصوتٍ شجيٍّ كليلٍ حَسَن:

وقفنا على قبرٍ بدسْمٍ فهاجَنَا وذكَّرَنا بالعيش إذ هو مُصْحِبُ[٩]

(١) الدر: العمل من خير أو شر؛ ولله درك أي لله عملك؛ يقال لمن يمدح ويتعجب من عمله.

(٢) ما أنجدك: ما أشجعك فيما يعجز عنه غيرك.

(٣) الأغاني: ١ ـ ٣٢٠ (طبعة دار الكتب).

(٤) أي من أيام الحج.

(٥) جنب فرسًا: أي قاده إلى جنبه.

(٦) نشده: نشغل.

(٧) كان عبيد بن سريج مغنيًا من أهل مكة، كان يغني مرتجلًا ويوقع بقضيب، ويضرب بالعود؛ غنى في خلافة عثمان بن عفان، وتوفي في خلافة هشام بن عبد الملك، مات نحو سنة ٩٨ هـ.

(٨) دسم: موضع قرب مكة.

(٩) المصحب: الذليل المنقاد بعد صعوبة.

فجالت بأرجاءِ الجفون سَوَافحٌ من الدَّمْعِ تستتْلِي الذي يَتَعَقَّبُ
إذا أبطأتْ عن ساحة الخدِّ ساقها دمٌ بعد دمع إثرَهُ يَتَصَبَّبُ
فإن تُسْعِدَا نندُب عُبيدًا بِعَوْلَةٍ[١] وقَلَّ له مِنَّا البُكا والتَّحَوُّبُ[٢]

ثم نزل صاحبُه فعقر ناقَتَه. وقال له القُرَشِيُّ: خُذْ في صوت أبي يحيىٰ؛ فاندفع يُغَنِّي:

أسعِداني بعبرة أسْرَابِ[٣]
من دُموعٍ كثيرَةِ التسْكابِ
إنَّ أهلَ الحِصَابِ[٤] قد تركوني
مولَهًا مولَعًا بأهلِ الحِصابِ
أهلِ بيتٍ تتايعوا[٥] للمنايا
ما على الموتِ بعدَهمْ من عِتَابِ
فارَقوني وقد علمتُ يقينًا
ما لمنْ ذاقَ مِيتةً من إياب
كم بذاك الحَجُون[٦] من سخَيٍّ صدق
من كهولٍ أعِفةٍ وشبابِ
سكنوا الجزْعَ جَزْعَ بيت أبي مو
سى إلى النخل من صُفِيِّ السِّبَابِ[٧]
فَلِيَ الوَيلُ بعدهم وعليهمْ
صِرْتُ فردًا ومَلِنِي أصحابي

قال ابنُ أبي دُبَاكِل: فوالله ما تمَّمَ صاحبُه منها ثلاثًا حتى غُشِيَ على صاحبه، وأقبل يصلِحُ السرج على بغلته وهو غير مُعَرِّج عليه. فسألته مَن هو؟ فقال: رجلٌ

(١) أعول: ارتفع بكاؤه، والاسم العولة. (٢) التحوب: التوجع.
(٣) أسراب: جمع سرب وهو الماء السائل. (٤) الحصاب: موضع الجمار.
(٥) التتايع: الوقوع في الشر من غير فكر ولا روية.
(٦) الحجون: جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها.
(٧) صفي السباب: موضع بمكة، والمراد بأبي موسى أبو موسى الأشعري.

من جُذَام. قلتُ: بمن تعْرَفُ. قال: بعبد الله بن المنْتَشِر. قال: ولم يَزَل القرشيُّ على حاله ساعة، ثم أفاق.

ثم جعل الجُذَامي يَنْضَحُ الماء على وجهه، ويقول كالمعاتب له: أنت أبدًا مَصْبُوبٌ[١] على نفسك، ومَنْ كلَّفك ما ترى! ثم قرب إليه الفرس؛ فلما علاه استخرج الجُذاميّ من خُرْج على بِغْلٍ قدحًا وإدَاوَةَ ماءٍ، فجعل في القدح ترابًا من تراب قبر ابن سريج وصبَّ عليه ماء من الإدَاوة. ثم قال: هاك فاشرب هذه السَّلْوَةَ[٢]، فضرب. ثم فعل هو مثل ذلك وركب البغل وأرْدَفني.

فخرجا والله ما يعرِّضان بذكر شيء مما كانا فيه، ولا أرى في وجوههما شيئًا مما كنتُ أرى قبل ذلك.

فلما اشتمل علينا أَبْطَح مكة قالا: انزل يا خزاعي! فنزلت وَأَوْمأ الفتى إلى الجُذامي بكلامٍ، فمدَّ يده إليَّ وفيها شيء فأخذتُه فإذا هو عشرون دينارًا، ومضيا.

فانصرفت إلى قبره ببعيرين فاحتملتُ عليهما أداةَ الراحلتين اللتين عقراهما فبعتُهما بثلاثين دينارًا!

قوَّة وَبَطش[٣]

كان هلال[٤] فارسًا شجاعًا شديد البأس والبطش، أكثرَ الناس أكْلا، وأعظَمهم في حرب غَناءٍ. وكان يَرِدُ مع الإبل فيأكلُ ما وجد عند أهله، ثم يَرْجع إليها ولا يتزود طعامًا ولا شرابًا حتى يرجعَ يوم وردها، لا يذوقُ فيما بين ذلك طعامًا ولا شرابًا، وكان عاديَّ الخَلق[٥]، لا تُوصفُ صِفَتُه.

وكان يومًا في إبل له، وذلك عند الظهيرة في يوم شديدِ وَقْعِ الشمس، مُحْتدِم الهاجِرة[٦]، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه، ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس؛ فبينما هو كذلك إذ مرَّ به رجلان: أحدهما من بني نَهشل،

---

(١) مصبوب على نفسك؛ أي محثوث على اتباعها تستغويك فتسلس لها القياد.

(٢) السلوة: أين يؤخذ من تراب قبر ميت فيذر على الماء ويسقاه العاشق ليسلو.

(٣) الأغاني: ٣ ـ ٥٣ (طبعة دار الكتب).

(٤) هلال بن الأسعر: شاعر اشتهر في العصر الأموي، وكان فارسًا شجاعًا، مات نحو سنة ١٣ هـ.

(٥) عادي الخلق: عملاق ضخم الجسم، نسبة إلى عاد.

(٦) الهاجرة: نصف النهار.

والآخر من بني فُقَيْم، كانا أشدَّ تميميَّيْنِ في ذلك الزمان بَطْشًا، وقد أقبلا من البحرين، ومعهما[١] أنْوَاط من تمر هَجَر[٢]، وكان هِلَالٌ بناحية الصِّعَاب[٣].

فلما انتهيا إلى الإبل - ولا يعرفان هِلَالًا بوجهه، ولا يعرفان أن الإبل له - نَادَيَا: يا راعي، أعندك شرابٌ تسقِينا؟ وهما يظنانه عبدًا - فناداهما هلال ورأسُه تحت كسائه: عليكما بالناقة التي صفتُها كذا في موضع كذا، فأنيخَاها؛ فإن عليها وَطْبَيْنِ[٤] من لبن، فاشربا منهما ما بَدَا لكما. فقال له أحدهما: وَيْحَكَ! انهضْ يا غلام فأتِ بذلك اللبن! فقال لهما: إن تَكُ لكما حاجة فستأتيانها، فَتَحْدرانِ[٥] الوطْبَين فتشربان.

فقال أحدُهما: إنك لغَليظ الكلام، قم فاسْقنا ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال، فقال لهما - حيث قال له أحدهما: إنك لغليظ الكلام - أراكما والله ستَلْقيان هَوانًا وَصغَارًا؛ وسَمِعَا ذلك منه؛ فدنا أحدُهما فأَهْوى له ضربًا بالسَّوْط على عَجُزِه وهو مضطجع، فتناول هِلَالٌ يدَه فاجتذبه إليه، ورماه تحت فَخِذه، ثم ضغطه ضَغْطَةً، فنادى صاحبَه: ويحك! أَغِثْني قَد قتلني! فدنا صاحبُه منه، فتناوله هلال أيضًا فاجتذَبه فرمى به تحت فخذه الأخرى. ثم أخذ برِقابهما فجعل يَصُكُّ برؤوسهما بعضًا ببعض؛ لا يستطيعان أن يمتنعا منه.

فقال أحدهما: كُنْ هلالًا ولا نبالي ما صنعتَ! فقال لهما: أنا والله هلال، ولا والله لا تفلتان مني حتى تُعْطياني عهدًا وميثاقًا لا تخِيسان به[٦]؛ لتأتيانِّ المِرْبد[٧] إذا قدمتما البصرة، ثم لتناديانِّ بأعلى أصواتكما بما كان منّي ومنكما.

فعاهداه وأعطياه نَوْطًا من التمر الذي معهما وقدما البصرة، فأتيا المِرْبد، فناديا بما كان منه ومنهما.

---

(١) أنواط: جمع نوط، والنوط: أحلة صغيرة فيها التمر ونحوه.

(٢) هجر: قاعدة البحرين، مشهورة بالتمر، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر.

(٣) الصعاب: جبل بين اليمامة والبحرين.

(٤) الوطب: سقاء اللبن خاصة.

(٥) حدر الشيء: أنزله من علو.

(٦) لا تخيسان به: لا تغدران به ولا تنكثان.

(٧) المربد: موضع بالبصرة؛ كان سوقًا للإبل، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.

لَا تعرضُوا لهذا الشيطان[١]

حدَّث خالد عن كُنَيف بن عبد الله المازنيّ قال: كنتُ يومًا مع هِلَال، ونحن نبغِي إبلًا لنا. فَدَفَعْنَا إلى قومٍ من بَكْر بن وائل، وقد لغِبْنَا[٢] وعَطِشْنَا، وإذا نحن بفتْيةٍ شباب عند رَكِيَّةٍ[٣] لهمَ، وقد وَرَدَتْ إبلُهم، فلمّا رأوْا هِلالًا استَهْولُوا خَلْقه وقامته.

فقام رجلان منهم إليه، فقال له أحدهما: يا عبدَ الله، هل في الصِّراع؟ فقال له هلال: أنا إلى غير ذلك أحوج. قال: وما هو؟ قال: إلى لبن وماء؛ فإنني لَغِبٌ ظمْآن، قال: ما أنت بذائق من ذلك شيئًا حتى تعطيَنا عهدًا؛ لتُجِيبَنَّنا إلى الصراع إذا أَرَحْت[٤] ورَوِيتَ.

فقال لهما هلال: إنّني لكم ضيف، والضيفُ لا يُصارع ربَّ منزله، وأنتم مكتَفون من ذلك بما أقولُ لكم: اعمِدوا إلى أشَدِّ فحل في إبلكم وأَهْيَبِه صولة، وإلى أشدِّ رجلٍ منكم ذِراعًا؛ فإن لم أقبض على هامَةِ البعير وعلى يد صاحبكم فلا يمتنعُ الرجلُ ولا البعير حتى أُدْخِلَ يد الرجل في فم البعير، فإن لم أفعل ذلك فقد صرعتموني، وإن فعلتُه علمتم أن صراع أحدكم يسرُ من ذلك.

فعجبوا من مَقَالته تلك، وَأوْمئوا إلى فَحْلٍ في إبلهم هائج صائل قَطِم[٥]، فأتاه هلال ومعه نفرٌ من أولئك القوم وشيخٌ لهم، فأخذ بهَامَة الفحل مما فوق مِشْفَره، فضغطها ضَغْطَةَ جَرْجر[٦] الفَحْلُ منها واسْتَخْذَى[٧] وَرَغَا. وقال: ليُعْطِني من أَحْبَبتُم يده أولِجها في فم هذا الفحل.

فقال الشيخ: يا قوم، تنكَّبوا هذا الشيطان، فوالله ما سمعتُ الفلان[٨] ـ يعني هذا الفحل ـ جَرْجرَ منذ بَزَلَ[٩] قبل اليوم، فلا تعرضوا لهذا الشيطان. وجعلوا يَتْبَعونه وينظرون إلى خَطْوه ويَعْجَبون منه حتى جَاوزَهم.

---

(١) الأغاني: ٣ ـ ٥٥ (طبعة دار الكتب).
(٢) لغب: تعب وأصابه الإعياء.
(٣) الركية: البئر.
(٤) أراح الرجل: رجعت إليه نفسه بعد الإعياء.
(٥) القطم: الهائج الذي صعب ركوبه.
(٦) جرجر: ردد صوته في حنجرته.
(٧) استخذى: خضع.
(٨) الفلان والفلانة: كناية عن غير الآدميين، تقول: ركبت الفلان وركبت الفلانة، أما فلان وفلانة فهما كناية عن أسماء الآدميين.
(٩) بزل البعير فهو بازل، أي: دخل في سنته التاسعة.

هلَال يُصَارع عَبدًا جبّارًا[١]

حدّثَ مَن سمع هلالًا يقول: قَدِمْتُ المدينةَ، وعليها رجلٌ من آل مرْوان، فلم أزلْ أَضَعُ عن إبلي، وعليها أحمالٌ للتّجار، حتى أُخِذَ بيدي، وقيل لي: أَجِبِ الأمير.

قلت لهم: ويلكم! إبلي وأحمالي! فقيل: لا بأس على إبلِك وأحمالك.

فانطُلِقَ بي حتى أُدخِلْتُ على الأمير، فسلّمتُ عليه، ثم قلت: جُعِلْتُ فداكَ! إبلي وأمانتي، فقال: نحن ضامِنُون لإبلك وأمانتك حتى نؤدِّيَها إليك؛ فقلت عند ذلك: فما حاجة الأمير إليَّ؟ جعلني الله فداه! فقال لي - وإلى جنبه رجلٌ أصفر، ما رأيت رجلًا قَط أشد خَلْقًا منه، ولا أغلظَ عنقًا، ما أدري أطولُه أكثر أم عَرْضه -: إنّ هذا العبد الذي ترى، ما ترك بالمدينة عربيًّا يُصارِع إلا صَرَعهُ، وبلغني عنك قوّةٌ فأردتُ أن يُجرِي الله صَرْعَ[٢] هذا العبد على يدك؛ فتُدْرِكَ ما عنده من أوتار العرب.

فقلت: جعلني الله فداء الأمير، إني لَغِبٌ جائعٌ، فإن رأى الأمير أن يَدَعني، حتى أضَع عن إبلي، وأؤدي أمانتي، وأُريحَ يومي هذا وأجيئَه غدًا - فلْيفعل.

فقال لأعوانه: انطلقوا معه فأعينوه على الوَضْعِ عن إبله وأداءِ أمانته، ثُمّ انطلِقوا به إلى المطبخ فأشبِعُوه. ففعلوا جميعَ ما أمرهم به. فظلِلْت بقيَّة يومي ذلك، وبتُّ ليلتي تلك بأحسن حال شِبَعًا وراحةً وصلاح أمر؛ فلما كان من الغد غدوت عليه وعليَّ جُبَّة لي صوف وَبَتٌّ[٣]، وليس عليَّ إزارٌ، إلا أني قد شددتُ بعمامتي وسطي. فسلّمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام. وقال للأصفَر: قم إليه، فقد أرى الله أتاك بما يُخزِيك. فقال العبد: ائتزرْ يا أعرابيّ، فأخذتُ بَتّي فَأْتَزَرْتُ به على جُبَّتي؛ فقال: هيهات! هذا لا يثبُت، إذا قبضْتُ عليه جاء في يدي؛ فقلت: واللهِ مَا لِي من إزَار.

فدعا الأمير بِملْحَفَةٍ ما رأيت قبلها، ولا عَلَا جلدي مثلُها، فشددتُ بها على حَقْوِي[٤] وخلعت الجُبّة.

---

(١) الأغاني: ٣ ـ ٥٦ (طبعة دار الكتب).
(٢) صرعه، أي قتله.
(٣) البت: كساء غليظ مهلهل مربع أخضر.
(٤) الحقو: الخصر.

وجعل العبدُ يدور حولي ويريد خَتْلي وأنا منه وَجِل، ولا أدري كيف أصنع به! ثم دنا مني دَنْوَةً، فَنَقَدَ[١] جَبْهتي بظُفره نَقْدَةً ظننت أنه قد شجَّني وأَوْجَعني. فغاظني ذلك، فجعلت أنظر في خَلْقِهِ؛ بِمَ أَقبِضُ منه. فما وجدت في خلْقِه شيئًا أصغر من رأسِهِ، فوضعتُ إبهامي في صُدْغيه وأصابع الأُخَر في أصل أذنيه. ثم غمَزْتُه غمزة صاح منها: قتلتَني! قتلتَني! فقال الأمير: اغمسْ رأس العبد في التراب. فقلت له: ذلك عليَّ.

فغمستُ والله رأسَه في التراب، ووقع شبيهًا بالمغشِيِّ عليه. فضحك الأمير حتى استَلْقى، وأمر لي بجائزة وصِلَةٍ وكُسوة، وانصرفت.

أجبَنُ الناسَ وأحيل الناسَ وأشجَع الناس[٢]

دخل عَمْرو[٣] بن معديكرِب على عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عُمَر: يا عَمْرو؛ أخبرني عن أشجع مَن لَقِيت. فقال: والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أجبن الناس وأحيل الناس، وأشجع الناس: خرجت مرةً أريدُ الغارةَ، فبينما أنا أسيرُ بفرس مشدودٍ، ورُمْحٍ مَرْكُوز، وإذا رجلٌ جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خَلْقًا، وهو مُحْتَبٍ بسيف.

فقلت له: خُذْ حِذْرك فإني قاتِلُك. فقال: ومَن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب، فشهِق شهقة، فمات. فهذا أجبنُ مَنْ رأيتُ يا أمير المؤمنين.

وخرجتُ يومًا حتى انتهيتُ إلى حيٍّ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ، ورُمْحٍ مركوز، وإذا صاحبُه في وَهْدَة يقضي حاجة.

فقلت: خذ حِذْرك فإني قاتلك. قال: مَنْ أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب. قال: أبا ثور[٤]، ما أنصفْتَنِي! أنتَ على ظهرِ فرسك، وأنا في بئر، فأعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركبَ فرسي، وآخذَ حذْرِي؛ فأعطيتُه عهدًا ألّا أقتلَه حتى يركب فرسه، ويأخذ حِذْره.

---

(١) نقد الشيء: نقره بإصبعه.

(٢) نهاية الأرب: ٢ ـ ١٧٦، الغرر: ٢٢٧.

(٣) عمرو بن معديكرب: فارس مشهور صاحب وقائع مذكورة، في الجاهلية والإسلام. توفي سنة ٢١.

(٤) أبو ثور: كنية عمرو.

فخرج من الموضع الذي كان فيه، حتى اختَبى بسيفه وجلس. فقلت له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكبِ فرسي، ولا بمقاتلك، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم، فتركتُه ومضيت.

فهذا يا أمير المؤمنين أحْيَلُ من رأيت!

ثم إني خرجْتُ يومًا آخر؛ حتى انتهيْتُ إلى موضعِ كنت أقطع فيه، فلم أرَ أحدًا، فأجريت فرسي يمينًا وشمالاً، فظهر لي فارس.

فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل نحو اليَمَامة. فلما قَرُب مني سلَّم؛ فردَدْت عليه وقلت: مَنِ الفتى؟ قال: أنا الحارث بن سَعْد، فارس الشهباء[١]؛ فقلت له: خُذْ حِذْرك، فإني قاتلك، فقال: الويلُ لك! مَنْ أَنْتَ؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرِب قال: الحقير الذليل؟ والله ما يمنعني مِنْ قَتْلك إلا استصغارُك، فتصاغَرتْ نفسي إليَّ وعظُم عندي ما استقبلني به.

فقلت له: خُذْ حِذْرك، فوالله لا ينصرف إلا أَحَدُنا. قال: اغْرُبْ[٢]، ثَكِلَتك أمك! فإني من أهل بيت ما نَكَلْنا[٣] عن فارسٍ قط! فقلت: هو الذي تسمع. قال: اخْتَرْ لنفسك: إما أن تُطْرِدَ[٤] لي، وإما أن أُطْرِد لك؛ فاغتنمتها منه، فقلت: أطْرِد لي. فأطرد، وحملت عليه، حتى إذا قلت: إني وضعتُ الرُّمحَ بين كتفيه، إذا هو قد صار حِزامًا لفرسه، ثم اتَّبعني، فَقَرع بالقناة رأسي، وقال: يا عَمْرو؛ خُذْها إليك واحدة، فوالله لولا أني أكره قتلَ مثلِك لقتلْتُكَ؛ فتصاغرتْ إليّ نفسي، وكان الموتُ ـ والله يا أميرَ المؤمنين ـ أحبَّ إليَّ مما رأيت، فقلت: والله لا ينصرفُ إلا أحدُنا، فقال: اختر لنفسك؛ فقلت: أطرد لي.

فأطرد لي؛ فظننتُ أني قد تمكّنْتُ منه، واتّبعته حتى إذا قلت: إني قد وضعتُ الرمح بين كتفيه؛ فإذا هو قد صار لَبَبًا[٥] لفرسه، ثم اتبعني فقرع رأسي بالقَناة، وقال: يا عَمْرو؛ خُذْها إليك ثانية. فتصاغرتُ إليّ نفسي؛ فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدُنا.

(١) الشهباء: علم على فرس.
(٢) اغرب: تنح.
(٣) ما نكلنا: ما جبنا.
(٤) أطردت الرجل: جعلته طريدًا لا يأمن.
(٥) اللبب: ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.

فقال: اختَرْ لنفسك. فقلت: أطْرِد لي. فَأَطْرَدَ حتى إذا قلت: إني وضعتُ الرمْحَ بين كتفيه وثب عن فرسه؛ فإذا هو على الأرض؛ فأخطأتُه ومضَيت. فاستوى على فرسه، واتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو؛ خذها إليك ثالثة. ولولا أني أكره قَتْل مثلك لقتلتُك.

فقلت له: اقتُلني، فإن الموت أحبّ إليّ مما أرى بنفسي، وأن تسمع فتيان العرب بهذا. فقال: يا عمرو؛ إنما العفو ثلاث، وإني إن استمكنت منك الرابعة قتلتك وأنشأ يقول:

وكَّـذت أغـلاظًـا مـن الأيـمـانِ   إن عُذت يا عمرو إلى الطِّعَانِ
لـتـوجـرَنَّ[1] لَهَـبَ الـسِّـنَـان[2]   أَوْلَا، فلستُ من بني شيبانِ!

فلما قال هذا كرهتُ الموت، وهِبْتهُ هيبةً شديدة، وقلت: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قلت: أكون لك صاحبًا، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين! قال: لستَ من أصحابي. فكان ذلك والله أشدَّ عليَّ وأعظمَ مما صنع.

فلم أزَلْ أطلبُ إليه حتى قال: ويحك! وهل تدري أين أريد؟ قلت: لا. قال: أريدُ الموت عيانًا. فقلت: رضيتُ بالموت معك. فقال: امْضِ بنا؛ فسِرْنَا جميعَ يومنا وليلتنا حتى جنّنا الليل، وذهب شَطْرُه.

فوردنا على حيّ من أحياء العرب، فقال لي: يا عَمْرو، في هذا الحي الموت. ثم أومأ إلى قُبّة في الحي، فقال: وفي تلك القُبّةِ الموتُ الأحمر؛ فإما أن تمْسك عليَّ فرسي؛ فأنزل، فآتي بحاجتي، وإما أنْ أُمْسِكَ عليك فرسك؛ فتنزل فتأتي بحاجتي. فقلت: لا. بل انزل أنت؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك؛ فرمى إليَّ بعِنان الفرس ونزل، فرضيتُ لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسًا.

ثم مضى حتى دخل القُبَّة؛ فاستخرج منها جارية، لم ترى عيناي قط مثلَها حسنًا وجمالًا؛ فحملها على ناقة، ثم قال: يا عَمْرو. قلت: لبيك! قال: عليك بزِمَامِ الناقة.

وسرنا بين يديه، وهو خَلْفَنَا حتى أصبحنا، فقال لي: يا عَمْرو. قلت: لبّيك! ما تشاء؟ قال: التفِتْ، فانظر هل ترى أحدًا؟ فالتفتُّ، وقلت: أرى جمالًا،

---

(١) أوجره الرمح: طعنه به في فيّه.   (٢) السنان: طرف الرمح.

قال: أغذّ السير[١]، ثم قال لي: يا عَمْرو. قلت: لبّيك! قال: انظر، فإن كان القوم قليلًا، فالجلد والقوة والموت. وإن كانوا كثيرًا فليسوا بشيء. فالتفتّ، فقلت: هم أربعة أو خمسة. قال: أغِذَّ السير، وسمع وَقْعَ الخيل؛ فقال لي: يا عَمْرو، قلت: لبَّيك! قال: كُنْ على يمين الطريق، وقِفْ، وحوّل وجوه دوابّنا إلى الطريق؛ ففعلت، ووقفت على يمين الرّاحلة ووقف هو عن يَسَارِها.

ودنا القومُ منا؛ فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ، وهو أبو الجارية وأخواها وهما غلامان شابان؛ فسلّموا فرددنا السلام، ووقفوا عن يسار الطريق.

فقال الشيخ: خلِّ عن الجارية يا ابنَ أخي؛ فقال: ما كنت لأُخَلِّيها، ولا لهذا أخذتُها! فقال لأصْغَرِ ابنيه: اخرج إليه؛ فخرج وهو يَجُرُّ رمحه، وحمل عليه الحارث، وهو يقول:

مِنْ دُونِ ما تَرْجُوه خَضْب الذابل[٢] ... من فارس مُسْتَلْئِم[٣] مقاتل،
يُنْمي إلى شَيبانَ خيرِ وائلِ ... ما كان سَيْرِي نحوها بباطِلِ!

ثم شدَّ عليه؛ فطعنه طعْنَةً، دقّ منها صلبه؛ فسقط ميتًا.

فقال الشيخ لابنه الآخر: اخرج إليه يا بني، فلا خيرَ في الحياة على الذل، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول:

لقد رأيتَ كيف كانت طعنتي! ... والطعْنُ للقِرْن الشديد هِمّتي
والموتُ خير من فِرَاقِ خُلّتي ... فقَتْلتي اليوم ولا مَذلّتي!

ثم شدّ عليه، فطعنه طعنةً، سقط منها ميتًا.

فقال له الشيخ: خلّ عن الظّعينة[٤] يا ابن أخي؛ فإني لستُ كمن رأيتَ. قال: ما كنت لأخلّيَها ولا لهذا قصدت. فقال له الشيخ: اخترْ يا ابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك؛ فاغتنمها الفتى ونزل. ونزل الشيخ، وهو يقول:

ما أَرْتَجِي بعد فناءِ عُمْرِي؟ ... سأجعل السِّنينَ مثل الشهر

---

(١) أغذ السير: أسرع فيه.
(٢) الذابل: القنا الرقيق، ويقصد بخصبه غمسه في الدم.
(٣) استلأم الفارس: لبس اللأمة؛ وهي الدرع. (٤) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج.

شيخٌ يحامي دون بيضِ الخِدْر[1] إنَّ استباحَ البِيض قَصْمُ الظّهر
سوف ترى كيف يكونُ صَبْري

فأقبل الحارث، وهو يقول:

بعد ارْتِحالي وطويلِ سَفَرِي وقد ظفِرتُ وشفَيْتُ صَدْرِي
والموتُ خيرٌ من لباسِ الغَدْرِ والعار أُهْديه لحَيٍّ بكر

ثم دنا، فقال له الشيخ: يا ابْنَ أخي؛ إن شئت نازلتك، وإن بقيت فيك قوة ضربتني؛ وإن شئت فاضربني؛ فإنْ بقيت فيّ قوة ضربتُك.

فاغتنمها الفتى، فقال: وأنا أبدؤك. قال: هات. فرفع الحارثُ السيفَ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنه ضربةً فقدَّ مِعَاه، ووقعت ضربةُ الحارث في رأسه؛ فسقطا ميتين.

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس، وأربعة أسياف. ثم أقبلت إلى الناقة فعقدتُ أعنّة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودُها. فقالت الجارية: يا عمرو؛ إلى أين؟ ولست لي بصاحب، ولستَ كمن رأيت، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيلهم! فقلت: اسكتي؛ قالت: فإن كنتَ صادقًا فأعطني سيفًا ورمحًا؛ فإن غلبتَني فأنا لَكَ، وإن غلبتُك قتلتُك.

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك، وجُرأةَ قومك وشجاعتهم، فرمَتْ بنفسها عن البعير، وهي تقول:

أَبَعْدَ ما شَيْخِي وبَعْدَ إخْوتي أطلبُ عيشًا بعدهم في لذّةِ؟
هَلْ لا تكُونُ قبل ذَا مَنِيّتي؟

وأهوتْ إلى الرُّمح، فكادت تنتزعُه من يدي. فلما رأيت ذلك خفْتُ إن هي ظَفرت بي أَنْ تقتلني، فقتلتُها.

فهذا أشدُّ ما رأيته يا أمير المؤمنين. فقال عمر بن الخطاب: صدقت يا عمرو!

---

(١) بيض الخدر: يريد به النساء.

خَلِّ سَبيلَ الحُرَّةِ المنِيعَة[١]

خرج دُرَيدُ[٢] بن الصِّمَّة في فوارس بني جُشَم يريد الغارةَ على بني كِنانة، فلما كان بِوادٍ لبني كنانة رُفِع له رجلٌ من ناحية الوادي معه ظَعينة[٣]. فلما نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه: صِحْ به أن خلِّ عن الظغينة وانجُ بنفسك - وهو لا يعرفه - فانتهى إليه الرجل وألَحّ عليه؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة، وقال للظعينة:

سيري على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ سَيْرَ رَدَاحٍ[٤] ذاتِ جأش ساكِن
إنّ انْثِنَائي دون قِرْني[٥] شائني[٦] أَبْلِي بلائي واخبُرِي وعايِنِي

ثم حمل على الفارس فصرَعه، وأخذ فرسه فأعطاه الظَّعينة. فبعث دُريد فارسًا آخر لينظرَ ما صنع صاحبُه؛ فرآه صريعًا، فصاح به، فتصامَّ عنه فظنّ أنه لم يسمع فغَشِيَه، فألْقَى زمام الراحلة إلى الظعينة! ثم حمل على الفارس فصرعه، وهو يقول:

خَلِّ سبيلَ الحُرَّةِ المَنِيعَهْ إنكَ لاقٍ دونها رَبيعَه
في كفِّه خَطِّيّة[٧] مُطِيعَه أوْلَا فَخُذْها طعنةً سَرِيعَه
فالطعنُ مِنِّي في الوَغَى شَرِيعَه

ثم حمل عليه فصرعه.

فلما أبطأ على دُريد بعثَ فارسًا آخر؛ لينظُرَ ما صنعا، فانتهى إليهما، فرآهما صَريعين، ونظر إليه يَقُود ظعينَته، ويجرُّ رُمْحَ، فقال له الفارس: خلِّ عن الظعينة. فقال لها ربيعة: اقصدي قَصْدَ البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تريد من شَتِيم[٨] عابس ألم تر الفارِسَ بَعْدَ الفارس
أرْدَاهما عامِلُ رُمْحٍ يابِسِ

(١) الأغاني: ٤ - ١٢٩، الأمالي: ٢ - ٢٧١، السمط: ٢ - ٩١٠، العقد الفريد: ٣ - ٣٢٤.
(٢) دريد بن الصمة: سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، كان مظفرًا ميمون النقيبة، غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها، وأدرك الإسلام ولم يسلم. توفي سنة ٨ هـ.
(٣) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج.
(٤) امرأة رداح: عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق.
(٥) القرن: الكفء. (٦) شائني: يعيبني.
(٧) يريد رمحًا، والرماح تنسب إلى الخط، ثغر بالبحرين.
(٨) الشتيم: الأسد العابس.

ثم طعنه فصرعه، فانكسر رمحه.

فارتاب دُريد، وظنَّ أنهم قد أخذوا الظعينةَ وقتلوا الرجل، فلحق بهم فوجد ربيعة[١] بن مكدّم لا رُمح معه وقد دنا من الحيّ، ووجد أصحابه قد قُتِلُوا، فقال له دريد: أيُّها الفارس؛ إن مثلك لَا يُقْتل، وإن الخيلَ ثائرةٌ بأصحابها، ولا أرى معك رُمحًا، وأراكَ حديثَ السنّ فدونك هذا الرمح، فإني راجعٌ إلى أصحابي، فمثبِّطهم عنك.

فأتى دريدٌ أصحابه، فقال: إن فارسَ الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رُمحي ولا طمعَ لكم فيه؛ فانصرف القوم، وقال دريد:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... حامي الظعينةِ فارسًا لم يُقْتَل
أرْدَى فوارسَ لم يكونوا نُهْزَةً[٢] ... ثم استمرَّ كأنه لم يَفْعَل
متهلّلًا تَبْدُو أَسِرَّةُ وَجْهِهِ ... مثل الحُسامِ جَلَتْهُ أَيْدِي الصَّيْقَل[٣]
يُزْجي ظعينتَه ويسحبُ رُمحه ... متوجّهًا يمناه نحوَ المنزل
وترى الفوارِسَ من مخافةِ رُمحِه ... مثلَ البُغاث[٤] خَشِينَ وَقْعَ الأجْدَل[٥]
يا ليت شِعْري مَنْ أبوه وأُمّه؟ ... يا صاحِ مَن يكُ مثلَه لا يُجْهَل

فقال ربيعة:

إن كان يَنفَعُك اليقينُ فسَائِلي ... عَنّي الظعينةَ يَوْمَ وادي الأخْرَم
إذ هِي لأوَلِ مَنْ أتاها نهزةٌ ... لولا طِعَانُ ربيعةَ بن مُكَدَّم
إذْ قال لي أدْنى الفوارسِ مِيتَةً: ... خَلِّ الظَّعينةَ طائعًا لا تَنْدَم
فصرفتُ راحلة الظعينةِ نحوه ... عَمْدًا ليعلمَ بعضَ ما لم يعلم
وهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إهابَه[٦] ... فهوى صريعًا لليدين وللفم
ومنحتُ آخَرَ بعده جيّاشةً ... نجلاءَ فاغرةً كشِدْقِ الأضْجَم[٧]
ولقد شفَعْتُهما بآخر ثالثٍ ... وأبَى الفِرارَ لِيَ الغَداةَ تكرُّمِي

---

(١) ربيعة بن مكدم: هو أحد فرسان مضر المعدودين، وشجعانهم المشهورين. توفي سنة ٥٥٨ م.

(٢) النهزة: الشيء الذي هو لك معرض كالغنيمة، يقال: فلان نهزة المختلس، أي صيد لكل أحد.

(٣) الصيقل: جلاء السيوف وشحاذها.

(٤) البغاث: طائر أغبر.

(٥) الأجدل: الصقر.

(٦) إهابه: جلده.

(٧) الضجم: عوج في الفم، وميل الشدق. ويشبه الجرح الواسع بالفم الأضجم.

ثم لم يلبث بعد ذلك بنو مالك بن كنانة رهط ربيعةَ بن مُكَدَّم أنْ أغارُوا على بني جُشَم رهطِ دريد، ففتكوا وأَسَرُوا وغنموا، وأسروا دُرَيد بن الصمة، فأخفى نسبَه، فبينا هو عندهم إذا جاء نسوة يتهادَيْنَ إليه، فصرخَتْ امرأةٌ منهن فقالت: هلكتم وأهلكتم، ماذا جرَّ علينا قومُنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُمْحَهُ يومَ الظعينة، ثم ألقتْ عليه ثوبها وقالت: يا آلِ فراسٍ، أنا جارةٌ له منكم، هذا صاحِبُنَا يوم الوادي، فسألوه: مَن هو؟ فقال: أنا دُريد بن الصِّمَّة، فما فعل ربيعة بن مُكدَّم؟ قالوا: قتلتْه بنو سُلَيم، قال: فمن الظعينة التي كانت معه؟ قالت المرأة: رَيْطَة بنتُ جِذْل وأنا هي، فحبسه القوم، وآمروا أنفسهم[1] وقالوا: لا ينبغي أن تُكْفَرَ نعمةُ دريد عندنا، وقال بعضهم: والله لا يخرجُ من أيدينا إلا برضا المُخَارق الذي أسره. فانْبَعَثَتِ المرأة في الليل فقالت:

سنَجْزي دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمةً ... وكلُّ فتًى يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيرًا كان خيرًا جزاؤُه ... وإنْ كان شرًّا كان شرًّا مذممًّا
سَنَجْزيه نُعْمَى لم تكن بصغيرةٍ ... بإعطائه الرُّمْحَ السديد المقوَّمَا
فقد أدركتْ كفَّاه فينا جَزاءه ... وَأهْلٌ بأن يُجْزَى الذي كان أَنْعَمَا
فلا تكفروه حقَّ نُعْمَاهُ فيكمُ ... ولا تركبوا تلكَ الذي تَمْلأُ الفَمَا
فإنْ كان حيًا لم يَضِقْ بثوابهِ ... ذِرَاعًا غنيًا كان أو كان مُعْدِما
فَفُكُّوا دُرَيدًا من إسَار مخارقٍ ... ولا تجعلوا البُؤْسَى إلى الشرّ سُلَّمَا

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم فأطلقوه، وكسَتْهُ رَبْطة وجهَّزته، ولحق بقومه، ولم يزل كافًّا عن غزْوِ بني فِراسٍ حتى هَلَك.

كأن لم يكن بَيْنَ الحَجُونِ إلى الصَّفَا
أنيسٌ وَلَم يَسمُر بمكة سَامِرُ[2]

حدّث بعضُ أهل العلم، أن سيْلًا جاء فدخَلَ البيت فانْهَدَمَ، فأعادته جُرْهم على بناء إبراهيم، ثم استخفّت جرهم بحقِّ البيت، وارتكبوا فيه أمورًا عِظامًا، وأحدثوا فيه أحداثًا قبيحة، وكانت للبيت خِزَانة، وهي بئر في بطنه يلقى فيها المتاع الذي يُهدى له، وهو يومئذٍ لا سَقْفَ عليه، فتَوَاعد خمسة من جُرهم أن يسرقوا

(١) آمروا أنفسهم: تشاورا.

(٢) الأغاني: ١٣ ـ ١٠٤.

كلَّ ما فيها، فقام على كل زاوية من البيت رجلٌ منهم، واقتحم الخامس، فجعل الله عزّ وجلّ أعلاه أسفله، وسقط منكّسًا فهلك، وفرّ الأربعة الآخرون.

فلما كثر بغْيُ جُرْهم بمكة قام فيهم مُضاض بن عمرو فقال: يا قوم؛ احذروا البَغْيَ فإنه لا بقاء لأهله، وقد رأيتم مَنْ كان قبلكم من العماليق اسْتَخَفُّوا بالحَرَم، ولم يعظّموه، وتنازعوا بينهم، واختلفوا حتى سلّطكم الله عليهم فاجتحْتُموهم، فتفرقوا في البلاد، فلا تستخفوا بحق الحرَم وحرمةِ بيت الله، ولا تظلموا مَنْ دَخَله، وجاءه معظّمًا لحرُماته، أو خائفًا ورغب في جواره، فإنكم إن فَعَلْتُمْ ذلكم تخوفتُ أن تخرجوا منه خروج ذُلٍّ وصَغار، حتى لا يقدر أحدٌ منكم أن يصل إلى الحَرم، ولا إلى زيارة البيت الذي هو لكم حِرْزٌ وأمْن، والطيرُ تأمَن فيه.

فقال قائل منهم: ومَن الذي يُخرجنا منه؟ ألسنا أعزَّ العرب وأكثر مالًا وسلاحًا! فقال مُضَاض: إذا جاء الأمر بطل ما تَذْكرون، فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق... بَغَتْ في الحرم فسلّط الله عليهم الذَّرّ[1] فأخرجهم منه، ثم رُمُوا بالجَدْب من خلفهم حتى ردّهم الله إلى مساقط رؤوسهم. ثم أرسَلَ عليهم الطوفان.

فلما رأى مُضاض بن عمرو بَغْيَهم ومقامهم عليه عمِد إلى كنوز الكعبة وهي غَزَالان من ذهب، وأسياف قَلَعيّة[2] فحفر لَهَا ليلًا في موضع زمزم ودفنها.

فبينا هُمْ على ذلك إذْ سارت القبائل من أهل مَأْرِب، وعليهم مُزيقياء، وهو عَمْرو بن عامر، فلما انتَهوْا إلى مكة وأهلِها أرسل إليهم ابنَه ثعلبة فقال لهم: يا قوم؛ إنا قد خرجنا من بلادنا، فلم ننزل بلدة إلا أفسح أهلُها لنا، فنقيم معهم حتى نرسل رُوّادًا فيرتادُوا لنا بلدًا يحملنا. فأفسِحُوا لنا في بلادكم حتى نقيمَ قَدْر ما نستريح، ونرسلَ رُوّادًا إلى الشام وإلى الشرق فحيثما بلغنا أنه أمْثل لَحِقْنا به، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيرًا.

فأَبَتْ ذلك جُرْهم إباءً شديدًا؛ واستكبروا في أنفسهم، وقالوا: لا والله، ما نحبُّ أن ينزلوا فيضيّقوا علينا مرابعَنا ومواردنا، فارْحَلُوا عنا حيث أحببتم، فلا حاجة لنا بجواركم.

---

(١) الذر: صغار النمل.
(٢) قلعية: نسبة إلى قلعة، وهي بلد بالهند، إليها ينسب الرصاص والسيوف.

فأرسل إليهم: أنه لا بد من المقام بهذا البلد حولًا حتى ترجعَ إليّ رُسُلِي التي أرسلت، فإن أنزلتموني طَوْعًا نزلت وحمدتُكم وآسَيْتُكم[١] في الرعْي والماء، وإن أبيتُم أقمت على كُرْهِكم، ثم لم ترتعوا معي إلا فضلًا، ولا تشربوا إلا رَنْقًا[٢]، وإن قاتلتموني قاتلتكم، ثم إن ظهَرْتُ عليكم سبَيتُ النّساء، وقتلتُ الرجال، ولم أترك منكم أحَدًا ينزل الحرَم أبدًا.

فأَبَتْ جُرهم أن تُنْزِله طوعًا، وتهيَّأَتْ لقتاله، فاقتتلوا ثلاثة أيام أُفرع عليهم فيها الصبر، ومُنِعُوا النصر، ثم انهزمت جُرْهم، فلم يُفلت منهم إلا الشديد، وكان لمُضَاض بن عمرو قد اعتزل حربهم، ولم يعنْهم في ذلك وقال: قد كنت أحذِّركم هذا.

ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قَنَوْني[٣] وما حوله.

فلما حازت خُزاعة أمر مكة، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل ـ وقد كانوا اعتزلوا حرب جُرْهم وخُزاعة، فلم يدخلوا في ذلك ـ فسألوهم السُّكْنى معهم وحولهم، فأذِنوا لهم، فلما رأى ذلك مُضَاض ـ وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم ـ أرسل إلى خُزاعة يَستَأْمِنها، ومَتَّ إليهم برأيه وتَوْريعه[٤] قومَه عن القتال، وسوء العِشْرة في الحرم، واعتزاله الحرب، فأَبَتْ خُزاعة أن يُقِرُّوهم ونَفَوْهم عن الحرم وقالوا: مَن دخله منهم فدمُه هَدر[٥].

فنزعت بل لمضاض من قَتَوْنَى تريد مكة، فخرج في طلبها حتى وجدها قد دخلتْ مكة، فمضى إلى الجبال نحو أَجْيَاد حتى ظهر على أبي قُبَيْس يتبصَّر الإبل في بطن وادي مكة، فأبصر الإبل تُنْحَر وتؤكل لا سبيل له إليها، فخاف إن هبط الوادي أن يُقْتَل، فولّى منصرفًا إلى أهله وأنشأ يقول:

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامرُ
ولم يتربّعْ واسطًا فجنوبَه ... إلى المنحنَى من ذي الأراكة حاضرُ
بل نحنُ كنَّا أهلَها فأبادَنا ... صروفُ الليالي والجدودُ[٦] العواثِرُ

---

(١) آسيتكم: شاركتكم. (٢) الرنق: الكدر من الماء.
(٣) قنوني: واد يصب في البحر في أوائل أرض اليمن.
(٤) التوريع: الكف عن الشيء. (٥) أي باطل ليس فيه قود.
(٦) الجدود: الحظوظ.

وأبـدلـنـا رَبِّـي بـهـا دارَ غُـرْبـةٍ ... بها الذئبُ يعوِي والعدوُّ المُخَامِرُ
أقـول إذا نـام الـخـليُّ ولـم أَنَـمْ ... إذَا العرشِ لا يَبْعد سهيلٌ وعامِرُ[1]
وبُدِّلتُ منهم أوْجَهًا لا أريدها ... وحِميرُ قد بدّلتها واليُحابِرُ[2]
فـهـل فـرجٌ آتٍ بـشـيءٍ تـحـبُّـه ... وهل جزع منجيك مما تحاذِرُ!

مقتَل كلَيب[3]

كان كُلَيب[4] قد عزَّ وساد في رَبيعة؛ فبَغى بَغْيًا شديدًا، وكان هو الذي يُنزلهم منازلَهُمْ ويرحِّلُهم، ولا ينزلون ولا يرحلُون إلّا بأمره، فضرب به المثلُ في العِزّ؛ فقيل: أَعَزُّ من كليبِ وائل! وكان لا يُجير أحدٌ من بكر وتَغْلِب إلا بإذنه، ولا يُحْمَى حمًى إلا بأمْره، وكان إذا حَمَى حمًى لا يُقْرب.

وكان لمُرَّة بن ذُهْل بن شيبان عشرة بنين، جسَّاس أصغرهم، وكانت أختهم عند كليب.

وكان لجساس[5] خالة تُعرف بالبَسُوس؛ فجاءت فنزلت على ابن أختها جسّاس، فكانت جارةً لبني مرة، ومعها ابنٌ لها، ولها ناقة خَوَّارة[6]، ومعها فَصِيل، فرأى كُلَيب الناقة فأنكرها، فقال: لمن هذه؟ قالوا: لخالَةِ جسّاس، قال: أَوَقَدْ بلَغَ من أمر ابن السَّعْدِية أن يُجِيرَ عليَّ بغير إذني! ارْمِ ضَرْعها يا غُلام، فأخذ القوسَ فرمى ضَرْع الناقة، فاختلط دَمها بلبنها.

وراحت الرُّعاة على جسَّاس فأخبره بالأمر، فقال: احلبوا لها مِكْيالَيْ لبن، ولا تذكروا لها من هذا شيئًا.

وسكت جَسّاس ثم مَرَّت بَكْرٌ على نِهْي[7] يقال له: شُبَيْث، فنفاهم كليب عنه، وقال: لا يذوقون منه قطرة. ثم مروا على نِهْي آخر يقال له: الأحص،

---

(١) أذا العرش: أي ياذا العرش. (٢) يحابر: اسم قبيلة.
(٣) الأغاني: ٥ ـ ٣٤، الأمثال: ١ ـ ٣٤١، العقد الفريد: ٣ ـ ٣٤٨، نهاية الأرب: ٥ ـ ٢١٤، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣١٢.
(٤) كليب بن ربيعة، سيد الحيين: بكر وتغلب في الجاهلية، ومن الشجعان الأبطال وقتل نحو سنة ١٣٥ ق.هـ.
(٥) جساس بن مرة من بني بكر بن وائل، شجاع شاعر من أمراء العرب في الجاهلية، وقتل في أواخر الحرب نحو ٨٥ ق.هـ.
(٦) ناقة خوارة: رقيقة حسنة. (٧) النهي: الغدير.

فنفاهم عنه، ثم مروا على بَطْن الجُرَيب[١] فمنعهم إياه، حتى نزلوا الذَّنائب[٢]، وتبعهم كليبٌ وحيه حتى نزلوا عليه.

ثم مرّ عليه جساس وهو واقف على غَدير الذَّنائب، فقال: طردتَ أهلنا عن المياه حتى كِدْتَ تقتلُهم عطشًا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلّا ونحنُ له شاغلون. فقال له جسّاس: هذا كفعلك بناقةِ خَالتي! فقال له: أَوَقَدْ ذكرتَها! أما إني لو وجدتُها في غير إبلِ مُرّة لاستحللتُ تلك الإبلَ بها!

فعطف عليه جسّاسٌ فرسه، فطعنه برُمْح فأَنفَذ حِضْنَيه[٣]، فلما تَدَاءَمه[٤] الموتُ قال: يا جسّاسُ؛ اسقِني من الماء، قال: ما عَقَلْتَ استسقاءَك الماء منذ وَلَدَتْك أمُّك إلّا ساعتَك هذه! ثم أمال يدَه بالفرس حتى انتهى إلى أَهْله.

فقالت أختُه ـ حين رأَتْه ـ لأبيها: إن ذا جَسّاسٌ؛ أني خارجةٌ رُكْبتاه، قال: واللهِ ما خَرَجَتْ ركبتاه إلّا لأمرٍ عظيم.

فلما جاء قال: ما وراءك يا بني؟ قال: ورائي أنّي قد طعنتُ طَعْنَة لتُشْغَلَنَّ بها شيوخُ وائل زمنًا؟ قال: أَقَتلتَ كليبًا؟ قال: نعم! قال: ودِدْتُ أنك وإخوتَك كنتم مُتُّم قبل هذا، ما بي إلا أن تَتَشاءَم بي أبناء وائل! فقال جساس:

تـأَهَـبْ عـنـك أُهْـبةَ ذي امـتـنـاع ... فإنَّ الأمْر جَلَّ عن التَّلَاحِي[٥]

فـإنـي قـد جـنـيتُ عليك حربًـا ... تُـغِـصّ الـشـيـخ بـالـمـاء الـقَـرَاح

فأجابه أبوه:

فإنْ تكُ قد جنيتَ عليَّ حربًا ... فــلا وانٍ ولا رثّ الـســلاح

سـألـبَـسُ ثـوبـهـا وأذُبُّ عـنّـي ... بـهـا يـوم الـمـذلّة والـفِـضَاحِ[٦]

وكان هَمّام[٧] بن مُرْةَ آخى مهلهلًا[٨] وعاقدَه ألّا يكتمه شيئًا، فجاءت أَمَةٌ له فأسرّت إليه قتلَ جساس كليبًا، فقال له مهلهل: ما قالت؟ فلم يخبره، فذكره العهد بينهما، فقال: أخبرتني أن جساسًا قَتل كُليبًا، فلم يصدق مهلهل الخبر.

---

(١) الجريب: واد عظيم.
(٢) الذنائب: موضع بنجد.
(٣) الحضن: ما دون الإبط إلى الكشح.
(٤) تداءمه الأمر: تراكم عليه.
(٥) التلاحي: المنازعة.
(٦) فضحه: كشف مساوئه، والاسم الفضاح، وفي الأغاني: إن هذا الشعر لأخيه نضلة.
(٧) همام: أخو جساس.
(٨) مهلهل: أخو كليب.

واجتمع نساء الحي للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحّلي جليلة - زوج كليب وأخت جساس - عن مأتمكِ؛ فإن قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب، فقالت لها: يا هذه؛ اخرُجي عن مأتمنا؛ فأنتِ أختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا. فخرجت وهي تجرُّ أعطافها، فلقيها أبوها مُرّة فقال: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثُكْلُ العدد وحزنُ الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين ذَين غَرْسُ الأحقاد، وتفتُّت الأكباد. فقال لها: أو يكفُّ ذلك كرَمُ الصفح وإغلاءُ الدِّيات؟ فقالت جليلة: أُمنية مخدوعٍ ورب الكعبة! أبا لبُدْنِ[1] تَدَعُ لك تَغْلِبُ دمَ ربها!.

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رِحْلةُ المعتدي، وفراق الشامت! ويلٌ غدًا لآل مرّة، من الكرَّة بعد الكرّة، فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمَت الحرة بهَتْكِ سِتْرِها وتَرَقُّبِ وتْرها! أسعد الله جدَّ أختي، أفلا قالت: نفرة الحياءُ، وخوف الاعتداء! ثم أَنْشَأَتْ تقول:

يا ابنةَ الأقوام إن شئتِ فَلا	تعْجَلِي باللَّوْم حتى تَسألي
فإذا أنت تَبَيَّنْتِ الذي	يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلُومِي واعذُلي
إن تكن أُختُ امْرِىءٍ لِيمتْ عَلَى	شَفَق مِنها عِلَيْهِ فافْعلِي
جَلَّ عِندِي فعلُ جَسَّاسٍ فيا	حَسْرَتي عما انْجَلَتْ أو تَنْجَلِي
فعلُ جَسَّاسٍ على وَجْدِي بِه	قَاطَعٌ ظَهْري ومُدْنٍ أَجلِي
لو بعينٍ فُقِئَتْ عيني سوى	أختِها فانْفَقَأَتْ لم أَحْفل
تحمل العينُ قَذَى العين كما	تحمل الأمُّ أذى ما تَفْتِلي[2]
يا قتيلًا قوَّض الدَّهرُ به	سَقْفَ بيتيَّ جميعًا من عَلِ
هدمَ البيتَ الذي استحدثْتُه	وانثنى في هدم بيتي الأوّلِ
ورماني قتلُه من كَثَبٍ[3]	رميةَ المُصْمى[4] به المُسْتَأصِلِ
يا نسائي دونكنَ اليوم قدْ	خَصَّني الدهر بِرُزْء مُعضلِ
خصَّني قتلُ كليب بلظَى	من ورائي ولَظَى مُسْتَقبِلِي
ليس مَنْ يبكي ليومين كمن	إنما يبكي ليوم يَنْجَلِي

---

(١) المراد الإبل.

(٢) تفتلي: تربي.

(٣) كثب: قرب.

(٤) أصماه: قتله في مكانه.

يَشْتَفِي المدْرِكُ بالثَّأر وفي دَرَكي ثأريَ ثُكْلُ المُثْكلِ[١]
ليته كان دَمِي فاحتلبوا بَدَلًا منه دمًا من أَكْحَلِي[٢]
إنني قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاحَ لي!

ثم قال بنو تَغلِب بعضهم لبعض: لا تَعْجَلوا على إخوتكم حتى تُعْذِروا[٣] بَيْنَكم وبينهم، فانطلق رَهْطٌ من أشرافهم وذوي أسْنانهم حتى أتوا مُرّة بن ذُهْل، فعظَّموا ما بينهم وبينه وقالوا: اخْتَرْ منَّا خِصَالًا: إما أنْ تَدْفَع إلينا جَسَّاسًا فنقتلَه لصاحبنا؛ فلم يَظْلِمْ من قتل قاتلَه، وإما أن تَدْفع إلينا هَمَّامًا، وإما أن تُقِيدَنا من نَفْسك.

فسكت وقد حضرتْه وجوهُ بني بكر بن وائل، فقالوا: تكلمْ غيرَ مَخْذول، فقال: أمّا جساس فغلامٌ حديثُ السنّ ركب رأسه، فهرب حين خاف، فلا عِلْمَ لي به؛ وأما هَمّامٌ فأبو عشرة، وأخو عشرة، ولو دفعتُه إليكم لصيّح[٤] بنوه في وجهي، وقالوا: دفعت أبانا لِلْقتل بجريرة غَيْره؟ وأما أنا فلا أتعجّل الموت، وهل تزيدُ الخيل على أن تجولَ جَوْلةً فأكون أولَ قتيل.

ولكن هل لكم في غير ذلك؟ هؤلاء بَنِيَّ، فذونَكم أحدَهم فاقتلوه به، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل، فغضبوا وقالوا: إنا لم نأتك لتُرْذِلَ[٥] لنا بنيك، ولا لتسومَنا اللبن؛ فتفرقوا ووقعت الحرب.

الهِجْرس بن كلَيب يثأر لأبيهِ[٦]

ولدت جليلة زوج كليب غلامًا فسمته الهِجْرس، وربّاه خاله جسَّاس، فكان لا يعرف أبًا غيره، وزوّجه ابنته. فوقع بين الهِجْرِس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلامٌ؛ فقال له البكريّ: ما أنت بمُنْتَهٍ حتى نُلْحِقَكَ بأبيك! فأمسك عنه ودخل على أمه كئيبًا، فسألْته عما به، فأَخْبَرَها الخبر.

فلما أَوَى إلى فراشه، ونام إلى جَنْب امرأته وضعَ أنفه بين ثديها، فنفّسَ تَنفُّسةً تَنَفَّطَ[٧] ما بين ثديها من حرارتها، فقامت الجارية فَزِعةً، قد أَقَلّتها رِعْدةٌ

(١) المثكل: التي لازمها الحزن. (٢) الأكحل: عرق في الذراع يقصد.
(٣) تعذروا: أي تعملوا على ألا يكون بينكم وبينهم ما يوجب الاعتذار.
(٤) صيح: صاح. (٥) لترذل لنا بنيك: أي تعطينا رذال بنيك.
(٦) الأغاني ٥١ ـ ٦١. (٧) تنفط: قرح.

حتى دخلت على أبيها، فقصت عليه قصَّةَ الهجْرِس، فقال جسّاس: ثائرٌ وربِّ الكَعْبَة!

وبات جسّاسٌ على مثل الرَّضْف[١] حتى أصبح، فأرسل إلى الهِجْرِس فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومنّي بالمكان الذي قد علمتَ، وقد زوّجتُك ابنتي، وأنت معي، وقد كانت الحربُ في أبيك زمانًا طويلًا حتى كدنا نتنافى، وقد اصطلحنا وتحاجَزْنا، وقد رأيتُ أن تدخلَ فيما دخل الناس فيه من الصلح، وأن تنطلق حتى نأخذَ عليك مثل ما أُخِذَ علينا وعلى قومنا.

فقال الهِجْرِس: أنا فاعل؛ ولكنّ مثلي لا يأتي قومه إلا بَلأمته وفرسه، فحمله جسّاس على فرسه وأعطاه لأمَةً[٢] ودِرْعًا، فخرجا حتى أَتَيا جماعةً من قومهما. فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاد وما صاروا إليه من العافية، ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخلَ فيما دخلتم فيه ويَعْقِدَ ما عقدتم. فلما قَرّبوا[٣] الدمَ، وقاموا إلى العَقْد أخذ الهجْرِسُ بوسَط رُمحه، ثم قال: وفَرَسي وأُذُنَيْه، ورمحي ونَصْلَيْه، وسيفي وغَرَّيْه[٤]، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جسّاسًا فقتله، ولَحَق بقومه، فكان آخر قتيل في بكر بن وائل.

قرّبا مِربط النعَامة مني[٥]

لما قَتَلَ جساسٌ البكريّ كليبًا التغلَبيّ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل - وهي حَرْبُ البسوس - اعتزلهما الحارث بن عُبَاد[٦] وقال: هذا أمر لا ناقة لي فيه ولا جمل؛ فقال سعد بن مالك معرِّضًا به:

يا بُؤْسَ للحربِ التي ... وَضَعتْ[٧] أراهطَ فاستراحوا

---

(١) الرضف: الحجارة التي حميت بالشمس أو النار يسخن بها اللبن، واحدتها رضفة.

(٢) اللأمة: السلاح.

(٣) كان من عادة العرب أن يحضروا في جفنة طيبًا أو دمًا أو رمادًا فيدخلوا فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم باشتراكهم في شيء واحد.

(٤) غر السيف: حده، وكذلك غراره.

(٥) الأمثال: ١ ـ ٣٤١، العقد: ٣ ـ ٣٤٨، خزانة الأدب: ١ ـ ٤٢٣، الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٢٣.

(٦) الحارث بن عباد: من بكر، حكيم جاهلي، كان شجاعًا من السادات، شاعرًا، وانتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب مات نحو سنة ٥٠ ق.هـ.

(٧) وضعت: حطت وأسقطت، وأراهط: جمع أرهط الذي هو جمع رهط، والرهط: عدد يجمع=

والحربُ لا يبقى لجا ... جِمِها[١] التَّخَيُّلُ والمِرَاحُ
إلا الفتى الصَّبّار في ... النَّجَدَات والفرسُ الوقاحُ[٢]
بِئْسَ الخلائفُ بعدَنا ... أولادُ يَشْكُرَ واللقاحُ[٣]
مَنْ صَدَّ عن نيرانها ... فأنا ابن قَيْسٍ لا بَرَاحُ[٤]
المَوتُ غايتُنا فلا ... قصْرٌ[٥] ولا عنه جِمَاحُ[٦]
وكأنما وِرْدُ المنيَّـ ... ـة عندنا ماءٌ ورَاحُ

ولكن الحارثَ لم يحفل بذلك، وتُنحَّى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه، ولم يَزَل مُعْتَزِلًا، حتى إذا كان في آخر وقائعهم خرج ابنُ أخيه بُجَيْر[٧] بن عمرو بن عُبَاد في إثر إبلٍ له نَدَّتْ يَطْلُبُها، فعرض له مُهَلْهل في جماعة يطلبون غِرَّةَ بكر بن وائل. فقال لمهلهل امرؤ القيس بنُ أبان ـ وكان من أشراف بني تغلب، وكان على مُقَدِّمَتهم زمانًا طويلًا: لا تفعل؛ فوالله لئن قتلته ليُقْتَلَن به منكم كَبْشٌ لا يُسْأَلُ عن خاله: من هو! وإياك أن تحقِرِ البغْيَ؛ فإنّ عاقبته وخيمة، وقد اعتزلنا عمُّهُ وأبوه وأهلُ بيته وقومه. فأبى مهلْهل إلا قَتْلَه، فطعنه بالرمح فقتله وقال: «بُؤْبِشِسْعِ نعْل كليب[٨]».

فبلغ فعلُ مهلهل عمَّ بُجَير ـ وكان من أحلم أهل زمانه، وأشدّهم بأسًا ـ فقال الحارث: نعم القتيل قتيل أصلحَ بين ابني وائل! فقيل له: إنما قتله بِشِسْعِ نعل كليب، فلم يقبلْ ذلك، وأرسل إلى مهلهل: إن كنتَ قتلت بجيرًا بكُلَيب، وانقطعت الحربُ بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسي بذلك. فأرسل إليه

= من ثلاثة إلى عشرة.

(١) جاحمها: مثبرها وموقدها، والتخيل: التكبر من الخيلاء، والمراح: النشاط والبطر، أي أن الحرب تكف خدة البطر النشيط، وهو تعريض بالحارث.

(٢) الصبار: مبالغة صابر، والنجدة: الشدة، والوقاح: الفرس الذي حافره صلب شديد.

(٣) أي إذا ذهبنا وبقيت يشكر وحنيفة فبئس الخلائف هم منا، لا يحمون حريمًا، ولا يأبون ضيمًا، وكانت بنو حنيفة تقلب: اللقاح لأنهم لم يدينوا لملك، وهو يذم الحيين لقعودهما عن بكر في حروبهم.

(٤) لا براح: لا ريب.

(٥) القصر: الحبس.

(٦) الجماح: الهروب.

(٧) قيل: هو ابن الحارث.

(٨) يقال: أبأت فلانًا بفلان فباء به: إذا قتلته به، ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثاني كفء له، والشسع: السير الذي يدخل بين الإصبعين.

مهلهل: إنما قتلته بِشِسْع نعل كليب! فغضب الحارث، ودعا بفرسه ـ وكانت تسمى النعامة ـ فجزَّ ناصيتها. وهَلَب[1] ذَنَبَها، وقال:

قـرِّبـا مِـرْبـط[2] الـنـعـامـة مـنـي ... لقِحتْ[3] حربُ وائل عن حِيالِ

لا بـجـيـرٌ أغـنـى قـتـيلًا ولا رهـ ... ـطُ كـلـيـب تَـزَاجَـرُوا عـن ضَـلال

لـم أكـن مـن جُـنـاتـهـا عـلـم الـلَّـ ... ـهُ وإنـي بـحـرّهـا الـيـومَ صـالِي

قـرِّبـا مِـرَبـط الـنـعـامـة مـنّـي ... إنَّ قَـتْـل الـغُـلَام بـالـشِّـسْـع غـالـي

ثم ارتحلَ الحارثُ مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل، وعليهم يومئذٍ الحارثُ بن همام بن مرّة، فقال الحارث بن عُباد له: إنّ القوم مستقلون قومك، وذلك زادهم جراءة عليكم، فقاتِلْهم بالنساء، قال له الحارث بن همام: وكيف قتالُ النساء! قال: قلِّد كل امرأة إدَاوةً من ماء؛ وأَعْطِها هِراوة؛ واجعل جمعهنّ من ورائكم؛ فإنّ ذلك يزيدكم اجتهادًا؛ وعلِّموا أنفسكم بعلامات يَعْرِفْنها؛ فإذا مرّت امرأة على صريع منكم عرفَتْه بعلامته، فسقته من الماء ونَعَشَتْهُ، وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهِرَاوة فقتلته، وأتتْ عليه.

فأطاعوه، وحلقت بنو بكر يومئذٍ رؤوسها استِبْسَالًا للموت، وجعلوا ذلك علامةً بينهم وبين نسائهم، واقتتل الفُرسان قتالًا شديدًا، وانهزمت بنو تغلب، ولحقت بالظُّعُن بقية يومها وليلتها، وأتْبَعهم سَرَعان[4] بكر بن وائل، وتخلف الحارث بن عباد، فقال لسعد بن مالك: أتراني ممن وَضَعَتْه[5]؟ قال: لا، ولكن لا مخبأ لِعِطْرِ بعد عَرُوس[6].

(١) هلب الذنب: نتف شعره، ويقولون: إن الحارث هو أول مَن فعل ذلك.
(٢) المربط: ما ربطت به الدابة، والنعامة: اسم فرس كانت للحارث بن عباد.
(٣) لقحت: حملت، وعن بمعنى بعد، والحيال: أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل، وهذا مثل ضربه، وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد عنها من الأمور التي لم تكن تحتسب، والمراد أن حرب وائل هاجت بعد سكون.
(٤) سرعان الناس: أوائلهم المستبقون إلى الأمر.
(٥) يشير إلى قوله:

يـا بـؤس لـلـحـرب الـتـي ... وضعـت أراهـط فـاسـتـراحـوا

(٦) يريد: إن لم تنصر قومك الآن، فلمن تدخر نصرك؟

ثم إن الحارث بن عباد أسر مهلهلًا، وهو لا يعرفه، فقال له: دُلّني على المهلهل؛ قال: ولي دَمي؟ قال: ولك دمك؛ قال: ولي ذمّتُك وذمةُ أبيك؟ قال: نعم ذلك لك. قال: فأنا مهلهل. قال: دُلَّني على كُفْءٍ لبُجير، قال: لا أعلَمُه إلا امرأ القيس بن أبان، هذاك عَلَمُه؛ فجزّ ناصيته، وقصد قَصْدَ امرىء القيس فشدّ عليه فقتله، وقال الحارث في ذلك:

لَهْفَ نفسي على عَدِيٍّ ولم أعْـ ـرفْ عديًا إذْ أمكنتْني اليدان
طُلَّ[1] من طُلَّ في الحروب ولم أو تِـرْ بُـجَـيْـرًا أبَـأْتـه[2] ابـنَ أبـان
فـارسٌ يـضـرب الـكـتـيـبة بـالسّيـ ـفِ وتـسـمـو أمـامَـه الـعـيـنـان

ضَيّعني صَغيرًا، وحَمّلني دَمه كَبيرًا![3]

كان حُجْر في بني أَسَد، وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقّتة، فَغَبَر[4] ذلك دهرًا، ثم بعث إليهم جابِيَه الذي كان يَجْبيهم، فمنعوه ذلك ـ وحُجْرٌ يومئذٍ بتِهامة ـ وضربوا رسله، وضَرَجُوهم[5] ضَرْجًا شديدًا قبيحًا.

فبلغ ذلك حُجْرًا فسار إليهم بجند من ربيعة وقيس وكنانة، فأتاهم وأخذ سَرَاتهم، فجعل يقتّلهم[6] بالعَصَا، وأباح الأموال، وصيّرهم إلى تِهَامة، وآلى بالله ألّا يُسَاكنوهم في بلد أبدًا، وحبس منهم عمرو بن مسعود الأسديّ، وكان سيّدًا وعبيد بن الأبرص الشاعر، فسارت بنو أسد ثلاثًا.

ثم إن عبيد بن الأبرص قام فقال: أيّها الملك؛ اسمع مقالتي:

يـا عَـيْـنُ فـابْـكِـي مـا بـنـي أسـدٍ فـهـم أهـلُ الـنَّـدَامـهْ
أهـل الـقِـبـابِ الـحـمـر والـنّـ ـعَـم الـمـؤبَّـل[7] والـمُـدَامُـهْ
وذوي الـجـيـادِ الـجُـرْدِ والْـ أَسَـلِ الـمُـثَـقَّـفَـةِ الـمُـقَـامَـه
حِـلًّا[8] أبـيـت الـلعـن حَـلًّا إن فـيـمـا قـلتَ آمَـهْ[9]
فـي كـلِّ وادٍ بـيـن يـثْـ ـرِب فـالـقـصـور إلـى الـيـمـامَـهْ

---

(١) ظل دمه: ذهب هدر.
(٢) أباء القتيل بالقتيل: قتله به.
(٣) الأغاني: ٩ ـ ٨٧.
(٤) غبر: لبث وبقي.
(٥) ضرجه: أدماه.
(٦) سموا لذلك عبيد العصا.
(٧) المؤبل: المقتنى.
(٨) حلًّا: أي تحلل من يمينك.
(٩) الآمة: العيب.

تَـطْـريـبُ عـانٍ أو صـيـا ... ح مُـحَـرَّقٍ أو صـوتُ هـامَـهْ
ومـنـعـتـهـم جـدًا فـقـد ... حَـلُّوا عـلى وجَـلٍ تِـهَـامَـه
بَـرِمَـتْ بـنـو أسـدٍ كـمـا ... بَرِمَتْ ببيضتها الحمامَةْ
جـعـلَتْ لـهـا عـوديـن مِـنْ ... بَـشَـمٍ وآخـر مـن ثـمَـامَـةْ[1]
إمـا تـركـتَ تـركـت عَـفْـ ... ـوًا أو قـتـلـتَ فـلا مَـلَامَـةْ
أنـت الـمـلـيـكُ عـلـيـهـمُ ... وهـم الـعـبـيـدُ إلى الـقـيـامَـةْ
ذَلّوا لـسَـوْطِـكَ مـثـلَ مـا ... ذلّ الأشَـيْـقِـر[2] ذو الـخِـزامَـةْ

فرقّ لهم حُجْرٌ حين سمع قوله؛ فبعث في أَثَرهم فأَقْبلوا، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهِنُهم[3] فقال لبني أسد: مَنِ الملك الأصْهب، الغلّاب غير المُغَلّب، في الإبل كأنها الرّبْرَب[4]، لا يعلَق رأسه الصّخَب! هذا دمُه ينثعب[5]، وهذا غدًا أول من يُسْلب.

قالوا: مَنْ هو! قال: لولا أن تجيشَ نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجْرٌ ضاحية.

فركبوا كل صَعب وذَلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبّته، وهزموا أصحابه وأسروه فحبسوه، وتشاور القوم في قتله؛ فقال لهم كاهنٌ من كهنتهم بعد أن حَبسوه ليرَوا رأيهم فيه: أي قوم! لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزْجُر لكم.

فانصرف عن القوم لينظرَ لهم في قتله؛ فلما رأى ذلك عِلْباء بن الحارث الكاهليّ خشي أن يتَوَاكلوا في قتله، فدعا غلامًا من بني كاهِل ـ وكان ابن أخته[6] ـ فقال: يا بنيّ؛ أعندك خير فتثأر بأبيك، وتنال شرف الدهر، وإن قومك لن يقتلوك!

---

(١) البشم: شجر جبلي تتخذ منه القسي، والثمامة: نبت بالبادية.
(٢) الأشيقر: تصغير الأشقر: الأحمر من الدواب، والخزامة: حلقه من شعر تحمل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام.
(٣) هو عوف بن ربيعة.
(٤) الربرب: القطيع من بقر الوحش.
(٥) ينثعب: يجري.
(٦) كان حجر قد قتل أبا زوج أخت علياء، وقيل بل كان حجر قتل أبا علباء نفسه.

فلم يزل بالغلام حتى حَرَّبه[(١)]، ودفع إليه حديدة قد شَحَذَها، وقال: ادخُلْ عليه مع قومك، ثم اطعنْه في مَقْتَله.

فعمَد الغلامُ إلى الحديدة فخبأَها، ثم دخل على حُجْر في قبَّته التي حُبِس فيها.

فلما رأى الغلام غَفْلَةً وثب عليه فقتله، فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهل: ثأرنا وفي أيدينا!

فقال الغلام: إنما ثأرتُ بأبي، فخلَّوْا عنه.

وأقبل كاهِنُهم المزدَجِر فقال: أي قوم! قتلتموه! مُلْك شَهْر، وذُلّ دهر، أما والله لا تحظَوْن عند الملوك بعده أبدًا.

ولما طعن الغلام حُجرًا ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له: انطلق إلى ابني نافع ـ وكان أكبر ولده ـ فإن بكى وجَزِع فالْهُ عنه، واستَقْرِهم واحدًا واحدًا، حتى تأتي امرأ القيس[(٢)] ـ وكان أصغرَهم ـ فأيُّهم لم يجزَع، فادفع إليه سلاحي وخَيْلي وقُدُوري ووصيّتي، وبيِّن في وصيته مَنْ قتله، وكيف كان خبرُه.

فانطلق الرجلُ بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب فوضعه على رأسه، ثم استَقْرأهم واحدًا واحدًا، فكلُّهم فعل ذلك، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشربُ الخمرَ ويُلاعبه بالنَّرْد؛ فقال له: قُتِل حُجْر؛ فلم يلتفِتْ إلى قوله، وأمْسَك نديمهُ. فقال له امرؤ القيس: اضربْ فضرب، حتى إذا فرغ قال: ما كنتُ لأفْسد عليك دَسْتك.

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله، فأخبره، فقال: الخمرُ عليّ والنساء حرام، حتى أقتلَ من بني أسدٍ مائةً وأجُزّ[(٣)] نواصي مائة.

وكان امرؤُ القيس قد طردَه أبوه حُجْر، وآلى ألّا يقيمَ معه أَنفَةً من قوله الشِّعْرَ ـ وكانت الملوك تأنَف من ذلك ـ فكان يسير في أَحْياء العرب ومعه أَخْلَاطٌ

---

(١) حربه: حرشه.

(٢) أشهر شعراء العرب، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وقال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، ومات سنة ٨٠ ق.هـ.

(٣) يريد حتى أقتل منهم مائة وآسر مائة.

من شُذَّاذ[1] العرب، من طيّىء وكلْب وبكر بن وائل؛ فإذا صادفَ غديرًا أو رَوْضة أو موضعَ صَيْدٍ أقام فذبح لمن معه في كلّ يوم، وخرج إلى الصيد فتصيّد فأكل وأكلوا معه، وشربَ الخمر وسقاهم وغنَّتْه قِيانُه.

ولا يزال كذلك حتى يَنْفَد ماءُ ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره. فأتاه خبرُ أبيه ومَقْتَله وهو بدَمُّون من أرض اليمن، فقال:

تطاوَل الليلُ على دَمُّونْ ... دمُّونُ إنا معشرٌ يَمَانُونْ
وإنّنا لأهلنا مُحِبُّونْ

ثم قال: ضيَّعني صغيرًا، وحمَّلني دمَه كبيرًا. لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكْرَ غدًا، اليوم خمر، وغدًا[2] أمر. ثم قال:

خليليّ لا في اليوم مَصْحًى لشاربٍ ... ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سَبْعًا، فلما صَحَا آلى ألّا يأكلَ لحمًا، ولا يشربَ خمرًا، ولا يَدَّهِن بدُهن، ولا يصيبَ امرأةً حتى يُدْرِكَ بثأره؛ فلما جنه الليل رأى بَرْقًا، فقال:

أَرِقتُ لبرقٍ بليلٍ أَهَلّ ... يضيءُ سَنَاهُ بأَعلى الجَبَلْ
أتاني حديثٌ فكذَّبْتُه ... بأمرٍ تَزَعْزَعُ[3] منه القُلَلْ
بقتل بني أسدٍ ربَّهُم ... ألا كلُّ شيءٍ سِواه جَلَلْ[4]
فأين رَبيعةُ عن ربِّها ... وأين تميمٌ وأين الخَوَلْ[5]
ألا يَحْضُرون لدى بابه ... كما يحضرون إذا ما أَكَلْ

وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بَكْرًا وتغلب، فسألهم النصر، وبعث العيون على بني أسد، فلما كان الليل قال لهم عِلْبَاءُ: يا معشرَ بني أسد، تعلمون والله أن عيون امرىء القيس قد أتتكم، ورجعتْ إليه بخبركم، فارْحَلُوا بليل ولا تُعلموا بني كنانة. ففعلوا.

---

(١) شذاذ العرب: الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم.
(٢) ذهبت مثلًا. (٣) أصله: تتزعزع.
(٤) جلل: هين.
(٥) الخول: جمع خولي: وهو الراعي الحسن القيام على المال.

وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتَغْلِب، حتى انتهى إلى بني كِنَانة، وهو يحسَبُهُم بني أسد، فوضع السِّلَاح فيهم، وقال: يا لثارات الملِك! يا لثارات الهُمَام! فخرجت إليه عجوزٌ من بني كنانة فقالت: أبيتَ اللَّعْنَ! لسنا لك بثأر، نحن من كنانة، فدونك ثأرَك فاطلبهم، فإن القوم ساروا بالأمس.

فتبع بني أسد، ففاتوه ليلتهم تلك، فقال:

أَلَا يـا لَهـفَ هِـنْـدٍ إِثْـرَ قَـوْمٍ	هـمُ كـانـوا الشـفـاءَ فـلم يُصَـابُـوا
وقـاهـم جدُّهـمْ ببـنـي أبـيـهـم	وبـالأَشْـقَـيْـن[١] ما كـان العِقَـابُ
وَأَفْـلَتَـهُـنَّ عِـلْـبَـاءٌ جَـرِيـضًـا[٢]	ولـوْ أَدْرَكْـتَـهُ صَـفِـر الـوِطـابُ[٣]

وأدركهم ظُهْرًا، وقد تقطعتْ خيلُه، وقطع أعناقهم العطشُ، وبنو أسدٍ جامّون[٤] على الماء، فنهد إليهم فقاتَلَهُم، حتى كثُرَت الجرحى والقتلى فيهم، وحجَزَ الليلُ بينهم، وهربت بنو أسد.

فلما أصبحت بكر وتغلب أَبَوْا أن يتبعوهم، وقالوا له: قد أصبتَ ثأرك. قال: والله ما فعلتُ ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدًا. قالوا: بلى، ولكنك رجلٌ مشؤوم، وكرِهُوا قتالهم، وانصرفوا عنه، فمَضى هاربًا لوجهه حتى لحق بحِمِيْر.

فاستأجر من قبائل العرب رجالًا، فسار بهم إلى بني أسد، ومرّ بِتَبَالَة[٥]، وبها صنم للعرب تُعظِّمه، فاسْتَقسمَ[٦] عنده بِقِدَاحه، وهي ثلاثة: الآمر، والناهي والمتربِّص. فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، فجمعها فكسرها وضرب بها وَجه الصنم، وقال: لو أبوك قُتل ما عُقْتَنِي، ثم خرج فظفر ببني أسد.

---

(١) الجد: الحظ، والأشقين: جمع أشقى، ويقصد بهم بني كنانة.
(٢) أي بعد جهد ومشقة والضمير في «أفلتهن» و«أدركنه» للخيل التي كروا بها عليهم.
(٣) صفر الوطاب، أي لو أدركوه قتلوه وساقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن.
(٤) أي مجتمعون مستريحون.
(٥) موضع بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة.
(٦) الاستقسام: طلب معرفة ما قسم للمرء مما لم يقسم.

وألحَّ المنذر[١] في طلب امرىء القيس، ووجَّه الجيوشَ في طلبه من إياد وبَهْراء وتنُوخ، وأمدّه أنو شَرْوان بجيشٍ من الأساورة فسرّحهم في طلبه، فلم يكن لامرىء القيس بهم طاقَةٌ، وتفرّقتْ حمير ومَن كان معه عنه، فَتَجافى عُصْبَةٍ من بني آكل المُرَار، ونزل ببعض رؤساء القبائل يستجيرُ بهم، وصار يتحوّل عنهم إلى غيرهم، حتى نزل برجل من بني فَزَارة، يقال له: عمرو بن جابر بن مَازن، فطلب منه الجوار، حتى يرى ذات عَيْبه[٢].

فقال له الفَزَاريّ: يا ابنَ حُجر، إني أَرَاك في خَلَل من قومك، وأنا أَنْفَسُ[٣] بمثلك من أهل الشرف، وقد كِدتَ بالأمس تُؤكل في دار طيىء، وأهلُ البادية أهلُ وبر، لا أهل حصون تمنعهم، وبينك وبين أهل اليمن ذُؤْبانٌ من قيس، أفلا أدلُّك على بلد! فقد جئتُ قيصرَ، وجئتُ النعمان؛ فلم أرَ لضيفٍ نازل ولا لمجْتَدٍ[٤] مثلَه ولا مثلَ صاحبه.

قال: مَن هو وأين منزله؟ قال: السموءل بِتَيْماء، هو يمنع ضَعفك حتى ترى ذات عيبك، وهو في حصن حَصِين وحسبٍ كبير.

فقال له امرؤ القيس: وكيف لي به؟ قال: أُوَصّلُكَ إلى مَن يوصلك إليه.

فصحِبَه إلى رَجُل من بني فَزَارَة يقال له: الرّبيع بن ضَبُع الفزاريّ، ممن يأتي السموءل فيَحْمِلُه ويعطيه.

فلما صار إليه قال له الفَزاريّ: إن السموءل يُعْجِبهُ الشعر، فتعالَ نتناشد له أشعارًا؛ فقال امرؤ القيس: قل حتى أقول. فقال الربيع:

قـل لـلـمـنـيـة أيّ حيـنٍ نـلْتَـقـي	بفناء بَيْتِك في الحضيض المَزلقِ[٥]
ولقد أتيتُ بني المضَاضِ مفاخِرًا	وإلى الـسـموءل زُرْته بـالأبْـلَقِ[٦]
فأتيتُ أفضلَ مَنْ تخمل حاجةً	إن جـئـتَـه فـي غـارِمٍ أو مُـرْهَـق
عـرفـتْ لـه الأقـوامُ كـلَّ فـضـيـلة	وحوى المكارم سابقًا لـم يُسْبق

---

(١) كانت في نفس المنذر موجدة على آل امرىء القيس؛ لأن الحارث جد امرىء القيس زاحم المناذرة ملوك الحيرة عند كسرى في النيابة عنه على ملك الحيرة، وقت أن شجر الخلاف بين المناذرة وكسرى قباذ.

(٢) أي ينظر في أمره، ويصلح من شأنه.

(٣) أنفس بك: أضمن بك.

(٤) طالب عطاء.

(٥) المزاق: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم.

(٦) الأبلق: حصن السموءل.

فقال امرؤ القيس:

طرقَتْكَ هندٌ بعد طول تجنُّبِ وَهْنًا ولم تكُ قبل ذلك تَطْرُق[١]

ثم مضى القومُ حتى قدموا على السموءل، فأنشده الشعر، وعرف لهم حقهم، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني ليوصِّله إلى قيصر.

ومضى حتى انتهى إلى قيصر، فقبِلَهُ وأكرمه، وكانت له عنده منزلة.

ثم إنّ قيصر ضمّ إليه جيشًا كثيفًا، فيه جماعةٌ من أبناء الملوك، فلما فَصَل[٢] قال لقيصر قومٌ من أصحابه: إن العرب قومُ غَدر، ولا تأمنُ أن يظفرَ بما يريد، ثم يغزوك بمن بعثتَ معه.

فبعث إليه حينئذٍ بحُلّة وشي مسمومةٍ منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلتُ إليك بحُلّتي التي كنت ألبَسُها تكْرِمةً لك؛ فإذا وصلت إليك فالْبَسْها باليُمْن والبركة، واكتب إليّ بخبرك من منزلٍ منزل.

فلما وصلتْ إليه لبِسَها، واشتدّ سروره بها؛ فأسرع فيه السُّمّ وسقط جلْدُه فقال:

لقد طمَحَ الطّمّاحُ من بُعْدِ أرضه ليُلْبِسَنِي مما يلبّسُ أبْؤُسَا

فلو أنها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تساقَط أنْفُسَا

فلما صار إلى بلدةٍ من بلاد الروم تدعى أنْقِرَة احتُضِرَ بها فقال:

رب جَفْنةٍ مُثْعَنْجِرَهْ[٣] وطَعْنةٍ مُسْحَنْفِرَهْ[٤]

تبقى غدًا بأنْقِرَهْ

ورأى قَبْرَ امرأةٍ من أبناء الملوك ماتت هناك، فدُفِنَتْ في سفح جبلٍ يقال له: عَسِيب، فسأل عنها، فأُخْبِرَ بقصتها، فقال:

أجارتَنا إنَّ المَزَارَ قريبُ وإني مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ

أجارَتنا إنّا غريبان هٰهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

(١) يقول صاحب الأغاني: أظن أن هذه القصيدة منحولة.

(٢) فصل: رحل.

(٣) المثعنجرة من الجفان: التي يفيض ودكها.

(٤) مسحنفرة: متسعة.

ثم مات فدُفن هناك.

مَا كَانَ لَولَا غَرَّةُ اللّيل يُغْلَب[١]

ورد شَأْس بن زهير من عند النعمان بن المنذر، وقد حَبَاه أَفْضل الحُبْوَة: مِسْكًا وكُسًا وقُطُفًا[٢] وطَنَافس؛ فأناخ ناقته في يوم شَمالٍ[٣] وقُرٍّ[٤] على رَدْهَة[٥] في جبل رياح بن الأَسَك الغَنَوي، وليس على الرّدْهة غيرُ بيته بالجبل، فألقى ثيابه بفنائه، ثم قعد يُهَرِيق[٦] عليه الماء، وامرأةُ رياح قريبةٌ منه، وإذا هو مثلُ الثور الأبيض، فقال رياح لامرأته: أَعْطيني قوْسي، فمدَّت إليه قوسَه وسَهْمًا، وانتزعت المرأة نَصْلَه لئلا يقتله، فأهوى عجلانَ إليه، ووضع السهم في مُسْتَدَقّ الصلب، بين فَقَارتين[٧] ففصلهما، وخرَّ سَاقِطًا، وحفر له حفرًا، فهدمه عليه، ونحر جمله وأكله، وأدخل متاعه في بيته.

وفُقِد شأس، وقُصَّ أثره ونُشد؛ وركبوا إلى الملك، فسألوه عن حاله، فقال لهم: حَبَوْته وسرّحْته. فقالوا: وما مَتَغْتَ[٨] به؟ قال: مسك ونُطُوع وقُطُف، فأقبلوا يقصّون أثره، فلم تَتَضح لهم سبيلُه، فمكثوا كذلك ما شاء الله، حتى انقطع ذكره.

قال الراوي: ثم إن الناسَ أصابتهم جائحةٌ وجُوع، فنحر زُهير[٩] بن جذيمة ـ أبو شأس ـ ناقته، فأعطى امرأةً من شحمها وسَنامها، وقال: اشتري لي الهدب والطِّيب، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح، فقالت: إن معي شحمًا أبيعهُ في الهدب والطِّيب، فاشترت المرأة منها؛ ثم أتت المرأة زهيرًا بذلك، فعرف الهدب، وذهب إلى غنيّ، فقالوا: نعم، قتله رياح بن الأسكّ ونحن براء منه، وقد لحق بخاله من بني الطَّمّاح.

---

(١) الأغاني: ٨ ـ ١٠، ابن الأثير: ١ ـ ٣٣٧، مهذب الأغاني: ٢ ـ ٨.

(٢) القطيفة: دثار مخمل، جمعه قطف (بضمتين).

(٣) الشمال: الريح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش، ويكون اسمًا وصفة.

(٤) القر: البرد.

(٥) الردهة: النقرة يجتمع فيها ماء السماء.

(٦) هراق الماء: أراقه.

(٧) الفقرة والفقارة: ما انتضد من عظام الصلب.

(٨) متع الرجل: جاد.

(٩) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وأحد سادات العرب المعدودين في الجاهلية، قتله خالد بن جعفر العامري نحو سنة ٥٠ ق.هـ.

ولما تبيَّن لزُهير أن رياحًا ثأْرُه قال يرثي شاسًا:

بكيتُ لِشأسٍ حين خُبِّرْتُ أنه ... بماء غنيٍّ آخِرَ الليل يُسلَب
لقد كان مَأْتَاه الرَّدَاةَ[١] لحَتْفِهِ ... وما كان لولا غِرَّةُ الليل يُغْلبُ
قتيل غنيٌّ ليس شكلٌ كشكلِهِ ... كذاك لعمري الحيْنُ[٢] للمرء يُجْلبُ
سأبكي عليه إن بكيت بعبْرةٍ ... وحقّ لِشاسٍ عَبْرةٌ حين تسكبُ
وحزنٌ عليه ما حييتُ وعَوْلة ... على مثل ضوءِ البدر أو هو أعجبُ
إذا سِيمَ ضيمًا كان للضَّيْم مُنْكِرًا ... وكان لَدَى الهيجاءِ[٣] يُخشى ويُرهَبُ
وإنْ صوّت الداعي إلى الخير مرةً ... أجاب لما يدعُو له حين يكْرَبُ
ففرَّج عنه ثم كان وليَّه ... فقلبي عليه لو بدا القلب مُلْهَبُ

ثم انصرف إلى قومهِ من بني عَبْس، فكان لا يقدر على غَنَوِيٍّ إلّا قتله.

وتجهَّز بنو عَبْس لغَزْو غَنيٍّ قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، وتولّى رياستهم الحصينُ بن زهير، أخو شأس، والحصينُ بن أسيد بن جذيمة، ابن أخي زهير، فقيل ذلك لغَنيّ، فقالت لرياح: انجُ لعلّنا نُصالح على شيء أو نرضيهم بِدَيةٍ وفداء.

فخرج رياحٌ رديفًا[٤] لرجل من بني كلاب، فبينما هُمَا سائران إذا هما بالقوم أدْنَى ظلام[٥]، وقد كانا يظنان أنهما خَالفَا وِجْهة القوم، قال صاحب رياح: اذْهب فإني آتِي القوم أشاغلهم عنك، وأحدّثهم حتى تُعْجزهم، ثم أنا ماضٍ إنْ تركوني. فانْحَذر رياح عن عَجُز الجمل فأخذ أدْراجه، وعدا إثْرَ الراحلة حتى أتى ضَفّة، فاحتفَر تحتها مثل مكان الأرنب، فَوَلَج فيه، ثم أخذ نعليه، فجعل إحداهما على سرّته، والأخرى على صَفَنِه[٦]، ثم شدَّ عليهما العمامة، ومضى صاحبه حتى لقي القوم، فسألوه، فحدّثهم، وقال: هذه غنيٌّ كاملة، وقد دنوتُ منهم، فصدّقوه وخلّوا سِرْبَه[٧].

---

(١) الرداة: الصخرة.
(٢) الحين: الهلاك.
(٣) الهيجاء: الحرب.
(٤) الرديف: الذي تحمله خلفك على ظهر الدابة.
(٥) أدنى ظلام: أدنى شيء.
(٦) الصفن: وعاء الخصية.
(٧) خلوا سربه: أي طريقه.

فلما ولى رؤوا مركَب الرَّجل خلفه، فقالوا: من هذا الذي كان خَلْفك؟ قال: لا مكْذُبة! ذلك رياح في الأوَل من السَّمُرات، فقال الْحُصَيْنَان لمن معهما: قِفُوا علينا حتى نَعْلَمَ علمه، فقد أمكننا الله من ثأرنا ولم يريدا أن يشركهما فيه أحد، فمضيا ووقف القوم عنهما، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبترَ صلْبَه، وطعنه الآخر قبل أن يرميَه، وأراد السُّرة فأصاب الرَّبْلة[١]، ومَرَّ الفرس يهوي به، فاستدبره رياح بسهم رشق به صلبه فانفقر منحني الأوصال، ونَدَّت فرساهما فلحقتا بالقوم، وانطلق رياح حتى ورد رَدْهة، عليها بيت أنمار بن بغيض، وفيه امرأة، ولها ابنان قريبان منها، وجملٌ لها راتعٌ في الجبل، وقد مات رِياح عطشًا، فلما رأته يسْتَدْمِي[٢] طمِعَتْ فيه، ورجتْ أن يأتيَها ابناها، فقالت له: اسْتَأْسِر، فقال لها: دعيني - وَيحَكِ - أشرب! فأبت، فأخذ حديدة فجَذَم بها رَوَاهِشها[٣]، وعَبَّ في الماء حتى نهل، ثم قال فيها وفي الحُصَيْنَيْن:

قالت لِيَ استَأْسِرْ لتَكْنُفَنِي[٤] حيـنًـا ويـعـلوَ قـولُهـا قـولـي

ولأنــت أَجْــرَأُ مــن أُسَـامــة أو مِـنّـي غَـدَاةَ وقـفـتُ لـلخـيْـل

إذ الحصين لدى الحصين كما عَـدَل الـرِّجَـازَةُ[٥] جـانـبَ الـمـيْـلِ

لأَقْتلَنّه وَلو كَان حِجْر النعمَان[٦]

لما قتل خالدُ بن جعفر بن كلاب زهيرَ بن جذيمة العبسي ضاقت به الأرضُ، وعلم أن غطفانَ غيرُ تاركيه؛ فخرج حتى أتي النعمانَ فاستجار به فأجاره، ومعه أخوه عُتْبَةُ بنُ جعفر.

ونهض قيس بن زهير فتهيَّأ لمحاربة بني عامر، وهجمَ الشتاء؛ فقال الحارثُ بن ظالم: يا قيسُ؛ أنتم أعلم وحربكم، وأنا راحلٌ إلى خالد حتى أقتلَه، قال قيس: قد أجاره النعمان، قال الحارث: لأَقْتُلَنّهُ ولو كان في حِجْره!

---

(١) الربلة: أصل الفخذ. (٢) استدمى الرجل: طأطأ رأسه يقطر منه الدم.

(٣) جذم: قطع. الرواهش: عروق طاهر الكف. (٤) كنفه: أحاط به وآواه.

(٥) الرجازة: شيء يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعته في الناحية الأخرى ليعتدل.

(٦) الأمثال: ٢ - ٢٣٤، عيون الأخبار: ١ - ١٨٣.

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قُبَّةَ، وأمرهما بحضور طَعَامِه ومُدَامِه[١].

فأَقْبَل الحارثُ ومعه تابعٌ له من بني محارب فأتى بابَ النعمان، فاستأذَن فأَذِن له النعمان وفرح به. فدخل الحارث، وكان من أحسن الناس وَجْهًا وحديثًا، وأعلم الناس بأيام العرب؛ فأقبَل النعمانُ عليه بوجهه يحدِّثُه، وبين أيديهم تَمْرٌ يأكلونه.

فلما رأى خالدٌ إقبالَ النعمان على الحارث غاظه ذلك، فقال: يا أبا ليلى؛ ألا تشكُرني! قال: عَلَامَ؟ قال: قتلتُ زهيرًا فَصِرْتَ بعده سيِّدَ غطفان ـ وفي يد الحارث تمراتٌ؛ فاضْطَرَبت يده، وجعل يُرْعَد ويقول: أنت قتلتَه!! والتمرُ يسقط من يده.

ونظر النعمان إلى ما به من الزَّمَع[٢]، فنَخَس خالدًا بعصاه، وقال: هذا يقتلك! فقال: أبيْت اللعن! فوالله لو كنت نائمًا ما أيقظني! وافترق القوم، وبقي الحارثُ عند النعمان، وأَشْرَج[٣] خالدٌ قُبَّته عليه وعلى أخيه ونَامَا.

وانصرف الحارثُ إلى رَحْلِه، فلمَّا هدأتِ العيون خرج بسيفه حتى أتى قُبَّة خالد فَهَتَكَ شَرَجَها[٤] بسيفه، فدخل فرأى خالدًا نائمًا وأخوه إلى جنبه، فأيقظ خالدًا فاستوى قائمًا، فقال له الحارث: يا خالد؛ أظننتَ أن دم زهير كان سائغًا لك! وعَلَاه بسيفه حتى قتله، وانْتَبَه عُتْبَة، فقال له الحارث: لئن نَبَسْتَ[٥] لأُلْحِقَنَّكَ به!

وانصرفَ الحارثُ، وركب فرسَه ومضى على وجهه، وخرج عُتْبَةُ صارخًا حتى أتى باب النعمان، فنادى: يا سوء جوَاراه! فأُجيب: لا رَوْع عليك! فقال: دخل الحارثُ على خالد فقتله، وأَخْفَرَ[٦] الملِك.

فوجّه النعمانُ فوارسَ في طلبه فلحقوه سَحَرًا، فعَطَف[٧] عليهم، فقتلَ جماعةً منهم وكَثُرُوا عليه، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرَّقَها، ولا لفارس إلّا قَتَلَه.

---

(١) المدام: الخمر.
(٢) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الإنسان.
(٣) أشرج الخيمة: أدخل بعض عراها في بعض بين أشراجها.
(٤) الشرج: عرا الخيمة.
(٥) نبس: أقل الكلام.
(٦) أخفر الملك: نقض عهده وغدره.
(٧) عطف: مال.

فارتدع القوم عنه، وانصرفوا إلى النعمان.

فقال عَمْرو بن الإطنابة:

عَـلِّلَانـي وعَـلِّلَا صـاحـبَـيَّـا ... واسْـقِـيَـانِـي مـن الـمُـرَوَّق رِيّـا

إنَّ فينا القِيَانَ يَعْزِفْنَ بالضَّرْ ... بِ لفِتْيَانِنَا وعَيْشًا رَضِيَّا

يتناهَيْنَ في النعيمِ ويَضْرِبْـ ... ـنَ خِلَالَ القُرُون مِسْكًا ذَكيَّا

أَبْلِغَا الحارثَ بن ظالمَ الرِّعْـ[1] ... ـديدَ والناذِرَ النذُور عَلَيَّا

إنما تَقْتُلُ النِّيامَ ولا تقـ ... ـتل يقظانَ ذا سلاحٍ كميًّا[2]

وكان عَمْرو قد آلَى[3] ألّا يدعوَه رجلٌ بليل إلا أجابه، ولا يسأله عن اسمه. فأتاه الحارثُ ليلًا فهتف به، فخرج إليه، فقال: ما تريد؟ قال: أَعِنِّي على إبلٍ لبني فلان، وهي منك غيرُ بعيدة، فإنها غنيمة باردة!

فدعا عمرو بفرسه، وأراد أن يركب حاسرًا، فقال له: البَسْ عليك سلاحك، فإني لا آمن امتناعَ القوم، فاستلأمَ[4] وخرج معه، حتى إذا بَرَزَا قال له الحارث: أنا أبو ليلى فخُذْ حِذْرَك يا عمرو، فقال له: امْنُنْ عليَّ. فجزّ ناصِيَتَه، وقال:

عَلِّلَاني بلذّتي قَيْنَتَيَّا ... قبلَ أن تبكيَ العيونُ عليَّا

قبل أن تذكر العواذلُ أبي ... كنتُ قِدْمًا لأمرهنَّ عَصِيًّا

ما أبالي إذا اصطَبَحْتُ ثلاثًا ... أرشيدًا دعونَني أم غَوِيًّا

غيرَ ألا أُسِرَّ للهِ إثمًا ... في حياتي ولا أخونَ صَفِيًّا

بلَغتني مقالةُ المرء عمرو ... بلغتْني وكان ذاك بَدِيًّا

فخرجنا لموعدٍ فالتَقَيْنَا ... فوجدناه ذا سلاحٍ كَمِيًّا

غير ما نائمٍ يُرَوّع بالليْـ ... ـلِ مُعِدًّا بكفِّهِ مشرَفيًّا

فرجعنا بالمنِّ مِنَّا عليه ... بعد ما كان منه منّا بديًّا

---

(١) الرعديد: الجبان.
(٢) الكمي: الشجاع.
(٣) آلى: حلف.
(٤) استلأم: لبس اللامة: الدرع.

وَفَـاء وَغَدر[١]

سار المنذر بنُ ماء السماء ملكُ العرب الحيرة في مَعَدّ كلّها حتى نزل بعَيْنِ أُبَاغ، وأرسل إلى الحارث[٢] بن أبي شمِر ملك العرب بالشام، وقال له: إما أن تُعطيَني الفِدْيَة فأنصرفَ عنك بجنودي، وإما أن تأذَن بحَرْب.

فأرسل إليه الحارث: أَنظِرْنا نَنْظُر في أمرنا. وجمع عساكِرَه، وسار نحو المنذر، وأرسل إليه يقول له: إنا شيخان فلا تُهلِكْ جنودي وجنودَك، ولكن يخرج ولدٌ من ولدي ورجل من ولدك فمن قُتِل خرجَ عِوَضَه آخرُ، وإذا فَنِي أولادُنا خرجتُ أنا إليك، فمَنْ قتلَ صاحبَه ذهب بالملك، فتعاهدا على ذلك.

فعمَد المنذر إلى رجل من شُجْعان أصحابه، فأمره أن يخرج فيقفَ بين الصفين، ويُظهِر أنه ابنُ المنذر، فلما خرج أَخْرَج إليه الحارث ابنه أبا كرِب، فلما رآه رجع إلى أبيه، وقال: إن هذا ليس بابنِ المنذر، إنما هو عبدُه أو بعضُ شُجْعَان أصحابه، فقال: يا بني، أجَزِعت من الموت! ما كان الشيخ ليَغْدِرِ[٣]! فعاد إليه وقاتلَه فقَتَله الفارس، وألقى رأسَه بين يدي المنذر وعاد.

فأمر الحارث ابنًا له آخر بقتاله والطلبِ بثأر أخيه، فخرج إليه، فلما واقفَه[٤] رجع إلى أبيه؛ وقال: يا أبت؛ هذا والله عبدُ المنذر، فقال: يا بني؛ ما كان الشيخ ليغدِر! فعاد إليه، فشدّ عليه فقتله.

فلما رأى ذلك شمر بن عمر، وكانت أمه غسَّانية وهو مع المنذر، قال: أيُّها الملك؛ إن الغَدْرَ ليس من شِيَمَ الملوك ولا الكرام، وقد غدرتَ بابن عمك دفعتين، فغضبَ المنذر، وأمر بإخراجه، فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: سَلْ حاجتك، فقال له: حُلّتك وخُلّتك.

فلما كان الغد عبّى الحارث أصحابه وحرَّضهم، وكانوا في أربعين ألفًا واصطفوا للقتال، فاقتتلوا قتالًا شديدًا؛ فقُتِل المنذر وهُزِمت جيوشه، فأمر الحارث

---

(١) الكامل لابن الأثير: ١ ـ ٣٢٦.

(٢) في كتاب الأعلام للزركلي أن الحارث لقب عام لملوك الغسانيين، كقيصر عند الروم، وكسرى عند الفرس؛ وهو أشهر ملوك غسان ذكرًا، وكان جوادًا كثير الهبات دام ملكه نحو ٣٠ عامًا، ومات نحو سنة ٤٠ ق.هـ.

(٣) يغدر: ينقض العهد.

(٤) المواقفة: أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة.

بابنيه القتيلين فحُمِلا على بعير بمنزلة العَدْلين، وجُعِلَ المنذر فوقهما فردا، وقال: «يا لِعَلاوَةٍ[١] دُونَ العِدْلَيْنِ!» وسار إلى الحيرة فأَنْهبَها[٢] وأحرقها، ودفن ابنيه بها، وفي ذلك يقول الشاعر:

كم تركْنَا بالعين عَيْن أُباغٍ ... من ملوك وسوقةٍ أكفاء
أمطرتهمْ سحائب الموت تَتْرَى ... إنّ في الموت راحةَ الأشقياء
ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنّما الميتُ ميّتُ الأحياء

يَثْأر لأبيهِ وجَدّه[٣]

كان من حديث قَيْس بن الخَطِيم[٤] أن جدَّه عديَّ بنَ عمرو قتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر يقال له: مالك، وقتل أباه الخطيمَ بنَ عدي رجل من عبد قيس ممن يسكن هَجَر، وكان قيسٌ يوم قُتِل أبوه صبيًّا صغيرًا، وقُتل الخطيم قبل أن يَثأَرَ بأبيه عديّ، فخشيتْ أُمُّ قيس على ابنها أن يخرجَ فيطلب بثَأْرِ أبيه وجدِّه فَيَهْلِك.

فعمَدَت إلى كومة من تراب عند باب الدار، فوضعت عليها أحجارًا وجعلت تقول لقيس: هذا قبرُ أبيك وجدِّك، فكان قيس لا يشكُّ في ذلك.

ونشأ أَيِّدًا[٥] شديدَ الساعدين؛ فنازع يومًا فَتًى من فِتْيَان بني ظفَر؛ فقال له ذلك الفتى: والله لو جعلتَ شدةَ ساعديك على قاتل أبيك وجدِّك لكان خيرًا لك من أن تُخْرِجَها عليّ؛ فقال: ومَنْ قاتلُ أبي وجَدّي؟ قال: سَلْ أمّك تخبرْك.

فأخذ السيف ووضع قائِمَة على الأرض، وذُبَابَه[٦] بين ثدييه؛ وقال لأمّه: أخبريني مَنْ قتل أبي وجدي؟ قالت: ماتا كما يموتُ الناس، وهذان قبراهما بالفِناء. فقال: والله لتُخْبِرِنني مَنْ قتلهما، أو لأتحَامَلَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظَهْري! فقالت: أما جدُّك فقتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر بن ربيعةَ يقال له: مالك، وأما أبوك فقتله رجلٌ من عبد قيس ممّن يسكن هَجَر.

---

(١) العلاوة: ما يحمل على البعير وغيره، وهو ما وضع بين العدلين.
(٢) أنهبها: أباحها لمن شاء. (٣) الأغاني: ٣ ـ ٣.
(٤) قيس بن الخطيم: شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية، أدرك الإسلام وتريث في قبوله، ثم قتل قبل أن يدخل فيه نحو سنة ٢ ق.هـ.
(٥) أيدا: شديدًا قويًا. (٦) ذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

فقال: والله لا أَنْتَهي حتى أَقتلَ قاتلَ أبي وجدّي؛ فقالت: يا بنيّ؛ إنّ مالكًا قاتِلَ جَدِّك من قوم خِداش بنِ زُهير، ولأبيك عند خِدَاش نعمةٌ هو لها شاكر، فأْتِه فاستَشِرْه في أمرك واستعِنْه يُعِينُك.

فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتى ناضِحه[١] وهو يَسْقِي نخلَه، فضربَ الجرير[٢] بالسيف فقطعه، فسقطت الدلوُ في البئر، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرَارتيْن[٣] من تمر، وقال: مَن يكفيني أمرَ هذه العجوز؟ يعني أمّه ـ فإن متُّ أَنْفَقَ عليها من هذا الحائط[٤] حتى تموتَ ثم هُوَ لهُ، وإن عشتُ فمَا لِي عائد إليّ وله منه ما شاء أن يأكل من ثمره؟ فقال رجلٌ من قومه: أنا له، فأعطاه الحائط.

ثم خرج يسأل عن خِداش بن زُهير حتى دُلَّ عليه بمَرِّ الظَّهْرَان[٥]، فسار إلى خبائه فلم يجده، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافُه، ثم نادى امرأةَ خِداش: هل من طعام؟ فأَطْلَعَتْ إليه، فأعجبها جمالُهُ، وكان من أحسن الناس وجهًا؛ فقالت: والله ما عندنا من نُزُلٍ[٦] نرضاه لك إلا تمرًا؛ فقال: لا أبالي، فأَخْرِجي ما عندكِ؛ فأرسلتْ إليه، بقُبَاع[٧] فيه تمر، فأخذ منه تمرة فأكل شِقّها وردَّ شِقّها الباقيَ في القُباع، ثم أَمَر بالقباع فأُدخل على امرأة خداش بن زهير، ثم ذهب لبعض حاجاته.

ورجع خِدَاش فأخبرته امرأتُه خبرَ قَيس، فقال: هذا رجلٌ مُتَحَرِّم[٨] وأقبل قيس راجعًا. فلما رأى خِدَاش رِجْلهُ وهو على بعيره قال لامرأته: هذا ضيفُكِ؟ قالت: نعم؛ قال: كأن قدمه قدم الخَطِيم صديقي اليَثْربيّ؛ فلما دنا منه قرعَ طُنُبَ[٩] البيت بسِنان رمحه، واستأذن، فأذن له خِداش، فدخل إليه، فنسبه[١٠] فانتسب، وأخبره بالذي جاء له، وسأله أن يُعينه، وأن يشيرَ عليه في أمره، فرحّب به خداش، وذكر نعمة أبيه عنده، وقال: إن هذا الأمر ما زلتُ أتوقّعه منذ حين.

---

(١) الناضح: البعير يستقي عليه الماء. (٢) الجرير: الحبل.
(٣) الغرارة: الكيس. (٤) الحائط: البستان.
(٥) الظهران: واد قرب مكة عند قرية يقال لها: «مر» تضاف إليه فيقال مر الظهران.
(٦) النزل: ما يهيأ للضيف من قرى. (٧) القباع: المكيال الضخم.
(٨) متحرم: له عندنا حرمة وذمة.
(٩) الطنب: بضمتين وسكون الثاني لغة: الحبل تشد به الخيمة ونحوها، والجمع أطناب.
(١٠) نسبه: طلب إليه أن ينتسب.

فأما قاتلُ جدّك فهو ابن عمّ لي وأنا أُعينك عليه، فإذا اجتمعنا في نادينا جلستُ إلى جانبه وتحدّثت معه، فإذا ضربتُ فخذَه فثِبْ إليه فاقتله.

قال قيس: فأقبلت معه نحوه حتى قمتُ على رأسه لمَّا جالَسه خِدَاش، فحين ضرب فخِذه ضربتُ رأسه بسيف يقال له: ذو الْخِرْصَيْنِ؛ فثار إليّ القومُ ليقتلوني، فحَال خداشٌ بينهم وبيني، وقال: دَعُوه فإنه والله ما قتلَ إلا قاتلَ جدّه.

ثم دعا خداش بجملٍ من إبله فركبه، وانطلق مع قيس إلى العَبْدِيّ الذي قتل أباه، حتى إذا كانا قريبًا من هَجَر، أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسألَ عن قاتل أبيه، فإذا دُلَّ عليه قال له: أن لصًّا من لصوص قومك عارضني فأخذ مني متاعًا لي. فسألت: مَن سيّدُ قومه؟ فَدُلِلْتُ عليك؛ فانطلقْ حتى تأخذ متاعي منه، فإن اتَّبعك وحده فستنال ما تريد منه، وإن أخرج معك غيره فاضحك، فإن سألك مِمَّ ضحكتَ؟ فقل: إنّ الشريف عندنا لا يصنعُ كما صنعتَ إذا دُعي إلى اللص من قومه، إنما يخرج وحده بِسَوْطه دون سيفه، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذه، هيبةً له، فإن أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فائتني به، فإني أرجو أن تقتلَه وتقتلَ أصحابه.

ونزل خِدَاش تحت ظل شجرة، وخرج قيس حتى أتى العَبْدِيَ، فقال له: ما أمره خداش فأَحْفَظَهُ[1]؛ فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس؛ فلما طلع على خِدَاش، قال له: اخترْ يا قيس؛ إما أن أُعِينَك وإما أن أكفيَك، قال: لا أريدُ واحدةً منهما، ولكن إن قتلني فلا يُفْلِتَنَّكَ؛ ثم ثار إليه فطَعَنه قيس بالحرْبة في خاصِرَته فأَنفذها من الجانب الآخر؛ فمات مكانه.

فلما فرغ منه قال له خِداش: إنا إن فرَرْنا الآن طلبَنا قومُه، ولكن ادخل بنا مكانًا قريبًا من مَقْتَلِه، فإنَّ قومه لا يظنّون أنك قتَلْتَه، وأقمتَ قريبًا منه؛ ولكنهم إذا افتقدوه[2] اقْتَفَوْا أثرَه، فإذا وجدوه قتيلًا خرجوا في طلَبنا في كل وجه، فإذا يئسوا رجعوا.

قال: فدخلا في دَاراتٍ من رمالٍ هناك، وفقَدَ العبْدِيَّ قومُه فاقْتَفَوْا أثره فوجدوه قتيلًا، فخرجوا يطلبونها في كل وجه ثم رجعوا، فكان من أمرهم ما قال

---

(١) أحفظه: أغضبه.

(٢) افتقدوه: طلبوه عند غيبته.

خدَاش، وأقاما مكانهما أيامًا ثم خرجا، حتى أتَيَا منزلَ خِداش ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله، ففي ذلك يقول قيس:

تذكَّر ليلَى حسنها وصفاءَها ... وبانَتْ فما إن يستطيع لِقَاءَها

ومثلُكِ قد أَصْبَيْتُ ليست بكَنَّةٍ[١] ... ولا جارةٍ أفضَتْ إليّ خِباءَها

إذا ما اصطبحتُ أربعًا خط مِئْزَرِي[٢] ... وأَتْبَعْتُ دَلْوي في السماح رشاءَها[٣]

ثأرْتُ عديًّا والخطيمَ فلم أُضِعْ ... وصيَّة أشياخٍ جُعِلْتُ إزاءَها

بَعد طعن عُمَر بن الخطّاب[٤]

خرج عمرُ[٥] بن الخطاب يومًا يطوفُ في السُّوق، فلقيَه أبو لُؤْلُؤَةَ غلامُ المغيرة بن شعبة ـ وكان نَصْرَانيًّا ـ فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أعْدِني[٦] على المُغيرة بن شُعبَة، فإنَّ عليَّ خرَاجًا كثيرًا. قال: وكم خرَاجُك؟ قال: دِرهمان في كل يوم. قال: ما صِناعتك؛ قال: نجّار، نقّاش، حدّاد، قال: فما أرى خراجَك بكثير على ما تصنعُ من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردتُ أن أعمل رحًا تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحًا. قال: لئن سلمتُ لأعمَلَنَّ لك رحًا يتحدث بها مَن بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه.

فقال عمر: لقد تَوَعَّدَني العبد آنفًا، ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعبُ الأحْبار فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ اعْهَدْ، فإنك ميِّتٌ في ثلاثة أيام، قال: وما يُدريك؟ قال: أجدُه في كتاب الله عزّ وجلّ، التوراة. قال عمر: اللهَ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة! قال: اللهم لا؛ ولكني أجد صِفَتَك وحِلْيَتك، وأنه قد فَنِي أجلُك ـ وعمر لا يحس وجَعًا ولا ألَمًا.

---

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ.

(٢) يريد أنه إذا شرب أربعًا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء.

(٣) يريد أنه بلغ في السماح نهاه، يقال: أتبع الدلو رشاءها، وأتبع الفرس لجامها، إذا بذل آخر مجهوده.

(٤) تاريخ الطبري: ٥ ـ ١٢، العقد الفريد: ٢ ـ ٢٥٦.

(٥) عمر بن الخطاب: ثاني الخلفاء الراشدين، المضروب بعدله المثل، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر، وقتل سنة ٢٣ هـ.

(٦) أعداه: أعانه.

فلمّا كان من الغد جاء كعْب، فقال: يا أمير المؤمنين: ذهبَ يوم، وبقي يومان، ثم جاءه من غد، فقال: ذهب يومان؛ وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها.

فلما كان الصبحُ خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكِّل بالصفوف رجالًا، فإذا استوَتْ جاء هو فكبَّر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنْجَر له رأسان، نِصَابُهُ[١] في وسطه، فضرب عمرَ ستّ ضربات؛ إحداهن تحت سُرَّته، وهي التي قتلته.

فلما وجَدَ عمر حرَّ السلاح سقط وقال: أفي الناس عبدُ الرحمٰن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين؛ هو ذا. قال: تقدَّم فصَلِّ بالناس. فصلَّى عبد الرحمٰن بن عوف، وعُمر طريح، ثم احتُملَ، فأدخِلَ دارَه.

ولما أَحَسَّ الناسُ قربَ موته قالوا له: يا أمير المؤمنين؛ لو استخلفت! قال: إنْ تركتُكم فقد ترَكَكم مَن هو خيرٌ مني، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم مَنْ هو خيرٌ مني، ولو كان أبو عُبيدة بن الجرّاح حيًّا لاستخلفتُه، فإن سألني ربي، قلت: سمعتُ نبيّك يقول: «إنه أمينُ هذه الأمة». ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستَخْلَفْتُه، فإن سألني ربي قلت: سمعتُ نبيك يقول: إن سالمًا يحب الله حُبًّا، لو لم يَخَفْه ما عصَاه[٢].

قيل له: فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله بن عمر؛ فإنّه لذلك أهل؛ لدينه وفضله وقديم إسلامه، فقال: بِحَسْبِ آل الخطاب أن يحاسَبَ منهم رجلٌ واحد عن أمةِ محمد، ولوددت أني نجوتُ من هذا الأمر كَفَافًا[٣]، لَا لِي ولا عَلَيَّ.

ثم رَاحُوا فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لو عهدت! فقال: قد كنتُ أَجْمَعتُ[٤] بعد مَقَالتي لكم أن أُوَلِّي رجلًا أمرَكم أرجو أن يحمِلَكم على الحق - وأشار إلى علي - ثم رأيتُ ألَّا أتَحَمَّلَها حيًّا وميتًا. فعليكم بهؤلاء الرَّهْط الذين تُوفِّيَ رسول

---

(١) نصاب السكين: ما يقبض عليه.

(٢) هذه الجملة تدل على تقرير عدم العصيان على كل حال، وعلى أن انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى (المغني ص ٢٠٢ ج ١).

(٣) الكفاف: الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه، وهو نصب على الحال، وقيل: أراد مكفوفًا عني شرها.

(٤) أجمعت: عزمت.

الله وهو عنهم رَاضٍ: سعدُ بن أبي وقاص، وعبدُ الرحمٰن بن عوف، وعليُّ بن أبي طالب؛ وعثمانُ بن عفان، والزبيرُ بن العوّام؛ وطلحةُ الخير.

وقال لعبد الرحمٰن ادْعُ عليًّا وعثمان والزبير وسعدًا وقال: انتظروا أخاكم طلْحة ثلاثًا ـ وكان غائبًا ـ فإن جاء وإلا فاقضُوا أمرَكم. أنشدُك الله يا عليّ إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحملَ بني هاشم على رِقاب الناس! أنشدُك الله يا عثمان إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحملَ بني أبي مُعيط على رِقاب الناس! أنشدك الله يا سعد إن وليتَ من أمور الناس شيئًا أن تحمل أقارِبك على رقاب الناس؛ قُوموا فتَشَاوَرُوا، ثم اقْضُوا أمرَكم، ولْيُصَلِّ بالناس صهيب.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاريّ، فقال: قمْ على بابهم فلا تدَعْ أحدًا يدخلُ إليهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبَوَّءُوا الدار والإيمان: أن يحسِن إلى مُحْسنهم، وأن يعفُوَا عن مسيئهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بالعرب؛ فإنهم مادَّةُ الإسلام؛ أن يأخذ من صدقاتهم حقَّها فتوضع في فقرائهم، وأُوصي الخليفة من بعدي بذمَّة محمد رسول الله؛ أن يُوفي لهم بعَهْدهم، اللّهُم هل بلّغت! تركتُ الخليفة من بعدي على أنْقَى من الراحة.

يا عبد الله بن عمر؛ اخرج فانظر مَنْ قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ قتلك أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل مَنِيَّتي بيد رجل سجدَ لله سَجْدَةً واحدة، يا عبد الله بن عمر؛ اذهب إلى عائشة، فسلْها أن تأذنَ لي أنْ أُدفن مع رسول الله وأبي بكر، يا عبد الله بن عمر؛ إن اختلف القوم فكُنْ مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتَّبع الحزب الذي فيه عبد الرحمٰن، يا عبدَ الله؛ ائذن للناس.

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلّمون عليه ويقول: أَعَنْ ملأٍ[1] منكم كان هذا؟ فيقولون: معاذ الله! ودخل في الناس كعب، فلما نظر إليه عمر قال:

فأوعدني كعبٌ ثلاثًا أعدّها ... ولا شكّ أن القول ما قال لي كعبُ
وما بي حذارُ الموت إنّي لميّتٌ ... ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ثم فاضت روحه، رحمه الله.

---

(١) أي مشاورة من أشرافكم وجماعتكم.

المؤتمِرُون بعَلِي وَمُعَاوِيَة وعَمْرو[١]

لما قتلَ عليٌّ أهلَ النّهرَوَان، وكان بالكوفة زُهاء ألفين من الخوارج ممّنْ لم يخرج مع عبد الله بن وهب، وقومٌ ممن اسْتَأْمَنَ[٢] إلى أبي أيوب الأنصاري؛ فتجمّعُوا وأمَّرُوا عليهم رجلًا من طيّء؛ فوجَّه إليهم عليٌّ رجلًا وهم بالنُّخَيْلَةِ[٣] فدعاهم ورفَق بهم فأَبَوْا، فعاودهم فأبوْا، فاقتتلوا جميعًا.

فخرجت طائفةٌ منهم نحو مكَّة؛ فوجّه معاوية مَنْ يقيمُ للناس حجَّهم؛ فنَاوَشَهُ هؤلاء الخوارج؛ فبلغ ذلك معاوية؛ فوجّه بُسْرَ بن أَرْطَاةَ أحدَ بني عامر بن لؤي فتوقّفُوا وتَراضَوْا بعد الحرب بأن يصلّي بالناس رجلٌ من بني شيبة؛ لئلا يفوتَ الناسَ الحجُّ.

فلمَّا انقضى نظرت الخوارجُ فى أمرها فقالوا: إن عليًا ومعاويةَ قد أفسدا أمْرَ هذه الأمة، فلو قتلناهما لعاد الأمرُ إلى حقه.

وقال رجلٌ من أَشْجَع: والله ما عمرو دونهما؛ وإنه لأَصْلُ هذا الفساد! فقال عبد الرحمٰن بن مُلْجَم: أنا أقتل عليًا! فقالوا: وكيف لك به؟ قال: أغْتَاله!

فقال الحجاج بن عبد الله الصّرِيميّ: وأنا أقتلُ معاوية! وقال زَاذَوَيْه مولى بني العَنْبَرِ: وأنا أقتلُ عَمْرًا!

فأجمَع رأْيُهُم على أن يكون قتْلُهم في ليلةٍ واحدة؛ فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان.

فخرج كلّ واحد منهم إلى ناحية: فأتى ابنُ ملجَم الكوفةَ، فأخْفَى نفسه، وأراد أن يتزوَّجَ من امرأةٍ يقال لها قَطَام بنت علقمة؛ وكانت ترى رَأيَ الخوارج[٤]؛ فقالت له: لا أقنعُ منك إلا بصدَاقٍ أُسَمِّيه لك وهو ثلاثة آلاف درهم وعبدٌ وأمَةٌ، وأن تقتلَ عليًا! فقال لها: لكِ ما سألتِ! فكيف لي به؟ قالت: ترومُ ذلك غِيلة؛

(١) المسعودي: ٢ ـ ٤٠، ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٤٢، ٢ ـ ١٤٤، الكامل: ٢ ـ ١٢٥، رغبة الآمل: ٧ ـ ١١٨.

(٢) رفع على راية الأمان مع أبي أيوب، فنادى: مَن جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومَن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن.

(٣) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٤) كان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت أجمل أهل زمانها.

فإن سَلِمتَ أرحت الناس من شرّ وأقمتَ مع أهلك، وإن أُصِبْتَ صِرْتَ إلى الجنة ونعيم لا يزول! فأنْعَمَ[١] لها، وخرج من عندها وهو يقول:

ولم أرَ مَهْرًا ساقَهُ ذو سماحةٍ — كَمَهْرِ قَطَام من فصيح وأعْجَم
ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينةٌ — وضربُ عليّ بالحُسَام المصمِّم[٢]
فلا مَهْرَ أغْلى مِنْ عليٍّ وَإن غَلَا — ولا فَتْك إلَّا دُونَ فتك ابنِ مُلْجَمِ

ثم أقام ابن مُلجَم؛ فلامته امرأته، وقالت: ألا تمضي لما قَصَدْتَ! لشدّ ما أحببْتَ أهلك! قال: إني قد وعدتُ صاحبيّ وقتًا بعينه.

ثم واطأ رجلًا من أشجع يقال له شَبيب بن بحيرة على ذلك.

فلما كانت ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن مُلْجَم وشبيبٌ الأشجعي فاعتَوَرَا[٣] البابَ الذي يدخل منه عليّ رضي الله عنه مغلّسًا[٤] ويوقظ الناس للصلاة؛ فخرج كما كان يفعل، فضربه شبيب فأخطأه، وأصاب سيفُه الباب، وضربه ابن مُلْجَم على صلْعَتِهِ وهو يقول: للهِ الحكم لا لك يا عليّ. فقال عليّ: قُزْتُ[٥] ورب الكعبة! شأنكم بالرجل!

وحمل ابن مُلْجَم على الناس بسيفه، فأفرجوا له، وتلقّاه المغيرةُ بن نَوْفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة، فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض ـ وكان المغيرة أَيْدًا[٦] ـ فقعد على صدره.

وأما شبيب فانتزع السيفَ منه رجل من حَضْرَمَوْت، وصرعه، وقعد على صدره؛ وكثر الناس، فجعلوا يصيحون: عليكم صاحبَ السيف؛ فخاف الحضرمي أن يُكِبُّوا عليه، ولا يسمعوا عذره؛ فرمى بالسيف، وانسلّ شبيب بين الناس.

فدُخلَ على عليّ رضي الله عنه، فأومر فيه فاختلف الناس في جوابه، فقال عليّ: إن أعِشْ فالأمرُ إليّ، وإن أُصَبْ فالأمر لكم، فإن آثرتُمْ أن تقتصوا فضربةٌ بِضَرْبة، وأن تعفوا أقرب للتقوى.

---

(١) أنعم لها: قال لها: نعم. (٢) المصمم من السيوف: الذي يمر في العظام.
(٣) اعتوروا الشيء: تداولوه فيما بينهم.
(٤) التغليس: السير بغلس، والغلس: ظلمة آخر الليل.
(٥) قار الشيء: قطعه من وسطه خرقًا مستديرًا. (٦) الأيد: القوى.

وأقام عليٌّ يومين؛ فسمع ابن ملجم الرَّنَّة من الدار، فقال له مَن حضره: أي عدوَّ اللهِ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين، فقال: أما والله لقد اشتريتُ سيفي بألف درهم، وما زلت أعرِضه فما يعيبه أحدٌ إلا أصْلحتُ ذلك العيب، ولقد سقيْتُهُ السُّمَّ حتى لفظه، ولقد ضربْتهُ ضربةً لو قُسِّمَتْ على مَنْ بالمشرق لأَتَتْ عليهم.

ومات عليٌّ رضي الله عنه، في اليوم الثالث.

فدعا به الحسنُ رضي الله عنه فقال ابن مُلجم: إنّ لي عندك سرًّا! فقال الحسن: أتدرون ما يريد مني؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعضّ أُذني فيقْطَعها!

فقال: أما والله لو أمكنتني منها لاقتلعتُها من أصلها! فقال الحسن: كلا والله لأضربنَّك ضربة تؤدي بك إلى النار! فقال: لو علمتُ أن هذا في يديك ما اتخذت إلـٰهًا غيرك! فقال عبد الله بن جعفر: يا أبا محمد؛ ادفعه إليَّ أشْفِ نفسي منه؛ فأحْمَى له مِيلين وكحله بهما فجعل يقول: إنك يا ابن أخي لتكْحِلُ عمك بملْمُولين[1] مضاضيْن[2]. ثم قتله.

وأما الحجاجُ بن عبد الله الصَّرِيميّ فإنه ضرب معاوية مُصَلِّيًا، فأصاب مَأْكَمَتَه[3]، وكان معاوية عظيمَ الأَوْرَاكِ فقطع منه عِرْقًا، فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة، فقال: إن السيف مسموم، فاخترْ إما أن أحميَ لك حديدة فأجعلها في الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك! فقال: أما النار فلا أطيقها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني، وحسبي بهما. فسقاه الدواء، فعُوفِي وعالج جرحه حتى التأم، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد.

فلما أُخِذَ قال: الأمان والبشارة؛ قُتِلَ عليّ في هذه الصبيحة، فاسْتُؤْنِيَ[4] به حتى جاء الخبر، فقطع معاوية يده ورجله؛ فأقام بالبصرة؛ فبلغ زيادًا أنه قد ولد له، فقال: أيولد له وأميرُ المؤمنين لا يولد له فقتله.

وأما زَاذَوَيه فإنه أرْصَدَ لعمرو، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرُجْ للصلاة وخرج خارجة[5]، فضربه زاذويه فقتله.

---

(١) الململول: المكحال.
(٢) مض الكحل العين: آلمها.
(٣) المأكمة: لحمة على رأس الورك.
(٤) استأنى: تأنى وتثبت.
(٥) هو خارجة بن خذافة أحد بني عامر بن لؤي.

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة، قال: أو ما قتلتُ عمرًا! قيل: لا؛ إنما قتلت خارجةَ. قال: أردتُ عمرًا. وأراد الله خارجة!

وأُوقِفَ الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره، فقصّ عليه القصّة، وأخبره أن عليًا ومعاوية قُتِلا في هذه الليلة، فقال: لا بد من قتلك؛ فبكى، فقيل له: أجزعًا من الموت مع هذا الإقدام! فقال: لا والله؛ ولكن غمًّا أن يفوزَ صاحبيّ بقتل علي ومعاوية، ولا أفوز أنا بقتلَ عمرو! فضرب عنقه وصُلِب.

بَين عَبد المَلك بن مروَان وعَمرُو بن سعيد[1]

لما أراد عبدُ الملك بن مروان الخروجَ إلى العراق لقتال مُصعب بن الزبير، وأخذ في جِهَازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، امرأته، في جواريها، وقد تزينتْ بالْحُلِيّ، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لو قعدتَ في ظلال مُلكك، ووجّهت إليه كلْبًا من كلابك لكفاك أمرَه، فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غزَوْا شَدُّوا مآزِرَهم ... دونَ النساء ولو بَاتَتْ بأطْهَارِ

فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي ربيعة؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزوَ لم يَثْنِ همَّهُ ... حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرّ يَزينُها
نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النَّهْيَ عاقَهُ ... بكتْ فبكَى مما دهَاها قَطينُها[2]

ثم خرج يُرِيد مُصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أَغْلَق عمرُو بن سعيد دمشق، وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع؟ أتريدُ العراق وتَدَعُ دمشق؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق. فرجع مكانه، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملًا ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل إليه عبد الملك: أن أَخْرِج للحرس أرزاقهم. فقال: إذا كان لك حرس فإن لنا حرسًا أيضًا، فقال عبد الملك: أَخْرِج للحرس أرزاقهم.

فلمّا كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصفَ النهار. أن ائتني أبا أُمَيَّة حتى أُدَبِّرَ معك أمورًا، فقالت امرأته: يا أبا أُميّة؛ لا تذهَبْ إليه،

---

(١) العقد الفريد: ٣ ـ ١٥٣، الأمالي: ١ ـ ١٤. (٢) القطين: الخدم.

فإنني أتخوَّفُ عليك منه، فقال: والله لو كنتُ نائمًا ما أيقظني! قالت: والله ما آمَنُه عليك، وإنّي لأجِدُ ريحَ دمٍ مَسْفُوح؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجَّها.

فخرج وخرج معه أربعةُ آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم، مسلَّحين، فأحدقوا بخَضْرَاء دمشق، وفيها عبدُ الملك، فقالوا: يا أبا أُمية؛ إن رَابك ريبٌ فأسْمِعْنَا صوتَك، ثم دخل، فجعلوا يصيحون: يا أبا أميّة؛ أسْمِعْنا صوتك ـ وكان معه غلام أَسْحَمُ[١] شجاع ـ فقال له: اذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس؛ فقال له عبد الملك: أمكرًا عند الموت أبا أميّة! خذوه، فأخذوه ثم قال له عبد الملك: إني أقسمتُ إن أمكنَتْنِي منك يد أن أجعل في عنقك جَامِعة[٢]، وهذه جامعة من فضة، أريدُ أن أَبَرَّ بها قسمي، وطَرَح رقبتَه في الجامعة، ثم نَتَرَهُ[٣] إلى الأرض بيده، فانكسرت ثَنِيَّتُه[٤]، فجعل عبد الملك ينظر إليه، فقال عمرو: ولا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر.

وجاء المؤذّنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين ـ لصلاة الظهر ـ فقال لعبد العزيز بن مروان: اقتُله حتى أرجعَ إليك من الصلاة، فلما أراد عبد العزيز أن يضربَ عنقه، قال له عمرو: نَشدتك[٥] الرَّحِم يا عبد العزيز ألّا تقتلني من بينهم، فجاء عبد الملك، فرآه جالسًا. فقال: ما لك لم تقتله؟ لعنك الله، ولعن أمًّا ولدتك! ثم قال: قدّموه إليّ، فأخذ الحرْبَة بيده فقال: فعلتها يا ابنَ الزرقاء، فقال له عبد الملك: إنّي لو علمت أنك تبقى ويصلحُ لي ملكي لفديتُك بدم الناظر، ولكن قلما اجتمع فحلان في ذَوْد[٦] إلا عَدَا أحدُهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقَعَدَ يَرْعَد، ثم أمر به فأُدْرِج في بساط وأُدخل تحت السرير.

وأرسل إليه قَبيصة[٧] بن ذؤيب الخُزاعيّ فدخل عليه، فقال: كيف رأيُك في عمرو بن سعيد الأشدق، فقال ـ وقد أبصر قبيصةُ رِجْلَ عمرو تحت السرير: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، واطرح رأسَه، وانثُر على النّاس الدنانير يتشاغلون بها، ففعل، وافترق الناس.

---

(١) الأسحم: الأسود. (٢) الجامعة: الغل.
(٣) النتر: الجذب بجفاء.
(٤) الثنية من الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.
(٥) نشدتك: سألتك. (٦) الذود من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر.
(٧) صحابي من الفقهاء الوجوه، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام، وتوفي بدمشق=

الأخطَل يفرُق مِن الجحّاف[١]

كان الجحّافُ بن حكيم السُّلَميّ[٢] من فُتّاك العرب، وكان من خبر ابن عمّه عُمير بن الحُباب السُّلَميّ أنه نهض في الفِتْنَة التي كانت بالشام بين قيس وكلْب بسبب الزُّبيرية والمرْوانيّة، فلقى في بعض تلك المُغَاوَرات[٣] خيلًا لبني تَغْلب؛ فقتلوه؛ فلما اجتمع الناس على عبد الملك بن مَرْوان، ووضَعتْ تلك الحرب أوزارَها دخل الجحَّاف على عبد الملك والأخطلُ عنده، فالتفت إليه الأخطل فقال:

أَلَا سائل الجحّاف هل هو ثائرٌ لِقَتْلَى أُصِيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ!

فقال الجحَّاف مجيبًا له:

بلى، سوفَ أبكِيهمْ بكلّ مُهَنَّدٍ وأبكى عميرًا بالرِّماح الخوَاطِرِ[٤]

ثم قال: يا ابنَ النصرانيّة؛ ما ظننتُك تجترىء عليّ بمثل هذا ولو كنتُ مأسورًا! فحُمَّ الأخطل فَرقًا[٥] من الجَحّاف، فقال عبد الملك: لا تُرَع، فإنّي جَارُك منه. فقال الأخطل: يا أمير المؤمنين؛ هَبْكَ تُجيرني منه في اليقظة، فكيف تجيرني في النوم!

ثم نهض الجحَّاف من عند عبد الملك يسحبُ كِسَاءه، فقال عبد الملك: إن في قفاه لَغَدْرَة، ومرّ الجحَّافُ لِطِّيته[٦]، وجمع قومه وأتى الرّصَافَة، ثم سار إلى بني تَغْلِب فصادف في طريقه أربعمائة منهم فقتلهم، ومضى إلى البِشْر[٧] فصادف عليه جَمْعًا من تغلب، فقتل منهم خمسمَائة رجل، وتعدَّى الرجال إلى قَتْل النساء والوِلْدَان[٨]، فنادتْه عجوز منهم، وقالت: يا جَحَّاف؛ أتقتل النساء! فانخذل ورجع.

= سنة ٥٠٦.

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٤، معجم البلدان: ٢ ـ ١٨٦.

(٢) فاتك، ثائر، شاعر كان معاصرًا لعبد الملك بن مروان، توفي نحو سنة ٩٠ هـ.

(٣) غاورهم: أغار عليهم وأغاروا عليه، والمغاورة مفاعلة.

(٤) المهند: السيف. خطر الرمح: احتز. (٥) فرقًا: خوفًا.

(٦) يقال: مضى لطيته، أي لوجهه الذي يريده، ولنيته التي انتواها.

(٧) البشر. ماء لبني تغلب.

(٨) الوليد: المولود، والصبي والعبد؛ جمعه الولائد والولدان.

فبلغ الخبرُ الأخطل، فدخل على عبد الملك، وقال:

لقد أوقع الجحّاف بالبِشر وقعَةً إلى الله منها المُشتَكى والمعَوَّلُ

فأهدر[١] عبد الملك دعم الجحّاف. فهرب إلى الروم، فكان بها سبع سنين، ومات عبد الملك، وقام الوليد بن عبد الملك، فاستُؤمن للجحّاف، فأمّنه، فرجع.

قَد أخَرتُ الإذن عَلَيهِ لِتَقتلُوه فَلَم تَفعَلُوا[٢]

قال عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيّات[٣]: خرجتُ مع مُصْعَب بن الزبير حين بلغه شُخُوص عبدِ الملك بنِ مروان إليه. فلما نزل مُصْعَب بمَسْكِن[٤]، ورأى معالـمَ الغَدْرِ ممن معه، دعاني ودعا بمالٍ ومَنَاطِقَ[٥]، فملأ المناطقَ من ذلك المال وَألْبَسني منها، وقال لي: انطلق حيث شئت فإني مقتول؛ فقلت له: والله لا أرِيم[٦] حتى أرى سبيلَك، فأقمتُ معه حتى قُتل.

ثم مضيتُ إلى الكوفة، فأول بيت صرتُ إليه دخلتُه، فإذا فيه امرأةٌ لها ظَبْيَتان، فرَقِيتُ في درجةٍ لها إلى مَشْربَة[٧]، فقعدت فيها، فأمرتْ لي المرأة بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفَرْشِ والماء للوُضوء، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حَوْل، تُقيمُ لي ما يصلحني، وتغدو عليّ في كل صباح فتسألني بالصباح والحاجة[٨]، ولا تسألني من أنا، ولا أسألها من هي! وأنا في ذلك أسمعُ الصياح فيّ والجُعْل.

فلمّا طال بي المقام، وفقدتُ الصّياحَ فيّ، وغَرِضْتُ[٩] بمكاني غَدَتْ عليّ تسألني بالصباح والحاجة، فعرَّفتها أني قد غرِضتُ وأحببت الشخُوص إلى أهلي؛ فقالت لي: نَأتيك بما تحتاجُ إليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) أهدر دمه: أبطله؛ أي أباح قتله.
(٢) الأغاني: ٥ ـ ٧٦.
(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات: شاعر قريش في الإسلام، ولقب الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعًا رقية.
(٤) مسكن: موضع على نهر دجيل (شعب من دجلة) بالكوفة، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان، ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ هـ وبه قتل مصعب.
(٥) المنطقة: ما يشد على الوسط.
(٦) لا أبرح.
(٧) المشربة: الغرفة والعلية.
(٨) أي تقول: كيف أصبحت؟
(٩) غرضت: مللت.

فلمّا أمسيتُ، وضرب الليل برواقِه رَقِيَتْ إليّ وقالتْ: إذا شئت، فنزلت وقد أعَدّتْ راحلتين عليهما ما أحتاجُ إليه، ومعهما عبد، وأعطت العبد نفقةَ الطريق، وقالت: العَبْدُ والراحلتان لك.

فركبت وركب العبد معي حتى طرقتُ أهل مكة، فدققت منزلي؛ فقالوا لي: منْ هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيّات، فوَلْوَلُوا وبَكَوْا، وقالوا: ما فارقَنَا طلبُك إلا في هذا الوقت؛ فأقمت عندهم حتى أَسْحَرْتُ[1].

ثم نهضتُ ومعي العبد حتى قَدِمْتُ المدينة، فجئتُ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عند المساء، وهو يُعَشّي أصحابه، فجلستُ معهم، وجعلت أتعاجم وأقول: ياريار[2] بن طيّار[3]! فلما خرج أصحابُه كشفتُ له عن وجهي، فقال: ابن قيس؟ فقلت: ابن قيس، جئتُك عائذًا بك؛ قال: ويحك! ما أجدَّهم في طلبك! وأَحْرَصهم على الظَّفَر بك! ولكني سأكتبُ إلى أم البنين بنتِ عبد العزيز بن مروان فهي زوجةُ الوليد بن عبد الملك، وعبد الملك أرقُّ شيء عليها. فكتب إليها يسألها أن تشفعَ له إلى عمها، وكتبَ إلى أبيها يسأله أن يكتبَ إليها كتابًا يسألها الشفاعة.

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعلُ وسألها: هل من حاجة؟ فقالت: نعم لي حاجة؛ فقال: قد قضيتُ كلّ حاجة لك إلا ابن قيس الرقيّات؛ فقالت: لا تَسْتَثْنِ عليّ شيئًا! فَنَفح[4] بيده، فأصاب خدّها، فوضعتْ يدها على خدّها؛ فقال لها: يَا ابْنَتي؛ ارفعي يدك، قد قضيتُ كلّ حاجة لك، وإن كانت ابنَ قيس الرقيّات؛ فقالت: إن حاجتي ابنُ قيس الرقيات تؤمّنه، فقد كتب إليّ أبي يسألني أنْ أسألك ذلك؛ قال: فهو آمِن فَمُريه يحضر مجلسي العشية.

فحضر ابنُ قيس وحضر الناسُ حين بلغهم مجلسُ عبد الملك، فأخّر الإذْنَ، ثم أذِن للناس، وأخّرَ إذنَ ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم، ثم أَذِنَ له؛ فلما دخل عليه قال عبد الملك: يَا أهلَ الشام؛ أتعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ فقال:

---

(١) أسحر: دخل في وقت السحر.

(٢) ربار: كلمة فارسية، ومعناها: الصاحب والشفيق والمعين.

(٣) الطيار: لقب جعفر بن أبي طالب، والد عبد الله هذا.

(٤) نفح بيده: ضرب بها ضربة خفيفة.

هذا عبيد الله بن قيس الرقيّات الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولمّا تشمل الشامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهِلُ الشيخ عن بنيه وتُبْدِي عن خِدَام العقيلة العذراءُ[١]

فقالوا: يا أمير المؤمنين، اسْقِنا دمَ هذا المنافق! قال: الآن وقد أمَّنتُه وصار في منزلي وعلى بِسَاطي! قد أخَّرْت الإذن له لتَقْتلوه فلم تفعلوا. فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأَذِنَ له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

عادَله من كَثيرَةَ[٢] الطَّرَبُ[٣] فعينه بالدموع تَنْسكِبُ
كوفيَّةٌ نازحٌ مَحَلَّتُهَا لا أَمَمٌ[٤] دارها ولا صَقَبُ[٥]
والله ما إن صَبَتْ إليّ ولا يُعْرَفُ بيني وبينها سبَبُ
إلا الذي أوْرَثَتْ كَثِيرَةُ في القـ ـلب، وللحبِّ سَوْرَةٌ[٦] عَجَبُ

حتى قال فيها:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو الـ ـعاصي عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتدِل التاجُ فوق مَفْرِقِه على جبينٍ كأنه الذهبُ[٧]

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس؛ تمدحني بالتّاج كأني من العجم، وتقول في مُصعب:

إنما مُصْعَبٌ شِهَابٌ من اللّـ ـه تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ ليسَ فيه جَبَرُوتٌ منه ولا كبرياءُ

أمّا الأمان فقد سبق لك؛ ولكن لا تأخذْ مع المسلمين عطاءً أبدًا.

---

(١) الخدام: جمع خدمة (بالتحريك) وهي الخلخال: قال في اللسان: أراد وتبدى عن خدام العقيلة، وخدام هنا في نية عن خدامها، وعدى تبدى بعن لأن فيه معنى تكشف.
(٢) كثيرة هي التي تزل بدارها عبد الله بن قيس فآوته وأصبح بعد ذلك يذكرها كثيرًا في شعره.
(٣) الطرب هنا: الحزن.
(٤) لا أمم دارها: ليست قريبة.
(٥) الصقب: الملاصقة.
(٦) السورة: شدة الأمر.
(٧) وفي هذه القصيدة:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

فذهب ابنُ قيس إلى عبد الله بن جعفر، وقال له: ما نفعني أماني، تُرِكت حيًّا كميّتٍ، لا آخذ مع الناس عطاءً أبدًا!

فقال له عبد الله: كم بلغتَ من السن؟ قال: ستين سنة. قال: فعمِّرْ[١] نفسك، قال: عشرين سنة من ذي قَبَل[٢]، فذلك ثمانون سنة، قال: كم عطاؤك؟ قال: ألفا درهم، فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك عليَّ إلى أن تموتَ على تعميرِك نَفْسك، فعند ذلك قال عُبَيْد الله بن قيس الرقيّات يمدح عبد الله بن جعفر:

تَقَدَّتْ بي الشهباءُ نحو ابن جعفرٍ[٣] ... سواء عليها ليلُها ونهارُها
تَزُور امرأً قد يعلم اللهُ أنه ... تجودُ له كفٌّ قليلٌ غِرَارُها[٤]
أتيناك نُثْنِي بالذي أنت أهلُهُ ... عليك كما يُثْنِي على الرَّوْض جارُها
فواللهِ لولا أن تزورَ ابنَ جعفر ... لكان قليلًا في دِمَشقَ قَرَارُهَا
إذا مُتَّ لم يوصَلْ صديق ولم تُقَمْ ... طريقٌ من المعروف أنتَ مَنَارُها
ذكرتك إن فاضَ الفراتُ بأرضنا ... وفاض بأعلى الرَّقَّتَيْنِ[٥] بحارُها

آبِي الضَّيْم[٦]

قال المفضل الضبّي:

كان إبراهيمُ بن عبد الله بن الحسن[٧] متواريًا عندي بالبصرة، وكنت أخرج وأتركه، فقال لي: إذا خرجتَ ضاق صدري، فأخْرِج إليّ شيئًا من كتبك أتفرّجُ به، فأخرجتُ له كتبًا من الشعر، فاختار منها القصائد التي صدّرتُ بها كتاب المفضليات، ثم أتممتُ عليها باقي الكتاب.

---

(١) عمر نفسه: قدر لها قدرًا محدودًا.
(٢) يقال: أفعل ذلك من ذي قبل: أي أفعله في المستقبل.
(٣) تقدت: أي سارت سيرًا ليس بعجل ولا مبطىء، ولزمت سنن الطريق.
(٤) قليل غرارها: أي أن منعها المعروف قليل، وأصل الغرار أن تمنع الناقة درتها، ثم يستعار في كل ما أشبه ذلك، أو الغرار: المثال.
(٥) الرقتان: يراد بهما الرقة والرائقة، وهما مدينتان، والتثنية من باب التغليب.
(٦) ابن أبي الحديد: ١ ـ ٣٢٤، الأغاني: ١٠ ـ ٥.
(٧) أحد الأشراف الشجعان، خرج بالبصرة على المنصور العباسي، وكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتل سنة ١٤٥ هـ.

فلما خرج خرجتُ معه، فلما صار بالمِرْبد، مربدِ سليمان بن عليّ، وقف عليهم، واستسقى ماء، فأُتِيَ به، فشرب، فأُخْرج إليه صبيان من صبيانهم، فضمَّهم إليه، وقال: هؤلاء والله منا ونحن منهم لحمنا ودمنا، ولكن آباءهم انتزَوْا[١] على أمرنا، وابتزُّوا حُقوقنا، وسفكوا دماءنا، ثم تمثّل:

مهلًا بني عمِّنا ظلامتنا ... إن بنا سورةً[٢] من الغلق[٣]
لمثلكم[٤] نحمل السيوف ولا ... نغمز أحسابنا من الرَّقَق[٥]
إني لأُنْمَى[٦] إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عزيزٍ ومعشر صُدق
بيض سِبَاطٍ[٧] كأنَّ أعينهمْ ... تكحل يوم الهياج بالعَلق[٨]

فقلت له: ما أجود هذه الأبيات وأفحلَها! فلمنْ هي؟ فقال: هذه يقولها ضِرار بن الخطاب الفهريّ يوم عَبَر الخَنْدق على رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله، وتمثَّل بها عليّ بن أبي طالب يوم صفِّين، والحسين يوم الطَّفّ[٩]، وزيد بن عليّ يوم السَّبَخَة[١٠]، ويحيىٰ بن زيد يوم الجُوزجان[١١]، فتطيّرتُ له مِنْ تمثّله بأبيات لم يتمثّل بها أحدٌ إلا قُتل.

ثم سرنا إلى بَاخْمَرَا[١٢]، فلمّا قرب منها أتاه نَعْيُ أخيه محمد، فتغيّر لونه، وجرِض[١٣] بريقه، ثم أجهش باكيًا، وقال: اللهم إن كنتَ تعلم أنَّ محمدًا خرج يطلبُ مَرْضاتك، ويُؤْثِر أن تكون كلمتُك العليا، وأمرُك المتَّبَع المطاع، فاغفر له، وارحمه وارضَ عنه، واجعلْ ما نقتله إليه من الآخرة خيرًا مما نقلته عنه من الدنيا، ثم انفجر باكيًا، ثم تمثلّ:

أنا المُنَازِل يا خيرَ الفوارسِ مَن ... يُفْجَعْ بمثلك في الدنيا فقد فُجعا

---

(١) انتزى إلى الشر: توثب. (٢) السورة: الوثوب.
(٣) الغلق: الضجر.
(٤) المراد: أننا نحمل لكم السيوف، لأنكم أكفاؤنا.
(٥) الرقق: الضعف. (٦) أُنسب.
(٧) السباط: جمع سبط، وهو حسن القد والاستواء.
(٨) العلق: الدم، يريد أن عيونهم حمر لشدة الغيظ والغضب، فكأنها كحلت بالدم.
(٩) الطف: ضاحية الكوفة، وبها قتل الحسن. (١٠) السبخة: موضع بالبصرة.
(١١) جوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وبها قتل يحيىٰ بن زيد.
(١٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط. (١٣) جرض بريقه: ابتلعه بالجهد على مضض.

اللهُ يعلمُ أنّي لو خشيتهمُ ... أو آنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا
لم يقتلوك ولم أُسْلِم أَخِي لهمُ ... حتى نعيشَ جميعًا أو نموتَ معًا

قال المفضّل: فجعلت أُعَزِّيه وأعاتبُه على ما ظهر من جَزعه، فقال: إني والله في هذا كما قال دُرَيْد بن الصِّمة:

تقول: أَلَا تبكي أخاك وقد أرى ... مكان البُكا، لكن بُنيتُ[1] على الصبرِ
لمقتل عبد اللهِ والهالك الذي ... على الشّرف الأعلى قتيلِ[2] أبي بكر
وعبدِ يغوث[3] أو خَليليَ خالدٍ[4] ... وجَلَّ مصابًا حَثْوُ قبرٍ على قبرِ!
فإمَّا تَرَيْنَا لا تزالُ دماؤُنا ... لدَى واترٍ يَشْقَى بها آخرَ الدهر
فإنَّا للَحْمُ السيف غيرَ نَكِيرةٍ[5] ... ونُلْحِمُه[6] طورًا وليس بذي نكرِ
يُغَارُ علينا واترين فيُشْتَفَى ... بنا إن أُصِبْنَا، أو نُغير على وتْرِ
بذاك قَسَمْنَا الدهر شَطْرين قِسْمةً ... فما ينقضي إلا ونحنُ على شطر

قال المفضّل: ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثلُ الجراد، فتمثّل إبراهيم:

إن يقتلوني[7] لا تُصِب أرْماحُهم ... ثأري ويسعى القوم سَعْيًا جاهدا
نبِّئتُ أن بني جَذِيمة أجمعتْ ... أمرًا تُدبِّره لتَقْتُلَ خالدا
أرْمِي[8] الطريقَ وإن رُصِدت بِضيقِه ... وأنازلُ البطل الكَمِيَّ الحارِدَا[9]

قلت له: مَن يقول هذا الشعر يا ابن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كِلاب يوم شِعْب جَبَلَة.

---

(١) بنيت: خلقت.
(٢) قتيل أبي بكر هو أخوه قيس، قتله بنو أبي بكر بن كلاب يرأسهم عمرو بن سفيان الكلابي.
(٣) أخوه أيضًا قتله بنو مرة. (٤) خالد أخوه أيضًا قتله بنو الحارث بن كعب.
(٥) التنكر: التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها، والاسم النكيرة.
(٦) ألحمته سيفي: قتلته، وأصل ألحمه: أطعمه اللحم.
(٧) المعنى: أنهم إن قتلوني، ثم حاولوا أن يصيبوا رجلًا آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيرًا وسعوا في ذلك سعيًا جاهدًا، فإنهم لن يجدوا.
(٨) يقول: أسلك الطريق الضيق، ولو جعل لي فيه الرصد لقتلي.
(٩) الحارد: المنفرد في شجاعته، الذي لا مثل له.

ثم أقبلت عساكر أبي جعفر المنصور، فطعن رجلًا وطعنه آخر، فقلت له: أتباشر القتال بنفسك! وإنما العسكر منوط بك، فقال: إليك يا أخا بني ضبّة، فإني لكما قال عويف القوافي:

ألـمّـت سـعـاد، وإلـمـامُـهـا أحـاديـثُ نـفـسٍ وأحـلامُـهـا
مـحـجّـبـةٌ مـن بـنـي مـالـكٍ تَـطَـاول فـي الـمـجـد أعلَامُـهـا
وإنّ لـنـا أصـلَ جُـرثـومـةٍ تـردّ الـحـوادثَ أيـامُـهـا
تـردّ الـكـتـيـبـةَ مَـفْـلولـةً بـهـا أفْـنُـهـا وبـهـا ذامُـهـا[1]

والتحمت الحرب واشتدّت، فقال يا مفضّل: احكِني بشيء، فذكرت أبياتًا لعُوَيف القوافي لما كان ذَكَرُه هو من شعره فأنشدته:

ألا أيُّـها الـنّـاهي فَزارةَ بـعـدَمـا أجدّت لسَيْرٍ، إنّما أنت ظالـمُ
أبَى كـلُّ حـرٌّ أن يـبـيـت بِـوِتْـره وتـمـنـعَ منه النـومَ إذ أنت نـائـمُ
أقـول لـفـتـيـان كـرام تـروّحـوا على الجُرْدِ في أفواههن الشكائمُ:
قِفوا وقفةً، مَنْ يَحْيَ لاَ يُخْزَ بعدها ومَـن يُـخْـتَـرَمْ لا تـتَّـبْـعه الـلوائـمُ
وهل أنت إنْ باعدتَ نفسك عنهمُ لتسلَم فيما بعد ذلك، سالـمُ!

فقال: أعد وتبيّنْتُ من وجهه أنه يستقتل، فانتهيت وقلت: أو غير ذلك! فقال: لا، بل أَعِد الأبيات، فأعدتها، فتمطّى في ركابَيْه فقطعهما، وحمل فغاب عني، وأتاه سَهْمٌ عائرٌ[2] فقتله، وكان آخر عهدي به.

مَصرَع الوَليد بن طَرِيف[3]

كان الوليدُ بن طَريف الشيبانيّ[4] رأسَ الخوارج وأشدَّهم بأسًا وصَوْلة، واشتَدَّتْ شوْكتُه، وطالت أيامُه، فوجَّه إليه الرشيد يزيدَ بنَ مزيد الشيبانيّ[5]، فجعل يخاتِله ويماكره ـ وكانت البرامكة منحرفةً عن يزيد ـ فأَغْرَوْا به أميرَ المؤمنين، وقالوا: إنما يتجافى عنه للرَّحِم، وإلا فَشَوْكَة الوليد يَسيرة.

---

(١) الأفن: النقص، والذام: العيب. (٢) العائر من السهام: ما لا يعرف راميه.
(٣) الأغاني ١١ ـ ٩، معاهد التنصيص: ٢:٥١.
(٤) ثائر من الأبطال، خرج في خلافة الرشيد، فأرسل إليه الرشيد جيشًا قائده يزيد بن مزيد الشيباني فقتله بعد معركة شديدة سنة ١٧٩ هـ.
(٥) أمير من القادة الشجعان، توفي سنة ١٨٥ هـ.

فوجّه إليه الرشيد كتابَ مُغْضَب يقول فيه: ولو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تَقُوم به، ولكنك مُدَاهِن مُتَعَصِّب؛ وأميرُ المؤمنين يُقسمُ بالله لئن أخرتَ مناجزة الوليد لَيُوَجِّهَنَّ مَن يَحْمِلُ رأسَك إلى أمير المؤمنين...

فلقيَ الوليدَ عشيّة خميس في شهر رمضان، وقال لأصحابه، فِدَاكم أبي وأمي! إنما هي الخوارج ولهم حَمْلَة، فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا، فكان كما قال: حملوا حَملَة وثبت يزيد ومَن معه من عشيرته وأصحابه؛ ثم حمل عليهم فانكشفوا واتبع يزيد الوليد بن طَرِيف فلحقه بعد مسافة وألْفَاه يقول:

أنا الوليدُ بن طَرِيف الشاري[1] قَسْوَرَة[2] لا يُصْطَلى بناري

جَوْركم أخْرَجَني من داري

فأخذ يزيد رأسَه. ولما سمعتْ بهذا أختُه ليلى بنت طَرِيف صبَّحتهم مستعدة عليها الدِّرعْ والجَوْشن[3]، فجعلت تحمل على الناس فَعُرفت، فقال يزيد: دَعُوها، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قَطَاة[4] فرسها، ثم قال: اغرُبي[5] أغْرَبَ الله عينيك، فقد فَضَحْتِ العشيرة، فاستَحْيَتْ وانصرفتْ وهي تقول:

بِتَلّ نُباتَي[6] رسمُ قبرٍ كأنّه على عَلَم فوق الجبال مُنِيفِ

تضمَّن جوادًا حاتميًّا ونائلًا وسَوْرةَ مِقْدام وقلبَ حصيفِ

فإنْ يَكُ أرْدَاه يزيدُ بنُ مَزْيدٍ فيَا رُبَّ خَيلٍ فَضَّها وصُفُوفِ!

أَلَا يا لَقومي للنّوائب والرَّدى ودَهْرٍ مُلِحٍّ بالكرام عَنِيفِ!

وللبدر من بين الكواكب إذْ هَوى ولِلشَّمس همَّت بعده بكسوفِ

ولِلَّيْثِ كلّ الليث إذ يحملونه إلى حُفْرَة مَلْحودة وسَقِيفِ[7]

أيا شجَرَ الخَابُورِ[8] ما لَكَ مُورِقًا كأنك لم تجزَعْ على ابنِ طَرِيفِ!

فتًى لا يحبُّ الزادَ إلا من التُّقَى ولا المال إلا من قَنًا وسيوفِ

(١) الشاري: الخارجي، وهم الشراة. (٢) القسورة: العزيز يقتسر غيره، أي يقهره.
(٣) الجوشن: الحديد الذي يلبس من السلاح، وقيل: زرد يلبسه الصدر.
(٤) القطاة: العجز.
(٥) يقال: أغرب عني أي تباعد، ويقال: غربت العين إذا ورم مأقها.
(٦) نباتي كسكارى: موضع بالبصرة. (٧) السقيف: السقف.
(٨) نبت، ونهر، وواد.

فلا تجزَعا يا بني طَرِيفٍ فإنّني أرى الموت نزّلًا بكلّ شريفِ
فقدناك فِقدَان الربيع وليْتَنا فَدَيْنَاك من دَهْمَائِنا بألُوف

ولما انصرف يزيد بالظَّفر حُجِب برأي البرامكة، وأظهر الرشيد السخْطَ عليه؛ فقال: وحقّ أمير المؤمنين لأصيِّفنّ وأشْتُوَنّ على فرسي أو أدخل.

فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد، فأذن له، فدخل؛ فلما رآه أميرُ المؤمنين ضحك وسُرَّ، وأخذ يصيح: مَرْحبًا بالأعرابي حتى دخل وأجلسه وأكرمه، وعرف بلاءه ونقاء صَدْره[١].

كِلَاب بن أميّة وَأبَوَاه[٢]

حدَّث عُرْوَة بن الزبير قال: هاجر كلابُ بنُ أميّة بن الأسكر إلى المدينة في خلافةِ عمر بن الخطاب، فأقام بها مدة، ثم لَقِيَ ذات يوم طلحةَ بن عبد الله والزبير بن العوّام، فسألهما: أيّ الأعمال أفضلُ في الإسلام؟ فقالا: الجهاد. فسأل عمر فأَغْزَاه في جيش، وكان أبوه قد كبر وضعف، وخرج معه أخٌ له آخر؛ فانْبَعَث أمية يقول:

يا أمَّ هيثَمَ؛ ماذا قلتِ أبلاني رَيْبُ المَنُون وهَذَانِ الجَدِيدَانِ[٣]
إمّا تَرَى حَجَري قَدْ رَكَّ[٤] جانبهُ فقد يسرُّك صُلْبًا غيرَ كذَّانِ[٥]
إمَا ترينِيَ لا أَمْضِي إلى سَفرٍ إلّا معي واحدٌ منكمْ أو اثْنان
يا بْنَيْ أُميةَ، إني عنكما غَانِي وما الغِنَى غير أنّي مُرْعَشٌ فانِي

---

(١) ولما عفا عنه الرشيد مدحه الشعراء، فكان ممن مدحه مسلم بن الوليد، ومن أحسن ما ورد في شعره قوله:

يفتر عند افترار الحرب مبتسمًا إذا تغيّر وجه الفارس البطل
موف على مهج، في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
يقرى المنية أرواح العداة كما يقري الضيوف شجوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رؤوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه مسالك الموت في الأبدان والقلل

(٢) المحاسن والمساوىء: ٥٨٨، (طبع ليبزج)، ذيل الأمالي: ١٠٨.

(٣) الجديدان: الليل والنهار.

(٤) رك: ضعف.

(٥) الكذان: الرخو.

يا بُنَيْ أميةَ، إلّا تَشهَدَا كبَرِي ... فإنّ نَأيَكُما والثُّكل مِثلَانِ

إذ يَحْمِلُ الفرسُ الأحْوَى[1] ثلاثَتَنا ... وإذْ فِرَاقُكُما والموتُ سِيّانِ

أصبحتُ هُزءًا لِرَاعي الضَّأنِ أُعجِبُهُ ... ماذا يَرِيبُكَ مِنّي رَاعِيَ الضَّأن!

انْعَقْ بضأنك في نَجْمٍ[2] تُحَفِّرُه ... من الأبَاطح واحْبِسْها بِجُمْدَان[3]

إنْ تَرْعَ ضَأْنًا فإنّي قد رعَيْتُهم ... بِيضَ الوُجوه بَني عمي وإخْوَاني

فلما طالت غيبةُ كلاب عنه قال:

لمنْ شَيْخَانِ قد نَشَدَا كِلَابا[4] ... كتابَ الله إنْ رقَبَ الْكِتابا

تُنَفِّضُ مَهْدَه شفَقًا عليه ... ونَجْنُبُهُ أبَاعِرنا[5] الصِّعابا

إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وادٍ ... على بَيْضاتها دَعَوَا كلابا

تركْتَ أباكَ مُرْعَشَةً يداه ... وأمَّكَ ما تُسِيغ لها شرابا

أُناديه وولّانِي قَفَاهُ ... فلا وأبي كلابٌ ما أصَابَا

فإن مُهَاجِرَيْنِ تكنَّفَاهُ ... ليترُكَ شَيْخَهُ؛ خطِئًا وخَابَا

وإنَّ أباك حين تركتَ شيخٌ ... يُطَارِدُ أيْنُقًا شُسُبًا[6] طِرابا

إذا بلغ الرَّسيم[7] فكان شدًّا[8] ... يَخِرُّ؛ فخالط الذَّقَنُ التُّرَابا

فبلغت أبياته عمر، ولم يَرُدّ كِلَابا، فاهتز أمية واخْتَلَطَ[9] جَزَعًا عليه، وتغنّت الرُّكْبَان بشعر أبيه فبلغه، فأنشأ يقول:

لعمركَ ما تركتُ أبا كلابٍ ... كبيرَ السنِّ مُكْتَئِبًا مُصَابَا

وأمَّا لا يزالُ لها حنينٌ ... تنادِي بعد رَقدَتِها كِلَابَا

لِكَسْبِ المال أو طلبِ المعَالي ... ولكنّي رجوتُ به الثوابَا

---

(١) الأحوى: الأسود.

(٢) النجم: ما نجم من النبات على غير ساق.

(٣) جمدان: جبل بطريق مكة، وواد.

(٤) نشدا: طلبا.

(٥) الأباعر: جمع بعير.

(٦) الشسب: جمع شاسب وهو النحيف اليابس.

(٧) الرسيم: سير للإبل.

(٨) الشد هنا: العدو.

(٩) اختلط: فسد عقله.

ثم أتاه يومًا وهو في مسجد الرسول، وحولَه المهاجرون والأنصار، فوقف عليه ثم أنشأ يقول:

أعاذلُ قد عذلْتِ بغير عِلْمٍ ... ولا تَدْرِين عَاذِلُ ما أُلاقِي

فإمَّا كنتِ عاذلتي فرُدّي ... كلابًا إذ توجَّه للعراقِ

ولم أقض اللُّبانة من كلابٍ ... غداة غدٍ وآذن بالفراق

فتَى الفتيان في عُسْرٍ ويسرٍ ... شدِيد الركْن في يوم التَّلاقي

فلا والله ما باليت وَجْدِي ... ولا شَفقي عليك ولا اشتياقي

سأسْتَعْدِي على الفاروق رَبًّا ... له حجّ الحجيج على اتِّسَاقِ

وأدعُو الله مجتهدًا عليه ... ببطن الأخْشَبين[1] إلى دُفاق[2]

فلما أنشدها عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقّاص: أن رحّل كلابًا، فرحّله.

فلما قدم دخل إليه فقال: ما بلغ من بِرّك بأبيك؟ قال: كنتُ أبرّه وأكْفيه أمرَه، وكنت أعتمد ـ إذا أردت أن أحلب لبنًا ـ أَغْزَرَ ناقة في إبله وأسمنَها فأسقيه لبنها.

فبعث عمر إلى أميّةَ مَنْ جاء به إليه. فأدخله يتهادى، وقد ضَعُف بصره وانحنى. فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما تراني يا أمير المؤمنين؛ قال: فهل لك من حاجة؟ قال: نعم، أشتهي أن أرى كلابًا، فأشمه شمَّةً، وأضمه ضَمَّة قبل أن أموت. فبكى عمر ثم قال: ستبلغ من هذا ما تحبُّ إن شاء الله تعالى.

ثم أمر كلابًا أن يحتلبَ لأبيه ناقة كما كان يفعل، ويبعث إليه بلبنها. ففعل، فناوله عمرُ وقال: دونك هذا يا أبا كلاب. فلما أخذه وأدناه إلى فمه، قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، إني لأشَم رائحةَ كلاب من هذا الإناء. فبكى عمر وقال: هذا كلابٌ عندكَ حاضرًا قد جئناك به. فوثب إلى ابنه وضمَّه إليه وقبَّله.

وجعل عمر يبكي ومَنْ حضره، وقال لكلاب: الزم أبويك فجاهِدْ فيهما ما بَقِيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما؛ وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

---

(١) الأخشبان: جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر، وجبلا منى.

(٢) دفاق: موضع أو واد.

ثم قُتل كلاب مع عليّ بن أبي طالب بصِفِّين، وعاش أبوه أُميَّة دهرًا طويلًا، حتى خَرِف، فمرّ به غلام له كان يرعى غنمه، وأميَّةُ جالس يَحْثُو على رأسه التراب؛ فوقف ينظر إليه، فلما أفاق بصر الغلام، فقال:

أصبحتُ لهوًا لراعي الضَّأنِ أُعْجِبُهُ ... ماذا يَرِيبكَ مني رَاعيَ الضَّـانِ!

انْعقْ بضأنِك إني قد فقدتُهُـمُ ... بيضَ الوُجوهِ بني عمِّي وأخْواني

في يَوْم اليَرمُـوك[١]

شهد اليرموك ألفُ رجل من أصحاب رسول الله فيهم نحو مائة من أهل بَدْر، وكان أبو سفيان يسير فيقفُ على الكَرَادِيس[٢] فيقول: اللهَ اللهَ؛ إنكم ذَادَةُ[٣] العرب وأنصارُ الإسلام، وإنهم ذَادَةُ الروم وأنصار الشرك؛ اللهم إنَّ هذا يومٌ من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

وأمر خالد عِكْرِمَة[٤] والقَعْقَاع[٥]، فأَنْشَبَا القتال، وارتجز القعقاعُ وقال:

يـا لـيـتـنـي أَلـقـاكَ فـي الـطِّـرَاد ... قبل اعْتِرَام[٦] الجَحْفَلِ الورَّادِ

وأنـتَ فـي حَـلْبَـتِـكَ الـورادِ[٧]

وقال عكرمة:

قد علمتْ بهْكَنَةُ[٨] الجوارِي ... أنِّـي عـلى مَـكْـرُمَـةٍ أُحـامِـي

فَنَشِبَ القتال، والْتَحَمَ الناس، وتطارد الفرسان؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن إمداد؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله، وتأمير أبي عبيدة.

---

(١) الطبري: ٤ ـ ٣٤. (٢) الكردوسة: القطعة العظيمة من الخيل.

(٣) ذادة: جمع ذائد، وهو المدافع.

(٤) من صناديد قريش في الإسلام، كان هو وأبوه من أشد الناس على النبيّ، وأسلم في يوم الفتح فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر واستشهد سنة ١٥ هـ.

(٥) أحد فرسان العرب وأبطالهم شهد اليرموك، وكان شاعرًا فحلًا مات نحو ٤٠ هـ.

(٦) الاعترام: الاشتداد وفي حديث على «على حين فترة من الرسل واعتزام من الفتن».

(٧) الحلبة: جماعة الخيل، والوراد جمع ورد، وهو الفرس بين الكميت والأشقر.

(٨) البهكنة: الفتاة الغضة.

فأبلغوه خالدًا فأخبره خبر أبي بكر أسرَّه إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند؛ فقال: أحسنت فقِفْ؛ وأخذ الكتاب، وجعله في كِنَانَتِه؛ وخاف إنْ هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند؛ فوقف مَحْمِيَة بن زُنَيْم ـ وهو الرسول ـ مع خالد وخرج جَرَجَة[1] حتى كان بين الصفين، ونادى: لِيَخْرجْ إليّ خالد.

فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقَفَهُ بين الصفَّيْنِ حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد أمّن أحدهما صاحبه؛ فقال جَرَجَة: يا خالد؛ اصدقني ولا تكذبني فإن الْحُرّ لا يَكْذِبُ، ولا تُخادِعني فإن الكريم لا يُخَادع، هل أنزل الله على نبيّكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هَزَمْتَهم؟ قال: لا! قال: فيم سُمِّيتَ سيفَ الله؟ قال: إن الله عزّ وجلّ فينا نبيّه، فدعانا فَنَفَرْنا عنه؛ ونَأينا جميعًا؛ ثم إن بعضَنا صدّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذّبه، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده وقاتَله؛ ثم إنّ الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابَعْنَاه، فقال: أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه اللهُ على المشركين، ودعا لي بالنّصْر، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك؛ فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين، قال: صَدَقْتَنِي!

ثم أعاد عليه جَرَجَة: يا خالد؛ أخبرني إلَامَ تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله؛ قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالْجِزْيةُ ونمنعه! قال: فإن لم يُعْطِها؛ قال: نُؤْذِنه بحرب ثم نقاتله! قال: فما منزلةُ مَن يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شرِيفنا ووضِيعنا وأولنا وآخرنا.

ثم أعاد عليه جَرجَة: هل لمن دَخَل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذُّخْر؟ قال: نعم، وأفضل، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه! قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبيّنا وهو حيّ بين أظهرنا تأتيه أخبارُ السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسْلِمَ ويُبَايع، وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تَأَلَّفْني. قال: بالله لقد صدقتُك وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وَحْشة، وإن الله لوليُّ ما سألتَ عنه.

---

(١) جرجة: مقدم عسكر الروم يوم اليرموك.

فقال: صدقتني، وقلَب التُّرْسَ ومال مع خالد، وقال: علِّمني الإسلام؛ فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطه[١] فشنّ عليه قِرْبَةً من ماء وصلّى ركْعتين!

فِي يَوْم القَادِسِيّة[٢]

كان أبو مِحْجَن الثَّقَفيّ[٣] من المُعاقرين للخمر، المحدودين في شُرْبها، أقام عليه عمر بن الخطاب الحدَّ مرارًا، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرةٍ في البحر، وبَعثَ معه حَرَسيًّا[٤]، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حربَ القادسية.

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحبْسِه، فحبسه في القصر، وتطلَّع أبو مِحْجَن إلى الحرب، فرآها مُشْتَعِلةً، فذهب إلى سَلْمى بنت أبي حفص - زوج سعد، فقال لها: هل لكِ في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تُخَلِّينَ عني وتُعِيرينني البَلْقَاء[٥]؛ فَلِلَّهِ عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى تَضَعِي رِجْلي في قَيْدِي؛ فقالت: وما أنا وذاك؟ فرجع يرسُفُ في قُيُوده، ويقول:

كفى حَزَنًا أن تَرْدِيع الخيلُ بالقَنَا ... وأُتْـرَكَ مـشـدودًا عـليَّ وثـاقِـيـا
إذا قمتُ عنّانِي الحديد وغُلِّقَتْ ... مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المُنَاديا
وقـد كـنـتُ ذا مـال كـثـيـرٍ وإخْـوَةٍ ... فـقـد تـركـونـي واحـدًا لا أخَـالِيَـا
وقد شفّ جسمي أنني كلَّ شارقٍ[٦] ... أُعالج كَبْلًا[٧] مُصْمتًا قَدْ بَرَانِيَا
فـلله دَرِّي يـوم أُتْـرَكُ مُـوثـقًـا ... وتَـذْهَـلُ عـنـي أسْـرَتـي ورِجـالـيـا!
حَبِيسًا عن الحرب العَوَان وقد بدَتْ ... وإعـمـال غـيـري يـومَ ذاك الـعَـوَالـيَـا
ولله عـهـدٌ لا أخـيـسُ[٨] بـعـهـدِه ... لـئـن فرّجت ألّا أزورَ الـحـوَانـيـا[٩]

---

(١) الفسطاط: الخيمة.

(٢) مهذب الأغاني: ٢ - ٤٨، الخزانة: ٣ - ٥٥٣، الأغاني: ٢٠ - ١٣٨، الكامل لابن الأثير: ٢ - ٢٣٢، المسعودي: ١ - ٤٢٣.

(٣) أبو محجن اسمه وكنيته على المشهور، أسلم سنة ٩ هـ، وسمع من النبيّ ﷺ وروى عنه، وكان جوّادًا كريمًا من الفرسان المشهورين في الجاهلية والإسلام مات سنة ٤٠ هـ.

(٤) الحرسي: واحد حرس السلطان. (٥) البلقاء: فرس سعد بن أبي وقاص.

(٦) أصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٧) الكبل: القيد. (٨) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٩) الحانية: الدكان، وهو يريد أمكنة بيع الخمر.

فقالت له سَلْمَى: إني استَخَرْتُ الله ورضيتُ بعهدك، وأطلقَته.

فاقتاد أبو مِحْجَن الفرسَ، وأخرجها ثم ركبها، ودبّ عليها، وفي ذلك اليوم أظهر من شجاعته عَجَبًا. ولما تحاجزَ أهلُ العَسكرَين أقبل أبو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، وأعاد رجليه في القيد وقال:

لقد عَلِمَتْ ثقيف غيرَ فخرٍ … بأنّا نحنُ أكرمُهُمْ سيوفَا
وأكثرُهم دروعًا سابغات … وأصبرُهم إذا كَرِهوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فقد عرفوا بلائي … وإن أُطْلق أجرّعْهم حُتُوفا

فقالت له سَلْمى: يا أبا مِحْجَن؛ في أيّ شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام أكلْته ولا شربْتُه، ولكني كنتُ صاحبَ شراب في الجاهليّة؛ وأنا امرؤ شاعر، يدبّ الشعر على لساني، فينفِثُه أحيانًا، فحبسني لأني قلت:

إذا مِتّ فادفِنّي إلى أصلِ كَرْمةٍ … تروّى عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنَنّي بالفَلاة[1] فإنني … أخافُ إذا ما مِتُّ ألّا أذُوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر أبي مِحْجن، فدعا به وأطلقه، وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعَلَه؛ فقال: والله لا أجبت لساني إلى قبيح أبدًا.

فِي فَتح نِهَاوَند[2]

بعث عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه السائبَ بن الأقْرع مولى ثَقِيف، وكان رجلًا كاتبًا حاسبًا، فقال: الحق بهذا الجيش ـ جيش المسلمين بنِهَاوَند ـ فكن فيهم، فإن فتح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيئهم، وخذ خمسَ الله وخمس رسوله، وإنْ هذا الجيشُ أُصيب فاذهب في سَوَادِ الأرض فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائمَ عظامًا، فوالله إنّي لأقسِم بين الناس إذ جاءني عِلْج من أهلها، فقال: أتؤمّنني على نفسي وأهلي

(١) الفلاة: الأرض المهلكة.
(٢) الطبري: ٤ ـ ٢٣٢.

وأهل بيتي على أن أدلّك على كُنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يَشْرَكك فيها أحد؟ قلت: نعم! قال: فابعث معي من أدلّه عليها، فبعثت معه، فأتى بسَفَطيْنِ عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزَّبَرْجَدُ والياقوت.

فلمّا فرغت من قَسْمي بين الناس احتملتهما معي، ثم قدمتُ على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستُشهِد النعمان[1] بن مُقَرّن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم بكى فَنَشَجَ[2].

فلمّا رأيت ذلك قلت: والله يا أميرَ المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعْرَف وجهه!

ثم قام ليدخل، فقلت: إن معي مالًا عظيمًا قد جئتُ به، ثم أخبرتُه خبر السَّفَطين، فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك، فأدخلتهما بيت المال، وخرجت سريعًا إلى الكوفة.

وبات تلك الليلة التي خرجتُ فيها، فلما أصبح بعثَ في أَثَري رسولًا، فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة، فأَنَخْتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرْقُوبَيْ بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين؛ فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن! قلت: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟ قال: لا أدري والله.

فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه؛ فلما رآني قال: مالي ولابن أمّ السائب؟ بل ما لابن أم السائب ومالي؟ قلت: وماذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويْحَك! والله ما هو إلا نِمتُ في الليلة التي خرجتَ فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان نارًا، يقولون: لنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا أبا لك، والحق بهما فبعهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم!

فخرجتُ بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، فابتاعهما مني عمرو بن حُرَيث المخزوميّ بألفي درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف.

---

(١) صحابي فاتح من الأمراء القادة الشجعان، فتح القادسية، وولاه عمر إمرة الجيش فغزا أصبهان ففتحها، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١ هـ.

(٢) نشج الباكي: غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

عَمرُو بن العَاص وَأحدَ كفّار العَجَم[١]

لما فتح عمرو بن العاص قَيْسَارِيَة[٢] سار حتى نزل غزّة؛ فبعث إليه عِلْجُها[٣]: أن ابعثْ إليّ رجلًا من أصحابك أكلّمه؛ ففكّر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري.

فخرج حتى دخل على العِلْج فكلَّمه؛ فسمع كلامًا لم يسمعْ قطُّ مثله، فقال العِلْج: حدّثني؛ هل من أصحابك أحدٌ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا! إني هيّن عليهم؛ إذ بعثوا بي إليك، وعرّضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنعُ بي.

فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مرَّ بك فاضربْ عنقه، وخذ ما مَعَه.

فخرج من عنده؛ فمرّ برجل من نصارى غسّان، فعرفه، فقال: يا عمرو قد أحسنتَ الدخول فأحسن الخروج! ففَطِن عمرو لما أراده، فرجع! فقال له الملك: ما ردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني، فلم أجدْ ذلك يَسَعُ بني عمي، فأردت أن آتيكَ بعشرة منهم، تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفُك عند عشرة خيرًا من أن يكونَ عند واحد! فقال: صدقتَ، اعْجلْ بهم! وبعثَ إلى البواب: أنْ خلّ سبيله!

فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أَمِن، قال: لا عدتُ إلى مثلها أبدًا!

فلما صالحهُ عمرو ودخل عليه العِلْج، قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غَدْرك!

عُمَر بن الخطّاب وَغَنائِم المسْلِمين[٤]

بعث عُمَرُ سلمة بن قيس الأشْجَعيّ إلى طائفةٍ من الأكراد كانوا على الشِّرْك؛ فخرج إليهم في جيش أَرْسَلَهُ معه من المدينة.

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجِزْية، فأبَوْا، فقاتلهم فنصره اللهُ عليهم؛ فقتل المقاتلة؛ وسَبَى الذُّرِّية، ووجد حِلْيَةً وفصوصًا وجواهر،

---

(١) العقد الفريد: ٢ ـ ١٤٦.
(٢) بلدة بفلسطين.
(٣) العلج: الرجل من كفار العجم.
(٤) ابن أبي الحديد: ٣:١٥٧.

فقال لأصحابه: أتطيبُ أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؛ فإنه غيرُ صالحٍ لكم، إنَّ على أمير المؤمنين لمؤونةً وأثقالًا، قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا.

فجعل الجواهر في سَفَط[١]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سِرْ فإذا أتيتَ البَصْرَة فاشتر راحلتين فأوْقِرْهما[٢] زادًا لك ولغلامك، وسِرْ إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت فأتيتُ عمر وهو يُغَذِّي الناس قائمًا متكئًا على عصا كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع؛ فيقول: يا يَرْفأ[٣]، زِدْ هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء خُبْزًا، زد هؤلاء مَرَقة.

فجلستُ في أَدْنى الناس، فإذا طعامٌ فيه خُشُونة، طعامي الذي معي أطيبُ منه. فلما فرغ أَدْبَرَ فاتّبعْتُهُ، فدخل دارًا فاستأذنت، ولم أُعلِم حاجبه من أنا، فأذن لي، فوجدته في صُفَّةٍ[٤] جالسًا على مِسْحٍ[٥] متكئًا على وسادتين من أدَم[٦] محشوّتين ليفًا، وعليه سِتْر من صوف، فنبذ إليّ إحدى الوسادتين، فجلست عليهما.

فقال: يا أُمَّ كلثوم، ألا تُغدُّوننا؟ فأخرجت إليه خُبْزة[٧] بزيت في عَرْضها مِلْحٌ لم يُدَق، فقال: يا أمَّ كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا؟ فقالت: إني أسمعُ عندك حِس[٨] رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد. فقالت: لو أردتَ أن أخرجَ إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبيرُ امرأته، وكما كسا طلحةُ امرأته!

قال: أو ما يكفيك أنك أمُّ كلثوم ابنةُ عليّ بن أبي طالب، وزوجةُ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب؟ قالت: إن ذاك عندي لقليل الغناء! ثم قال: كُلْ، فلو كانت راضيةً لأطعَمَتْك أطْيَبَ من هذا. فأكلتُ قليلًا، وطعامي الذي معي أطيبُ منه. وأكل، فما رأيت أحدًا أحسنَ أكْلا منه، ما يَتَلَبَّثُ[٩] طعامُه بيده ولا فمه.

---

(١) السفط: كالجوالق أو كالقفة، جمعه أسفاط. (٢) أوقر الدابة: حملها.
(٣) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب. (٤) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع.
(٥) المسح: ثوب من الشعر غليظ. (٦) الأدم: جمع للأديم: وهو الجلد.
(٧) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج، والملة: الرماد والتراب الذي أوقد فيه النار.
(٨) الحس: الصوت الخفي. (٩) لا يتوقف.

ثم قال: اسْقونا؛ فجاءوا بعُسٍّ[١] من سُلْتٍ[٢]، فقال: اشْرَبْ، فشربتُ قليلًا، وإنَّ سَوِيقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدحُ جبهتَه.

ثم قال: الحمدُ لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأَرْوَانا؛ إنّك يا هذا لضعيف الأكل ضعيفُ الشرب.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن لي حاجة، قال: ما حاجتك! قلت: أنا رسول سلمة بن قيس قال: مرحبًا بسلمة ورسولِه، فكأنما خرجت من صُلْبِهِ ـ حَدِّثْني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحبُّ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ من السلامة والظفَر والنَّصر على عدوهم. قال: كيف أسعارُهم؟ قلت: أرخص أسعار؛ قال: كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها؟ قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا. ثم قلت: سِرْنا يا أمير المؤمنين حتى لقِينا عدوَّنا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي أمرتَ به من الإسلام فأبَوْا، فدعوناهم إلى الخَرَاج فأبَوْا؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقَتَلْنَا المقاتِلَة، وسبينا الذُّرِّية، وجمعنا الثروة، فرأى سلمة في الأموال حِلْيَةً، فقال للناس: أتطيبُ أنفسكم أن أبعثَ بها إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم! ثم استجرتُ سَفَطي ففتحتُه.

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحًا عاليًا ويقول: لا أشبع اللهُ إذنْ بطنَ عمر ـ يُكَرِّرُها!

فظنَّ النساء أني جئت لأغتَاله، فجئنَ إلى الستر فكشَفْنَه، فسمعنه يقول: لفَّ ما جئتَ به؛ يا يَرْفأ، جَأْ عنقه[٣]! فأنا أصلح سَفَطِي، ويرفأ يَجَأُ عنقي!

ثم قال: النجاء النَّجاء! قلت: يا أميرَ المؤمنين فاحملني! فقال: يا يرفأ، أَعْطِه راحلتين من إبلِ الصدقة، فإذا لقيتَ أحدًا أفقر إليهما منك فادفعهما إليه.

وقال: أظنك سَتُبْطِيء، أما والله لئن تفرَّق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يُقَسَّمَ هذا فيهم لأفعلنَّ بك وبصاحبك الفَاقِرَة[٤]!

---

(١) العس: القدح العظيم.
(٢) السلت: الشعير.
(٣) وجأت عنقه: ضربته.
(٤) الفاقرة: الداهية.

قال: فارتحلتُ حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس، فقلت: لا بارك الله فيما اخْتَصَصْتَنِي به! اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإيَّاك فَاقِرة، فقسّمه فيهم، فكان الفصُّ يُبَاعُ بخمسة دراهم وبستّة وهو خير من عشرين ألفًا.

عِنــدَ مَلك الصّين[١]

أوْغَل قُتَيْبَة[٢] بن مسلم حتى قَرُب من الصين. فكتب إليه ملكُ الصين. أن ابعث إلينا رجلًا من أشرَف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ونُسَائله عن دينكم.

فانتخب قُتَيْبَةُ من عسكره اثني عشر رجلًا، لهم جمال وأجسام وأُلْسُن وشعور وبأس، فكلّمهم قتيبة وفَاطَنهم[٣]، فرأى عقولًا وجمالًا؛ فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الوَشْي والرقيق والنعال والعطر، وحملهم على خيول مُطَهّمة تقَادُ معهم ودوابّ يركبونها.

وكان هُبيرة[٤] بن المُشَمْرَج الكلابيّ مفوّهًا، فقال له: يا هُبيرةُ؛ ماذا أنت صانع؟ قال: أصلح الله الإمير! قلْ ما شئت أَقُلْهُ وآخذ به؛ قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألّا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأجْبي خراجهم.

فساروا عليهم هبيرة بن المُشَمْرَج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، دخلوا الحمّام ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضًا تحتها الغَلائل، ثم مسوا الغالية[٥]، ولبسوا النّعال والأردية، ودخلوا عليه، وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلمهم هو ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا.

فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قومًا ما هم إلّا نساء، ما بقي منا أحدٌ حين رآهم إلا وجد رائحتهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨ ـ ١٠٠.

(٢) أمير فاتح من رجال العرب، اتصل بالوليد بن عبد الملك فولّاه خراسان، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٩٦ هـ.

(٣) فاطنه في الكلام: راجعه.

(٤) كان مع قتيبة حين غزا الصين وتوفي بفارس سنة ٩٦ هـ.

(٥) الغالية: الطيب.

فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوَشْيَ وعمائم الخزّ والمَطَارف[١]، وغَدَوْا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أَشبهُ بهيئة الرجال.

فلما كان اليومُ الثالث أرسل إليهم فشدّوا عليهم سلاحهم، ولبسوا البَيْضَ والمغَافر[٢]، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكَّبُوا[٣] القسيَّ، ورَكبوا خيولهم وغدوا! فنظر إليهم صاحبُ الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلةً، فلما دنوْا رَكَزُوا رماحهم، ثم أقبلوا مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لما دخل قلوبهم من خوفهم.

فانصرفوا فركبوا خيولهم وَحملوا رماحهم، ثم دفعوا خير لهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف تَرَوْنهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط!

فلما أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم، بعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتُم عظيمَ ملكي، وأنه ليس أحدٌ يمكنكم مني وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضَة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم. قال: سَلْ، قال: لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزّي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال: أما زيّنا الأول فلبَاسُنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومُنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدوّنا، فإذا هاجنا هَيْجٌ وفَزَعٌ كنا هكذا. قال: ما أحسن ما دَبَّرْتم دَهْرَكم! فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف؛ فإني قد عرفتُ حِرْصَه وقِلّةَ أصحابه، وإلا بعثتُ عليكم مَنْ يهلككم ويهلكهُ.

قال له: كيف يكون قليلَ الأصحاب مَن أولُ خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصًا من خلَّف الدنيا قادرًا عليها وغَزَاك؟ وأمَّا تخويفُك إيانا بالقتل فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكْرمُها القتل، فلسنا نكرهُه ولا نخافُه.

---

(١) المطرف: رداء من خز مربع ذو أعلام، وجمعه مطارف.

(٢) البيضة: الخوزة، وجمعه بيض، والمغافر: جمع مفغر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٣) تنكب قوسه: ألقاه على منكبه.

قال: فما الذي يُرْضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويُعطي الجزْية. قال: فإنا نخرجه من يمينه ونبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فَيطؤُه، ونبعث إليه بجِزْية يرضاها؛ ثم دعا بِصِحَاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب، ثم جزاهم فأحسن جوائزهم؛ فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قُتَيْبَة الْجِزْية وَوَطِيء التراب.

إنّــك إبنِي[1]

قال رجل من أهل الكوفة: كنا مع مَسْلمة[2] بن عبد الملك ببلاد الرّوم، فسبى سَبْيًا كثيرًا، وأقام ببعض المنازل، فعرض السَّبْي على السيف، فقتل خَلْقًا كثيرًا، حتى عرض عليه شيخٌ ضعيف، فأمر بقتله.

فقال: ما حاجتك إلى قَتْلِ شيخ مِثْلي؛ إن تركتني جئتُك بأسيرين من المسلمين شابين. فقال: ومَنْ لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدتُ أوفيتُ. قال: لستُ أَثِق بك. قال: فدَعْني أطوفُ في عسكرك، لعلي أعرفُ من يكْفلُني إلى أن أمضي وأَجِيء بالأسيرين. فوكلَ به مَن طاف معه في عسكره، والاحتفاظ به.

فما زال الشيخ يطُوف ويتصفَّحُ الوجوه، حتى مرَّ بفتى من بني كلاب قائمًا يحسّن فرسه، فقال: يا فتى، اضمنّي من الأمير؛ وقصَّ عليه قصته. قال: أفعل.

وجاء الفتى معه إلى مَسْلَمة فضمنه، فأطلقه مسلمة. فلما مضى قال: أتعرفه؟ قال: لا والله. قال: ولِمَ ضمنته؟ قال: رأيته يتصفح الوجوه، فاختارني من بينهم، وكرهت أن أُخْلِفَ ظنه.

فلما كان من الغد عاد الشيخُ، ومعه أسيران من المسلمين شابان، دفعهما إلى مسلمة وقال: يأذَنُ الأمير في هذا الفتى أن يصيرَ معي إلى حِصْني لأكافئه على فعله معي. قال مسلمة: إن شئتَ فامْض معه.

فلما مضى وصار معه إلى حِصْنِه، قال له: تعلم والله يا فتى أنك ابني؟ قال: وكيف أكونُ ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت من الروم نصراني؟

(١) الفرج بعد الشدة: ١ ـ ٨٢.

(٢) أمير قائد من أبطال عصره، ولاه أخوه يزيد إمرة العراقين، ثم أرمينية، ومات بالشام سنة ١٣٠ هـ.

قال: أخبرني عن أمك مَنْ هي؟ قال: رومية. قال: فإني أصفُها لك، فبالله إن صدقتُ إلا صدقتني. قال: أفعل.

فأقبل الروميّ يصفُ أمه ما خرم من صفتها شيئًا. فقال: هي كذلك فكيف عرفت أني ابنها؟ قال: بالشبه وتَعَارُفِ الأرواح وصِدْق الفراسة. ثم أخرج إليه امرأة. فلما رآها الفتى لم يشكّ في أنها أمه لشدة شبَهها بها، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلْنَ يُقَبّلْنَ رأس الفتى، فقال له الشيخ: هذه جدتك، وهذه خالتك.

ثم خرج من حِصْنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا فكلمهم بالرومية، فجعلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه ورجليه، فقال: هؤلاء أخوالك وبنو خالتك، وبنو عم والدتك؛ ثم أخرج إليه جلَبًا[1] كثيرًا وثيابًا فاخرة؛ فقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيت، فخذه معك، فادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالًا كثيرًا، وثيابًا جليلة، وحمله على عدة دواب وبغال وألْحَقَه بعسكر مسلمة وانصرف.

فأقبلَ الفتى قافلًا حتى دخل منزله، فأقبل يخرج الشيءَ بعد الشيء مما عرّفه الشيخ أنه لأمّه، فتراه فتبكي، فيقول لها: قد وهبته لك!

فلما أكثر هذا عليها، قالت: يا بنيّ؛ أسألك بالله؛ من أي بلد صارت إليك هذه الثياب؟ وهل قتلتم أحدًا من أهل هذا الْحِصْن الذي كان هذا فيه؟ فقال لها الفتى: صفةُ الحصن كذا وكذا، وصفةُ البلد كذا وكذا، ورأيت فيه قومًا من حالهم كذا وكذا، ووصف لها أمها وأختها وأولادهما وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله أبي، والعجوز أمي، وتلك أختي! فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقيةَ ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه، فدفعه لها.

ذكر الجُبْن والجبناء وما جاء عنهم

استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

---

(١) الجلب: كل ما جلب من خيل أو غيرها.

نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذبابة، إذا نظر إليه شزرًا أغمي عليه شهرًا يحسب خفوق الرياح قعقعة السلاح.

قال الشاعر:

إذا صوّت العصفورُ طارَ فؤادُهُ ولَيثٌ حديدُ النابِ عند الثرائد[1]

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء، رُوِيَ عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت[2] صفية، ثم أخذت عمودًا ونزلت من الحصن، فضربته بالعمود حتى قتلته، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

ضرط وغشي عليه خوفًا من الفأرة

وقيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حبًّا شديدًا، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريبًا منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبسه، وكان الفتى جميلًا، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف.

فباتت معه ليلتها وهربت بغلس[3] فأصبح لا يدري أين هي، وبلغ الحجاج ذلك، فأمر مناديًا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أو

(١) الثرائد: جمع ثريد طعام من خبز مبلول بمرق.
(٢) اعتجرت: أي تسترت. (٣) غلس: ظلام.

لم يحضرها، فلم يلبث أن أُتي له بها، فقال لها الحجاج: ياعدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليَّ، فاخترت ابن عمي شابًا حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت يا سيدي: اسمع قصتي، ثم اصنع بي ما شئت. قال: هاتي ولا تخفي شيئًا.

قالت: كنت للفتى القرشي، فاحتاج إلى ثمني، فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليَّ، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل عليَّ وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليَّ، فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف، فضرط، ثم غشي عليه، فمكث زمانًا طويلًا وأنا أرش عليه الماء، وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتتهمني به، فهربت فزعًا منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدًا. قالت: على أن لا تردني إليه. قال: لك ذلك.

الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا

وحدث جار لأبي حنيفة النميري قال: كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حسًّا في داره، وهو يقول: أيها المغتر بنا المجترىء علينا بئس، والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية الذي سمعت به. أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا.

قبح الله الجبان

وخرج المعتصم يومًا إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه: أفيك خيرًا يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان.

سُمّي الإسكندر

ورأى الإسكندر سميًا له لا يزال ينهزم، فقال له: يا رجل إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك. ووقع في بعض العساكر ضجة، فوثب خراساني إلى

دابته ليلجمها، فصيّر اللجام في الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

جُبْن أسلم بن زرعة

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس، وكان مرداس في أربعين، فانهزم أسلم منه، فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبي زياد، فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حيًّا أحب أليَّ من أن يمدحني ميتًا. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبي زياد، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفي ذلك يقول بعضهم شعرًا:

يقول جبانُ القومِ في حال سكرهِ — وقد شرب الصهباء هل من مبارزِ
وأين الخيول الأعوجيات في الوغى — أنازل منهم كلّ ليثٍ مناهز[1]
ففي السكر قيسٌ وابن معدي وعامر — وفي الصحو تلقاء كبعض العجائزِ

(١) الأعوجيات: نوع من جياد الخيل.

فهرس المحتويات

الباب الثامن
قصص المغنِّين والمغنِّيات

الباب التاسع
قصص نساء العرب

الباب العاشر

الباب الحادي عشر
قصص الجن والشياطين

الباب الثاني عشر

قصص شجان العرب وفرسانهم